محاضرات

تاريخ الأمم الإسلامية

الدولة العباسية

تأليف المرحوم
الشيخ محمد الخضري بك المفتش بوزارة المعارف
ومدرس التاريخ الإسلامي بالجامعة المصرية

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

الطبعة الرابعة : سنة ١٣٥٣ هـ — سنة ١٩٣٤ م

مطبعة الاستقامة

/ه/

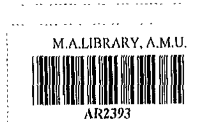
إلى صاحب السمو الأمير احمد فؤاد بن إسماعيل (١)

مولاى :

إن ماتفضلت به من كلماتك المشجعة حدابى إلى السير قُدُما فى إظهار ما ألقيه من محاضرات التاريخ بالجامعة المصرية وأرجو أن أكون قد وفقت لتحقيق شىء من رغباتكم العالية فى كتابة التاريخ الإسلامى. وإذا ساعدنى حسن حظى لحازت هذه المجموعة رضا سموكم شجعنى ذلك على إظهار ما يليها من تاريخ مصر الذى كان جدكم ساكن الجنان تغمده الله برحمته واسطة العقد بين مؤسسى دوله الإسلامية .

ولكتابى هذا حق الفخر بظهوره فى عهد محب العلم ومشيد أركانه صاحب العظمة السلطان حسين كامل الأول سلطان مصر سدد الله خطاه وأناله رغباته فى أمته ؟

محمد الخضرى



(١) اعتلى سموه عرش مصر فى ٢٢ ذى الحجة سنة ١٣٣٥ هـ — ٩ اكتوبر سنة ١٩١٧ ونودى به سلطانا بعنوان صاحب العظمة السلطان فؤاد الأول
وقد آثرنا العنوان الذى رسمناه وقت أن طبع الكتاب المرة الأولى ليعلم قراء التاريخ أن حب سموه للعلم وهو أمير كحب عظمته للعلم وهو سلطان . أدام الله له التوفيق وسدد خطاه وأقر عينه بولى عهده آمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد حمد الله فانى أقدم للمشتغلين بالتاريخ مجموعة محاضراتى الثانية فى تاريخ الأمم الاسلامية وهى تنتظم تاريخ الدولة العباسية السياسى فى المشرق . والتاريخ العباسى جزء عظيم من تاريخ المسلمين يبتدئ من سنة ١٣٢ إلى سنة ٦٥٦ أى ٥٢٤ سنة وقد بقى بينهم بعد ذلك له اسم الخلافة بمصر إلى سنة ٩٢٣ ولكنى لم أسر معهم من العراق إلى مصر وأبقيت تصاريف أحوالهم هناك إلى تاريخ مصر لما بين التاريخين من الارتباط وقد بذلت جهدى فى تصوير حالهم السياسى من مبتدإ خلافتهم على أيدى دعاتهم بخراسان والعراق إلى منتهاها على يد هولاكوخان المغولى حفيد جنكيزخان . بينت تلك الحال فى أدوار الدولة المختلفة من قوة وضعف مع توضيح الأسباب التى رفعت هذه الدولة إلى الذروة العليا من سعة الملك ونفوذ الكلمة والأسباب التى نزلت بها إلى الحضيض من ضيق رقعة الملك وسقوط الهيبة وضعف النفوذ وقد ختمت الحديث عنها بفصل فيه إجمال تلك الأسباب

وتركت تاريخها العلمى لما رأيت من جعل ذلك فى محاضرات خاصة تنتظم تاريخ الاسلام العلمى كله لارتباط بعضه ببعض ولعدم اتباع الحركة العلمية لقوة بنى العباس السياسية فقد كانت الدولة العباسية فى عهد آل سلجوق فى حال ضعف سياسى شديد لأن الخلفاء لم يكن لهم إذ ذاك إلا الاسم ومع ذلك فقد كانت الحركة العلمية قوية .

وإنى أعد قراء كتابى هذا بمجموعة محاضرات الحركة العلمية فى البلاد الاسلامية وأرجو من الله التوفيق

وقد كانت الأقاليم الاسلامية فى عهد الدولة العباسية ميدانا عظيما للأفراد الذين ينتمون إلى بيوت قديمة المجد والأفراد العصاميين يتسابقون إلى التغلب عليها من بلاد الأندلس غربا إلى بلاد الترك والهند شرقا . فكم من دول قامت وعظمت مدنيتها ثم انتهت بغلبة غيرها عليها ومن هذه الدول من كان يقوم باسم الملك تاركا اسم الخلافة

لبنى العباس ومنهم من كان يقوم باسم الملك والخلافة جميعا كالدولة الأموية بالأندلس والادريسية بالمغرب الأقصى والفاطمية بأفريقية ومصر والزيدية بطبرستان . فرأيت من الواجب أن أذكر مع كل خليفة عباسى من كان فى عصره متغلبا على أى إقليم من الأقاليم الاسلامية وإذا ابتدأت دولة فى عهد خليفة ذكرت عنها جملة مختصرة تبين كيف نشأت والمدة التى قامت فيها وثبت ملوكها وقصدت بذلك أن تكون الرقعة الاسلامية كلها واضحة الصورة فى جميع العصور . وقد ألممت فى أكثر الأحيان بذكر الملوك المعاصرين فى أوروبا . ولاسيما الذين كانت لهم صلات بالدول المشرقية فى عهد الدولة العباسية كملوك الروم بالقسطنطينية وملوك فرنسا . ومما عنيت به أحوال البيت العلوى الذى ظل ينافس العباسيين من بدء دولتهم إلى سقوطها وقد كانوا من أكبر الأسباب فى ضعف العباسيين وجرأة المخالفين لهم على خلافهم . فذكرت أحوال طوائفهم الكبرى الثلاث وهى الزيدية والامامية الاثنا عشرية والامامية الاسماعلية وما قامت به كل طائفة من الرجة فى أنحاء العالم الاسلامى

وإنى أظن أن هذه المجموعة على صغر حجمها قد سدت حاجة كان المشتغلون بالتاريخ الاسلامى يشعرون بها وارجو من الله التوفيق لاتمام سلسلة هذا التاريخ إنه نعم المعين .

الدولة العباسـية

البيت العباسى

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بقى عقبه من كثير من أولاده ولكن العدد الأكبر والجمهور العظيم كان من ولديه العباس وأبى طالب فقد ملأ بنوهما السهول والحزون من الأقاليم الاسلامية من أقصى حجر فى بلاد المغرب إلى بلاد ماوراء النهر فى أواسط آسيا

ولكل من البيتين تاريخ جليل بين تاريخ الأمم الاسلامية ونحن الآن شارعون فى تاريخ البيت الأول

العباس بن عبد المطلب

أمه نتيلة بنت جناب بن كليب من النمر بن قاسط إحدى قبائل ربيعة بن نزار . ولد قبل حادث الفيل بثلاث سنين فهو أسن من رسول الله ﷺ بثلاث سنين

كان العباس من سادات بنى هاشم وعقلائهم وكان صديقا وفيا لأبى سفيان صخر ابن حرب . لما جاء الاسلام كان من المخلصين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإن لم يظهر متابعته . وكان هو الذى تولى إحكام الأمر لرسول الله مع الأنصار حين الهجرة فقد قال لهم فى ليلة البيعة يامعشر الخزرج إنكم قد دعوتم محمدا إلى مادعوتموه اليه ومحمد من أعز الناس فى عشيرته يمنعه والله من كان منا على قوله ومن لم يكن منا على قوله منعة للحسب والشرف وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم فان كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة فانها سترميكم عن قوس واحدة فارتؤا رأيكم وأتمروا أمركم ولا تفترقوا إلا عن ملأ منكم واجتماع فان أحسن الحديث أصدقه — وأخرى صفوا إلى الحرب كيف تقاتلون عدوكم قال فأسكت القوم وتكلم عبد الله بن عمرو بن حرام فقال نحن والله أهل الحرب غذينا بها ومرناعليها وورثناها عن آبائنا كابرا عن كابر نرمى بالنبل حتى تفنى ثم نطاعن بالرماح حتى تكسر ثم نمشى بالسيوف فنضارب بها حتى يموت الأعجل منا أومن عدونا . فقال العباس أنتم أصحاب حرب فهل فيكم دروع . قالوا نعم شاملة — وقال البراء بن معرور قد سمعنا ماقلت

إنا والله لو كان فى أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم . وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ثم دعاهم إلى الله ورغبهم فى الاسلام وذكر الذى اجتمعوا له فأجاب البراء بن معرور بالايمان والتصديق فبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك : والعباس بن عبد المطلب آخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكد له البيعة تلك الليلة على الأنصار

ولما خرجت قريش إلى بدر أخرج العباس وبنو أخيه إليها كرها . ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه يوم بدر من لقى منكم العباس وطالبا وعقيلا ونوفلا وأباسفيان فلا تقتلوهم . فانهم أخرجوا مكرهين . وكان العباس فى جملة أسرى بدر ففدى نفسه وفدى عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحرث بن عبد المطلب ثم رجع وأقام بمكة وكان مقامه بها أنه كان لا يخفى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خبرا يكون إلا كتب به إليه وكان من هناك من المؤمنين يتقوون به ويصيرون اليه وكان لهم عونا على إسلامهم ولقد كان يطلب أن يقدم على النبى صلى الله عليه وسلم فكتب اليه عليه السلام إن مقامكم مجاهد حسن فأقام بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهاجر إلى المدينة قبيل الفتح وحضر معه فتح مكة وكان سببا فى نجاة أبى سفيان وفى تشريفه بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » وحضر غزوة حنين وكان له فيها أحسن بلاء ثم خرج إلى المدينة فأقام بها

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبه ويكرمه وعلى ذلك جرى الخلفاء من بعده وكانت وفاته فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من رجب سنة ٣٢ وهو ابن ثمان وثمانين سنة ودفن بالبقيع

وأعقب من الولد الفضل وهو أكبر أولاده وبه كان يكنى وعبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن وقثم ومعبد وأم حبيبة أمهم جميعاً لبابة بنت الحارث بن حزن من بنى هلال بن عامر من قيس عيلان وفى ولد أم الفضل هؤلاء من العباس يقول عبد الله ابن يزيد الهلالى

ما ولدت نجيبة من فحل   بجبل نعلمه أو سهل
كستة من بطن أم الفضل   أكرم بها من كهلة وكهل

وكان للعباس من غيرها كثير بن العباس وتمام وصفية وأميمة وأمهم أم ولد

والحارث وأمه جميلة بنت جندب من هذيل . وليس للفضل وعبدالرحمن وقثم وكثير وتمام عقب . وعقب العباس من سواهم . ولاسيما من عبدالله فانه هو الذى انتشر منه عقب العباس وهو جد الخلفاء العباسيين

عبد الله بن العباس

هو ثانى ولد العباس بن عبدالمطلب ولد قبل الهجرة بسنتين فكانت سنه حين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة وكان عليه السلام يحبه ودعاله فقال «اللهم علمه التأويل» فكان رضى الله عنه أعلم الناس بآيات القرآن وتأويلها والفقه فى الدين على ما أوتيه من لسان طلق ذلق غواص على موضع الحجة وكان عمر رضى الله عنه يحبه ويدخله مع كبار الصحابة فى مجلس شوراه الخاص ويستفتيه فى كثير من المسائل على صغر سنه . وولاه عثمان الموسم سنة ٣٥ من الهجرة وهو محصور فأقام الموسم ولما بويع على رضى الله عنه بالخلافة كان له عضدا ونصيرا فى حروبه كلها وولاه البصرة وأعمالها ويقال إنه انحرف عنه فى أواخر أيامه وترك البصرة ورحل إلى مكة فأقام بالطائف وقيل إن ذلك كان بعد مقتل على

ظل ابن عباس مقيما فى الطائف حياة معاوية كلها وكان معاوية يجله ويتودد إليه كثيراً كما كان يفعل مع سائر بنى هاشم وكانت وفاته سنة ٦٨ وعبدالله هو الذى نما من نسله البيت العباسى لأن إخوته لم يكن لهم نسل باق وعقب عبدالله الذى نما إنما هو من ولده على بن عبد الله بن عباس

على بن عبد الله بن عباس

أمه زرعة بنت مشرح بن معديكرب من كندة ولد ليلة قتل على بن أبى طالب سنة ٤٠ من الهجرة فسمى باسمه وكنى بكنيته أبى الحسن وهو أصغر أولاد أبيه وكان سيدا شريفاً بليغاً ويقال كان أجمل قرشى على وجه الأرض وأوسمهم وأكثرهم صلاة وكان مفرطاً فى الطول إذا طاف فكأنما الناس حوله مشاة وهو راكب من طوله . وقد أقطعه بنو أمية قرية اسمها الحميمة بالشراة (وهى صقع بالشام فى طريق المدينة من دمشق بالقرب من الشوبك وهو من أقليم البلقاء) فأقام بها وفيها ولد أكثر أولاده وكانت وفاته سنة ١١٧

وأعقب على اثنين وعشرين ولدا ذكرا وإحدى عشرة أنثى . وذكور أولاده هم محمد وداود وعيسى وسليمان وصالح وأحمد وبشر ومبشر واسماعيل وعبد الصمد وعبد الله الأكبر وعبيدالله وعبد الملك وعثمان وعبدالرحمن وعبدالله الأصغر ويحيى وإسحاق ويعقوب وعبد العزيز وإسماعيل الأصغر وعبد الله الأوسط . ستة منهم لاعقب لهم والباقون أعقبوا كثيراً ومنهم انتشر البيت العباسى وكثر جدا . وبيت الخلافة فى محمد أكبر أولاده

محمد بن على

هو والد إبراهيم الامام وأبى العباس السفاح وأبى جعفر المنصور الذين هم مبدأ الخلافة العباسية وهو الذى ابتدأت الدعوة على يديه وكان ذلك فى حياة أبيه على ولكن لم يكن لأبيه ذكر فى هذه الدعوة

وحيث قد ذكرنا هذا البيت الرفيع العماد فلنشرع فى بيان كيف وجدت فكرة الخلافة عند العباسيين وكيف كانت الدعوة إليهم وكيف تمكنوا من قلب الدولة الأموية والحلول محلها

كيف نشأت فكرة الخلافة فى بنى العباس

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس يؤثر عنه خبر مكشوف فيمن يتولى خلافة المسلمين بعده وكان العباس بن عبد المطلب قد أشار على على بن أبى طالب أن يدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض فيسأله عن الخلافة بعده فان كانت فيهم وإلا أوصى بهم من سيكون خليفة فامتنع من ذلك على قائلا إنه إن منعنا إياها لاتنالها أبدا

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم والحال ماذكرنا فمال الجمهور الاسلامى إلى مبايعة أبى بكر الصديق رضى الله عنه بعد المناظرات التى جرت بين المهاجرين والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة وكانت هناك فئة قليلة تميل إلى أن تكون الخلافة فى بنى هاشم رهط النبى الأدنين . ولم يكن فيهم من أعمامه إلا العباس بن عبد المطلب

وكان من بنى أعمامه جماعة رأسهم وذو الفضل والسابقة فيهم على بن أبى طالب . ومع أن العباس كان فى ذلك الوقت أسن بنى هاشم لم يكن من هذه الفئة القليلة من يقدمه على على بن أبى طالب لما لعلى من المزايا الكثيرة التى بيناها فيما سبق . وكان على نفسه يرى أنه أحق الناس أن يكون خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذلك كانت ترى فاطمة زوجه . ومن أجل ذلك امتنع عن مبايعة أبى بكر مدة حياة فاطمة رضى الله عنها فلما ماتت دخل فيما دخل فيه الجمهور وبايع أبا بكر على ملأ من الناس

عاش على والعباس فى عهد أبى بكر ثم بايعا عمر لما عهد اليه أبو بكر بالخلافة وظلا مدة حياته محترمين مطيعين . إلى أن استخلف ثالث الخلفاء عثمان بن عفان بعد مناظرات طويلة بين رجال الشورى الذين عهد اليهم عمر اختيار الخليفة من بعده وكان على يرى أن رجال الشورى اتبع كثير منهم هواه فى العدول عنه

وفى أواخر خلافة عثمان توفى العباس بن عبد المطلب تاركا عَقِباً كثيرا أشهرهم عبد الله بن عباس وهو ثانى أولاده ولم يعلم أن أحدا منهم كان يتطلع الى الخلافة أو يأمل أن تكون له أو لأحد من أولاده

بعد مضى ست سنوات من خلافة عثمان وجدت حركة فى بعض النفوس تتجه الى نقل الخلافة من عثمان بن عفان إلى على بن أبى طالب وقام بأمر ذلك دعاة انتشروا فى الأمصار الاسلامية الكبرى وهى الكوفة والبصرة والفسطاط وتذرعوا الى ذلك بالعيب فى ولاة عثمان والطعن فيهم بأعمال زعموهم ارتكبوها وكان من فى مصر يكتب إلى من فى المصر الآخر بما عندهم من ذلك فيشيعونه بين الناس فيقول الناس أما نحن ففى عافية مما ابتلى به هؤلاء وجميعهم يكتبون إلى ناس فى المدينة بمثل ذلك حتى ملؤا البلاد طعنا . ولما وجدوا لذلك ارتياحا من بعض النفوس انتقلوا من ذلك إلى الطعن فى عثمان نفسه فنسبوا إليه أمورا منها ماهو غير صحيح . ومنها ماهو صحيح وقد فعل أسلافه مثله فلم يقدر أن يطعن فيهم طاعن وساعدهم لين عثمان وخوفه من فتح أبواب الفتنة على ماقصدوا إليه

ألفت وفود من غوغاء الأمصار الثلاث ممن تأثر بهذه الفتن فذهبت إلى المدينة وهى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاضرة الاسلام الكبرى ومقر الخلافة

الاسلامية متظاهرين ببث شكواهم من عمال عثمان فأشكاهم عثمان من جميع ماشكوا منه ولان لهم جدا حتى لايوجد لهم سبيلا إلى الفتنة فأظهروا الاقتناع وأزمعوا الرحيل إلى أوطانهم وسار كل وفد فى الطريق التى توصله إلى مصره وبعد أيام عادت هذه الغوغاء متمسكة بكتاب مزور زعموه صادرا من عثمان إلى عامله بمصر يأمره فيه بقتل رجال الوفد من المصريين عقابا لهم وتنكيلا والكتاب مختوم بخاتم عثمان فلما أروه إياه حلف لهم أنه ما كتبه ولا أمر بكتابته وهو صادق فى يمينه فاتهموا بذلك كاتبه مروان بن الحكم وطلبوا منه أن يسلمهم إياه فأبى فأعلنوا العداء وصرحوا بما فى أنفسهم من الشر وحصروا عثمان فى داره مدة ثم اقتحموا عليه داره وقتلوه ظلما وعدوانا ففتحوا على المسلمين باب فتنة وانقسام لايغلقه مرور الزمان ولا كر الأيام .

بعد أن تم لهم ما أرادوا عرضوا الخلافة على على بن أبى طالب فقبلها بعد تردد . أمضى رحمه الله حياته فى حرب مخالفيه فى البصرة والنهروان وصفين ولم تصف له الخلافة يوما واحدا إلى أن اغتاله أحد الخوارج فى رمضان سنة ٤٠ من الهجرة فى حاضرة خلافته وهى الكوفة

كان الجمهور الاسلامى فى ذلك الوقت قد انضم إلى خصمه معاوية بن أبى سفيان حيث كان فى بيعته أهل الشام الذين هم أنصاره وأهل الحجاز واليمن ومصر . أما الكوفة فكانت مقرا لشيعة على ومحبيه الذين كان منهم من يرى تفضيله لاعلى خصمه معاوية فقط بل على من سبقه من الخلفاء أيضا . ومع هذا فانه لم ينل منهم مايناسب تلك العقيدة من الطاعة والاخلاص بل كثيرا ما أهملوا أوامره التى كان يصدرها إليهم من جهة الاستعداد لحرب أهل الشام . ولذلك أسباب لسنا بصدد بيانها الآن

لما قتل رحمه الله رأت الشيعة أن يقوم فى الخلافة مقامه ابنه الحسن وهو السيد العظيم الشأن أبوه على بن أبى طالب وأمه فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأى رضى الله عنه بثاقب فكره أن الذين لم ينل منهم أبوه مايرجوه لايحسن الاعتماد عليهم ففضل الصلح مع معاوية على شروط اشترطها لنفسه ولأتباعه وتنازل عن

الخلافة مفضلا جمع كلمة المسلمين والسكنى بطيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام على ذلك حتى توفى بها سنة ٥٠ من الهجرة

ظل معاوية يسوس الناس بما عرف عنه من لين العريكة وسخاء اليد فاجتمعت الأمة على طاعته والرضا به وسكنت الدعوة إلى أهل البيت وخبت نار التشيع إلا أنها كانت مستكنة فى أنفس ذويها ينتظرون الوقت الملائم للهبوب

أدلى معاوية بالخلافة لابنه يزيد فلما تولاها هبت أعاصير الفتنة فى المدينة ومكة والكوفة

فأما المدينة فثارت تطلب عزل يزيد وتولى كبر الثورة بعض أبناء الأنصار ولكن هذه الثورة قمعت بشدة مسلم بن عقبة المرى الذى أوقع بأهلها وقعة الحرة المشهورة

وأما مكة فعاذ بها عبد الله بن الزبير طالبا الخلافة لنفسه

وأما الكوفة فان من بها من الشيعة أرسلوا يطلبون اليهم الحسين بن على شقيق الحسن ليبايعوه بالخلافة وينزعوا من أعناقهم بيعة يزيد فلم يكن من الحسين إلا أن لبى دعوتهم مع علمه بتاريخهم مع أخيه وأبيه وسار اليهم من غير جند يركن إليه ولا مال يستعين به فقابلته ببعض الطريق جنود عبيد الله بن زياد عامل يزيد بالعراق وكلها جنود عراقية ليس بها أحد من أهل الشام فلم يكن له قبل بمدافعتهم وقتل رحمه الله بكربلاء . ولم تقم شيعة أبيه بشيء من المساعدة بل ظلوا فى مساكنهم آمنين مطمئنين ولسان حال الحسين يقول

لاألفينك بعد الموت تندبنى ✽ وفى حياتى مازودتنى زادى

انتهت هذه الحوادث ومات يزيد وعظم أمر ابن الزبير ودخل فى دعوته أهل الحجاز ومصر والعراق وأبى أن يبايعه رجال بنى هاشم الذين كانوا بمكة كمحمد بن على المشهور بابن الحنفية وعبد الله بن عباس وغيرهما فاضطهدهم وحبسهم

ظهر فى تلك الأوقات رجل أراد أن ينتفع من وراء هذه الفتن ويجعل لنفسه مركزا فى البلاد العراقية مستعيناً بما تضمره قلوب أهل الكوفة من التشيع لأهل البيت وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى فذهب إلى الكوفة لابساً ثوب التشيع ناعيا على من قتل الحسين بن على وداعيا إلى الامام المهدى وهو محمد بن على الذى صار بعد أخويه أكبر أبناء على رضى الله عنه وتوسل إلى غايته بكل ما يمكن من عبارات التأثير حقا كانت أم كذبا وكان عقلاء أهل الكوفة يسمونه الكذاب لكثرة ما كان يصدر عنه

من الأكاذيب التي تؤثر عادة في أنفس الغوغاء وقد أمكنه أن يجتذب إلى نفسه رؤساء الشيعة في الكوفة وأرسل إلى محمد بن علي وهو مضطهد محبوس بمكة جندا يخلصونه من شدته فنجحوا واجتمع في حج هذه السنة بمكة أربعة ألوية لواء لابن الزبير ولواء لبني أمية ولواء للخوارج ولواء لأصحاب محمد بن علي إلا أن الله حفظ الحاج فلم يقع قتال بين هذه الجنود المختلفة الأهواء التي يكره بعضها بعضا

لم يطل حبل المختار بالكوفة فان عبد الله بن الزبير جهز له جيشا يقوده أخوه مصعب فسار اليه ومالأه أكثر أشراف أهل العراق لما ظهر لهم من أكاذيب المختار وسوء طويته وبذلك كانت الغلبة لمصعب إلا أن ذلك لم يقض على التشيع في بلاد العراق بل ظل كامنا ينتظر من يثيره لينتفع منه

أما محمد بن علي فانه بايع عبد الملك بن مروان بعد أن استقر الأمر له وقضى على فتنة ابن الزبير ودانت له الأقاليم الاسلامية كلها ومع قيامه بهذه البيعة لم تزل له شيعة تراه أحق بالخلافة إلا أنه مغلوب على أمره حتى إنه لما مات غلا فيه بعضهم فأنكر موته وقال إنه تغيب وسيرجع وقال في ذلك شاعرهم السيد الحميري

ألا إن الأئمة من قريش ٭ ولاة الحق أربعة سواء
علي والأئمة من بنيه ٭ هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ٭ وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ٭ يقود الخيل يقدمها اللواء

اضطربت أفكار الشيعة بعد موت محمد بن علي فمنهم من استمر على ولائه وقال بغيبته ورجعته كما قلنا . ومنهم من تولى بعده ابنه أباهاشم ويقال لهذا الفريق والذى قبله الكيسانية ينسبون إلى كيسان وهو لقب للمختار بن أبي عبيد

ومنهم من تولى بعد الحسين ابنه عليا المعروف بزين العابدين وهو ممن بايع يزيد ابن معاوية وعبد الملك بن مروان ولم يعرف عنه أنه طلب الخلافة لنفسه — قال هؤلاء إن الخلافة محصورة في أولاد علي من فاطمة رضي الله عنها ولما كان الحسين هو الذى قتل دون الخلافة فهي في عقبه وعلي هو الذى بقي من أولاد الحسين بعد وقعة كربلاء . وقد يقولون إن علياً هو الوصي أوصى اليه رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم بالخلافة ثم الامام من بعده الحسن ثم الحسين ثم على وهكذا لابد للأمة من إمام منصوص عليه ويقال لهؤلاء الشيعة الامامية

كان أكبر ولد العباس فى ذلك الوقت على بن عبد الله بن عباس وهو الذى انتشر منه العباسيون وكان قدفارق الحجاز وأقام بالحميمة التى أقامه بها بنو أمية والذى أنزله بها الوليد بن عبد الملك وقد ظهرت فكرة انتقال الخلافة إلى ولد العباس منذ على هذا ويقال إن السبب فى ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن على بن أبى طالب لما حانت منيته كان مقيما بالحميمة عند بنى عمه فأدلى بنصيبه من الخلافة إلى على هذا وأولاده وأوصى أولياءه به فصارت الشيعة الكيسانية فى جانب على بن عبد الله بن عباس

أما بقية الشيعة فانهم بعد وفاة على زين العابدين افترقت بهم الطرق فمنهم من تولى بعده ابنه محمدا الباقر زاعمين أنه الامام بعد أبيه . ومنهم من قال إن الخلافة حق لكل فاطمى اتصف بصفات العلم والشجاعة والسخاء ومن هؤلاء من قام بمساعدة زيد بن على بن الحسين وهم المعروفون بالشيعة الزيدية

والذين حاولوا الوصول إلى الخلافة وانتزاعها من بنى أمية هم الشيعة الكيسانية الذين ساعدوا على بن عبد الله والشيعة الزيدية الذين ساعدوا زيدا وابنه يحيى

وكانت وفاة على بن عبد الله ومحمد الباقر فى زمن متقارب بالحميمة فانتقل ولاء الكيسانية إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس لأن أباه أوصى اليه وانتقل ولاء الامامية إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر ولم يفعل أنصار الأئمة شيئا ليرجعوا الخلافة إلى ذوى الحق فيها حسب رأيهم

أما الشيعة الزيدية فقد دعاهم إلى النصرة زيد بن على فقاموا بنصرته حيث خرج بالكوفة طالبا الخلافة إلا أن بنى أمية لم تكن قد ظهرت فيهم العيوب التى أودت بحياتهم بعد . فسرعان ما انتصروا على زيد وأطفؤوا ثورته وقتلوه وصلبوه وثار بعده ابنه يحيى فكانت خاتمته خاتمة أبيه

أما محمد بن على بن عبد الله بن عباس فهو يعسوب القوم وذو العقل الراجح فيهم فانه رأى أن نقل السلطان من بيت إلى بيت لابد أن يسبق باعداد أفكار الأمة إلى هذا النقل وأن كل محاولة فجائية لابد أن تكون عاقبتها الفشل فرأى أن يسير فى المسألة بالأناة المصحوبة بالحزم فعهد إلى شيعته أن يؤلفوا منهم دعاة يدعون الناس إلى

ولاية أهل البيت بدون أن يسموا أحداً خوفاً من بنى أمية أن يقضوا على المدعو إذا عرف. ورأوا أن أحسن منطقة يبثون فيها الدعوة هى الكوفة وبلاد خراسان. أما الكوفة فهى مهد التشيع لأهل البيت من قديم فيمكنهم أن يأووا اليها ويجعلوها نقطة مواصلاتهم. وأما خراسان فسهولة الدعوة فيها مبنية على أمرين: الأول أن فكرة التشيع يفهمها الخراسانى من المسلمين بسهولة لأن مؤداها نقل الخلافة إلى بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم صاحب الرسالة وسيد الأمة وذلك قريب مما كان عندهم من الملك الذى يتوارثه أهل بيته. ولا يجوز نقله إلى غير بيت الملك إلا إن كان ذلك عن اختلاس — الثانى أن البلاد الفارسية كانت ذات تاريخ وملك قديمين ولذلك فائدة كبيرة فى حياة النفوس وقد عاملهم بنو أمية معاملة السادة للعبيد. فكان العنصر العربى بينهم هو صاحب الكلمة العليا والنفوذ السائد ولا يتولى من ليس منهم شيئاً من الولايات العامة فكان أهل فارس مستعدين لأن يقوموا بتغيير الدولة الحاضرة وإخراج الخلافة إلى الدولة المستقبلة كى يكون لهم فيها حظ أحسن من حظهم فى دولة بنى أمية. قال أبو بكر بن أحمد بن محمد الهمدانى المعروف بابن الفقيه فى كتاب البلدان:

وقد كان محمد بن على بن عبد الله قال لدعاته حين أراد توجيههم إلى الأمصار أما الكوفة وسوادها فشيعة على وولده — وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف تقول كن عبدالله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل — وأما الجزيرة فحرورية مارقة وأعراب كأعلاج ومسلمون فى اخلاق النصارى — وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان وطاعة بنى مروان وعداوة راسخة وجهل متراكم — وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر ولكن عليكم بخراسان. فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ولم يتوزعها الدغل وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة. وبعد فانى أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق

تأليف الجمعية السرية للدعوة

ابتدأ تأليف هذه الجمعية وعلى بن عبد الله بن عباس حى لم يمت بعد لأنها ابتدأت فى أول القرن الثانى وعلى لم يمت إلا سنة ١١٧ على قول وسنة ١١٤ على قول وكان الخليفة من بنى أمية إذ ذاك عمر بن عبد العزيز بن مروان وكانت تتألف من كثير من الدعاة والرؤساء

وجعل للدعوة مركزان أحدهما بالكوفة التى اعتبرت نقطة المواصلات وأقيم فيها ميسرة مولى على بن عبد الله والثانى بخراسان التى هى محل الدعوة الحقيقى ووجه إليه محمد بن خنيس وأبو عكرمة السراج واختير من الدعاة اثنا عشر نقيباً وهم :

(١) سليمان بن كثير الخزاعى
(٢) مالك بن الهيثم «
(٣) طلحة بن زريق «
(٤) عمرو بن أعين «
(٥) عيسى بن أعين «
(٦) قحطبة بن شبيب الطائى
(٧) لاهز بن قريظ التميمى
(٨) موسى بن كعب «
(٩) القاسم بن مجاشع «
(١٠) أبو داود خالد بن إبراهيم الشيبانى
(١١) أبو على الهروى شبل بن طهمان الحنفى
(١٢) عمران بن إسماعيل المعيطى

واختار سبعين رجلا ليكونوا مؤتمرين بأمر هؤلاء وكتب إليهم محمد بن على كتابا ليكون لهم مثالا وسيرة يسيرون بها

وقد ظل رجال الدعوة يشتغلون بها من مفتتح القرن الثانى إلى سنة ١٣٢ وهى السنة التى تم فيها النجاح وبويع فيها لأبى العباس السفاح

وهذه المدة تنقسم إلى قسمين متمايزين الأول عصر الدعوة المحضة الخالية عن استعمال القوة وذلك قبل أن ينضم إلى القوم أبو مسلم الخراسانى وذلك فى الوقت الذى كانت الدولة الأموية فيه متماسكة القوى لم ينقسم فيها البيت المالك على نفسه ولم تحصل العصبية القومية بين جند هذه الدولة بخراسان وذلك نحو ٢٧ سنة والعصر الثانى عصر استعمال القوة مع الدعوة حينما تهيأت الأسباب الداعية إلى ذلك

العصر الأول

(من سنة ١٠٠ إلى سنة ١٢٧)

كان الدعاة فيه يجوبون البلاد الخراسانية ظاهر أمرهم التجارة وباطنها الدعوة ينتهزون الفُرَص ثم يبلغون أمرهم إلى القائم بالكوفة وهو يوصلها إلى الحميمة أو إلى مكة حيث يجتمع المسلمون لأداء فريضة الحج وكان ذلك المجتمع أعظم ساتر لأمر الدعاة لأنهم كانوا إذا قفلوا من خراسان سافروا حجاجاً وكانت إقامة محمد بن على بالحميمة سبباً آخر فى انتظام المواصلات وكتم سرها

وكان أول ماظهر من أمرهم بخراسان سنة ١٠٢ حيث جاء رجل من تميم إلى أمير خراسان سعيد بن عبدالعزيز بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص الذى يقال له سعيد خذينة وقال له إن ههنا قوماً قد ظهر منهم كلام قبيح فبعث إليهم سعيد فأتى بهم فسألهم من أنتم قالوا أناس من التجار قال فما هذا الذى يحكى عنكم قالوا لاندرى قال جئتم دعاة فقالوا إن لنا فى أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا فسأل من يعرف هؤلاء فجاء أناس من أهل خراسان جلهم من ربيعة واليمن فقالوا نحن نعرفهم وهم علينا إن أتاك منهم شىء تكرهه فخلى سبيلهم

وفى سنة ١٠٥ انضم إلى هذه الجمعية بكير بن ماهان وهو شيخ عظيم من شيوخ هذه الدولة وكبار دعاتها وكان موسراً فساعد القوم بماله وصادف أن توفى فى ذلك الوقت ميسرة القائم بالكوفة فأقامه محمد بن على مقامه فكان هو ربان هذه الدعوة يأتمر الدعاة بأمره ويسيرون فى الطريق التى يشرَعها لهم

كان من أول النكبات التى لحقت بهم أنه وشى بجمع من دعاتهم إلى أسد بن عبد الله القسّرى أمير خراسان وهو وال شديد قاس فأتى بهم وفيهم أبو عكرمة وأبو محمد الصادق ومحمد بن خنيس وعمار العبادى فقطع أيدى من ظفر به منهم وأرجلهم وصلبهم وأفلت عمار العبادى حتى أتى الكوفة فأخبر بكير بن ماهان بذلك الخبر المشؤم فكتب به إلى محمد بن على فأجابه (الحمد لله الذى صدق مقالتكم ودعوتكم وقد بقيت منكم قتلى ستقتل) وقد وقع بعد ذلك عمار العبادى فى يد أسد فألحقه باخوانه

وكان أسد بن عبد الله أشد ولاة خراسان على الشيعة فكان لا يرحم أحداً منهم وقع فى يده بل شرد بهم ونكل ونفى من نفى وقتل من قتل ولذلك لم يكن للدعوة فى أيامه كبير أثر حتى عزل عن خراسان سنة ١٠٩ وتلك ولايته الأولى ثم ولى خراسان مرة ثانية فأعاد معهم سيرته الأولى ففى سنة ١١٧ أخذ جماعة منهم فقتل بعضهم ومثل ببعضهم وحبس بعضهم وكان فيمن أخذ سليمان بن كثير شيخ الدعوة ومالك ابن الهيثم وموسى بن كعب ولاهز بن قريظ وخالد بن إبراهيم وطلحة بن زريق وغيرهم من النقباء فأتى بهم فقال لهم يافسقة ألم يقل الله عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام فقال سليمان بن كثير أتكلم أم أسكت قال بل تكلم قال نحن والله كما قال الشاعر

لو بغير الماء حلقى شرق ٭ كنت كالغصان بالماء اعتصارى

تدرى ماقصتنا صيدت والله العقارب بيدك أيها الأمير إنا أناس من قومك (اليمن) وإن هذه المضرية إنما رفعوا إليك هذا لأنا كنا أشد الناس على قتيبة ابن مسلم وإنما طلبوا بثأرهم

فانظروا كيف كان القوم يستعملون العصبيات القومية فى أحرج مواقفهم للخلاص مما يقعون فيه أحيانا وقد كان ذلك الجواب سبباً فى خلاص هؤلاء النقباء مما وقعوا فيه حيث وجدوا من قومهم من يدبر مع الأمير أمر خلاصهم وقد خلصوا وكانت وفاة أسد سنة ١٢٠ فتنفست الشيعة بخراسان بعد وفاته

حصل بعد ذلك فى العالم الاسلامى ما كان له أعظم الفضل فى نجاح الشيعة وتصور أعدائهم عن فل حدهم وذلك

(أولا) انشقاق البيت الأموى حتى تزعزع بنيانه وتصدعت أركانه وأول ذلك كان بخروج يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان على ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك واستعان على ذلك بالقدح فى الوليد ونسبته إلى العظائم من الفسوق والكفر وإحلال ماحرم الله فكان معه قوم ساعدوه على ذلك وكان بعض بنى أمية يتمثل بقول الشاعر

إنى أعيذكم بالله من فتن ٭ مثل الجبال تسامى ثم تندفع
إن البرية قد ملت سياستكم ٭ فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا

لاتلحمن ذئاب الناس أنفسكم * إن الذئاب إذا ماألحمت رتعوا
لاتبقرن بأيديكم بطونكم * فثم لاحسرة تغنى ولا جزع

ولما تم ليزيد أمره ولم يعبأ بقول ناصح انتهز بعض أهل بيته هذه الفرصة لينال الخلافة وهو مروان بن محمد بن مروان فانه كتب إلى الغَمْر بن يزيد أخى الوليد يهيجه للمطالبة بدم أخيه وقال فى ذلك الكتاب (أما بعد فان هـذه الخلافة من الله على مناهج رسله وإقامة شرائع دينه أكرمهم الله بما قلدهم يعزهم ويعز من يعزهم والحين على من ناوأهم فابتغى غير سبيلهم فلم يزالوا أهل رعاية لما استودعهم الله منها يقوم بحقها ناهض بأنصار لها من المسلمين وكان أهل الشام أحسن خلقه فيه طاعة وأذبه عن حرمه وأوفاه بعهده وأشده نكاية فى مارق مخالف نا كث نا كب عن الحق فاستدرت نعمة الله عليهم وقد عمّر بهم الاسلام وكبت بهم الشرك وأهله وقد نكثوا أمر الله وحاولوا نكث العهود وقام بذلك من أشعل ضِرامها وإن كانت القلوب عنه نافرة — والمطلوبون بدم الخليفة ولاته من بنى أمية فان دمه غير ضائع وإن سكنت بهم الفتنة والتأمت الأمور فأمر الله لامرد له وقد كتبت بحالك فيما أبرموا وما ترى فانى مطرق إلىأن أرى غيرا فأسطو بانتقام وأنتقم لدين الله المبتول وفرائضه المتروكة مجانة ومعى قوم أسكن الله طاعتى قلوبهم أهل إقدام إلى ما قدمت به عليهم ولهم نظراء صدورهم مترعة ممتلئة لو يجدون منزعا والنقمة دولة تأتى من الله ووقت موكل ولم أشبه محمداً ولامروان غيرأن رأيت غيراً إنلم أشمر للقدرية إزارى وأضربهم بسيفى جارحا وطاعنا يرمى قضاء الله فىذلك حيث أخذ أو يرمى فى عقوبة الله حيث بلغ منهم فيها رضاه وما إطراقى إلا لما أنتظر مما يأتينى عنك فلا تدعن ثأرك بأخيك فان الله جارك وكافيك وكفى بالله طالباً ونصيراً)

وكان مروان فى ذلك الوقت أميرا للجزيرة وأرمينية ومعه جيش كبير يأتمر بأمره ولم يزل حتى أقدم على طلب الخلافة مستمسكا بهذا الحبل حتى نالها ولم يكن نيله لها بمزيل أسباب الخلاف والانشقاق فىهذا البيت ولا شبهة أن انشقاق البيت المالك يحدث بطبيعة الحال انشقاقا فى قوة الدولة فلا تقوى على مصادمة عدوها

(ثانيا) ظهور العصبية القومية فى خراسان وانشقاق القبائل العربية وذلك أن العرب يرجعون إلى شعبين عظيمين قحطان ونزار . وملك العرب القديم كان فى اليمن

فلما جاء الاسلام تحول إلى نزار لمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم وكان أمر النبوة والوحى قد باعد بين الناس وحمية الجاهلية فتآخى اليمانيون والنزاريون ووجهوا قوتهم المتحدة إلى أعدائهم فنالوا فى زمن قليل مالم تنله أمة قبلهم فى مثل الزمن الذى ارتفع فيه قدرهم

ولما طال الزمن تراجع الناس إلى شيء مما كانوا عليه فى الجاهلية بسبب أمراء السوء الذين كانوا يحيون لهم تلك الجاهلية من غير أن ينظروا إلى سوء مغبتها وظهر ذلك فى أقوال شعرائهم التى لها أثر شديد فى أنفسهم وقد أدرك بعض شعرائهم النتائج السيئة من ذلك فقال الحارث بن عبدالله بن الحشرج الجعدى

أبيت أرعى النجوم مرتفقا ＊ إذا استقلت تجرى أوائلها
من فتنة أصبحت مجللة ＊ قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن ＊ بالشام كل شجاه شاغلها
فالناس منها فى لون مظلمة ＊ دهماء ملتجة غياطلها
يمسى السفيه الذى يعنف بالجهـ ＊ ـل سواء فيها وعاقلها
والناس فى كربة يكاد لها ＊ تنبذ أولادها حواملها
يغدون منها فى كل مبهمة ＊ عمياء تمنى لها غوائلها
لاينظر الناس فى عواقبها ＊ إلا التى لا يبين قائلها
كرغوة البكر أو كصيحة حبـ ＊ ـلى طرقت حولها قوابلها
فجاء فينا أزرى بوجهته ＊ فيها خطوب حمر زلازلها

وهذا أحسن وصف سمعته فى وصف الفتن وغمرها الناس كافة من سفيه وحليم

كان بخراسان واليان مختلفان جاء أحدهما بعد الآخر فأما أولهما فهو أسد بن عبدالله القسرى وهو من اليمن فكان ضلعه مع قومه من أهل اليمن يتعصب لهم وكان شيعته بخراسان قوية إلى قوة الدولة نفسها فلم يكن هناك مايهيجه وثانيهما نصر بن سيار وهو من كنانة ثم من مضر فكان ضلعه مع قومه إلا أن شيعته بخراسان لم تكن بذاك وقد كان هشام بن عبد الملك بن مروان الذى ولاه يعلم ذلك فانه لما استشار فيمن يوليه خراسان بعد أسد كان مستشاره يسمى له أشخاصا بما لهم من محامد ومذام فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال إن اغتفرت له واحدة فانه عفيف مجرب عاقل قال

هشام وما هى فقال المشير عشيرته بها قليلة فقال هشام أتريد عشيرة أكثر منى أنا عشيرته . وهذه جملة صحيحة فى زمن قوة الدولة الناشئة عن اتحاد الفاتحين فأما بعد الانصداع فليست بصحيحة

ظهر الانشقاق فى عهد نصر بن سيار هذا بين النزارية واليمانية وكان رئيس النزارية وكبيرهم نصر بن سيار الأمير وكبير اليمانية جديع بن شبيب المعنى المعروف بالكرمانى . وإنما عرف بذلك لأنه ولد بكرمان وكان نصر والكرمانى قبل ذلك متصافيين إلا أن الفتنة الناشئة عن حمية الجاهلية فرقت بينهما . وكانت النزارية أيضا منشقة . فربيعة فى جانب ومضر فى جانب . وكان أكثر ربيعة مع شيبان بن سلمة الحرورى الخارج على الدولة يطلب العمل بكتاب الله وسنة رسوله فكانت هذه الفرق الثلاث متعادية

حصلت حروب بين نصر والكرمانى وكانت القوة للكرمانى فأجلى نصرا عن مرو حاضرة خراسان فهدم اليمنيون دور المضرية فقالت امرأة من ضبة وهى أم كثير الضبية

لابارك الله فى أنثى وعذبها * تزوجت مضريا آخر الدهر
أبلغ رجال تميم قول موجعة * أحللتموها بدار الذل والفقر
إن أنتم لم تكروا بعد جولتكم * حتى تعيدوا رجال الأزد والظهر
إنى استحيت لكم من بذل طاعتكم * هذا المزونى يجبيكم على قهر

وقال شاعر آخر

ألا يانصر قد برح الخفاء * وقد طال التمنى والرجاء
وأصبحت المزون بأرض مرو * تقضى فى الحكومة ماتشاء
يجوز قضاؤها فى كل حكم * على مضر وإن جار القضاء
وحمير فى مجالسها قعود * ترقرق فى رقابهم الدماء
فان مضر بذا رضيت وذلت * فطال لها المذلة والشقاء
وإن هى أعتبت فيها وإلا * فحل على عساكرها العفاء

فى أثناء وقوع هذه الحوادث توفى محمد بن على إمام الشيعة الذى يدعون اليه وأدلى بالأمر من بعده إلى ابنه ابراهيم وأعلم الشيعة بذلك فقاموا بالدعوة اليه مكان أبيه . ثم توفى بكير بن ماهان شيخ الشيعة بالكوفة فأقام ابراهيم بن محمد مكانه حفص بن

سليمان المعروف بأبي سلمة الخلال وأصله مولى لبنى الحارث بن كعب وكان صهرا لبكير بن ماهان فأوصى إبراهيم أن يقيمه مكانه

واتصل بابراهيم فى تلك الأوقات شاب من نوابغ الشبان وذوى المقدرة والعزيمة وهو أبو مسلم الخراسانى وأصله مولى لعيسى بن معقل العجلى اشتراه منه بكير بن ماهان وعنه تلقى أصول التشيع ثم اتصل بمحمد بن على سنة ١٢٥ ثم بابنه ابراهيم وكانت تظهر عليه مخايل النجابة وقوة العزم وكانت الشيعة بخراسان فى حاجة إلى مثله ليشرعوا فى العمل بعد أن أمكنتهم الفرصة بما وقعت فيه الدولة الأموية من الخلاف وما وقع فيه عرب خراسان من الانشقاق فاختار إبراهيم أبا مسلم لتلك المهمة وكتب إلى أصحابه إنى قدأمرته بأمرى فاسمعوا منه واقبلوا قوله فانى قد أمرته على خراسان وماغلب عليه بعد ذلك وكان مما أوصى به أبا مسلم قوله :

« ياعبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت فاحتفظ وصيتى . وانظر هذا الحى من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم فان الله لايتم هذا الامر إلا بهم . وانظر هذا الحى من ربيعة فاتهمهم فى أمرهم وانظر هذا الحى من مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه ومن كان فى أمره شبهة ومن وقع فى نفسك منه شيء وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ولاتخالف هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير) ولاتعصه وإن أشكل عليك أمر فاكتف به منى »

وإنما أمره بتقريب أهل اليمن لأنهم أعداء الدولة الحاضرة للعصبية التى كانت نارها مشتدة بين أهل خراسان إذ ذاك ولهذا السبب أوصاه بالشدة على مضر فانهم كانوا أصحاب الدولة . ومما يدل على اعتماد بنى العباس على أهل خراسان دون العرب قول الامام (وإن استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل) سار أبو مسلم مزودا بهذه الوصية حتى حل بخراسان وذلك سنة ١٢٨ وكانت الحال قد بلغت أشدها بين العرب بخراسان فأقام يدبر الأمور . وبعد سنة تهيأ لزيارة الامام ومعه عدد كبير من الدعاة ولما بلغ قومس أتاه كتاب من الامام يقول فيه (إنى قد بعثت إليك براية النصر فارجع من حيث ألقاك كتابى ووجه إلى قحطبة بما معك يوافنى به فى الموسم) فعاد أبو مسلم إلى مرو مستعدا للعمل

دور العمل

نزل أبو مسلم بقرية من قرى مرو يقال لها سفيذنج وهناك بث دعاته فى الناس ليجتمعوا إليه فانثال اليه الناس وكان ذلك فى رمضان سنة ١٢٩ . ولخمس بقين منه عقد اللواء الذى بعث به الامام ويدعى الظل على رمح طوله أربعة عشر ذراعا وعقد الراية التى تدعى السحاب على رمح طوله ثلاثة عشر ذراعا وهو يتلو قوله تعالى (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) ولبسوا السواد الذى جعل شعارا للدولة العباسية وقدم على أبى مسلم الدعاة من أهل مرو بمن أجاب الدعوة

كان أول مافعله أبو مسلم أن أمر برم حصن سفيذنج وأقام به هو ومن معه ولما حضر عيد الفطر سنة ١٢٩ أمر سليمان بن كثير أن يصلى به وبالشيعة ونصب له منبرا فى العسكر وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة وكانت بنو أمية تبدأ بالخطبة والأذان ثم بالصلاة بالاقامة كصلاة يوم الجمعة فيخطبون على المنابر جلوسا فى الجمعة والأعياد . وأمره أن يكبر ست تكبيرات تباعا ثم يقرأ ويركع بالسادسة ويفتتح الخطبة بالتكبير ويختمها بالقرآن وكانت بنو أمية تكبر فى الركعة الأولى أربع تكبيرات يوم العيد وفى الثانية ثلاث تكبيرات ولما تمت الصلاة انصرف هو ومن معه إلى طعام أعد لهم مستبشرين

كتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار يقول له (أما بعد) فان الله تباركت أسماؤه وتعالى ذكره عير أقواما فى القرآن فقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا استكبارا فى الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا) فتعاظم نصر الكتاب ولا سيما أنه رأى أبا مسلم بدأ فيه بنفسه

وكان جوابه أن وجه إلى أبى مسلم مولى له اسمه يزيد فى خيل عظيمة فوجه اليه أبو مسلم مالك بن الهيثم الخزاعى فالتقوا بقرية تدعى آلين وكانت بين الفريقين موقعة انتهت بانتصار الشيعة وأسر يزيد رئيس جند نصر بعد أن جرح فأمر أبو مسلم بمداواته حتى برأ ثم خيره بين أن يقيم معه ويدخل فى دعوته وأن يرجع إلى مولاه

سالما ويعطى عهدالله وميثاقه ألايحاربهم ولا يكذب عليهم وأن يقول فيهم مارأى .فاختار الرجوع إلى مولاه وقال أبو مسلم لمن معه إن هذا سيرد عنكم أهل الورع والصلاح فانا مانحن عندهم على الاسلام.

قدم يزيد على نصر فقال له نصر لا مرحبا بك والله ما ظننت استبقاك القوم إلا ليتخذوك حجة علينا فقال يزيد هو والله ماظننت وقد استحلفونى ألا أكذب عليهم وأنا أقول إنهم يصلون الصلاة لمواقيتها بأذان وإقامة ويتلون كتاب الله ويذكرون الله كثيرا ويدعون إلى ولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم ومأحسب أمرهم إلا سيعلو ولولا أنك مولاى أعتقتنى من الرق مارجعت إليك ولأقمت معهم

كثرت بعد ذلك وفود الناس على أبى مسلم ووجدت الدعوة فى قلوبهم مكانا صالحا فضاقت عليه سفيذنج فرحل إلى الماخوان وهى قرية كبيرة من قرى مرو كانت للعلاء بن حريث ولأبى العلاء خالد بن عثمان فحصنها وخندق حولها وكانت عدة من معه فى الخندق سبعة آلاف رجل

رأى عرب خراسان أن مابينهم من هذه الفرقة والحروب تشد أزر عدوهم وكانوا ثلاث فرق كما قدمنا وكان الكرمانى قد قتل فى إحدى وقائعه مع نصر وأجلى قومه عن مرو وخلفه فى قيادة اليمانيين ابنه على فكتب نصر إلى شيبان الحرورى يقول له إن شئت فكف عنى حتى أقاتله وإن شئت فاتفق معى على حربه حتى أقتله أو أنفيه ثم نعود إلى أمرنا الذى كنا عليه فهم شيبان أن يفعل . ولكن أبا مسلم كانت له عين لاتنام فأرسل إلى على بن الكرمانى يقول له إنك موتور قتل أبوك ونحن نعلم أنك لست على رأى شيبان وإنما تقاتل لثأرك فامنع شيبان من صلح نصر فدخل ابن الكرمانى على شيبان ولم يزل به حتى ثناه عن رأيه فأرسل نصر إلى شيبان إنك لمغرور وايم الله ليتفاقمن هذا الأمر حتى تستصغرنى بجانبه

وفى أثناء ذلك كان أبو مسلم يرسل قواده فيستولون على البلاد من عمال نصر ولا يجدون مقاومة تذكر . ولما رأت ذلك ربيعة وعلمت شدة أمر أبى مسلم أرسلت إلى نصر تطلب منه الموادعة فأجاب إلى ذلك وتوادعوا سنة . بلغ ذلك أبا مسلم فأرسل إلى ابن الكرمانى يهيجه بأخذ الثأر فقال إنى ماصالحت نصرا وإنما صالحت شيبان وأنا لذلك كاره وأنا موتور ولا أدع قتاله فعاود القتال وأبى شيبان أن يعينه

وقال لا يحل الغدر فأرسل ابن الكرمانى إلى أبى مسلم يستنصره . وهذا كل مايريده فأرسل إليه إنى معك على نصر فاشتد ذلك على نصر وكتب إلى أبى مسلم يلتمس منه أن يدخل مع نصر وبعث إليه ربيعة بمثل ذلك كلهم طلب معونة هذا الفتاك الذى ليست له غاية إلا الفتك بهم جميعا فأمرهم أبو مسلم أن يقدم عليه وفد كل منهم حتى يختار ففعلوا وأمر أبو مسلم متكلمى الشيعة أن يختاروا وفد ربيعة وقحطان فان السلطان فى مضروهم عمال مروان وهم قتلة يحيى بن زيد . ولما قدمت عليه الوفود فعل الشيعة ما أمروا به فنهض وفد مضر تعلوهم المذلة والكآبة ورجع وفد ربيعة وقحطان مسرورين ظافرين ولم يدروا ما خبأه لهم الغيب

بذلك ظفر أبو مسلم ظفرا عظيما فانه فرق كلمة العرب بعد أن كادت تجتمع عليه فقام من الماخوان فى جمادى الأولى سنة ١٣٠ يريد مرو وأرسل إليه ابن الكرمانى أن ادخل حائط مرو من قبلك وأدخل أنا وعشيرتى من قبلى فأرسل إليه أبو مسلم أن لست آمن أن تجتمع يدك ويد نصر على حربى ولكن ادخل أنت فأنشب الحرب فدخل ابن الكرمانى وأنشب الحرب وأمر أبو مسلم أحد قواده بدخول مرو فدخلها وأعقبه أبو مسلم . دخل والقتال دائر بين الكرمانى ونصر فأمر الفريقين أن يكفا وهو يتلو (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه) . ومضى أبو مسلم حتى دخل دار الامارة وهرب نصر مستخفيا .

صفت مرو لأبى مسلم وأمر أحد النقباء بأخذ البيعة على أهلها ونص البيعة (أبايعكم على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم عليكم بذلك عهد الله وميثاقه والطلاق والعتاق والمشى إلى بيت الله الحرام وعلى ألا تسألوا رزقا ولا طعما حتى يبدأكم به ولاتكم وإن كان عدو تحت قدمه فلا تهيجوه إلا بأمر ولاتكم) وأخذ أبو مسلم ثقات أصحاب نصر وصناديدهم فكتفهم وحبسهم ثم قتلهم

أرسل بعد ذلك إلى شيبان الحرورى يدعوه إلى بيعته فأبى وسار عن مرو إلى سرخس فوجه إليه أبو مسلم جندا فكانت هناك موقعة قتل فيها شيبان وعدد عظيم ممن معه . وبعد نيل هذا الانتصار عمد إلى ابنى الكرمانى على وعثمان اللذين ائتمناه على حياتهما فقتلهما وأكثر أصحابهما

صفت خراسان كلها لأبى مسلم فبعث العمال إلى جميع الولايات وأمر أحد قواده قحطبة بن شبيب أن يتبع نصرا ومعه لواء عقده له إبراهيم الامام فسار وراءه من بلد إلى بلد حتى مرض نصر بالرى ومات بساوة فأقبل قحطبة بجنوده واستولى على الرى فتم للشيعة خراسان وبلاد الجبل ثم سير قحطبة ابنه الحسن فاستولى على همذان ومنها سار إلى نهاوند فحصرها ولحقه بها أبوه فاجتمعا عليها ثلاثة أشهر ثم فتحت وتلاها شهر زور والموصل . سار قحطبة بعد ذلك واغلا فى بلاد العراق فقصده ابن هبيرة أمير العراق من قبل مروان بن محمد وكان اجتماعهما غربى الفرات على نحو ٢٣ فرسخا من الكوفة وقبل أن تقع بينهما الموقعة الكبرى مات قحطبة فولى إمرة الجيش ابنه الحسن وكان قحطبة قبل موته قد قال إذا قدمتم الكوفة فوزير آل محمد أبو سلمة الخلال فسلموا الأمر إليه

جرت أثناء ذلك وقائع انهزم فيها ابن هبيرة فسار منها حتى أتى واسطا . وقبل أن يدخل الحسن بن قحطبة الكوفة خرج منها محمد بن خالد القسرى مسودا فاستولى على قصرها ولم يكن قد علم بهلاك قحطبة فكتب إليه يعلمه فوصل الكتاب إلى ابنه الحسن فارتحل إلى الكوفة فدخلها فى المحرم سنة ١٣٢ وسلم الأمر لأبى سلمة الخلال فوجه الحسن إلى قتال ابن هبيرة بواسط وضم إليه قوادا . ووجه حميد بن قحطبة إلى المدائن . ووجه المسيب بن زهير وخالد بن برمك إلى دير قنى . وبعث المهلبى وشراحيل إلى عين التمر . وبسام بن إبراهيم إلى الأهواز وخرج هو من الكوفة فعسكر عند حمام أعين على نحو ثلاثة فراسخ من الكوفة

جرت هذه الوقائع بخراسان والعراق ونار الفتنة مشتعلة بالشام وبالحجاز

افتضاح الأمر

مضت هذه المدة كلها وليس عند بنى أمية علم بمن تدعو إليه الشيعة فانهم كانوا يدعون إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم ولا يعلم السر إلا النقباء والدعاة أما العامة فبلغ علمها أنها تدعى لرجل من آل البيت حتى وقع فى يد مروان بن محمد كتاب لإبراهيم إلى أبى مسلم جواب كتاب لأبى مسلم يأمره فيه بقتل كل من يتكلم بالعربية بخراسان فأرسل مروان فى الحال إلى عامله بدمشق يأمره بالكتاب

إلى صاحبه بالبلقاء أن يسير إلى الحميمة ويأخذ إبراهيم بن محمد ويوجه به إليه ففعل العامل ما أمر به وقبض على إبراهيم ولما أحس إبراهيم بما يراد به نعى نفسه إلى أهل بيته وأوصى إلى أخيه أبي العباس وأمر أهله بالسير إلى الكوفة والسمع والطاعة لأبي العباس . أما إبراهيم فحبس في سجن حران مع جماعة من أعداء مروان من بني أمية ولم يزل في سجنه حتى مات . وكيفية موته مبهمة اختلف فيها المؤرخون فمنهم من قال إنه سقي سما ومنهم من قال هدم عليه بيت فمات . ومما قيل في رثائه

قد كنت أحسبني جلدا فضعضعني * قبر بحران فيه عصمة الدين
فيه الامام وخير الناس كلهم * بين الصفائح والأحجار والطين
فيه الامام الذي عمت مصيبته * وعيلت كل ذي مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة * لكن عفا الله عمن قال آمين

وأما أهل بيته فتجهزوا يريدون الكوفة حتى قدموها في صفر سنة ١٣٢ ورئيس القوم وقائدهم أبو سلمة الخلال الذي كان يعرف في ذلك الوقت بوزير آل محمد فأنزلهم في إحدى دور الكوفة وكتم أمرهم عن سائر القواد أربعين ليلة وكان لا يزال في معسكره بحمام أعين خارج الكوفة

ويقال إنه لما سبر أحوالهم عزم على العدول عنهم إلى بني علي فكاتب ثلاثة من أعيانهم جعفر الصادق بن محمد الباقر وعبد الله المحض بن حسن بن حسن وعمر الأشرف بن زين العابدين وأرسل الكتب مع رجل من مواليهم وقال له اقصد أولا جعفر بن محمد فان أجاب فأبطل الكتابين الآخرين فان لم يجب فالق عبد الله المحض فان أجاب فأبطل كتاب عمر وإن لم يجب فالق عمر فذهب الرسول إلى جعفر بن محمد أولا ودفع إليه كتاب أبي سلمة فقال مالي ولأبي سلمة وهو شيعة لغيري فقال له الرسول اقرأ الكتاب فقال جعفر لخادمه أدن السراج مني فأدناه فوضع الكتاب على النار حتى احترق فقال الرسول ألا تجيبه فقال قد رأيت الجواب . ثم مضى الرسول إلى عبد الله المحض ودفع إليه الكتاب فقرأه و قبله وركب في الحال إلى جعفر وقال هذا كتاب أبي سلمة يدعوني فيه إلى الخلافة قد وصل على يد بعض شيعتنا من أهل خراسان فقال له جعفر ومتى صار أهل خراسان شيعتك أأنت وجهت إليهم أبا مسلم هل تعرف أحدا منهم باسمه أو بصورته فكيف يكونون

شيعتك وأنت لاتعرفهم وهم لايعرفونك فقال عبد الله كأن هذا الكلام منك لشيء فقال جعفر قد علم الله أنى أوجب النصح على نفسى لكل مسلم فكيف أدخره عنك فلا تمن نفسك الأباطيل فان هذه الدولة ستتم لهؤلاء وقد جاءنى مثل الكتاب الذى جاءك فانصرف عبد الله من عنده غير راض . وأما عمر بن زين العابدين فانه رد الكتاب وقال أنا لا أعرف صاحبه فأجيبه . أحس بعض القواد بأمر أبى سلمة فأحبطوا ما أراده وذهبوا إلى الكوفة فقابلوا أبا العباس وسلموا عليه بالخلافة ودخل بعدهم أبو سلمة ففعل كما فعلوا وقد أبق هذا العمل فى نفس أبى العباس ما أبق فترتب عليه مايأتى ذكره

خرج أبو العباس يوم الجمعة ١٣ ربيع الأول فصلى بالناس وكان فى خطبته بعد حمد الله والثناء عليه أن افتخر بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر الخلفاء الراشدين وأثنى عليهم ونعى على بنى حرب وبنى مروان أثرتهم وظلمهم ثم قال (وإنى لأرجو ألا يأتيكم الجور من حيث أتاكم الخير ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح وماتوفيقنا أهل البيت إلا بالله . يا أهل الكوفة أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زمننا وأتاكم الله بدولتنا فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح) وبهذه الجملة الأخيرة لقب السفاح

كان السفاح إذ ذاك موعوكا فاشتدبه الوعك فجلس على المنبر وصعد داود بن على عمه وكان من أفصح بنى العباس فخطب خطبة جاء فيها (إنا والله ماخرجنا فى هذا الأمر لنكثر لجينا ولاعقيانا ولانحفر نهرا ولانبنى قصرا وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا والغضب لبنى عمنا وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شئونكم ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم . لكم ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله إن نحكم فيكم بما أنزله الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم) ثم منى أهل الكوفة بما يحلو فى أسماعهم ومدح أهل خراسان بما قاموا به

من نصر أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وإعادة حقوقهم وقال فى آخر خطبته (ألا وإنه ماصعد منبركم هذا خليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمير المؤمنين على بن أبى طالب وأمير المؤمنين عبدالله بن محمد وأشار بيده إلى أبى العباس فاعلموا أن هذا الأمر فينا حتى نسلمه إلى عيسى ابن مريم صلوات الله عليه)

بعد أن تمت الخطبتان والصلاة خرج السفاح إلى القصر وأجلس أخاه أباجعفر ليأخذ البيعة على الناس فى المسجد فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم صلى بهم المغرب وجنهم الليل فدخل

ثم خرج أبوالعباس إلى المعسكر بحمام أعين واستخلف على الكوفة عمه داود بن على

بعد أن بلغوا هذا المبلغ بقى عليهم أن يقضوا على مروان بن محمد والقوة العظمى التى معه بالجزيرة وعلى ابن هبيرة والقوة التى معه بواسط

كان مروان بحران معه قوة عظيمة ومنها سار حتى أتى الموصل فاختار أبو العباس من أهل بيته عمه عبد الله بن على ليكون قائدا للجنود التى اختيرت لحرب مروان وكان ملتقى هذين الجيشين على نهر الزاب الأعلى وهو أحد روافد نهر دجلة يأتيها من الشرق وكانت الواقعة شديدة جدا انتهت بانتصار عبد الله وجنوده فهرب مروان واحتوى عبد الله معسكره كله وذلك لاحدى عشرة خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣٢ وكان مع مروان من الجنود ١٢٠ ألفا من نخبة أهل الشام وخيرة جنودها

انهزم مروان حتى أتى حران وعاملها ابن أخيه أبان بن يزيد بن محمد فأقام بها نيفا وعشرين يوما ولما دنا منه عبدالله رحل عنها بأهله وولده وقدم عبد الله فلقيه أبان مسودا مبايعا له فبايعه ودخل فى طاعته فأمنه ومن كان بحران والجزيرة

مضى مروان حتى أتى قنسرين وعبد الله يتبعه ثم مضى منها إلى حمص ثم أتى دمشق وعليها الوليد بن معاوية بن مروان فلما أحس باقتراب عبد الله رحل عنها فجاءها عبد الله ودخلها عنوة معترضا أهلها وقتل الوليد بن معاوية أميرها فيمن قتل

مر مروان بالأردن وفلسطين ومضى حتى أتى الفسطاط ومنها خرج إلى بوصير وهى قرية من مركز الواسطى ببنى سويف

أما عبد الله بن على فجاءه كتاب من أبى العباس يأمره أن يوجه صالح بن على فى ملاحقة مروان فسار صالح فى ذى القعدة سنة ١٣٢ وكان يسير على ساحل البحر

والسفن حذاءه حتى وصل إلى مصر ومن هناك سار حتى أتى بوصير وهناك قتل مروان بن محمد لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ١٣٢ وبقتله انتهت دولة بنى أمية من المشرق وتوطدت دعائم الدولة العباسية

وأما يزيد بن عمر بن هبيرة فانه لما انهزم من جيش خراسان أتى واسطا وتحصن بها وكان مشيروه قد أشاروا عليه بأن يذهب إلى الكوفة فيقاتل حتى يقتل أو يظفر وحذروه واسطا كيلا يصير فى حصار وليس بعد الحصار إلا القتل فخالف تلك الشورى فسير أبو سلمة الجيوش تحت قيادة الحسن بن قحطبة فكانت بينهم وقائع ثم احتمى ابن هبيرة ومن معه بحصونهم . ولما طال الأمر أرسل أبو العباس أخاه أبا جعفر على الجيش فاحتدم القتال بين الفريقين وظلوا هكذا أحد عشر شهرا . ولما أتى ابن هبيرة قتل مروان بن محمد طلب بمن معه الصلح وجرت السفراء بينه وبين أبى جعفر حتى جعل له أمانا وكتب به كتابا مكث يشاور العلماء فيه أربعين ليلة حتى رضيه ابن هبيرة ثم أنفذه إلى أبى جعفر فأنفذه أبو جعفر إلى السفاح فأمر بامضائه وكان رأى أبى جعفر الوفاء له بما أعطاه وكان السفاح لايقطع أمرا دون أبى مسلم فكتب أبو مسلم إلى السفاح يقول له إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد لا والله لايصلح طريق فيه ابن هبيرة

ولما تم الكتاب خرج ابن هبيرة إلى أبى جعفر فدخل عليه وحادثه ساعة وبعد أيام أمر أبو جعفر بقتل ابن هبيرة ومداد الأمان لم يجف وقتل معه عدة من وجوه أصحابه ورثاه منقذ بن عبدالرحمن الهلالى بقوله :

منع العزاء حرارة الصدر ٭ والحزن عقد عزيمة الصبر
لما سمعت بوقعة شملت ٭ بالشيب لون مفارق الشعر
أفنى الحماة الغر إن عرضت ٭ دون الوفاء حبائل الغدر
مالت حبائل أمرهم بفتى ٭ مثل النجوم حففن بالبدر
عالى نعيهم فقلت له ٭ هلا أتيت بصيحة الحشر
لله درك من زعمت لنا ٭ أن قد حوته حوادث الدهر
من للمنابر بعد مهلكهم ٭ أو من يسد مكارم الفخر
فاذا ذكرتهم شكا ألما ٭ قلبى لفقد فوارس زهر

قتلى بدجلة ما يغرهم ✽ إلا عباب زواخر البحر
فلتبك نسوتنا فوارسهم ✽ خير الحماة ليالى الذعر

وبقتل ابن هبيرة انطفأ آخر مصباح للدولة الأموية

قامت الدولة العباسية ودخل فى حوزتها هذا الملك الطويل العريض الذى وضع أساسه خارج جزيرة العرب أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاد بنيانه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومكن قواعده وزان جوانبه بنو أمية بن عبد شمس وسنأتى على وصفه بعد أن نبدى ملاحظة بشأن قيام هذه الدولة

قامت هذه الدولة باسم الدين . والسلاح الذى استعمل فيها للتأثير فى العقول هو إعادة الأمر لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزعه من آل مروان الذين وصفهم الداعون بما شاؤا من صفات النقص والبعد عن الدين ووضعوا فى ذمهم أحاديث أسندوها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يعرفها رجال النقد من المحدثين . كان ذلك السلاح يصل إلى شغاف القلوب فيثيرها من مكمنها

اختار القوم لغرس دعوتهم بلادا كانت قبل مهدا للتشيع وحب آل البيت وهى الكوفة وخراسان . فقديما قامت بلاد العراق بنصر على بن أبى طالب وقامت لتأثر بالحسين بن على وجاهدت فى نصرة زيد بن على بن الحسين وابنه يحيى فلم تترك فرصة لذلك إلا انتهزتها . ثم اختاروا بلاد خراسان لتكون مشرقا لقوتهم وأذاعوا فى ذلك أحاديث كثيرة فأعدوا قلوب أهلها لذلك . وكان الذين دخلوا فى الاسلام من الفرس أقرب من غيرهم إلى التأثر بآراء الشيعة لأنهم لا يفرقون بين خلافة وملك وكان الملك عندهم ينال بالارث وهو منحة يمنحها الله للأسرة المالكة فمن عارضها فيه فهو خارج عليها يستحق المقت واللعنة فاذا ألقى إليهم فى التعاليم أن بنى أمية غصبوا أهل بيت النبى حقهم سهل إلى ذلك إجابتهم واعتقدوا أن بنى أمية يجب قتالهم وتخليص هذا الحق المقدس منهم ولهذا كان من الوصايا التى بنيت عليها سياسة الدعوة العباسية (إن قدرت ألا تبقى بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل) وهى وصية لم تلاحظ فيها العواقب البعيدة وإنما لوحظت فيها الفوائد العاجلة

وفوق ما تقدم كانت أمة الفرس ذات تاريخ عظيم قديم وكانت لها السيادة على

أكثر الأمم العربية بالعراق واليمن ثم رأوا دولتهم قددالت وصاروا موالى للعرب يتحكم العرب فى رقابهم وفى أموالهم فوجدوا هذه فرصة يستردون بها شيئاً مما كان لهم من العظمة التاريخية ويذلون هؤلاء العرب الذين سطوا عليهم فرأوا أنهم بمساعدتهم لهذه الدولة الجديدة يكونون أصحاب الكلمة المسموعة فيها والسلطان النافذ . وتأثير هذا السبب فى الخاصة أكثر منه فى العامة . فهذا النزاع كان فى الحقيقة بين العرب والفرس لا بين بنى أمية والعباس وحدهم

استعان القوم بأمر هذه الدعوة على عرب خراسان بما كان بينهم من الخلاف الذى أحيته العصبية الجاهلية وهذه العصبيات عند العرب لا يمكن إخمادها إلا من طريق الدين . وكان تأثيره قدضعف إذذاك . على أن الأمراء كانوا يزيدون من سورته حدة كأنهم رأوا أن سلطانهم لا يتم إذا اجتمعت الأمة . وقد أثبت التاريخ أن جميع الأغبياء من الملوك والأمراء متى رأوا مصلحتهم فى إيقاع الخلاف والنفرة بين أممهم وعملوا بذلك يزول بسرعة ملكهم

استعمل فى الوصول إلى إحياء الدولة العباسية عسف شديد جداً فقد كان من الوصايا التى ألقيت إلى أبى مسلم (واقتل من شككت فيه) ولا يخفى أن حزم أبى مسلم كان يسوقه إلى كثرة الشك فيمن دخل تحت لوائه من عرب وعجم فلم يكن يتأخر لحظة فى قتل من دخله أقل ريب فيه حتى وصل إلى غرضه وسنبين أن هذه القاعدة أتت على أكبر رجال هذه الدولة وعلى أبى مسلم أيضاً وقد أحصى من قتله أبو مسلم صبرا فكان ستمائة ألف

ولم يكن القوم يأنفون من الغدر بمن ائتمنهم وهذا على خلاف ما كانت عليه العرب فى جاهليتهم وفى بدء إسلامهم وفى فتوحهم فقد كان الوفاء عندهم من ألزم ما يجب عليهم ووصايا أمرائهم فى ذلك معروفة مشهورة فلما دخل بينهم هؤلاء الأغتام سهلوا لهم طريق الغدر بمن ائتمنهم على حياته واستحقوا بذلك ما حلاهم به محمد بن على بن طباطبا فى كتابه المعروف بالفخرى فى الآداب السلطانية قال : اعلم أن الدولة العباسية كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة

قتلى بدجلة ما ينهنهم * إلا عباب زواخر البحر
فلتبك نسوتنا فوارسهم * خير الحماة ليالى الدهر

وبقتل ابن هبيرة انطفأ آخر مصباح للدولة الأموية

قامت الدولة العباسية ودخل فى حوزتها هذا الملك الطويل العريض الذى وضع أساسه خارج جزيرة العرب أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاد بنيانه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ومكن قواعده وزان جوانبه بنو أمية بن عبد شمس وسنأتى على وصفه بعد أن نبدى ملاحظة بشأن قيام هذه الدولة

قامت هذه الدولة باسم الدين . والسلاح الذى استعمل فيها للتأثير فى العقول هو إعادة الأمر لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزعه من آل مروان الذين وصفهم الداعون بما شاؤا من صفات النقص والبعد عن الدين ووضعوا فى ذمهم أحاديث أسندوها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لايعرفها رجال النقد من المحدثين . كان ذلك السلاح يصل إلى شغاف القلوب فيثيرها من مكمنها

اختار القوم لغرس دعوتهم بلادا كانت قبل مهدا للتشيع وحب آل البيت وهى الكوفة وخراسان . فقديما قامت بلاد العراق بنصر على بن أبي طالب وقامت لثأر بالحسين بن على وجاهدت فى نصرة زيد بن على بن الحسين وابنه يحيى فلم تترك فرصة لذلك إلا انتهزتها . ثم اختاروا بلاد خراسان لتكون مشرقا لقوتهم وأذاعوا فى ذلك أحاديث كثيرة فأعدوا قلوب أهلها لذلك . وكان الذين دخلوا فى الاسلام من الفرس أقرب من غيرهم إلى التأثر بآراء الشيعة لأنهم لايفرقون بين خلافة وملك وكان الملك عندهم ينال بالارث وهو منحة يمنحها الله للأسرة المالكة فمن عارضها فيه فهو خارج عليها يستحق المقت واللعنة فاذا ألقى اليهم فى التعاليم أن بنى أمية غصبوا أهل بيت النبى حقهم سهلت إلى ذلك إجابتهم واعتقدوا أن بنى أمية يجب قتالهم وتخليص هذا الحق المقدس منهم ولهذا كان من الوصايا التى بنيت عليها سياسة الدعوة العباسية (إن قدرت ألاتبقى بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل) وهى وصية لم تلاحظ فيها العواقب البعيدة وإنما لوحظت فيها الفوائد العاجلة

وفوق ماتقدم كانت أمة الفرس ذات تاريخ عظيم قديم وكانت لها السيادة على

أكثر الأمم العربية بالعراق واليمن ثم رأوا دولتهم قد دالت وصاروا موالى للعرب يتحكم العرب فى رقابهم وفى أموالهم فوجدوا هذه فرصة يستردون بها شيئاً مما كان لهم من العظمة التاريخية ويذلون هؤلاء العرب الذين سطوا عليهم فرأوا أنهم بمساعدتهم لهذه الدولة الجديدة يكونون أصحاب الكلمة المسموعة فيها والسلطان النافذ . وتأثير هذا السبب فى الخاصة أكثر منه فى العامة . فهذا النزاع كان فى الحقيقة بين العرب والفرس لا بين بنى أمية والعباس وحدهم

استعان القوم بأمر هذه الدعوة على عرب خراسان بما كان بينهم من الخلاف الذى أحيته العصبية الجاهلية وهذه العصبيات عند العرب لا يمكن إخمادها إلا من طريق الدين . وكان تأثيره قد ضعف إذذاك . على أن الأمراء كانوا يزيدون من سورته حدة كأنهم رأوا أن سلطانهم لا يتم إذا اجتمعت الأمة . وقد أثبت التاريخ أن جميع الأغبياء من الملوك والأمراء متى رأوا مصلحتهم فى إيقاع الخلاف والنفرة بين أممهم وعملوا بذلك يزول بسرعة ملكهم

استعمل فى الوصول إلى إحياء الدولة العباسية عسف شديد جداً فقد كان من الوصايا التى ألقيت إلى أبى مسلم (واقتل من شككت فيه) ولا يخفى أن حزم أبى مسلم كان يسوقه إلى كثرة الشك فيمن دخل تحت لوائه من عرب وعجم فلم يكن يتأخر لحظة فى قتل من دخله أقل ريب فيه حتى وصل إلى غرضه وسنبين أن هذه القاعدة أتت على أكبر رجال هذه الدولة وعلى أبى مسلم أيضاً وقد أحصى من قتله أبو مسلم صبرا فكان ستمائة ألف

ولم يكن القوم يأنفون من الغدر بمن ائتمنهم وهذا على خلاف ما كانت عليه العرب فى جاهليتهم وفى بدء إسلامهم وفى فتوحهم فقد كان الوفاء عندهم من ألزم ما يجب عليهم ووصايا أمرائهم فى ذلك معروفة مشهورة فلما دخل بينهم هؤلاء الأغتام سهلوا لهم طريق الغدر بمن ائتمنهم على حياته واستحقوا بذلك ما حلاهم به محمد بن على بن طباطبا فى كتابه المعروف بالفخرى فى الآداب السلطانية قال : اعلم أن الدولة العباسية كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة

وصف المملكة الاسلامية حين استيلاء بني العباس

كانت المملكة الاسلامية تمتد من أقصى المشرق عند كاشغر إلى السوس الأقصى على شاطئ بحر الظلمات وطولها على ماذكره أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري في كتابه الموسوم بأحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٢٦٠٠ فرسخ وتمتد عرضاً من شواطئ بحر قزوين إلى أواخر بلاد النوبة وهي منقسمة إلى أقسام كبرى وكل قسم يشتمل على ولايات . وهانحن أولاء نذكر هذه الأقسام ومافيها من الولايات

(١) جزيرة العرب وتشتمل على أربع كور جليلة :

الأولى — الحجاز وقصبته مكة ومن مدنه طيبة وينبع والجار وجدة والطائف وغيرها .

الثانية — اليمن وما كان نحو البحر فهو غور واسمه تهامة وقصبته زبيد وما كان من ناحية الجبل فهو نجد وقصبته صنعاء

الثالثة — عمان وقصبتها صحار على شاطئ بحر الهند

الرابعة — هجر وقصبتها الأحساء

ويتبع اليمن من النواحي الأحقاف وبها من المدن حضرموت . ومهرة وبها من المدن الشحر . ويتبع هجر اليمامة وقصبتها حجر . ويتبع الحجاز وادي القرى وبهذه الجزيرة مكة وبها بيت الله الحرام والكعبة المقدسة التي جعلها الله قياما للناس وهي قبلة المسلمين كافة في صلاتهم — وبها طيبة وهي مهاجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومبعث النور الاسلامي

وأمة هذا القسم عربية محضة تتكلم اللسان العربي إلا بصحار فان نداءهم وكلامهم بالفارسية وأكثر أهل عدن وجدة فرس إلا أن اللغة عربية

ومذاهبهم السياسية التشيع ببلاد اليمن والخوارج بعمان وهجر والسنة فيما عداهما

وبشمال هذا القسم بادية العرب وهي بادية ذات مياه وغدران وآبار وتلال ورمال وقرى ونخيل قليلة الجبال كثيرة العرب مخيفة السبل خفية الطرق طيبة الهواء ردية الماء ليس بها بحيرة ولا نهر إلا الأزرق ولا مدينة إلا تيماء وفيها اثنا عشر

طريقا توصل إلى مكة منها تسع طولا يؤدين إلى مكة وثلاث عرضا يؤدين إلى الشام وبها طريق آخر لوادى القرى يؤدى اليها من البصرة ثم إلى مصر وهذه الطرق هى
(١) طريق مصر (٢) طريق الرملة (٣) طريق الشراة (٤) طريق تبوك
(٥) طريق وبير (٦) طريق بطن السر (٧) طريق الرحبة (٨) طريق هيت
(٩) طريق الكوفة (١٠) طريق القادسية (١١) طريق واسط (١٢) طريق وادى القرى (١٣) طريق البصرة . وقد أجاد وصف هذه الطرق البشارى فى كتابه أحسن التقاسيم ص ٢٤٩ ومابعدها فراجعه

(١) إقليم العراق وبه ست كور

الاولى — الكوفة وقصبتها الكوفة وهى من المدن الاسلامية وبها من المدن القادسية وعين التمر

الثانية — البصرة وقصبتها البصرة وهى من المدن الاسلامية وبها من المدن الأبلة وعبادان

الثالثة — واسط وقصبتها واسط وهى من المدن الاسلامية وبها من المدن فم الصلح

الرابعة — المدائن وقصبتها المدائن وهى مدينة كسروية وبها النهروان والدسكرة وجلولاء

الخامسة — حلوان وقصبتها حلوان وبها من المدن خانقين والسيروان

السادسة — سامراء وقصبتها سامراء وبها من المدن الكرخ وعكبرا والأنبار وهيت وتكريت

وهذا الاقليم كان يسمى فى القديم اقليم بابل وهكذا كان اسمه فى التقويم لأول عهد العباسيين ولقد كان زهرة ملك العباسيين وأجمل بلدان الدنيا وأثراها ورافداه الدجلة والفرات من أحسن أنهار الدنيا

وأمة هذا الاقليم نبطية دخل عليها العرب فى بلادها فزاحموها وصارت كأنها لهم ولذلك صارت لغة هذا الاقليم عربية وأصح لغاتهم الكوفية لقربها من البادية وبعدهم عن النبط وأما البطائح فنبط والذين نزلوا بهذا الاقليم من العرب أكثر من الذين نزلوا منهم بأى إقليم آخر ماعدا الشام والجزيرة وقد كانوا بهذه الأقاليم

الثلاثة قبل الاسلام وكان بها منهم ملوك المناذرة بالعراق والغساسنة بالشام إلا أنهم لم يكونوا مستقلين بالملك بل كانوا تحت رعاية الفرس والروم فلما جاء الاسلام اتسق لهم الملك بالاقليمين وكان الشام مهد الدولة الأموية كما كان العراق مهد الدولة العباسية

ومساحة العراق طولا من البحر إلى السن ١٢٥ فرسخ وعرضه من العذيب إلى عقبة حلوان ٨٠ فرسخاً فاذا كسرته كان ١٠٠٠٠ فرسخ

(٣) اقليم الجزيرة جزيرة أقور أو أثور أو أشور وهى ما بين دجلة والفرات وبها ثلاث كور

الأولى — ديار ربيعة وقصبتها الموصل ومن مدنها الحديثة وسنجار ونصيبين ودارا ورأس العين وثمانين وبها ناحية جزيرة ابن عمر

الثانية — ديار مضر وقصبتها الرقة وبها من المدن باجروان وحصن مسلمة وحران والرها

الثالثة — ديار بكر وقصبتها آمد وبها من المدن ميافارقين وحصن كيفا

وقد نزل العرب قبل الاسلام بهذا الاقليم وكانت به قبائل شتى من جميع العدنانيين حتى سميت كوره بأسمائهم ولذلك يعتبر إقليما عربياً محضاً لأن من كان به من الآشوريين وغيرهم درست آثارهم وينتهى هذا الاقليم إلى حدود الروم وأرمينية

(٤) إقليم الشام وبه ست كور

الأولى — قنسرين وقصبتها حلب ومن مدنها إنطاكية وبالس وسميساط ومنبج وقنسرين ومرعش واسكندرونة ومعرة النعمان

الثانية — حمص وقصبتها حمص ومن مدنها سلمية وتدمر واللاذقيه وانطرسوس

الثالثة — دمشق وقصبتها دمشق ومن مدنها بانياس وصيدا وبيروت وطرابلس

الرابعة — الأردن وقصبتها طبرية ومن مدنها صور وعكا وبيسان واذرعات

الخامسة — فلسطين وقصبتها الرملة وبها بيت المقدس وعسقلان ويافا وأرسوف وقيسارية وأريحا وعمان

السادسة — الشراة وقصبتها صغر ومن مدنها مآب وعمان وتبوك وأذرح وهذا الاقليم دخله العرب قبل الاسلام وملكوا به وزاحموا من كان به من الأمم القديمة

ولما جاء الاسلام كان مهداً عظيما من مهاد الحضارة العربية الاسلامية ولغة أهله عربية

وحدود هذا الاقليم من الشمال بلاد الروم وكانت المدن التى على حدوده وحدود الجزيرة يقال لها الثغور وعندها يكون الجهاد لرد غارة الروم وحفظ البلاد الاسلامية وفتح ما يمكن فتحه من البلدان

وبهذا الاقليم بيت المقدس وهو ثالث المساجد المقدسة بناه سليمان بن داود عليهما السلام حينما كان ملكا على بنى إسرائيل واحتفل فى بنائه كثيراً ويعظمه جميع الأديان من موسوى وعيسوى ومحمدى

(٥) اقليم مصر وبه سبع كور على حسب التقويم القديم

الأولى — الجفار وقصبتها الفرما وبها من المدن البقارة والورادة والعريش

الثانيـة — الحوف وقصبتها بلبيس وبها من المدن مشتول وفاقوس وغيرهما

الثالثـة — الريف وقصبتها العباسية وبها من المدن دمنهور وسنهور وبنها العسل وشطنوف ومليج والمحلة الكبيرة ودقهلة

الرابعـة — اسكندرية وقصبتها اسكندرية وبها من المدن رشيد ومريوط والبرلس وذات الحمام

الخامسة — مقدونيا وقصبتها الفسطاط ومن مدنها العزيزية والجيزة وعين شمس

السادسة — الصعيد وقصبتها أسوان وبه من المدن قوص وإخميم والبلينا والفيوم وغيرها

السابعة — الواحات

وأمة هذا الاقليم كانت فى القديم مصرية قبطية ساكنها كثير من الأمم التى ملكتها كاليونان والرومان وغيرهم وكان بالحوف بعض قبائل عربية تقيم فيها ولما جاء الاسلام جاءها كثير من العرب الفاتحين فأقاموا فى مدنها الكبرى ثم جاءت قبائل كثيرة من قيس فى عهد الدولة الأموية وأقامت بالحوف (الشرقية) ثم اختلطت هذه الأمة الفاتحة بالمصريين تمام الاختلاط فتزاوجوا حتى غلب على الجمهور اللسان العربى والدين الاسلامى وذلك بعد تملك الدولة العباسية

أما أول عهدها فكان أ كثر الفلاحين بالقرى أقباطا لا يزالون على دينهم

(٦) اقليم المغرب وهو ثمانى كور
الأولى — برقة وقصبتها برقة وبها من المدن رمادة وطرابلس
الثانية — إفريقية وقصبتها القيروان وبها من المدن اسفاقس وسوسة وتونس وبونة وجزيرة بنى زغنايه — ومنستير
الثالثة — تاهرت وقصبتها تاهرت وبها من المدن مطاطة ووهران وغيرهما
الرابعة — سجلماسة وقصبتها سجلماسة وبها من المدن درعة وامصلى وتازروت
الخامسة — فاس وقصبتها فاس وتسمى الكورة السوس الأدنى وأما فاس فحدثة بعد عهد العباسيين ومن مدنها البصرة وورغة وصنهاجة وهوارة وسلا
السادسة — السوس الأقصى وقصبتها طرفانة ومن مدنها إغمات وماسة وغيرهما
السابعة — الأندلس وقصبتها قرطبة وكانت لعهد بنى أمية تتبع أمير إفريقية وعليها وال من قبله . وهذا الاقليم كان يسكنه قبل الاسلام البربر وساكنهم فيه كثير من الرومان والويزيغوط الذين ملكوا المغرب قبل الاسلام فلما جاء الاسلام دخله العرب الفاتحون وزاحموا البربر إلا أنهم لم يكثروهم لقلتهم ولم يكثر العنصر العربى بها إلا بعد ذلك فى منتصف القرن الخامس فأمة هذا الاقليم الغالبة عليه لهذا العهد بربرية واللسان الغالب هو اللسان البربرى

(٧) إقليم المشرق وهو إقليم ذو جانبين الأول فى الشرق وهو ما كان شرقى جيحون أو أموداريا ويسمى بما وراء النهر أو هيطل والثانى فى الغرب وهو ما كان غربى جيحون ويسمى خراسان

(١) ماوراء النهر قال البشارى هذا الجانب أخصب بلاد الله تعالى وأكثرها خيراً وفقها وعمارة ورغبة فى العلم واستقامة فى الدين وأشد بأساً وأغلظ رقاباً وأدوم جهاداً وأسلم صدوراً وأرغب فى الجماعات مع يسار وعفة ومعروف وضيافة وتعظيم لمن يفهم

وبهذا القسم ست كور
الأولى — فرغانة وقصبتها اخسيكث ومن مدنها نصراباذ وأوزكند ومرغينان وغيرها

الثانية — اسبيجاب وقصبتها اسبيجاب ومن مدنها فاراب وترار وطراز وبلاسكون وغيرها

الثالثة — الشاش وقصبتها بنكث ومن مدنها نكث وغيرها

الرابعة — أشروسنة وقصبتها بنجكث

الخامسة — الصغد وقصبتها سمرقند وهى مصر الاقليم

السادسة — بخارى وقصبتها بخارى ومن مدنها بيكند

وهذا الاقليم يمر به نهر جيحون العظيم ويتشعب منه أنهار كثيرة ويقلب فيه أنهار ستة وعليه كور ومدن . فالكور هى الختل وقصبتها هلبك . ثم قواديان ومدينتها نير . ثم خوارزم وهى على حافتى جيحون قصبتها العظمى شرقى النهر وهى كاث ولها قصبة أخرى غربية وهى الجرجانية وعلى النهر من المدن ترمذ وكالف ونويدة زم وفربز وآمل

(ب) خراسان وبها تسع كور

الأولى — بلخ وقصبتها بلخ وبها ناحية طخارستان ومن مدنها ولواج والطالقان

الثانية — غزنين وقصبتها غزنين وبها من المدن كابل

الثالثة — بست وقصبتها بست . وبعض الناس يجمع غزنين إلى بست ويجعلهما كورة واحدة يسميها كابلستان

الرابعة — سجستان وقصبتها زرنج

الخامسة — هراة وقصبتها هراة ومن مدنها باذغيس

السادسة — جوزجانان وقصبتها اليهودية

السابعة — مرو الشاهجان وهى القصبة وبها ناحية مرو الروز

الثامنة — نيسابور والقصبة إيرانشهر وبها من المدن بيهق وطوس ونسا وابيورد

التاسعة — قهستان وقصبتها قاين

وهذا الأقليم من أعمر الأقاليم الاسلامية وأهل خراسان منه هم الذين أقاموا الدولة العباسية وشيدوا صرحها ومعظمهم كان شيعة لهم أما أهل ماوراء النهر فجلهم من التركمان ولم يكن الاسلام قد شملهم لأول عهد العباسيين . وقد دخل العرب هذا الأقليم ولم يتجاوزوا النهر إلا فى عهد الدولة الأموية وقد كثرت فتوحهم فيما وراء

النهر فى عهد قتيبة بن مسلم الباهلى العامل من قبل الحجاج . ولم تتغلب اللغة العربية على هذا الأقليم وما يأتى بعد من الأقاليم الفارسية ولكن الدين الأسلامى شملهم فصار منهم أمة إسلامية قادرة عمها العلم ولا سيما الدينى ووجد منهم أفاضل الفقهاء من الشافعية والحنفية والمحدثين والعلماء فى العلوم كافة

قال البشارى فى أحسن التقاسيم: وألسنتهم مختلفة أما لسان نيسابور ففصيح مفهوم غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ويزيدون الياء وفيه رخاوة ولجاج وأهل طوس ونسا أحسن لسانا وفى كلام سجستان تحامل وخصومة يخرجونه من صدورهم ويجهرون فيه . ولسان بست أحسن ولا بأس بلسان المروين غير أن فيه تحاملا وطولا ومدا فى أواخر الكلم . ولسان بلخ أحسن الألسن إلا أن لهم فيه كلمات تستقبح . ولسان هراة وحش تراهم ينقمون ويتكلفون ويتحاملون ثم يخرجون الكلام آخر ذلك ملوثا بالكره إلى آخر ماقال

(٨) إقليم الديلم وبه خمس كور

الأولى — قومس وقصبتها الدامغان ومن مدنها سمنان وبسطام

الثانية — جرجان وقصبتهاشهرستان ومن مدنها استراباذ وآبسكون

الثالثة — طبريستان وقصبتها آمل ومن مدنهاسالوس وسارية

الرابعة — الديلمان وقصبتها بروان

الخامسة — الخزر وقصبتها إتل ومن مدنهابلغار وسمندر وبهذه الكورة نهر إتل

وهذا الأقليم لم يفش الأسلام به إلا فى عهد الدولة العباسية ولم يتأثر كثيراً باللغة العربية

(٩) إقليم الرحاب وهو ثلاث كور

الأولى - أران وقصبتها برذعة ومن مدنها تفليس وشروان وباب الأبواب وملازكرد

الثانى — أرمينية وقصبتها أردبيل ومن مدنها مدليس وخلاط وخوى وسلماس وأرمية ومراغة ومرند وقاليقلا

الثالث — أذربيجان وقصبتها أردبيل ومن مدنها تبريز

وهذا الأقليم به كثير من الأجناس والألسنة فيه الكرد والأرمن والفرس وغيرهم

ويخترقه نهر الكر وهو يتخلل مدينة برذعة ومدينة تفليس وبه نهر الرس ونهر الملك ولم يفش الاسلام بهذه البلاد إلا فى عهد الدولة العباسية واللغة العربية به قليلة

(١٠) إقليم الجبال وبه ثلاث كور
الاولى ـــ الرى وقصبتها الرى وبها من المدن آوة وساوة وقزوين وأبهر
الثانيـة ـــ همذان وهى القصبة ومصر الأقليم
الثالثـة ـــ أصفهان وقصبتها اليهودية

(١١) إقليم خوزستان ويعرف بالأهواز وبه سبع كور وهى
الأولى ـــ السوس وهى تتاخم العراق والجبال
الثانيـة ـــ جنديسابور وهى القصبة وكانت مصر الأقليم
الثالثـة ـــ تستر وهى القصبة وليس بالأقليم أجل منها
الرابعة ـــ عسكر مكرم وهى القصبة وبها من المدن جوبك وزيدان وسوق الثلاثاء
الخامسة ـــ الأهواز وبها من المدن تيرى ومناذر الكبرى ومناذر الصغرى
السادسة ـ الدورق كورة تتاخم العراق من مدنها آزر وأجم وغيرهما وقصبتها الدورق
السابعة ـــ رامهرمز كورة تتاخم فارس وهى القصبة
ولهذا الأقليم لسان خاص به يعرف باللسان الخوزى

(١٢) إقليم فارس وبه ست كور
الأولى ـــ أرجان وهى القصبة
الثانيـة ـــ اردشير خرة وقصبتها سيراف وهى ممتدة على البحر
الثالثـة ـــ درابجرد وهى القصبة وكانت فى القديم مصر الأقليم
الرابعـة ـــ شيراز وقصبتها على اسمها وهى مصر الأقليم وبها من المدن البيضاء وفسا
الخامسة ـــ سابور وقصبتها شهرستان ومن مدنها كازرون والنوبندجان وتوز
السادسة ـــ اصطخر وهى أوسع الكور وقصبتها على إسمها
وبهذا الأقليم عدد عظيم من الأكراد وباسمه سميت البلاد الفارسية كلها

(١٣) إقليم كرمان وبه خمس كور
الأولى ـــ بردسير وقصبتها على اسمها ومن مدنها ماهان وكوغون وزرند

الثانيـة ـــ نرماسير وهى القصبة

الثالثـة ـــ السيرجان وقصبتها على اسمها وهى مصر الأقليم

الرابعة ـــ بم وهى تتاخم فارس

الخامسة ـــ جيرفت وهى على البحر

(١٤) إقليم السند وبه خمس كور

الأولى ـــ مكران وقصبتها بنجبور

الثانيـة ـــ طوران وقصبتها قصدار

الثالثـة ـــ السند وقصبتها المنصورة ومن مدنها ديبل

الرابعة ـــ ويهند والقصبة باسمها

الخامسة ـــ قنوج وهى القصبة

وبهذا الأقليم نهر مهران وهو يشبه النيل فى الحلاوة والزيادة ووجود التماسيح فهذه أربعة عشر اقليما منها ستة عربية وثمانية أعجمية والمراد بكونها عربية تغلب اللسان العربى على أهلها وإلا فأصل اقليم العرب هو جزيرتهم فحسب

وتشتمل هذه الأقاليم على ثلاث وثمانين كورة يجبى منها جميعها الخراج إلى حاضرة الدولة حيث يحمل منها مابقى عن مصروفها وذلك شىء عظيم

هذا هو الملك الطويل العريض الذى ورثه العباسيون بهمة شيعتهم من أهل خراسان . وليس عدد ولاة هذه الدولة بعدد الأقاليم التى بيناها بل كان بعض الأقاليم فيه الواليان والثلاثة وبعضها قد يضم إلى والى اقليم آخر حسب الأحوال

ففى بعض أيام بنى أمية قد جمع العراقان وفارس كلها لوال واحد كما كان الحجاج ابن يوسف فقد كان أمير المشرق كله من نهر الفرات إلى نهر جيحون وله ولاة من قبله على الأقاليم أو الكور التى تحت يده . وفى بعض الأحيان كانت تضم أفريقية كلها إلى والى مصر ويرسل من قبله والياً على أفريقية

والجزيرة العربية لم تجتمع كلها لوال واحد بل كان للحجاز وال ولليمن وال أما اليمامة وعمان فربما أضيفتا إلى والى العراق كما كان الحجاج بن يوسف

ونحن الآن شارعون فى تفصيل أحوال بنى العباس وتبيين مافعلوه فى هذا الميراث مقارنين ذلك عند اللزوم بما كان عليه الحال فى الدولة الأموية

فصل فى ولاية العهد والبيعة

الأصل فى انتخاب الخليفة رضا الأمة فمن ذلك يستمدقوته . هكذا رأى المسلمون عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد انتخبوا أبا بكر الصديق اختياراً منهم لا استناداً إلى نص أو أمر من صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم وبعد أن انتخبوه بايعوه ومعنى ذلك عاهدوه على السمع والطاعة فيمافيه رضا اللهسبحانه كما أنه عاهدهم على العمل فيهم بأحكام الدين من كتابالله وسنة رسول الله صلىالله عليه وآله وسلم وهذا التعاهد المتبادل بين الخليفة والأمة هو معنى البيعة تشبيها له بفعل البائع والمشترى فانهما كانا يتصافحان بالأيدى عند إجراء عقد البيع

فمنهذه البيعة تكونقوة الخليفة الحقيقية وكانوا يرون الوفاء بها منألزم مايوجبه الدين وتحتمه الشريعة

وقد سن أبو بكر رضى الله عنه طريقة أخرى فى انتخاب الخليفة وهى أن يختار هو من يخلفه ويعاهده الجمهور على السمع والطاعة وقد وافق الجمهور الاسلامى على هذه الطريقة ورأى أن هذا مما تجب الطاعة فيه وذلك العمل هو ولاية العهد

وأول من اختار الخليفة بعده من عشيرته الأدنين معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه حيث اختار للخلافة ابنه يزيد وأخذ بيعة الجمهور له وصار الخلفاء من بعده يعهدون على هذا النمط وقد بينا فى تاريخ الدولة الأموية الأغلاط التى ارتكبها الأمويون فى ولاية العهد وأنها كانت من الأسباب التى قضت عليهم

اتبع بنو العباس فى ولاية العهد الأسلوب الذى سار عليه الأمويون وهو عقد الولاية لأكثر من واحد من الأبناء والاخوة ولم يعتبروا بمن مضى قبلهم فقد كان ذلك مبعث شرور وفتن شديدة ولما سار هؤلاء سيرة أسلافهم جلبوا على أنفسهم تلك الشرور بعينها ولم يعتبر الخالف بما أصاب السالف كما يتضح مما يأتى

ولى السفاح عهده رجلين يلى أحدهما الآخر أخاه أبا جعفر المنصور فابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على فلما تولى أبو جعفر وشب ابنهمحمد المهدى عز عليهأن يلى بعده ابن أخيه ويحرم ابنه فسام عيسى أن يخلع نفسه من ولاية العهد على أن تكون رتبته تلو رتبة المهدى فأظهر عيسى إباء فساموه خطة لايرضى بها إلا الذليل

حتى أظهرت ذات نفسه فى شعر قاله وهو :

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما * إما صغار وإما فتنة عمم
وقد هممت مرارا أن أساجلهم * كأس المنية لولا الله والرحم

ويقال إن أبا جعفر سقاه شرابا يتلفه فكاد يموت منه ولكنه أبل من علته فقال فى ذلك أحد شعراء الدولة :

أفلت من شربة الطبيب كما * أفلت ظبى الصريم من قتره
من قانص ينفذ الفريص إذا * ركب سهم الحتوف فى وتره
دفع عنك المليك صولة ليث * يريد الأسد فى ذرى خمره
حتى أتانا وفيه داخلة * تعرف فى سمعه وفى بصره
أزعر قد طار عن مفارقه * وحف أثيث النبات من شعره

ثم أجاب عيسى إلى ماطلب منه بهذا مع ما كان من حسن أثر عيسى بن موسى فى الدولة واستهدافه للنوائب وقوده الكتائب لشد دولة المنصور

لما ولى المهدى وشب ابناه موسى وهارون أعاد هذه السيرة بعينها مع عيسى بن موسى وطلب منه أن يخلع نفسه من الخلافة ليولى المهدى العهد ولده فكان ما أراد بعد أن قاسى عيسى ما قاسى من صنوف الأذى ومع مارآه المهدى من نتائج تولية اثنين للعهد لم يتعظ بل ولى ولديه موسى الهادى فهارون الرشيد

جاء الهادى فحاول أن يخلع أخاه هارون مع أن ابنه لم يبلغ الحلم فلم يفلح لأن الدفاع عن الرشيد كان قويا وقربت منية الهادى فأخرت النتائج السيئة ويقال إنه مات مسموما .

ولى الرشيد ففكر فى ولاية العهد وكان أكبر ولده محمد المأمون فعدل عنه إلى أخيه محمد الأمين لأنه ابن زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور والمأمون أمه أمة جليبة من بلاد فارس وكان ذلك العقد سنة ١٧٣ وسن الأمين لاتتجاوز ثلاث السنوات وبعد عشر سنين رأى أن يضم المأمون ليكون ولى العهد بعد الأمين وذلك برأى جعفر بن يحيى البرمكى وسعيه فعقد له سنة ١٨٣ . ثم طلب عبد الملك ابن صالح بن على من الرشيد أن يبايع لثالث أولاده القاسم بن الرشيد ففعل وسماه المؤتمن وقسم البلاد بين أولاده الثلاثة فجعل الشرق للمأمون وهو خراسان والرى

إلى همذان وجعل الغرب للأمين وهو المغرب ومصر والشام وجعل للمؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم فألقى بذلك بأسهم بينهم ووضع بيده بذور الفتنة والشر حتى قال بعض شعراء العصر :

أقول لغمة فى النفس منى ⁂ ودمع العين يطرد اطرادا
خذى للهول عدته بحزم ⁂ ستلقى ماسيمنعك الرقادا
فانك إن بقيت رأيت أمرا ⁂ يطيل لك الكآبة والسهادا
رأى الملك المهذب شر رأى ⁂ لقسمته الخليقة والبلادا
رأى مالو تعقبه بعـــلم ⁂ لبيض من مفارقه السوادا
أراد به ليقطع عن بنيه ⁂ خلافهم ويبتذلوا الودادا
فقد غرس العداوة غير آل ⁂ وأورث شمل ألفتهم بدادا
وألقح بينهم حربا عوانا ⁂ وسلس لاجتنابهم القيادا
فويل للرعية عن قليل ⁂ لقد أهدى لها الكرب الشدادا
وألبسها بلاء غير فان ⁂ وألزمها التضعضع والفسادا
ستجرى من دمائهم بحور ⁂ زواخر لايرون لها نفادا
فوزر بلائهم أبدا عليهم ⁂ أغيا كان ذلك أم رشادا .

وحج الرشيد بعقب ذلك وهناك كتب لعبدالله المأمون ابنه كتابين أجهد الفقهاء والقضاة أنفسهم فيهما أحدهما على محمد الأمين بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه والآخر نسخة البيعة التى أخذها على الخاصة والعامة والشروط لعبد الله على محمد وعليهم وجعل الكتابين فى البيت الحرام بعد أخذ البيعة على محمد وإشهاده عليه بها الله وملائكته ومن كان فى الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب فى البيت الحرام وتقدم إلى الحجبة فى حفظهما ومنع من أراد إخراجهما والذهاب بهما وقرئ الكتابان فى داخل البيت الحرام بمحضر من الأخوين وشهد عليهما الحاضرون

وقد أكد الأمر فى العهدين تأكيدا بلغ الغاية من التشديد ولكن طبيعة الملك غلابة . ماعتم الأمين أن استخلف حتى حاك فى صدره ماحاك فى صدر أسلافه وهو تقديم ابنه فى ولاية العهد على أخيه وعرض ذلك على المأمون وهو بين جنده وقواده

بخراسان فأباه طبعا لأن من ورائه قوة تدفع عنه . وكان من جراء ذلك الخلاف الهائل والوقائع المفظعة التي كانت بين جند الأمين والمأمون وتعطلت المسالك والدروب وحصرت بغداد حصرا شنيعاً وانتهى الأمر بخلع الأمين ثم قتله وحدث بعقب ذلك ثورات شديدة في أكثر البلدان الاسلامية ولو كانت لخصومهم من آل علي قوة منظمة لنجحوا وثلوا عرش ملك العباسيين

لم يعهد المأمون إلا لأخيه المعتصم وكذلك المعتصم لم يعهد إلا لابنه الواثق ومات الواثق عن غير عهد فاختير للخلافة أخوه المتوكل اختاره لها كبار الدولة بعد موت الواثق

جاء المتوكل وغلط غلطة جده الرشيد فبايع بولاية العهد لأولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر بالله ومحمد المعتز بالله وإبراهيم المؤيد بالله وعقد لكل منهم لواءين أحدهما أسود وهو لواء العهود والآخر أبيض وهو لواء العمل فأقطع أكبرهم المنتصر أفريقية والمغرب كله والعواصم والثغور جميعها الشامية والجزرية وبلاد الجزيرة والعراق والحجاز واليمن والأهواز والسند ومكران ، وأقطع ثانيهما خراسان وما يضاف اليها وطبرستان والري وأرمينية وأذربيجان وكور فارس وأقطع ثالثهم جند حمص وجند دمشق وجند فلسطين

حذا هذا الرجل حذو جده مع مارأى من سوء العاقبة ونقض العهود والمواثيق ثم زاد الطين بلة فعزم في أخريات أيامه أن يخلع المنتصر أكبر الاخوة من ولاية العهد فتمالأ المنتصر وجماعة من الأتراك على قتله فقتلوه وتولى المنتصر وبايعه أخواه ولم يلبث أن خلعهما بعد أربعين ليلة من ولايته . فأما المؤيد فقابل ذلك بالسمع والطاعة وأما المعتز فأبى وقال إن أردتم القتل فشأنكم . ثم أجاب بعد تهديد ووعيد وأشهد كلا الأخوين على نفسه بالخلع القضاة وبني هاشم والقواد ووجوه الناس هذا مع أن المنتصر لم يكن له ابن كبير يصح أن يلي العهد . وأعقب ذلك موت المنتصر فلم يتمتع بما استعجل به فمات من غير عهد

اختير للخلافة بعده أحمد المستعين بالله بن محمد بن المعتصم أخرجها الموالي عن أولاد المتوكل خوفا أن يفتكوا بهم لقتلهم أباهم

اختل نظام الخلافة ببغداد في ذلك الوقت إذ صار كبار الأتراك الذين هم من بقايا المعتصم ومن معهم من رجال الدولة يولون من شاؤا وبعد زمن يخلعونه ثم

يولون غيره حتى أتى المعتمد بالله وهو الخامس عشر منهم فعهد إلى ابن أخيه أحمد المعتضد بن طلحة بن المتوكل وعهد المعتضد إلى ابنه المكتفى ثم عادت الاضطرابات والخلع والقتل فى الخلفاء حتى جاءت دولة بنى بويه وفى عهدهم لم يكن للخلفاء إلا الاسم والتولية والعزل لبنى بويه وجميع الخلفاء الذين ولوا فى عهدهم خلعوا إلا أحمد القادر بالله فانه طال حكمه وعهد من بعده إلى ابنه القائم

بعد ذلك تسلسلت الخلافة من الخليفة إلى ابنه حتى انتهت الدولة بظهور التتار حيث أغار هولاكوخان حفيد جنكيزخان موحد التتر وقتل المستعصم سنة ٦٥٦

وخلاصة القول أن ولاية العهد فى النصف الأول من خلافة بنى العباس كانت جارية على السنن المعيب وهو تولية أكثر من واحد فترتب على ذلك شرور كثيرة وكوارث عظيمة ولم يلتفت أحد منهم لوضع نظام لذلك مع ما كانوا عليه من العلم والعرفان . أما البيعة فكانت فى الصدر الأول عبارة عن المصافحة وقول المبايع أبايعك على السمع والطاعة على العمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم زيدت عليها أيمان فى أواخر الدولة الأموية وزادت الأيمان كثيرا فى أوائل عهد الدولة العباسية ويظهر لكم ذلك من ختام العهدين اللذين كتبهما الأمين والمأمون وحفظا فى البيت الحرام وقد أثارت تلك الأيمان مسألتين شرعيتين بمكان عظيم من الأهمية

(أولاهما) طلاق المكره لأنه لايخفى أن من ضمن تلك الأيمان يمين الطلاق ومن رأى فقهاء الحجاز أن ليس للمكره يمين وقد أفتى مالك بعدم وقوع طلاق المكره وكان ذلك سببا لاهانات شديدة أصابته فى عهد المنصور ثانى خلفاء العباسيين وقد تغلب بسبب ذلك رأى فقهاء العراق أن طلاق المكره واقع

(الثانية) إضافة الطلاق إلى الزوجة التى لم تكن وقت اليمين فان البيعة لم تكن لتكتفى بطلاق الزوجات الموجودات بل تعددت ذلك إلى من يتزوجهن الحالف إلى خمسين سنة أو ثلاثين سنة وكذلك إضافة العتق إلى المملوكين الذين يحدثون بعد البيعة إلى أجل معين أو غير معين . قال فقهاء العراق إن ذلك صحيح ويلحق الطلاق من يتزوجها الحالف وخالف ذلك بعض فقهاء الحجاز كالشافعى محمد بن إدريس وقد تغلب طبعا رأى فقهاء العراق

١ — السفاح

هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأمه ريطة بنت عبيد الله بن عبد الله بن عبد المدان الحارثي ولد سنة ١٠٤ بالحميمة وهي القرية التي كان أبوه وجده نازلين بها وكان أبوه قد عهد بأمر الدعوة لابنه إبراهيم ولما أحس إبراهيم باقتراب منيته عهد لأخيه أبي العباس وأمره أن يسير بأعمامه وأهل بيته إلى الكوفة فسار إليها وبويع بالخلافة يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول سنة ١٣٢ (٣٠ اكتوبر سنة ٧٤٩) وكان مروان لايزال حيا ثم قتل مروان لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ١٣٢ (٥ أغسطس سنة ٧٥٠) ومن هذا اليوم يبتدئ التاريخ خلافة أبي العباس ولم يزل خليفة إلى أن توفي بمدينة الأنبار يوم الأحد لثلاث عشرة خلت من ذي الحجة سنة ١٣٦ (٩ يونيه سنة ٧٥٤) فتكون خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر من لدن بويع إلى أن مات وأربع سنوات وأربعة عشر يوما من لدن قتل مروان

وكان يعاصره في مملكة الروم الشرقية بالقسطنطينية قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥) وكان يملك فرنسا في عهده بابن لبراف من العائلة الثانية الكارلونجيانية ابتدأ ملك أبي العباس بالكوفة ومنها انتقل إلى الحيرة ثم إلى الأنبار ولم يكن بنو العباس يثقون بأهل الكوفة لأنهم كانوا يتشيعون لآل أبي طالب

الأحوال الداخلية

لم تكن هزيمة مروان وقتله منتهى متاعب العباسيين فانه كان لايزال في الأمة العربية وقواد ضلعهم مع بني أمية ولا يزال عندهم شيء من القوة فكانوا يثورون إما خوفا على أنفسهم من بني العباس الذين أظهروا قسوة شديدة في معاملة مغاويهم وإما طمعاً في إعادة تلك الدولة العربية التي كان لهم منها نصيب وافر فقضى أبو العباس أكثر حياته في إخماد تلك الثورات التي كانت كثيرة ولا سيما بالشام والجزيرة والتغلب على يزيد بن هبيرة الذي كان أمير العراق لمروان بن محمد وتحصن بمدينة واسط بعد غلبة العباسيين على الكوفة وما معها

وقد كانت حياته مفعمة بحوادث القسوة التي لم يشهد التاريخ مثلها مع بقايا بني أمية ومع غيرهم من أولياء الدولة الذين كان لهم الأثر المحمود في إحيائها

من الناس من إذا ظفر بخصومه قابلهم بالعفو عن ماضيهم واستصلح بذلك قلوبهم ولعمري إن ذلك لمن عزم الأمور وليس يكون إلا ممن استشعر من نفسه تمام القدرة ورأى أن سلطانه إنما يتم إذا ائتلفت القلوب المتنافرة فأما من خاف عود القوة إلى عدوه المغلوب أو كان يرى سلطانه لا يكون إلا على فرقة رعيته فانه يقسو على من ظفر به قسوة تختلف بحسب الأحوال والاستعداد

انظروا إلى ما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حينما ظفر بخصومه أهل مكة وهم الذين تحالفوا على قتله وأخرجوه من بلده ثم جردوا السيوف لحربه وهيجوا الأحزاب من قبائل العرب ليكونوا عليه في دار هجرته إنهم فعلوا ذلك لكنه لما ظفر بهم في السنة الثامنة من الهجرة قال لهم ما تظنون أني فاعل بكم قالوا خيراً أخ كريم وابن أخ كريم فقال لهم كما قال يوسف الصديق ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ أما بنو العباس فقد قسوا في معاملة بني أمية قسوة ربما لم نجد لها مثلا في الدول التي قامت على أثر دولة أخرى . فعل ذلك السفاح بالعراق وعبد الله بن علي بالشام ونهر أبي فطرس وسليمان بن علي بالبصرة وداود ابن علي بالحجاز

فأما السفاح فقد روى أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني بسنده قال كان أبو العباس جالساً في مجلسه على سريره وبنو هاشم دونه على الكراسي وبنو أمية على الوسائد قد ثنيت لهم وكانوا في أيام دولتهم يجلسون هم والخلفاء منهم على السرير ويجلس بنو هاشم على الكراسي فدخل الحاجب فقال يا أمير المؤمنين بالباب رجل حجازي أسود راكب على نجيب متلثم يستأذن ولا يخبر باسمه ويحلف ألا يحسر اللثام عن وجهه حتى يراك قال هذا مولاي سديف يدخل فدخل فلما نظر إلى أبي العباس وبنو أمية حوله حسر اللثام عن وجهه وأنشأ يقول

أصبح الملك ثابت الآساس * بالبهاليل من بني العباس
بالصدور المقدمين قديما * والرؤس القماقم الرؤاس
يا أمير المطهرين من الذم ويا * رأس منتهى كل راس

أنت مهدى هاشم وهداها ∗ كم أناس رجوك بعد إياس
لاتقيلن عبد شمس عثارا ∗ واقطعن كل رقلة وغراس
انزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والأتعاس
خوفهم أظهر التودد منهم ∗ وبهم منكم كحز المواسى
أقصهم أيها الخليفة واحسم ∗ عنك بالسيف شأفة الأرجاس.
واذكرن مصرع الحسين وزيدا ∗ وقتيلا بجانب المهراس
والامام الذى بحران أمسى ∗ رهن قبر ذى غربة وتناسى

فتغير لون أبي العباس وأصابه زمع ورعدة فالتفت بعض ولد سليمان بن عبدالملك إلى رجل منهم فقال قتلنا والله العبد ثم أقبل أبو العباس عليهم وقال يابنى الفواعل أرى قتلاكم من أهلى قد سلفوا وأنتم أحياء تتلذذون بالدنيا خذوهم فأخذتهم الخراسانية بالكافركوبات فأهمدوا إلا ما كان من أمر عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فانه استجار بداود بن على فأجاره واستوهبه من السفاح

وهذا عمل شنيع جدا ولولا تضافر الروايات بالحادثة لما تحملنا عناء تسطيرها وقد بلغ الضعف الانسانى حده بالرجل ولا يستغرب هذا الفعل من جماعة كان من أصولهم قتل أوليائهم لأقل ريبة أو شبهة . وهؤلاء أعداؤهم بالأمس ويخافون أن تكون لهم أنصار فيعيدون الحرب جذعة

ودخل سديف هذا على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك فأنشده

لايغرنك ماترى من أناس ∗ إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى ∗ لاترى فوق ظهرها أمويا

فأمر السفاح بسليمان فقتل . ومما قاله سديف هذا يهيج السفاح

كيف بالعفو عنهم وقديما ∗ قتلوكم وهتكوا الحرمات
أين زيد وأين يحي بن زيد ∗ يالها من مصيبة وترات
والامام الذى أصيب بحرا ∗ ن إمام الهدى ورأس الثقات
قتلوا آل أحمد لاعفا الذنب لمروان غافر السيئات

وأما عبد الله بن على فكان للأمويين منه يوم عصيب بنهر أبي فطرس بالشام تتبع من كان بالشام من أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم ولم يفلت منهم أحد إلا رضيع

او من هرب إلى الأندلس فقتلهم ولما فرغ من قتلهم قال

بنى أمية قد أفنيت جمعكم * فكيف لى منكم بالأول الماضى
يطيب النفس أن النار تجمعكم * عوضتم من لظاها شر معتاض
منيتم لاأقال الله عثرتكم * بليث غاب إلى الأعداء نهاض
إن كان غيظى لفوت منكم فلقد * منيت منكم بما ربى به راضى

ولم يكفه ذلك بل عمد إلى قبور بنى أمية فنبشها حتى يمحو آثارهم فنبش قبر معاوية ابن أبى سفيان فلم يجدوا فيه إلا خيطا مثل الهباء ونبش قبر يزيد بن معاوية فوجدوا فيه حطاما كأنه الرماد . ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته وكان لايوجد فى القبر إلا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فانه وجد صحيحاً لم يبل منه إلا أرنبة أنفه فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذراه بالريح

وأما سليمان بن على فانه قتل بالبصرة جماعة منهم أحضرهم وعليهم الثياب الموشية فأمر بهم فقتلوا وجروا بأرجلهم فقتلوا على الطريق

وأما داود بن على فقتل منهم بمكة والمدينة عدداً وافراً وكان قد حضر إلى مكة ومعه عدد من بنى هاشم وعدد من بنى أمية فأنشده إبراهيم بن هرمة قصيدة يقول فيها

فلا عفا الله عن مروان مظلمة * ولا أمية بئس المجلس البادى
كانوا كعاد فأمسى الله أهلكهم * بمثل ماأهلك الغاوين من عاد
فلن يكذبنى من هاشم أحد * فيما أقول ولو أكثرت تعدادى

فشمر عن ساعده فى قتل الأمويين حتى لم يبق منهم أحداً إرضاء لشهوة الانتقام التى تمكنت من قلوب بنى العباس ولم تخجلهم تلك الوحشية القاسية

ومما قيل من الكلام الجيد فى رثاء هؤلاء التعساء ماقاله مولاهم عبدالله بن عمر العبلى

تقول أمامة لما رأت * نشوزى عن المضجع الأنفس
وقلة نومى على مضجعى * لدى هجعة الأعين النعس
أبى ماعراك فقلت الهمو * م عرون أباك فلا تبلسى
لفقد الاحبة إذ نالها * سهام من الحدث المبئس
رمتها المنون بلا نكل * ولا طائشات ولا نكس
بأسهمها المتلفات النفو * س متى ماتصب مهجة تخلس

فصر عنهم فى نواحى البلا ❊ د ملقى بأرض ولم يرمس
تقى أصيب وأثوابه ❊ من العيب والعار لم تدنس
وآخر قـد دس فى حفرة ❊ وآخر قـد طار لم يحسس
إذا عن ذكرهم لم ينم ❊ أبوك وأوحش فى المجلس
فـذاك الذى غالنى فاعلمى ❊ ولا تسألى بامرىء متعس
أذلوا قناتى لمن رامها ❊ وقد ألصقوا الرغم بالمعطس

وكانت هذه المعاملة الشنيعة سبباً لهروب يعسوبهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك إلى المغرب وتأسيسه بها مملكة واسعة الأطراف أعاد فيها مجد بيته وكانت تناصى فى العلو والاحترام خلافة بنى العباس فى المشرق على صغر رقعتها

لم يزل بنو العباس يسومون بقايا بنى أمية سوء العـذاب فاختفى بعضهم وهرب بعضهم وكان ممن اختفى عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة بن أبى سفيان فلما رأى أنه لا يكون فى قبيلة ولا ناحية إلا شهر أمره بها اعتزم أن يفدى حرمه بنفسه وصار إلى سليمان بن على بالبصرة فقال له أصلح الله الأمير لفظتنى البلاد إليك ودلنى فضلك عليك فاما قتلتنى غانما وإما رددتنى سالماً فقال ومن أنت ماأعرفك فانتسب له فقال سليمان مرحباً بك اقعد فتكلم آمناً غانماً ماحاجتك فقال إن الحرم اللواتى أنت أقرب الناس إليهن معنا وأولى الناس بهن بعدنا قد خفن لخوفنا ومن خاف خيف عليه فدمعت عينا سليمان ثم قال ياابن أخى يحقن الله دمك ويحفظك فى حرمك ويوفر عليك مالك والله لو أمكننى ذلك فى جميع أهلك لفعلت فكن متواريا كظاهر وآمناً كخائف ولتأتنى رقاعك فكان عمرو يكتب إليه كما يكتب الرجل إلى أبيه وعمه . ثم كتب سليمان إلى السفاح (ياأمير المؤمنين إنه قـد وفد وافد من بنى أمية علينا وإنا إنما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم فاننا يجمعنا وإياهم عبد مناف والرحم تبل ولا تقطع وترفع ولا توضع فان رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لى فليفعل وإن فعل فيجعل كتاباً عاماً إلى البلدان نشكر الله تعالى على نعمه عندنا وإحسانه إلينا) فأجابه إلى ما سأل فكان هذا أول أمان بنى أمية بعـد أن بدد شمل سرواتهم قتلا وتشريداً واطمأن من جهتهم بال السفاح ولكن بعد أن فتح على نفسه وعلى من يخلفه بعـده من آل بيته فتحاً لا يمكنهم رتقه وهو وجود خلافة أخرى إسلامية بالجنوب الغربى

من قارة أوروبا

ولم تكن الشدة فى المعاملة قاصرة على أعدائهم بل نال أوليائهم منها شيء عظيم لا ننسى أن من أعظم الرجال أثراً فى قيام هذه الدولة أبا سلمة حفص بن سليمان الذى كان يقال له وزير آل محمد . لما تم الأمر لبنى العباس اتهموه بأنه كان يريد تحويل الخلافة عنهم إلى آل على بن أبى طالب وكانوا يريدون قتله لكنهم أحبوا مشاورة أبى مسلم فى ذلك فبعث السفاح أخاه أباجعفر إلى خراسان لمقابلة أبى مسلم واستشارته فى ذلك فسار أبو جعفر حتى جاء مرو وهناك أخبر أبا مسلم خبر أبى سلمة فقال أكفيكموه ثم انتدب رجلا وامره أن ينطلق إلى الكوفة فيقتل أبا سلمة حيث لقيه فقدم الرجل الكوفة وتربص لأبى سلمة حتى خرج من عند السفاح وقتله غيلة فى طريقه وأشاعوا أن الخوارج قتلوه ثم قتل بعد ذلك أبومسلم جميع عماله بفارس هكذا ذهبت حياة هذا الرجل ذى الأثر الصالح فى دولتهم من غير تحقيق أمره ولا استماع لحجته بل فعلوا به فعل من لا نظام لهم ولا دولة

وفى هذا الوقت اتهم أبو مسلم بتلك التهمة رجلا آخر لا يقل أثراً عن أبى سلمة وهو سليمان بن كثير الذى قاله فى حقه إبراهيم الامام (ولا تخالف هذا الشيخ ولا تعصه وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به منى) فأحضره وقال له أتحفظ قول الامام لى من اتهمته فاقتله قال نعم قال فانى قد اتهمتك . فقال أنشدك الله قال لا تناشدنى الله وأنت منطو على غش الامام فأمر به فضرب عنقه . قتل الرجل بعد استقرار الأمر بمجرد تهمة لم تظهر للناس صحتها ولم تنفعه سابقته ولا حسن أثره

وعلى الجملة فان حياة أبى العباس انقضت كلها فى الخلاص من بنى أمية والاطمئنان من جهة كل من يرتابون فى إخلاصه فسفكت دماء كثيرة وأحدثت قدوة سيئة فى نكث العهود واغتيال المخالفين

وكان أكبر الرجال فى عهده الذين لهم سلطان ونفوذ وشدة عزيمة ثلاثة رجال (١) أبو مسلم الخراسانى بالمشرق (٢) أبو جعفر المنصور بالجزيرة وأرمينية والعراق (٣) عبدالله بن على بالشام ومصر فهؤلاء الثلاثة كانوا أساطين دولته وعلى أيديهم كان كل ما يجرى فيها من خير وشر إلا أن هؤلاء الثلاثة لم يكن عندهم إخلاص بعضهم لبعض فان أبا جعفر كان يحسد أبا مسلم على سلطانه النافذ وكلمته المطاعة حتى طلب

من السفاح أن يغتاله وأكثر فى ذلك وكاد السفاح يوافقه لولا خوفه من الخراسانية أن يعيدوا الحرب جذعة . وعبد الله بن على كان يطمع أن تكون الخلافة له بعد السفاح لما له من سابق الخدمة فى تأسيس الدولة وأنه الذى قام بهزيمة مروان وقطع دابر بنى أمية وكان يخاف أن يفوز بها أبو جعفر . فكانت هذه الأفكار سبباً فى حوادث جسام سيمر بكم ذكرها

أراد أبو مسلم القدوم من مرو على السفاح فكتب إليه يستأذنه فى الحج وأذن له ولما كان السفاح لا يميل إلى تولية أبى مسلم موسم الحج أرسل إلى أخيه أبى جعفر يأمره أن يستأذنه فى الحج ففعل وأذن له وبطبيعة الحال ولاه الموسم ولم يكن لأبى مسلم أن يظهر اشمئزازه من تقدم أبى جعفر عليه وإن كان قد قال شيئا من ذلك لبعض خاصته حيث قال أما وجد أبو جعفر عاما يحج فيه غير هذا

لما وصل أبو مسلم الأنبار قال له السفاح لولا أن أبا جعفر أرسل إلى يستأذننى فى الحج هذا العام لوليتك الموسم . وقد حج فى هذا العام وهو سنة ١٣٦ الخلان ومرا من طريق واحدة يقدم أحدهما الآخر وكان أبو مسلم يظهر من قوته وكرمه فى الطريق ما يزيد فى حسد أبى جعفر له وكان ذلك من متممات عزمه على الفتك به

كان معظم الولاة للسفاح من أعمامه وبنى أعمامه . وكان فى عهده من الاصلاح الداخلى ضرب المنار والأميال من الكوفة إلى مكة وكانوا يمسحون الأرض بالذراع الهاشمية وعند تمام الميل يكتبون عليه كلمة واحد ثم اثنين وهكذا وقد جعلوا فى الطريق منارا به يأمن السارون الضلال فى تلك الفيافى وهو عمل عظيم

وكانت قاعدة الخلافة فى عهد السفاح الكوفة أولا ثم انتقل منها إلى الحيرة ثم انتقل أخيرا إلى الأنبار ونقل إليها دواوينه وهى التى مات فيها

ولاية العهد

فى سنة ١٣٦ عقد السفاح لأخيه أبى جعفر الخلافة من بعده وجعله ولى عهد المسلمين ومن بعد أبى جعفر عيسى بن موسى بن محمد بن على وكتب العهد بذلك وصيره فى ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم أهل بيته ودفعه إلى عيسى بن موسى . وقد ابتدأ السفاح بفعله هذا الغلطة الشنيعة التى سبق بها فى عهد بنى أمية وهى تولية

اثنين العهد وكانت من أسباب ما أصاب بنى أمية من الخلاف والفرقة

وفاة السفاح

أصيب السفاح بالجدرى وهو بالأنبار وتوفى بها فى ١٣ ذى الحجة سنة ١٣٦ ودفن بالانبار فى قصره وبلغت وفاته أبا جعفر وهو عائد من حجته

٢ ـــ المنصور

هو أبو جعفر عبدالله بن محمد بن على وأمه أم ولد اسمها سلامة ولد بالحميمة سنة ١٠١ ولما انتقل أبو العباس من الحميمة إلى الكوفة كان فيمن معه . ولما أفضت الخلافة إلى أبى العباس كان عضده الأقوى وساعده الأشد فى تدبير الخلافة وفى السنة التى توفى فيها أبو العباس عقد العهد لأخيه أبى جعفر وكان إذ ذاك أميرا على الحج ثم توفى السفاح وأبو جعفر بالحجاز فأخذ البيعة له بالانبار ابن أخيه عيسى بن موسى وكتب إليه يعلمه وفاة السفاح والبيعة له فلقيه الرسول باحدى المنازل عائدا بعد انتهاء الحج . وقد تمت البيعة له فى اليوم الذى توفى فيه أخوه (٨ يونيه سنة ٧٥٤) واستمر خليفة إلى أن توفى يوم الأحد سابع ذى الحجة سنة ١٥٨ (٨ أكتوبر سنة ٧٧٥) فكانت خلافته ٢٢ سنة هلالية إلا ستة أيام

وكان يعاصره فى الأندلس عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (١٣٨ — ١٧٢)

ويعاصره فى فرنسا بابن بيراف ثم شرلمان (٧٦٨ — ٨١٤) ويعاصره فى مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين الخامس

الأحوال لعهد المنصور

تولى المنصور الخلافة ولم تكن قد توطدت دعائمها . لم يكن يخاف عليها من الدولة البائدة دولة الأمويين لأنه لم تبق لهم بقية يخاف منها وإنما كان الخوف ينتاب المنصور من ثلاث جهات

الأولى : منافسة عمه عبد الله بن على له فى الأمر لما كان له من نباهة الذكر فى بنى

العباس ولأنه كان يدبر أمر جيوش الدولة من أهل خراسان وأهل الشام والجزيرة والموصل الذين أمره عليهم السفاح قبل وفاته ليغزو بهم الروم وقد أظهر المنصور خوفه هذا لأبى مسلم حينما جاءه الخبر بوفاة أخيه والبيعة له

الثانية من عظمة أبى مسلم الخراسانى مؤسس الدولة فانه كان يرى له من الصولة وشدة التمكن فى حياة أخيه مالم يكن يرى معه لهم أمرا ولاحكما . ومثل المنصور فى علو نفسه لا يرضيه أن يكون له فى الأمر شريك ذوسطوة وسلطان مثل أبى مسلم على أن هناك أمرا آخر ربما كان يدور بخاطره وهو أن يستقل أبو مسلم بأمر خراسان ويخلع المنصور ثم يختار للخلافة رجلا آخر يكون تحت تصرفه وسلطانه فيعود الأمر لأهل فارس

الثالثة وهى أقوى هذه الجهات الثلاث خوفه من بنى عمه آل على بن أبى طالب الذين لا يزال لهم فى قلوب الناس مكان مكين وأخصهم محمد بن عبد الله بن حسن ابن حسن بن على بن أبى طالب لما سيأتى بيانه فكان المنصور يتخوف أن يخرج عليه طالبا بالخلافة والذى كان يزيد هواجسه أنه عام حج فى حياة أخيه لم يحضره محمد ولا أخوه إبراهيم ابنا عبد الله مع من شهده من سائر بنى هاشم

كان المنصور يجمع إلى الجرأة وبعد الهمة المكر والدهاء فعزم أن يضرب أعداءه بعضهم ببعض حتى يستريح منهم جميعا

عبد الله بن على

أرسل عيسى بن موسى إلى عبد الله بن على ببيعة المنصور وعبد الله غاز فانصرف بمن معه من الجيوش قد بايع لنفسه حتى بلغ حران . علم بذلك المنصور وقد نزل الأنبار وجمع بها خزائنه ودواوينه فاستحضر أبا مسلم وسيره لحرب عبد الله فسار أبو مسلم نحو عبد الله بحران وقد جمع إليه الجنود والسلاح والطعام والعلوفة وما يصلحه وخندق حول معسكره وكان جنده مؤلفا من أهل الشام والجزيرة وأهل خراسان فخاف ألا يناصحه أهل خراسان إذا رأوا أبا مسلم مطلا فقتل منهم نحو سبعة عشر ألفا أمر صاحب شرطته فقتلهم وربما كان هذا العدد مبالغا فيه ولكنه على كل حال قتل منهم عددا كبيرا فضعضع من قوته وجلل نفسه من العار مالا يمحوه

الزمان باعتدائه الفظيع على جزء عظيم من جنده لم يظهر لهم جرم . ومما دل على قلة حزمه أنه كان من ضمن القواد الذين معه حميد بن قحطبة وهو من كبار القواد فى الدولة العباسية فأراد أن يستريح منه ولكنه لم يجرؤ أن يقتله فى المعسكر خوفا من تغير الجند فكتب له كتابا ووجهه إلى حلب وعليها زفر بن عاصم وفى الكتاب إذا قدم عليك حميد فاضرب عنقه ولما كان حميد ممن لا تغرهم هذه الخدعة فك الكتاب فى الطريق وقرأه ولما علم مافيه دعا أناسا من خاصته فأخبرهم الخبر وأفشى إليهم أمره وشاورهم وقال من أراد منكم أن ينجو ويهرب فليسر معى فانى أريد أن آخذ طريق العراق ومن يرد منكم أن يحمل نفسه على السير فلا يفشين سرى وليذهب حيث أحب فاتبعه على ذلك ناس من أصحابه وبذلك فقد عبد الله قائدا محنكا مثل حميد ترك عبد الله مدينة حران وأقبل إلى نصيبين فاتخذها معسكرا وحصنها فأقبل إليه أبو مسلم وكان داهية قد مارس الحروب ومعه جند مدرب لا يفسد عليه بالعصيان تدبيره فأراد أن يحتل موقع عبد الله لحصانته فكتب إليه إنى لم أومر بقتالك ولم أوجه له ولكن أمير المؤمنين ولانى الشام وإنما أريدها ولم تكن هذه الحيلة لتنطلى على عبد الله لأنه يعرف مكايد خصمه ولكن جند الشام الذين معه قالوا له كيف نقيم معك وهذا يأتى بلادنا وفيها حرمنا فيقتل من قدر عليه من رجالنا ويسبى ذرارينا ولكنا نخرج إلى بلادنا فنمنع حرمنا وذرارينا ونقاتله إن قاتلنا فقال لهم عبد الله والله مايريد الشام وما وجه إلا لقتالكم ولئن أقمتم ليأتينكم فلم تطب أنفسهم وأبوا إلا المسير إلى الشام . فارتحل عبد الله متوجها إلى الشام وحينئذ تحول أبو مسلم حتى نزل معسكر عبد الله بن على ولما بلغ ذلك عبد الله علم أن الحيلة قد تمت عليه وعاد فنزل معسكر أبى مسلم

كان أهل الشام أكثر فرسانا وأكمل عدة ولكن المركز الحصين الذى احتله ابو مسلم عوض عليه كثرة عدوه وبذلك استمر القتال بين الفريقين نحو ستة أشهر والحرب بينهما سجال إلا أن القوة راجحة فى معسكر أهل الشام حتى إذا كان يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣٧ كانت بينهما الموقعة الفاصلة وقد استعمل فيها أبو مسلم دهاءه الحربى فاكتسب الظفر وذلك أنه أرسل إلى الحسن بن قحطبة وكان على الميمنة أن أعر الميمنة وضم أكثرها إلى الميسرة وليكن فى الميمنة

حماة أصحابك فلما رأى ذلك عبد الله أعرى ميسرته لمقاتلة ميمنة أبى مسلم وضم أكثر جنودها إلى الميمنة بازاء ميسرة أبى مسلم ثم أرسل أبو مسلم إلى الحسن أن مر أهل القلب فليحملوا مع من بقى فى الميمنة على ميسرة أهل الشام فحملوا عليها فحطموها وجال أهل القلب والميمنة وركبهم أهل خراسان فكانت الهزيمة

وهنا فعل عبد الله بن على فعلا لايليق بشرف بنى هاشم وعلو اسمهم فى ميادين القتال فانهم كانوا يرون الفرار عارا لاتحتمله أنفسهم الأبية فاما ظفر أوقتل ولكن عبد الله قال لأحد قواده ماترى فقال أرى أن تصبر وتقاتل حتى تموت فان الفرار قبيح بمثلك وقبل عبت على مروان فقلت قبح الله مروان جزع من الموت ففر فلم يعجبه هذا الرأى وفر إلى العراق تاركا معسكره فاحتواه أبو مسلم فأمن الناس ولم يقتل أحدا وأمر بالكف عنهم

أما عبد الله فانه سار إلى البصرة وكان أميرها أخاه سليمان بن على فآواه وأقام عنده مدة متواريا ولما علم المنصور بذلك أرسل إلى سليمان يأمره باشخاص عبد الله ابن على إليه وأعطاه من الأمان لعبد الله مارضيه ووثق به فخرج به سليمان حتى قدم به إلى المنصور سنة ١٣٩ فأمر بحبسه وحبس من كان معه ثم أمر بقتل بعضهم وأرسل آخرين منهم إلى خراسان فقتلوا هناك واستمر عبد الله فى محبسه حتى مات سنة ١٤٧

هذه كانت خاتمة حياة ذلك البطل الذى كان على يده أكبر عمل فى تأسيس الدولة العباسية كما كان على يده أكبر الفظائع فى إهلاك البقايا من بنى أمية ولا نحجم عن إظهار نفورنا من هذه الطرق التى يلجأ إليها ذوو الخداع والمكر لتنفيذ أغراضهم وتأييد ملكهم غير ناظرين إلى النتائج الخبيثة التى تجلب الشر على أمتهم فان المنصور لم يعبأ بتلك المواثيق التى أعطاها لعبد الله واستخف بها كما استخف بأمان بن هبيرة قبل ذلك كما أنا لانحجم عن أن نقول إن عبد الله ختم حياته شر ختام بهربه من ميدان القتال فإن طلاب العظائم إذا حال القدر بينهم وبينها لايرضون الدنية لأنفسهم ويموتون دون العار الذى يلحقهم ويلحق أهل بيتهم بسببهم

أبو مسلم

استراح المنصور من عبد الله بن على على يد أبى مسلم فوجه الهمة إلى الراحة من

هـذا العدو الثانى الذى لايطمئن على ملـكه وهو حى لأنه أصبح صاحب الشوكة والسلطان فى الدولة وليس المنصور ممن يمكنه الصبر على ذلك ، والذى زاد الأمر عنده أنه قد ألقى إليه أن أبا مسلم لايحترم كتبه ويستهزىء بها إذا وردت إليه فصمم على الفتك بأبى مسلم

حصلت حادثة أوقعت الريبة فى قلب أبى مسلم وذلك أنه بعد تمـام الهزيمة أرسل المنصور من قبله رسولا ليحصى المغانم التى غنمت من عبد الله فلـما ورد الرسول المعسكر غضب أبو مسلم وكاد يقتل الرسول لولا أن قيل له ماذنبه إنمـا هو رسول فخلى سبيله ولم يمـكنه ممـا جاء له وقال أكون أمينا على الدماء غير أمين على الأموال فعاد الرسول وأخبر المنصور ، لم يكن يحب أن تدخل أبا مسلم أقل ريبة منه لخوفه أن يمضى إلى خراسان وبذلك لايتمـكن منه إلا بعد معاناة شدائد يريد اختصارها وليأمن من ذلك كتب إلى أبى مسلم (إنى قد وليتك مصر والشام فهى خير لك من خراسان فوجه إلى مصر من أحببت وأقم بالشام حتى تـكون بقرب أمير المؤمنين فان أحب لقاءك أتيته من قريب) فلمـا جاء الـكتاب أبامسلم غضب وقال هو يولينى الشام ومصر وخراسان لى وصمم على المضى إلى خراسان وأقبل من الجزيرة مجمعا على الخلاف مريدا خراسان . رأى المنصور أنه لم يبق إلا استعمال الدهاء لايقاع أبى مسلم فى فخ ينصبه له حتى لايثير حربا شعواء لاتعلم نتيجتها فتوجه إلى المدائن وكتب إلى أبى مسلم بالمصير إليه فـكتب إليـه أبو مسلم (إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله عدو إلا أمـكنه الله منـه وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان أن أخوف مايكون الوزراء إذا سكنت الدهماء فنحن نافرون من قربك حريصون على الوفاء لك بعهدك ماوفيت حريون بالسمع والطاعة غير أنهـا من بعيـد حيث تقارنها السـلامة فان أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك فان أبيت إلا أن تعطى نفسـك إرادتها نقضت ماأبرمت من عهـدك ضنا بنفسى) وهـذا الـكتاب ممـا زاد النار اشتعالا فى قلب المنصور لأنه كتاب رجل مدل بما له من القوة حتى وضع نفسه قرنا للخليفة إدلالا بمركزه وسابقته فى إقامة دعائم الخلافة العباسية فـكتب إليـه المنصور (قد فهمت كتابك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لـكثرة جرائمهم فانمـا راحتهم فى انتشار نظام الجماعة فلم سويت نفسك

بهم فأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ماأنت به وليس مع الشريطة التى أوجبت منك سماع ولاطاعة وحمل إليك أمير المؤمنين عيسى بن موسى رسالته لتسكن إليها إن أصغيت إليها وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك فانه لم يجد بابا يفسد به نيتك أوكد وأقرب من طبه من الباب الذى فتحه عليك)

أرسل هذا الكتاب مع عيسى بن موسى ووجه معه أباحميد المروزى وأمره أن يكلم أبامسلم بألين مايكلم به أحدا وأن يمنيه فان أبى قال له — يقول لك أميرالمؤمنين لست للعباس وأنابرئ من محمد إن مضيت مشاقا ولم تأتنى إن وكلت أمرك لأحد سواى وإن لم أل طلبك وقتالك بنفسى ولو خضت البحر لخضته ولو اقتحمت النار لاقتحمتها وراءك حتى أقتلك أوأموت قبل ذلك

سار أبوحميد حتى وردعلى أبى مسلم فكلمه كلاما رقيقا فيه نصيحة وتذكير بحقوق الامام وتخويف من تفريق الكلمة فاستشار أبومسلم مختصيه فأشاروا عليه بألا يقدم على المنصور لأنه لم يعد يأمنه بعد أن وقع فى نفسه ماوقع فقال لأبى حميد ارجع إلى صاحبك فليس من رأيى أن آتيه وحينئذ بلغه أبو حميد الرسالة الاخيرة فوجم لها أبو مسلم لأن هؤلاء الجبابرة يعتريهم طائف من الجبن إذا هم وصلوا إلى قمة علوهم فمثل هذه الكلمات القاسية من المنصور جعلته يخنع ويلين والذى زاده حيرة وارتبا كا مافعله المنصور من التدبير العظيم الذى يضعف آمال أبى مسلم من خراسان وجنودها ذلك أنه كتب إلى خليفة أبى مسلم على جند خراسان يعطيه إمارة خراسان ماعاش ولاشىء أكبر من ذلك يقطع صلته بأبى مسلم فكتب إليه حين بلغته الاخبار بقرب مجيئه إلى خراسان (إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم فلاتخالفن إمامك ولاترجعن إلا باذنه) فوافاه هذا الكتاب حين مجىء رسالة المنصور فزاده ذلك رعبا ولم يجد بدا من أن يحول وجهه عن خراسان ويقصد المنصور . كان المنصور مصمما على قتل أبى مسلم ولكن اجتهد أن يكون الرجل آمنا لايحس بشىء من الجفاء فلما قارب أبو مسلم المدائن أمر الناس وبنى هاشم فتلقوه حتى إذا دخل على المنصور سلم عليه سلاما لايشوبه شىء مخيف وأمره أن ينصرف ويزيل وعثاء السفر ويستريح ليلة . ولما جاء الغد أمر عثمان بن نهيك رئيس الشرطة فجاء بأربعة

رجال من الحرس وأمرهم أن يكونوا خلف الرواق فاذا هو صفق خرجوا فقتلوا أبامسلم . ثم دعاه فدخل عليه فأقبل يحدثه . ومن تمام تدبيره أنه شرع يسأله عن نصلين أصابهما فى متاع عبدالله بن على فقال هذا أحدهما الذى هو معه فقال المنصور أرنيه فانتضاه وناوله إياه فهزه أبو جعفر ثم وضعه تحت فراشه وإنما فعل ذلك ليأمن على نفسه أن يفتك به أبومسلم إذا أحس بالشر ثم صار يسأله عن أشياء أخذها عليه وأخيرا سأله عن سبب قصده خراسان مراغما فقال دع هذا فما أصبحت أخاف أحدا إلا الله فصفق حينئذ المنصور بيديه فخرج أولئك الحرس الأربعة فاعتوروه بسيوفهم حتى ذهبت نفسه . ثم أراد أن يفرق الجمع الذى أقبل مع أبى مسلم فأعطاهم جوائز ألهتهم عن التفكير فى الخلاف ثم أرسل إلى القواد الذين فى جيش أبى مسلم جوائز سنية وأرضى جميع الجند حتى رضوا

وبقتل أبى مسلم عرف المنصور أنه ابتدأ سلطانه الحقيقى الذى لايشاركه فيه ولم يأس على أبى مسلم لأنه رأى أمام نظره كثيرين من القواد يقومون مقامه

من الضرورى أن ننبه الأفكار إلى أن نوابغ القواد الذين خدموا الخلفاء وأسسوا ملكهم انتهت حياتهم فى الغالب بمثل ماانتهت به حياة أبى مسلم وسبب ذلك أن هؤلاء القواد يكونون فى بادئ الأمر ذوى الكلمة المسموعة والسلطان الواسع بين جنودهم لأنهم هم المباشرون للحروب والوقائع وهم الذين يقدمون للجند أعطياتهم فاذا ساعدهم الحظ وتمت على أيديهم الانتصارات الباهرة وقامت الدولة بيأسهم وشدة حزمهم لم يكن لنفوذهم فى الدولة حد يقفون عنده لأنهم يرون أن الأمر إنما جاء لصاحبهم بفضل مجهودهم الذى بذلوه فاذا كان الخليفة بعيد الهمة ذكى الفؤاد لم يسعه أن يحمل كل هذا واذا ألجأته الضرورة حمله على مضض وإذا أمكنته الفرصة لم يتأخر عن انتهازها . وليس من طبيعة القائد الفاتح أن يضرب صفحا عماله من الآثار ويتنازل عن اجتناء الثمرة وقت إدراكها

ومع مابدا من أبى مسلم من العسف الشديد لانبخسه حقه ولا نتأخر عن الاعتراف بأنه كان من نوابغ الرجال الذين أسسوا الدول العظام ولوكانت الضحايا التى ذهبت فى تأسيس الدولة أقل مما ضحى لعددناه من كبار السواس إلا أنه سفك دماء كثيرة وكانت التهمة فى نظره كافية لازهاق نفس المتهم فمثل هذا نصفه بالقوة والعزيمة والثبات

والدهاء ولكن لا نصفه بحسن السياسة وما رأيت أجهل من أبى مسلم فى قدومه على المنصور بعد ما احتج به على سليمان بن كثير شيخ الدعوة بقوله أتذكر قول الامام لى من اتهمته فاقتله . فاذا كانت هذه قاعدة يرى العمل بها واجبا أفلا يكون فيما صنعه مع أبى جعفر ما يدعو إلى الريبة فيه واستحقاقه القتل فهو إذا كان قادما على القتل بمقتضى أصل كثيراً ما نفذه ولذا لا يكون قتله محلا للنظر والاستغراب (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون)

محمد بن عبد الله وبنو الحسن بن على

قدمنا أن المتشيعين لآل البيت كانوا فرقا ثلاثة فرقة ترى أن امام المسلمين معين بالنص من ولد فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وهؤلاء امامية وكانوا يتولون إلى وقت المنصور جعفر بن محمد بن على بن الحسين المعروف بالصادق . وفرقة ترى أن امام المسلمين يكون من بنى فاطمة إلا أنه معين بالوصف لا بالاسم وهؤلاء امامية زيدية يرون الخروج مع كل من دعا إلى نفسه من بنى فاطمة متى كانوا موصوفين بالصفات الواجب أن تكون فى الامام من العلم والشجاعة والورع وغير ذلك وهم نصراء زيد بن على وابنه يحيى . وفرقة ترى امامة أهل البيت من غير تقييد ببنى فاطمة وهم الذين نصروا بنى العباس وكانت الفرقتان الأوليان منتشرتين فى كثير من الاقاليم العربية والأعجمية وكانت الدعوة العباسية قبل ظهور أمرها مبهمة لأنها كانت إلى الرضا من أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم فلما ظفرت الدولة العباسية بظفر دعاتها نفس عليهم بنو عمهم من العلويين الخلافة وعدوهم غاصبين للأمر كما عدوا بنى أمية من قبلهم وأعظمهم فى ذلك رجلان أحدهما جعفر الصادق امام الامامية . ولكنه رضى بما تم ولم يحرك ساكنا وكان يوصى أصحابه بالخلود إلى السكينة لأنه لم ير فرصة معقولة وثانيهما محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب وهذا كان أطمع فى الأمر لما زعموه من أن بنى هاشم انتخبوه للخلافة وبايعوه لها فى أواخر عهد بنى أمية وكان ممن بايعه أبو جعفر المنصور فلما جاءت الدولة العباسية لم يبايع لأبى العباس ولا لأبى جعفر ولما حج أبو جعفر فى عهد أخيه حضره بالمدينة بنو هاشم جميعا إلا محمد بن عبد الله وأخاه إبراهيم فسأل المنصور عنهما فقال له زياد بن عبيد الله

الحارثى أمير المدينة مايهمك من أمرهما أنا آتيك بهما فضمنه إياهما وأبقاه عاملا على المدينة . ثم انه دعا بنى هاشم رجلا رجلا كلهم يخليه فيسأله عن محمد فيقول ياأمير المؤمنين قد علم أنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم فهو يخافك على نفسه وهو لايريد لك خلافا ولايحب لك معصية وما أشبه هذه المقالة إلاحسن بن زيد بن حسن بن على فانه أخبره خبره وقال والله ما آمن وثوبه عليك فر رأيك فأيقظ بقوله من لاينام.

صار المنصور يحتال بأنواع الحيل ليعرف الأخبار عن محمد واستخراج ماعند أبيه عبد الله بن حسن من أخباره ولما علم أن عبد الله يعرف نية ابنه حج سنة ١٤٠ وسأل عبد الله عن ابنيه فأنكر أن يكون عنده علم بهما فتيقن المنصور كذبه وحبسه وصادر أمواله.

لم ير المنصور بعد ذلك من ابن زياد صدقا فى الحصول على محمد وإبراهيم فعزله وولى بدله على المدينة محمد بن خالد بن عبد الله القسرى وبسط يده فى النفقة فى طلبه فأنفق كثيراً من المال فى هذه السبيل وبحث بحثاً كثيراً فى المدينة وخارجها فلم يصل إلى نتيجة فعزله المنصور وأشير عليه أن يولى المدينة رجلا من آل الزبير ليكون ما بين آل الزبير وآل على من العداوة سائقاً له إلى البحث الشديد والجد فى الأمر فلم يرق هذا فى عينى المنصور وقال أعاهد الله إلا أثأر من أهل بيتى بعدوى وعدوهم ولكن أبعث عليهم صعلوكا من صعاليك العرب فولى على المدينة رياح بن عثمان بن حيان المرى فورد المدينة فى شهر رمضان سنة ١٤٤ وهوعازم على عسف الأعراب الذين يستخفى محمد بن عبد الله عندهم فكان أول شىء فعله أن استهان بمحمد بن خالد القسرى الذى كان قبله والياً وعذبه هو وكاتبه ثم أرهق محمد بن عبدالله طلباً حتى لقى شدائد ما كان يراها فى عهد أسلافه من ولاة المدينة فقال فى ذلك

منخرق السربال يشكو الوجى * تنكبه أطراف مر وحداد
شردة الخوف وأزرى به * كذاك من يكره حر الجلاد
قد كان فى الموت له راحة * والموت حتم فى رقاب العباد

وزاد المنصور فى إرهاق محمد فأمر بأخذ بنى الحسن كلهم نحو ثلاثة عشر رجلا وحبسهم بالمدينة ولما علم محمد بذلك جاء إلى أمه هند وقال لها إنى قد حملت أبى وعمومتى

مالا طاقة لهم به ولقد هممت أن أضع يدى فى أيديهم فعسى أن يخلى عنهم . فتنكرت هند ولبست أطماراً ثم جاءت السجن كهيئة الرسول فأذن لها فلما رآها عبدالله أبو محمد أثبتها فنهض إليها فأخبرته بما قال محمد فقال كلا بل نصبر فوالله إنى لأرجو أن يفتح الله به خيراً قولى له فليدع إلى أمره وليجد فيه فان فرجنا بيد الله : فانصرفت وتم محمد على اختفائه

لم يزل بنو حسن محبوسين عند رياح بالمدينة حتى حج أبو جعفر سنة ١٤٤ فلما لم يجد عندهم مايبرد غلته من جهة محمد وأخيه إبراهيم أمر بحملهم إلى العراق وأشخص معهم محمد بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان وهو أخو بنى حسن بن حسن لأمهم أمهم جميعا فاطمة بنت حسين بن على وكان إبراهيم بن عبد الله صهره على ابنته حملوا مقيدين بالأغلال والأثقال وسير بهم على شر مايكون حتى أتى بهم العراق فحبسوا بقصر ابن هبيرة وهو بلد شرقى الكوفة مما يلى بغداد على نهر الفرات . وقد استعمل معهم المنصور من الفظائع مالا طاقة للانسان على تسطيره وكان عظم فظائعه مع محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان وكانت نتيجة هذا الحبس الشديد أن مات أكثرهم فى الحبس مع أن بنى العباس ملؤا الدنيا تهويلا ورياء بأنهم خرجوا انتقاما من قتلة الحسين بن على وزيد بن حسن ويحيى بن زيد وهؤلاء إنما قتلوا فى ميادين القتال وهم خارجون ولم يقتل بنو أمية أحدا من آل على بالشكل الفظيع الذى ذهب به بنو حسن فى عهد بنى عمهم من آل العباس

كانت نتيجة هذا الاحراج وهذه الفظائع أن عزم محمد على الظهور بالمدينة وتحدث أهلها بذلك وعلم به رياح أمير المدينة فأحب أن يعد عدته لذلك فعوجل . دخل محمد المدينة ومعه ٢٥٠ رجل فأتى السجن ففتحه وأخرج من فيه ولم يقاومه أهل المدينة بل أعانوه وخذلوا رياحا وكان خروجه فى أول يوم من رجب سنة ١٤٥ وبعد أن استولى على البلد صعد منبر الحرم وقال (أيها الناس إنه كان من أمرنا وأمر الطاغية عدو الله أبى جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندا الله فى ملكه وتصغيرا للكعبة الحرام وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين اللهم إنهم قد أحلوا حرامك وحرموا حلالك وآمنوا من أخفت وأخافوا من أمنت اللهم

فأحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا أيها الناس إنى والله ماخرجت بين أظهركم وأنتم عندى أهل قوة ولا شدة ولكن اخترتكم لنفسى والله ما جئت هذه وفى الأرض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذت لى فيه البيعة)

وكان الذى أوقع محمدا فى هذا الغلط وجعله يفهم أن دعوته البقاع أن المنصور كان يكتب لمحمد على ألسن قواده يدعونه إلى الظهور ويخبرونه أنهم معه فكان محمد يقول لو التقينا مال إلى القواد كلهم فهذا الذى جعله يظن هذاالظن . ومما زاده خطأ فى قدر قوة نفسه أنه كان متفقا مع أخيه إبراهيم أن يخرج بالبصرة فى اليوم الذى يخرج فيه محمد بالمدينة حتى يهول أمرهما أبا جعفر فيفت ذلك فى عضده ولكن إبراهيم لم يخرج هذا اليوم لمرض أصابه أو أن محمدا سبق الميعاد والنتيجة أنهما لم يخرجا معا . وأعظم خطر على الانسان مايصيبه من قبل فهمه فى نفسه فانه إذا خاض العظائم وهو يظن لنفسه من القوة ماليس لها كان حريا بالفشل والخيبة

على أنه فضلا عن ذلك كله جعل نفسه محصورا بالمدينة وهى ليست بمركز حربى يمكن القائد أن يبقى فيه على الدفاع طويلا وحياتها من خارجها فلا تحتمل الحصار إلا قليلا فلم يكن محمد موفقا فى تدبيره مع ما كان يتحلى به من الخصال التى كانت ترفعه فى أعين أهل المدينة على أبى جعفر فانهم كانوا لايرون فيه غشم أبى جعفر ولا ميله للعسف والظلم بل كان يكره سفك الدماء ويتجنبه ماوجد إلى ذلك سبيلا ويحب الخير للناس وكان لذلك يلقب عندهم بالنفس الزكية وبالمهدى . ولما استفتى مالك إمام دار الهجرة فى الخروج مع محمد وقيل له إن فى أعناقنا بيعة للمنصور قال إنما بايعتم مكرهين وليس على مكره يمين ولكن هذا كله لايفيد مع ضعف المركز الطبيعى ولذا قال له محمد بن خالد القسرى لما ظهر أنك قد خرجت فى هذا البلد والله لو وقف على نقب من أنقابه لمات أهله جوعا وعطشا فانهض معى فانما هى عشر حتى أضربه بمائة ألف سيف فأبى عليه ذلك . ولما علم المنصور بخروجه قال للربيع بن عبيد الله بن عبد المدان خرج محمد . فقال أين قال بالمدينة فقال الربيع هلك والله خرج فى غير عدد ولا رجال

كان المنصور حين بلوغه الخبر مشتغلا ببناء بغداد فسار إلى الكوفة ليرعى أحوالها بنفسه لأن أهلها شيعة لآل على ويخاف منهم أن يخرجوا لمساعدة محمد فأقفل أبوابها

حتى لا يخرج منها أحد ولا يدخلها أحد. ثم أحب أن يراسل محمدا قبل الحرب فكتب إليه كتابا هذه نسخته «بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله. أما بعد فانما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم. ولك عهدالله وميثاقه وحق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن تبت من قبل أن أقدر عليك أن أؤمنك على نفسك وولدك وإخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك وأن أعطيك ألف ألف درهم وأن أنزلك من البلاد حيث شئت وأقضى لك ماشئت من الحاجات وأن أطلق من فى سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ثم لا أتبع أحدا منكم بمكروه فان شئت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من يأخذ لك من الميثاق والعهد والأمان ماأحببت والسلام»

فكتب إليه محمد بن عبد الله «بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله محمد المهدى أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد. أما بعد طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتنى وقد تعلم أن الحق حقنا وأنكم إنما طلبتموه بنا ونهضتم فيه بشيعتنا وخبطتموه بفضلنا وإن أبانا عليا عليه السلام كان الوصى والامام فكيف ورثتموه دوننا ونحن أحياء وقد علمت أنه ليس أحد من بنى هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا وسببنا وأنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية دونكم وبنو ابنته فاطمة فى الاسلام من بينكم فأنا أوسط بنى هاشم نسبا وخيرهم أما وأبا لم تلدنى العجم ولم تعرف فى أمهات الأولاد وان الله تبارك وتعالى لم يزل يختار لنا فولدنى من النبيين أفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم ومن أصحابه أقدمهم إسلاما وأوسعهم علما وأكثرهم

جهادا على بن أبى طالب ومن نسائهم أفضلهن خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة ومن بناته أفضلهن وسيدة نساء أهل الجنة ومن المولودين فى الاسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ثم قد علمت أن هاشما ولد عليا مرتين وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولدنى مرتين من قبل جدى الحسن والحسين فمازال الله يختار لى حتى اختار لى فى النار فولدنى أرفع الناس درجة فى الجنة وأهون أهل النار عذابا فأنا ابن خير الأخيار وابن خير الأشرار وابن خير أهل الجنة وابن خير أهل النار ولك عهد الله إن دخلت فى بيعتى أن أؤمنك على نفسك وولدك وكل ماأصبته إلا حدا من حـدود الله أو حقا لمسلم أو معاهد فقـد علمت مايلزمك فى ذلك فأنا أوفى بالعهـد منك وأحرى لقبول الأمان فأما أمانك الذى عرضت على فأى الأمانات هو أأمان ابن هبيرة أم أمان عمـك عبد الله بن على أم أمان أبى مسلم والسلام﴾

فكتب إليه أبو جعفر ﴿بسم الله الرحمن الرحيم من عبدالله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله أما بعد فقد أتانى كتابك وبلغنى كلامك فاذا جل فخرك بالنساء لتضل به الجفاة والغوغاء ولم يجعل الله النساء كالعمومة ولا الآباء كالعصبة والأولياء ولقد جعل العم أباً وبدأ به على الوالد الأدنى فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب . ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا ﷺ وعمومته أربعـة فأجابه اثنان أحدهما أبى وكفر به اثنان أحدهما أبوك فأما ماذكرت من النساء وقراباتهن فلو أعطين على قرب الأنساب وحق الأحساب لكان الخير كله لآمنة بنت وهب ولـكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه فأما ماذكرت من فاطمة أم أبى طالب فان الله لم يهد من ولدها أحداً إلى الاسلام ولو فعـل لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير فى الآخرة والأولى وأسعدهم بدخول الجنـة غداً ولـكن الله أبى ذلك فقال إنك لاتهدى من أحببت ولـكن الله يهدى من يشاء . فأما ماذكرت من فاطمة بنت أسد أم على بن أبى طالب وفاطمة أم الحسن وإن هاشما ولد عليا مرتين وأن عبدالمطلب ولد الحسن مرتين فخير الأولين والآخرين محمـد ﷺ لم يلده هاشم إلا مرة واحدة ولم يلده عبد المطلب إلا مرة واحدة وأما ماذكرت من أنك ابن رسول الله فان الله عز وجل أبى ذلك فقال

(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ولكنكم بنو ابنته وإنها لقرابة قريبة غير أنها لا تحوز الميراث ولا يجوز أن تؤم فكيف تورث الامامة من قبلها ولقد طلب بها أبوك بكل وجه فأخرجها تخاصم ومرضها سراً ودفنها ليلا فأبى الناس إلا تقديم الشيخين ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله ﷺ فأمر بالصلاة غيره ثم أخذ الناس رجلا رجلا فلم يأخذوا أباك فيهم ثم كان فى أصحاب الشورى فكل دفعه عنها بايع عبدالرحمن عثمان وقبلها عثمان وحارب أباك طلحة والزبير ودعا سعداً إلى بيعته فأغلق بابه دونه ثم بايع معاوية بعده وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلمه إلى معاوية بخرق ودراهم وأسلم فى يديه شيعته وخرج إلى المدينة فدفع الأمر إلى غير أهله وأخذ مالا من غير حله فان كان لكم شيء فقد بعتموه. فأما قولك إن الله اختار لك فى الكفر فجعل أباك أهون أهل النار عذاباً فليس فى الشر خيار ولا من عذاب الله هين ولا ينبغى لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفخر بالنار وسترد فتعلم (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون). وأما قولك إنك لم تلدك العجم ولم تعرق فيك أمهات الأولاد وأنك أوسط بنى هاشم نسباً وخيرهم أما وأباً فقد رأيتك فخرت على بنى هاشم طراً وقدمت نفسك على من هو خير منك أولا وآخراً وأصلا وفصلا فخرت على إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى والد ولده فانظر ويحك أين تكون من الله غداً وما ولد فيكم مولود بعد رسول صلى الله عليه وسلم أفضل من على بن الحسين وهو لأم ولد ولقد كان خيراً من جدك حسن ابن حسن ثم ابنه محمد بن على خير من أبيك وجدته أم ولد ثم ابنه جعفر خير منك. ولقد علمت أن جدك علياً حكم حكمين وأعطاهما عهد الله وميثاقه على الرضا بما حكما به فاجتمعا على خلعه. ثم خرج عمك الحسين بن على على ابن مرجانة فكان الناس الذين معه عليه حتى قتلوه ثم أتوا بكم على الأقتاب بغير أوطية كالسبى المجلوب إلى الشام ثم خرج منكم غير واحد فقتلتكم بنو أمية وحرقوكم بالنار وصلبوكم على جذوع النخل حتى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تدركوه ورفعنا أقداركم وأورثناكم أرضهم وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك فى أدبار الصلوات المكتوبة كما تلعن الكفرة فعنفناهم وكفرناهم وبينا فضله وأشدنا بذكره فاتخذت ذلك علينا حجة وظننت أنا لما ذكرنا من فضل على أنا قدمناه على حمزة والعباس وجعفر كل أولئك مضوا

سالمين مسلما منهم وابتلى أبوك بالدماء . ولقد علمت أن مآثرنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم وكانت للعباس دون إخوته فنازعنا فيها أبوك إلى عمر فقضى لنا عمر . وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس من عمومته أحد حيا إلا العباس فكان وارثه دون بنى عبد المطلب . وطلب الخلافة غير واحد من بنى هاشم فلم ينلها إلا ولده فاجتمع للعباس أنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء وبنوه القادة الخلفاء فقد ذهب بفضل القديم والحديث . ولولا أن العباس أخرج إلى بدر كرها لمات عماك طالب وعقيل جوعا أو يلحسا جفان عتبة وشيبة فأذهب عنهما العار والشنار . ولقد جاء الاسلام والعباس يمون أبا طالب للأزمة التى أصابتهم ثم فدى عقيلا يوم بدر فقد مناكم فى الكفر وفديناكم من الأسر وورثنا دونكم خاتم الأنبياء وحزنا شرف الآباء وأدركنا من ثأركم ماعجزتم عنه ووضعناكم بحيث لم تضعوا أنفسكم والسلام »

بعد هذه المكاتبة التى لم تجد إلا إظهار العيوب لم يكن إلا الجد فى الأمر وكان المنصور يتخوف أن يبلغ خروج محمد أهل خراسان فتفسد قلوبهم فكان يعمى الأخبار عليهم . واختار لمناضلة محمد عيسى بن موسى الذى كان السفاح جعله ولى عهد بعد المنصور فقال عيسى للمنصور شاور عمومتك فقال امض أيها الرجل فوالله مايراد غيرى وغيرك وما هو إلا أن تشخص أو أشخص وزود عيسى بوصية بمحمد عليها إذ قال ياعيسى إنى بعثتك إلى مابين هذين (وأشار إلى جنبيه) فان ظفرت بالرجل فشم سيفك وإن تغيب فضمنهم إياه حتى يأتوك به فانهم يعرفون مذاهبه . وجهز المنصور الجيش أحسن جهاز فلما وصل إلى فيد بعث إلى رجال من أهل المدينة فى خرق من الحرير فلما وردت كتبه المدينة تفرق ناس عن محمد وخرج بعضهم إلى عيسى ومنهم ناس من آل على

ولما شعر محمد بقرب عيسى بن موسى خندق حول المدينة أما عيسى فانه أقبل بجنوده حتى وصل إلى المدينة وهناك أرسل فصيلة من جنوده تحرس طريق مكة حتى إذا أراد محمد الهرب إليها لم يجد طريقا وكان نزول عيسى على المدينة فى ١٢ رمضان سنة ١٤٥ وقبل اللقاء قدم دعوة محمد إلى الخضوع فلم يجبه ثم دارت الموقعة بين الفريقين وقد ظهرت شجاعة محمد بن عبد الله ظهورا عظيما ولكن عدوه كان عظيما فلم

يلبث أن قتل وظهرت الأعلام السوداء على مرتفعات المدينة وعلى منارة المسجد النبوى فسلم المحاربون وكان قتل محمد لأربع عشرة ليلة خلت من رمضان .

وعند ذلك أرسل عيسى إلى أبي جعفر ببشارة الفتح وبرأس محمد بن عبد الله وأمن المدينة وأهلها وفى ١٩ رمضان شخص يريد مكة بعد أن قبض أموال بنى حسن كلها وكان مكث محمد منذ قام إلى أن قتل شهرين و ١٧ يوما

إبراهيم بن عبد الله

هو أخو محمد دخل البصرة ودعا الناس سرا إلى أخيه فبايعه كثير من أهلها وأجابه فتيان من العرب وكان أبو جعفر يظن أنه يخرج بها فانه لما بلغه خروج محمد بالمدينة استشار جعفر بن حنظلة البهرانى وكان صاحب رأى فقال حصن البصرة لأن محمدا ظهر بالمدينة وليسوا أهل حرب بحسبهم أن يقيموا شأن أنفسهم وأهل الكوفة تحت قدمك وأهل الشام أعداء آل أبى طالب فلم يبق إلا البصرة فاهتم بارسال الجنود وإقامة المسالح بين الكوفة والبصرة لئلا يخرج أهل الكوفة لمساعدة إبراهيم

ظهر إبراهيم بالبصرة واستولى عليها وعلى ماقرب منها والأهواز وواسط ولم يزل على أمره ذلك حتى أتاه نعى أخيه محمد قبل فطر سنة ١٤٥ بثلاثة أيام فصلى بالناس يوم الفطر وعليه أثر الانكسار

أرسل أبو جعفر إلى عيسى بن موسى يستحثه للقدوم ليتولى حرب إبراهيم فجاء مسرعا وسار نحو البصرة وخرج إبراهيم لملاقاته فالتقيا عند باخمرى وكانت العاقبة لعيسى فقتل إبراهيم لخمس ليال بقين من ذى القعدة سنة ١٤٥

وكان محمد وأخوه إبراهيم من أحسن الطالبيين خلقا وأنظفهم تاريخا لم يعرف عنهما مايشينهما فى معاملة الناس وفى صدق العزيمة إلا أن الحظ خانهما . وللمنصور خطبة نفيسة يبرر بها عمله مع بنى الحسن أمام شيعته من أهل خراسان وغيرهم قال فيها (ياأهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا وإن أهل بيتى هؤلاء من ولد على بن أبى طالب تركناهم والذى لا إله إلا هو والخلافة فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير فقام على بن أبى طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمين فافترقت عنه الأمة واختلفت عليه الكلمة ثم وثبت عليه

شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه . ثم قام من بعده ابنه الحسن فوالله ما كان فيها برجل قد عرضت عليه الأموال فقبلها فدس إليه معاوية إنى أجعلك ولى عهدى من بعدى فخدعه فانسلخ له مما كان فيه وسلمه إليه فأقبل على النساء يتزوج فى كل يوم واحدة فيطلقها غدا فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه ثم قام من بعده الحسين بن على فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة وأهل الشقاق والنفاق والاغراق والفتن أهل هذه المدرة السوداء (وأشار إلى الكوفة) فوالله ماهى بحرب فأحاربها ولاسلم فأسالمها فرق الله بينى وبينها فخذلوه وأسلموه . ثم قام من بعده زيد بن على فخدعه أهل الكوفة وغروه فلما أخرجوه أظهروه وأسلموه وقد كان أتى محمد بن على فناشده فى الخروج وسأله أن لا يقبل أقاويل أهل الكوفة وقال إنا نجد فى بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب وناشده عمى داود بن على وحذره غدر أهل الكوفة فلم يقبل وأتم على خروجه فقتل وصلب بالكناسة ثم وثب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا وأذهبوا عزنا والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنفونا من البلاد فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالشراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارا فأحيا شرفنا وعزنا بكم أهل خراسان ودمغ بحقكم أهل الباطل وأظهر حقنا وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا صلى الله عليه وسلم فقر الحق مقره وأظهر مناره وأعز أنصاره فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله علينا وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلما وحسدا منهم لنا وبغيا لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه صلى الله عليه وسلم

جهلا على وجبنا عن عدوهم　　لبئست الخلتان الجهل والجبن

إنى والله ياأهل خراسان ماأتيت من هذا الأمر ماأتيت بجهالة بلغنى عنهم بعض السقم والتعرم وقد دسست لهم رجالا فقلت قم يافلان قم يافلان فخذ معك من المال كذا وحذوت لهم مثالا يعملون عليه فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسوا إليهم تلك الأموال فوالله مابقى منهم شيخ ولاشاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللت بها دماءهم وأموالهم وحلت لى عند ذلك بنقضهم بيعتى وطلبهم الفتنة والتماسهم الخروج على فلايرون أنى أتيت ذلك على غير يقين) ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه

الآية (وحيل بينهم وبين مايشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب)

وقد بقيت بقايا بنى الحسن مشردين فى عهد أبى جعفر بعد أن قتل منهم من قتل ومات من مات وحبس من حبس ومن غريب مارأيت من رواية محمد بن جرير الطبرى أن المهدى آلت إليه خزانة مما خلف والده فدخلها مع زوجه ريطة فاذا أزج كبير فيه جماعة من قتلى الطالبيين وفى آذانهم رقاع فيها أنسابهم وإذا فيهم أطفال ورجال وشباب ومشايخ عدة كثيرة فلما رأى ذلك المهدى ارتاع لما رأى وأمر فحفرت لهم حفيرة فدفنوا فيها وعمل عليهم دكان اه هذه كبرى الحوادث التى حصلت لعهد المنصور

وكانت الطريقة التى تدار بها البلاد لاتختلف عن طريقة بنى أمية فكان فى كل ولاية وال يعينه الخليفة وأعماله هى إقامة الصلاة للمسلمين وجهاد العدو وجباية الخراج وحفظ الأمن وفصل الخصومات بين الناس وقد كان الوالى تسند إليه أحيانا هذه الأمور الخمسة فيكون إمام القوم وقائد الجند وينتدب للخراج والشرطة والقضاء من يراه أهلا للقيام بها وأحيانا يكون إليه الصلاة والشرطة والجهاد والخراج ويكون للحرب أمير آخر مستقل عن أمير الصلاة ويعين القاضى من قبل الخليفة رأسا

ولم تكن الولايات متعينة العدد بل تارة يضم ولايتان إلى وال واحد وتارة يفصل بينهما حسب مايراه الخليفة فى مقدرة الوالى فكان أبو مسلم مثلا واليا لخراسان كلها وبلاد الرى والجبل وعليها ولاة من قبله . وكان أكثر الولاة لعهد المنصور من اهل بيته وممن اصطنعهم من العرب والموالى ولم يكونوا يحبون أن تطول مدة الوالى فى ولاية ولاسيما فى الأطراف كمصر وخراسان خوفا أن تحدثه نفسه بالاستقلال عن الخليفة وقد حصلت من ذلك حوادث فى خراسان تلافاها المنصور بحيلته وقوته

وجميع أمور الولايات ترجع إلى الخليفة الذى هو صاحب الأمر المطاع ومعينوه هم :

(أولا) الوزير، والوزارة لم تكن معروفة بهذا الاسم فى عهد الدولة الأموية وأول من سمى بها لعهد أبى العباس السفاح أبو سلمة الخلال شيخ الدعوة بالكوفة فقد كان يعرف بوزير آل محمد وأصله مولى لبنى الحرث بن كعب وكان سمحا كريما مطعاما كثير البذل مشغوفا بالتنوق فى السلاح والدواب فصيحا عالما بالأخبار والأشعار والسير والجدل والتفسير حاضر الحجة ذا يسار ومروءة ظاهرة وقدقدمنا

خبر اتهامه بالميل لآل علي ومقتله بسبب ذلك فقال شاعر فى رثائه

إن الوزير وزير آل محمد ٭ أودى فمن يشناك كان وزيرا
إن السلامة قد تبين وربما ٭ كان السرور بما كرهت جديرا

فاستوزر السفاح بعده أبا الجهم إلى أن مات السفاح وولى المنصور فكان فى نفسه منه أشياء فيقال إنه سمه والصحيح أن السفاح استوزر بعد أبي سلمة خالد ابن برمك جد البرامكة الذين ظهر مجدهم فى عهد هرون الرشيد وكان خالد من رجال الدعوة العباسية الذين أقاموا دولتها وهو من أبناء رؤساء الفرس الذين كانت إليهم بيوت العبادة قبل شيوع الاسلام بالبلاد الفارسية وهو أول من اعتنق الاسلام من أهل بيته وكان خالد فاضلا كريما حازما يقظا استوزره السفاح ويقال إنه لم يكن يتسمى باسم الوزير تطيرا مما جرى على أبي سلمة فكان يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيرا

لما تولى المنصور لم تكن للوزارة فى أيامه أبهة ولا كبير قدر لما كان موصوفا به من الاستبداد بأموره أبقى فى وزارته خالدا مدة ليست بالطويلة ثم أعفاه وولى:

أبا أيوب سليمان بن أبي سليمان مخلد المورياني الخوزي

وموريان قرية من قرى الأهواز كان فى أواخر دولة بنى أمية كاتبا لسليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة وكان المنصور فى ذاك الزمن ينوب عن سليمان هذا فى بعض كور فارس فاتهمه بأنه احتجز مالا لنفسه فضربه بالسياط ضربا شديدا وكان يريد الفتك به بعد ضربه فخلصه منه أبو أيوب فاعتدها المنصور يدا له فضلا عما عرف به أبو أيوب من المقدرة والنباهة فاستوزره المنصور وخف على قلبه وتمكن منه وكان مع هذا يخشى المنصور جدا وترعد فرائصه إذا دعاه إليه . روى ابن خلكان أن خالد بن يزيد الأرقط قال بينا أبو أيوب جالس فى أمره ونهيه أتاه رسول المنصور فتغير لونه فلما رجع تعجبنا من حالته فضرب مثلا لذلك وقال زعموا أن البازى قال للديك مافى الأرض حيوان أقل وفاء منك قال وكيف ذلك قال أخذك أهلك بيضة فحضنوك ثم خرجت على أيديهم وأطعموك فى أكفهم ونشأت بينهم حتى إذا كبرت صرت لايدنو منك أحد إلا طرت ههنا وههنا وصوت

وأخذت أنا مسنا من الجبال فعلمونى وألفونى ثم يخلى عنى فآخذ صيدا فى الهواء وأجىء به إلى صاحبى فقال له الديك إنك لو رأيت من البزاة فى سفافيدهم المعدة للشىء مثل الذى رأيت من الديوك لكنت أنفرمنى ولكنكم أنتم لو علمتم ما أعلم لم تتعجبوا من خوفى مع ماترون من تمكن حالى

وقد كان ماخافه أبو أيوب فان المنصور غضب عليه سنة ١٥٣ وعذبه وأخذ أمواله وحبس أخاه وبنى أخيه سعيدا ومسعودا ومخلدا ومحمدا وطالبهم وكانت منازلهم المناذر وقد قال فى هذه النكبة أحد شعراء العصر

قد وجدنا الملوك تحسد من أعطته طوعا أزمة التدبير
فاذا مارأوا له النهى والأمر أتوه من بأسهم بنكير
شرب الكأس بعد حفص سليمان ودارت عليه كف المدير
ونجا خالد بن برمك منها ٭ إذ دعوه من بعدها بالأمير
أسوأ العالمين حالا لديهم ٭ من تسمى بكاتب أووزير

وهذه الأبيات القليلة تشرح لنا ما كان يدور على ألسنة القوم إذ ذاك فى نكبات الوزراء التى لم تكن قليلة بل قلما نجد فى وزراء بنى العباس من سلم منها . ويقال إن سبب نكبة أبى أيوب سعى أبان بن صدقة كاتبه به عند المنصور وكان موته سنة ١٥٤

الربيع بن يونس

استوزر المنصور بعد أبى أيوب الربيع بن يونس كان أحد جدوده أبو فروة كيسان مولى عثمان بن عفان من سبى جبل الخليل ونشأ أولاده فى الكتابة فى عهد بنى أمية ولما جاءت الدولة العباسية كان الربيع ممن يخدم المنصور وكان كثير الميل إليه حسن الاعتماد عليه فكانت إليه الحجابة وهى من الوظائف الكبرى فى الدولة وسيأتى شرحها

ولما قبض المنصور على أبى أيوب استوزره بعده فظل فى خدمته إلى أن مات المنصور . وكان الربيع عارفا بخدمة الخلفاء محبوبا عندهم ولا سيما المنصور وكان جليلا نبيلا منفذا للأمور مهيبا فصيحا كافيا حازما عاقلا فطنا خبيرا بالحساب والأعمال حاذقا بأمر الملك بصيرا بما يأتى ويذر محبا لفعل الخير

ولما مات المنصور بمكة كان معه وهو الذى اخذ البيعة للمهدى بعده وكان ذلك مما جعل المهدى يبقيه على درجته التى كان عليها فى عهد أبيه إلا أنه كان حاجبا لاوزيرا وكانت وفاته سنة ١٧٠ فى عهد الهادى ويقال إنه سمه

(ثانيا) الحاجب وهو موظف كبير لايمثل أحد بين يدى الخليفة إلا باذنه وقد وجد الحاجب فى عهد بنى أمية وقد أحدثوه لما خشوا على أنفسهم من الفتاكين بعد حادثة الخوارج مع على وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان مع مافى فتح أبوابهم من ازدحام الناس عليهم وشغلهم به عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسموه الحاجب وقد روى أن عبد الملك قال لحاجبه قد وليتك حجابة بابى إلا عن ثلاثة المؤذن للصلاة فانه داعى الله وصاحب البريد فأمر ماجاء به وصاحب الطعام لئلا يفسد وكان إلى الحاجب التقديم والتأخير فى الاذن حسبما يرى من مقامات الناس ودرجاتهم

وقد ظلت الحجابة فى ارتقاء كلما ارتقت الحضارة وقد سار خلفاء بنى العباس على نمط بنى أمية فى ذلك وكان للحاجب فى عصرهم مرتبة علية وكثيرا ما كان يستشار فى الأمور التى تنزل بالخلافة

(ثالثا) الكاتب وهو الذى يتولى مخاطبة من بعد عن الحضرة من الملوك والأمراء وغيرهم وكثيرا ما كان يتولى الخليفة نفسه تلك الكتابة كما ورد أن المنصور لما جاءته رسالة محمد بن عبد الله قال له كاتبه دعنى أجبه عليها فقال أبو جعفر لابل أنا أجيبه عنها إذ تقارعنا على الأحساب فدعنى وإياه . وأحيانا كان يتولى الكتابة الوزير

(رابعا) صاحب الشرط وهو المحافظ على الأمن وكان المنصور يختار صاحب الشرط آمن الرجال وأشدهم وكان له سلطان عظيم على المريبين والجناة إلا أن استبداد المنصور بالأمور ومباشرته لصغيرها وكبيرها كانا يقللان من أهمية كل عامل

(خامسا) القاضى وكان ينظر فى قضايا مدينة المنصور وحدها ولم يكن له سلطان على قضاة الأقاليم لأن منصب قاضى القضاة لم يكن أنشىء بعد . ومن مشهورى قضاة المنصور محمد بن عبد الرحمن بن أبى ليلى ولد سنة ٧٤ للهجرة وتفقه بالشعبى أقام قاضيا بالكوفة ثلاثين سنة فى الدولتين الأموية والعباسية وهو معدود من فقهاء

أهل الرأى وكان بينه وبين أبى حنيفة الامام وحشة يسيرة وقد كان أبو حنيفة يعترض عليه فى بعض أحكامه وهو أصغر منه سنا فشكاه ابن أبى ليلى للأمير فمنعه الأمير من الفتيا وكانت وفاة ابن أبى ليلى سنة ١٤٨

هذه المناصب الخمسة هى أهم المناصب فى الدولة وجميع الوظائف الأخرى ترجع إليها وكان فى كل ولاية صورة من ذلك

الجيش

أهم ما تظهر به الدولة جيشها الذى يذود عن حياضها ويحمى بيضتها وقد كان الجيش لعهد الدولة الأموية عربيا محضا جنوده وقواده فلما جاءت الدولة العباسية كان ظهور نجمها على يد أهل خراسان الذين يرجع إليهم أكبر الفضل فى ثل عرش الدولة الأموية وبالضرورة يكون لهم حظ وافر من الدولة وحمايتها لذلك كان جيش الديوان فى أول عهد العباسيين مؤلفا من فريقين

(الأول) الجيوش الخراسانية — الثانى الجيوش العربية ، وقوادهم من الفريقين بعضهم من العرب وبعضهم من الموالى وكان التنازع شديدا بين الفريقين بداعى العصبية كل يتعصب لأبناء جنسه . وكان أكبر القواد المعروفين فى أول عهد الدولة أبو مسلم الخراسانى لجيوش المشرق الخراسانية وعبد الله بن على لجيوش المغرب وأعظمها عربى من الجزيرة والشام . ولما خرج عبد الله بن على عن طاعة المنصور وأرسل أبو مسلم لحربه فانتصر عليه رجحت كفة الخراسانيين وصارت الثقة بهم أعظم ولكن ذلك لم يمنع المنصور من القضاء على أبى مسلم الذى نظر إليه نظرة الشريك المساوى فى القوة والسلطان ويظهر أن المنصور لم يكن يرى لمصلحته ومصلحة أهل بيته أن تظل كفة أهل خراسان راجحة فاصطنع كثيرا من رجالات العرب وسلمهم قيادة الجيوش كما استعان بأهل بيته ومن أعظم قوادهم عيسى بن موسى الذى سيره المنصور لحرب محمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم

ومن مشهورى قواده العرب : معن بن زائدة الشيبانى وهو قائد شجاع كان فى أيام بنى أمية متنقلا فى الولايات ومنقطعا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراقين فلما جاءت الدولة العباسية وحوصر يزيد بن عمر بواسط أبلى معه يومئذ بلاء حسنا

فلما سلم يزيد وقتل خاف معن على نفسه من المنصور فاستتر مدة طويلة حصلت له فيها غرائب من أظرفها أنه تنكر وركب جملا يقصد البادية فبينا هوخارج من باب المدينة تبعه عبد أسود متقلد سيفا فقبض على خطام جمله فأناخه وقبض على يدى معن وقال أنت طلبة أمير المؤمنين أنت معن بن زائدة فلمارأى الجد منه أخرج عقد جوهر ثمنه أضعاف ماجعله المنصور لمن يأتى بمعن فقال للأسود خذه ولا تكن سببا لسفك دمى فتأمله الأسود وقال لست أقبله حتى أسألك عن شىء فان صدقتنى أطلقتك إن الناس وصفوك بالجود فهل وهبت مالك كله قال لا قال فنصفه قال لا ولم يزل حتى بلغ العشر فقال معن نعم فقال له الأسود أنا رزقى من المنصور كل شهر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته ألوف دنانير وقد وهبته لك ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس ولتعلم أن فى الدنيا من هو أجود منك فلا تعجبك نفسك ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته ولا تتوقف عن مكرمة ثم رمى العقد فى حجره وترك خطام الجمل وولى منصرفا فقال له معن قد والله فضحتنى ولسفك دمى أهون على مما فعلت خذ مادفعته لك فانى فى غنى عنه فضحك وقال أردت أن تكذبنى فى مقالى والله لا أخذته ولا أخذت لمعروفى ثمناً ومضى لسبيله . وما زال معن مستتراً حتى كان يوم الهاشمية يوم أن ثار الراوندية بالمنصور وهم قوم من أهل خراسان منسوبون إلى بليدة قرب قاشان وكانوا على رأى أبى مسلم صاحب دعوة بنى هاشم يقولون بتناسخ الأرواح ويظهر على رغم الروايات المتناقضة أنهم كانوا يريدون الأخذ بثأر أبى مسلم ويقتلون أباجعفر فاجتمع منهم زهاء ستمائة وقصدوا نحو المنصور فتنادى الناس وغلقت أبواب المدينة فلم يدخل أحد فخرج المنصور من قصره وفى ذلك الوقت ظهر معن فانتهى إلى أبى جعفر فرمى بنفسه وترجل وأدخل خرقة قبائه فى منطقته وأخذ بلجام دابة المنصور وقال أنشدك الله ياأمير المؤمنين إلا رجعت فانك تكفى فلم يرجع وجاء الربيع ليأخذ بلجام الدابة فقال له معن ليس هذا من أيامك ثم تكاثر عليهم الناس فقتلوهم جميعاً وشرفت تلك الفعلة معناً فى نظر أبى جعفر حتى سماه أسد الرجال فقال معن والله ياأمير المؤمنين لقد أتيتك وأنا وجل القلب فلما رأيت ماعندك من الاستهانة بهم وشدة الاقدام عليهم رأيت أمراً لم أره من خلق فى حرب فشد ذلك من قلبى وحملنى على مارأيت منى . وكان ذلك سبباً لاعطائه الأمان ووصله بعشرة آلاف

درهم وتوليته اليمن فمكث فيها مدة أحسن فيها السيرة فى أهلها حتى ردهم إلى الطاعة والجماعة . ثم ولى فى آخر أمره سجستان . ولما كان سنة ١٥١ كان فى داره صناع يعملون له عملا فاندس بينهم قوم من الخوارج فقتلوه بمدينة بست . وكان معن جواداً ممدحا وشاعره الخصيص به مروان بن أبى حفصة له فيه المدح الرائقة كما له فيه المراثى المشجية ومن طرف بدائهه أن معنا دخل على المنصور مرة فقال له إيه يامعن تعطى مروان بن أبى حفصة مائة ألف درهم على قوله

معن بن زائدة الذى زادت به * شرفا على شرف بنو شيبان

فقال كلا ياأمير المؤمنين وإنما أعطيته على قوله

مازلت يوم الهاشمية معلناً * بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاءه * من وقع كل مهند وسنان

ومنهم عمرو بن العلاء من أعظم قواد المنصور وهو الذى يقول فيه بشار بن برد الشاعر

فقل للخليفة إن جئته * نصيحاً ولا خير فى المتهم

إذا أيقظتك حروب العدا * فنبه لها عمراً ثم نم

فتى لاينام على دمنة * ولا يشرب الماء إلا بدم

ويقول فيه أبو العتاهية

إن المطايا تشتكيك لأنها * قطعت إليك سباسباً ورمالا

فاذا وردن بنا وردن مخفة * وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

وجهه المنصور سنة ١٤١ لحرب بلاد طبرستان وكانت مضطربة بثورة المصمغان ملك دنباوند والأصبهبذ وكان توجيهه إليها بمشورة أخى المصمغان فانه قال للمنصور ياأمير المؤمنين إن عمراً أعلم الناس ببلاد طبرستان فوجهه وضم إليه خازم بن خزيمة وهو من القواد الكبار فدخل الرويان ففتحها وأخذ قلعة الطاق وما فيها وطالت الحرب فألح خازم على القتال ففتح طبرستان وقتل من أهلها فأكثر وصار الأصبهبذ إلى قلعته وطلب الأمان على أن يسلم القلعة بما فيها من ذخائره ثم بدا للأصبهبذ فدخل جيلان من الديلم فمات بها وأخذت ابنته فتسراها العباس بن محمد وهى أم ابنه إبراهيم . وصمدت الجنود للمصمغان فظفروا به

ولم يزل عمرو بن العلاء فى رتبته إلى مدة المهدى محمد بن أبى جعفر

حاضرة الخلافة

لما ولى أبو جعفر انتقل من الأنبار إلى الهاشمية التى أسسها أخوه أبو العباس وأقام بها إلى أن عزم على تأسيس مدينة بغداد حاضرة بنى العباس الكبرى ومظهر فخرهم ومدنيتهم وكان يريد أن يكون بعيداً عن الكوفة فخرج يرتاد مسكناً لنفسه وجنده ويبتنى به مدينة حتى صار إلى موضع بغداد وقال هذا موضع معسكر صالح هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شىء يأتينا فيها كل مافى البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حوّل ذلك وهذا الفرات يجىء فيه كل شىء من الشام والرقة وماحول ذلك فنزل وضرب عسكره على الصرة وهو نهر بين الدجلة والفرات ثم أمر بخط المدينة على مثال وضعه وهى مدورة الشكل تقريباً وجعل لها سورين أحدهما داخل وهو سور المدينة وسمكه فى السماء ٣٥ ذراعا وعليه أبرجة سمك كل برج منها فوق السور خمسة أذرع وعلى السور شرف وعرض السور من أسفله نحو عشرين ذراعا ويليه من الخارج فصيل بين السورين وعرضه ٦٠ ذراعا ثم السور الأول وهو سور الفصيل ودونه خندق . وللمدينة أربعة أبواب كل اثنين منها متقابلان ولكل منها باب دون باب بينهما دهليز ورحبة تدخل إلى الفصيل الدائر بين السورين فالأول باب الفصيل والثانى باب المدينة فاذا دخل الداخل من باب خراسان عطف على يساره فى دهليز أزج معقود بالآجر والجص عرضه عشرون ذراعا وطوله ثلاثون المدخل إليه فى عرضه والمخرج منه من طوله يخرج إلى رحبة مادة إلى الباب الثانى طولها ٦٠ ذراعا وعرضها ٤٠ ولها فى جنبتيها حائطان من الباب الأول إلى الباب الثانى فى صدر هذه الرحبة فى طولها الباب الثانى وهو باب المدينة وعن يمينه وشماله فى جنبتى هذه الرحبة بابان إلى الفصيلين . والأبواب الأربعة على صورة واحدة فى الأبواب والفصلان والرحاب والطاقات . ثم الباب الثانى وهو باب المدينة وعليه السور الكبير فيدخل من الباب الكبير إلى دهليز أزج معقود بالآجر والجص طوله ٢٠ ذراعا وعرضه ١٢ وعلى كل أزج من آزاج هذه الأبواب مجلس له درجة على السور يرتقى اليه منها . على هذا المجلس قبة عظيمة ذاهبة فى السماء سمكها ٥٠ ذراعا مزخرفة وعلى رأس كل قبة منها تمثال تديره الريح لايشبه نظائره

وعلى كل باب من أبواب المدينة الأوائل والثوانى باب حديد عظيم جليل المقدار كل باب منها فردان

وابتنى قصره الذى يسمى الخلد على دجلة وكان موضعه وراء باب خراسان . ومد المنصور من نهر دجيل الآخذ من دجلة وقناة من نهر كرخايا الآخذ من الفرات وجرهما إلى المدينة فى عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها فكانت كل قناة منهما تدخل المدينة وتنفذ فى الشوارع والدروب والأرباض وتجرى صيفا وشتاء لاينقطع ماؤها فى وقت وجر لأهل الكرخ أربعة أنهر يقال لأحدها نهر الدجاج وللثانى نهر القلائين وللثالث نهر طابق وللرابع نهر البزازين . والكرخ هو أسواق المدينة التى نقلها المنصور من مدينته فى الجهة الجنوبية بين الصراة ونهر عيسى بناها المنصور ورتب كل صنف منها فى موضعه وبنى لأهل الأسواق مسجدا يجمعون فيه ولايدخلون المدينة وسميت الشرقية لأنها شرقى الصراة . ولأبى عبد الله إبراهيم ابن محمد بن عرفة نفطويه فى الكرخ

سقى أربع الكرخ الغوادى بديمة وكل ملث دائم الهطل مسبل
منازل فيها كل حسن وبهجة وتلك لها فضل على كل منزل

وفى سنة ١٥١ بنى المنصور الرصافة للمهدى ابنه وعمل لها سورا وخندقا وميدانا وبستانا وأجرى لها الماء . وربع الرصافة يسمى عسكر المهدى لأن المهدى عسكر به عند شخوصه من الرى

وبنى المنصور قصره والجامع فى وسط المدينة وكان فى صدر قصر المنصور إيوان طوله ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون وفى صدر الايوان مجلس عشرون ذراعا فى عشرين وسمكه عشرون وسقفه قبة وعليه مجلس فوقه القبة الخضراء وسمكه من أول حد عقد القبة عشرون ذراعا فصار من الأرض إلى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعا وعلى رأس القبة تمثال فرس عليه فارس بيده رمح

وقد أنفق المنصور على مدينته هذه ثمانية عشر ألف ألف دينار على ماحكاه ياقوت وفى بعض الروايات أقل من ذلك . ولما تم بناؤها حشر إليها المنصور العلماء من كل بلد وإقليم فأمها الناس أفواجا ولم تزل تتعاظم ويزداد عمرانها حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الاسلامية فى عهد الدولة العباسية وأربى سكانها

على مليونين . قال الخطيب البغدادى لم يكن لبغداد فى الدنيا نظير فى جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وتميز خواصها وعوامها وعظم أقطارها وسعة أطرارها وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشوارعها ومحالها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرقها وخاناتها وطيب هوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدال صيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفها وزيادة ماحصر من عدد سكانها وأكثر ما كانت عمارة وأهلا فى أيام الرشيد إذ الدنيا قارة المضاجع دارة المراضع خصيبة المواقع موردة المشارع

الأحوال الخارجية

فى عهد المنصور هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان إلى بلاد الأندلس وأسس بها الدولة الأموية الثانية وكان المنصور يعجب به وبقدرته وعزيمته التى جعلته وهو شريد طريد يؤسس ملكا فى هذه البلدان القاصية ولم يكن بين الرجلين بالضرورة علاقة حسنة ولم يتسم عبد الرحمن بأمير المؤمنين بل تسمى بالأمير فقط . وهذه أول بلاد اقتطعت من الخلافة الاسلامية الكبرى بالمشرق

أما مملكة الروم التى كانت تحاد الخلافة الاسلامية من الشمال فكان يعاصر المنصور فيها قسطنطين الخامس كما قدمنا وكانت العلاقة بين الأمتين منقطعة لا تترك إحداهما قتال الأخرى متى عنت الفرصة وكان من النظام المتبع فى الخلافة إرسال الجيوش تغزو الروم فى الصيف وتسمى بالصوائف ولم يكن ذلك ينقطع إلا لمانع

أول ما حصل فى عهد المنصور أن الروم بقيادة ملكهم أغاروا سنة ١٣٨ على ملطية وكانت إذ ذاك من الثغور الاسلامية فدخلوها عنوة وقهروا أهلها وهدموا سورها ولكن الملك عفا عمن فيها من المقاتلة والذرية

ولما علم بذلك المنصور أغزى الصائفة عمه صالح بن على ومعه أخوه العباس بن محمد بن على فبنى ما كان صاحب الروم هدمه من ملطية وقد أقام فى استتمام ذلك إلى سنة ١٣٩ . ثم غزوا الصائفة من درب الحدث فوغلا فى أرض الروم وغزا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة ابنتا على وكانتا نذرتا إن زال ملك بنى أمية أن تجاهدا فى سبيل الله — وغزا من درب ملطية جعفر بن حنظلة البهرانى

وفى هذه السنة استقر الأمر بين المنصور وملك الروم على المفاداة فاستنقذ المنصور من الروم أسراء المسلمين .

وفى سنة ١٤٠ غزا الصائفة الحسن بن قحطبة مع عبد الوهاب بن ابراهيم الامام وأقبل قسطنطين صاحب الروم فى جيش كثيف فنزل جيحان فبلغه كثرة المسلمين فأحجم عنهم ثم لم تكن صائفة بعد ذلك إلى سنة ١٤٦ لاشتغال أبي جعفر بأمر محمد وابراهيم ابنى عبد الله

ولم تزل الصوائف بعد ذلك تتوالى إلى سنة ١٥٥ وفيها طلب صاحب الروم الصلح على أن يؤدى للمسلمين الجزية

وكانت هذه الحروب بين الطرفين اغارات لم يقصد بها فتح بل كان كل واحد من الطرفين ينتهز الفرصة فيجتاز الحدود التى لصاحبه ثم يعود إلى مقره ثانية ولم تكن المصالحات يطول زمنها بل سرعان مايعودون إلى ما كانوا عليه

أما حدود المملكة من الجهات الأخرى فكانت فى الغالب محلا للاضطرابات ولكنها كانت تسكن حالا بما يبذله المنصور من الهمة فى إرسال الجنود إليها ليقظته ومعرفته بالأمور على وجهها . وكان فى كل ثغر جنود مرابطون من المرتزقة وهم المفروض لهم عطاء فى الديوان ومن المطوعة وهم الذين ينتدبون للجهاد فى سبيل الله لايطلبون على ذلك أجراً إلا من الله وكان الخليفة هو الذى يعين قائدهم وكان عددهم فى ذلك الوقت كثيراً

صفات المنصور وأخلاقه

كان المنصور أعظم رجل قام من آل العباس شدة وبأساً ويقظة وثباتا ونحن نسوق هنا جملة من أخلاقه لترتسم صورة هذا الرجل العظيم فى الأذهان

كيف كان يقضى وقته

كان شغله فى صدر النهار بالأمر والنهى والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر فى الخراج والنفقات ومصلحة معاش الرعية لطرح عالتهم والتلطف لسكونهم وهدئهم فاذا صلى العصر جلس لأهل بيته إلا من أحب أن يسامره . فاذا

صلى العشاء الآخرة نظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره من ذلك فيما أرب . فاذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه وانصرف سماره فاذا مضى الثلث الثاني قام من فراشه فأسبغ وضوءه وصف محرابه حتى يطلع الفجر ثم يخرج فيصلي بالناس ثم يدخل فيجلس في إيوانه

كيف كان خلقه في بيته وخارجه

قال سلامة الأبرش كان المنصور من أحسن الناس خلقا مالم يخرج إلى الناس وأشد احتمالا لما يكون من عبث الصبيان فاذا لبس ثيابه تغير لونه وتربد وجهه واحمرت عيناه فيخرج فيكون منه مايكون فاذا قام من مجلسه رجع بمثل ذلك فنستقبله في ممشاه فربما عاتبنا . وقال له يوما يابنى إذا رأيتنى قد لبست ثيابى أو رجعت من مجلسى فلايدنون منى أحد منكم مخافة أن أعره بشيء

الجد في بلاطه

قال يحيي بن سليم كاتب الفضل بن الربيع لم ير المنصور فى لهو قط ولا شيء يشبه اللهو واللعب والعبث إلا يوما واحدا فانا رأينا ابناله يقال له عبد العزيز قد خرج على الناس متنكبا قوسا متعمما بعمامة متردياً ببرد فى هيئة غلام أعرابي راكبا على قعود بين جوالقين فيهما مقل ومساويك ونعال وما يهديه الأعراب فعجب الناس من ذلك وأنكروه فمضى الغلام حتى عبر الجسر وأتى المهدى بالرصافة فأهدى إليه ذلك فقبل المهدى الجواليق وملأهما دراهم فانصرف بين الجوالقين فعلم أنه ضرب من عبث الملوك . وذكر عن حماد التركى قال كنت واقفا على رأس المنصور فسمع جلبة فى الدار فقال ماهذا ياحماد انظر فذهبت فاذا خادم له قد جلس بين الجوارى وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن فجئت فأخبرته فقال وأى شيء الطنبور فوصفه له فقال له أصبت صفته فمايدريك أنت ماالطنبور فقال رأيته بخراسان ثم قام حتى أشرف عليهم فلما بصروا به تفرقوا فأخذ الخادم الضارب وكسر الطنبور على رأسه وأخرج من قصره

كيف كان يهتم بعماله

قال المنصور ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر لايكون على بابى

أعف منهم قيل له ياأمير المؤمنين من هم ؟ قال هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم إن نقصت واحدة تداعى وهى : أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم — والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى — والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية فانى عن ظلمها غنى — والرابع — ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه . قيل له ومن هو يا أمير المؤمنين قال صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة

وولى رجلا من العرب حضرموت فكتب إليه والى البريد أنه يكثر الخروج فى طلب الصيد ببزاة وكلاب قد أعدها فعزله وكتب إليه (ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ماهذه العدة التى أعددتها للنكاية فى الوحش إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحوش سلم ما كنت تلى من عملنا إلى فلان بن فلان والحق بأهلك ملوما مدحورا)

وظفر مرة برجل من كبراء بنى أمية فقال إنى سائلك عن أشياء فأصدقنى ولك الأمان . قال نعم . فقال المنصور من أين أتى بنو أمية حتى انتشر أمرهم ؟ قال من تضييع الأخبار . قل فأى الأموال وجدوها أنفع ؟ قال الجوهر . قال فعند من وجدوا الوفاء ؟ قال عند مواليهم — فأراد المنصور أن يستعين فى الأخبار بأهل بيته ثم قال أضع من أقدارهم فاستعان بمواليه

وذكر إبراهيم بن موسى بن عيسى أن ولاة البريد فى الآفاق كلها كانوا يكتبون إلى المنصور أيام خلافته كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل ما كول وبكل مايقضى به القاضى فى نواحيهم وبما يعمل به الوالى وبما يرد بيت المال وكل حدث وكانوا يكتبون حوادث النهار إذا صلوا المغرب ويكتبون إليه بما كان فى كل ليلة إذا صلوا الغداة فاذا وردت كتبهم نظر فيها فإذا رأى الأسعار على حالها أمسك وإن تغير شىء عن حاله كتب إلى الوالى والعامل هناك وسأل عن العلة التى نقلت ذلك عن سعره فاذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك برفقة حتى يعود سعره ذلك إلى حاله . وإن شك فى شىء مما قضى به القاضى كتب إليه فى ذلك وسأل من بحضرته عن عمله فان أنكر شيئا عمل به كتب إليه يوبخه ويلومه

ثباته عند الشدائد

من الخلال التى ذللت للمنصور طريق النجاح أنه لم يكن من أولئك الرجال الذين يملأ الهم صدورهم قبل موقعه ويضيقون به ذرعا إذا وقع بل كان رابط الجأش يقابل الكوارث بعزم صادق لايبالى فيعدله مايلزم من العدة . لما تتابعت الأحداث على أبى جعفر فى عهد محمد وإبراهيم ابنى عبد الله تمثل :

تفرقت الظباء على خداش ٭ فما يدرى خداش مايصيد

ثم أمر باحضار القواد والموالى والصحابة وأهل بيته وأمر حمادا التركى باسراج الخيل وسليمان بن مجالد بالتقدم والمسيب بن زهير بأخذ الأبواب ثم خرج فى يوم من أيامه حتى علا المنبر فأزم عليه طويلا لاينطق ثم قال :

مالى أكفكف عن سعد ويشتمنى ٭ ولو شتمت بنى سعد لقد سكنوا
جهلا على وجبنا عن عدوهم ٭ لبئست الخلتان الجهل والجبن

ثم جلس وقال

فألقيت عن رأسى القناع ولم أكن ٭ لأكشفه إلا لاحدى العظائم

والله لقد عجزوا عن أمر أقنابه فما شكروا الكافى ولقد مهدوا فاستوعروا وغمطوا الحق وغمصوا فماذا حاولوا أشرب رنقا على غصص أم أقيم على ضيم ومضض والله لاأكرم أحداً باهانة نفسى والله لئن لم يقبلوا الحق ليطلبنه ثم لايجدونه عندى والسعيد من وعظ بغيره . قدم ياغلام ثم ركب

ولما قصد الكوفة حين علم بخروج محمد كان معه عثمان بن عمارة وإسحاق بن مسلم العقيلى وعبد الله بن الربيع المدانى فقال عثمان أظن محمداً خائبا ومن معه من أهل بيته إن حشو ثياب هذا العباسى لمكر ودهاء . وإنه فيما نصب له محمد من الحروب لكما قال ابن جذل الطعان :

فكم من غارة ورعيل خيل ٭ تداركها وقد حمى اللقاء
فرد خيلها حتى ثناها ٭ بأسمر مايرى فيه التواء

فقال له إسحاق بن مسلم قد والله سبرته ولمست عوده فوجدته خشنا وغمزته فوجدته صليبا وذقته فوجدته مرا وإن من حوله من بنى أبيه لكما قال ربيعة بن مكدم :

سما لى فرسان كأن وجوههم ٭ مصابيح تبدو فى الظلام زواهر

يقودهم كبش أخو مصمئلة * عبوس السرى قد لوحته الهواجر

وقال عبد الله بن الربيع هو والله خيس ضيغم شموس للأقران مفترس وللأرواح مختلس وإنه فيما يهيج من الحرب كما قال أبو سفيان بن الحرث

وإن لنا شيخا إذا الحرب شمرت * بديهته الاقدام قبل النوافل

ويكفيه فخرا أنه قام فى وجه معانديه ومخالفيه وهم كثيرون فى جهات شتى فقهرهم جميعا ووطد دعائم الملك بعد أن كاد يذهب من آل العباس قبل أن يستقر إلا أنه يؤخذ عليه ويحط من شأنه غدراته الثلاث التى عرفت عنه فقد غدر بابن هبيرة بعد أن أعطاه الأمان ولم يبد من الرجل شىء يريب وغدر بعمه عبد الله بن على بعد أن أعطاه الأمان وغدر بأبى مسلم . وربما تكون له شبهة فى القضاء على عمه وعلى أبى مسلم ولكن الذى لايليق بخليفة المسلمين وإمامهم أن يستعمل الأيمان والعهود وسيلة لاستنزال أعدائه ثم يغدر بهم

ومن غريب أمره أنه كان تزوج أروى بنت منصور الحميرى وهى أم ولديه محمد وجعفر الأكبر وكان شرط لها أن لايتزوج عليها ولا يتسرى وكتبت عليه بذلك كتابا أكدته وأشهدت عليه شهودا فعزب بها عشر سنين فى سلطانه فكان يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز يستفتيه ويحمل إليه الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق فيعرض عليه الكتاب ليفتيه فيه برخصة فكانت أروى إذا علمت بمكانه بادرته فأرسلت اليه بمال جزيل فاذا عرض عليه أبو جعفر الكتاب لم يفته فيه برخصة حتى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد . فانظروا كيف كان يحاول الخلاص من عقد عقده على نفسه ويريد أن يلقى تبعته على غيره من الفقهاء ويعرضهم لمخالفة الضمائر والذمم وإن كان هذا الحديث فى الجملة يدلنا على أن الغدر لم يصر طبعا للمنصور وإنما كانت حوادث مرت وحمله عليها السبب الذى لم يمكنه تلافيه

اقتصاده

عرف المنصور بميله إلى الاقتصاد فى النفقات حتى امتلأت بالأموال خزائنه ولذلك ترك لابنه المهدى ثروة جعلته مدة حكمه هادئ البال ينفق عن سعة ولا يخشى نفادا . ولم يكن المنصور يعطى الشعراء تلك العطايا البالغة حد السرف وإنما كانت

أعطياته إلى القلة أميل وكان يراقب أولاده حتى لايدعهم يميلون إلى السرف

وكانت أرزاق العمال أيام المنصور ٣٠٠ درهم ولم يزل الأمر على ذلك إلى أيام المأمون فكان أول من سن زيادة الأرزاق الفضل بن سهل

وعلى الجملة فلم يقم فى بنى العباس مثل المنصور فى ثباته وعلو همته وشدته على المريب واهتمامه بأمر العامة وجده فى بلاطه — وكان فوق ذلك كله فصيحا يبلغ ما يريد من الكلام عند الحاجة

وكانت القوة الاسلامية فى يده وطوع أمره إلا أنها لم تكن عربية خالصة كما كان الحال فى الدولة الأموية وكانت قوة العرب لعهده لاتزال راجحة

وفاة المنصور

فى سنة ١٥٨ حج المنصور . شخص من مدينة السلام متوجها إلى مكة فى شوال فلما صار من منازل الكوفة عرض له وجعه الذى توفى به ولم يزل يزداد حتى وصل بستان ابن عامر فاشتد به وجعه ثم صار إلى بئر ميمون وهو يسأل عن دخول الحرم ويوصى الربيع بما يريد وتوفى فى سحر ليلة السبت ٦ ذى الحجة سنة ١٥٨ ولم يحضره عند وفاته إلا الربيع الحاجب فكتم موته ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه ثم أصبح فحضر أهل بيت الخلافة وجلسوا مجالسهم فأخذ الربيع بيعتهم لأمير المؤمنين المهدى ولعيسى بن موسى من بعده ثم دعا بالقواد فبايعوا وتوجه العباس بن محمد بن على ومحمد بن سليمان بن على إلى مكة ليبايعا الناس فبايعوا للمهدى بين الركن والمقام

ثم أخذ فى جهاز المنصور وغسله وكفنه ففرغ من ذلك مع صلاة العصر وجعل رأسه مكشوفا من أجل أنه مات محرما وصلى عليه عيسى بن موسى ودفن بثنية المعلاة بعد خلافة مدتها ٢٢ سنة إلا ستة أيام رحمه الله .

وكان له من الولد ثمان ذكور وبنت . فالذكور محمد المهدى وجعفر الأكبر وأمهما أروى بنت منصور الحميرية وسليمان وعيسى ويعقوب وأمهم فاطمة بنت محمد من ولد طلحة بن عبيد الله — وجعفر الأصغر وأمه أم ولد كردية . وصالح المسكين وأمه أم ولد رومية . والقاسم وأمه أم ولد وقد مات منهم جعفر الأكبر والقاسم قبل

وفاة المنصور والبنت اسمها العالية أمها امرأة من بنى أمية وقد تزوج العالية إسحق ابن سليمان بن على .

٣ — المهـــدى

هو محمد المهدى بن المنصور وأمه أروى بنت منصور الحميرية وكانت تكنى أم موسى ولد سنة ١٢٦ بالحميمة من أرض الشراة وكانت سنه إذ جاءتهم الخلافة ست سنوات . ولما استخلف أبوه كان فتى سنه عشر سنوات . ولما بلغ مبلغ الرجال كان أبوه يرشحه لولاية العهد فولاه سنة ١٤١ وسنه ١٥ سنة قيادة الجنود المتوجهة إلى خراسان وأمره أن ينزل الرى حينما وقعت فتنة عبد الجبار بن عبد الرحمن عامل المنصور على خراسان . وبعد انتهاء تلك الفتنة أمره بغزو طبرستان . ثم انصرف عائدا من خراسان سنة ١٤٤ فلقيه أبوه بقرماسين وانصرفا جميعاً إلى الجزيرة لمراقبة ثغورها — وفى هذه السنة بنى المهدى بريطة بنت أبى العباس السفاح

وفى سنة ١٤٧ ولاه أبوه العهد وقدمه على عيسى بن موسى . ثم عاد إلى الرى فأقام إلى سنة ١٥١ وفيها قدم على أبيه فبنى له ولجنده الرصافة وهى الجانب الشرقى من بغداد وولاه الحج سنة ١٥٣ وفى سنة ١٥٥ أسس مدينة الرافقة على طراز مدينة بغداد . ولم يزل يستعين به فى الأعمال حتى توفى فى التاريخ الذى تقدم ذكره ٦ الحجة سنة ١٥٨ (٧ اكتوبر سنة ٧٧٥)

بيعة المهـدى

بعد أن أخذ الربيع بيعة المهدى على بنى هاشم والقواد الذين كانوا يرافقون المنصور فى حجه وجه رسولا إلى مدينة السلام بخبر الوفاة وبعث معه بقضيب النبى صلى الله عليه وسلم وبردته التى يتوارثها الخلفاء وبخاتم الخلافة فقدمت الرسل يوم الثلاثاء للنصف من ذى الحجة . وفى ذلك اليوم بايعه أهل مدينة السلام . ومكث فى خلافته إلى أن توفى ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم سنة ١٦٩ (٤ أغسطس سنة ٧٨٥) بماسبذان فتكون مدته عشر سنين وشهرا ونصفا

وكان يعاصره فى بلاد الأندلس عبد الرحمن الأول مجدد الدولة الأموية فى

المغرب . ويعاصره فى فرنسا شارلمان . ويعاصره فى مملكة الروم الشرقية لاون الرابع (٧٧٥ — ٧٨٠) ثم قسطنطين السادس ولصغره كانت أمه ايرينى تدبر أمره

الحال فى عهد المهدى

كانت خلافة المهدى مرفهة عن الناس ما كانوا يلقونه من بعض الشدة أيام المنصور فقد كان المنصور يؤسس ملكاله خصوم فكان يكتفى بالريبة والظنةفيعاقب بهما وفى مثل ذلك كثيرا مايؤخذ البرىء بالمذنب والمطيع بالعاصى فلما جاء المهدى كانت الخلافة العباسية قد توطدت وأنياب العلويين قد كسرت وإن كانت قد بقيت لهم بقايا يتطلعون للخلافة فهم لايحتاجون فى الاحتراس منهم إلى مثل ما كان المنصور يحتاج إليه من الشدة فان كبارهم قد وضعوا تحت نظر الخليفة ببغداد والذين كانوا بالمدينة اكتفى بمراقبة الأمير لهم فكانوا يعرضون عليه كل يوم ولذلك كانت حياة المهدى حياة سعيدة لنفسه ولأمته وهو بعد أبيه يشبه فى كثير من الوجوه الوليد بن عبد الملك بعد أبيه

فى أول ولايته أمر باطلاق من كان فى سجن المنصور إلا من كان قبله تباعة من دم أوقتل ومن كان معروفا بالسعى فى الأرض بالفساد أو كان لأحد قبله مظلمة أوحق فالذين أطلقهم هم من كان جرمهم سياسيا . أما أرباب الجنايات والمحبوسون لحقوق مدنية فانهم ظلوا فى حبسهم وكان ممن أطلق يعقوب بن داود الذى سيأتى ذكره فى كبار الرجال فى عهد المهدى

ومما أجراه من الاصلاح أمره ببناء القصور فى طريق مكة أوسع من القصور التى كان السفاح بناها من القادسية إلى زبالة وأمر بالزيادة فى قصور السفاح وترك منازل المنصور التى بناها على حالها . وأمر باتخاذ المصانع فى كل منهل وهى حيضان تبنى وتملأ من مياه الآبار حتى يكون الاستقاء سهلا على رجال القوافل الذين لاينقطع مرورهم من تلك الجهات . وأمر بتجديد الأميال والبرك وحفر الركايامع المصانع وجعل لذلك عاملا خاصا يقوم به . وأمر أن يجرى على المجذومين وأهل السجون فى جميع الآفاق حتى لايحتاج المجذومون إلى المشى فى الطرق وسؤال الناس فيكونون سببا فى انتشار المرض وحتى يكون للمسجونين مايقوم بأودهم فلا يموتوا جوعا

إلا من كان له أهل يسألون عنه

وأقام البريد بين مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكة واليمن بغالا وإبلا ولم يقم هنالك بريد قبل ذلك

ومن آثاره زيادته فى المسجد الحرام فأدخل فيه دورا كثيرة مما يحيط به . ومما يؤخذ عليه أنه أمر بمحو اسم الوليد بن عبد الملك من حائط المسجد النبوى وكتابة اسمه مكانه . وقديما شغف الملوك بهذه الاغارات التى تجعل ثقتنا ضعيفة بما نراه منقوشا على الآثار فان الخلف منهم كان إذا رأى للسلف أثرا باقيا يستحق به المدح والثناء فسرعان مايأمر بازالة اسم البانى ويضع اسمه مكانه كما حكى ذلك فى الآثار المصرية وهذا غش وتدليس على المتأخرين لايحسن بالسوقة أن يفعلوه فضلا عن الملوك ولكن هكذا كان

وكان المهدى يجلس للمظالم وتدخل القصص إليه فارتشى بعض أصحابه بتقديم بعضها فاتخذ بيتا له شباك حديد على الطريق تطرح فيه القصص وكان يدخله وحده فيأخذ مايقع بيده من القصص أولا فأولا فينظر فيه فلا يقدم بعضها على بعض

وكان المهدى مغرى بالزنادقة الذين يرفع إليه أمرهم فكان دائما يعاقبهم بالقتل ولذلك كانت هذه التهمة فى زمنه وسيلة إلى تشفى من يحب أن يتشفى من عدو أو خصم والذى أغراه بذلك ما كان من فتنة المقنع الخراسانى كان من إحدى قرى مرو وكان يقول بتناسخ الأرواح فاستغوى بشرا كثيرا وصار إلى ماوراء النهر فوجه المهدى لقتاله عدة من القواد فيهم معاذ بن مسلم وهو يومئذ على خراسان ثم أفرد المهدى لمحاربته سعيدا الحرشى وضم إليه القواد فاستعد المقنع للحصار فى قلعة كش فحاصره سعيد بقلعته ولما اشتد عليه الحصار وأحس بالهلكة شرب سما وأسقاه نساءه وأهله فماتوا جميعا ودخل المسلمون قلعته واحتزوا رأسه

الوزارة

كان مظهر الوزارة فى عهد المهدى أوضح منه فى عهد أبيه المنصور لما كان من ركون المهدى إلى وزرائه واعتماده عليهم أكثر مما كان يعتمد أبوه وكان أول وزرائه كبير الكفاءة فانه جمع له حاصل المملكة ورتب الديوان وقرر القواعد

وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقا وعلما وخبرة وهو أبو عبيد الله معاوية بن يسار مولى الأشعريين كان كاتب المهدى ونائبه قبل الخلافة ضمه المنصور إليه وكان قد عزم على أن يستوزره لكنه آثر به ابنه المهدى فكان غالبا على أموره لايعصى له قولا وكان المنصور لايزال يوصيه به ويأمره بامتثال مشورته فلما مات المنصور وولى المهدى فوض إليه تدبير المملكة وسلم إليه الدواوين وكان مقدما فى صناعته وله ترتيبات فى الدولة منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة وكان السلطان يأخذ على الغلات خراجا مقررا ولا يقاسم فلما تولى أبو عبيد الله الوزارة قرر أمر المقاسمة وجعل الخراج على النخل والشجر وصنف كتابا فى الخراج ذكر فيه أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده وهو أول من صنف كتابا فى الخراج وتبعه الناس بعد ذلك فصنفوا كتبا فى الخراج سيأتى ذكرها

وكان الربيع الحاجب يساعد أبا عبيد الله ويقوم بتأييده عند المنصور إذا شكاه أحد بشكوى فلما توفى المنصور وقام الربيع بأمر بيعة المهدى بمكة عاد إلى دار السلام فرأى أن يقابل أولا أبا عبيد الله قبل أن يرى المهدى فحضر إليه واستأذن عليه فلم يأذن له إلا بعد صلاة العشاء ولما دخل عليه كان متكئا فلم يقم له ولم يحفل به فقعد الربيع بين يديه على البساط وأبو عبيد الله متكئ فجعل يسائله عن مسيره وسفره وحاله ولم يسأله عما فعل فى أمر بيعة المهدى فذهب الربيع يبتدئ بذكره فقال له قد بلغنا نبؤكم فقام الربيع متغير القلب على أبى عبيد الله وقال لابنه الفضل والله الذى لاإله إلا هو لأخلعن جاهى ولأنفقن مالى حتى أبلغ من أبى عبيد الله. كان أبو عبيد الله من كبار الوزراء فهو أحذق الناس بصناعة الكتابة التى كانت فى تلك الأزمنة سلما للوزارة وكان مع ذلك من أعف الناس فلم يجد الربيع مع دهائه ونفوذ حيلته مطعنا فى أبى عبيد الله لأنه كان بعيدا عما يكرهه الخلفاء من وزرائهم

كان لأبى عبيد الله ابن متهم فى دينه وقد أسلفنا ماكان المهدى يكره من الزندقة فرأى الربيع أن ذلك خير وسيلة للافساد بين الخليفة ووزيره فمازال يحتال فى ذلك حتى اتهم المهدى ابن أبى عبيد الله فأمر باحضاره وقال يامحمد اقرأ فذهب ليقرأ فاستعجم عليه القرآن فقال لأبى عبيد الله يامعاوية ألم تخبرنى أن ابنك جامع للقرآن فقال بلى ياأمير المؤمنين ولكنه فارقنى منذ سنين وفى هذه المدة نسى القرآن فقال

(قم فتقرب إلى الله بدمه) فذهب ليقوم فوقع فقال العباس بن محمد يا أمير المؤمنين إن شئت أن تعفى الشيخ ففعل وأمر المهدى بابنه فضربت عنقه

كان بعد ذلك من السهل أن يتخوف المهدى من أبى عبيد الله لأنه قتل ابنه فاستوحش منه وبذلك بلغ الربيع ماأراد واشتفى وزاد . وتلك حال الأمراء المستبدين الذين جعلوا آذانهم صيدا لكل قول فلا يزال أهل الأهواء يلعبون بهم ويحرمونهم من خدمة الصادقين من أنهم بمثل تلك التهم التى من السهل على المفسدين توجيهها لأنهم لا ينتظرون تحقيقا لها وكانت وفاة أبى عبيد الله معزولا سنة ١٧٠ وكان عزله سنة ١٦١

استوزر المهدى بعده أبا عبد الله يعقوب بن داود بن طهمان مولى بنى سليم كان أبوه قديما كاتبا لنصر بن سيار عامل بنى أمية على خراسان خرج أولاده أهل علم وأدب وعلم بأيام الناس وسيرهم وأشعارهم ونظروا فاذا ليس لهم عند بنى العباس منزلة فلم يطمعوا فى خدمتهم لحال أبيهم من كتابة نصر فأظهروا مقالة الزيدية ودنوا من آل عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على وطمعوا أن يكون لهم دولة فيعيشوا فيها فكان يعقوب يجول البلاد منفردا بنفسه ومع إبراهيم بن عبد الله أحيانا فى طلب البيعة لمحمد بن عبد الله فلما ظهر محمد وإبراهيم كان على بن داود كاتبا لابراهيم وكان يعقوب من الخارجين مع إبراهيم فلما قتل توارى على ويعقوب وإخوتهما من المنصور فطلبهم وظفر بهم فأخذ عليا ويعقوب وحبسهما فى المطبق أيام حياته فلما مات المنصور وبويع المهدى من عليهما فيمن من عليه وكان معهما فى المطبق إسحاق بن الفضل ابن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فكانت بينهما صداقة

كان المهدى يخشى الزيدية وتدبيرهم المكايد للملك فكان يطلب رجلا له معرفة بهم ليدخل بينهم وبينه فدل على يعقوب فلما دخل عليه وفاتحه وجده رجلا كاملا فسأله عن عيسى بن زيد فوعده يعقوب أن يدخل بينه وبينه وكان الناس فى ذلك الزمن رموه بأن منزلته عند المهدى إنما كانت للسعاية بآل على وكان يعقوب يتبرأ من ذلك

قرب المهدى يعقوب بن داود إليه وولاه وزارته بعد أبى عبيد الله فأرسل للزيدية فأتى بهم من كل حدب وولاهم أمور الخلافة فى المشرق والمغرب كل جليل وعمل نفيس والدنيا كلها فى يديه

ومن علو منزلته أنه أمره المهدى بتوجيه أمنائه فى جميع الآفاق فكان لاينفذ للمهدى كتاب إلى عامل فيجوز حتى يكتب يعقوب إلى أمينه وثقته بانفاذ ذلك

كان ذلك العلو داعيا لأن حسده موالى المهدى فسعوا عليه وأعانهم الشعراء فقال فى ذلك بشار بن برد : بنى أميـــة هبوا طال نومكم * إن الخليفة يعقوب بن داود

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا * خليفة الله بين الناى والعود

كانت السعاية بيعقوب بسبب ميله لاسحاق بن الفضل وأنه يريض له الأمور وأفهموا المهدى أن إسحاق يروم الخلافة وأن يعقوب يساعده وأن المشرق والمغرب فى يده وفى أيدى أصحابه وإنما يكفيه أن يكتب لهم فيثوروا جميعا فى يوم واحد على ميعاد فيأخذ الدنيا لاسحاق بن الفضل فملأ ذلك قلب المهدى وصادف أن طلب يعقوب من المهدى عقب ذلك ولاية مصر لاسحاق بن الفضل فتغير وجه المهدى ثم دس إليه جارية من جواريه وهبها له تتسمع مايبدر منه ثم سلم إليه علويا أمره بقتله فمن عليه يعقوب وأخرجه خفية وأخبر المهدى أنه قتله وكانت الجارية قد أرسلت بخبر العلوى إليه فأرسل من جاءه به من الطريق ولما رآه يعقوب سقط فى يده وأمر المهدى باعادته إلى المطبق لحبس ولم يزل محبوسا حتى أخرجه الرشيد من سجنه . وأمر المهدى بعزل أصحاب يعقوب عن الولايات فى الشرق والغرب وأمر أن يؤخذ أهل بيته ويحبسوا ففعل ذلك بهم وكان ذلك سنة ١٦٦ فكانت وزارته خمس سنوات

وفى هـذه الوزارة أحدث ديوان كانوا يسمونه ديوان الأزمـة وأول من عمل ديوان الزمام عمر بن بزيع وذلك أنه لما اجتمعت له الدواوين فكر فاذا هو لايضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان فاتخذ دواوين الأزمة وولى كل ديوان رجلا فكان واليه على زمام ديوان الخراج إسماعيل بن صبيح ولم يكن لبنى أمية ديوان أزمة وفى سنة ١٦٨ ولى المهدى على بن يقطين ديوان زمام الأزمة على عمر بن بزيع

استوزر المهدى بعده الفيض بن أبى صالح وهو من أهل نيسابور وكان أهل بيته نصارى فانتقلوا إلى بنى العباس وأسلموا وتربى الفيض فى الدولة العباسية وتأدب وبرع وكان سخيا مفضالا متخرقا فى ماله جوادا عزيز النفس كبير الهمة كثير الكبر والتيه واستمر الفيض وزيرا للمهدى حتى مات ولم يستوزره أحد من الخلفاء بعده ومات فى أول أيام الرشيد سنة ١٧٣

الأحوال الخارجية

كما كان منظر الخلافة فى داخل المملكة باهرا كان كذلك مظهرها فى نظر الأمم الأخرى إلا أنه مما يؤسف له سوء العلاقة بين الخلافة المشرقية ببغداد وبين أمير الأندلس عبد الرحمن الداخل فقد كان المنصور والمهدى يهتمان بأمره ويودان إزالة دولته ولكن الشقة بين الرجلين بعيدة فلم يمكن واحدا منهما أن يجرد له جيشا يخترق صحارى أفريقية ويغزوه فى بلاد الأندلس فاكتفى كل من الفريقين بمعاداة الآخر وكان شارلمان فى ذلك الوقت مهتما باعادة الدولة الرومانية الغربية التى أمحت آثارها وقد فطن إلى ما بين الطرفين المسلمين من العداوة فأحب الاستفادة منها والتقرب بمحاربة أمير الأندلس إلى قلب خليفة بغداد ليكتسب بذلك نفوذا فى الخلافة الاسلامية ويرتفع قدره على ملك الروم فى القسطنطينية وجد فى ذلك حتى تمكن من إتمام هذه المواصلات فى عهد الرشيد كما سيأتى

أما العلاقات بين المهدى وبين ملك الروم فكانت سيئة فلم تكن الاغارات من الطرفين تبطل بل كانت الصوائف من طرف المسلمين كما كانت الاغارات من ملك الروم وكانت الحروب برا وبحرا

وفى سنة ١٦٣ احتفل المهدى بأمر الصائفة وولى أمرها ابنه هارون وفرض البعوث على جميع الأجناس من أهل خراسان وغيرهم وخرج المهدى مع الجيش حتى أتى البردان فأقام به نحوا من شهرين يتعبأ ويتهيأ ويعطى الجنود وأخرج صلات لأهل بيته الذين شخصوا معه وكانت هذه الغزوة من أهم الغزوات فى عهد المهدى فتح الله عليهم فيها فتوحا كثيرة وأبلاهم فى ذلك الوجه بلاء جميلا ففتحوا حصن سمالا بعد أن أقاموا عليه ثمانية وثلاثين ليلة وقد نصب عليها المنجنيق حتى فتحت وكان فتحها على ثلاثة شروط ألا يقتل أهلها ولا يرحلوا ولا يفرق بينهم فأعطوا ذلك فنزلوا ووفى لهم هارون . ثم قفل بالمسلمين سالمين إلا من كان أصيب منهم بسمالا

وفى سنة ١٦٥ غزا الصائفة هارون مرة أخرى فوغل فى بلاد الروم وكان عدد جيشه ٩٥٧٩٣ رجلا حمل لهم من العين ١٩٤٤٥٠ دينارا ومن الورق ١٤١٤٨٠٠ درهم ولم يزل هذا الجيش سائرا حتى بلغ خليج البحر الذى على القسطنطينية وكان الذى

يقوم بأمر الروم ايرينى أم الملك نيابة عن ابنها فجرت بينها و بين هارون مكاتبات فى طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية فقبل منها ذلك هارون واشترط عليها أن تقيم الأدلاء والأسواق فى طريقه لأنه قد دخل مدخلا صعبا مخوفا على المسلمين فأجابته الى ماسأل . والذى وقع عليه الصلح بينه وبينها ٩٠٠٠٠ دينار تؤديها فى نيسان من كل سنة وفى حزيران فقبل ذلك وأقامت له الأسواق فى منصرفه ووجهت معه رسولا إلى المهدى بما بذلت على أن تؤدى ماتيسر من الذهب والفضة والعروض وكتبوا كتاب هدنة إلى ثلاث سنوات وسلمت الأسارى . وقال مروان بن أبى حفصة فى هذه الغزوة لهارون

أطفت بقسطنطينية الروم مسنداً ۞ إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها ۞ بجزيتها والحرب تغلى قدورها

وكان قفول هارون من وجهه هذا فى محرم سنة ١٦٦ وقدمت الروم بالجزية معه وذلك ٦٤٠٠٠ دينار رومية و ٢٥٠٠ دينار عربية و ٣٠٠٠٠ رطل مرعزى

وفى رمضان سنة ١٦٨ أى قبل انقضاء مدة الهدنة نقض الروم الصلح وغدروا فوجه إليهم على بن سليمان بن على وهو والى الجزيرة وقنسرين يزيد بن بدر البطال فى سرية فردوا الروم وغنموا وظفروا . والنتيجة أن مدة المهدى كان أكثرها حربا مع المسلمين والروم وكان الفريقان فى موقف الدفاع أحيانا والهجوم أحيانا إلا أن الظفر كان فى الغالب للمسلمين

غزو الهند

كان المسلمون يملكون إلى نهر مهران الفاصل بين السند والهند فأراد المهدى أن يغزى جنوده بلاد الهند ففى سنة ١٥٩ وجه عبد الملك بن شهاب المسمعى فى البحر إلى بلاد الهند وفرض معه لألفين من أهل البصرة من جميع الأجناد وأشخص معه من المطوعة الذين كانوا يلزمون المرابطات ١٥٠٠ ووجه معه قائداً من أبناء الشام فى ٧٠٠ من أهل الشام وخرج معه من مطوعة أهل البصرة ١٠٠٠ رجل ومن الأسواريين والسبابجة ٤٠٠ فكان تمام عدتهم ٩٢٠٠ رجل مضوا حتى أتوا مدينة باربد من بلاد الهند سنة ١٦٠ فناهضوها بعد قدومهم بيوم وأقاموا عليها يومين

فنصبوا المنجنيق وناهضوها بجميع الآلة وتحاشد الناس وحصن بعضهم بعضاً حتى فتحوها عنوة ودخلت خيلهم من كل ناحية حتى ألجأوهم إلى بلدهم فأشعلوا فيها النيران والنفط وغلبوا أهلها على أمرهم بعد أن قتل من المسلمين بضعة وعشرون رجلا ثم أقاموا بالمدينة حتى يطيب لهم الريح فأصابتهم أمراض مات بسببها نحو ألف منهم ثم انصرفوا حين أمكنهم الانصراف حتى بلغوا ساحلا من فارس يقال له بحر حمران فعصفت عليهم فيه الريح فكسرت عامة مراكبهم فغرق منهم بعض ونجا بعض . ويظهر أن هذه الغزوة ليست إلا إغارة لا عملا يقصد به توسيع المملكة

صفات المهـــدى

كان المهدى لايشرب النبيذ وإن كان سماره يشربونه فى مجلسه وكان يسمع الغناء وكان من خلقه الحياء والعفو فكان إذا وقع أحد من خصومه فى يده عفا عنه وكان يتأثر بالقرآن . كان فى حبسه موسى بن جعفر العلوى فقرأ مرة فى صلاته ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ فأتم صلاته والتفت إلى الربيع وأمره باحضار موسى فلما جىء به قال له ياموسى إنى قرأت هذه الآية فخفت أن أكون قطعت رحمك فوثق لى أنك لاتخرج على فقال نعم فوثق له فخلاه

وكان خليفة عادلا يجلس للمظالم بنفسه وبين يديه القضاة فيزيل عن الناس مظالمهم ولو كانت قبله وكان إذا جلس للمظالم قال ادخلوا على القضاة فلو لم يكن ردى للمظالم إلا للحياء منهم لكفى . قال المسور بن مساور ظلمنى وكيل المهدى وغصبنى ضيعة لى فأتيت سلاما صاحب المظالم وأعطيته رقعة مكتوبة فأوصلها للمهدى وعنده عمه العباس بن محمد وابن علاثة وعافية القاضى فأمر المهدى بادخاله وسأله عن مظلمته فأخبره بها فقال له ترضى بأحد هذين فقال نعم فقال تكلم فقال مساور أصلح الله القاضى إن هذا ظلمنى فى ضيعتى وأشار الى المهدى فقال القاضى ماتقول ياأمير المؤمنين قال ضيعتى فى يدى فقال مساور أصلح الله القاضى سله صارت إليه الضيعة قبل الخلافة أو بعدها فقال المهدى بعد الخلافة فقال القاضى أطلقها له قال قد فعلت . والعدل والحلم والعفو فى الخلفاء من الصفات التى تدل على علو أقدارهم وعظيم سلطانهم وهكذا كان المهدى مع ماامتاز به من الجود وفصاحة اللسان وكان أبوه قد علمه

تعليما عربيأمحضاً فى صغره وقد ألف له المفضل الضبى أمثال العرب وجمع له مختارات شعرهم وكان يقول ماتقرب إلى أحد بوسيلة ولا تذرع بذريعة هى أقرب من تذكيره إياى يدأ سلفت منى إليه أتبعها أختها فأحسن ربها لأن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل

وكان المهدى ميالا إلى السنة يحب ألا يخالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن ذلك أنه أمر بنزع المقاصير من مساجد الجماعات وتصيير منابرها إلى المقدار الذى عليه منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكتب بذلك إلى الآفاق فعمل به . وزار مرة مولاه أباعون وهو مريض فقال له أوصنى بحاجتك فشكره أبوعون وقال ياأمير المؤمنين حاجتى أن ترضى عن عبدالله بن أبى عون وتدعو به فقد طالت موجدتك عليه فقال ياأبا عون إنه على غير الطريق وعلى خلاف رأينا ورأيك إنه يقع فى الشيخين أبى بكر وعمر ويسيء القول فيهما فقال أبو عون هو والله ياأمير المؤمنين على الأمر الذى خرجنا عليه ودعونا إليه فان كان قد بدا لكم فمرونا بما أحببتم حتى نطيعكم . ويظهر أن هذه الفكرة كانت موجودة حقيقة فى مبدأ الدعوة العباسية ولكنهم رفضوها بعد أن كان ما كان من أمر الطالبيين وثوراتهم المتتالية فرأى العباسيون أن يقتصروا بعلى رضى الله عنه على الدرجة التى كان عليها من التأخر فى الرتبة عن أسلافه من الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين

ولاية العهـــد

قدمنا أن المهدى نزع من ولاية العهد عيسى بن موسى بن على وجعل محله ابنه موسى الهادى ثم جعل بعده ابنه هارون الرشيد

وفاة المهـــدى

فى سنة ١٦٩ أراد المهدى الخروج إلى جرجان فلما وصل إلى ماسبذان ادركته هناك منيته ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم فى قرية يقال لها الروذ وصلى عليه ابنه هارون لأنه كان فى صحبته

٤ ـــ الهادى

هو موسى الهادى بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور وأمه أم ولد اسمها الخيزران كانت ملكا للمهدى وفى سنة ١٥٩ أعتقها وتزوجها أى بعد أن ولدت له الهادى والرشيد . ولد الهادى سنة ١٤٤ وولاه أبوه العهد وسنه ١٦ سنة وكان يوليه قيادة الجنود فى المشرق فقادها فى نواحى جرجان لمحاربة الخارجين والمخالفين . وفى اليوم الذى توفى فيه أبوه كان مقيما بجرجان وكان مع المهدى ابنه هارون فأخذله البيعة على الجندوأرسل إليه بخاتم الخلافة وبالقضيب والبردة والتعزية والتهنئة وكان ذلك فى ٢٢ محرم سنة ١٦٩ (٤ أغسطس سنة ٧٨٥) ولم يزل خليفة حتى توفى فى ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ (١٣ سبتمبرسنة ٧٨٦) فكانت مدته سنة وشهرا و ٢٢ يوما . وسنه حين مات ٢٦ سنة

وكان يعاصره فى الممالك الثلاث من كانوا يعاصرون أباه

الحال فى عهده

كان الهادى على سنن أبيه فى كراهة الزنادقة فالتفت إليهم ونكل بهم تنكيلا والزندقة على مايظن كانت عندهم عنوانا على ترك التدين والمجازفة فى التعبير عن الدين روى الطبرى أن ممن قتل الهادى يزدان بن باذان الكاتب . ذكر عنه أنه حج فنظر إلى الناس فى الطواف يهرولون فقال ماأشبهم إلا ببقرة تدوس فى البيدر . وله يقول العلاء بن الحداد الأعمى

أيا أمين الله فى خلقه ٭ ووارث الكعبة والمنبر
ماذا ترى فى رجل كافر ٭ يشبه الكعبة بالبيدر
ويجعل الناس إذا ماسعوا ٭ حمرا تدوس البر والدوسر

وروى الطبرى بسنده أن المهدى قال يوما لموسى وقد قدم إليه زنديق فاستتابه فأبى أن يتوب فضرب عنقه وأمر بصلبه يابنى إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة (يعنى أصحاب مانى) فانها تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور

وترك قتل الهوام تحرجا وتحوبا ثم تخرجها من هـذه إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هـذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق تنقذهم من ضـلال الظلمة إلى هداية النور فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له فانى رأيت جـدك العباس فى المنام قلدنى بسيفين وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين .

ومن غريب مايروى أنه أتى للمهدى برجلين من بنى هاشم أحدهما ابن لداود بن على والثانى يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وقد اتهما بالزندقة وأقرا عنده بالزندقة فأما يعقوب بن الفضل فقال له أقربها بينى وبينك فأما أن أظهر ذلك عند الناس فلا أفعـل ولو قرضتنى بالمقاريض فقال له ويلك لو كشفت لك السموات وكان الأمر كما تقول كنت حقيقا أن تعصب لمحمد ولولا محمد صلى الله عليه وسلم من كنت هل كنت إلا إنسانا من الناس أما والله لولا أنى كنت جعلت لله على عهدا إذ ولانى هذا الأمر ألا أقتل هاشميا لما ناظرتك ولقتلتك ثم التفت إلى موسى الهادى فقال ياموسى أقسمت عليك بحق إن وليت هـذا الأمر بعـدى ألا تناظرهما ساعة واحـدة فمـات ابن داود بن على فى الحبس قبل وفاة المهـدى وأما يعقوب فبقى حتى مات المهـدى وقـدم موسى من جرجان فساعة دخل ذكر وصية المهدى فأرسـل إلى يعقوب من ألقى عليـه فراشا وأقعدت الرجال عليه حتى مات

ثورة الحسين بن على

فى عهد الهادى خرج بالمدينة الحسين بن على بن الحسن المثلث سنة ١٦٩ وكان والى المدينة لوقته عمر بن عبد العزيز بن عبدالله بن عبدالله بن عمر بن الخطاب وسبب خروجه أن عمر بن عبدالعزيز أخذ الحسن بن محمد النفس الزكية وجماعة كانوا على شراب لهم فأمر بهم فضربوا جميعاً ثم أمر بهم فجعل فى أعناقهم حبال وطيف بهم فى المدينـة فصار اليه الحسين بن على فكلمه فيهم وقال له ليس هذا عليهم وقد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لايرون به بأساً فلم تطوف بهم فبعث إليهم وقـد بلغوا البلاط فردهم وأمر بهم إلى الحبس فحبسوا يوماً وليلة ثم كلم فيهم فأطلقهم جميعاً

وكانوا يعرضون كما قدمنا «يراقبون» ففقد الحسن بن محمد وكان الحسين بن على ويحيى ابن عبد الله بن الحسن كفلاه لأن العمرى كان كفل بعضهم من بعض فغاب عن العرض ثلاثة أيام فأخذ الكفيلين وسألهما عنه فحلفا أنهما لا يدريان موضعه فكلمهما بكلام أغلظ لهما فيه فحلف يحيى بن عبدالله ألا ينام حتى يأتيه به أو يضرب عليه باب داره حتى يعلم أنه قد جاءه به فلما خرجا قال الحسين سبحان الله مادعاك إلى هذا وأين تجد حسناً حلفت له بشيء لاتقدر عليه قال والله لانمت حتى أضرب عليه باب داره بالسيف فقال حسين تكسر بهذا ما كان بيننا وبين أصحابنا من الصلة قال قد كان الذى كان فلابد منه وكانوا قد تواعدوا على أن يخرجوا بمنى أو بمكة أيام الموسم وكان بالمدينة جماعة من أهل الكوفة من شيعتهم وممن كان بايع الحسين بن على ففى آخر الليل خرجوا وجاء يحيى بن عبد الله حتى ضرب باب دار مروان على العمرى فلم يجده فيها وتوارى منهم فجاؤا حتى اقتحموا المسجد. ولما أذن الصبح جلس الحسين على المنبر وعليه عمامة بيضاء وجعل الناس يأتون المسجد فاذا رأوهم رجعوا ولا يصلون فلما صلى الغداة جعل الناس يأتونه ويبايعونه على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم للمرتضى من آل محمد وقاومهم جماعة من نصراء الدولة فلم يفلحوا ولما تم للحسين بن على ماأراد انتهبت جماعته مافى بيت المال

أقام الحسين بالمدينة بعد إعلان الخروج أحد عشر يوما ثم فارقها لست بقين من ذى القعدة قاصداً مكة

انتهى خبر الحسين إلى الهادى وقد كان حج فى تلك السنة رجال من أهل بيته منهم محمد بن سليمان بن على والعباس بن محمد وموسى بن عيسى سوى من حج من الأحداث وكان على الموسم سليمان بن أبى جعفر المنصور فأمر الهادى بالكتاب بتولية محمد ابن سليمان على الحرب فلقيهم الكتاب وقد انصرفوا عن الحج. وكان محمد بن سليمان قد خرج فى عدة من السلاح فشمر للحرب وسار نحو الحسين بن على فلقيه بفخ وكانت عاقبة الوقعة أن قتل الحسين بن على الثائر وجماعة ممن معه وأفلت من الموقعة رجلان لهما تاريخ جليل وهما إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على أخو محمد النفس الزكية وهو مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى والثانى أخوه يحيى ابن عبد الله الذى ذهب إلى بلاد الديلم وسيأتى خبرهما فى دولة الرشيد

ومما يحسن ذكره مارواه الطبرى قال دخل عيسى بن داب على موسى بن عيسى عند منصرفه من فخ فوجده خائفاً يلتمس عذراً من قتل من قتل فقال أصلح الله الأمير أنشدك شعراً كتب به يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن على رضى الله عنه قال أنشدنى فأنشده

يا أيها الراكب الغادى لطيته ٭ على عذافرة فى سيرها قحم
أبلغ قريشا على شحط المزاربها ٭ بينى وبين حسين الله والرحم
وموقف بفناء البيت أنشده ٭ عهد الاله وما ترعى به الذمم
عنفتم قومكم فخرا بأمكم ٭ أم حصان لعمرى برة كرم
هى التى لايدانى فضلها أحد ٭ بنت النبى وخير الناس قد علموا
وفضلها لكم فضل وغيركم ٭ من قومكم لهم من فضلها قسم
إنى لأعلم أو ظنا كعالمه ٭ والظن يصدق أحيانا فينتظم
أن سوف يترككم ماتطلبون بها ٭ قتلى تهاداكم العقبان والرخم
ياقومنا لاتشبوا الحرب إذخمدت ٭ ومسكوا بحبال السلم واعتصموا
لاتركبوا البغى إن البغى مصرعة ٭ وإن شارب كأس البغى يتخم
قدجرب الحرب من قد كان قبلكم ٭ من القرون وقد بادتبها الأمم
فأنصفوا قومكم لاتهلكوا بذخا ٭ فرب ذى بذخ زلت به القدم

قال فسرى عن موسى بن عيسى بعض ما كان فيه

صفات الهادى

كان الهادى شديد الغيرة على حرمه ويشبه فى ذلك سليمان بن عبد الملك فى بنى أمية وقد نهى أمه الخيزران أن يدخل عليها أحد من القواد أو رؤساء حكومته بعد أن كان لها من نفوذ الأمر فى عهد المهدى مالم يكن لامرأة غيرها (قالوا) كانت الخيزران فى أول خلافة موسى الهادى تفتات عليه فى أموره وتسلك به مسلك أبيه من قبله فى الاستبداد بالأمر والنهى فأرسل إليها ألا تخرجى من خفر الكفاية إلى بذاءة التبذل فانه ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتلك وكانت الخيزران فى خلافة موسى كثيرا ماتكلمه فى الحوائج

فكان يجيبها إلى كل ماتسأله حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته وانثال الناس عليها وطمعوا فيها فكانت المواكب تغدو إلى بابها فكلمته يوما فى أمر لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلا فاعتل بعلة فقالت لابد من إجابتى قال لاأفعل قالت فانى قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك فغضب موسى وقال ويلى على ابن الفاعلة قد علمت أنه صاحبها والله لاقضيتها لك قالت إذا والله لاأسألك حاجة أبدا قال إذاوالله لاأبالى وحمى غضبه فقامت مغضبة فقال مكانك تستوعى كلامى والله وإلا فانا نفى من قرابتى من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحدمن قوادى أو أحد من خاصتى أو خدمى لأضربن عنقه ولأقبضن ماله فمن شاء فليلزم ذلك ماهذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك فى كل يوم أمالك مغزل يشغلك أو مصحف يذكرك أو بيت يصونك إياك ثم إياك مافتحت بابك لملى مسلم أو ذمى فانصرفت ماتعقل ماتطأ فلم تنطق عنده بحلوة ولا مرة بعدها .

وكان شجاعا قويا روى عنه أنه كان يثب على الدابة وعليه درعان

وكان يرى أن الناس لايصلحون إذا حجب خليفتهم عنهم حتى أنه قال للفضل بن الربيع الذى أقامه فى حجابته بعد أبيه لاتحجب عنى الناس فان ذلك يزيل عنى البركة ولاتلق إلى أمرا إذا كشفته أصبته باطلا فانذلك يوقع الملك ويضر بالرعية . وقال مرة لعلى بن صالح ائذن للناس على بالجفلى لا النقرى ففتحت الأبواب فدخل الناس على بكرة أبيهم فلم يزل ينظر فى المظالم إلى الليل .

وكان الهادى يشرب النبيذ ويسمع الغناء وهو اول من فعل ذلك من خلفاء بنى العباس وأهل العراق يتوسعون فى أمر النبيذ فيجيزون منه مالايسكر

وكان كريما يشبه أباه فى أعطياته . ولم تطل مدته فى الخلافة حتى يكون له فى أحوال الأمة أثر ظاهر

ولاية العهد

كان الرشيد ولى العهد بمقتضى عقد المهدى فخطر للهادى أن يخلعه ويعهد إلى ابنه جعفر وتابعه على ذلك القواد ودسوا إلى الشيعة فتكلموا فى أمر الرشيد وتنقصوه فى مسجد الجماعة وقالوا لانرضى به . وأمر الهادى ألايسار بحربة أمام الرشيد ومر يوما

هو وجعفر بن الهادى راكبين فبلغا قنطرة من قناطرة عيساباذ فالتفت أبو عصمة الشرطى إلى هارون فقال له مكانك حتى يجوز ولى العهد فقال هارون السمع والطاعة للأمير فوقف حتى جاز جعفر . دعا ذلك إلى اجتناب الرشيد فلم يكن أحد يجترئ أن يسلم عليه ولا يقربه وكان يحيى بن خالد يقوم بانزال الرشيد ولا يفارقه فسعى إلى الهادى أن الذى يفسد عليك هارون هو يحيى وكان هارون قد طاب نفسا بالخلع فقال له يحيى لا تفعل فدعا الهادى بيحيى وكلمه فى ذلك فقال ياأمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته فقال له الهادى صدقت ونصحت ولى فى هذا تدبير . ومع ظهور اقتناع الهادى بصحة رأى يحيى لم يتركه مشيروه بل مازالوا يحرضونه على الرشيد حتى جد فيه واشتد غضبه منه وضيق عليه فأشار يحيى على الرشيد أن يستأذنه فى الخروج إلى الصيد فأذن له الهادى . فلما غاب أكثر مما استأذن جعل يكتب إليه ويصرفه فتعلل الرشيد حتى تفاقم الأمر وأظهر الهادى شتمه وبسط مواليه وقواده ألسنتهم فيه

قطع ذلك النزاع كله مرض الهادى الذى لم يمهله إلا ثلاثة أيام . وقد اتهم الناس أمه الخيزران بسمه لما كان منه من غل يدها عن المداخلة فى أمر الملك ونهى القواد والرؤساء عن الدخول إليها وانضم إلى ذلك ماأولع به الهادى من الاساءة إلى الرشيد وإرادة عزله أو قتله وكان الرشيد برأيها وقد يؤكد ذلك أنها أرسلت إلى يحيى والهادى مريض تعلمه أن الرجل لمآبه وتأمره بالاستعداد لما ينبغى فاستعد يحيى للأمر أكمل استعداد وهيأ الكتب للعمال من الرشيد بوفاة الهادى وأنهم قد ولاهم الرشيد ماكانوا يلون . فلما مات الهادى نفذت الكتب على البرد وكانت وفاته بعيساباذ

---

٥ — الرشيد

هو هارون الرشيد بن محمد المهدى وأمه أم الهادى ولد بالرى سنة ١٤٥ ولما شب كان أبوه يرشحه للخلافة فولاه مهام الأمور . جعله أمير الصائفة سنة ١٦٣ وسنة ١٦٥ وفى سنة ١٦٤ ولاه المغرب كله من الأنبار إلى أطراف أفريقية فكانت الولاة ترسل من قبله وفى سنة ١٦٦ جعله أبوه ولى عهد بعد الهادى . وفى سنة ١٦٩ وهى السنة التى توفى فيها المهدى أراد أن يقدمه على الهادى لما ظهر من شجاعته وعلو شأنه فحالت منية المهدى دون ذلك

بويع الرشيد بالخلافة يوم أن مات أخوه الهادى فى ١٤ ربيع الأول سنة ١٧٠ (١٤ سبتمبر سنة ٧٨٦) وسنه ٢٥ سنة ولم يزل خليفة إلى أن توفى فى ثالث جمادى الآخرة سنة ١٩٤ (٢٤ مارس سنة ٨٠٨) فكانت مدته ٢٣ سنة وشهرين و١٨ يوما وكان سنه إذ توفى ٤٨ سنة

وكان يعاصره فى الأندلس الأمير عبد الرحمن الداخل (١٣٨ - ١٧٢) ثم هشام ابن عبد الرحمن (١٧٢ - ١٨٠) ثم الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦)

وفى المغرب الأقصى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب (١٧٢ - ١٧٧) وهو أول المتغلبين من البيت الادريسى ثم ابنه إدريس (١٧٧ - ٢١٣)

ويعاصره فى فرنسا شارل الكبير المعروف بشارلما (٧٦٧ - ٧١٤)

ويعاصره فى مملكة الروم بالقسطنطينية قسطنطين السادس وكانت تدبره لصغره أمه أرينى (٧٨٠ - ٧٩٧) ثم استبدت بالملك من سنة ٧٩٧ إلى سنة ٨٠٢ ثم خلعت وخلعها نقفور (٨٠٢ - ٨١١)

الحال لعهده

كان عهد الرشيد واسطة عقد المدة العباسية وصلت فيه الخلافة إلى أفخم درجاتها صولة وسلطانا وثروة وعلما وأدبا ارتقت فيه حضارة الدولة العلمية والأدبية والمادية إلى أرقى درجاتها مما سنفصله بعد ووصل ترف الأمة فى حاضرة الدولة وغيرها من الحواضر إلى حد يؤذن بقرب الهبوط وكان فى عهد الرشيد من كبار الرجال من

تزدان بهم الممالك من رجال الادارة والحرب فعظمت الهيبة فى الداخل والخارج وكانت أخلاق هارون مما يساعد على هذا الرقى كما سنبين ذلك كله مفصلا ونحن الآن ذاكرون الحوادث الكبرى التى كان لها أثر فى مستقبل الأمة

الطالبيون

كان الطالبيون شغل بنى العباس الشاغل فانهم كانوا لا يزالون متطلعين إلى نيل الخلافة كما كانت شيعتهم تتحين الفرصة الملائمة لاقامة دولتهم وكان بنو العباس من أجل ذلك لا يأمنون جانبهم لكن الرشيد فى أول ولايته أراد أن يستميل قلوبهم بشىء من الاحسان إليهم وكان أول مافعله معهم أن رفع الحجر عمن كان منهم ببغداد وسيرهم إلى المدينة ماخلا العباس بن الحسن بن عبد الله بن على وكان أبوه الحسن فيمن أشخص . ومع هذا الذى بدا منه لم يتركه الطالبيون على سجيته فكان من أول الخارجين عليه يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على وهو من الناجين من وقعة فخ التى كانت فى عهد الهادى ذهب إلى بلاد الديلم فاشتدت شوكته بها وقوى أمره ونزع إليه الناس من الأمصار والكور فاغتم الرشيد لذلك وترك شرب النبيذ ثم ندب إلى قتاله الفضل بن يحيى بن خالد فى خمسين ألفا ومعه صناديد القواد فسار سمت يحيى فكاتبه ورفق به واستماله وحذره وأشار عليه وبسط أمله وكاتب صاحب الديلم وجعل له ألف ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى وحملت إليه فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج على يديه على أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه فكتب الفضل بذلك إلى الرشيد فسره وعظم موقعه عنده وكتب الأمان وأشهد عليه الفقهاء والقضاة وجلة بنى هاشم ومشايخهم ووجه به مع جوائز وكرامات وهدايا فوجه الفضل بذلك إلى يحيى فقدم عليه وورد به الفضل بغداد فلقيه الرشيد بكل ما أحب وأمر له بمال كثير وأجرى عليه أرزاقا سنية وأنزله منزلا سريا بعد أن أقام بمنزل يحيى بن خالد أياما وكان يتولى أمره بنفسه ولا يكل ذلك إلى غيره وأمر الناس بزيارته بعد انتقاله من منزل يحيى والتسليم عليه وبلغ الرشيد الغاية من إكرام الفضل لذلك وسنبين خاتمة أمره فى حديث نكبة البرامكة ولم يترتب على خروج يحيى هذا انفصال شىء من جسم الخلافة الاسلامية

إدريس بن عبد الله

كان إدريس بن عبد الله بن الحسن ممن هرب من وقعة فخ وهذا أخو يحيى سار إلى مصر ومنها اتجه إلى بلاد المغرب الأقصى فالتف عليه برابرة أوربه فكون هناك أول خلافة للعلويين وهى دولة الأدارسة وكان نزوله بمدينة وليلى سنة ١٧٢ وكانت بيعته فى تلك السنة ولما بلغ هارون أن أمر إدريس قد استقام ببلاد المغرب وكثرت جنوده وفتح بلاد تلمسان وأنه عازم على غزو أفريقية هم أن يرسل اليه جيشاً ولكن عدل عن ذلك لبعد الشقة واختار رجلا داهية اسمه سليمان بن جرير ويعرف بالشماخ وطلب منه أن يحتال فى قتل إدريس وزوده مالا وطرفا يستعين بها على أمره فسافر الرجل ووصل إلى إدريس مظهرا النزوع اليه متبرئا من الدعوة العباسية فقبله إدريس واختص به وأعجب بحديثه ولما انتهز الفرصة سمه إما فى طيب وإما فى سنون وفر هاربا فمات إدريس سنة ١٧٧ ولم يكن له ولد إلا أمة كانت حاملا فانتظروا وضع حملها فوضعت ولدا ذكرا سمى إدريس على اسم أبيه وبايعوه بالخلافة واستمرت دولة الأدارسة بالمغرب رغم أنف الرشيد

بذلك تم خروج اقليمين عظيمين عن الخلافة العباسية وهما بلاد الأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية الأموى وبلاد المغرب الأقصى مع تلمسان على يد إدريس ابن عبد الله

كان الرشيد بسبب هذه الحوادث يخاف الطالبيين جدا ومن اتهم من الناس بالميل اليهم عاقبه أشد العقوبات وأخذ موسى بن جعفر المعروف بالكاظم إلى بغداد فأقام بها إلى أن مات وهو السادس من أئمة الشيعة الامامية

الخارجون عليه من غير العلويين

لم يكن اضطراب الدولة وزعزعة الأمن ناشئاً من العلويين وحدهم بل كان هناك فريق من الأمة ينعى على الخلفاء استبدادهم وخروجهم عما توجبه الأوامر الشرعية من كتاب الله وسنة نبيه وقد اتصل أمرهم من لدن أن خرجوا على على بن أبى طالب إلى زمن الرشيد إلا أن خلفاء بنى أمية قد أخفتوا صوتهم بما كانوا يجردون لهم من

الجيوش الجرارة على يد أمهر القواد كالمهلب بن أبي صفرة وغيره ومع ذلك فانهم لم يقدروا على افناء روحهم الثورية من الأمة فكان لا يزال يخرج منهم خارجة متى ظهر فيهم ذو مقدرة وكفاءة لخوض الحروب . وقد اشتهر زمن الرشيد بخوارج أولى بأس شديد أعادوا تاريخ أسلافهم في عهد بني أمية بعد أن كانت نيرانهم قد خبت مدة طويلة وأشهر هؤلاء الخوارج ذكرا وأعظمهم أثرا الوليد بن طريف الشارى الشيباني كان بطلا شجاعا يقيم بالجزيرة بنواحى نصيبين خرج على الرشيد سنة ١٧٨ ففتك بابراهيم بن خازم بنصيبين ثم مضى منها إلى أرمينية ثم رجع إلى الجزيرة سنة ١٨٩ واشتدت بها شوكته وكثرت أتباعه بعد أن هزم للرشيد جيوشاً عدة فاهتم الرشيد بأمره جد الاهتمام ورأى أن يوجه اليه من ربيعة من يمكنه القيام في وجهه فوقع اختياره على يزيد بن مزيد الشيباني وهو ابن أخى معن بن زائدة فذهب يزيد وصار يخاتل الوليد ويما كره متبعا في ذلك طريقة المهلب بن أبي صفرة مع قطرى بن الفجاءة وكانت البرامكة منحرفين على يزيد فقالوا له إنه يراعيه لأجل الرحم وإلا فشوكة الوليد يسيرة فوجه اليه الرشيد كتاب مغضب وقال ولو وجهت أحدا من الخدم لقام بأكثر مما تقوم به ولكنك مداهن متعصب وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرت مناجزة الوليد ليبعثن اليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين فالتقى يزيد الوليد ولما اصطف جيشاهما وشبت الحرب ناداه ياوليد ماحاجتك إلى التستر بالرجال ابرزلى فقال نعم والله فبرز الوليد وهو يرتجز

أنا الوليد بن طريف الشارى ،، قسورة لا يصطلى بنارى
جوركم أخرجنى من دارى

وبرز إليه يزيد ووقف العسكران فلم يتحرك منهما أحد فتطاردا ساعة وكل واحد منهما لا يقدر على صاحبه حتى مضت ساعات من النهار فأمكنت يزيد فيه الفرصة فضرب رجله فسقط وصاح بخيله فسقطوا عليه واحتزوا رأسه وكانت هذه الواقعة بالحديثة على فراسخ من الأنبار سنة ١٧٩ ثم وجه يزيد برأس الوليد وبكتاب الفتح إلى الرشيد . ومن ألطف الرثاء ماقالته الفارعة أخت الوليد

بتل نهاكى رسم قبر كأنه ،، على جبل فوق الجبال منيف
تضمن مجدا عد مليا وسوددا ،، وهمة مقدام ورأس حصيف

فياشجر الخابور مالك مورقا * كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لايحب الزاد إلا من التقى * ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولا الذخر إلا كل جرداء صلدم * معاودة للكر بين صفوف
كأنك لم تشهد هناك ولم تقم * مقاما على الأعداء غير خفيف
ولم تستلم يوما لورد كريهة * من السرد فى خضراء ذات رفيف
ولم تسع يوم الحرب والحرب لاقح * وسمر القنا ينكزنها بأنوف
حليف الندى ماعاش يرضى به الندى * فان مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا * فديناك من فتياتنا بألوف
ومازال حتى أزهق الموت نفسه * شجا لعدو أو نجا لضعيف
ألا يالقوم للحمام وللبلى * وللأرض همت بعده برجوف
ألا يالقومى للنوائب والردى * ودهر ملح بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب إذهوى * وللشمس لما أزمعت لكسوف
ولليث كل الليث إذ يحملونه * إلى حفرة ملحودة وسقيف
ألا قاتل الله الحشى حيث أضمرت * فتى كان للمعروف غير عيوف
فان يك أوداه يزيد بن مزيد * فرب زحوف لفها بزحوف
عليه سلام الله وقفا فاننى * أرى الموت وقاعا بكل شريف

خطر المشرق

وضح الخطر على الدولة من قبل المغرب فقد انتقصت أطرافها بخروج عبد الرحمن ابن معاوية وإدريس بن عبد الله وليس الخطر على هذا الطرف بأقل أثرا من الخطر على الطرف الآخر وهو مشرق الدولة وراء نهر جيحون فقد حصل مايؤذن بخطر مستقبل من جراء والى خراسان

استشار الرشيد وزيره يحيى بن خالد فى تولية على بن عيسى بن ماهان خراسان فأشار إليه ألا يفعل فخالفه الرشيد وولاه إياها فلما شخص إليها ظلم الناس وجمع مالا جليلا ووجه إلى الرشيد بهدايا لم ير مثلها من الخيل والرقيق والثياب والأموال فقعد الرشيد بالشماسية على دكان مرتفع حين وصل إليه مابعث به على بن عيسى

وإلى جانبه يحيى بن خالد فقال له هـذا الذى أشرت ألا نوليه هذا الثغر فقـد خالفناك فيـه فـكان فى خلافك بركة وهو كالمـازح معـه إذ ذاك فقال يحيى يا أمير المؤمنين جعلنى الله فداك أنا وإن كنت أحب أن أصيب فى رأيى وأوفق فى مشورتى فأنا أحب إلى من ذلك أن يـكون رأى أمير المؤمنين أعلى وفراسته أثقب وعلمه أكثر من علمى ومعرفته فوق معرفتى وما أحسن هذا وأكثره إن لم يكن فيه ما يكره أمير المؤمنين وأسأل الله أن يعيذه ويعفيه من سوء عاقبته ونتائج مكروهه قال وما ذاك قال أحسب أن هـذه الهدايا ما اجتمعت له حتى ظلم فيها الأشراف وأخذ أكثرها ظلما وتعديا ولو أمرنى أمير المؤمنين لأتيته بضعفها الساعة من بعض تجار الـكرخ قال وكيف ذاك قال قـد ساومنا عونا على السفط الذى جاءنا به من الجوهر وأعطيناه به سبعة آلاف ألف فأبى أن يبيعه فأبعث إليه الساعة بحاجبى يأمره أن يرده إلينا لنعيد فيه نظرنا فاذا جاءنا به جحدناه وربحنا سـبعة آلاف ألف ثم كنا نفعل بتاجرين من تجار الـكرخ مثل ذلك وعلى أن هذا أسلم عاقبة وأستر أمرا من فعل على بن عيسى فى هـذه الهدايا بأصحابها فأجمع لأمير المؤمنين فى ثلاث ساعات أكثر من قيمة هذه الهدايا بأهون سعى وأيسر أمر وأجمل جباية مما جمعه على فى ثلاث سنين . فوقرت فى نفس الرشيد وحفظها وأمسك عن ذكر على بن عيسى فلما عاث على بن عيسى بخراسان ووتر أهلها وأخذ أموالهم واستخف برجالهم كتب رجال من كبرائها ووجهائها إلى الرشيد وكتب جماعة من كورها إلى قراباتهـم وأصحابهم يشـكون سوء سيرته وخبث طعمته ورداءة مذهبه وتسأل أمير المؤمنين أن يبدلها به فدعا يحيى بن خالد فشاوره فى أمر على بن عيسى وفى صرفه فأشار عليه بيزيد بن مزيد فلم يقبل مشورته . وكان قيل للرشيد إن على بن عيسى أجمع على خلافك فشخص إلى الرى من أجل ذلك فعسكر بالنهروان لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى سـنة ١٨٩ ثم سار إلى الرى ثم إلى قرماسين ثم عاد إلى الرى فأقام بها نحو أربعة أشهر حتى قدم عليه على بن عيسى من خراسان بالأموال والهدايا والطرف وأهدى بعد ذلك إلى جميع من كان معه من ولده وأهل بيته وكتابه وخدمه وقواده على قدر طبقاتهم ومراتبهم فرأى الرشيد منه خلاف ما كان ظن به وغير ما كان يقال فيه فرضى عنه ورده إلى خراسان وخرج وهو مشيع له

عاد على بن عيسى إلى مرو ناقما على كل من يظن أنه تكلم فيه بسوء فآذى الناس وأخذ منهم الأموال ظلما . وحصل فى تلك الظروف أن أعلن العصيان رافع بن ليث ابن نصر بن سيار وجده نصر من قد عرفتم فى التاريخ الأموى . أما رافع فيظهر أنه كان ممن يتخذ دين الله هزواً ولعبا ويتضح ذلك من السبب الذى من أجله ثار . كان يحى بن الأشعث الطائى تزوج ابنة عمه وكانت ذات يسار ولسان فأقام بمدينة السلام وتركها بسمرقند فلما طال مقامه بها وبلغها أنه قد اتخذ أمهات أولاد التمست سبيلا للتخلص منه وبلغ رافعا خبرها فطمع فيها وفى مالها فدس إليها من قال لها إنه لا سبيل لها إلى التخلص من صاحبها إلا أن تشرك بالله وتحضر لذلك قوما عدولا وتكشف شعرها بين أيديهم ثم تتوب فتحل للأزواج ففعلت ذلك وتزوجها رافع وبلغ الخبر يحى بن الأشعث فرفعه إلى الرشيد فكتب إلى على بن عيسى يأمره أن يفرق بينهما وأن يعاقب رافعا ويجلده الحد ويقيده ويطوف به فى مدينة سمرقند مقيدا على حمار حتى يكون عظة لغيره فدرأ عنه سليمان بن حميد الحد وفعل به العقوبات الأخرى وحبسه فهرب من الحبس ولحق بعلى بن عيسى طالبا أمانه فلم يجبه على إليه وهم بضرب عنقه فكلمه فيه ابنه عيسى بن على وجدد طلاق المرأة وأذن له فى الانصراف إلى سمرقند فانصرف إليها فوثب بعاملها سليمان بن حميد فقتله فوجه إليه على بن عيسى ابنه عيسى وكان أمره قد استفحل بسمرقند وبايعه الناس وطابقه من وراء النهر فلقى رافع عيسى بن على وهزمه . فأخذ على فى فرض الرجال والتأهب للحرب . أما رافع فانه غلظ أمره وكاتبه أهل نسف يعطونه الطاعة ويسألونه أن يوجه إليهم من يعينهم على قتل عيسى بن على فوجه صاحب الشاش فى أتراكه وقائداً من قواده فأتوا عيسى ابن على فأحدقوا به وقتلوه ولم يعرضوا لأصحابه وكان على بن عيسى فى ذلك الوقت ببلخ فلما سمع ما أصاب ابنه خرج عنها حتى أتى مرو مخافة أن يسير إليها رافع فيستولى عليها وكان عيسى ابنه قد دفن فى بستان داره ببلخ أموالا عظيمة قيل إنها كانت ثلاثين ألف ألف ولا يعلم بها على بن عيسى ولا اطلع عليها إلا جارية كانت له فلما شخص على إلى بلخ أطلعت الجارية على ذلك بعض الخدم وتحدث به الناس فاجتمع قراء اهل بلخ ووجوهها فدخلوا البستان فانتهبوه وأباحوه للعامة فبلغ الرشيد الخبر فقال خرج من بلخ بغير إذنى وخلف مثل هذا المال وهو يزعم أنه قد أفضى إلى حلى

نسائه فيما أنفق على محاربة رافع . فى ذلك الوقت تبينت له خيانة الرجل وجبنه وسوء سياسته لأهل ولايته فعزم على خلعه ومصادرته فأحضر هرثمة بن أعين وهو قائد شجاع بطل فقال له إنى لم أشاور فيك أحداً ولم أطلعه على سرى فيك وقد اضطربت على ثغور المشرق وأنكر أهل خراسان أمر على بن عيسى إذ خالف عهدى ونبذه وراء ظهره وقد كتب يستمد ويستجيش وأنا كاتب إليه فأخبره أنى أمده بك وأوجه إليه معك من الأموال والسلاح والقوة والعدة مايطمئن إليه قلبه وتتطلع إليه نفسه وأكتب معك كتاباً بخطى فلا تفضه ولا تطلعن فيه حتى تصل إلى مدينة نيسابور فاذا نزلتها فاعمل بما فيه وامتثله ولا تجاوزه إن شاء الله وأنا موجه معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه إلى على بن عيسى بخطى ليتعرف مايكون منك ومنه وهون عليه أمر على فلا تظهرنه عليه ولا تعلمنه ماعزمت عليه وتأهب للمسير وأظهر لخاصتك وعامتك أنى أوجهك مدداً لعلى بن عيسى وعونا له . وكان كتابه لعلى بن عيسى مبدوءاً بهجروفيه توبيخ وتقريع له على مخالفته وإعلام له بما أمر هرثمة أن يفعله معه . أما عهده لهرثمة فهو :

(هـــذا ماعهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين حين ولاه ثغر خراسان وأعماله وخراجه أمره بتقوى الله وطاعته ورعاية أمر الله ومراقبته وأن يجعل كتاب الله إماماً له فى كل ماهو بسبيله فيحل حلاله ويحرم حرامه ويقف عند متشابهه ويسأل عنه أولى الفقه فى دين الله وأولى العلم بكتاب الله أو يرده إلى إمامه ليريه الله عز وجل فيه رأيه ويعزم له على رشده . وأمره أن يستوثق من الفاسق على ابن عيسى وولده وعماله وكتابه وأن يشد عليهم وطأته ويحل بهم سطوته ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم من خراج أمير المؤمنين وفىء المسلمين فاذا استنظف ماعندهم وقبلهم من ذلك نظر فى حقوق المسلمين والمعاهدين وأخذهم بحق كل ذى حق حتى يرده إليهم فان ثبتت قبلهم حقوق لأمير المؤمنين وحقوق المسلمين فدافعوا بها وجحدوها أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته حتى يبلغ بهم الحال التى إن تخطاها بأدنى أدب تلفت نفوسهم وبطلت أرواحهم فاذا خرجوا من حق كل ذى حق أشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطاء وخشونة المطعم والمشرب وغلظ الملبس مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت اليك

فانى آثرت الله ودينى على هواى وارادتى فكذلك فليكن عملك وعليه فليكن أمرك ودبر فى عمال الكور الذين تمر بهم فى صعودك مالا يستوحشون معه إلى أمر يريبهم وظن يرعبهم وابسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانهم وعذرهم ثم اعمل بما يرضى الله منك وخليفتك ومن ولاك الله أمره إن شاء الله . هذا عهدى وكتابى بخطى وأنا أشهد الله وملائكته وحملة عرشه وسكان سمواته وكفى بالله شهيدا) وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره إلا الله وملائكته

شخص هرثمة وقد اختار من ثقات رجاله ولاة على كور خراسان مع وصيتهم بكتمان أمرهم إلى اليوم الذى عينه لهم حتى إذا وصل مرو خرج على بن عيسى لمقابلته لأن هرثمة لم يدع مجالا للريبة إلى قلبه فلما دخلا المنزل أطلعه على كتاب الرشيد إليه وأول كلمة منه تنبىء عن بقيته فأسقط فى يده وبعد تلاوته الكتاب قبض عليه وقيده وكذلك قيد أولاده وكتابه وعماله ثم ذهب هرثمة إلى المسجد الجامع فخطب وبسط من آمال الناس وأخبرهم أن أمير المؤمنين ولاه ثغورهم لما انتهى إليه من سيرة الفاسق على بن عيسى وما أمره به فيه وفى عماله وأعوانه وأنه بالغ من ذلك ومن إنصاف العامة والخاصة والأخذ لهم بحقوقهم أقصى مواضع الحق وأمر بقراءة عهده عليهم فأظهروا السرور بذلك وانفسحت آمالهم وعظم رجاؤهم وعلت بالتكبير والتهليل أصواتهم وكثر الدعاء لأمير المؤمنين بالبقاء وحسن الجزاء . ثم صادر جميع ما يملكه على بن عيسى هو وأولاده وكتابه وأرسل كل ذلك إلى الرشيد وقالوا إنه حمل على ١٥٠٠ بعير وأرسل هرثمة إلى الرشيد يخبره بما صنع . ولما استوفى ماعند على بن عيسى أرسله هو وأولاده فى الأغلال إلى بغداد

وقد اهتم هرثمة بأمر رافع ولكن استفحال أمره دعا الرشيد إلى الذهاب بنفسه لحربه فشخص يريد خراسان فى ربيع الآخر سنة ١٩٣ وهى السفرة التى مات فيها بطوس فلم يصل إلى ماأراد وبقى رافع على حاله حتى أطاع المأمون من غير قتال

وزراء الرشيد

أول وزراء الرشيد يحيى بن خالد بن برمك . ولما كانت أسرة البرامكة من أعظم الأسر تاريخا وأشهرها اسما فى صدر الدولة العباسية أحببنا أن نشرح أوليتها

أسرة البرامكة

تنسب هذه الأسرة إلى جدها برمك وهو من مجوس بلخ وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران فكان برمك و بنوه سدنة له وكان برمك عظيم المقدار عندهم ولم يعلم هل أسلم أولا ، لما جاءت الدعوة العباسية خراسان كان خالد بن برمك من أكبر دعاتها وزعمائها وكان ذا صفات عالية أهلته للسيادة ورفعة القدر فى صدر الدولة حتى استوزره أبو العباس السفاح بعد هلاك أبى سلمة حفص بن سليمان الخلال فكان مدبر أمره غير أنه لم يكن يسمى وزيرا واستمر على ذلك حياة أبى العباس فلما ولى أبو جعفر أبقى خالدا فى منصبه مدة ثم ولاه فارس بتدبير أبى أيوب المورياني الذى تولى الوزارة بعده فأقام فيها مدة ثم انكسرت عليه جملة من المال فحمل إلى بغداد وطولب بالمال ذكر الطبرى فى حوادث سنة ١٥٨ أن أبا جعفر ألزمه ثلاثة آلاف ألف ونذر دمه وأجله ثلاثة أيام ولم يذكر سبب ذلك فاستعان فى ذلك أصدقاءه فأعانه كثير منهم حتى جمع فى يومين ألفى ألف وسبعمائة ألف درهم . وفى غد ذلك اليوم الذى أصيب فيه بهذه المصيبة ولاه المنصور ولاية الموصل وكان ممدوح الولاية حسن السيرة قال أحمد بن محمد بن سوار الموصلى ماهبنا قط أميرا هيبتنا خالد بن برمك من غير أن تشتد عقوبته ولا نرى منه جبرية ولكن هيبة كانت له فى صدورنا واستمر واليا على الموصل حتى مات أبو جعفر وكانت وفاة خالد سنة ١٦٣ فى أوائل خلافة المهدى

أما يحيى بن خالد فكان واحد الدنيا علما وادبا وفضلا ونبلا وجودا رباه أبوه فأحسن تربيته وكان مولده سنة ١٢٠ فكانت سنه حين جاءت الدولة العباسية اثنتى عشرة سنة فتربى فى كنف الدولة وكان عضد أبيه فى ملماته وشدائده وقد اختاره المنصور لولاية إذربيجان سنة ١٥٨ قال له قد أردتك لأمر مهم من الأمور واخترتك لثغر من الثغور وكانوا لا يولون ثغورهم إلا من كانت ثقتهم به عظيمة فسار فى ولايته سيرة أبيه فى الموصل واستمر بها حتى مات المنصور

وفى سنة ١٦٢ اختاره المهدى ليكون كاتبا ووزيرا لابنه هارون فكان معه يدبر أمره وهارون لايناديه إلا ياأبى وذلك لأن زوجة يحيى أم ابنه الفضل أرضعت هارون بلبان ابنها الفضل وأرضعت الخيزران أم هارون الفضل بلبان ابنها هارون

وخرج معه فى غزوة الصائفة سنة ١٦٣ وكان على أمر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره وكان فى تلك الغزوة الربيع بن يونس الحاجب غازيا عن المهدى فكان الذى بين الربيع ويحيى على حسب ذلك وكان هارون يشاورهما ويعمل برأيهما ولما ندب المهدى يحيى لذلك المهم قال له إنى قد تصفحت أبناء شيعتى وأهل دولتى واخترت منهم رجلا لهارون ابنى أضمه إليه ليقوم بأمر عسكره ويتولى كتابته فوقعت عليك خيرتى له ورأيتك أولى به إذ كنت مربيه وخاصته وقد وليتك كتابته وأمر عسكره

ولما ولى المهدى ابنه هارون المغرب كله سنة ١٦٤ من الأنبار إلى أفريقية أمر يحيى بن خالد أن يتولى ذلك فكانت إليه أعماله ودواوينه يقوم بها ويخلفه على ما يتولى منها واستمر على حاله تلك إلى أن مات المهدى ولما ولى الهادى أبقاه على حاله مع هارون حتى إذا خطر ببال الهادى أن يخلع أخاه من ولاية العهد ابتدأت محنة يحيى فانه هو الذى جرأه على الاستمساك بحقه الذى منحه إياه أبوه المهدى وكان هارون قد طاب نفساً بالخلع فقال له يحيى لاتفعل فقال أليس يترك لى الهنيء والمريء فهما يسعانني وأعيش مع ابنة عمى وكان هارون يجد بأم جعفر وجداً شديداً فقال له يحيى وأين هذا من الخلافة ولعلك ألا يترك هذا فى يدك حتى يخرج أجمع ومنعه من الاجابة فسعى إلى الهادى بيحيى وقيل له إنه ليس عليك من هارون خلاف وإنما يفسده يحيى ابن برمك فأرسل إليه الهادى وقال له لم تدخل بينى وبين أخى وتفسده على فقال ياأمير المؤمنين من أنا حتى أدخل بينكما إنما صيرنى المهدى معه وأمرنى بالقيام بأمره فقمت بما أمرنى به ثم أمرتنى بذلك فانتهيت إلى أمرك . ثم قال له لما كلمه فى أمر الخلع ياأمير المؤمنين إنك إن حملت الناس على نكث الأيمان هانت عليهم أيمانهم وإن تركتهم على بيعة أخيك ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك أوكد لبيعته فقال صدقت ونصحت ولى فى هذا تدبير . ومما قاله له فى هذا ياأمير المؤمنين أرأيت إن كان الأمر أسأل الله ألا نبلغه وأن يقدمنا قبله أتظن أن الناس يسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحلم ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم . قال والله ماأظن ذلك قال ياأمير المؤمنين أفتأمن أن يسمو اليها أهلك وجلتهم مثل فلان وفلان ويطمع فيها غيرهم فتخرج من ولد أبيك . فقال له نبهتنى يايحيى . قال وكان يقول : ما كلمت

أحداً من الخلفاء كان أعقل من موسى وقال له لو أن هذا الأمر لم يعقد لأخيك أما كان ينبغي أن تعقده له فكيف بأن تحله عنه وقد عقده المهدى له ولكن أرى أن تقر هذا الأمر ياأمير المؤمنين على حاله فاذا بلغ جعفر وبلغ الله به أتيته بالرشيد فخلع نفسه وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده فقبل الهادى قوله . ولكن يظهر أن الذى كان يحرك الهادى إلى خلع الرشيد بما لا تمكن مقاومته فاشتد غضبه منه وضيق عليه فقال يحيى لهارون استأذن فى الخروج إلى الصيد فاذا خرجت فاستبعد ودافع الأيام ففعل ذلك هارون وخرج إلى قصر مقاتل فأقام به أربعين ليلة حتى أنكر الهادى أمره وغمه احتباسه وجعل يكتب إليه ويصرفه فتعلل عليه حتى تفاقم الأمر وأظهر شتمه وبسط مواليه وقواده ألسنتهم فيه وكان الذى ينوب عن يحيى والرشيد بالباب الفضل بن يحيى فكان يكتب إلى أبيه بكل مايحدث

ولما لم ير الهادى يحيى بن خالد يرجع عما كان عليه لهارون بما بذل له من إكرام ولا إقطاع ولا صلة بعث إليه يتهدده بالقتل إن لم يكف عنه ولم تزل الحال على ذلك من الخوف والخطر حتى اعتل موسى علته التى مات فيها فقام يحيى بأمر الرشيد خير قيام ودبره أحسن تدبير فقلده الرشيد وزارته وزارة تفويض حيث قال له قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنق إليك فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت وأمض الأمور على ماترى ودفع إليه خاتمه وفى ذلك يقول إبراهيم الموصلى

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة * فلما ولى هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذى الندى * فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكانت الخيزران هى الناظرة فى الأمور وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن رأيها كان يحيى بما أوتيه من كرم الخلق وسماحة النفس وجودة الكتابة غرة فى دولة الرشيد وكان قبلة الآمال ومنتجع الرواد . وقد ضم إليه الرشيد فى سنة ١٧١ خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزارتان

وكان ليحيى أربعة من الأولاد كلهم سادة نجب وهم الفضل وجعفر ومحمد وموسى بنو يحيى

فأما الفضل فهو أكبر الاخوة ولد أواخر سنة ١٤٨ قبل ولادة الرشيد بأيام وقد

أرضعت كلا منهما أم الآخر ولما شب كان لأبيه يحيي كما كان يحيي لأبيه خالد ولما ولى أبوه وزارة الرشيد كان الفضل ينوب عنه فى جلائل أعماله ولما ولد محمد الأمين جعله الرشيد فى حجر الفضل حتى يقوم بتربيته فكان له أباً

وفى سنة ١٧٦ كان خروج يحيي بن عبد الله بن الحسن ببلاد الديلم فأهم أمره الرشيد واختار له أوثق الناس عنده وهو الفضل بن يحيي فولاه كور الجبال والرى وجرجان وطبرستان وقومس ودنباوند والرويان ولم يزل يحتال فى أمر يحيي حتى استنزله من معقله بأمان من غير أن يريق فى ذلك نقطة دم إلا حسن السياسة وقد عرف الرشيد ذلك للفضل فبلغ الغاية فى إكرامه ومدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال مروان بن أبى حفصة

ظفرت فلا شلت يد برمكية ٭ رتقت بها الفتق الذى بين هاشم
على حين أحيا الراتقين التئامه ٭ فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم
فأصبحت قد فازت يداك بخطة ٭ من المجد باق ذكرها فى المواسم
وما زال قدح الملك يخرج فائزا ٭ لكم كلما ضمت قداح المساهم

وقال أبو ثمامة الخطيب

للفضل يوم الطالقان وقبله ٭ يوم أناخ به على خاقان
ما مثل يوميه اللذين تواليا ٭ فى غزوتين توالتا يومان
سد الثغور ورد ألفة هاشم ٭ بعد الشتات فشملها متدان
عصمت حكومته جماعة هاشم ٭ من أن يجرد بينها سيفان
تلك الحكومة لا التى عن لبسها ٭ عظم النبا وتفرق الحكمان

وفى سنة ١٧٨ ولاه الرشيد خراسان وثغورها فأحسن السيرة بها وبنى بها الرباطات والمساجد . غزا ما وراء النهر فخرج اليه ملك اشروسنة وكان ممتنعا . ويقال إنه اتخذ بخراسان جندا من العجم سماهم العباسية وجعل ولاءهم له وإن عدتهم بلغت ٥٠٠٠٠٠ رجل وأنه قدم منهم بغداد عشرون ألف رجل فسموا ببغداد الكرنبية وخلف الباقى منهم بخراسان على أسمائهم ودفاترهم وفى ذلك يقول مروان ابن أبى حفصة

ما الفضل إلا شهاب لا أفول له ٭ عند الحروب إذا ما تأفل الشهب

حام على ملك قوم غر سهمهم * من الوراثة فى أيديهم سبب
أمست يدلبنى ساقى الحجيج بها * كتائب مالها فى غيرهم أرب
كتائب لبنى العباس قد عرفت * ما ألف الفضل منها العجم والعرب
أثبت خمس مئين فى عدادهم * من الألوف التى أحصت لك الكتب
يقارعون عن القوم الذين هم * أولى بأحمد فى الفرقان إن نسبوا
إن الجواد ابن يحيى الفضل لا ورق * يبقى على جود كفيه ولا ذهب
ما مر يوم له من شد مئزره * إلا تمول أقوام بما يهب
كم غاية فى الندى والبأس أحرزها * للطالبين مداها دونه تعب
يعطى اللها حين لا يعطى الجواد ولا * ينبو اذا سلت الهندية القضب
ولا الرضا والرضا لله غايته * إلى سوى الحق يدعوه ولا الغضب
قد فاض عرفك حتى ما يعادله * غيث مغيث ولا بحر له حدب

ولما قدم من خراسان خرج الرشيد إلى بستان أبى جعفر يستقبله وتلقاه بنو هاشم والناس من القواد والكتاب والأشراف فوصلهم وأحسن جوائزهم وكان رجوعه بعد أن حسن أحوال خراسان وأذل العاصين بأطرافها وذلك سنة ١٧٩ كان الفضل فى جميع الأعمال التى أسندت اليه كفؤاً نزيها وكان من أكثر البرامكة كرما وكان أكرم من أخيه جعفر . وكان الناس يسمونه فى بدء أعماله بالوزير الصغير واستمر محمود السيرة مرفوع الرأس كافى المهمات حتى كانت النكبة الآتى ذكرها

وأما جعفر فهو ثانى أولاد يحيى وكان من علو القدر ونفاذ الأمر وبعد الهمة وعظم المحل وجلالة المنزلة عند الرشيد بحالة انفرد بها ولم يشارك فيها وكان سمح الأخلاق طلق الوجه ظاهر البشر وأما جوده وسخاؤه وبذله وعطاؤه فكان أشهر من أن يذكر وكان من ذوى الفصاحة والمشهورين باللسن والبلاغة وكان أبوه قد ضمه إلى أبى يوسف يعقوب القاضى حتى علمه وفقهه وكان الرشيد يأنس به أكثر من أنسه بأخيه الفضل لسهولة أخلاق جعفر وشراسة أخلاق الفضل . وقال الرشيد يوما ليحيى ما بال الناس يسمون الفضل الوزير الصغير ولا يسمون جعفرا بذلك فقال يحيى لأن الفضل يخلفنى قال فضم إلى جعفر أعمالا كأعمال الفضل فقال يحيى إن خدمتك ومنادمتك يشغلانه عن ذلك فجعل إليه امر

دار الرشيد فسمي بالوزير الصغير وقال له يوما قد أحببت أن أنقل ديوان الخاتم من الفضل إلى جعفر وقد استحييت من مكاتبته فى هذا المعنى فاكتب أنت إليه فكتب يحي إلى الفضل قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الخاتم من يمينك إلى شمالك فأجابه الفضل قد سمعت ما أمر به أمير المؤمنين فى أخى وما انتقلت عنى نعمة صارت إليه ولا غربت عنى رتبة طلعت عليه فقال جعفر لله در أخى ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه وأقوى منة العقل عنده وأوسع فى البلاغة ذرعه .

وفى سنة ١٧٦ ولاه الرشيد مصر زيادة على ماله من الأعمال فى دار السلام فولاها من قبله عمر بن مهران

وفى سنة ١٨٠ هاجت العصبية بالشام بين أهلها وتفاقم أمرها فاغتم الرشيد لذلك فعقد لجعفر بن يحي على الشام وقال له إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا فقال له جعفر بل أقيك بنفسى فشخص فى جملة القواد والكراع والسلاح فأصلح بين الناس وقتل زواقيلهم والمتلصصة منهم ولم يدع بها رمحا ولا فرسا فعادوا إلى الأمن والطمأنينة وأطفأ تلك النائرة وقد مدحه شعراء العصر بسبب ذلك فقال منصور النمرى

لقد أوقدت بالشام نيران فتنة * فهذا أوان الشام تخمد نارها
إذا جاش موج البحر من آل برمك * عليها خبت شهبانها وشرارها
رماها أمير المؤمنين بجعفر * وفيه تلافى صدعها وانجبارها
رماها بميمون النقيبة ماجد * تراضى به قحطانها ونزارها
تدلت عليهم صخرة برمكية * دموغ لهام الناكثين انحدارها
غدوت تزجى غاية فى رؤسها * نجوم الثريا والمنايا ثمارها
إذا خفقت راياتها وتجرست * بها الريح هال السامعين انبهارها
فقولوا لأهل الشام لا يسلبنكم * حجاكم طويلات المنى وقصارها
فان أمير المؤمنين بنفسه * أتاكم وإلا نفسه فخيارها
هو الملك المأمول للبر والتقى * وصولاته لا يستطاع خطارها
وزير أمير المؤمنين وسيفه * وصعدته والحرب تدمى شفارها
ومن تطو أسرار الخليفة دونه * فعندك مأواها وأنت قرارها

وفيت فلم تغـــدر لقوم بذمة ٭ ولم تدن من حال ينالك عارها
طبيب باحياء الأمور إذا التوت ٭ من الدهر أعناق فأنت جبارها
إذا ما ابن يحيى جعفر قصدت له ٭ ملمات خطب لم ترعه كبارها
لقد نشأت بالشام منك غمامة ٭ يؤمل جدواها ويخشى دمارها
فطوبى لأهل الشام ياويل أمها ٭ أتاها حياها أو أتاها بوراها
فان سالموا كانت غمامة نائل ٭ وغيث وإلا فالدماء قطارها
أبوك أبو الأملاك يحيى بن خالد ٭ أخو الجود والنعمى الكبار صغارها
كأين ترى فى البرمكيين من ندى ٭ ومن سابقات مايشق غبارها
غدا من نجوم السعد من حل رحله ٭ إليك وعزت عصبة أنت جارها
عذيرى من الأقدار هل عزماتها ٭ مخلفتى عن جعفر واقتسارها
فعين الأسى مطروقة لفراقه ٭ ونفسى إليه ماينام ادكارها

ولما شخص جعفر من هذه المهمة ازداد الرشيد له إكراما وخطب جعفر أمامه خطبة جميلة استشفع فيها لأهل الشام واستعطف قلب الرشيد عليهم

وفى هذه السنة ولاه الرشيد خراسان ثم عزله منها بعد عشرين ليلة وولاه الحرس وكان يخلفه فى هذا العمل هرثمة بن أعين وهو من كبار قواد الدولة

وفى سنة ١٨٢ بايع الرشيد لابنه عبد الله المأمون بولاية العهد بعد أخيه محمد الأمين وضمه إلى جعفر بن يحيى ليكون المدبر لأمره كما كان الأمين مع الفضل بن يحيى وقد جعل الرشيد الأمين والى المغرب كله والمأمون والى المشرق كله وكانت الولاة التى ترسل إلى الأقاليم من قبل ولى العهد

وأما موسى بن يحيى فكان أشجع القوم وأشدهم بأسا لم ينل من الشهرة ما ناله أخواه الفضل وجعفر إلا أنه كان فى تلك الدولة عاملا سريا وقائدا باسلا ولاه الرشيد الشام سنة ١٧٦ لما هاجت بها الفتن والعصيان قبل الحادثة التى ذهب فيها أخوه جعفر وضم إليه من القواد والأجناد ومشايخ الكتاب جماعة فلما ورد الشام أقام بها حتى أصلح بين أهلها وسكنت الفتنة واستقام أمرها فانتهى الخبر إلى الرشيد بمدينة السلام ورد الرشيد الحكم فيهم إلى يحيى بن خالد فعفا عنهم وعما كان بينهم وأقدمهم بغداد فقيل فى موسى بن يحيى :

قد هاجت الشام هيجا * يشيب رأس وليده
فصب موسى عليها * بخيله وجنوده
فدانت الشام لما * أتى بسنخ وحيده
هو الجواد الذى بذ كل جود بجوده
أعداه جود أبيه * يحيى وجود جدوده
فجاء موسى بن يحيى * بطارف وتليده
ونال موسى ذرى المجد وهو حشو مهوده
خصصته بمديحى * منثوره وقصيده
من البرامك عود * له فأكرم بعوده
حووا على الشعر طرا * خفيفه ومديده

وقد اتهمه على بن عيسى بن ماهان أمير خراسان من قبل الرشيد بأنه هو السبب فى اضطراب خراسان عليه وأعلمه طاعة أهلها لموسى ومحبتهم إياه وأنه يكاتبهم ويعمل على الانسلال اليهم الوثوب به معهم فوقر ذلك فى نفس الرشيد عليه وأوحشه منه فلما قدح على بن عيسى فيه أسرع ذلك فى الرشيد وعمل فيه القليل منه ثم ركب موسى دين واختفى من غرمائه فتوهم الرشيد أنه صار إلى خراسان كما قيل له فلما صار إلى الحيرة فى حجه سنة ١٨٧ وافاه موسى من بغداد فحبسه الرشيد بالكوفة عند العباس ابن عيسى بن موسى فركبت أم الفضل بن يحيى فى أمره ولم يكن الرشيد يردها فى شيء فقال يضمنه أبوه فقدر فع إلى فيه فضمنه يحيى ودفعه إليه ثم رضى عنه الرشيد وخلع عليه

وأما محمد بن يحيى فكان سريا بعيد الهمة ولم يكن له من الشهرة مالاخوته كانت هذه الأسرة فى عهد الرشيد غرة فى جبين دولته جمعوا من الصفات المحمودة ما استحقوا به ثناء معاصريهم من الكتاب والشعراء والقصاد وقد كانوا فرسان البلاغة وملوك الكلام كما كانو امبرزين فى حلبة الجود والسخاء تهزهم الأريحية عند سماع المديح فيجودون بما ضن به الكرام حتى أنسوا الناس ذكر الأولين

خدمت هذه الأسرة الدولة العباسية من أول نشأتها حيث كان خالد بن برمك من كبار دعاتها وقوادها إلى هذه السنة سنة ١٨٧ التى نسطر فيها أخبار نكبتها على يدى الرشيد

نكبة البرامكة

أولع المؤرخون بذكر نكبة البرامكة وأجهدوا قرائحهم فى تعرف أسباب إيقاع الرشيد بهم . لم يكن هذا العمل بدعا فى الدولة العباسية فان للمنصور والمهدى سلفا فى ذلك فقد أوقع المنصور بوزيره أبى أيوب الموريانى قتله هو وأقاربه واستصفى أموالهم لخيانة مالية اطلع عليها منهم وأوقع المهدى بوزيره أبى عبيد الله معاوية بن يسار ويعقوب بن داود لوشاية كانت بهما مع نزاهة الأول وحسن سيرته ومع ما كان للمهدى من الولوع بالثانى حتى كتب للجمهور أنه اتخذه أخا فى الله . كل هذا قد سبق به الرشيد

يرى المؤرخ أن هذا طبيعة الملك الاستبدادى يحب الملك فيه أن يكون ذا السلطان الذى لايشارك والحول الذى لايقاوم واليد الطولى التى لاتضارعها يد وكبار الرجال الذين يعينونهم ويقومون بتأييد سلطانهم كثير منهم لايقف عند حد فى الانتفاع بتلك السابقة لهم فلايزالون يرتفعون حتى تتنبه إليهم أفكار الخلفاء بمايلقيه إليهم الحاسدون والواشون من تعظيم سلطانهم على سلطانه واشتداد وطأتهم وعلو أيديهم فتدخل الغيرة فى قلوب أولئك الخلفاء والغيرة بدء الشعور بعيوب أولئك الرجال فلا تزال معايبهم تتجسم وهفواتهم الصغيرة تعظم وحينئذ يرى هذا السلطان المستبد أن لامناص من الايقاع بمن كان سيفه الذى لاينبو فى الخطوب إشفاقا من هذا السيف أن ينقلب عليه فيقتص منه ملكه الذى دونه كل شىء وليس هذا خاصا بالرشيد والبرامكة بل كل مستبد هذا شأنه مع وزرائه وأعوانه إلا قليلا من الوزراء الذين يعلمون طباع الملك فيقفون عند حد لايهيج الغيرة والحسد فى قلوب الناس وقلب السلطان وهؤلاء أندر من الكبريت الأحمر لأنهم يتغلبون على مافى طبع الانسان من عدم الوقوف عند حد فى العظمة والتكاثر فى الأموال على أن أبا عبيد الله وزير المهدى مع نزاهته وبعده عما يوجب غيرة سلطانه جاءه أعداؤه من قبل ابنه فقالوا للمهدى إنه زنديق فقتله المهدى فكان ذلك سببا للوحشة بين المهدى ووزيره

كان يحيى بن خالد هو القائم بأمر الرشيد أيام المهدى وكان الرشيد يدعوه ياأبى وكانت أم الفضل بن يحيى ظئرا للرشيد وأرضعت الخيزران أم الرشيد الفضل بن

يحيى فكان يحيى هو الذى يكفله ويقوم بتربيته من لدن ولد إلى أن شب . وهو الذى كانت له اليد الطولى فى إخفاق المساعى التى بذلت لخلع الرشيد من ولاية العهد أيام الهادى فلما تولى الرشيد قلده وزارته وزارة تفويض ثم ضم إليه وزارة الخاتم بعد وفاة الفضل بن سليمان الطوسى فاجتمعت له الوزارتان وأعانه فى العمل أبناؤه إلا أن الشهرة ونباهة الذكر كانت للفضل وجعفر مع ما كان لهم جميعا من الكفاية حتى روى القاضى يحيى بن أكثم قال سمعت المأمون يقول لم يكن كيحيى بن خالد وولده أحد فى الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة قال القاضى فقلت ياأمير المؤمنين أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم ففيمن الشجاعة فقال موسى بن يحيى وقد رأيت أن أوليه ثغر السند

ولم يكونوا فى الاتصال بالرشيد على درجة واحدة فكان يحيى صاحب المقام الأرفع وهو المدبر أمر المملكة وحاله فى سنه وجلالة قدره تبعده عما يدعو إليه الشباب من المنادمة وكان الفضل فى الأخلاق مثله فلم يكن يخف على قلب الرشيد لتشبهه بأبيه حتى كان الرشيد قدعتب عليه وثقل مكانه عليه لتركه الشراب معه فكان الفضل يقول لو علمت أن الماء ينقص من مروءتى ماشربته وكان مشغوفا بالسماع . أما جعفر فكان أخف الجميع على قلب الرشيد فكان لذلك يدخل فى منادمته حتى كان أبوه ينهاه ويأمره بترك الأنس به فيترك أمر أبيه ويدخل معه فيما يدعوه إليه ويقال إنه كتب إليه حين أعيته الحيلة فيه . إنى إنما أهملتك ليعثر الزمان بك عثرة تعرف بها أمرك وإن كنت لأخشى أن تكون التى لاشوى لها . وقد كان يحيى قال للرشيد ياأمير المؤمنين أنا والله أكره مداخلة جعفر معك ولست آمن أن ترجع العاقبة فى ذلك على منك فلو أعفيته واقتصرت به على مايتولاه من جسيم أعمالك كان ذلك واقعا بموافقتى وأمن لك على . قال الرشيد ياأبت ليس بك هذا ولكنك إنما تريد أن تقدم عليه الفضل . ومن أجل ذلك كان سلطان جعفر أيام الرشيد عظيما جدا حتى كان يقضى أعظم الأمور فلا يرد له الرشيد قضاء

رآهم الناس بعد هذا العز المتين والشرف الباذخ منكوبين على يد الرشيد بن يحيى وأخى الفضل وحبيب جعفر . فجعفر مقتول بالعمر من ناحية الأنبار فى آخر ليلة من محرم سنة ١٨٧ بعد أوبة الرشيد من حجه وكتابته عهدى ولديه الأمين

والمأمون — ثم جسمه مصلوب ببغداد على ثلاثة جسور ثم أحرق . ويحيى بن خالد وأبناؤه الباقون محبوسون . ورأوا مصادرة لكل ما يملكون من عقار ومنقول ورقيق — ورأوا كتبا أرسلت إلى جميع العمال فى نواحى البلدان والأعمال بقبض أموالهم وأخذ وكلائهم . وأمراً بالنداء فى جميع البرامكة أن لا أمان لمن آواهم إلا محمد ابن خالد بن برمك وولده وأهله وحشمه فان الرشيد استثناهم لما ظهر له من نصيحة محمد له وعرف براءته مما دخل فيه غيره من البرامكة . رأوا ذلك كله فعرتهم الدهشة وظنوا الظنون وسادت عليهم الخيالات والأوهام ناسبين ذلك لحادث فجائى حدث فغير قلب الرشيد هذا التغيير وأداه إلى هذا العمل شأن الناس فى الأعصار كافة إذا عصفت بهم عاصفة من حادث شديد الوقع

نسب ذلك بعضهم إلى مجرد الملل والغيرة . وسئل سعيد بن سالم عن جناية البرامكة الموجبة لغضب الرشيد عليهم فقال والله ما كان منهم ما يوجب بعض عمل الرشيد بهم ولكن طالت أيامهم وكل طويل مملول والله لقد استطال الناس الذين هم خير الناس أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه وما رأوا مثلها عدلا وأمنا وسعة أموال وفتوح وأيام عثمان رضى الله عنه حتى قتلوهما ، ورأى الرشيد مع ذلك أنس النعمة بهم وكثرة حمد الناس لهم ورميهم بآمالهم دونه والملوك تتنفس بأقل من ذلك فتعنت عليهم وتجنى وطلب مساويهم ووقع منهم بعض الادلال خاصة الفضل وجعفر دون يحيى فانه كان أحكم خبرة وأكثر ممارسة للأمور ولاذ من أعدائهم بالرشيد كالفضل ابن الربيع وغيره فستروا المحاسن وأظهروا القبائح حتى كان ما كان

ونسب ذلك بعضهم إلى حادثة يحيى بن عبد الله بن الحسن الذى روينا حديث ذهابه إلى بلاد الديلم واستنزال الفضل بن يحيى إياه بأمان الرشيد — ذكر أبو محمد اليزيدى وكان فيما قيل من أعلم الناس بأخبار القوم ، قال: من قال إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن فلا تصدقه وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه ثم دعا به ليلة من الليالى فسأله عن شىء من أمره فأجابه إلى أن قال اتق الله فى أمرى ولا تتعرض أن يكون خصمك غدا محمدا صلى الله عليه وسلم فوالله ما أحدثت حدثا ولا آويت محدثا فرق عليه وقال اذهب حيث شئت من بلاد الله . قال وكيف أذهب ولا آمن أن أوخذ بعد قليل فأرد إليك أو إلى

غيرك فوجه معه من أداه إلى مأمنه وبلغ الخبر الفضل بن الربيع من عين كانت له عليه من خاصة خدمه فعلا الأمر فوجده حقا وانكشف عنده فدخل على الرشيد فأخبره فأراه أنه لايعبأ بخبره وقال وما أنت وهذا لا أم لك فلعل ذلك عن أمرى فانكسر الفضل وجاء جعفر فدعا بالغداء فأكلا وجعل يلقمه ويحادثه إلى أن كان آخر مادار بينهما أن قال مافعل يحيى بن عبد الله قال بحاله يا أمير المؤمنين فى الحبس الضيق والأكبال — قال بحياتى — فأحجم جعفر وكان من أدق الخلق ذهنا وأصحهم فكرا فهجس فى نفسه أنه قد علم بشىء من أمره فقال لاوحياتك ياسيدى ولكن أطلقته وعلمت أنه لاحياة به ولامكروه عنده قال نعما فعلت ماعدوت ما كان فى نفسى فلما خرج أتبعه بصره حتى كاديتوارى عن وجهه ثم قال قتلنى الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك فكان من أمره ما كان

ونسب ذلك بعضهم إلى حديث العباسة بنت المهدى التى رواها الطبرى عن زاهر ابن حرب وتناقلها المؤرخون وزادوا عليها ونقصوا منها وهى حكاية مشهورة ونحن نريد أن نبين أن نكبة البرامكة ليست حادثة فجائية بل هى حادثة تقدمتها أسباب طويلة أنتج بعضها بعضا

كان من موالى العباسيين الفضل بن الربيع وقد قدمنا ذكر أبيه الربيع بن يونس فى حياة المنصور والمهدى ولم يكن للفضل فى أول خلافة الرشيد شىء من نباهة الذكر لأن الخيزران أم الرشيد كانت تمنعه أن يوليه شيئا ففى اليوم الذى توفيت فيه سنة ١٧٤ دعا به هارون فقال له وحق المهدى إنى لأهم لك بالليل بالشىء من التولية وغيرها فتمنعنى أمى فأطيع أمرها فخذ الخاتم من جعفر وكان بيده نيابة عن والده فقال الفضل بن الربيع لاسماعيل بن صبيح الكاتب أنا أجل أبا الفضل عن ذلك بأن أكتب إليه وآخذه ولكن أرى أن يبعث به . وهذه مجاملة سببها أن الفضل يريد منافسة القوم وهم الذين بيدهم كل شىء فأحب أن يتخذ عندهم يدا حتى لايتخوفونه . وولى الفضل بن الربيع الخاتم مع نفقات العامة والخاصة وولايات أخرى

فى سنة ١٧٦ حصلت حادثة يحيى بن عبد الله فاستنزله الفضل من معقله بأمان الرشيد فحضر إلى بغداد وأكرمه الرشيد لكن الزمان لم يطل على هذا الاكرام فان السعاة رفعوا عن يحيى مايريب وكان الرشيد يرتاب بأقل شىء فرفع إليه

أن يحي لا يزال يدعو إلى نفسه وإنما ينتظر الفرص وكان أكثر الناس سعاية في ذلك بكار بن عبد الله الزبيرى وكان شديد البغض لآل أبي طالب ويبلغ عنهم هارون ويسيء بأخبارهم فكان من وراء تلك السعايات أن حبسه الرشيد وضيق عليه وحاول أن يقتله ولم يكن يمنعه إلاخيفة أن يقول الناس فيه شيئا لما كتبه من كتاب الأمان الذى استنزل به يحي فأراد أن يأخذ من العلماء قولا فى أن ذلك الأمان لاغ فأحضر أبا البخترى القاضى ومحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف فأما محمد بن الحسن فانه قال له ماتصنع بالأمان لوكان محاربا ثم ولى كان آمنا وليس هذا الجواب موافقا لغرض الرشيد ولذلك احتمل هذه الكلمة على محمد ـ وأما أبو البخترى فقال إن الأمان منتقض وأقبل يعد وجوه نقضه ولذلك قال له الرشيد أنت قاضى القضاة وأنت أعلم بذلك لخرق الأمان

ويظهر أن الفضل بن الربيع كان يحرك هؤلاء السعاة للسعى بيحي بن عبدالله عند الرشيد لأن فى قتله إذلالا لمن كان السبب فى استنزاله وكان الربيع يحاول أن ينال مركز البرامكة أو يساميهم لما كان يرى من وفرة أموالهم وقوة سلطانهم والذى أوضح لنا أن الفضل بن الربيع هو الذى كان يحرك السعاة بيحي أن الرشيد لما كان يحاج يحي نظر يحي إلى الفضل بن الربيع وقال له ـ هذا والله من آفاتك

كان من المفهوم بعد ذلك أن يجتهد البرامكة فى تخليص يحي ففعل جعفر فعلته التى قدمنا ذكرها والرشيد وإن كان يحتمل لجعفر كثيرا من الادلال لايحتمل له هذا لأنه متعلق بملكه ـ ومن الغريب ماورد فى هذه الحادثة من أن الفضل بن الربيع علم بما فعله جعفر من عين كانت له عليه من خاصة خدمه وهذا يبين كيف كان الفضل بن الربيع يترقب أحوال جعفر حتى اختار من خاص خدمه جاسوسا يعلم أخباره ويلقى بها إليه

كانت هذه الحادثة سبباً للوشاية بالبرامكة فى أخص صفات الوزراء وهى الاخلاص لملوكهم وذلك طعن منفذ . وقر فى نفس الرشيد شيء من ذلك وأن البرامكة يؤثرون مصلحة العلويين على مصلحته وهذه التهمة أشد من تهمة الزندقة عند المهدى وهى التهمة التى استعملها الربيع بن يونس والد الفضل ضد أبى عبيد الله وزير المهدى حتى جعله يقتل ابنه بتلك التهمة

كان من الظاهر بعد ذلك أن تتجسم عيوبهم وتظهر للرشيد مثالبهم وأثرتهم وينفس

عليهم ماصار اليهم من عظيم الأموال وجلائل المدح وظهرت على الرشيد آثار النفرة منهم واستراب بهم وظن كل منهم فى الآخر الظنون روى بختيشوع الطبيب عن أبيه جبريل قال إنى لقاعد فى مجلس الرشيد إذ طلع يحيى بن خالد وكان فيما مضى يدخل بلا إذن فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلم رد عليه رداً ضعيفا فعلم يحيى أن أمرهم قدتغير ثم أقبل الرشيد على جبريل فقال ياجبريل يدخل عليك وأنت فى منزلك أحد بلا إذنك فقلت لا ولا يطامع فى ذلك قال فما بالنا يدخل علينا بلا إذن فقام يحيى فقال ياأمير المؤمنين قدمنى الله قبلك والله ما ابتدأت ذلك الساعة وماهو إلا شىء كان خصنى به أمير المؤمنين ورفع به ذكرى حتى إن كنت لأدخل عليه وهو فى فراشه مجرداً حيناً وحيناً فى بعض إزاره وماعلمت أن أمير المؤمنين كره ماكان يحب وإذ قد علمت فانى أكون عنده فى الطبقة الثانية من أهل الاذن أو الثالثة إن أمرنى سيدى بذلك قال فاستحيا الرشيد وكان من أرق الخلفاء وجها وعيناه فى الأرض مايرفع إليه طرفه ثم قال — ما أردت ماتكره ولكن الناس يقولون . قال جبريل فظننت أنه لم يسنح له جواب يرتضيه فأجاب بهذا القول ثم أمسك عنه وخرج يحيى . وحدث محمد بن الفضل مولى سليمان بن أبى جعفر قال دخل يحيى بن خالد على الرشيد فقام الغلمان اليه فقال الرشيد لمسرور الخادم مر الغلمان ألايقوموا ليحيى إذا دخل الدار قال فدخل فلم يقم اليه أحد فأربد لونه قال وكان الغلمان والحجاب إذا رأوه أعرضوا عنه قال فكان ربما استسقى الشربة من الماء أوغيره فلا يسقونه وبالحرى إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعوبها مرارا .

وحدث يعقوب بن إسحاق عن إبراهيم بن المهدى قال أتيت جعفر بن يحيى فى داره التى ابتناها فقال أماتعجب من منصور بن زياد قال قلت له فيماذا قال سألته هل ترى فى دارى عيبا قال نعم ليس فيها لبنة ولا صنوبرة قال إبراهيم فقلت له الذى يعيبها عندى أنك أنفقت عليها نحواً من عشرين ألف ألف درهم وهو شىء لا آمنه عليك غداً بين يدى أمير المؤمنين — قال هو يعلم أنه قد وصلنى بأكثر من ذلك وضعف ذلك سوى ماعرضنى له قال قلت إن العدو إنما يأتيه فى هذا من جهة أن يقول له ياأمير المؤمنين إذا أنفق على دار عشرين ألف ألف درهم فأين نفقاته وأين صلاته وأين النوائب التى تنوبه وما ظنك ياأمير المؤمنين بما وراء ذلك وهذه جملة سريعة إلى

القلب والوقف على الحاصل منها صعب قال إن سمع منى قلت إن لأمير المؤمنين نعما على قوم قد كفروها بالستر أو باظهار القليل من كثيرها وأنا رجل نظرت إلى نعمته عندى فوضعتها فى رأس جبل ثم قلت للناس تعالوا فانظروا . وحدث زيد بن على عن إبراهيم بن المهدى أن جعفر بن يحيي قال له يوما (وكان جعفر صاحبه عند الرشيد وهو الذى قربه منه) إنى قد استربت بأمر هذا الرجل (يعنى الرشيد) وقد ظننت أن ذلك لسابق سبق لى منه فأردت أن أعتبر ذلك بغيرى فكنت أنت فارمق ذلك فى يومك هذا وأعلمنى ماترى منه قال إبراهيم ففعلت ذلك فى يومى .

فلما نهض الرشيد من مجلسه كنت أول أصحابه نهض عنه حتى صرت إلى شجرة فى طريق فدخلتها ومن معى وأمرتهم باطفاء الشمع وأقبل الندماء يمرون بى واحدا بعد واحد فأراهم ولا يرونى حتى إذا لم يبق منهم أحد إذا أنا بجعفر قد طلع فلما جاوز الشجر قال اخرج ياحبيبى قال فخرجت فقال ماعندك فقلت حتى تعلمنى كيف علمت أنى ههنا قال عرفت عنايتك بما أعنى به وأنك لم تكن لتنصرف أو تعلمنى مارأيت منه وعلمت أنك تكره أن ترى واقفا فى مثل هذا الوقت وليس فى طريقك موضع أستر من هذا الموضع فقضيت بأنك فيه ثم قال فهات ماعندك قلت رأيت الرجل يهزل إذا جددت ويجد إذا هزلت قال كذا هو عندى فانصرف ياحبيبى

من كل هذا يتبين أن النفور والريبة وقعت فى قلب كل من الطرفين للآخر وتتبع ذلك معاملات من الرشيد لم يكن يبعثه عليها إلا مارکز فى نفسة وأثبته عنده وشاة السوء وأعداء البرامكة وكان الرشيد يتحين الفرصة للايقاع بهم ولا سيما جعفرا لما كان منه من تخليص يحيي بن عبد الله وهذا دليل عدم الاخلاص للرشيد وللبيت العباسى . وقد قام الفضل بن الربيع بما انتدب إليه خير قيام وشايعه فى ذلك كثيرون وكانت زوجة الرشيد زبيدة منحرفة عن جعفر لقيامه فى أمر المأمون فانه هو الذى قام فى ولايته العهد وجعله مناظراً لابنها الأمين وكانوا يتخوفون من جعفر أن يكون سبباً فى الايقاع بين الأخوين إذا حانت منية الرشيد لذلك كانت زبيدة توغر قلب الرشيد على جعفر كلما حانت الفرصة

فى سنة ١٨٦ حج الرشيد ولما انصرف من حجه أتى الأنبار ومعه يحيي والفضل وجعفر ومحمد بن خالد ودعا موسى بن يحيي فرضى عنه بعد غضبه عليه وفى غاية

المحرم أمر فيهم أمره فقتل جعفرا وحبس يحيى وابنيه وصادر أموالهم كلها وقد حبس يحيى مع الفضل ومحمد فى دير القائم وجعل عليهم حفظة ولم يفرق بينهم وبين عدة من خدمهم ولا مايحتاجون إليه وصير معهم زبيدة بنت منير أم الفضل وعدة من خدمهم وجواريهم ولم تزل حالهم سهلة إلى أن سخط الرشيد على عبد الملك بن صالح فعمهم بالتثقيف بسخطه وجدد له ولهم التهمة عند الرشيد فضيق عليهم

حادثة عبد الملك بن صالح

هو عبدالملك بن صالح بن على بن عبدالله بن عباس وهو فى درجة السفاح والمنصور نسبا رفع إلى الرشيد أنه يطلب الخلافة ويطمع فيها وأن البرامكة كانوا له عونا والذى سعى به ابنه عبد الرحمن وخادمه قمامة فأحضر إلى الرشيد فلما دخل عليه قال «أكفرا بالنعمة وجحودا لجليل المنة والتكرمة» فقال ياأمير المؤمنين «لقد بؤت إذا بالندم وتعرضت لاستحلال النقم وماذاك إلابغى حاسد نافسنى فيك مودة القرابة وتقديم الولاية إنك ياأمير المؤمنين خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمته وأمينه على عترته لك عليها فرض الطاعة وأداء النصيحة ولها عليك العدل فى حكمها والتثبت فى حادثها والغفران لذنوبها» فقال له الرشيد «أتضع لى من لسانك وترفع لى من جنانك هذا كاتبك قمامة يخبر بغلك وفساد نيتك فاسمع كلامه» فقال عبدالملك «أعطاك ماليس فى عقده ولعله لايقدر أن يعضهنى ولا يبهتنى بما لم يعرفه منى» وأحضر قمامة فقال له الرشيد تقدم غير هائب ولا خائف قال أقول إنه عازم على الغدر بك والخلاف عليك — فقال عبدالملك أهو كذلك ياقمامة قال نعم لقد أردت ختل أمير المؤمنين — فقال عبد الملك كيف لايكذب على من خلفى وهو يبهتنى فى وجهى — فقال له الرشيد وهذا ابنك عبد الرحمن يخبرنى بعتوك وفساد نيتك ولو أردت أن أحتج عليك بحجة لم أجد أعدل من هذين لك فبم تدفعهما عنك فقال عبد الملك هو مأمور أوعاق مجبور فان كان مأمورا فمعذور وإن كان عاقا ففاجر كفور أخبر الله عز وجل بعداوته وحذر منه بقوله «إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم» قال فنهض الرشيد وهو يقول أما أمرك فقد وضح ولكنى لاأعجل حتى أعلم الذى يرضى الله فيك فانه الحكم بينى وبينك — فقال عبد الملك

رضيت بالله حكما وبأمر أمير المؤمنين حاكما فانى أعلم أنه يؤثر كتاب الله على هواه وأمر الله على رضاه

فلما كان بعد ذلك جاس مجلسا آخر فسلم عبدالملك لما دخل فلم يردعليه الرشيد فقال عبد الملك ليس هذا يوما أحتج فيه ولا أجاذب منازعا فقال الرشيد له ــ قال لأن أوله جرى على غير السنة فأنا أخاف آخره قال وماذاك قال لم ترد على السلام نصف نصفة العوام فقال الرشيد السلام عليكم اقتداء بالسنة وإيثارا للعدل واستعمالا للتحية ثم التفت نحو سليمان بن أبى جعفر وقال

أريد حياته ويريد قتلى ــ أما والله لكأنى أنظر إلى شؤبوبهـا قد همع وعارضها قد لمع وكأنى بالوعيد قد أورى نارا تستطع فأقلع عن براجم بلا معاصم ورؤس بلا غلاصم فهلا مهلابنى والله سهل لكم الوعر وصفا لكم الكدروألقت إليكم الأمور أثناء أزمتها فنذار لكم نذار قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل فقال عبد الملك : اتق الله ياأمير المؤمنين فيما ولاك وفى رعيتك التى استرعاك ولا تجعل الكفر مكان الشكر ولا العقاب موضع الثواب فقد نخلت لك النصيحة ومحضت لك الطاعة وشددت أواخى ملكك بأثقل من ركنى يلملم وتركت عدوك مشتغلا فالله الله فى ذى رحمك أن تقطعه بعد أن بلته بظن أفصح الكتاب لى بعضه أو ببغى باغ ينهش اللحم ويلغ فى الدم فقـــد والله سهلت لك الوعور وذللت لك الأمور وجمعت على طاعتك القلوب فى الصدور فكم من ليل تمام فيك كابدته ومقام ضيق لك قمته كما قال أخو بنى جعفر بن كلاب

ومقام ضيق فرجتـــه :: ببنان ولسان وجدل

لو يقوم الفيـــل أو فياله :: زل عن مثل مقامى وزحل

فقال له الرشيد أما والله لولا الابقاء على بنى هاشم لضربت عنقك ثم أمر بحبسه فحبس عند الفضل بن الربيع وبعث إلى يحي بن خالد وهو فى السجن إن عبد الملك ابن صالح أراد الخروج على ومنازعتى فى الملك وقد علمت ذلك فأعلمنى ماعندك فيه فانك إن صدقتنى أعدتك إلى حالك فقال والله ياأمير المؤمنين مااطلعت من عبدالملك على شىء من هــذا ولو اطلعت عليه لكنت صاحبه دونك لأن ملكك كان ملكى وسلطانك كان سلطانى والخير والشر كان فيه على ولى فكيف يجوز لعبد الملك أن

يطمح فى ذلك منى وهل كنت إذا فعلت ذلك به يفعل بى أكثر من فعلك أعيذك بالله أن تظن بى هذا الظن ولكن كان رجلا محتملا يسرنى أن يكون فى أهلك مثله فوليته لما أحمدت من مذهبه وملت إليه لأدبه واحتماله . فلما أتاه الرسول بهذا أعاد عليه فقال إن أنت لم تقر عليه قتلت ابنك الفضل . فقال له أنت مسلط علينا فافعل ماشئت على أنه إن كان من هذا الأمر شىء فالذنب فيه لى فيم يدخل الفضل فى ذلك فقال الرسول للفضل قم فانه لابد لى من إنفاذ أمر أمير المؤمنين فيك فلم يشك أنه قاتله فودع أباه وقال له ألست راضياً عنى قال بلى فرضى الله عنك ففرق بينهما ثلاثة أيام فلما لم يجد عندهما من ذلك شيأ جمعهما كما كانا وكان يأتيهم من أغلظ رسائل لما كان أعداؤهم يقرفونهم به عنده

سقنا هذا لندل على أن التهم التى وجهت إلى البرامكة كافة ولا سيما جعفراً سياسية محضة وفى القليل منها مايكفى عند الرشيد لتغيير نعمتهم والغضب عليهم وإذا أضيف إلى ذلك غيرة السلطان ممن يساميه فى سلطانه ويشاركه فى نفوذ أمره كان ذلك أشد لغضبه ولا حاجة بعد ذلك لحيرة الجمهور حتى تخترع له تلك الحكاية التى يظهر عليها أثر التوليد والاختراع لمخالفتها لأخلاق الرشيد وللتقاليد التى سار عليها بنو العباس فقد كان مما عده المنصور على أبى مسلم من ذنوبه وهو من هو فى الدولة وتشييد بنيانها أنه كتب إليه يخطب أمينة بنت على بن عبد الله بن عباس ولم يتنازل بنو العباس عن تلك التقاليد فى أوقات ضعفهم وتسلط آل سلجوق عليهم فكيف يظن بمثل الرشيد أن يقدم على زواج سرى كهذا سببه خسيس هذا بعيد جداً

فيما تتبعناه من أحوال الرشيد كفاية فقد كان وصل من خوفه على ملكه وعلى نفسه إلى درجة الوساوس حتى جعله ذلك أذنا يسمع لكل واش ويصدق كل حسود ففقد بذلك زهرة دولته وغرة جبينها بل زهرة الدولة العباسية كلها، فقد وزراء إن كتبوا أجادوا وإن قادوا الجيوش سدوا الثغور ، وإن ولوا عملا أصلحوا وهكذا الخليفة ذو السلطان المطلق لا يأمنه خدمه بل تراهم حذرين وجلين فما هى إلا وشاية تطرق أذنه حتى تراه قد أخذ بخلاقيمهم فأوردهم شر مورد لايبالى بما سبق لهم من جليل الخدم ولا يؤثر فيه مايرى لهم من الفضل بل ينسى ذلك كله ثم يتقدم عنده الوشاة وإن لم يكن لهم فى ميدان الصالحين أثر فقد بقى للرشيد الفضل بن الربيع وهو السبب الوحيد فيما وقع من

الشقاق والعداوة بين الأمين والمأمون كما سيجىء لأن الرجل مفسد معتاد على اختلاق الأخبار ويرى ذلك يحسن فى آذان الخلفاء فلم يكن يصطبر عن ذلك فأفسد الدولة وأوقع بأس الأمة بينها وإنا نعوذ بالله من الخذلان ومن وزراء السوء وبطانة السوء فهم آفة الأمم وسوس عظامها

تولى وزارة الرشيد بعد البرامكة الفضل بن الربيع فلم يسد المكان الذى سدوا

العلاقات الخارجية

كانت دول هذا العصر الكبيرة دولة الروم الشرقية بالقسطنطينية ودولة شرلكان الذى كان يميل إلى تجديد دولة الرومان الغربية ودولة الأمويين بالأندلس وحدثت فى عهد دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى كما سبق

مع الروم

من أعمال الرشيد أنه عزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزا واحدا وسميت العواصم وجعل قاعدتها منبجا وأسكنها عبد الملك بن صالح سنة ١٧٣ وسميت العواصم لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم من العدو إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر وكان من هذه العواصم دلوك ورعبان وقورس وأنطاكية وتيزين وما بين ذلك من الحصون ومن تلك المدن الشهيرة طرسوس وقد عمرت فى زمن الرشيد على يد أبى سليم فرج الخادم التركى ونزلها الناس. وكان يغزو الصائفة عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح ووصل سنة ١٧٥ إلى اقريطية. وفى سنة ١٨١ غزا الرشيد الصائفة بنفسه فافتتح عنوة حصن الصفصاف وغزا عبد الملك بن صالح فبلغ أنقرة

ولم يزل عبد الملك يرى الثغور وحربها وهو قائم بذلك خير قيام حتى عزله الرشيد وحبسه بعد نكبة البرامكة سنة ١٨٧ فولى بعده القاسم بن الرشيد وسكن منبجا فغزا الروم وأناخ على حصن قرة وحاصرها ووجه العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث فأناخ على حصن سنان حتى جهدوا فبعث الروم تبذل ٣٢٠ رجلا من أسارى المسلمين على أن يرحل عنهم فأجابهم إلى ذلك ورحل عن حصنى قرة وسنان

كان يملك الروم فى ذلك الوقت رينى وكانت فى أوائل أمرها تنوب عن ابنها قسطنطين السادس منذ سنة ٧٨٠ ثم استبدت بالملك سنة ٧٩٠ فاتفقت مع الرشيد على الصلح والمهادنة مقابل جزية تقوم بدفعها له وذلك لما رأته من إلحاح المسلمين عليها بالحرب وعدم قدرتها على الدفاع لوقوعها بين المسلمين من جهة وبين شارلمان من جهة أخرى وكلتا الدولتين تناوئها العداوة لأن شارلمان كان يريد توسيع سلطانه وإعادة دولة الرومان إلى بهجتها التى كانت لها فى القدم . وفى سنة ٨٠٢ نهضت عليها عصابة رومية فخلعتها عن الملك وملكت مكانها نقفور فعقد معاهدة مع شارلمان عينت فيها تخوم المملكتين ثم كتب إلى الرشيد من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مكان البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أمثاله إليها لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن فاذا قرأت كتابى فاردد ما حصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك - فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يمكن أحدا أن ينظر إليه دون أن يخاطبه وتفرق جلساؤه خوفا من زيادة قول أو فعل يكون منهم واستعجم الرأى على الوزير من أن يشير عليه أو يستبد برأيه دونه فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام) ثم شخص من يومه وسار حتى أناخ بباب هرقلة ففتح وغنم واصطفى وأفاد وخرب وحرق واصطلم فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه كل سنة فأجابه إلى ذلك فلما رجع من غزوته وصار بالرقة نقض نقفور العهد وخان الميثاق وكان البرد شديدا فيئس نقفور من رجعته إليه وجاء الخبر بارتداده عما أخذ عليه فما تهيأ لأحد إخبار الرشيد بذلك إشفاقا عليه وعلى أنفسهم من الكرة فى مثل تلك الأيام فاحتيل بشاعر يكنى أبا محمد عبد الله بن يوسف فقال

نقض الذى أعطيته نقفور ✽ وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فانه ✽ فتح أتاك به الاله كبير
فلقد تباشرت الرعية أن أتى ✽ بالنقض عنه وافد وبشير
ورجت يمينك أن تعجل غزوة ✽ تشفى النفوس مكانها مذكور
أعطاك جزيته وطأطأ خده ✽ حذر الصوارم والردى محذور

فأجرته من وقعها وكأنها ٭ بأكفنا شعل الضرام تطير
وصرفت بالطول العساكر قافلا ٭ عنه وجارك آمن مسرور
نقفور إنك حين تغدر أن نأى ٭ عنك الامام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مفلت ٭ هبلتك أمك ماظننت غرور
ألقاك حينك فى زواخر بحره ٭ فطمت عليك من الامام بحور
إن الامام على اقتسارك قادر ٭ قربت ديارك أم نأت بك دور
ليس الامام وإن غفلنا غافلا ٭ عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرد للجهاد بنفسه ٭ فعدوه أبدا به مقهور
يامن يريد رضا الاله بسعيه ٭ والله لايخفى عليه ضمير
لانصح ينفع من يغش إمامه ٭ والنصح من نصحائه مشكور
نصح الامام على الأنام فريضة ٭ ولأهلها كفارة وطهور

فلما فرغ الشاعر من إنشاده قال أوقد فعل نقفور ذلك وعلم أن الوزراء قد احتالوا له فى ذلك فكر راجعا فى أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه فلم يبرح حتى رضى وبلغ ماأراد فقال أبو العتاهيه

ألانادت هرقلة بالخراب ٭ من الملك الموفق بالصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا ٭ ويبرق بالمذكرة القضاب
ورايات يحل النصر فيها ٭ تمر كأنها قطع السحاب
أمير المؤمنين ظفرت فاسلم ٭ وأبشر بالغنيمة والاياب

ولم تقف الحروب بين الطرفين بعد ذلك. وفى سنة ١٨٩ حصل فداء بين المسلمين والروم فلم يبق بأرض الروم مسلم إلا فودى به وهذا أول فداء كان بين المسلمين والروم فقال مروان بن أبى حفصة يمدح الرشيد

وفكت بك الأسرى التى شيدت لها ٭ محابس مافيها حميم يزورها
على حين أعيا المسلمين فكاكها ٭ وقالوا سجون المشركين قبورها

وفى سنة ١٩٠ غزا الرشيد الصائفة بنفسه ففتح هرقلة وبث الجيوش والسرايا بارض الروم وكان دخلها فى ١٣٥ الف مرتزق سوى الأتباع وسوى المطوعة وسوى من لاديوان له. وكان فتح الرشيد هرقلة فى شوال فأضربها وسبى أهلها بعد

مقام ثلاثين يوما عليها وولى حميد بن معيوف سواحل الشام إلى مصر فبلغ حميد قبرص فانتصر على أهلها

ثم سار الرشيد إلى الطوانة فعسكر بها ثم رحل عنها وخلف عليها عقبة بن جعفر وأمره بابتناء منزل هنالك وبعث نقفور إلى الرشيد بالخراج والجزية عن رأسه وولى عهده وبطارقته وسائر أهل بلده خمسين ألف دينار منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه استيراق دينارين وكتب مع بطريقين من عظماء بطارقته فى جارية من سبى هرقلة كتابا نسخته — لعبد الله هارون أمير المؤمنين من نقفور ملك الروم سلام عليك أما بعد أيها الملك إن لى اليك حاجة لاتضرك فى دينك ولا دنياك هنية يسيرة أن تهب لابنى جارية من بنات أهل هرقلة كنت قد خطبتها على ابنى فان رأيت أن تسعفنى بحاجتى فعلت والسلام عليك ورحمة الله وبركاته — واستهداه أيضاً طيباً وسرادقاً من سرادقاته فأمر الرشيد بطلب الجارية فأحضرت وزينت وأجلست على سرير فى مضربه الذى كان نازلا فيه وسلمت الجارية والمضرب بما فيه من الآنية والمتاع إلى رسول نقفور وبعث اليه بما سأل من العطر وبعث اليه التمور والأخبصة والزبيب والترياق فسلم ذلك كله رسول الرشيد فأعطاه نقفور وقردراهم اسلامية على برذون كميت كان مبلغه خمسين ألف درهم ومائة ثوب ديباج ومائتى ثوب بزيون واثنى عشر بازيا وأربعة أكلب من كلاب الصيد وثلاثة براذين — وكان نقفور اشترط ألا يخرب الرشيد حصن ذى الكلاع ولا صملة ولاسنان واشترط الرشيد عليه ألا يعمر هرقلة وعلى أن يحمل ثلثمائة ألف دينار

وفى سنة ١٩١ غزا الصائفة هرثمة بن أعين أحد كبار القواد وضم اليه ثلاثين ألفا من أهل خراسان ومعه مسرور الخادم واليه النفقات وجميع الأمور ماخلا الرياسة ومضى الرشيد إلى درب الحدث فرتب هنالك عبد الله بن مالك ورتب سعيد بن سلم بن قتيبة بمرعش فأغارت الروم عليها وأصابوا من المسلمين وانصرفوا وسعيد مقيم بها . وبعث محمد بن يزيد بن مزيد إلى طرسوس — فأقام الرشيد بدرب الحدث ثلاثة أيام من شهر رمضان ثم انصرف إلى الرقة

وعلى الجملة فان قوة المسلمين كانت فى عهد الرشيد ظاهرة ظهوراً بيناً على الروم لما كان يقوم به الرشيد بنفسه من الغزو المتوالى ومعه عظماء القواد وكبار رجال

الدولة من عرب وموال وخراسانية

العلاقة مع أوربا

كان فى عهد الرشيد شارلمان بن بابن وكان ملكا على فرنسا واستولى على لمبارديا وقاد طوائف السكسون التى كانت فى جرمانيا إلى الدين العيسوى بعد أن كانت وثنية واستولى على ألمانيا وايتاليا وكان يرغب أن يكون له اسم كبير فى الديار الشرقيـــة لتكون درجته فوق درجة نقفور ملك القسطنطينية وكان يرغب أن يكون حامياً للعيسويين فى البـــلاد الاسلامية وخصوصاً زائرى القـــدس فأرسل إلى بغداد سفراء يستجلبون رضا هرون الرشيد وكان لشارلمان غرض من مصافاة الرشيد فوق ماتقدم وهو إضعاف الدولة الأموية بالأندلس ففاز سفير شارلمان برضا الرشيد فسر بذلك لأنه عده فوزاً على نقفور ولهذا لما قدم سفير الرشيد على شارلمان قابله بمزيد الا كرام واستفاد شارلمان من ذلك التودد فائدتين الأولى تمكنه من حرب الدولة الأموية بالأندلس وتداخله فى مساعدة الخارجين عليها والثانية نيله رضا الرشيد . وقد أراد أيضا أن يغتنم غنيمة علمية فان أوروبا فى ذلك الوقت كانت مهد جهالة لأنه بانقراض الرومانيين وغلبة الأمم المتبربرة على أوروبا انطفأ مصباح العلم أما الحال فى البـلاد الاسلامية فكانت على العكس من ذلك علماً وعملا سواء فى ذلك بغداد وقرطبة فسعى شارلمان فى إصلاح قوانين دولته مقلداً هارون الرشيد وذهب إلى أوروبا أطباء تعلموا فى البلاد الاسلامية وكانوا من اليهود فانتخب منهم شارلمان رجلا يقال له إسحاق وأرسله إلى الرشيد مصحوباً ببعض الهدايا وبعد أربع سنين عاد إسحاق مع ثلاثة من رجال الرشيد ومعهم هدايا وهى ساعة وراغنون وفيل وبعض أقمشة نفيسة ، فلما نظرها رجال شارلمان ظنوها من الأمور السحرية وأوقعتهم فى حيرة حتى هموا بكسر الساعة فمنعهم الأمبراطور ، وفى ذلك التاريخ اتفقوا على أمور تتعلق بحماية المسيحيين الذين يتوجهون لزيارة القدس

أما علاقة بغداد بقرطبة فكانت شر علاقة إذ أن الرشيد كان ينظر إلى بنى أمية نظر الخارجين على دولته فكان يود محوهم ولكن القوم كانوا أ كبر من ذلك وأقوى فقاوموا شارلمان مقاومة عظيمة ولم يتمكن أن يفعل بهم شراً

حضارة بغداد فى عهد الرشيد

وصلت بغداد فى عهد الرشيد إلى قمة مجدها ومنتهى فخارها

أما من حيث العمارة فقد فاقت كل حاضرة عرفت لعهدها بنيت فيها القصور الفخمة التى أنفق على بناء بعضها مئات الألوف من الدنانير وتأنق مهندسوها فى إحكام قواعدها وتنظيم أمكنتها وتشييد بنيانها وصارت قصور الجانب الشرقى بالرصافة تناوح قصور الجانب الغربى كان فى الشرق قصور البرامكة وما أنشأه هناك من الأسواق والجوامع والحمامات وبالجانب الغربى كانت قصور الخلافة التى كانت تبهر الناظرين اتساعا وجمالا وامتدت الأبنية امتداداً عظيما حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الأربعين على جانبى دجلة واستبحر العمران فيها لما جاءها من الثناء وصار سكانها نحو ألنى ألف نسمة حتى ازدحمت بساكنيها وكانت متاجر البلدان القاصية تصلها براً وبحراً تجيئها من خراسان وما وراءها ومن الهند والصين ومن الشام والجزيرة والطرق إذ ذاك آمنة والسبل مطمئنة وكان الرشيد هو ووزراؤه حريصين على ذلك كل الحرص

وأما من حيث ثروة الدولة فقد كان يرد على الخليفة ببغداد مايبقى من خراج الأقاليم الاسلامية بعد أن تقضى جميع حاجها وقد قدر بعض المؤرخين ذلك بنحو أربعمائة ألف ألف درهم يدخل كله بيت مال الخليفة يصرف منـــه فى مرتبات الوزراء والمساعدين له والباقى يتصرف فيه حسبما يرى وهو شىء جسيم وكان الرشيد أسمح خلفاء بنى العباس بالمال يعطى منه عطاء من لايخشى فقراً للقصاد والشعراء والكتاب والمتنجعين وقد جرى على سننه كبار وزرائه وشيوخ دولته ورؤساء قواده حتى امتلأت الأسفار بذكر عطاياهم التى قد يتردد الانسان فى صحتها وتلك الثروة العظيمة تتداولها الأيدى فتروج التجارة وتقضى الحاجات وتكثر المدنية وعلى تلك السنة زادت ثروة الناس بتلك المدينة العظمى واشتد بهم الترف حتى يقال إن جعفر بن يحيى بنى قصرا أنفق على بنائه عشرين ألف ألف درهم وتغالى الناس فى حاجاتهم وتأنقوا فى معيشتهم حتى صارت بغداد تبهر أعين زوارها لما يرونه من بعد الشبه بين ماعندهم ومايرون من روائها وبذخ أهلها وانغماسهم فى الملاذ وإعطائهم أنفسهم ماتصبو إليه من اللهو والخلاعة شأن كل أمة سالت عليها سيول الثروة

وأما العلم فان بغداد صارت قبلة لطلاب العلم من جميع الأمصار الاسلامية يرحلون إليها ليتمموا مابدؤا فيه من العلوم والفنون فهى المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية على اختلافها فقد كان فيها كبار المحدثين والقراء والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويين وكلهم قائمون بالدرس والافادة لتلاميذهم فى المساجد الجامعة التى كانت تعتبر مدارس عليا لتلقى هذه العلوم وقلما كان يتم لانسان وصف عالم أوفقيه أومحدث أو كاتب إلاإذا رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها

وجميع هؤلاء العلماء كانوا يعيشون عيشا رغدا مما كان يفيضه عليهم الرشيد والبرامكة ومن دونهم من الخير الواسع والبر العميم

ولم تكن بغداد بالمقصرة فى علوم الدنيا كالطب والحكمة وغيرهما من سائر الصناعات فقد حشد إليها الأطباء والمهندسون وسائر الصناع من الأقاليم المختلفة فاستفادوا العلوم ممن سبقهم من الأمم فى المدنية كالفرس وأهل الهند وأهل الروم والصابئة وغيرهم وزادوا على تلك العلوم بما منحوا من المواهب العقلية وسنرجىء الكلام على النهضة العلمية فى بغداد إلى زمن المأمون

أخلاق الرشيد

كان الرشيد خليفة دينا محافظا على التكاليف الشرعية أتم محافظة فأما صلاته فكان يصلى فى كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلاأن تعرض له علة . وكان له سمير فكه هو ابن أبى مريم المدنى كان الرشيد لايصبر عنه ولايمل محادثته سمعه مرة يقرأ فى صلاته (ومالى لاأعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون) فقال ابن أبى مريم لاأدرى والله فما تملك الرشيد أن ضحك فى صلاته ثم التفت إليه وهو كالمغضب فقال ياابن أبى مريم فى الصلاة أيضا ثم قال إياك والقرآن والدين ولك ماشئت بعدهما

وأما صدقته فقد كان كل يوم يتصدق من صلب ماله بألف درهم سوى العطايا التى كانت تهطل على الناس منه ولم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ثم المأمون بعده

وأما حجه فانه كان لايتخلف عنه إلا إذا كان مشغولا بالغزو فهو فى كل عام بين غاز وحاج وقد أقام للناس حجهم تسع مرات فى سنى حكمه وهى السنوات ٧٠ و٧٣ و٧٤ و٧٥ و٧٧ و٨٠ و٨١ و٨٦ و٨٨ بعد المائة وكان إذا حج حج

معه مائة من الفقهاء وأبنائهم وإذا لم يحج أحج عنه ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة

وكان يسمع وعظ الواعظين وهو عند ذلك رقيق القلب سريع الدمعة . دخل عليه ابن السماك الواعظ فقال له الرشيد عظنى فقال ياأمير المؤمنين اتق الله وحده لاشريك له واعلم أنك غدا بين يدى الله ربك ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لاثالث لهما جنة أو نار فبكى هارون حتى اخضلت لحيته فأقبل الفضل ابن الربيع على ابن السماك فقال سبحان الله وهل يتخالج أحدا شك فى أن أمير المؤمنين مصروف إلى الجنة إن شاء الله لقيامه بحق الله وعدله فى عباده وفضله — فلم يحفل بذلك ابن السماك من قوله ولم يلتفت إليه وأقبل على الرشيد فقال يا أمير المؤمنين إن هذا (يعنى الفضل بن الربيع) ليس والله معك ولاعندك فى ذلك اليوم فاتق الله وانظر لنفسك — فبكى هارون حتى أشفق عليه الحاضرون وأفحم الفضل ابن الربيع فلم ينطق بحرف — ودخل عليه مرة أخرى فبينا هو عنده إذ استسقى ماء فأتى بقلة من ماء فلما أهوى بها إلى فيه ليشربها قال له ابن السماك على رسلك يا أمير المؤمنين بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشريها — قال بنصف ملكى — قال اشرب هنأك الله — فلما شربها قال له أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتريها قال بجميع ملكى قال ابن السماك إن ملكا قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه فبكى هارون — ولايزال الملوك بخير ماسمعوا الوعظ وتأثروا به ولا تزال الأمة بخير ما كان فيها من يعظ الملوك ولا يخشى سطوتهم

وأما جهاد الرشيد فانه كان لايترك الخروج مع جنده بل كان غالبا فى مقدمتهم حتى لايعتاد الراحة ولا يقعده الترف عن القيام بهذا الواجب حتى كان من ضمن مآثره أنه كان يغزو سنة ويحج أخرى قال مروان بن أبى حفصة

وسدت بهارون الثغور وأحكمت ✻ به من أمور المسلمين المرائر
وما انفك معقودا بنصر لواؤه ✻ له عسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية ✻ على الرغم قسرا عن يد وهو صاغر

وكان لهارون قلنسوة مكتوب عليها غاز حاج فكان يلبسها فقال أبو المعالى الكلابى

فمن يطلب لقاءك أو يرده * فبالحرمين أو أقصى الثغور
ففى أرض العدو على طمر * وفى أرض الترفه فوق ّور
وما حاز الثغور سواك خلق * من المتخلفين على الأمور

لذلك كانت الخلافة لعهده فى أعلى درجات مهابتها واحترامها فى الداخل والخارج كان الرشيد يقتفى آثار المنصور ويعمل بها إلا فى بذل المال وكان لايضيع عنده إحسان محسن ولايؤخر ذلك فى أول مايجب ثوابه . وكان يحب الشعر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه ويكره المراء فى الدين ويقول هو شيء لا نتيجة له وبالحرى لايكون فيه ثواب وكان يحب المديح ولا سيما من شاعر فصيح ويشتريه بالثمن الغالى . وعطاياه للشعراء والأدباء تكاد تخرج عما يعقل

والخلال التى كانت واضحة فى أعماله الشجاعة وشدة الغضب ومعاقبة المسيء بلا شفقة ولارحمة فكان يقود الجيوش بنفسه إلى المواضع المخوفة حتى استقامت له البلاد وهابه كل خارج وثائر وكان إذا بلغه عن أحد من رعيته مايريبه اشتد غضبه وزاد انفعاله حتى لايكاد أحد يقدر أن يكلمه وإذا وقع عدوه فى يده لم يتأخر عن أشد عقوبة له وقلما كان يعفو وبهذا فضله ابنه المأمون كما سيجيء فى تاريخه

واشتهر أن الرشيد كان يشرب النبيذ الذى يرخص أهل العراق فى شربه وكان يسمع الغناء و يثيب عليه أعظم ثواب ولذلك اشتهر فى زمنه أعظم الموسيقيين والمغنين ببغداد ممن لم يأت بعدهم مثلهم كما يرى ذلك من اطلع على الكتاب الموسوم بالأغانى لأبى الفرج الأصبهانى

ولامراء أن الرشيد يعد من كبار الخلفاء ونوابغهم لولا كثرة وسواسه بالكائدين له فان ذلك اكثر الجاسوسية فى عهده وصار المتقربون يتقربون إليه بمايتلقفونه من أخبار السوء حتى فقد أعظم وزرائه وأحسنهم أثرا وأعلاهم كعبا واستبقى الفضل بن الربيع لأن أخباره ما كانت تنقطع عنه يوما

وفاة الرشيد

خرج الرشيد من بغداد فى خامس شعبان سنه ١٩٢ قاصدا خراسان عندما بلغه استفحال أمر رافع بن الليث بما وراء النهر واستخلف ابنه محمدا الأمين بمدينة السلام وخرج

معه ابنه عبد الله المأمون ولم يزل الرشيد فى مسيره حتى وافى مدينة طوس فى صفر سنة ١٩٣ وهناك اشتدت به علته ولحق بر به ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ١٩٣ وصلى عليه ابنه صالح لأن المأمون كان قد سبقه إلى مروحاضرة خراسان ودفن الرشيد بهذه المدينة

وكان للرشيد اثنا عشر ولدا ذكرا وأربع بنات فذكور أولاده محمد الأمين من زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر وعلى من زوجته أمة العزيز أم ولد موسى الهادى — وعبدالله المأمون والقاسم والمؤتمن ومحمد المعتصم وصالح ومحمد أبو عيسى ومحمد أبو يعقوب ومحمد أبو العباس ومحمد أبو سليمان ومحمد أبو على ومحمد أبو أحمد وهم لأمهات أولادشتى

وتزوج الرشيد بست زوجات مات عن أربع منهن وهن زبيدة وأم محمد بنت صالح المسكين والعباسة بنت سليمان بن المنصور والجرشية بنت عبد الله العثمانية

الخراج

أثر جليل من عهد الرشيد

بين يدينا أثر من أجل الآثار الثار يخيه الاقتصادية للدولة الاسلامية فى النصف الثانى من القرن الثانى وهو كتاب الخراج للفقيه أبى يوسف يعقوب بن ابراهيم الانصارى صاحب الامام أبى حنيفة النعمان بن ثابت (١١٣ - ١٨٢)

كان خليفة المسلمين فى هذا التاريخ خامس بنى العباس هارون الرشيد بن محمد المهدى ابن أبى جعفر المنصور وكان قاضى قضاته أبا يوسف وكان الرشيد خليفة يحب أن يسود العدل بين أمته كما كان أبوه المهدى من قبله ويحب من جهة أخرى أن تنتظم جباية الخراج وغيره من موارد بيت مال المسلمين وأن يكون ذلك على النمط المشروع الذى سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون المهديون من بعده حتى لا يقع حيف على الرعية فيثقل الجور كاهلهم ويخرب عمرانهم وحتى يكون بيت المال قائما بما يجب عليه من مصالح الأمة وحفظ ثغورها وتأمين طرقها فكتب إلى قاضيه الأكبر رسالة ضمنها أسئلة وطلب منه أن يجيب عنها فقام أبو يوسف بما طلب منه خير قيام وكتب جوابه عن تلك الأسئلة فى رسالة عظيمة الشأن وسميت بكتاب الخراج

وهى التى جعلناها موضع محاضرتنا هذه الليلة

لم يكن أبو يوسف فى رسالته ذلك الفقيه الجاف الذى هو فى خيال الكثير منا يكتب جوابه مبتورا منقولا من مسطر سبق به أو ذلك المفتى الضعيف ينظر إلى غرض المستفتى فيجتهد أن تكون فتواه طبق رغبته بل كان ذلك العالم الناصح الذى سبر حال الأمة فعرف مايصلحها وأدرك سر الدين الذى أوحى الله به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم لاصلاح حال الأمة فجال فى ميدانه جولة الفارس العالم بثنيات الطريق وأحاط علماً بتاريخ المسائل التى يفتى فيها . فبينا تراه واعظا لايخاف فى الله لومة لائم يصوغ من كلمات النصح أشدها وقعاً وأقواها تأثيرا يوجهها إلى إمامه مع رعاية الأدب واللياقة إذا هو مؤرخ يسرد تاريخ الأمور المالية وغيرها مما يتكلم فيه وكيف وضعها السلف الصالح وكيف كان غرضهم من ذلك وبينا أنت تستخرج منه لطائف التاريخ إذا بك تراه يستنبط الأحكام من تلك الوقائع مستنا بسنة أسلافه الطيبين الطاهرين ثم تراه قد سبر مايفعله ولاة الخراج والجبايات وحواشيهم من المظالم التى يرهقون بها الرعية ويضرون بها العمارة فينبه الامام إلى مخازيهم ويرفع صوته طالباً إجراء العدالة فيهم ويشير على إمامه بما يجب عليه من رعاية تنفيذ الحق ويبين له كيف يفعل فى ذلك ليكون ناجياً بين يدى الله سبحانه وتعالى الذى جعله كفيلا لحقوق الرعية

هـذا هو الكتاب الجليل الذى يعطى من قرأه صورة هى غاية الجمال والكمال لذلك الفقيه المقدم

وغرضنا التعريف بما انتظمه هـذا الكتاب حتى يكون عندنا صورة من الجباية ونظامها فى هذا العصر وإذا كان عندنا كلمة نقولها لايضاح شىء مما قد يحتاج إلى الايضاح نبهنا عليها

انتظمت هذه الرسالة ثلاثة أمور :

(الأول) بيان موارد الدولة على اختلافها حسبما جاءت به الشريعة ومصارف تلك الأموال

(الثانى) بيان الطريقة المثلى لجباية تلك الأموال

الثالث بيان بعض الواجبات التى يلزم بيت المال القيام بها مما أغفل بعض الولاة القيام به

ونحن نتكلم فى ذلك متبعين هذا الترتيب وقد يخالف طريقة ترتيب الكتاب لأن القصد تقريبه إلى النفوس من أسهل الطرق

موارد بيت المال

يتبين من كتاب الخراج أن موارد بيت المال تنقسم بحسب مايجب أن تصرف فيه إلى ثلاثة أقسام

الأول — خمس الغنائم

الثانى — الخراج

الثالث — الصدقات

الغنائم

الغنيمة كل ماأصاب المسلمون من عساكر أهل الشرك وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكراع . وجعل منها أبو يوسف ماأصيب من المعادن من قليل أو كثير والركاز وهو الذهب والفضة الذى خلقه الله فى الأرض يوم خلقت . والكنوز العادية التى تصاب فى غير ملك أحد وما أخرج من البحر من الحلى والعنبر كل ذلك حكمه واحد وهو أن للامام خمسه . أما أربعة أخماسه الباقية فتكون حقاً للغانمين فيما أصيب مع المحاربين وتكون حقا للواجد فيما عداها

ويقسم الامام أربعة الأخماس على القائمين سواء فى ذلك أهل الديوان والمتطوعون يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم سهم له وسهمان لفرسه وللراجل سهم وخالف فى ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه الله حيث قال للفارس سهمان وللراجل سهم وقال للرشيد فخذ بأى القولين رأيت واعمل بما ترى أنه أفضل وأخير للمسلمين فان ذلك موسع عليك إن شاء الله ولست أرى أن تقسم للرجل أكثر من فرسين

مصرف الخمس

بين الله فى كتابه مصرف الخمس فى الآية من سورة الأنفال حيث يقول «واعلموا

أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير» قال أبو يوسف فكان ذلك الخمس يقسم فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لله وللرسول سهم ولذى القربى سهم ولليتامى والمساكين وابن السبيل ثلاثة أسهم ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم على ثلاثة أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوى القربى وروى عن ابن عباس أنه قال عرض علينا عمر بن الخطاب أن نزوج من الخمس أيمنا ونقضى عن غارمنا فأبينا إلا أن يسلمه لنا وأبى علينا . ومع أن ذلك كان رأى على بن أبى طالب رضى الله عنه فانه قسم الخمس كما قسمه سلفه.

وذكر ابو يوسف أن الصحابة اتفقوا أن يجعلوا هذين السهمين سهم الرسول وسهم ذوى القربى فى الكراع والسلاح . وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه بعث بسهم الرسول وسهم ذوى القربى إلى بنى هاشم . قال وكان أبو حنيفة وأكثر فقهائنا يرون أن يقسمه الخليفة على ما قسمه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم . وأقول رأى الشافعى محمد بن إدريس المطلبى رحمه الله أن سهم الرسول يصرف فى مصالح المسلمين وسهم ذوى القربى يصرف لمن ينتسب إلى هاشم والمطلب ابنى عبد مناف دون بنى أخويهم عبد شمس ونوفل ويسوى فى العطاء بين الأغنياء والفقراء لأن سبب الاستحقاق القرابة ويشترك فيه الرجال والنساء بالتسوية بين الذكر والأنثى كما قال المزنى وأبو ثور من أصحاب الشافعى وللذكر مثل حظ الأنثيين كما قال غيرهما — وبقول الشافعى قال أحمد إلا أنه قال إن ردوه صرف فى السلاح والكراع لفعل أبى بكر وعمر وعثمان :

الخراج

المورد الثانى من موارد الخلافة الخراج وهو كلمة تجمع ثلاثة أشياء

(١) وظيفة الأرض الخراجية

(٢) جزية أهل الذمة

(٣) ما يأخذه العاشر ممن يمر عليه من تجار أهل الذمة والمستأمنين من أهل الحرب

وظيفة الأرض الخراجية

لما غلب المسلمين على سواد العراق وعلى بلاد الجزيرة والشام فى عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه طلب إليه بعض ذوى الرأى من الصحابة أن يقسم الأرض على الغانمين كما قسم ما أصابوه من سلاح ومتاع وأكثروا عليه فى ذلك فأبى عليهم مستندا إلى كتاب الله تعالى الذى جعل هذا الفىء حقاً للمسلمين كافة الموجودين منهم والآتين بعدهم ذكر ذلك فى سورة الحشر حيث قال — « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » « والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم » فجعل هذا الفىء حقا للمهاجرين والأنصار ولمن جاء بعدهم ومن أجل ذلك لم يرض عمر بقسمة الأرض بين الغانمين لأنه لو قسمها بينهم لم يبق لمن يأتى بعدهم شىء بل ترك الأرضين والأنهار بعمالها ليكون ذلك فى أعطيات الجنود وغير ذلك ومن هنا رأى أبو يوسف رحمه الله أن هذه الأرضين المفتوحة عنوة يخير فيها الامام فان شاء قسمها بين الغانمين الذين افتتحوها وإن لم ير قسمها ورأى الصلاح فى إقرارها فى يد أهلها كما فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى السواد فله ذلك وهى أرض خراج وليس له أن يأخذها بعد ذلك منهم وهى ملك لهم يتوارثونها ويتبايعونها ويضع عليهم الخراج ولا يكلفون من ذلك ما لا يطيقون

وإذاً يكون حد أرض الخراج — كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الامام وأبقاها بأيدى أهلها أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة ويخرج من ذلك أنواع من الأراضى لا يوضع عليها الخراج وإنما تكون أرضا عشرية وهى

(١) كل أرض للعرب غير بنى تغلب

(٢) كل أرض من أرض الأعاجم أسلم عليها أهلها طوعا

(٣) كل أرض من أرض الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الامام بين الغانمين . وسنبين حكم كل نوع بعد الكلام على أرض الخراج

مافعله عمر فى أرض الخراج

لما اتضح لعمر رأيه فى الأرض المغنومة أرسل من قبله من يمسح أرض السواد فبلغت ٣٦,٠٠٠,٠٠٠ جريب فوظف عليها الخراج مقادير معينة من الدراهم والأطعمة حسبما رأى المندوبان اللذان أرسلهما لذلك وهذه الوظيفة تختلف من درهمين إلى عشرة دراهم على الجريب فأقلها وظيفة جريب الشعير عليه درهمان وأكثرها وظيفة جريب الكرم والنخل عليه عشرة دراهم فى رواية وثمانية فى أخرى وبين ذلك جريب الخضر عليه ثلاثة دراهم وجريب الحنطة أربعة دراهم أودرهم وقفيز وجريب الرطبة والسمسم والقطن خمسة دراهم وجريب القصب ستة دراهم وقال إن جباية السواد بلغت قبل وفاة عمر بعام ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم

أقول وإذا كانت المساحة كما قدمنا والجباية ماذكرنا يكون متوسط جباية الجريب ٢,٧٥ درهم وهذا بالضرورة غير قفزان القمح التى كانت تؤخذ على أجربة الحنطة لأن هذا المتوسط بدونها لايصلح إلا إذا كان معظم الأرض يزرع شعيراً وهو بعيد . وقال ابن خرداذبه إن عمر جبا العراق ١٢٨,٠٠٠,٠٠٠ درهم فيكون متوسط جباية الجريب ٣,٥٥ درهم وهو أقرب من المفهوم ولابد أنه لم يعتبر فى ذلك أجربة القمح والجريب اسم لستين ذراعا فى ستين بذراع الملك وهى ٠,٥٧٧ م وبالتكسير تكون مساحة الجريب ١٢٠٠ م فكل ثلاثة أجربة ونصف فدان مصرى . ولابد أن ننبه هنا على مارأيناه فى كتاب صاحب السعادة المفضال يعقوب أرتين باشا الموسوم بالأحكام المرعية فى الأراضى المصرية فانه روى عن قدامة أن الجريب اسم لستين ذراعا فى ستين بذراع الملك وظن أن ذراع الملك هى الذراع السوداء فوقع فى الخطأ الحسابى الذى أنتج له أن كل أربعة أجربة و ٤/٥ جريب تعادل فدانا مصريا مع أن هناك اختلافا بين الذراعين كما ذكره الماوردى فى كتابة الأحكام السلطانية حيث قال إن ذراع الملك تزيد على الذراع

السوداء بخمس أصابع وثلثي أصبع فتكون ذراعا وثمنا وعشرا أي ذراعا و ٩/٤٠ وحقق العلامة المرحوم علي مبارك باشا أن النسبة بين الذراعين هي ٥/٤ فتكون ذراع الملك ذراعا وربعا بالسوداء. وقد نتج له هذا من تقدير المتقدمين لضلع قاعدة الهرم الأكبر بأربعمائة ذراع بذراع النجار و ٥٠٠ بالذراع السوداء وبقسمة أمتار قاعدة الهرم على ٤٠٠ و ٥٠٠ يخرج هذان الرقمان ٧٧ و ٥٧ س وهو طول ذراع الملك و ٢، ٤٦ س وهو طول الذراع السوداء

وإذا كان كل ٥، ٣ جريب فدانا تكون ضريبة الفدان المزروعة قمحا ١٤ درهما هذا هو الخراج الموظف الذي رآه عمر

لم ير أبو يوسف رحمه الله ماقرره عمر رضي الله عنه في أمر الخراج حيث جعله وظيفة محدودة أمرا لازما لمن يأتي بعده بل يجوز للخلفاء إذا رأوا مصلحة جمهور الزارعين في المقاسمة أن يعدلوا إليها. وقد ناظر أبو يوسف أهل العلم بالخراج في هذا الأمر فرأى أن تحديد الخراج بكيل مسمى أو دراهم مسماة فيه ضرر على بيت المال وعلى أهل الخراج. أما وظيفة الطعام فإن كان رخصا فاحشا لم يكتف السلطان بالذي وظف عليهم ولم يطب نفسا بالحط عنهم ولم يقو بذلك الجنود ولم تشحن به الثغور — وإن كان غلاء فاحشا لايطيب السلطان نفسا بترك مايستفضل أهل الخراج من ذلك والرخص والغلاء بيد الله لايقومان على أمر واحد وكذلك وظيفة الدراهم. ثم قال: وأما مايدخل على أهل الخراج فيما بينهم فهو التظالم وغلبة القوى على الضعيف ثم قال — ولم أجد شيئا أوفر على بيت المال ولا أعفى لأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض ولاأعفى لهم من عذاب ولاتهم وعمالهم من مقاسمة عادلة خفيفة فيها للسلطان رضا ولأهل الخراج من التظالم فيما بينهم وحمل بعضهم على بعض راحة وفضل. وقد رأى أن يقاسم من عمل الحنطة والشعير من أهل السواد جميعا على خمسين للسيح منه وأما الدوالي فعلى خمس ونصف وأما النخل والرطاب والكرم والبساتين فعلى الثلث وأما غلال الصيف فعلى الربع ولا يؤخذ بالخرص في شيء من ذلك ولا يحزر عليهم شيء منه يباع من التجار ثم تكون المقاسمات في أثمان ذلك أو يقوم ذلك قيمة عادلة لايكون فيها حمل على أهل الخراج ولا يكون على السلطان ضرر. ثم يؤخذ منهم مايلزمهم من ذلك أي

ذلك كان أخف على أهل الخراج فعل ذلك بهم وإن كان البيع وقسمة الثمن بينهم وبين السلطان أخف فعل ذلك بهم . ومن رأى أبى يوسف إعفاء مادون خمسة أوسق من الخراج وهى ٣٠٠ صاع أو ١٦٠٠ رطل وخالف فى ذلك شيخه أبا حنيفة رحمه الله .

وقد أشار أبو يوسف بأن يكون حصاد الطعام ودياسه من الوسط ولا يحبس الطعام بعد الحصاد إلا بقدر مايمكن الدياس فاذا أمكن الدياس رفع إلى البيادر ولا يترك بعد إمكانه للدياس يوما واحدا لئلا تذهب به الأكرة والمارة والطير والدواب فيضر ذلك بالخراج وإذا رفع إلى البيادر وصير أكداسا أخذ فى دياسه ولايحبس الطعام إذا صار فى البيادر الشهر والشهرين والثلاثة لايداس فان فى حبسه فى البيادر ضررا على السلطان وعلى أهل الخرج وبذلك تتأخر العمارة والحرث ولا يخرص عليهم مافى البيادر ولايحزر عليهم حزرا ثم يؤخذون بنقائص الحزر فان هذا هلاك لأهل الخراج وخراب للبلاد وإذا ديس الطعام وذرى قاسمهم

ثم قال ولا يؤخذ أهل الخراج برزق عامل ولا أجر مدى ولااحتفان ولانزلة ولاحموالة طعام السلطان ولايأخذ منهم ثمن صحف ولا قراطيس ولا أجور الفيوج ولاأجور الكيالين ولامؤنة لأحد عليهم فى شىء من ذلك ولاقسمة ولانائبة سوى الذى وصفنا من المقاسمة ولايؤخذون بثمن الأتبان ويقاسمون الأتبان على مقاسمة الحنطة والشعير كيلا أوتباع فيقسم ثمنها على ماوصفت من القطيعة فى المقاسمة ولا يؤخذ منهم ماقد يسمونه رواجا لدراهم يؤدونها فى الخراج فانه بلغنى أن الرجل منهم يأتى بالدراهم ليؤديها فى الخراج فيقتطع منها طائفة ويقال هذا رواجها وصرفها ولايضرب رجل فى دراهم خراج ولايقام على رجله فانه بلغنى أنهم يقيمون أهل الخراج فى الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار ويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهذا عظيم عند الله وشنيع فى الاسلام

من أجل ذلك نرى أبا يوسف رحمه الله دقق كثيرا فى أمر من يولى جباية الخراج فأشار على إمامه أن يكون والى ذلك فقيها عالما مشاورا لأهل الرأى عفيفا لايطلع الناس منه على عورة ولا يخاف فى الله لومة لائم ماحفظ من حق وأدى من أمانة احتسب به الجنة وماعمل به من غير ذلك خاف عقوبة الله فيما بعد الموت تجوز شهادته

إن شهد ولايخاف منه جور فى حكم إن حكم . ثم قال : إنى قد أراهم لايحتاطون فيمن يولون الخراج إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياما ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم ولعله لايكون عرفه بسلامة ناحية ولاعفاف ولا باستقامة طريقة ولابغير ذلك ثم قال : وتقدم إلى من وليت أن لايكون عسوفا لأهل عمله ولا محتقرا لهم ولا مستخفا بهم لكن يلبس لهم جلبابا من اللين يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء من غير أن يظلموا ويحملوا مالايجب عليهم واللين للمسلم والغلظة على الفاجر والعدل على أهل الذمة وإنصاف المظلوم والشدة على الظالم والعفو عن الناس . قال : وإنى لأرجو أن أمرت بذلك وعلم الله من قلبك إيثارك ذلك على غيره ثم بدل منه مبدل أوخالف منه مخالف أن يأخذه الله دونك وأن يكتب لك أجرك وما نويت إن شاء الله . ولتصير مع الولى الذى وليته قوما من الجند من أهل الديوان فى أعناقهم بيعة على النصح لك فان من نصحك أن لاتظلم رعيتك وتأمر باجراء أرزاقهم عليهم من ديوانهم شهرا بشهر ولاتجرى عليهم من الخراج درهما فيما سواه

ثم تكلم بعد ذلك فيما بلغه أنه يحصل من الولاة وحواشيهم من ظلم الناس وعسفهم وأخذهم فوق مالهم ونبه عليه وطلب منه أن يحسم ذلك كله سدا لضرر أهله الخراج ونقص الفىء

ورأى مع هذا كله أن يبعث الامام قوما من أهل الصلاح والعفاف ممن يوثق بدينه وأمانته يسألون عن سيرة العمال وماعملوا به فى الخراج وكيف جبوه على ماأمروا به وعلى ماوظف على أهل الخراج واستقر فاذا ثبت ذلك عندك وصح أخذوا بما استفضلوا من ذلك أشد الأخذ حتى يؤدوه بعد العقوبة الموجعة والنكال حتى لايتعدوا ماأمروا به وماعهد إليهم فيه فان كل ماعمل به والى الخراج من الظلم والعسف فانما يحمل على أنه قد أمر بغيره وإن أحللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج واجترؤا على ظلمهم وتعسفهم وأخذهم بما لايجب عليهم وإذا صح عندك من العامل والوالى تعد بظلم وعسف وخيانة لك فى رعيتك واحتجان شىء من الفىء أو خبث طعمته أوسوء سيرته فحرام عليك استعماله والاستعانة به وأن تقلده شيئا من أمور رعيتك أوتشركه فى شىء من أمرك

تقبيل الأرض

كان النظام المتبع فى جباية الخراج التقبل وهو جعل شخص من الأشخاص قبيلا أى كفيلا بتحصيل الخراج وأخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه و كان الناس يتزايدون فيما يتقبلون به الأرض فيستفيد السلطان تعجيل المال ويستفيد المتقبل الفضل بين مادفعه وماحصله وقد كره أبو يوسف هذا النظام فقال للرشيد ورأيت ألاتقبل شيئا من السواد ولاغير السواد من البلاد فان المتقبل إذا كان فى قبالته فضل عن الخراج عسف أهل الخراج وحمل عليهم مالايجب عليهم وظلمهم وأخذهم بما يجحف بهم ليسلم مما يدخل فيه وفى ذلك وأمثاله خراب البلاد وهلاك الرعية والمتقبل لايبالى بهلاكهم بصلاح أمره فى قبالته ولعله يستفضل بعدمايتقبل به فضلا كثيرا وليس يمكنه ذلك إلابشدة منه على الرعية وضرب لهم شديد وإقامته لهم فى الشمس وتعليق الحجارة فى الأعناق وعذاب عظيم ينال أهل الخراج مما ليس يجب عليهم من الفساد الذى نهى الله عنه إنما أمر الله عز وجل أن يؤخذ منهم العفو وليس يحل أن يكلفوا فوق طاقتهم . وإنما أكره القبالة لأنى لا آمن أن يحمل هذا المتقبل على أهل الخراج ماليس يجب عليهم فيعاملهم بما وصفت لك فيضرذلك بهم فيخربوا ماعمروا ويدعوه فينكسر الخراج وليس يبقى على الفساد شىء ولن يقع مع الصلاح شىء إن الله قد نهى عن الفساد فى الأرض فقال ﴿ولاتفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها﴾ وقال ﴿وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد﴾ وإنما هلك من هلك من الأمم بحبسهم الحق حتى يشترى منهم وإظهارهم الظلم حتى يفتدى منهم والحمل على أهل الخراج ماليس بواجب عليهم من الظلم الظاهر الذى لايحل ولايسع — واختار أبو يوسف التقبل إذا طلبه أهل القرية أو المصر وقالوا هوأخف علينا بشرط أن يوظف على المتقبل رقيب أمين رزقه من بيت المال حتى يمنعه من ظلم إن أراده والاعذار إلى المتقبل والوالى يرفع الظلم عن الرعية والوعيد له إن حملهم مالاطاقة لهم به أو بما ليس بواجب عليهم فان فعل ففوا له بما أوعد به ليكون ذلك زاجرا له وناهيا لغيره إن شاء الله

القطائع

القطائع جمع قطيعة وهي ما يمنحه الامام من الأرض لبعض الممتازين بفعالهم من الرعية

قال أبو يوسف رحمه الله إن عمر رضى الله عنه بعد أن فتح العراق اصطفى من أرضه كل ما كان لكسرى ومرازبته وأهل بيته مما لم يكن فى يد أحد أو لرجل قتل فى الحرب أو لحق بأرض الحرب وكانت مساحة مااصطفاه من هذه الأرض ٤٠٠٠٠٠٠ جريب فكان عمر يقطع هذه لمن أقطع قال أبو يوسف وذلك بمنزلة المال الذى لم يكن لأحد ولافى يد وارث فللإمام العادل أن يجيز منه ويعطى من كان له غناء فى الاسلام ويضع ذلك موضعه ولا يحابى به فكذلك هذه الأرض. ثم قال : فأما من أخذ من واحد وأقطع آخر فهذا بمنزلة المال غصبه واحد من واحد وأعطى واحداً.

والامام مخير فى هذه الأرض بين أن يجعلها عشرية أو خراجية إن كانت تسقى من أنهار الخراج. قال أبو يوسف وكل من أقطعه الولاة المهديون أرضا من أرض السواد وأرض العرب والجبال من الأصناف التى ذكرنا أن الامام يقطع منها فلا يحل لمن يأتى بعدهم من الخلفاء أن يرد ذلك ولا يخرجه من يدى من هو فى يده وارثا أو مشتريا. فأما ما أخذ الولاة من يد واحد أرضا وأقطعها آخر فهذا بمنزلة الغاصب غصب واحداً وأعطى آخر فلا يحل للامام ولا يسعه أن يقطع أحداً من الناس حق مسلم ولا معاهد ولا يخرج من يده من ذلك شيأ إلا بحق يجب له عليه فيأخذه بذلك الذى وجب له عليه فيقطعه من أحب من الناس فذلك جائز له والأرض عندى بمنزلة المال فللامام أن يجيز من بيت المال من كان له غناء فى الاسلام ومن يقوى على العدو ويعمل فى ذلك بالذى يرى أنه خير للسلمين وأصلح لأمرهم وكذلك الأرضون يقطع منها الامام من أحب من الأصناف التى سميت ولا ارى أن يترك أرضا لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الامام فان ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج. فهذا حد الاقطاع عندى على ما أخبرتك. ومن رأى أبى يوسف أن أرض الاقطاع تجعل عشرية لما يلزم صاحب الاقطاع من المؤنة فى

حفر الأنهار وبناء البيوت وعمل الأرض
ومن أجل ذلك يكون وارده لبيت مال الصدقات الآتي ذكره

موات الأرض

قال أبو يوسف لو أن بلاداً فتحت عنوة أو صلحا وفي بعض قراها أرض كثيرة لايرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد وليست مرافق لقرية من القرى فهي موات فمن أحياها فهي له وللامام أن يقطع ذلك من أحب وله أن يؤاجره ويعمل بما فيه الصلاح وقد خالف شيخه أبا حنيفة رحمه الله في إحياء الموات فان الامام يقول لايملك المحيي ما أحيا إلا باذن الامام قال أبو يوسف وإنما قال ذلك أبو حنيفة كيلا يتنازع الناس

وإذا كانت الأرض الموات في أرض العشر أدى عنها العشر وإن كانت في أرض الخراج أدى عنها الخراج وإن احتفرلها بئرا أو استنبط لها قناة كانت أرض عشر أما إن ساق إليها ماء الخراج فهي أرض خراج

قال أبو يوسف وأيما قوم من أرض الحرب بادوا وبقيت أرضهم معطلة ولا يعرف لأحد عليها يد ولا دعوى فأخذها رجل وأحياها وأدى عنها العشر أو الخراج فهي له وليس للامام أن يخرجها من يده

وجعل من الأرض الموات ماينكشف من الجزر في دجلة والفرات إذا كان لرجل جزيرة أو أرض تلاصقها لحصنها من الماء وزرع فيها فهي له بشرط ألا يضر ذلك بأحد ولا بسير السفن وكذلك ما عولج من البطائح بضرب المسنيات عليها وقطع مافيها من القصب وكذلك ماعولج من الآجام — كل ذلك مشروط بألا يكون للأرض مالك أو ذو يد أو مرتفق فان المحافظة على حقوق ارتفاق الجمهور مما أكد فيه أبو يوسف حتى منع من إنشاء الغروب في دجلة إذا كان ذلك بموضع يضر بسير السفن التي تمر في دجلة ومن فعل من ذلك شيأ فعطبت به سفينة فهو ضامن قال أبو يوسف ولا يترك الامام شيأ من ذلك إلا أمر به فهدم ونحى فان في هذا ضرراً عظيما فالفرات ودجلة إنما هما بمنزلة طريق المسلمين ليس لأحد أن يحدث فيه شيئاً فمن أحدث فيه شيئاً فعطب بذلك عاطب ضمن وقد أرى أن

يوكل بذلك رجلا ثقة أميناً حتى يتتبع ذلك ولا يدع من هذه الغروب شيأ فى دجلة والفرات فى موضع يضر بالسفن ولا يتخوف عليها منه إلا نحاه وتوعد أهله على إعادة شيء منه فان فى ذلك أجراً عظيما . وتكلم طويلا فى المياه على اختلاف أنواعها وحقوق الجمهور فيها

المورد الثانى من موارد الخراج جزية أهل الذمة

وضع المسلمون بعد غلبتهم على غير البلاد العربية الجزية على الرؤوس وهذه الجزية يقابلها من المسلمين الحماية ودفع العدو عنهم . وذلك أنهم لم يكونوا يدخلون مع المسلمين فى حروبهم وقد رأيت من السنن العمرية أن من استعين به من غير الملة لايدفع جزية . روى الطبرى فى حوادث سنة ٢٢ من الهجرة أن عبدالرحمن بن ربيعة أحد قواد عمر لما توجه من أذربيجان لفتح الباب أتاه ملكه شهريراز فقال له إنى بازاء عدو كلب وأمم مختلفة لاينسبون إلى أحساب وليس ينبغى لذى الحسب والعقل ان يعين أمثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوى الأحساب والأصول وذو الحسب قريب ذى الحسب حيث كان ولست من القبج فى شيء ولا من الأرمن وإنكم قد غلبتم على بلادى وأمتى فأنا اليوم منكم ويدى مع أيديكم وصغوى معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم النصر لكم والقيام بما تحبون فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم . فقال عبد الرحمن فوقى رجل فسر إليه فجوزه فسار إلى سراقة بن عمرو فلقيه بمثل ذلك فقال سراقة قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا مادام عليه ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء إلا أن يستنفروا فتوضع عنهم جزية تلك السنة وكتب سراقة إلى عمر بن الخطاب بذلك فأجازه وحسنه وكتب لهم سراقة بذلك كتابا

فهذا مما يستأنس به على فكرة المسلمين إذ ذاك فى أمر الجزية . قال أبو يوسف : إن الجزية واجبة على جميع أهل الذمة ماخلا نصارى تغلب وأهل نجران خاصة والذى يجب عليه الجزية منهم الرجال دون النساء والصبيان ولا تؤخذ من مسكين ولا من أعمى لاحرفة له ولا عمل ولا من مقعد لا مال له ولا من راهب ولا من شيخ كبير لايستطيع العمل ولا مال له . وليس فى مواشى أهل الذمة من الابل والبقر والغنم زكاة

وقـد قدر ابو يوسف الجزية ثلاث فئات ٤٨ درهما على الموسرين و ٢٤ على المتوسطين و١٢ على العمال

ثم قال أبو يوسف وينبغى ياأمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتفقد لهم حتى لايظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم

أما نصارى بنى تغلب فتؤخذ منهم صدقة المسلمين مضاعفة . هكذا فعل عمر ابن الخطاب رضى الله عنه

وقد تكلم أبو يوسف على مامنح لأهل الذمة من الامتيازات فى دينهم وكنائسهم و بيعهم فقال إنه كان قد جرى الصلح بين المسلمين وأهل الذمة فى أداء الجزية على ألاتهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدينة ولاخارجها وعلى أن يحقنوا لهم دماءهم وعلى ان يقاتلوا من ناوأهم من عدوهم وعلى أن يخرجوا بالصلبان فى أعيادهم وعلى أن يذبوا عنهم فأدوا الجزية على هذا الشرط وجرى الصلح بينهم على ألايحدثوا بناء بيعة ولا كنيسة فافتتحت الشام كلها والحيرة إلاأقلها على هذا فلهذا تركت البيع والكنائس ولم تهدم . ثم اقتص تاريخ ماأعطاه القواد لأهل الذمة فى الأقاليم المختلفة من هذه الشروط وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال من ظلم معاهدا أوكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند وفاته أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولايكلفوا فوق طاقتهم

المورد الثالث من موارد الخراج العشور

لم تكن العشور من الموارد التى ذكرها القرآن الكريم ولكنها حدثت فى عهد عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وسبب ذلك أن ابا موسى الأشعرى كتب إليه إن تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر فكتب إليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما وليس فيما دون المائتين شيء فاذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم ومازاد فبحسابه . وروى أن أهل منبج قوم من أهل الحرب وراء

البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعنا ندخل أرضك تجارا وتعشرنا فشاور عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك فأشاروا عليه به فكانوا أول من عشر من أهل الحرب . وبعث زياد بن حدير الأسدى على عشور العراق والشام . فصار ذلك سنة فى المرور بأموال التجارة خاصة ومايرد منها من أهل الحرب وأهل الذمة سبيله سبيل الخراج أما مايرد من المسلمين فسبيله سبيل الصدقات ولذلك إذا قال المسلم قد أديت زكاة هذا المال الذى فى يدى صدق فى يمينه

قال أبو يوسف رأيت أن تولى العشور قوما من أهل الصلاح والدين وتأمرهم ألا يتعدوا على الناس فيما يعاملونهم به فلا يظلموهم ولا يأخذون منهم أكثر مما يجب عليهم وأن يمتثلوا مارسمناه لهم ثم تتفقد بعد أمرهم ومايعاملون به من يمر عليهم وهل يجاوزون ماقد أمروا به فان كانوا قد فعلوا ذلك عزلت وعاقبت وأخذتهم بما يصح عندك عليهم لمظلوم أو مأخوذ منه أكثر مما يجب عليه وإن كانوا قد انتهوا إلى ماأمروا به وتجنبوا ظلم المسلم والمعاهد أثبتهم على ذلك وأحسنت إليهم فانك متى أثبت على حسن السيرة والأمانة وعاقبت على الظلم والتعدى بما تأمر به فى الرعية يزيد المحسن فى إحسانه ونصحه وارتدع الظالم عن معاودة الظلم والتعدى وأمرتهم أن يضيفوا الأموال بعضها إلى بعض بالقيمة

مصاريف بيت مال الخراج

الخراج الذى يتكون مما ذكرنا من هذه الموارد الثلاث هو دعامة مالية الدولة ومصرفه المصالح العامة لأنه حق للجمهور كله وهذه المصالح بحسب مايرى الامام وقد ذكر أبو يوسف بعضها لورودها فى أسئلة الخليفة وهى :

أولا — أرزاق القضاة والولاة والعمال قال أبو يوسف فيجرى على والى كل مدينة وقاضيها بقدر مايحتمل وكل رجل تصيره فى عمل المسلمين فأجر عليه من بيت مالهم ولا تجر على الولاة والقضاة من مال الصدقة شيئا إلا والى الصدقة فانه يجرى عليه منها فأما الزيادة فى أرزاق القضاة والعمال والولاة والنقصان مما يجرى عليهم فذلك إليك من رأيت أن تزيده منهم فى رزقه زدت ومن رأيت أن تحط من رزقه حططت أرجو أن يكون ذلك موسعا عليك وكل مارأيت أن الله

تعالى يصلح به أمر الرعية فافعله ولا تؤخره فانى أرجو لك بذلك أعظم الأجر وأفضل الثواب

وقد سأله الرشيد عن رأيه فيما يجرى على القاضى إذا صار إليه ميراث من مواريث الخلفاء وبنى هاشم من الذى يصير إليه ويوكل من قبله من يقوم بضياعهم وما لهم فأجاب سلبا وقال إنما يعطى القاضى رزقه من بيت المال ليكون قيما للفقير والغنى والصغير والكبير ولا يأخذ من مال الشريف ولا الوضيع إذا صارت إليه مواريثه رزقا ولم تزل الخلفاء تجرى للقضاة الأرزاق من بيت مال المسلمين فأما من يوكل بالقيام بتلك المواريث فى حفظها والقيام بها فيجرى عليهم من الرزق بقدر ما يحتمل ماهم فيه فلا يجحف بمال الوارث فيذهب به ويأكله الوكلاء والأمناء ويبقى الوارث هالكا وما أظن كثيرا من القضاة والله أعلم يبالى بما صنع وكيفما عمل ولا يبالى أكثر من معهم أن يفقروا اليتيم ويهلكوا الوارث إلا من وفقه الله تعالى منهم

ثانيا — أعطيات الجنود وهى مرتبات العسكر

لم يكن فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم مرتبات معينة للجنود الذين كانوا يتألفون من جميع أفراد المسلمين وإنما كانوا يأخذون مالهم فى أربعة أخماس ما يغنمون وفيما يرد من خراج الأراضى التى أبقيت فى أيدى أهلها كأرض خيبر ولما ولى أبو بكر رضى الله عنه أعطى الناس وسوى بينهم فى العطاء قائلا هذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة فلما ولى عمر رضى الله عنه رأى فى ذلك غير رأى أبى بكر وقسم العطاء مفضلا الأسبق فالأسبق وهذا قوله بنصه : والله الذى لا إله إلا هو ما أحد إلا وله فى هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك وما أنا فيه إلا كأحدكم ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فالرجل وتلاده فى الاسلام والرجل وقدمه فى الاسلام والرجل وغناؤه فى الاسلام والرجل وحاجته فى الاسلام . بناء على هذه القواعد فرض العطاء فكانت المرتبات كما يأتى :

١٢٠٠٠ درهم لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم ولعمه العباس

٥٠٠٠ لمن شهد بدرا من المهاجرين والأنصار وألحق بهم الحسن والحسين

٤٠٠٠ لمن كان إسلامه كاسلام أهل بدر ولم يشهدها وألحق بهم أسامة بن زيد

٣٠٠٠ لعبد الله بن عمر ولبعض ابناء المهاجرين والأنصار كعمر بن أبى سلمة
٢٠٠٠ لأبناء المهاجرين والأنصار
٨٠٠ لأهل مكة
٤٠٠ و ٣٠٠ لسائر الناس
٦٠٠ و ٤٠٠ و ٣٠٠ و ٢٠٠ لنساء المهاجرين والأنصار

وكان يفرض لأمراء الجيوش والقرى فى العطاء مابين ٩٠٠٠ و ٨٠٠٠ و ٧٠٠٠ على قدر مايصلحهم من الطعام ومايقومون به من الأمور وكان للمنفوس إذا طرحته أمه ١٠ دراهم فاذا ترعرع بلغ به ٢٠٠ فاذا بلغ زاده

وكان للعطاء ديوان تسجل فيه أسماء المرتزقين ويقبضون عطاءهم على رأس السنة حسبما هو وارد فيه والذى أوجد هذا الديوان هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه

ولما كثر الناس عن الحاجة واضطرتهم المدنية إلى أن يشتغل كثير من الأمة بغير الجهاد من الصنائع اقتصر الديوان على ماتقوم به حاجة الأمة من الجيش وكان بعض من ليس مرتزقا فى الديوان يدعوه حبه للجهاد أن يذهب مع الجيش فلا يمنع ويسمون هذا متطوعا وكانوا كثيرين يلازمون الثغور ويخرجون مع الجيوش

ثالثاً — كرى الأنهار وإصلاح مجاريها

قال أبو يوسف رحمه الله : وإذا احتاج أهل السواد إلى كرى أنهارهم العظام التى تأخذ من دجلة والفرات كريت لهم وكانت النفقة من بيت المال ومن أهل الخراج ولا يحمل ذلك كله على أهل الخراج

وأما الأنهار التى يجرونها إلى أرضهم ومزارعهم وكرومهم ورطابهم وبساتينهم ومباقلهم وما أشبه ذلك فكريها عليهم خاصة ليس على بيت المال من ذلك شىء

فأما البثوق والمسنيات والبريدات التى تكون فى دجلة والفرات وغيرها من الأنهار العظام فان النفقة على هذا كله من بيت المال لايحمل على أهل الخراج من ذلك شىء لأن مصلحة هذا على الامام خاصة لأنه أمر عام لجميع المسلمين فالنفقة عليه من بيت المال لأن عطب الأرضين من هذا وشبهه وإنما يدخل الضرر من ذلك على الخراج ولا يولى النفقة على ذلك إلا رجل يخاف الله يعمل فى ذلك بما يجب عليه لله قد عرفت أمانته وحمدت مذهبه ولا تول من يخونك ويعمل فى ذلك بما لايحل

ولا يسعه يأخذ المال من بيت المال لنفسه ومن معه أو يضيع المواضع المخوفة ويهملها ولا يعمل عليها شيئاً يحكمها به حتى تنفجر فتغرق مال الناس من الغلات وتخرب منازلهم وقراهم . ثم وجه من يتعرف مايعمل به واليك فى هذه المواضع المخوفة منها وما يمسك من العمل عليها مما قد يحتاج إلى العمل وما تفجر وما السبب فى انفجاره ثم عامله حسبما يأتيك الخبر عنه من حمد لأمره أو ذم وإنكار وتأديب

رابعاً — حفر الترع بعد التثبت من نفعها بواسطة من لهم بصيرة ومعرفة فاذا تبين الامام ذلك أمر بحفر تلك الترع وجعل النفقة من بيت المال ولا يحمل النفقة على أهل البلد فانهم إن يعمروا خير من أن يخربوا وأن يغروا خير من أن يذهب مالهم ويعجزوا

خامساً — الاجراء على المسجونين

قال جواباً لسؤال للرشيد عنهم لابد لمن كان فى مثل حالهم إذا لم يكن له شىء يأكل منه لامال ولا وجه شىء يقيم به بدنه أن يجرى عليه من الصدقة أو من بيت المال من أى الوجهين فعلت فذلك موسع عليك وأحب إلى أن تجرى من بيت المال على كل واحد منهم مايقوته فانه لا يحل ولا يسع إلا ذلك قال والأسير من أسرى المشركين لابد أن يطعم ويحسن إليه حتى يحكم فيه فكيف برجل مسلم قد أخطأ وأذنب يترك يموت جوعا وإنما حمله على ماصار إليه القضاء أو الجهل ولم تزل الخلفاء تجرى على أهل السجون مايقوتهم فى طعامهم وأدمهم وكسوتهم الشتاء والصيف وأول من فعل ذلك على بن أبى طالب كرم الله وجهه بالعراق ثم فعله معاوية بالشام ثم فعله الخلفاء من بعده

قال أبو يوسف : فمر بالتقدير لهم مايقوتهم فى طعامهم وأدمهم وصير ذلك دراهم تجرى عليهم فى كل شهر يدفع ذلك إليهم فانك إن أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام والجلاوزة وول ذلك رجلا من أهل الخير والصلاح يثبت أسماء من فى السجن من تجرى عليهم الصدقة وتكون الأسماء عنده ويدفع ذلك إليهم شهرا بشهر يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه فى يده فمن كان منهم أطلق وخلى سبيله رد مايجرى عليه ويكون للاجراء عشرة دراهم فى الشهر لكل واحد . وليس كل من فى السجن يحتاج إلى أن يجرى عليه وكسوتهم فى الشتاء قميص وكساء

وفى الصيف قميص وإزار ويجرى على النساء مثل ذلك وكسوتهن فى الشتاء قميص ومقنعة وكساء وفى الصيف قميص وإزار ومقنعة وأغنهم عن الخروج فى السلاسل يتصدق عليهم الناس فان هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا وأخطؤا وقضى الله عليهم ماهم فيه فحبسوا يخرجون فى السلاسل يتصدقون وماأظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين فى أيديهم فكيف ينبغى أن يفعل هذا بأهل الاسلام وإنما صاروا إلى الخروج فى السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع فربما أصابوا ماياكلون وربما لم يصيبوا وإن ابن آدم لم يعر من الذنوب فتفقد أمرهم ومر بالأجراء عليهم مثل مافسرت لك ومات منهم ولم يكن له ولى ولاقرابة غسل وكفن من بيت المال وصلى عليه ودفن فانه بلغنى وأخبرنى به الثقات أنه ربما مات منهم الميت الغريب فمكث فى السجن اليوم واليومين حتى يستأمر الوالى فى دفنه وحتى يجمع أهل السجن من عندهم مايتصدقون ويكترون من يحمله إلى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن ولاصلاة فما أعظم هذا فى الاسلام وأهله

المورد الثالث من موارد بيت المال الصدقات وهى مايؤخذ من المسلمين .

أولا — من أنعامهم وهى الابل والبقر والغنم على حساب معين فى الفقه الاسلامى

ثانياً — من نقودهم التى هى الذهب والفضة باعتبار ٥و٢ من كل مائة

ثالثاً — من أموال تجاراتهم ومنها مايمرون به على العاشر يؤخذ منهم كذلك باعتبار ٥و٢ من كل مائة

رابعا — مايؤخذ من حاصلاتهم الزراعية وهى أعشار الأرض يؤخذ مما سقى بدون مؤنة العشر ومما سقى بمؤنة نصف العشر

قال أبو يوسف رحمه الله : ومر ياأمير المؤمنين باختيار رجل أمين ثقة عفيف ناصح مأمون عليك وعلى رعيتك فوله جمع الصدقات فى البلدان ومره فليوجه فيها أقواما يرتضيهم ويسأل عن مذاهبهم وطرائقهم وأماناتهم يجمعون إليه صدقات البلدان فاذاجمعت إليه أمرته فيها بما أمر الله جل ثناؤه به فأنفذه ولاتولها عمال الخراج فان مال الصدقة لاينبغى أن يدخل فى مال الخراج وقد بلغنى أن عمال الخراج يبعثون رجالا من قبلهم فى الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون مالايحل ولايسع وإنما ينبغى أن يتخير للصدقة أهل العفاف والصلاح فاذا وليتها رجلا ووجه من قبله من يوثق بدينه

وأمانته أجريت عليهم من الرزق بقدر ماترى ولاتجر عليهم مايستغرق أكثر الصدقة

مصارف الزكاة

الزكاة تصرف بالنص إلى ثمانية أصناف من الناس قال الله تعالى «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله»

قال أبو يوسف فالمؤلفة قلوبهم قد ذهبوا (وخالف الحنفية فى ذلك أكثر الأئمة) والعاملون عليها يعطيهم الامام مايكفيهم من غير سرف ولا تقتير وقسمت بقية الصدقات بينهم فللفقراء والمساكين سهم والغارمون وهم الذين لايقدرون على قضاء ديونهم سهم وفى أبناء السبيل المنقطع بهم سهم يحملون به ويعاونون وفى الرقاب سهم وسهم فى إصلاح طرق المسلمين ويقسم سهم الفقراء والمساكين من صدقة ماحول كل مدينة فى أهلها ولايخرج منها فيتصدق به على أهل مدينة أخرى وأما غيره فيصنع به الامام ما أحب من هذه الوجوه التى سمى الله تعالى فى كتابه وإن صيرها فى صنف واحد ممن سمى الله تعالى أجزأه

---

٦ — الأمين

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد وأمه زبيدة بنت جعفر بن المنصور فهو هاشمى أبا وأما ولم يتفق ذلك لغيره من الخلفاء إلا لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ولابنه الحسن .

ولد سنة ١٧٠ من الهجرة وولاه أبوه العهد سنة ١٧٥ وكان قائما مقام أبيه ببغداد حينما سافر إلى خراسان ولما مات الرشيد بطوس بويع له فى عسكر الرشيد بالخلافة ووصل الخبر إلى بغداد فبايعه الخاصة والعامة واستمر فى الخلافة إلى أن قتل فى ٢٥ محرم سنة ١٩٨ (٥ سبتمبر سنة ٨١٣) فكانت مدته أربع سنوات إلا أربعة أشهر تقريبا

الحال الداخلية لذلك العهد

كانت هذه المدة التى وليها الأمين مملوءة بالمشاكل والاضطرابات بين الأخوين الأمين والمأمون وكادت الأمة تذهب بينهما ضياعا وسبب ذلك مافعله الرشيد من من ولاية العهد لأولاده الثلاثة أحدهم بعدالآخر وقسمته البلاد بينهم كاقدمنا ونحن نبين كيف ابتدأت المشاكل وكيف انتهت ونبين آثارها فى الأمة

لما كان الرشيد بطوس جدد البيعة لابنه المأمون على القواد الذين معه وأشهد من معه من القواد وسائر الناس أن جميع من معه من الجند مضمومون إلى المأمون وأن جميع مامعه من مال وسلاح وآلة وغير ذلك للمأمون . ولما علم الأمين وهو ببغداد مرض أبيه وأنه لمآبه أرسل من يفيده الأخبار كل يوم وأرسل كتبا تسلم إلى من أرسلت إليه بعد وفاة الرشيد . فلما توفى كان من تلك الكتب كتاب المأمون يعزيه فيه عن أبيه ويأمره أن يأخذ البيعة على من قبله للأمين بالخلافة وللمأمون بولاية العهد وللقاسم المؤتمن بعده : ومنها كتاب لصالح بن الرشيد وقد كان أكبر ولد الرشيد الذين معه وهو الذى صلى عليه حين مات وقد أمره فيه بالاجتهاد والتشمير وأن يأخذ البيعة على من معه للأمين ثم المأمون ثم المؤتمن على الشريطة التى اشترطها الرشيد وأمره بالمسير اليه مع جميع الجنود والذخائر والسلاح وقال له فى الكتاب وإياك أن تنفذ رأيا أو تبرم أمرا إلا برأى شيخك وبقية آبائك الفضل بن الربيع وفيه . وإن أمرت لأهل العسكر بعطاء أو أرزاق فليكن الفضل بن الربيع المتولى لاعطائهم على دواوين يتخذها لنفسه بمحضر من أصحاب الدواوين فان الفضل بن الربيع لم يزل مثل ذلك لمهمات الأمور

لما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد الأمين بطوس من القواد والجند واولاد هارون تشاوروا فى اللحاق بمحمد فقال الفضل بن الربيع لاأدع ملكا حاضرا لآخر لايدرى ما يكون من أمره وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك محبة منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد وتركوا العهود التى كانت أخذت عليهم للمأمون

انتهى خبر ذلك إلى المأمون وهو بمرو فجمع من معه من قواد أبيه واستشارهم فأشاروا عليه أن يلحقهم فى ألفى فارس تجريدة فيردهم فدخل عليه الفضل بن سهل

وهو عنده من أعظم الناس قدرا وأخصهم به فقال له إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هدية إلى محمد ولكن الرأى أن تكتب اليهم كتابا وتوجه اليهم رسولا فتذكرهم البيعة وتسألهم الوفاء وتحذرهم الحنث وما يلزمهم فى ذلك فى الدين والدنيا ففعل ذلك المأمون ووصل الكتاب والقوم بنيسابور قد رحلوا ثلاث مراحل فلم يفد هذا الجواب فائدة وتم الفضل بن الربيع على سيره

لما جاء المأمون خبر ذلك كان الفضل بن سهل حاضرا فأزال عنه الانزعاج وامله فى الخلافة فجعل أمره اليه وأمره أن يقوم به بعد أن رفضه كبار القواد الذين معه . فكان من أول تدبيره أن يبعث إلى من بالحضرة من الفقهاء فيدعوهم إلى الحق والعمل به وإحياء السنة وأن يقعد على اللبود ويرد المظالم ليكون بذلك قريبا من نفوس الجمهور ففعل

ولم يبدأ المأمون أخاه بشىء يريبه بل تواترت كتبه اليه بالتعظيم والهدايا اليه من طرف خراسان من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح

أما الأمر فى بغداد فقد كان يدل على شر مستطير فان الفضل بن الربيع بعد مقدمه العراق ناكثا للعهود التى كان الرشيد أخذها عليه للمأمون رأى أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يوما وهو حى لم يبق عليه فحث محمدا على خلعه وأن يولى العهد من بعده ابنه موسى ولم يكن ذلك من رأى محمد ولا عزمه بل كان عزمه الوفاء لأخويه بما أخذ عليه الرشيد لهما من العهود فلم يزل به الفضل حتى أزاله عن رأيه فأول مابدأ به أن كتب إلى جميع العمال فى الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالامرة بعد الدعاء له وللمأمون والقاسم . فلما بلغ ذلك المأمون وبلغه أن الأمين عزل أخاه القاسم عما كان الرشيد ولاه من الأعمال واقدمه بغداد علم أنه يدبر فى خلعه فقطع البريد عنه وأسقط اسمه من الطراز

كرر الأمين تجربته فكتب إلى العباس بن عبد الله بن مالك وهو عامل المأمون على الرى وأمره أن يبعث اليه بغرائب غروس الرى مريدا بذلك امتحانه فبعث اليه بما طلب فبلغ ذلك المأمون فعزل العباس عن ولايته

ثم بعث الأمين إلى المأمون ثلاثة نفر أحدهم العباس بن موسى بن عيسى والغرض من هذا الوفد أن يطلبوا من المأمون رضاه بتقديم موسى بن الأمين على نفسه

فى ولاية العهد فلما اطلع المأمون على مرادهم رد ذلك وأباه وعرض الفضل بن سهل على العباس بن موسى أن يكون عونا لهم ومنوه الأمانى إن هو أجاب إلى ذلك فرضى وكان بعد ذلك يكتب إليهم بالأخبار ويشير عليهم بالرأى عاد الوفد إلى الأمين وأخبروه بامتناع المأمون

لم يخفض ذلك من غلواء الفضل بن الربيع بل مازال يلح على الأمين حتى رضى أن يخلع المأمون ويبايع لابنه موسى بولاية العهد . ونهى الفضل عن ذكر المأمون والقاسم والدعاء لهما على شيء من المنابر ووجه إلى مكة كتابا مع رسوله من حجبة البيت فى أخذ الكتابين اللذين كتبهما هارون وجعلهما بالكعبة فأحضرهما إلى بغداد فمزقا

وكان الأمين قبل أن يكاشف أخاه بذات نفسه أرسل إليه يسأله أن يتجافى له عن كور من كور خراسان سماها وأن يوجه العمال إليها من قبل محمد وأن يحتمل توجيه رجل من قبله يوليه البريد عليه ليكتب إليه بخبره فكتب إليه جواب ذلك

بلغنى كتاب أمير المؤمنين يسأل التجافى عن مواضع سماها مما أثبته الرشيد فى العقد وجعل أمره إلى وماأمر رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره غير أن الذى جعل إلى الطرف الذى أنا به لاظنين فى النظر لعامته ولاجاهل بما أسند إلى من أمره ولو لم يكن ذلك مثبتا بالعهود والمواثيق المأخوذة ثم كنت على الحال التى أنا عليها من إشراف عدو مخوف الشوكة وعامة لاتتألف عن هضمها وأجناد لايستتبع طاعتها إلا بالأموال وطرف من الافضال لكان فى نظر أمير المؤمنين لعامته ومايحب من أطرافه مايوجب عليه أن يقسم له كثيرا من عنايته وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله فكيف بمسألة ما أوجبه الحق ووكدته مأخوذة العهد وإنى لأعلم أن أمير المؤمنين لوعلم من الحال ماعلمت لم يطلع ما كتب بمسألته إلى ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله

وكان المأمون قد وجه حارسه إلى الحد فلا يجوز رسول من العراق حتى يوجهوه مع ثقات من الأمناء ولايدعه يستعلم خبرا ولايؤثر أثرا ولايستتبع بالرغبة ولا بالرهبة أحدا ولا يبلغ أحدا قولا ولا كتابا — لحصر أهل خراسان من أن يستمالوا برغبة أوأن تودع صدورهم رهبة ويحملوا على منول خلاف أومفارقة — ثم وضع على

مراصد الطرق ثقات من الحراس لايجوز عليهم إلا من لايدخل الظنة فى أمره ممن أتى بجواز فى مخرجه إلى دار مآبه أو تاجر معروف مأمون فى نفسه ودينه ومنع الاشتاتات من جواز السبل والقطع بالمتاجر والوغول فى البلدان فى هيئة الطارئة والسابلة وفتشت الكتب . هكذا دبر الفضل بن سهل أمر صاحبه فلم يدع للفضل ابن الربيع مجالا لرسله وروادة أن يبثوا شيئا فى عامة أهل خراسان ولما أتت رسل الأمين بجواب كتب الأمين وجدوا جميع ما كانوا يؤملونه ممنوعا عنهم موصدا بابه دونهم . وكان كتاب الأمين للمأمون :

«أما بعد فان أمير المؤمنين الرشيد و إن كان أفردك بالطرف وضم ماضم إليك من كور الجبل تأييدا لأمرك وتحصينا لطرفك فان ذلك لايوجب لك فضلة المال عن كفايتك وقد كان هذا الطرف وخراجه كافيا لحدثه ثم تتجاوز بعد الكفاية إلى مايفضل من رده وقد ضم لك إلى الطرف كورا من أمهات كور الأموال لاحاجة لك فيها فالحق فيها أن تكون مردودة فى أهلها ومواضع حقها فكتبت إليك أسألك رد تلك الكور إلى ما كانت عليه من حالها ليكون فضول ردها مصروفا إلى مواضعها وأن تأذن لقائم بالخبر يكون بحضرتك يؤدى إلينا علم مانعنى به من خبر طرفك فكتبت تلط دون ذلك بما أن تم أمرك عليه صيرنا الحق إلى مطالبتك فاثن عن همك أثن عن مطالبتك إن شاء الله» فلما قرأ المأمون كتابه كتب إليه :

«أما بعد فقد بلغنى كتاب أمير المؤمنين ولم يكتب فيما جهل فأكشف له عن وجهه ولم يسأل مالا يوجبه حق فيلزمنى الحجة بترك إجابة وإنما يتجاوز المناظر ان منزلة النصفة ماضاقت النصفة عن أهلها فمتى تجاوز متجاوزها وهو موجودة الوسع ولم يكن تجاوزها إلا عن نقضها واحتمال مافى تركها فلا تبعثنى ياابن أبى على مخالفتك وأنا مذعن بطاعتك ولا على قطيعتك وأنا على إيثار ماتحب من صلتك وارض بما حكم به الحق فى أمرك أكن بالمكان الذى أنزلنى به الحق فيما بينى وبينك والسلام»

فلما وصل الكتاب إلى الأمين اشتد غيظه وعند ذلك أمر بعدم الدعاء له على المنابر وكتب إليه :

«وأما بعد فقد بلغنى كتابك غامطا لنعمة الله عليك فيما مكن لك من ظلها متعرضا لحراق نار لاقبل لك بها ولحظك عن الطاعة كان أودع وإن كان قدتقدم منى متقدم

فليس بخارج من مواضع نفعك إذ كان راجعا على العامة من رعيتك وأكثر من ذلك مايمكن لك من منزلة السلامة ويثبت لك من حال الهدنة فاعلمن رأيك أعمل عليه إن شاء الله

لم يكن لهذه المكاتبات بين الأخوين نتيجة لأنه كان لكل منهما سائق يسوقه. فللأمين الفضل بن الربيع الذى لم يكن يحب المأمون ولا ولايته وللمأمون الفضل ابن سهل الذى كان يأمل الخلافة لصاحبه وأن تكون مرو حاضرة الخلافة العظمى وتعود لخراسان عظمتها

بلغ المأمون ماأقدم عليه أخوه من خلعه عن ولاية العهد وترك الدعاء له فكان أول مافعله الفضل بن سهل من التدبير أن جمع الأجناد التى كان أعدها بجنبات الرى مع أجناد قد كان مكنها فيها وأجناد للقيام بأمرهم وأقامهم بالحد لايتجاوزونه ولا يطلقون يدابسوء فى عامة ولا مجتاز ثم اختار لقيادة الجند طاهر بن الحسين الخزاعى مولاهم فسار طاهر مغذا لايلوى على شىء حتى ورد الرى فنزلها ووكل بأطرافها ووضع مسالحه وبث عيونه وطلائعه

أما الفضل بن الربيع فانه اختار لجند العراق على بن عيسى بن ماهان وولاه الأمين كور الجبل كلها نهاوند وهمذان وقم وأصفهان وأعطى جنده من الأرزاق شيئا كثيرا وأمدهم بالسلاح والعدة فشخص من بغداد فى منتصف جمادى الآخرة سنة ١٩٥ وكان معه زهاء أربعين ألفا وحمل معه قيد فضة ليقيد به المأمون كما شاءت زبيدة أم الأمين وقد خدم الأمين أخاه بهذا التعيين خدمة عظيمة فان أهل خراسان لم ينسوا ماعاملهم به على بن عيسى من الفظائع مدة ولايته فى عهد الرشيد فكان تعيينه لحربهم مما أثار فى قلوبهم الحمية لرد هذا العدو بعد أن أبدلهم الله خيرا منه عدلا ورفقا وحسن سياسة وهو عبد الله المأمون ومما كان ينذر بالشر جند الأمين عدم احتفال قائده بلقاء عدوه فانه لما بلغه أن طاهر بن الحسين مقيم بالرى كان يضحك ثم يقول وما طاهر فوالله ماهو إلا شوكة من أغصانى أو شرارة من نارى وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ويلقى الحروب ثم التفت إلى أصحابه فقال والله مابينكم وبين أن ينقصف انقصاف الشجر من الريح العاصف إلا أن يبلغه عبورنا عقبة همذان فان السخال لاتقوى على النطاح والثعالب لاصبر لها على لقاء الأسد فان يقم طاهر بموضعه يكن أول معرض لظبات السيوف

وأسنة الرماح . ولما صار فى أول بلاد الرى أتاه صاحب مقدمته وقال لو كنت أبقى الله الأمير أذكيت العيون وبعثت الطلائع وارتدت موضعا تعسكر فيه وتتخذ خندقا لأصحابك يأمنون به كان ذلك أبلغ فى الرأى وآنس للجند — فقال لا ليس مثل طاهر يستعد له بالمكايد والتحفظ إن حال طاهر تؤول إلى أحد أمرين إما أن يتحصن بالرى فيبيته أهلها فيكفونا مؤنتـه أو يخليها ويدبر راجعا لو قربت خيولنا وعسكرنا منه — وأتاه يحيى بن على فقال اجمع متفرق العسكر واحذر على جندك البيات ولا تسرح الخيل إلا ومعها كنف من القوم فان العساكر لا تساس بالتوانى والحروب لا تدبر بالاغترار والثقة أن تحترز ولا تقل المحارب لى طاهر فالشرارة الخفية ربما صارت ضراما والثلمة من السيل ربما اغتربها فتهون فصارت بحرا عظيما وقد قربت عساكرنا من طاهر فلو كان رأيه الهرب لم يتأخر إلى يومه هـذا . فقال له اسكت فان طاهرا ليس فى هذا الموضع الذى ترى وإنما يتحفظ الرجال إذا لقيت أقرانها وتستعد إذا كان المناوئ لها أكفاءها ونظراءها

وبينما كان هـذا القائد يسير مدلا بنفسه وبمن معه مستخفا بعدوه كان طاهر يدبر أمره مع قواده ويسير سير من يريد مواقعة عدو أكثر منه عددا وعدة وقد استقر رأيه على أن يجعل مدينة الرى وراء ظهره ويقاتل بعيدا عنها فعسكر على خمسة فراسخ منها وأقبل اليه على بن الحسين وقد عبأ جنده وهم فى أكمل عدة وأحسن زى فكتب طاهر كتائبه وكردس كراديسه وسوى صفوفه وجعل يمر بقائد قائد وجماعة جماعة يعظهم ويثبتهم ثم تلاحم الفريقان واقتتلوا قتالا شديدا فعلت ميمنة على على ميسرة طاهر ففضتها فضا منكرا وميسرته على ميمنته فأزالتها عن موضعها فقال طاهر اجعلوا بأسكم وجدكم على كراديس القلب فانكم لو قد فضضتم منهم راية واحدة رجعت أوائلها على أواخرها فصبر أصحابه صبرا صادقا ثم حملوا على أولى رايات فهزموهم وأكثروا فيهم القتل ورجعت الرايات بعضها على بعض ورأى أصحاب ميمنة طاهر وميسرته ما عمل أصحابه فرجعوا على من كان فى وجوههم فهزموهم وانتهت الهزيمة إلى على ورماه رجـل من أصحاب طاهر بسهم فقتله ووضعوا فيهم السيوف حتى حال الليـل بينهم وبين الطلب وغنموا غنيمة كثيرة ونادى طاهر فى أصحاب على من وضع سلاحه فهو آمن فطرحوا أسلحتهم ونزلوا عن دوابهم وعاد طاهر إلى الرى وكتب إلى الفضل

ابن سهل — أطال الله بقاءك وكبت أعداءك وجعل من يشنأك فداك كتبت اليك ورأس على بن عيسى فى حجرى وخاتمه فى يدى والحمد لله رب العالمين — فلما وصل الكتاب إلى الفضل نهض فسلم على المأمون بأمير المؤمنين — وأمد طاهرا بالرجال والقواد وسماه ذا اليمينين وصاحب حبل الدين

وصل هذا الخبر بغـــداد على غير ماينتظر القوم فانتخب الأمين جيشا ثانيا جعـله تحت قيادة عبد الرحمن بن جبلة الأنبارى وعدة هـذا الجيش عشرون الف رجـل من الأبناء وحمل معه الأموال وقواه بالسلاح والخيـل وأجازه بجوائز وندب معه فرسان الأبناء وأهل البأس والنجدة والغناء منهم وأوصى قائده بالتحفظ والاحتراس وترك ماعمل به على بن عيسى من الاغترار والتضجيع فسار عبدالرحمن حتى نزل همـذان فضبط طرقها وحصن سورها وأبوابها وسـد ثلمها وحشر إليهـا الأسواق والصناع وجمع فيها الآلات والمير واستعدللقاء طاهر ومحاربته . ولمـا بلغ طاهرا خبره توجه إليه حتى أشرف على همذان فخرج إليه عبد الرحمن فيمن معه على تعبئة فاقتتل الفريقان قتالا شديدا إلى أن انهزم عبد الرحمن ودخل همذان فلبث فيها حتى قوى أصحابه واندملت جراحهم ثم خرج ثانية إلى اللقاء فلقيه طاهر وفعـل به مافعل فى المرة الأولى فعاد إلى همـذان فحصره فيها طاهر حتى جهـد من قلة المـادة فطلب الأمان له ولمن معه فأمنه طاهر

ولمـا تم لطاهر هذا النصر طرد عمال محمد من قزوين

كان ذلك سببا لارتباك الفضل بن الربيع وشعوره بزوال الدولة فدعا أسد بن يزيد ابن مزيد وهو من قواد الدولة المعـدودين وقال له أنت فارس العرب وابن فارسها فزع إليك الأمين فى لقاء هـذا الرجـل وأطمعـه فيما قبلك أمران — أما أحـدهما فصدق طاعتك وفضل نصيحتك والثانى يمن نقيبتك وشدة بأسك وقد أمرنى بازاحة علتك وبسط يدك فيما أحببت غير أن الاقتصاد رأس النصيحة ومفتاح اليمن والبركة فأنجز حوائجك وعجل المبادرة إلى عدوك فانى أرجو أن يوليك الله شرف هذا الفتح ويلم بك شعث هذه الخلافة والدولة — فلم يمتنع أسد وإنمـا طالب لجنده مطالب هى أن يؤمر لأصحابه برزق سنة ويخص من لاخاصة له منهم من أهل الغناء والبلاء وأبدل من فيهم من الزمنى والضعفاء وأحمل ألف رجل ممن معى على الخيل ولا أسأل عن

محاسبة ماافتتحت من المدن والكور — فقال له الفضل قد اشتطت ولا بد من مناظرة أمير المؤمنين ثم ركبا إليه فدخل عليه الفضل أولا ثم دخل أسد فما كان بينهما إلا كلمتان حتى غضب الأمين وأمر بحبس أسد — ثم قال هل فى أهل بيتى هذا من يقوم مقامه فانى أكره أن أستفسدهم مع سابقتهم وما تقدم من طاعتهم ونصيحتهم فقالوا نعم فيهم أحمد بن مزيد وهو أحسنهم طريقة وأصلحهم نية فى الطاعة وله مع هذا بأس ونجدة وبصر بسياسة الجنود ولقاء الحروب فاستدعاه محمد وقال له إنه قد كثر على تخليط ابن أخيك وتنكره وطال خلافه على حتى أوحشنى ذلك منه وولد فى قلبى التهمة له وصيرنى بسوء المذهب وحنث الطاعة إلى أن تناولته من الأدب والحبس بما لم أحب أن أكون أتناوله به وقد وصفت لى بخير ونسبت إلى جميل فأحببت أن أرفع قدرك وأعلى منزلتك وأقدمك على أهل بيتك وأن أوليك جهاد هذه الفئة الباغية الناكثة وأعرضك للأجر والثواب فى قتالهم ولقائهم فانظر كيف تكون وصحح نيتك وأعن أمير المؤمنين على اصطناعك وسره فى عدوه ينم سرورك وتشريفك . ثم أمر الفضل أن يدفع إليه دفاتر أسد وأن يضم إليه من شهد العسكر من رجال الجزيرة والأعراب — فخرج أحمد فانتخب الرجال واعترض الدفاتر فبلغت عدة من معه عشرين ألف رجل — ووجه الأمين عبد الله بن حميد بن قحطبة فى عشرين ألفا أخرى وأمرهما أن ينزلا حلوان ويدفعا طاهرا عنها وتقدم إليهما فى اجتماع الكلمة والتواد والتحاب على الطاعة — فتوجها حتى نزلا قريبا من حلوان بخانقين

أما طاهر فانه أقام بموقعه وخندق عليه وعلى أصحابه ودس العيون والجواسيس إلى عسكرى عدوه فكانوا يأتونهم بالأراجيف ولم يزل يحتال فى وقوع الخلاف بينهم حتى اختلفوا وانتقض أمرهم وقاتل بعضهم بعضا فأخلوا خانقين ورجعوا عنها من غير أن يلقوا طاهرا فتقدم طاهر حتى نزل حلوان . ثم لم يلبث إلا قليلا حتى ورد عليه هرثمة بن أعين أحد قواد المأمون ومعه كتاب من المأمون والفضل بن سهل يأمره فيه بتسليم ماحوى من الكور والمدن إليه ويتوجه إلى الاهواز فسلم ذلك إليه وأقام هرثمة بحلوان فحصنها ووضع مسالحه ومراصده فى طرقها وجبالها وتوجه طاهر إلى الأهواز ليكون الهجوم على بغداد من جهتين

كان من سوء حظ الأمين أن عبد الله بن صالح بن على الذى كان الرشيد قد حبسه خلصه الأمين من سجنه فعد ذلك فضلا منه وأراد مساعدته فطلب إليه أن يوليه الشام والجزيرة ليحضر إليه جندا من العرب قدضرستهم الحروب وأدبتهم الشدائد فولاه ذلك فلما وصل إلى الرقة أنفذ كتبه إلى رؤساء الأجناد بالشام ووجوه الجزيرة فلم يبق أحد ممن يرجى ويذكر بأسه وغناؤه إلا وعده وبسط له فى آماله وأمنيته فقدموا عليه رئيسا بعد رئيس وجماعة بعد جماعة وأتاه أهل الشام الزواقيل والأعراب من كل فج واجتمعوا عنده

حصلت مشكلة تافهة بين جندى خراسانى وجندى من الزواقيل فتعصب لكل جماعته تعصبا أدى إلى التلاحم واستعد الأبناء وأتوا الزواقيل وهم غارون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة فتنادى الزواقيل وركبوا ونشبت الحرب بين الفريقين وكان عبد الملك ابن صالح إذ ذاك مريضا فوجه إليهم رسولا يأمرهم بترك الحرب فرموا رسوله بالحجارة . ولما أخبر بكثرة من قتل من العرب قال واذلاه تستضام العرب فى دارها ومحلها وبلادها . فكان ذلك بمثابة محضأ حرك إلى الشر من لم يركب من الأبناء وقام بأمرهم الحسين ابن على بن عيسى بن ماهان . فلما رأى ذلك أهل الشام أجمعوا أمرهم على الرحيل إلى بلادهم فرحلوا قائلين الموت الفلسطينى خير من العيش الجزرى وأقام الحسين بمن معه من الأبناء

انتهت هذه الفكرة بالفشل ولم يقف شرها عند هذا الحد فان الحسين بن على نادى فى عسكره بالرحيل قاصدا بغداد فلما وصلها حض الأبناء الذين معه على خلع الأمين فأجابوه فتوجه بهم حيث يقيم الأمين ونادوا بخلعه فى ١١ رجب سنة ١٩٦ وأخذوا البيعة للمأمون فى ثانى عشرة وغدا فى الثالث عشر إلى الأمين فى قصره وأخرجه منه محبوسا

خاف كبار الأبناء تقدم على بن عيسى فقام محمد بن أبى خالد وقال أيها الناس ما أدرى بأى سبب يتأمر على بن الحسين علينا ماهو بأكبرنا سنا ولا أكرمنا حسبا ولا أعظمنا منزلة وإنى أولكم نقض عهده فمن كان على رأيى فليعتزل معى وقام أسد الحربى ودعا من معه من الحربية إلى القيام بأمر محمد وفكه فتأثر الأبناء من هذه الأقوال وثاروا على الحسين بن على فأسروه ودخل أسد الحربى إلى الأمين ففك قيوده وأقعده فى مجلس الخلافة وأتى الأمين بالحسين بن على فلامه على ما كان منه مع إحسانه

إليه وإلى أبيه وأخيرا عفا عنه ولكن ذلك لم يفد فانه بعد العفو حاول الهرب من بغداد فأدرك وقتل

هذه حال الاضطراب في جند الأمين أما جند المأمون فكان على العكس من ذلك كان هادئا منتظما لاتزيده الأيام إلا قوة . انقسم إلى قوتين قوة مع هرثمة بن أعين تريد بغداد من جادة المشرق وقوة مع طاهر بن الحسين تريد بغداد من جادة الأهواز والبصرة

ذهب طاهر إلى فارس فاستولى عليها بعد أن أوقع بعاملها محمد بن يزيد المهلبي وقعة شديدة بسوق الأهواز وقتل محمد بن يزيد وكان ترتيب جند طاهر في مسيره وحربه حائزا الغاية من النظام والاحتراس فضلا عما حازه من الاسم الكبير الذي يفت في الأعضاد

أقام بفارس مدة أنفذ فيها العمال إلى الكور وولى على اليمامة والبحرين وعمان مما يلي الأهواز ومما يلي عمل البصرة ثم سار متوجهاً إلى واسط فجعلت المسالح والعمال تتقوض مسلحة مسلحة وعاملا عاملا كلما قرب منهم طاهر تركوا أعمالهم وهربوا عنها حتى قرب من واسط فهرب عنها عاملها قائلا إنه طاهر ولا عار في الهرب منه . دخل طاهر واسطا ومنها وجه قائداً إلى الكوفة وعليها العباس بن موسى الهادي فبادر إلى خلع الأمين ومبايعة المأمون وأرسل بذلك إلى طاهر فتم له مابين واسط إلى الكوفة وأنفذ كتب التولية إلى العمال وكذلك بايع للمأمون أمير البصرة وهو المنصور بن المهدي وكان ذلك كله في رجب سنة ١٩٦

ثم سار طاهر إلى المدائن فاستولى عليها من غير قتال

في تلك الأثناء حصل في الحجاز مازاد المأمون قوة والأمين خذلانا ذلك أن داود بن عيسى بن موسى كان عاملا للأمين على مكة والمدينة فلما بلغه مافعل الأمين من خلع المأمون وأخذه الكتابين اللذين كانا بجوف الكعبة وتمزيقهما جمع حجبة الكعبة والقرشيين والفقهاء ومن كان شهد على مافي الكتابين من الشهود وكان داود أحدهم فذكرهم بما كان الرشيد أخذ عليهم من العهود أن يكونوا مع المظلوم من ولديه على الظالم وأخبرهم أن محمداً كان الذي قد بدأ بالظلم فخلع أخويه وبايع لابنه الصغير لذلك رأيت خلعه وأن أبايع للمأمون فأجابه إلى ذلك أهل مكة وفي ٢٧ رجب

سنة ١٩٦ نادى داود فى البيت الحرام بخلع الأمين وبيعة المأمون ثم كتب إلى ابنه سليمان وهو خليفة على المدينة يأمره أن يفعل بها فعل أهل مكة ففعل . ولما تم ذلك سار داود بنفسه إلى مرو وأعلم المأمون بما تم فى الحجاز فسر المأمون جد السرور وتيمن ببركة مكة والمدينة وكتب إلى أهل الحجاز كتباً يعدهم فيها الخير ويبسط أملهم وأقر داود على ولاية الحجاز فعاد مغذا ليدرك الحج ومر وهو عائد على طاهر بن الحسين فوجه معه يزيد بن جرير القسرى والياً على اليمن وكان يزيد هذا داعية أهل اليمن إلى بيعة المأمون فأجابوه

اجتمعت جيوش طاهر وهرثمة حول بغداد وحوصرت من ثلاث جهات فنزل هرثمة نهربين وأعد المجانيق والعرادات وأنزل عبيد الله بن الوضاح الشماسية ونزل طاهر البستان بباب الأنبار ونزل المسيب بن زهير قصر رقة كلواذى . وقد نصب المسيب المجانيق والعرادات واحتفر الخنادق وجعل يخرج فى الأيام عند اشتغال الجند بحرب طاهر فيرمى بالعرادات من أقبل ومن أدبر ويعشر أموال التجارة ويجبى السفن وبلغ من الناس كل مبلغ

أحس محمد بالضيق ومنعت عنه الأموال فأمر ببيع كل مافى الخزائن من الأمتعة وضرب آنية الذهب والفضة دنانير ودراهم وحملها لأصحابه فى نفقاته

وقد قاست هذه المدينة العظمى ودرة تاج الخلافة العباسية من هذا الحصار مالم يكن يخطر لأحد على بال من الهدم والتحريق وسفك الدماء والجوع الشديد حتى درست محاسنها وكادت تمحى معالمها ونطقت ألسن شعرائها بوصف ماعليه الناس من الأحزان والمحن التى لاتحتمل وأحسنهم فى ذلك عمرو بن عبد الملك العترى الوراق فما قاله :

من ذا أصابك يابغداد بالعين * ألم تكونى زمانا قرة العين
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم * وكان قربهم زيناً من الزين
صاح الغراب بهم بالبين فافترقوا * ماذا لقيت بهم من لوعة البين
أستودع الله قوما ماذكرتهم * إلا تحدر ماء العين من عينى
كانوا ففرقهم دهر وصدعهم * والدهر يصدع مابين الفريقين

وقال بعض فتيان بغداد

بكيت دما على بغداد لما ٭ فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموماً من سرور ٭ ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتها من الحساد عين ٭ فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقوا بالنار قسراً ٭ ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادى واصباحا ٭ وباكية لفقدان الشفيق
وحوراء المدامع ذات دل ٭ مضمخة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق إلى انتهاب ٭ ووالدها يفر إلى الحريق
وسالبة الغزالة مقلتيها ٭ مضاحكها كلألأة البروق
حيارى كالهدايا مفكرات ٭ عليهن القلائد فى الحلوق
ينادين الشفيق ولا شفيق ٭ وقد فقد الشفيق من الشفيق
وقوم أخرجوا من ظل دنيا ٭ متاعهم يباع بكل سوق
ومغترب قريب الدار ملقى ٭ بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعاً ٭ فما يدرون من أى الفريق
فلا ولد يقيم على أبيه ٭ وقد هرب الصديق بلا صديق
ومهما أنس من شىء تولى ٭ فانى ذاكر دار الرقيق

وكان الأمين قد استعان فى حروبه بالعيارين والشطار والمسجونين من أهل بغداد فكان الشر الذى أصاب المدينة منهم أكثر مما أصابها من العدو المهاجم . وللخزيمى قصيدة طويلة تبلغ ١٣٥ بيتاً يصف فيها ما أصاب بغداد ويذكر أسباب تلك النكبات التى حلت استوفاها الطبرى فى الجزء العاشر من تاريخه صحيفة ١٧٦ وما بعدها من طبع مصر يقول فيها :

يا بؤس بغداد دار مملكة ٭ دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثم عاقبها ٭ لما أحاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبالـ ٭ حرب التى أصبحت تساورها

ثم قال : رق بها الدين واستخف بذى الفضـ ٭ ـل وعز النساك فاجرها
وخطم العبد أنف سيده ٭ بالرغم واستعبدت مخادرها

وصار رب الجيران فاسقهم ✽ وابتز أمر الدروب زاعرها

وقال العترى :

الناس فى الهدم وفى الانتقال ✽ قد عرض الناس بقيل وقال
ياأيها السائل عن شأنهم ✽ عينك تكفيك مكان السؤال
قد كان للرحمن تكبيرهم ✽ فاليوم تكبيرهم للقتال
اطرح بعينيك إلى جمعهم ✽ وانتظر الروح وعد الليال
لم يبق فى بغداد إلا امرؤ ✽ حالفه الفقر كثير العيال
لا أم تحمى عن حماها ولا ✽ خال له يحمى ولا غير خال
ليس له مال سوى مطرد ✽ مطرده فى كفه رأس مال
هان على الله فأجرى على ✽ كفيه للشقوة قتل الرجال
إن صار ذا الأمر إلى واحد ✽ صار إلى القتل على كل حال
مابالنا نقتل من أجلهم ✽ سبحانك اللهم ياذا الجلال

استمرت هذه الشدائد على بغداد وما فيها حتى استنفد الأمين كل وسائل الدفاع وأيقن بالعطب إن هو استمر على الممانعة فاستشار من بقى من قواده فأشار عليه بعضهم أن يطلب لنفسه الأمان من هرثمة بن أعين ويسلم له فرضى وكتب إلى هرثمة بذلك فأجابه إليه ولما علم طاهر بذلك أبى إلا أن يكون خروجه إليه إذا شاء ولما لم يكن الأمين ميالا إلى الخروج إلى طاهر اتفق القواد أن يخرج ببدنه إلى هرثمة وأن يدفع إلى طاهر الخاتم والقضيب والبردة ثم علم طاهر أنهم يمكرون به فاستعد للأمر وكمن حول القصر كمناء بالسلاح فلما خرج الأمين كانت حراقة هرثمة تنتظره فركبها ولم تسربهم إلا قليلا حتى خرج أصحاب طاهر فرموا الحراقة بالسهام والحجارة فانكفأت الحراقة وغرق هرثمة ومحمد الأمين فأما هرثمة فأدركه أصحابه وأما محمد فسبح فى الماء حتى أدركه أصحاب طاهر فأسروه فأمرهم طاهر بقتله فقتل ليلة الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ١٩٨ وفى الصباح كتب طاهر إلى إلى المأمون يخبره بما تم وبالأسباب التى جعلته يأمر بقتل الأمين . ثم دخل طاهر المدينة فأمن أهلها وهدأ الناس وكان دخوله إليها يوم الجمعة فصلى بالناس وخطبهم خطبة بليغة حضهم فيها على الطاعة ولزوم الجماعة ورغبهم فى التمسك بحبل الطاعة

وانصرف إلى معسكره

بذلك انتهى الفصل الأول من هذه الحادثة الشنيعة التى فرقت بين الأمة وأحدثت هذه الثورة الهائلة

أما سببها وتبعتها فعائدان إلى هارون الرشيد أولا ثم إلى الفضل بن الربيع ثانيا . أما الرشيد فانه غلط فى فعله غلطات الأولى أنه ولى عهده أولا محمدا الأمين والمأمون أسن منه ولم يكن مايزيد الأمين إلا أنه ابن زبيدة وليس هذا من الأسباب المرجحة فى نظر العقلاء وإنما هو مرجح فى نظر الضعفاء الذين يتأثرون بالهوى . الثانية أنه لما أحس بهذه الغلطة أراد مداواتها ففعل مايزيدها شرا بتولية المأمون العهد بعد الأمين ولم يقتصر على مجرد تولية العهد بل أعطاه من الامتيازات مايجعله مستقلا تمام الاستقلال بأمر خراسان والرى عن أخيه الأمين ومن المعلوم أنه كلما كثرت الامتيازات كثرت المشاكل وأسباب الفساد والأمين والمأمون وإن كانا أخوين يتنافسان فالأول يميل أن يتمتع بسلطان الخلافة التام والثانى يميل أن يتمتع بامتيازاته تماما ولكل منهما جيش يتصرف فيه كما يرغب فلم يكن يظن أن يبقى لهذين الأخوين صفاء متى حانت وفاة الرشيد وقد أدرك المفكرون ذلك فى حياته . الثالثة أنه لم يقتصر عليهما فى ولاية العهد فأضاف إليهما أخا ثالثا وأعطاه من الامتيازات فى الجزيرة وأرمينية ما أعطى المأمون فى خراسان فجرأ ذلك الأمين على نقض العهد لأنه نظر فرأى نفسه مقصوص الجناحين منزوعا منه السلطان فى أعظم بقاع الاسلام وأكثرها أعوانا وجندا . الرابعة أنه اغتر بالفضل بن الربيع الذى جرأه على إفساد ملكه بقتل البرامكة والحرمان من مقدرتهم وكفاءتهم ولم يتبين له خبث نية الرجل واستمر على الاستعانة به حتى عاد سيرته الأولى فى عهد الأمين فانه هو الذى اجتهد فى إغرائه بأخيه لأنه ظن أن المأمون إذا تولى أخذه بتبعة نكثه لعهده مع الرشيد وسيره بالجنود التى كانت مع الرشيد إلى بغداد مع أن الرشيد عهد بها إلى المأمون فمازال يحتال فى الافساد حتى أوقع هذه الاضطرابات . ولما اشتد الأمر على الأمين لم يفده فائدة بل اختفى وكان كالشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين

يضاف إلى ذلك كله ما فى طباع الخلفاء من ميلهم إلى أن يكون بعدهم فى الخلافة

أبناؤهم فهم يحتالون بكل مافى وسعهم إلى إخراج إخوتهم أو بنى أعمامهم من العهد إن كان ولم نر خليفة له ابن فلم يسع له ذلك السعى ولم نجد عهدا أو عقدا منع من ذلك حتى كان هذا مجرئا للخلفاء على عدم الاعتناء بالعهود المكتوبة وصاروا يفتحون لها من أبواب الحيل مايبيح لهم عدم التمسك بها والرشيد نفسه يعلم ذلك بما وقع له من أخيه الهادى وقد كاد يظفر به ويخرجه من ولاية العهد لولا أن المنية غلبت مع أن الرشيد لم يكن له شيء من الامتياز أعطاه إياه المهدى أبوه نسأل الله السلامة من عدم الاعتبار والاتعاظ فهما المهلكة العامة .

صفات الأمين

امتدت ألسنة الكتاب والشعراء بعد خلع الأمين وقتله إلى القدح فيه وتعديد مثالبه التى أودت به وهذه سنة قديمة أن الناس مع من يساعده القدر فهم أبدا مع القاهر على المقهور لأن للقوة سلطانا على النفوس لايغالب وهذا نموذج مما قيل فى هجاء الأمين :

لم نبكيك لماذا للطرب * ياأبا موسى وترويج اللعب
ولترك الخمس فى أوقاتها * حرصا منك على ماء العنب
وشنيف أنا لاأبكى له * وعلى كوثر لاأخشى العطب
لم تكن تعرف ماحد الرضا * لا ولا تعرف ماحد الغضب
لم تكن تصلح للملك ولم * تعطك الطاعة بالملك العرب
أيها الباكى عليه لابكت * عين من أبكاك إلا للعجب
لم نبكيك لما عرضتنا * للمجانيق وطورا للسلب
ولقوم صيرونا أعبدا * لهم يبدو على الرأس الذنب
فى عذاب وحصار مجهد * سدد الطرق فلا وجه طلب
زعموا أنك حى حاشر * كل من قد قال هذا قد كذب
ليت من قد قاله فى وحدة * من جميع ذاهب حيث ذهب
اوجب الله علينا قتله * فاذا ماأوجب الأمر وجب
كان والله علينا فتنة * غضب الله عليه وكتب

ومع هذا فقد رثاه كثير من الشعراء ومدحوه وسنترك هذا وهذا ونفحص صفاته من أعماله

أول ماعرف من عمل الأمين إرادته الغدر بأخيه والرمى بعهد الرشيد وراء ظهره فقد أخذ العهدين من البيت الحرام ومزقهما تمزيقا غير ناظر إلى ماوراء ذلك من العواقب الوخيمة فى نظر الجمهور إذ ليس أعظم فى نظر المسلم من انتهاك حرمه البيت المقدس ولاانتهاك أعظم من إفساد أمر دبر فيه وجعل البيت الحرام حارسا عليه على أن الغدر فى ذاته بقطع النظر عن ذلك كله قبيح وضار بحياة الأمة الأدبية فلا غرابة أن رأينا جمهور الأمة فى صف أخيه

ولما دخل هذا المدخل الوعر المسلك لم يسر فيه بشيء من الحزم ولابعد النظر بل كان أول قائد ولاه حرب أهل خراسان أعدىعدولهم من جربوه فوجدوه ظالما عاتيا يستحل أموالهم ويضرب أبشارهم وهو على بن عيسى بن ماهان أمير خراسان فى عهد الرشيد فكان ذلك مما زاد أهل خراسان جدا فى محاربته والضربة الأولى مما يدخل الوهن والخذلان على المضروب ويزيد فى حماسة الغالب وتفاؤله بالمستقبل

ومع هذا الغلط كان الأمين مشتغلا عن تدبير أمره بما كان فيه من اللهو والعبث شتان بين تدبيره وتدبير أخيه فبينا كان هو على هذه الطريق كان أخوه المأمون بمرو يجمع إلى مجلسه العلماء والفقهاء ويجلس معهم كما يجلسون ويتكلم معهم فى الفقه والأدب والحديث حتى أشربت قلوبهم محبته ولايخفى مالهذا من التأثير فى قلوب الجمهور

يقال إن محمدا لما تولى وجه إلى جميع البلدان فى طلب الملهين وضمهم إليه وأجرى لهم الأرزاق ونافس فى ابتياع فره الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم وقسم مافى بيوت الأموال ومابحضرته من الجوهر فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه وحمل إليه ما كان فى الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى ورقة كلواذى وباب الأنبار ونبارى والهوب وأمر بعمل خمس حراقات فى دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس وأنفق فى عملها مالا عظيما فقال أبو نواس يمدحه

سخر الله للأمين مطايا ۞ لم تسخر لصاحب المحراب

فاذا ما ركابه سرن برا * سار فى الماء راكبا ليث غاب
أسدا باسطا ذراعيه يهوى * أهرت الشدق كالح الأنياب
لايعانيه باللجام ولا السو * ط ولاغمز رجله فى الركاب
عجب الناس إذ رأوك على صو * رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه * كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحا * حين تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء إذا ماا * ستعجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للأمين وأبقا * ه وأبقى له رداء الشباب
ملك تقصر المدائح عنه * هاشمى موفق للصواب

وجميع ماوقفنا عليه من أخبار الأمين وسيره أنه كان يميل جدا إلى اللهو والغناء والشرب حتى أقعده ذلك عن حسن التدبير لأموره هذا مع أنه ممتاز على بنى العباس قاطبة بأنه هاشمى الأبوين ولكن ليس بحسن الأنساب تعلو الرجال وإنما علوها بحسن الفعال.

٧ — المأمون

هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بن محمد المهدى . وأمه أم ولد اسمها مراجل ولد سنة ١٧٠ فى اليوم الذى ولى فيه أبوه الخلافة . وولاه أبوه العهد وسنه ١٣ سنة بعد أخيه الأمين وضمه إلى جعفر بن يحي وولاه خراسان ومايتصل بها إلى همذان ومنحه بمقتضى الشروط التى عقدها استقلالا يكاد يكون تاما . ولما توفى أبوه لم يف له أخوه بعده بل أراد أن يقدم عليه فى ولاية العهد ابنه موسى فأبى ذلك المأمون وكان من وراء ذلك الحروب الفظيعة التى قصصنا خبرها وهى التى انتهت بقتل الأمين فى ٢٥ محرم سنة ١٩٨ (٥ سبتمبر سنة ٨١٣)

بويع المأمون بالخلافة العامة فى ذلك التاريخ واستمر خليفة إلى أن توفى غازيا بطرسوس فى ١٩ رجب سنة ٢١٨ (١٠ أغسطس سنة ٨٣٣) فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام . أقام منها ببلاد خراسان من تاريخ ولايته إلى منتصف صفر سنة ٢٠٤ وهو تاريخ قدومه بغداد وأقام الباقى ببغداد حاضرة الخلافة العباسية

وكان يعاصره فى بلاد الأندلس الحكم بن هشام ثالث أمراء بنى أمية (١٨٠ — ٢٠٦) ثم ابنه عبد الرحمن الثانى (٢٠٦ — ٢٣٨)

ويعاصره فى بلاد المغرب الأقصى إدريس بن إدريس بن عبد الله سنة (١٨٨ — ٢١٣) ثم ابنه محمد بن إدريس (٢١٣ — ٢٢١)

ويعاصره فى إفريقية من بنى الأغلب عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب (١٩٦ — ٢٠١) ثم ابنه زيادة الله بن إبراهيم فاتح صقلية (٢٠١ - ٢٢٣)

ويعاصره فى فرنسا شارلمان صديق أبيه وقد توفى سنة ٨١٤ ثم لويز الأول الملقب باللين

ويعاصره فى القسطنطينية ليون الأرمنى (٨١٣ - ٨٢٠) ثم ميخائيل الثانى الملقب بالتمتام ثانى مرة (٨٢٠ - ٨٢٩) ثم ابنه توفيل (٨٢٩ - ٨٤٢)

الأحوال فى المدة الأولى

لما تم الأمر للمأمون بالعراق على يد القائدين العظيمين طاهر بن الحسين وهرثمة ابن أعين كان الذى يدبر الأمر بمرو الفضل بن سهل الذى يرى لنفسه الفضل الأكبر فى تأسيس دولة المأمون فأراد أن يستفيد من هذه الدولة فيستأثر بنفوذ الكلمة فيها وليس يتم له ذلك والعراق بين يدى طاهر وهرثمة فأصدر أمرين على لسان المأمون أولهما بتولية الحسن بن سهل جميع ماافتتحه طاهر من كور الجبال وفارس والاهواز والبصرة والكوفة والحجاز واليمن . وكتب إلى طاهر أن يسلمه جميع مابيده من الأعمال وأن يشخص إلى الرقة لمحاربة نصر بن شبث وولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب فلم يسع طاهرا إلا أن يسمع ويطيع فسلم ذلك كله

والأمر الثانى إلى هرثمة يأمره بالشخوص إلى خراسان فشخص — وبذلك خلا العراق من أسديه وأهل العراق من قديم عبيد القوة ولاسيما أنهم خارجون من ثورة وهيجان فكان من اللازم أن تظل تلك الأيدى المرهوبة حتى يستكين الناس ويخضعوا

ولم يبق المأمون بعد ذلك بخراسان . هل كان الفضل بن سهل يريد أن يحول

الخلافة الاسلامية إلى مرو فيجعلها حاضرة البلاد الاسلامية أو رأى أن نفوذه يضعف إذا حل الخليفة بغداد وبها الألسنة التى لاتمل الوشايات نخشى من ذلك على مركزه . سواء أكان السبب فى تخلفه هذا أو ذاك فقد نتج عن هذا التدبير مضار شديدة واضطرابات كادت ترجع ملك المأمون أثرا بعد عين

شاع بالعراق بعد خروج طاهر وولاية الحسن بن سهل أن الفضل بن سهل قد غلب على المأمون وأنزله قصرا حجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده وأنه يبرم الأمور على هواه فغضب لذلك من كان بالعراق من بنى هاشم ووجوه الناس وأنفوا من غلبة الفضل على المأمون واستخفوا بالحسن بن سهل وهاجت الفتن فى الأمصار

وأول فتنة كانت خروج محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن على خرج بالكوفة وقام بأمر رجل كبير من رجال هرثمة بن أعين وهو أبو السرايا السرى بن منصور الشيبانى فاستولى على الكوفة من يد نائب عاملها سليمان بن أبى جعفر المنصور فأرسل إليه الحسن بن سهل جيشا يقوده زهير بن المسيب عشرة آلاف فهزمه أبو السرايا واستباح عسكره وأخذ ما كان معه من مال وسلاح ودواب وفى غد ذلك اليوم مات محمد بن إبراهيم فجأة وذلك يوم الخميس أول رجب سنة ١٩٩ فولى أبو السرايا بدله غلاما أمرد حدثا وهو محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين بن على وكان أبو السرايا هو الذى ينفذ الأمور ويولى من رأى ويعزل من شاء وإليه الأمور كلها

أرسل الحسن جيشا ثانيا بقيادة عبدوس بن محمد بن أبى خالد المروروذى فتوجه إليه أبو السرايا وأوقع به وقعة فى ١٧ رجب سنة ١٩٩ فقتله وأسر أخاه هارون واستباح عسكره وكانوا نحو أربعة آلاف رجل فلم يفلت منهم أحد

انتشر بعد ذلك الطالبيون فى البلاد وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة ونقش عليها (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص)

أفاق الحسن بن سهل من غفلته لما وجد قواده لا يغنون عنه شيئا وكلما وجه أحدهم لحرب أبى السرايا عاد مهزوما فوجه فكرته إلى هرثمة بن أعين مفضلا إياه على طاهر بن الحسين وكان هرثمة قد توجه إلى خراسان مغاضبا للحسن بن سهل وكان قد وصل حلوان فبعث إليه يسأله الانصراف إلى بغداد لحرب أبى السرايا فأبى

فأعاد عليه الرسالة متلطفا فأجاب وانصرف إلى بغداد فقدمها فى شعبان سنة ١٩٩ وتهيأ للخروج إلى الكوفة وتهيأ معه جند اختاره فمر على المدائن واستولى عليها من يد عمال أبى السرايا ثم التقى الفريقان عند قصر ابن هبيرة فقتل من أصحاب أبى السرايا مقتلة عظيمة . ثم ألح عليه هرثمة بالحرب حتى لم يعد قادرا على حماية الكوفة التى هى قاعدة أعماله فهرب عنها هو ومن معه من الطالبيين وسار إلى القادسية فى محرم سنة ٢٠٠ ودخل هرثمة الكوفة وأمن أهلها ولم يعرض لأحد منهم ثم بارحها مساء ذلك اليوم

ترك أبو السرايا مكانه بالقادسية وسار حتى أتى السوس من بلاد فارس فلقيه هناك الحسن بن على الباذغيسى المعروف بالمأمونى فقاتله وهزمه واستباح عسكره وجرح أبو السرايا جراحا شديدة فهرب مريدا منزله برأس العين من الجزيرة فعثر به فى الطريق هو ومن معه وجىء بهم إلى الحسن بن سهل وكان مقيما بالنهروان فضرب عنقه وصلب جسده ببغداد . وكان بين خروجه بالكوفة ومقتله عشرة أشهر .

ثم أخذت البصرة من يد عاملها لأبى السرايا وهو زيد بن موسى بن جعفر وكان يقال له زيد النار لكثرة ما أحرق من دور البصرة وكان إذا أتى برجل من المسودة كانت عقوبته عنده أن يحرق بالنار فأخذ أسيرا وأمن

وكان للطالبيين فى تلك الفتن أسوأ أثر بمكة والمدينة فان أبا السرايا كان قد ولى مكة حسين بن حسن بن على بن الحسين بن على وكان بها داود بن عيسى بن موسى العباسى واليا فلم يرض القتال فى الحرم وخرج عن مكة فدخلها الحسين قبل مغرب يوم عرفة ولما تفرق الحاج من مكة جلس خلف المقام على نمرقة مثنية فامر بثياب الكعبة التى عليها فجردت حتى لم يبق عليها من كسوتها شيئا ثم كساها ثوبين من خز رقيق كان أبو السرايا وجه بهما معه مكتوب عليهما (أمر به الأصفر بن أبى الأصفر أبو السرايا داعية آل محمد لكسوة بيت الله الحرام وأن يطرح عنه كسوة الظلمة من ولد العباس ليطهر من كسوتهم وكتب سنة ١٩٩) ثم قسم الكسوة التى كانت على الكعبة بين أصحابه وعمد إلى ما فى خزانة الكعبة من مال فأخذه ولم يسمع بوديعة عند أحد لبنى العباس وأتباعهم إلا هجم عليه فى داره فان وجد من ذلك شيئا أخذه

وعاقب الرجل وإن لم يجد عنده شيئاً حبسه وعذبه حتى يفتدى نفسه بقدر طوله ويقر عنده الشهود أن ذلك المسودة من بنى العباس وأتباعهم حتى عم ذلك خلقا كثيرا وكان لهم دار اسمها دار العذاب يعذب فيها الناس حتى هرب منهم خلق كثير من أهل النعم فتتبعوهم بهدم دورهم وجعلوا يحكون الذهب الرقيق الذى فى رؤس أساطين المسجد فيخرج من الاسطوانة بعد التعب الشديد قدر مثقال ذهب أو نحوه حتى عم ذلك أكثر اساطين المسجد الحرام وقلعوا الحديد الذى على شبابيك زمزم وخشب الساج فبيع بالثمن الخسيس

وما زالوا على تلك الحال حتى بلغهم قتل أبى السرايا وأن من بالكوفة والعراق من الطالبيين قد طردوا فاجتمعوا إلى محمد بن جعفر الصادق وكان شيخا وادعا محببا فى الناس مفارقا لما عليه أكثر أهل بيته من قبح السيرة وكان يروى العلم عن أبيه وطلبوا إليه أن يبرز شخصه ليبايعوه بالخلافة فأجاب بعد تردد وحشر إليه الناس فبايعوه طوعا وكرها وسموه أمير المؤمنين فأقام على ذلك أشهرا وليس له من الأمر إلا اسمه وابنه على وحسين بن حسن أسوأ ما كانوا سيرة وأقبح ما كانوا فعلا حتى تعدوا الأموال إلى الأعراض

أراد الله أن يفرج عن أهل مكة ماهم فيه فقدم عليهم إسحاق بن موسى بن عيسى مقبلا من اليمن فقاتل العلويين أياما ثم بارح مكة فلقيه البعث الذى أرسله هرثمة لتخليص مكة فعاد معهم وكان رئيس البعث ورقاء بن جميل فقاتلوا العلويين حتى هزموهم وطلب محمد بن جعفر الأمان له ولمن معه حتى يخرجوا من مكة ويذهبوا حيث شاؤا فأجيبوا وأمهلوا ثلاثة أيام فلما انتهت دخلت الجنود العباسية مكة وذهب كل فريق من العلويين إلى ناحية

أما فى اليمن فكان قد خرج فيها إبراهيم بن موسى بن جعفر وكان واليها إسحاق بن موسى بن عيسى فلما سمع باقبال إبراهيم ترك له صنعاء وانصرف مقلدا عمه داود بن عيسى فى مكة فاستولى إبراهيم على اليمن وكان يقال له الجزار لكثرة من قتل باليمن من الناس . وفى موسم سنة ٢٠٠ وجه بعض ولد عقيل بن أبى طالب من اليمن فى جند كثيف ليحج بالناس وكان الذى ولى إمرة الحج من العباسيين أبا إسحق بن الرشيد ومعه كثير من القواد فلما وصل العقيلى إلى بستان ابن عامر بلغه

أمر من بمكة فتوقف بالبستان فمرت به قافلة من الحاج والتجار وفيها كسوة الكعبة وطيبها فأخذ أموال التجار وكسوة الكعبة وطيبها وقدم الحاج مكة عراة مسلبين . بلغ أبا إسحق أمر العقيلي فأرسل إليه أحمد قواده فلقيه بالبستان فأسر أكثر من معه وهرب من هرب منهم يسعى على قدميه ورد إلى الحاج ما كان أخذ منهم وعاد بكسوة الكعبة ثم عاقب كلا من هؤلاء الأسرى بعشرة أسواط وخلاهم فذهبوا يستطعمون الناس فى الطريق حتى هلك أكثرهم جوعا

انتهت هذه الفتن العلوية التى عادت بالضرر على البلاد والعباد والفضل فى انتهاء أمرها لهرثمة بن أعين القائد المحنك . ولما فرغ هرثمة من أداء تلك المهمة أراد أن يتوجه إلى المأمون بمرو ليطلعه على حقيقة الحال وماينكره الناس عليه من استبداد الفضل بن سهل على أمره ولم يكن ذلك مما يروق فى عين الفضل فأفهم المأمون أن هرثمة قد أفسد البلاد وأنه هو الذى دس إلى أبى السرايا حتى صنع ماصنع ولو شاء ألا يفعل ذلك أبو السرايا مافعل لأنه كان من ضمن جنوده . وكان المأمون قد كتب لهرثمة كتبا من الطريق ليرجع ويلى الشام والحجاز فأبى هرثمة أن يرجع حتى يرى أمير المؤمنين ويبين له حقيقة الحال فكان ذلك مازاد المأمون وحشة منه . ولما بلغ هرثمة مرو خشى أن يكتم المأمون خبر قدومه فضرب الطبول كى يسمعها المأمون فلما سمعها سأل فقالوا هرثمة جاء يبرق ويرعد وظن هرثمة أن قوله المقبول فأدخل على المأمون وقد أشرب قلبه منه ماأشرب فلم يسمع منه كلمة وأمر به فوجىء عنقه وديس بطنه وسحب بين يديه وقد تقدم الفضل إلى الأعوان بالتغليظ عليه والتشديد فمكث فى حبسه أياما ثم دسوا إليه فقتلوه وقالوا إنه مات . هكذا ذهب هذا القائد العظيم من غير جناية ضحية خبث البطانة

ولما بلغ أهل بغداد ماصنع بهرثمة هاج الجند الحربية بها وثاروا على الحسن بن سهل فأخرجوا ولاته من بغداد واستخفوا بأمر المأمون ولم يكن عند الحسن مايقدر به على عمل لضعفه وسوء رأيه . ثم عمد أهل بغداد إلى منصور بن المهدى وطلبوا إليه أن يبايعوه بالخلافة ويخلعوا المأمون فأبى ذلك عليهم فطلبوا إليه ان يكون عليهم أميرا وأن يدعو للمأمون وقالوا لانرضى بالمجوسى ابن المجوسى الحسن بن سهل ونطرده حتى يرجع إلى خراسان فقبل وتولى أمر بغداد إلا أنها على كل حال كانت خالية

من جيش قوى يأخذ على أيدى المفسدين من أهلها فنتج عن ذلك الفساد الشديد فان فساق الحربية والشطار الذين كانوا بها وبالكرخ آذوا الناس أذى شديدا وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطريق وكانوا يسألون الرجل أن يقرضهم أو يصلهم فلا يقدر على الامتناع وكانوا يجتمعون فيأتون القرى فيكاثرون أهلها ويأخذون ماقدروا عليه من متاع ومال وغير ذلك لاسلطان يمنعهم لأن السلطان كان يعتز بهم وكانوا بطانته فلا يقدر أن يمنعهم من فسق يرتكبونه وكانوا يجبون المارة فى الطرق والسفن وعلى الظهر ويخفرون البساتين ويقطعون الطرق علانية ولا أحد يعدو عليهم. رأى الناس شدة هذا البلاء وضعف السلطان عن حمايتهم فقام صلحاء كل ربض وكل درب فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا إنما فى الدرب الفاسق والفاسقان إلى العشرة وقد غلبوكم وأنتم أكثر منهم فلو اجتمعتم حتى يكون أمركم واحدا لقمعتم هؤلاء الفساق. فقام رجل من ناحية طريق الأنبار اسمه خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل محلته إلى أن يعاونوه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأجابوه إلى ذلك وشد على من يليه من الفساق والشطار فمنعهم مما كانوا يسنعون فامتنعوا عليه فقاتلهم وهزمهم وأخذ بعضهم فضربهم وحبسهم ورفعهم إلى السلطان وكان لايرى من حقه الاعتداء على السلطان. ثم قام من بعده آخر اسمه سهل بن سلامة الأنصارى فدعا الناس إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وعلق مصحفا فى عنقه ثم بدأ بأهل جيرانه ومحلته فأمرهم ونهاهم فقبلوا منه ثم دعا الناس جميعا إلى ذلك الشريف منهم والوضيع بنى هاشم ومن دونهم وجعل له ديوانا يثبت فيه من أتاه منهم فبايعه على ذلك خلق كثير ثم طاف بغداد أسواقها وأرباضها ودروبها وطرقها ومنع كل من يخفر ويجبى المارة وقال لاخفارة فى الاسلام — والخفارة أن يأتى الرجل بعض أصحاب البساتين فيقول بستانك فى خفرى أدفع عنه من أراده بسوء ولى فى عنقك كل شهر كذا وكذا درهما فيعطيه ذلك شاء أم أبى

لم يكن سهل والدريوش على وفاق لأن مقصد الدريوش كان معاونة السلطان فى القبض على أيدى المفسدين ولا يعيب عليه شيئا ولا يقاتله ولا يأمره بشىء ولا ينهاه أما سهل فيظهر أنه كان ذا أطماع قال إنى أقاتل من خالف الكتاب والسنة سلطانا كان أو سوقة فقد جعل نفسه بذلك فوق الجميع وكثرت أتباعه حتى خافه الولاة

وخافه منصور بن المهدى الذى أقامه العراقيون أميرا

ونحن نرى أن عمل هذين الرجلين وتكوين هـذه الجمعية من أحسن مايفـكر فيه العقلاء فى مثـل ظروفهم لأن ذلك منع من وجود الفتنة الأهلية التى تقارن هـذه المفاسد عادة

كل ذلك كان والمـأمون فى مرو لا يصل إليه شىء من أخبار حاضرة الخلافة وقد حجبه الفضل بن سهل فلا يوصل إليه إلا مايشتهى

ومما كان فى تلك الآونة أن المـأمون اختار لولاية عهـده عليا الرضا بن موسى ابن جعفر الصادق وهو الثامن من أئمـة الشيعة الامامية الاثنى عشرية وسماه الرضا من آل محمد وأمر جنـده بطرح السواد شعار العباسيين ولبس ثياب الخضرة الذى اختاره شعارا للدولة الجديدة وكتب بذلك إلى الآفاق ويغلب على الظن أن هـذا من عمل الفضل بن سهل لأن الفرس يعجبهم أن يكون إمام المسلمين علويا وطالما قاتلوا فى سبيل رجوع السلطان إلى بنى على وهذه فرصة يأخذون فيها الخـلافة من غير حرب ولا قتال وساعد على ذلك ما كان يراه المـأمون نفسه من تفضيـل على على غـيره من الخلفاء الراشـدين وأنه كان أحق بالخـلافة منهم ولا نرى ذلك جاء المـأمون إلا من البيئة التى تربى فيها فانه كان فى أول أمره فى حجر جعفر البرمكى ثم انتقل إلى الفضل بن سهـل وكلهم ممن يتشيع فاختمرت عنده هـذه الفـكرة على غير ما كان عليه آباؤه

بلغ ذلك أهـل بغداد فاختلفوا فقال بعضهم نبايع ونلبس الخضرة وقال بعضهم لانبايع ولا نلبس الخضرة ولا نخرج هذا الأمر من ولد العباس وإنمـا هذادسيس من الفضل بن سهل فمكثوا على ذلك أياما وغضب ولد العباس من ذلك واجتمع بعضهم إلى بعض وتكلموا فيه وقالوا نولى بعضنا ونخلع المـأمون واتفقوا أخـيرا على مبايعة إبراهيم بن المهـدى عم المـأمون بالخـلافه وخلعوا المـأمون وكان ذلك فى أول المحرم سنة ٢٠٢ فتغلب إبراهيم مع أهل بغداد على الكوفة والسواد كله وعسكر بالمدائن وولى الجانب الشرقى من بغداد العباس بن الهادى والجانب الغربى إسحاق بن الهادى . وتغلب على سهل بن سلامة المتطوع بعد أن تركه من معه

بلغت هذه الأحوال المأمون ويقال إن الذى أبلغه إياها على الرضا ولى عهده فانه

أخبره بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار وأن أهل بيته قد نقموا عليه أشياء فبايعوا لابراهيم بن المهدى بالخلافة — فقال له المأمون إنما بايعوه ليكون اميرا لهم يقوم بأمرهم على ما أخبره به الفضل — فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه وأن الحرب قائمة بين إبراهيم بن المهدى والحسن بن سهل وأن الناس ينقمون عليه مكانه ومكان أخيه ومكانى ومكان بيعتك لى من بعدك وسمى له عدة من القواد يشهدون بما قال فأحضرهم المأمون وسألهم فأخبروه بالخبر على وجهه بعد أن أعطاهم أمانا من الفضل بن سهل وأخبروه بما موه عليه الفضل فى أمر هرثمة وأن هرثمة إنما جاء ناصحا ليبين له مايعمل وأنه إن لم يتدارك الأمر خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته وأن الفضل دس إلى هرثمة من قتله وأن طاهر بن الحسين قد أبلى فى طاعته ما أبلى حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله وصير فى زاوية من الأرض بالرقة قد حظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره فشغب عليه جنده وأنه لو كان على خلافتك ببغداد اضبط الملك ولم يجترأ عليه بمثل ما اجترىء به على الحسن بن سهل وأن الدنيا قد تفتقت من أقطارها وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد فان بنى هاشم والموالى والقواد والجنود لو رأوك سكنوا وفاؤا بالطاعة لك

لما تحقق ذلك المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد . ولم يسلم هؤلاء القواد من شر الفضل بل عاقبهم بالحبس والطرد فراح على الرضا إلى المأمون وأعلمه بما كان من ضمانه لهم فأعلمه أنه يدارى ماهو فيه

ارتحل المأمون من مرو حتى أتى سرخس وهناك شد قوم على الفضل بن سهل وهو فى الحمام فضربوه بسيوفهم حتى مات وذلك فى ٢ شعبان سنة ٢٠٢ فأخذ ضاربوه وهم أربعة من خدم المأمون فلما جىء بهم إليه قالوا أنت أمرتنا بقتله فأمر بهم فضربت أعناقهم . وسوابق الفعلة تؤكد أن صدورها كان بتدبير المأمون لأنه أحس بثقل يد الفضل عليه وبما كان من غشه له وأنه مادام معه لا يرى من أهل بغداد طاعة فاحتال بهؤلاء الخدم ثم قتلهم وبعث برءوسهم إلى الحسن بن سهل وعزاه وأخبره أنه صيره مكانه

رحل المأمون من سرخس يوم عيد الفطر وكان هذا الرحيل سببا لاختلاف القواد ببغداد على إبراهيم بن المهدى لأن السبب الذى من أجله خلعوا المأمون قد

زال فاضطرب أمر إبراهيم ببغداد

لما صار المأمون بطوس حدثت حادثة أخرى وهى وفاة على الرضا ويتهمون المأمون بأنه سمه وليس عندنا من البراهين ما يؤكد هذه التهمة لأنه بقدر ما يقربها إرادة المأمون التقرب إلى أهل بغداد والعباسيين بالتخلص منه يبعدها ما كان مغروسا فى نفس المأمون من محبة آل أبى طالب وأنه صاهر عليا وأن عليا هو الذى أظهر له حقيقة ما كان يدور بالعراق من الفتن ولا يبعد عندى أنه من فعل بعض البطانة المأمونية ليخففوا عن المأمون اضطراب العباسيين ويخلصوا مما يعتقدونه شرا وهو خروج الخلافة من آل العباس . وهناك كتب المأمون إلى بنى العباس والموالى وأهل بغداد يعلمهم موت على بن موسى

رحل المأمون من طوس إلى الرى وهناك تحبب إلى أهلها باسقاط ألفى ألف درهم من خراجها . وكان كلما قرب من بغداد زاد الاضطراب على إبراهيم بن المهدى وقام القواد فى وجهه حتى كتبوا إلى قائد من قواد الحسن بن سهل يطلبون إليه الحضور ليسلموا إليه بغداد فلم يلبث أن حضر وسلم له جند بغداد المدينة وأعلن خلع إبراهيم بن المهدى والدعوة للمأمون فاختفى إبراهيم ليلة الأربعاء ١٧ ذى الحجة سنة ٢٠٣ فكانت أيامه كلها ببغداد سنة واحدة وأحد عشر شهراً واثنى عشر يوما

مازال المأمون ينتقل من منزلة إلى منزلة حتى وصل النهروان وهناك خرج إليه أهل بيته والقواد ووجوه الناس فسلموا عليه ووافاه طاهر بن الحسين من الرقة لأنه أمره بذلك وفى يوم السبت لأربع عشرة بقيت من صفر سنة ٢٠٤ دخل مدينة بغداد ولباسه ولباس أهله الخضرة أقبيتهم وقلانسهم وأعلامهم فلبس ذلك أهل بغداد وبنو هاشم أجمعون . ومكثوا على ذلك ثمانية أيام فتكلم فى ذلك بنو هاشم وولد العباس خاصة وقالوا له يا أمير المؤمنين تركت لباس آبائك وأهل بيتك ودولتك ولبست الخضرة وكتب إليه فى ذلك قواد أهل خراسان وسأله طاهر بن الحسين أن يرجع إلى لبس السواد فلما رأى المأمون طاعة الناس له فى لبس الخضرة وكراهتهم لها قعد لهم وعليه ثياب خضر فلما اجتمعوا عنده دعا بسواد فلبسه ودعا بخلعة سواد فألبسها طاهرا ثم دعا بعدة من قواده فألبسهم أقبية وقلانس سودا فلما خرجوا من عنده وعليهم السواد طرح سائر القواد والجند لبس الخضرة ولبسوا السواد

ابتدأ من ذلك الوقت ملك المأمون الحقيقى

المأمون ببغداد

أشرقت شمس أبى العباس عبد الله المأمون ببغداد حاضرة آبائه ومن ذلك الوقت ابتدأ ملكه الحقيق وتجلت مزاياه العالية وأخلاقه التى لم يشابهه فيها أحد من أهل بيته وساس الأمة سياسة لين لا يشوبه ضعف وقوة لايشوبها عنف وأخذت بغداد تستعيد نضرتها التى كانت لها فى عهد أبيه وعظمت بها الحركة العلمية لما كان من من ميل المأمون الشديد إلى تقوية تلك الحركة وسنبين ذلك فى فصل خاص إن شاء الله بعد أن ننتهى من بيان الحالة الداخلية

الوزارة فى عهد المأمون

أول وزراء المأمون الفضل بن سهل وهو فارسى الأصل أسلم على يد المأمون سنة ١٩٠ ويقال إن أباه سهلا أسلم على يد المهدى والذى اختار الفضل للمأمون هو الرشيد باشارة جعفر بن يحيى . فكان مدبر أمره وهو ولى عهد ولما فعل الأمين مافعل دبر الفضل أمر إرسال الجنود وتدبير مايلزمهم فأرسل طاهر بن الحسين لمحاربة على بن عيسى بن ماهان . ولما انتصر طاهر لقب الفضل ذا الرياستين وجعل له علما على سنان ذى شعبتين وكتب على سيفه من جانب رياسة الحرب ومن الجانب الآخر رياسة التدبير وولاه المأمون فى هذه السنة وهى سنة ١٩٦ على المشرق كله. وجعل عمالته ثلاثة آلاف ألف درهم (نحو ستين ألف جنيه)

ولما تم للمأمون النصر بتدبيره استولى عليه حتى ضايقه ولما كان من أمر أهل بغداد ماكان دبر المأمون عليه بسرخس من قتله وكان الفضل يتشيع حتى حمل المأمون على بيعة على الرضا بولاية العهد من بعده فجنى بذلك على نفسه وعلى على الرضا من بعده. وكان الفضل بن سهل مولعا بالنظر فى النجوم ويقال إن له إصابات كثيرة فى أمور أنبأ عنها قبل موقعها . وجميع مادبره فى أمر المأمون مع أخيه يدل على فكر سديد ورأى محكم وكان مع ذلك جيد الكتابة حسن القول سخى اليد وقد مدحه كثير من شعراء عصره

استوزر المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل أحمد بن أبى خالد وأصله شامى مولى لبنى عامر بن لؤى وكان أبوه كاتبا لعبيد الله كاتب المهدى أحضره المأمون بعد وفاة الفضل بن سهل وقال له إنى كنت عزمت ألا أستوزر أحدا بعد ذى الرياستين وقد رأيت أن أستوزرك فقال ياأمير المؤمنين . اجعل بينى وبين الغاية منزلةيتأملها صديقى فيرجوها لى ولايقول عدوى قد بلغ الغاية وليس إلا الانحطاط . فاستحسن المأمون كلامه واستوزره

وكان أحمد هذا من خيار الوزراء يحب أن تخلص قلوب الرعيةلامامه فكان دائم المشورة بما يسر أنفسهم ويسل دفين الأحقاد من صدورهم ومن طريف ماحصل منه مع المأمون أن المأمون ذكر يوما عمرو بن مسعدة فاستبطأه وقال يظن أنى لاأعرف أخباره ومايحبب إليه ومايعامل به الناس وكان أحمد حاضرا هذا المجلس فذهب إلى عمرو وأخبره الخبر . فراح عمرو الى المأمون فلما دخل عليه وضع سيفه بين يديه وقال ياأمير المؤمنين أناعائذ بالله من سخطك ثم عائذبك من سخطك ياأمير المؤمنين أناأقل من أن يشكونى أمير المؤمنين إلى أحد أويسر لى ضغنا يبعثه بعض الكلام على إظهاره مايظهر منه . فقال له وماذاك فأخبره عمرو بما بلغه ولم يسم له المخبر فقال له المأمون لم يكن الأمر كما بلغك وإنما كانت جملة من تفصيل كنت على أن أخبرك به وإنما أخرج منى هذا الكلام معنى تجاريناه وليس لك عندى إلا ماتحب فليفرخ روعك وليحسن ظنك . وظهر فى وجهه الحياء والخجل . فلما غدا أحمد على المأمون قال له أمالمجلسى حرمة . فقال ياأمير المؤمنين وهل الحرمة إلا لمافصل عن مجلسك فأخبره المأمون الخبر وأن بعض من حضر من بنى هاشم هو الذى أفشى ماقاله المأمون فقال أحمد أنا ياأمير المؤمنين أخبرت عمرا لاأحدا من بنى هاشم والذى حملنى على ذلك الشكر لك والنصح والمحبة لأن تتم نعمتك على أوليائك وخدمك أنا أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح لهالأعداء والبعداء فكيف الأولياء والقرباء لاسيامثل عمرو فى دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ومكانه من رأى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه فيه سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئا نخبرته به ليصلحه ويقوم من نفسه أودها لسيده ومولاه ويتلافى مافرط منه ولايفسده مثله ولايبطل العناء فيه وإنما كان يكون مافعلت عيبا لو أشعت سرا فيه قدح فى السلطان أو نقض تدبير قد استتب فأما

مثل هذا فما حسبته أن يكون ذنبا على . فنظر إليه المأمون مليا وقال كيف قلت فأعاد عليه ماقال ثم قال أعد فأعاد الثالثة فقال له المأمون أحسنت لما أخبرتنى به أحب إلى من ألف ألف وألف ألف وألف ألف وعقد خنصره وبنصره والوسطى وقال أما ألف ألف فلنفيك عنى سوء الظن وأطلق وسطاه وأما ألف ألف فلصدقك إياى عن نفسك وأطلق البنصر وأما ألف ألف فلحسن جوابك وأطلق الخنصر

ومن عيوب أحمد بن أبى خالد أنه كان شرها يتقرب اليه الناس بالمآكل لينالوا ماعنده من المصالح وكان المأمون يعرف ذلك منه فأجرى عليه كل يوم لمائدته الف درهم لئلا يشره إلى طعام أحد من بطانته وكان مع هذا يشره إلى طعام الناس وتمتد عينه إلى هدية تأتيه وكان مع هذا أسى اللقاء عابس الوجه يهر فى وجوه الخاص والعام غير أن فعله كان أحسن من لقائه وكان من عرف أخلاقه وصبر على مداراته نفعه وأكسبه

ومن الغريب أن يتفق لشخص الشراهة إلى طعام الناس وكثرة العطايا التى كان يمنحها من خاص ماله وقد روى عنه أبو الفضل أحمد بن طاهر بن طيفور فى أخبار بغداد أنه كان يقول يهدى إلى الطعام فوالله ما أدرى ماأصنع به يهديه إلى صديق أستحى من رده عليه

توفى أحمد بن أبى خالد فى ذى القعدة سنة ٢١١ وصلى عليه المأمون ولما دلى فى حفرته ترحم عليه وقال أنت والله كما قال القائل

أخو الجد إن جد الرجال وشمروا * وذو باطل إن كان فى القوم باطل

استوزر المأمون بعده أحمد بن يوسف . كان كاتبا من خيرة الكتاب وأجودهم خطا حتى قال له المأمون يوما ياأحمد لوددت أنى أخط مثل خطك وعلى صدقة ألف الف درهم وكان يجيد الكتابة حتى كان المأمون إذ كان يتولى عمرو بن مسعدة ديوان الرسائل كان يكلف أحمد بن يوسف بكتابة الكتب التى يريد أن تشهر وتذكر وولاه المأمون ديوان السر وبريد خراسان وصدقات البصرة . ولما مات أحمد بن أبى خالد استوزره مكانه أوكان من بطانة المأمون من يحسد أحمد بن يوسف على الدرجة التى وصل اليها من المأمون فكادوا له المكايد حتى أقصوه عن قلبه وقد أردت أن أبين لحضراتكم الطريقة الدنيئة التى اتبعوها مع هذا الوزير الذى لم يجدوا فيه عيبا من جهة

عمله . كان المأمون يستدعى أحمد بن يوسف سحرا لقضاء الأمور معه فقال أحد البطانة لخادم ممن يقوم على رأس المأمون إذا خص المأمون أحمد بن يوسف بكرامة أولون من الألوان فأعلمنى وضمن له من أجل ذلك مالا . دخل أحمد عند المأمون ذات يوم سحرا وليس عنده أحد وكان تحت المأمون مجمرة عليها بيضة عنبر كان أمر بوضعها حين دخل أحمد ولم تكن النار قد عملت فيها إلا قليلا فأراد أن يكرم بها أحمد ويؤثره بها فأمر بأن تنقل تحته . فأخبر الخادم صاحبه بذلك وهو محمد بن الخليل بن هشام فلما دخل على المأمون سأله عما تقول العامة وماتتحدث به فكان مما أخبره به أن قال انصرفت يوما فمررت بمشرعة وأنا فى الزلال (قارب) فسمعت سقاء يقول لآخر معه مارأيت كما يخبر ندماء هذا الرجل عنه فقال ومن تعنى — قال له أمير المؤمنين — قال وماذاك — قال انصرف من عنده أحمد بن يوسف فسمعته يقول لغلامه مارأيت أحدا قط أبخل ولا أعجب من المأمون دخلت عليه اليوم وهو يتبخر فلم تتسع نفسه أن يدعو لى بقطعة بخور حتى أخرج القتار الذى كان تحته فبخرنى به — فعرف المأمون الحديث وقال فى نفسه والله ماحضر هذا اليوم أحد فأتوهم فيه ضربا من الضروب — وجفا أحمد بن يوسف وأزاله عن مرتبته .

استوزر المأمون بعده القاضى يحيى بن أكثم التميمى كان من جملة العلماء الفقهاء الذين لهم قدم ثابتة فى الحديث والفقه والأصول تولى قضاء البصرة وسنة عشرون سنة ثم اتصل بالمأمون وصله به ثمامة بن أشرس العالم المتكلم الذى كان المأمون يثق به كثيرا فلما احتاج المأمون إلى من يوليه الوزارة عرضها على ثمامة فامتنع منها ووصف له يحيى فاستوزره وولاه مع ذلك قاضى القضاة فكان إليه تدبير المملكة والقضاء وقلما اجتمعا فى شخص . وكان يحيى على مذهب العامة فكان إذا أراد المأمون شيئا يخالف ماهم عليه احتال فيما يرجعه عنه . أراد المأمون أن يعلن يوما حل المتعة وهو شىء نهى عنه عمر بن الخطاب فدخل عليه يحيى وهو متغير فسأله المأمون عن سبب تغيره فقال غم ياأمير المؤمنين لما حدث فى الاسلام وهو النداء بتحليل الزنا قال الزنا — قال نعم المتعة زنا — قال من أين قال من كتاب الله وحديث رسول الله قال الله تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) ياأمير المؤمنين زوجة

المتعة ملك يمين قال لا قال فهى الزوجة التى عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها قال لا قال فقد صار من يتجاوز هذين من العادين — وهذا الزهرى يأمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن بن محمد بن الحنفية عن أبيهما عن على بن أبى طالب قال أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادى بالنهى عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها — فسأل المأمون عن حديث الزهرى أهو محفوظ فعلم أنه رواه مالك فقال المأمون أستغفر الله وأمر فنودى بتحريم المتعة . وكان يحيى مع فقهه من أدهى الناس وأخبرهم بالأمور فصيحا جوابه على قدر سؤال سائله لقيه مرة رجل فقال أصلح الله القاضى كم آكل قال فوق الجوع ودون الشبع — قال فكم أضحك قال حتى يسفر وجهك ولا يعلو صوتك — قال فكم أبكى قال لا تمل من البكاء من خشية الله تعالى — قال فكم أخفى عملى قال مااستطعت — قال فكم أظهر منه قال مقدار مايقتدى بك البر الخير ويؤمن عليك قول الناس

وكان يحيى من المحدثين الذين يروى عنهم الحديث وقداتهم بهنات لم يثبتها الناقدون من أهل عصره قال طلحة بن محمد بن جعفر فى حقه يحيى بن أكثم أحد أعلام الدنيا قد اشتهر أمره وعرف خبره ولم يستتر عن الكبير والصغير من الناس فضله وعلمه ورياسته وسياسته لأمره وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك واسع العلم بالفقه كثير الأدب حسن المعارضة قائم بكل معضلة وغلب على المأمون حتى لم يتقدمه أحد من الناس جميعا عنده . وكان المأمون ممن برع فى العلوم فعرف من حال يحيى بن أكثم وما هو عليه من العلم والعقل ماأخذ بمجامع قلبه حتى قلده قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته فكانت الوزراء لاتعمل فى تدبير الملك شيئا إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم

وذكر الخطيب فى تاريخه أنه ذكر لأحمد بن حنبل رضى الله عنه مايرميه الناس به فقال سبحان الله من يقول هذا وأنكر ذلك إنكاراشديدا ذكر ذلك ابن خلكان فى تاريخه وقال الطيفورى فى تاريخ بغداد قال أحمد بن أبى طاهر كان المأمون يحضر يحيى بن أكثم وهو يشرب فلا يسقيه ويقول لو أراد يحيى أن يشرب ماتركته وربما وضعت الصحفة قدام المامون فيها مطبوخ (نبيذ) ويحيى يأكل معه فيقول له المأمون فيها مطبوخ إنى لاأترك قاضى يشرب النبيذ

ولم يذكر ابن طباطبا فى كتابه الفخرى يحيى بن أكثم فى عداد وزراء المأمون والظاهر من عبارة طلحة بن محمد التى أوردناها أنه كان بمنزلة مستشار للخليفة فيما يجرى على أيدى الوزراء من الأعمال

ولم يكن ختام أمره مع المأمون خيرا فقد كان من ضمن وصية المأمون لأخيه المعتصم . ولا تتخذن بعدى وزيرا تلقى إليه شيئا فقد علمت مانكبنى به يحيى بن أكثم فى معاملة الناس وخبث سيرته حتى أبان الله ذلك منه فى صحة منى فصرت إلى مفارقته قاليا له غير راض بما صنع فى أموال الله وصدقاته لاجزاه الله عن الاسلام خيرا .

ولولا هذه العبارة فى وصية المأمون لم يكن وصل إلى علمنا شيء مما كان بين المأمون ويحيى بن أكثم فى خاتمة الاتصال بينهما ثم رأيت فى مروج الذهب أن المأمون سخط عليه سنة ٢١٥ وذلك بمصر وبعث به إلى العراق مغضوبا عليه

وقد طالت حياة يحيى بن أكثم حتى توفى فى عهد جعفر المتوكل

ومن وزراء المأمون أبو عباد ثابت بن يحيى بن يسار الرازى وهو الذى يقول فيه دعبل .

أولى الأمور بضيعة وفساد ۞ أمر يدبره أبو عباد

فقد كان مع كتابته وحذقه بالحساب أهوج محمقا . وقد قيل للمأمون إن دعبلا هجاك فقال من أقدم على هجاء أبى عباد كيف لايهجونى . وكان شديد الحدة سريع الغضب ربما اغتاظ من بعض من يكون بين يديه فرماه بدواته أو شتمه فأفحش

ومن وزرائه أبو عبد الله محمد يزداد بن سويد وهو آخر وزرائه وأصل بيته من خراسان كانوا مجوسا ثم أسلموا واتصلوا بالخلفاء وسويد أول من أسلم منهم وخرج بنوه كتابا ولا سيما محمدا فانه تأدب وبرع فى كل شيء فاستوزره المأمون ومات وهو وزيره .

ولم يكن للوزراء فى عهد المأمون كبير نفوذ بالأمور ولا استبداد بمصالح الدولة بل كانوا ينهون هذه المصالح مع المأمون نفسه ويظهر أن الحوادث السابقة فى عهد الرشيد ومن قبله بل وفى أول عهد المأمون جعلت الخليفة ينظر أمور دولته بنفسه لئلا يستفحل أمر وزرائه فيكون من ذلك مايخشاه من مثل ماحصل للفضل بن سهل

ولجعفر بن يحيي البرمكي وأهل بيته ولمن قبلهم من أمثالهم

الأحوال الداخلية

العلويون وآثارهم في الدولة

قدمنا ما كان من المأمون من اختياره لولاية عهده على الرضا بن موسى الكاظم وهو الثامن من أئمة الشيعة الامامية الاثنى عشرية واتخاذه الشعار الأخضر بدل الأسود وما ترتب على ذلك من الاضطراب في بغداد وقيام أبي السرايا والعلويين الذين قاموا من أجل قيامه في الأمصار الكبرى ثم ما كان من وفاة على الرضا بطوس وانتهاء فتنة أبي السرايا وسقوط جميع العلويين الذين خرجوا في ذلك الوقت بالبصرة والحجاز واليمن . ونزع المأمون للشعار الأخضر بعد حلوله ببغداد وعودته إلى شعار أهل بيته وهو السواد . وكان المأمون قد صاهر عليا فزوجه ابنته ثم زوج محمد بن علي المعروف بالجواد وهو الامام التاسع من أئمة الشيعة ابنته الأخرى ولم يكن من محمد هذا ما يريب المامون وكان المأمون يعامل الطالبيين معاملة تناسب اعتقاده في فضل أبيهم إلى أن خرج في سنة ٢٠٧ باليمن من آل أبي طالب عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب فوجه إليه المأمون دينار بن عبد الله في جيش كثيف وكتب معه بأمانه فحضر دينار بن عبدالله الموسم وحج ولما فرغ من حجه سار إلى اليمن حتى أتى عبد الرحمن فبعث إليه بأمانه من المأمون فقبل ذلك ودخل ووضع يده في يد دينار فخرج به إلى المأمون فمنع المامون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه وأمر بأخذهم بلبس السواد

ومع ذلك فقد جاء في وصيته لأخيه المعتصم وهو يجود بنفسه (وهؤلاء بنو عمك أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه فاحسن صحبتهم وتجاوز عن مسيئهم واقبل من محسنهم وصلاتهم فلا تغفلها في كل سنة عند محلها فان حقوقهم تجب من وجوه شتى)

وبسبب اختلال الأمن في البلاد اليمنية ورسوخ التشيع فيها أراد المامون أن يختار لولاية تهامتها من يأخذ على أيدي المفسدين فيها فأشار عليه الحسن بن سهل برجل من ولد زياد بن أبي سفيان وهو محمد بن إبراهيم الزيادي فولاه إياها سنة ٢٠٣

فتوجه فحج ثم ذهب إلى اليمن ففتح تهامة واختط مدينة زبيد سنة ٢٠٤ وهى التى صارت حاضرة تهامة. وقد عظم أمر الزيادى بعد ذلك باليمن وصار كملك مستقل إلا أنه كان يخطب لبنى العباس ويحمل إليهم الخراج والهدايا وطال ملكه إلى سنة ٢٤٥ ثم صار الملك فى أبنائه ثم فى مواليهم وموالى مواليهم إلى سنة ٥٥٣ وتعرف هذه الدولة بالدولة الزيادية وهى أول الدول استقلالا باليمن

وحال هذه الدولة يشبه حال دولة الأغالبة فى أفريقية فان الرشيد ولاها إبراهيم ابن الأغلب التميمى ليكون حاجزا بين الخلافة العباسية وبين الأدارسة الذين بالمغرب الأقصى وكانت توليته إياها سنة ١٨٤ فعظم أمره وصار كملك مستقل إلا أنه يخطب للرشيد واستمر الملك فى أعقابه إلى سنة ٢٩٦ وكان الأمير فى عهد المأمون عبدالله ابن إبراهيم بن الأغلب (١٩٦ — ٢٠١) ثم زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب الذى استمر ملكه إلى سنة ٢٢٣ وهو الذى فتح جزيرة صقلية من أيدى الروم

فهاتان الدولتان من أول الدول المتغلبة على أطراف بنى العباس وأصل تكوينهم الخوف من الطالبيين وامتداد نفوذهم وذلك بعد أن اقتطع من الخلافة المغرب الأقصى للأدارسة والأندلس لبنى أمية

إبراهيم بن المهدى

قدمنا ما كان من بيعة أهل بغداد لابراهيم بن المهدى إذ كان المأمون بمرو فلما شخص المأمون إلى بغداد وعلم بقدومه القواد الذى كانوا مع إبراهيم تركوه فلما رأى ذلك اختفى وظل مختفيا ببغداد يتنقل من دار إلى دار إلى سنه ٢١٠ وفى تلك السنة أخذ، أخذه حارس أسود وهو متنقب مع امرأتين فى زى امرأة فأعلم المأمون بخبره فامر بالاحتفاظ به ثم دخل به عليه فقال له هيه يا إبراهيم فقال. يا أمير المؤمنين ولى الثار محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاغترار بما مدله من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب كما جعل كل ذى ذنب دونك فان تعاقب فبحقك وإن تعف فبفضلك. قال بل أعفو يا إبراهيم فقال إبراهيم يمدحه :

يا خير من ذملت يمانية به ۞ بعد الرسول لآيس أو طامع

وأبر من عبد الاله على التقى * عينا وأقوله بحق صادع
عسل الفوارع ما أطعت فان تهج * فالصاب يمزج بالسمام الناقع
متيقظا حذرا وما يخشى العدا * نبهان من وسنات ليل الهاجع
ملئت قلوب الناس منك مخافة * وتبيت تكلؤهم بقلب خاشع
بأبي وأمي فدية وبنيهما * من كل معضلة وريب واقع
ما ألين الكنف الذي بوأتني * وطنا وأمرع رتعه للراتع
للصالحات أخا جعلت وللتقى * وأبا رؤفا للفقير القانع
نفسي فداؤك إذ تضل معاذري * وألوذ منك بفضل حلم واسع
أملا لفضلك والفواضل شيمة * رفعت بناءك بالمحل اليافع
فبذلت أفضل ما يضيق ببذله * وسع النفوس من الفعال البارع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله * عفو ولم يشفع إليك بشافع
إلا العلو عن العقوبة بعد ما * ظفرت يداك بمستكين خاضع
فرحمت أطفالا كأفراخ القطا * وعويل عانسة كقوس النازع
وعطفت آصرة على كما وعى * بعد انهياض الوثى عظم الطالع
الله يعلم ما أقول فانها * جهد الألية من حنيف راكع
ما إن عصيتك والغواة تقودني * أسبابها إلا بنية طائع
حتى إذا علقت حبائل شقوتي * بردى إلى حفر المهالك هائع
لم أدر أن لمثل جرمي غافرا * فوقفت أنظر أى حتف صارعي
رد الحياة على بعد ذهابها * ورع الامام القادر المتواضع
أحياك من ولاك أطول مدة * ورمى عدوك في الوتين بقاطع
كم من يدلك لم تحدثني بها * نفسي إذا آلت إلى مطامعي
أسديتها عفوا إلى هنيئة * فشكرت مصطنعا لأكرم صانع
إلا يسيرا عند ما أوليتني * وهو الكثير لدى غير الضائع
ان أنت جدت بها على تكن لها * أهلا وإن تمنع فأعدل مانع
إن الذي قسم الخلافة حازها * في صلب آدم للامام السابع
جمع القلوب عليك جامع أمرها * وحوى رداءك كل خير جامع

فذكر أن المأمون حين أنشده إبراهيم هذه القصيدة قال أقول ماقال يوسف لاخوته — لاتثريب عليكم اليوم يغفرالله لكم وهو أرحم الراحمين

ومن الغريب أن المأمون قد اطلع قبيل ذلك على مؤامرة يقصد بها خلع المأمون واعادة إبراهيم بن المهدى للخلافة ورئيس هذا الأمر ابراهيم بن محمد بن عبد الوهاب ابن إبراهيم الامام المعروف بابن عائشة

وكان اطلاع المأمون على ذلك فى يوم السبت ٥ صفر سنة ٢١٠ والظفر بابراهيم بن المهدى ليلة الأحد ١٣ ربيع الآخر سنة ٢١٠ — وقد انتقم المأمون من ابن عائشة انتقاما شديدا فقد أمر أن يقام ثلاثة أيام فى الشمس على باب دار المأمون ثم ضربه بالسياط ثم أمر بحبسه فى المطبق وفعل قريبا من ذلك بمن كانوا معه وقد كتبوا للمأمون أسماء من دخل معهم فى هذا الأمر من القواد والجند وسائر الناس فلم يعرض المأمون لأحد ممن كتبوا به ولم يأمن أن يكونوا قد قذفوا أقواما برآء . ثم أمر المأمون بعد ذلك بابن عائشة فقتل وصلب وهو أول مصلوب فى الاسلام من بنى العباس وقتل معه ثلاثة من رؤس المتآمرين وكان قتلهم فى ١٤ جمادى الآخرة من تلك السنة

نصر بن شبث

كان نصر بن شبث من بنى عقيل يسكن بكسوم شمالى حلب وكان عربيا شريفا شهما له فى محمد الأمين هوى فلما قتل الأمين غضب ولاسيما لما رأى العنصر العربى قد انحط شأنه وصار معظم القواد والأمراء من غيرهم فأظهر الخروج على السلطان وكان ذلك فى أواخر سنة ١٩٨ وتغلب على ماجاوره من البلاد وملك سميساط واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب وأهل الطمع وقويت نفسه وعبر الفرات إلى الجانب الشرقى وحدثته نفسه بالتغلب عليه فلما رأى الناس ذلك منه كثرت جموعه وزادت على ما كانت

لما انتصر طاهر بن الحسين على الأمين وملك العراق ولى الحسن بن سهل على كل ما افتتحه وأمر أن يسلم ذلك إليه وأن يسير إلى الرقة لمحاربة نصر وولاه المأمون الموصل والجزيرة والشام والمغرب فسار طاهر إلى وجهه وأرسل إلى نصر يدعوه إلى

الطاعة وترك الخلاف فلم يجب فتقدم إليه طاهر ولقيه بنواحى يكسوم فاقتتلا هناك قتالا عظيما أبلى فيه نصر بلاء حسنا فكان النصر له وعاد طاهر إلى الرقة شبه المنهزم وكان قصارى أمره حفظ تلك النواحى . والظاهر أنه لم يكن جادا فى حرب نصر لأنه رأى نفسه قد جرد مما فتحه من العراق وغيره ولم يتمتع بشىء مما جناه

كان ذلك مما قوى أمر نصر حتى كثر جمعه وحصر حران بالجزيرة وأتاه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا له قد وترت بنى العباس وقتلت رجالهم فلو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك . فقال من أى الناس : فقالوا نبايع لبعض آل على بن أبى طالب . فقال أبايع بعض أولاد السوداوات فيقول إنه خلقنى ورزقنى . قالوا فنبايع لبعض بنى أمية . قال أولئك قوم قد أدبر أمرهم والمدبر لايقبل أبدا ولو سلم على رجل مدبر لأعدانى إدباره وإنما هواى فى بنى العباس وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم . ولما شخص المأمون إلى بغداد أمر طاهرا أن يلقاه بها فترك الرقة واستخلف على الجيش ابنه عبدالله وأمره أن يقاتل نصرا فلما قدم طاهر ولاه المأمون خراسان وولى ابنه عبد الله من الرقة إلى مصر وأمره بالجد فى محاربة نصر وحينذاك كتب طاهر إلى ابنه عبدالله ذلك الكتاب المشهور الذى جمع فيه كل مايحتاج إليه الأمراء من الآداب والسياسة والحث على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم مما لايستغنى عنه أحد من ملك وسوقة وهذا الكتاب قد تنازعه الناس وكتبوه وشاع أمره وبلغ المأمون خبره فدعا به فقرىء عليه فقال ماأبقى أبو الطيب (يعنى طاهرا) شيئا من أمر الدنيا والدين والتدبير والرأى والسياسة وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا وقد أحكم وأوصى به وأمر فكتب به إلى جميع العمال والنواحى

ذهب عبد الله إلى وجهه فى محاربة نصر فجد فى أمره وحصره وضيق عليه حتى مال إلى طلب الأمان وفى ذلك الوقت ندب المأمون جعفر بن محمد العامرى ليؤدى إلى نصر رسالة فذهب إليه وهو بكفرعزون بسروج فأبلغه رسالة المأمون التى يطلب فيها منه ترك الحرب والجنوح إلى السلم فأذعن وشرط شروطا منها ألا يطأ بساطه فأتى المأمون وأبلغه مطالب نصر فقال لاأجيبه والله إلى هذا أبداً ولو أفضيت إلى بيع قميصى حتى يطأ بساطى . فعاد الرسول إلى نصر فأخبره فصاح بالخيل صيحة فجالت ثم قال ويلى عليه هو لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه (يعنى الزط)

يقوى على حلبة العرب . ولكنه مع جد عبد الله بن طاهر فى حربه أجاب إلى التسليم وطلب الأمان فكتب له المأمون كتاب أمان فخرج إلى عبدالله بن طاهر وحينذاك هدم يكسوم وخربها ووجه بنصر إلى المأمون فدخل بغداد فى صفر سنة ٢١٠ وأنزل مدينة أبى جعفر ووكل به من يحفظه

وكان مقام عبد الله بن طاهر على حربه خمس سنين

الزط

الزط معرب (جت) قال عنهم ابن خلدون هم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد اه وهم المعروفون بالنور أصلهم من هنود آسيا كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسى تجمعوا واستولوا على طريق البصرة أيام الفتنة التى كانت بين الأمين والمأمون ولما استقر المأمون ببغداد بعث عيسى ابن يزيد الجلودى لحربهم سنة ٢٠٥ ويظهر أنهم كانوا إذا أحرجتهم الجنود تفرقوا فى تلك الفيافى فقد ذكر الطبرى فى حوادث سنة ٢٠٦ أن المأمون ولى داود بن ماسجور محاربة الزط وأعمال البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين ولم يذكر هو ولا متبعوه نتيجة فعله ولا فعل من قبله والظاهر أنهما لم يؤثرا أثراً فاصلا بدليل ماورد فى عبارة نصر بن شبث (أنه لم يقو على أربعمائة ضفدع تحت جناحه) وقد استمر أمرهم كذلك إلى سنة ٢١٩ فى عهد المعتصم حيث وجهه إليهم عجيف بن عنبسة أحد قواده وكانوا قد عاثوا فى طريق البصرة فقطعوا فيه الطريق واحتملوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة وأخافوا السبيل فاهتم عجيف بحربهم ليضربهم ضربة قاضية فعسكر بقرب واسط وسد الأنهار التى كان الزط يدخلون منها ويخرجون لحصرهم من كل وجه ولما أخذ عليهم طرقهم حاربهم وأسر منهم ٥٠٠ رجل وقتل منهم فى المعركة ٣٠٠ رجل فضرب أعناق الأسرى وبعث برؤس جميعهم إلى المعتصم . ثم أقام بازائهم ١٥ يوما ظفر منهم فيها بخلق كثير وكان رئيس الزط رجلا يقال له محمد بن عثمان وكان صاحب أمره والقائم بالحرب سماق . ومكث عجيف يقاتلهم فيما قيل تسعة أشهر ولم يزل يلح عليهم حتى طلبوا منه الأمان فآمنهم فخرجوا إليه فى ذى الحجة سنة ٢١٩ على أنهم آمنون على دمائهم وأموالهم وكانت عدتهم فيما

ذكر ٢٧ الفا المقاتلة منهم ١٢ ألفا وأحصاهم عجيف ٢٧ ألف إنسان بين رجل وامرأة وصبي ثم جعلهم فى السفن وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية وأقام بها يوماً وعبأهم فى زواريقهم على هيئتهم فى الحرب معهم البوقات حتى دخل بهم بغداد يوم عاشوراء سنة ٢٢٠ فمروا على المعتصم على تعبئتهم ثم عبر بهم إلى الجانب الشرقى فدفعوا إلى بشر بن السميدع فذهب بهم إلى خانقين ثم نقلوا إلى الثغر إلى عين زربة وقد ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٤١ فى عهد المتوكل أن الروم أغارت على عين زربة فأخذت من كان بها أسيراً من الزط مع نسائهم وذراريهم وذويهم

بابك الخرّمى

بين أذربيجان وأران فى شمال بلاد الفرس كورة تدعى البذ يمر بها نهر الرس العظيم بهذه الكورة خرج بابك التى امتدت فتنته زمناً طويلا فى عهد المأمون والمعتصم وكان خروجه سنة ٢٠١ فى عهد المأمون ومنتهاه سنة ٢٢١ فى عهد المعتصم. ولا بد لنا من شرح أحوال هذا الرجل وفتنه وما كانوا عليه من الاعتقاد وما أثروه فى دولة المأمون والمعتصم

تمتاز البلاد الفارسية بكثرة المذاهب والاعتقادات الدينية سواء فى ذلك ما كان قبل البعثة المحمدية وما بعدها ومن تلك الطوائف فرقة تسمى الحرمية بالحاء والراء المهملتين كما جرى عليه ابن النديم فى فهرسه وهم صنفان الحرمية الأولون ويسمون المحمرة وصاحبهم مزدك القديم أمرهم بتناول اللذات والانعكاف على بلوغ الشهوات والأكل والشرب والمواساة والاختلاط وترك الاستبداد بعضهم على بعض ولهم مشاركة فى الحرم والأهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه ومع هذه الحال فيرون أفعال الخير وترك القتل وإدخال الآلام على النفوس ولهم مذهب فى الضيافات ليس هو لأحد من الأمم إذا أضافوا الانسان لم يمنعوه من شىء يلتمسه كائنا ما كان وعلى هذا المذهب مزدك الأخير الذى ظهر أيام قباذ بن فيروز وقتله أنوشروان وقتل أصحابه. الصنف الثانى الحرمية البابكية ينسبون إلى صاحبهم بابك الحرمى وكان يقول لمن استغواه إنه إله وأحدث فى مذاهب الحرمية القتل والغصب والحروب والمثلة ولم تكن الحرمية تفعل ذلك. هكذا ذكر ابن النديم ومنه يظهر

وجه تسميتهم بالحرمية . أما سائر المؤرخين فيقولون هم الخرمية بالخاء المعجمة المضمومة والراء المفتوحة المشددة قال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعانى المروزى فى كتاب الانساب « الخرمى » نسبة إلى طائفة من الباطنية يقال لهم الخرمدينية يدينون بما يريدون ويشتهون وإنما لقبوا بذلك لاباحتهم المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم وفعل مايتلذذون به فلما شابهوا فى هذه الاباحة المزدكية من المجوس الذين خرجوا فى أيام قباذ وأباحوا النساء كلهن وأباحوا سائر المحرمات إلى أن قتلهم أنوشروان بن قباذ قيل لهم بهذه المشابهة خرمدينية كما قيل للمزدكية . وقال صاحب القاموس خرمة قرية بفارس منها بابك الخرمى — ثم قال وتخرمدان بدين الخرمية لأصحاب التناسخ والاباحة

ومن ذلك يظهر أن ماجاء فى فهرس ابن النديم تحريف

نشأ بابك بن بهرام بقرية تدعى بلال أباد من رستاق ميمند ثم اتصل بجاويدان ابن سهرك ملك جبال البذ ورئيس من بها من الخرمية وكان جاويدان يرى منه فهما وشهامة وخبثا فقربه إليه . ولما أدركته منيته اجتهدت امرأته فى أن يكون بابك مكانه فى الملك فجمعت الخرمية وقالت لهم إن جاويدان قال لى إنى أموت فى ليلتى هذه وإن روحى تخرج من جسدى وتدخل بدن هذا الغلام خادمى وقد رأيت أن أملكه على أصحابى فاذا مت فأعلميهم ذلك وأن لادين لمن خالفنى فيه واختار لنفسه خلاف اختيارى فقبلوا ذلك منها وتزوجت بابك

أخذ بابك ومن معه فى العيث والفساد واخافة السبل وأول ماعرف ذلك من أمره كان سنة ٢٠١ والمأمون بمرو لم يبرحها إلى بغداد فلما شخص المأمون إلى بغداد عين أحد قواده يحيى بن معاذ لحرب بابك فكانت بينهما وقعة لم ينتصف فيها أحدهما من الآخر . فاختار المأمون قائدا آخر هو عيسى بن محمد بن أبى خالد فولاه أرمينية واذربيجان ومحاربة بابك فنكب . ثم وجه إليه صدقة بن على المعروف بزريق وندب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد الاسكافى فأسره بابك . ثم وجه إليه محمد بن حميد الطوسى فقتله بابك سنة ٢١٤ بهشتادسر وفض عسكره وقتل جمعا كثيرا ممن كان معه . هكذا كان كلما أرسل لحرب بابك قائد لم يصنع شيئا لمكان بابك الحصين وقوته الكبيرة وشدة تأثيره فى قلوب الجمهور الذى كانوا معه . وقد

ذكر فى حوادث سنة ٢١٨ دخول جماعة كثيرة من أهل الجبال من همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجان قذق فى دين الخرمية وتجمعوا فعسكروا فى عمل همذان وذلك أول ولاية المعتصم فوجه إليهم الجنود وكان آخر عسكر وجه إليهم وجهه المعتصم مع إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وعقد له على الجبال فشخص إليهم وفض جموعهم وقتل فى عمل همذان ستين ألفا منهم وهرب سائرهم إلى بلاد الروم فقبلهم ملك الروم أحسن قبول وفرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين بهم فى أهم أموره

وكان من وصية المأمون لأخيه المعتصم حين أدركته المنية (والخرمية فاغزهم ذا حزامة وصرامة وجلد واكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة فان طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك واعمل فى ذلك عمل مقدم النية فيه راجيا ثواب الله عليه) لذلك بذل المعتصم جهده فى كسر شوكة بابك لئلا يمتد شر بدعته فى البلاد الفارسية فاختار لحربه قائدا تركيا من كبار قواده وهو حيدر بن كاوس الأشروسنى المعروف بالافشين (الافشين لقب لملوك أشروسنة) وذلك سنة ٢٢٠ وقبل أن يخرج لوجهه وجه أباسعيد محمد بن يوسف إلى مدينة أردبيل وأمره أن يبنى الحصون التى خربها بابك فيما بين زنجان وأردبيل ويجعل فيها الرجال مسالح لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة إلى أردبيل ففعل أبوسعيد ماأمربه وأوقع بسرية أرسلها بابك للاغارة عليه وهذه أول مرة انهزم فيها لبابك جند . ثم نظم البريد بينه وبين الجيش فجعل من سامرا إلى عقبة حلوان خيلا مضمرة على رأس كل فرسخ فرس معه مجر مرتب فكان يركض بالخيل ركضا حتى يؤديه من واحد إلى واحد يدا بيد ومن حلوان إلى أذربيجان رتب فيه دواب المرج فكان يركض بها يوما أو يومين ثم تبدل ويصير غيرها ويحمل عليها غلمان من أصحاب المرج كل دابة على رأس فرسخ وجعل لهم ديادبة على رؤس الجبال بالليل والنهار وأمروا أن ينعروا إذا جاءهم الخبر فاذا سمع الذى يليه النعير تهيأ فلا يبلغ إليه صاحبه الذى نعر حتى يقف له على الطريق فيأخذ الخريطة منه فكانت الخريطة تصل من عسكر الافشين إلى سامرا فى أربعة أيام وأقل

توجه الافشين حتى أتى برزند فعسكر بها ورم الحصون فيما بين برزند وأردبيل وانزل قوادا من قواده ببعض الحصون هناك لحراسة القوافل والسابلة وأطلق

الافشين عيونه وجواسيسه لتعرف الأخبار عن بابك وأول وقعة كانت بينه وبين عسكر بابك بارشق أحد حصون الافشين حيث خرج بابك ليقنص مالا أرسله المعتصم مع أحد قواده فبلغ خبره الافشين فخرج إليه سرا والتقيا على مقربة من الحصن فأتى جند الافشين على جميع رجالة بابك وأفلت هو فى نفر يسير ودخل موقان ومنها توجه إلى البذ وعاد الافشين إلى عسكره ببرزند

استمرت الحروب بين الافشين وبابك مدة طويلة وكانوا لايتحاربون إلا إذا انصرم الشتاء لمكان الثلوج الشديدة التى كانت تكسو رؤس الجبال وتمنع المشاة من التقدم إلى أن كان الربيع سنة ٢٢١ فسار الافشين من مكانه يريد مهاجمة البذ وأخذه عنوة فسار محترسا وقد رتب أموره أدق ترتيب لما هوقادم عليه فاستعرت لظى الحرب بين الفريقين واستبسلا كلاهما وانتهى الأمر باقتحام المسلمين البذ واستيلائهم عليه . وقدأراد بابك الهرب وشرع فيه فأفسد عليه الافشين تدبيره وسد عليه المسالك وأوقف عليهاجندامن جيشه وأخيراقبض عليه وعلىأخيه عبدالله وعاد بهما الافشين إلى سامرا كما أمره المعتصم ومعهما ١٧رجلا من أهل بيته ومن البنات والكنات ٢٣ امرأة وكان يوم دخولهم سامرا يوما مشهودا ثم قتل بابك وصلب بسامرا وفعل مثل ذلك بأخيه عبد الله ببغداد

وكان جميع من قتل بابك فى عشرين سنة ٢٥٥٥٠٠ إنسان وغلب كثيرا من القواد الذى ذكرناهم وكان عنده من الأسرى الذين استنقذهم الافشين ٧٦٠٠

الخراج فى عهد المأمون

يمتاز عهد المأمون بوجود أثر تاريخى يدل على مقدار الجباية الخراجية من جميع الأقاليم التى دخلت تحت حكم الدولة العباسية وهو الثبت الذى نقله العلامة ابن خلدون فى مقدمة تاريخه نقله عن كتاب جراب الدولة ولما فى ذلك الثبت من الفائدة أحببنا أن ننقله عنه وهاهو ذا

الأقاليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
السواد	٢٧ ٨٠٠ ٠٠٠ درهم	٢٠٠ حلة بخرانية ٢٤٠ رطلا من طين الختم
كسكر	١١ ٦٠٠ ٠٠٠ درهم	
كوردجلة	٢٠ ٨٠٠ ٠٠٠	
حلوان	٤ ٨٠٠ ٠٠٠	
الأهواز	٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٠ ٠٠٠ رطل سكر
فارس	٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٠ ٠٠٠ قارورة ماء ورد ٢٠ ٢٠٠ رطل زيت أسود
كرمان	٤ ٢٠٠ ٠٠٠	٥٠٠ ثوب متاع يمانى ٢٠ ٠٠٠ رطل تمر
مكران	٤٠٠ ٠٠٠	
السندومايليه	١٢ ٥٠٠ ٠٠٠	١٥٠ رطل عود هندى
سجستان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠٠ ثوب معين ٢٠ رطل من الفانيذ
خراسان	٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٠٠٠ نقرة فضة ٤٠٠٠٠ برذون ١٠٠٠ رأس رقيق ٢٠ ٠٠٠ ثوب متاع ٣٠ ٠٠٠ رطلا اهليلج
جرجان	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	١٠٠٠ شقة ابريسم
قومس	١ ٠٠٠ ٠٠٠	١٠٠٠ نقرة فضة
طبرستان والرويان ودنباوند	٦ ٣٠٠ ٠٠٠	٦٠٠ قطعة فرش طبرى ٢٥٠ كساء ٥٠٠ ثوب ٣٠٠ منديل ٣٠٠ جام
	١٨٥ ٩٠٠ ٠٠٠	

ماقبله	٠٠٠ ٩٠٠ ١٨٥ درهم	
الرى	٠٠٠ ٠٠٠ ١٢	٠٠٠ ٢٠ رطل عسل
همذان	٠٠٠ ٣٠٠ ١١	٠٠٠ ١ رطل رب الرمانين ٠٠٠ ١٢ رطل عسل
ماهاالبصرةوالكوفة	٠٠٠ ٧٠٠ ١٠	
ماسبذان والريان	٠٠٠ ٠٠٠ ٤	
شهرزور	٠٠٠ ٧٠٠ ٦	
الموصل وما إليها	٠٠٠ ٠٠٠ ٢٤	٠٠٠ ٢٠ رطل عسل
أذربيجان	٠٠٠ ٠٠٠ ٤	
الجزيرة وما إليها من عمل الفرات	٠٠٠ ٠٠٠ ٣٤	١٠٠٠ رأس رقيق ٠٠٠ ١٢ زق عسل ١٠ بزاة ٢٠ كساء
أرمينية	٠٠٠ ٠٠٠ ١٣	٢٠ قسط محفور ٥٣٠ رطل رقم ٠٠٠ ١٠ رطل من المسايح السورماهى ٠٠٠ ١٠ رطل سونج ٢٠٠ بغل ٣٠ مهرا
برقة	٠٠٠ ٠٠٠ ١	١٢٠ بساط
أفريقية	٠٠٠ ٠٠٠ ١٣	
	٠٠٠ ٦٠٠ ٣١٩ درهم	

قنسرين	٠٠٠ ٤٠٠	دينار	
دمشق	٠٠٠ ٤٢٠	«	
الأردن	٠٠٠ ٩٧	«	
فلسطين	٠٠٠ ٣١٠	«	٠٠٠ ٣٠٠ رطل زيت
مصر	٠٠٠ ١٩٢٠	«	
اليمن	٠٠٠ ٣٧٠	«	
الحجاز	٠٠٠ ٣٠٠	«	
	٠٠٠ ٨١٧ ٣		

فمجموع الخراج من الدراهم ٠٠٠ ٦٠٠ ٣١٩ درهم و٠٠٠ ٣٨١٧ دينار ومن العروض ماذكر أمام كل اقليم وإذا قوم بلغ شيئا كثيرا . كان هذا كله يرد إلى بغداد حاضرة الخلافة ويتصرف فيه الخليفة فيدفع منه أرزاق وزرائه وعماله وحاشيته ويصرف منه فى الحوادث التى تعرض للدولة من تجهيز الجيوش والباقى بعد ذلك كثير يهب منه ماشاء لمن شاء وذلك مقدار وافر يدور معظمه فى الحاضرة الكبرى فيزيدها سعة ورخاء وترفا . ومن نموذج ما كان يصرف على أيدى الخلفاء مارواه الطيفورى فى أخبار بغداد أنه ورد على المأمون وهو بالشام ٠٠٠ ٠٠٠ ٣٠ درهم حمله اليه المعتصم من خراج مايتولاه فخرج المأمون وأصحابه ينظرون إلى ذلك المال فقال ليحيى بن أكثم ياأبامحمد ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة إلى منازلهم خائبين وننصرف نحن بهذه الأموال قد ملكناها دونهم إنا إذا للئام ثم دعا محمد بن يزداد (وزيره) فقال وقع لآل فلان بألف ألف ولآل فلان بمثلها فمازال كذلك حتى فرق ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٤ ورجله فى الركاب ثم قال ادفع الباقى إلى المعلى يعطى جندنا — قال راوى الخبر فجئت حتى قمت نصب عينيه فلم أرد طرفى عنها لايلحظنى إلا رآنى بتلك الحال فقال ياأبامحمد وقع لهذا بخمسين ألف درهم من الستة الآلاف الألف لايختلس ناظرى قال فلم يأت ليلتان حتى أخذت المال . وهذا عطاء كثير ولكن الوارد أكثر

الجيش

ظهور الدولة العباسية على أيدى أهل خراسان والموالى جعل لهؤلاء شأنا عظيما فى الدولة ومقاما لا ينقص عن مقام العرب فى اعتزاز الدولة بهم فكانت القواد العظام من أهل خراسان ومن العرب . وقيام دولة المأمون بأهل خراسان زاد مالهم فى تلك الدولة و بقدر مازادهم نقص من شأن العرب حتى لم يعد من العرب قائد معروف كما كان فى عهد المنصور والمهدى والرشيد وصار معظم المرتزقين من الجند إنما هم من أهل خراسان والأبناء وصار معظم الاعتماد عليهم وظهرت أسماء قواد من عناصر أخرى من أتراك ماوراء النهر . روى الطيفورى أنه تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا فقال ياأمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت إلى عجم

خراسان قال أكثرت على ياأخا الشام والله ماأنزلت قيسا عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد وأما اليمن فوالله ماأحببتها ولا أحبتنى قط وأماقضاعة فسادتها تنتظر السفيانى وخروجه فتكون من أشياعه . وأما ربيعة فساخطة على الله مذ بعث الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم من مضر ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاريا . أعزب فعل الله بك . وهذا تصريح عظيم من المأمون وهو يدل على أن تلك القوة العربية التى كان العالم الاسلامى يحس بوجودها وتخشى الخلفاء سطوتها وانحرافها قد اتضعت فاجترأ خليفة المسلمين أن يجهر بمثل هذا القول على ملأ من الناس ولما كان جيش الدولة هو الذى يدل على حقيقة أمرها كان من الواضح أن الدولة ليس لها من العربية إلا اللغة أما العصبية العربية للعنصر العربى فقد أشرفت على الامحاء

القواد العظام فى عهد المأمون

أكبر من اشتهر فى عهد المأمون بقيادة الجيوش ويمن النقيبة وبعد الصيت طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان . كان جده رزيق مولى طلحة بن عبيد الله المعروف بطلحة الطلحات الخزاعى والى سجستان من مسلم بن زياد بن أبيه والى خراسان ولا ندرى أكان مولى إسلام أم مولى عتاقة ويغلب على الظن أنه مولى إسلام أسلم على يده فانتسب إلى قبيلته ولذلك كان يقال له الخزاعى وكانوا بقرية تدعى بوشنج من أعمال مرووبها ولد طاهر بن الحسين سنة ١٥٩ وكان جده مصعب بن رزيق واليا عليها وعلى هراة وكان قبل ذلك كاتبا لسليمان بن كثير الخزاعى داعية بنى العباس

نشأ طاهر ببوشنج شهماشجاعا أديبا وأول ماأحيا ذكره الخالد أعماله العظيمة التى قام بها فى قود الكتائب الخراسانية لحرب الأمين والجيوش العراقية فظفر ظفرا عظيما كما قدمنا وقاد الخلافة للمامون مذللة فاشتهر ذكره وطار صيته إلا أن الفضل ابن سهل نفس عليه أن ينفرد بتلك الشهرة فحمل المأمون على تنحيته عن العراق وإرساله إلى الجزيرة لحرب نصر بن شبث . ولما شخص المامون إلى بغداد ومات الفضل فى الطريق أمر المأمون طاهرا أن يلقاه ببغداد فعرف له تلك السابقة وأحله المنزلة التى تليق به وولاه الجزيرة والشرط وجانبى بغداد ومعاون السواد

كان الذى يتولى خراسان فى ذلك الوقت غسان بن عباد فبلغ المأمون أن عبد الرحمن المطوعى جمع جمعا بنيسابور ليقاتل بهم الحرورية بغير أمر والى خراسان فتخوفوا أن يكون ذلك لأصل عمل عليه وأن يكون بدء نار يستطير شرارها إذا لم تتدارك برجل قوى الشكيمة ناهض العزم يتولى أمر خراسان ولم يكن بالحضرة من يماثل طاهرا فاختاره المأمون لذلك وولاه من حلوان إلى أقصى عمل المشرق فتوجه إلى ولايته وساسها أحسن سياسة وأعظم شهادة له ما ذكره الطيفورى عن يحيى بن أكثم عن المأمون أنه كان يقول ماحابى طاهر فى جميع ما كان فيه أحدا ولا مالأ أحدا ولا داهن ولا وهن ولا ونى ولاقصر فى شىء وفعل فى جميع مار كن إليه ووثق به فيه أكثر مما ظن به وأمله وأنه لايعرف أحدا من نصحاء الخلفاء وكفاتهم فيمن سلف عصره ومن بقى فى أيام دولته على مثل طريقته ومناصحته وغنائه وأجزائه قال ثم كان يحلف على صدق ما يقول فى ذلك مجتهدا مؤكدا لليمين على نفسه

وكان لطاهر استقلال بحكم خراسان يؤدى الخراج عن عمله وعليه والى بريد يكتب إلى المأمون بأخباره قالوا كان طاهر يتمنى أن يخطب على منبر مرو فوليها سنة ٢٠٥ وخطب بهم فى سنة سبع لم يصل بهم إلا ذلك اليوم فانه صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ولم يدع للمأمون فكتب والى البريد إلى المأمون بذلك وفى تلك الليلة أصابته حمى وحرارة فوجد ميتا على فراشه فكتب صاحب البريد بوفاته ولا نحسب ماظن بطاهر من أنه أراد خلع المأمون حقا فانه لم يكن هناك داع إلى ذلك مطلقا

وقد استمر ملك البيت الطاهرى بخراسان من سنة ٢٠٥ إلى سنة ٢٥٩ حيث سقطت على يد يعقوب بن الليث الصفار وهى أول الدول استقلالا بالمشرق وأحسنها علاقة بدولة الخلافة ببغداد والسبب فى دوام هذا التحسن أن آل طاهر كان لهم مع خراسان ولاية الشرطة ببغداد ومن أجل ذلك كان الاتصال دائما بين مرو وبغداد

عبد الله بن طاهر : ولد عبد الله سنة ١٨٢ فى خلافة الرشيد ونشأ نشأة مجيدة وكان عمره حين سطع نجم والده فى حوادث المأمون نحو ١٦ سنة فتربى فى كنف المأمون فخرج شهما نبيلا أديبا وكان المأمون يحبه حباجما ولاه حرب نصر بن شبث

بعد انصراف أبيه عن ذلك الوجه فقام بما أمر به خير قيام ورد نصرا إلى الطاعة بعد أن حصره وضيق عليه وكان مع قيامه بذلك خليفة لأبيه طاهر فى الشرط وأعمال بغداد فاستخلف على ذلك عمه إسحاق بن إبراهيم بن مصعب.

ولما فرغ من أمر نصر أمره المأمون أن يسير إلى مصر لاضطراب كان فيها من فتنة عبيد الله بن السرى أمير مصر وفتنة جالية الأندلسيين بالاسكندرية فذهب إليها واستنزل عبيد الله بن السرى من معاقله بعد أن أذله وأجلى الأندلسيين عما غلبوا عليه . قال يونس بن عبد الأعلى أحد علماء الحديث من أهل مصر . قدم علينا من قبل المشرق فتى حدث — يعنى عبد الله بن طاهر — والدنيا عندنا مفتونة قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب والناس منهم فى بلاء فأصلح الدنيا وأمن البرىء وأخاف السقيم واستوثقت له الرعية بالطاعة . وكتب إليه أحمد بن يوسف وزير المأمون إذ ذاك يهنئه بذلك الفتح . بلغنى أعزالله الأمير مافتح الله عليك وخروج ابن السرى إليك فالحمد لله الناصر لدينه المعز لدولة خليفته على عباده المذل لمن عند عنه وعن حقه ورغب عن طاعته ونسأل الله أن يظاهر له النعم ويفتح له بلدان الشرك والحمد لله على ماوليك به مذظعنت لوجهه فانا ومن قبلنا نتذاكر سيرتك فى حربك وسلمك ونكثر التعجب لما وفقت له من الشدة واللبان فى مواضعهما ولانعلم سائس جند ورعية عدل بينهم عدلك ولا عفا بعد المقدرة عمن آسفه وأضغنه عفوك ولقلما رأينا ابن شرف لم يلق بيده متكلا على ماقدمت له أبوته ومن أوتى حظا وكفاية وسلطانا وولاية لم يخلد إلى ماعفاله حتى يخل بمساماة ما أمامه ثم لانعلم سائسا استحق النجح لحسن السيرة وكف معرة الاتباع استحقاقك وما يستجيز أحد ممن قبلنا أن يقدم عليك أحدا بهوى عند الحاقة والنازلة المتصلة فليهنك منةالله ومزيده ويسوغك الله هذه النعمة التى حواها لك بالمحافظة على مابه تمت لك من التمسك بحبل إمامك ومولاك ومولى جميع المسلمين وملاك وإيانا بالعيش ببقائه وأنت تعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قبلنا مكرما مقدما معظما وقد زادك الله فى أعين الخاصة والعامة جلالة وبجالة فأصبحوا يرجونك لأنفسهم ويعدونك لأحداثهم ونوائبهم وأرجو أن يوفقك الله لمحابه كما وفق لك صنعه وتوفيقه فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطغك ولم تزدد إلا تذللا وتواضعا فالحمد لله على ماأنالك وأبلاك وأودع فيك والسلام .

وكتب له المأمون كتابا وكتب فى أسفله :

أخى أنت ومولاى * ومن أشكر نعماه
فما أحببت من أمر * فانى الدهر أهواه
وما تكره من شىء * فانى لست أرضاه
لك الله على ذاك * لك الله لك الله

ولما عاد إلى مصر سنة ٢١٢ ولاه المأمون الجبال وأرمينية وأذربيجان لمحاربة بابك وصادف أنه مات بعد خروجه طلحة بن طاهر بن الحسين فولاه المأمون مكانه واستمر واليا بها حتى مات سنة ٢٣٠ فى عهد الواثق

العلم فى عهد المأمون

كان عهد المأمون من أرقى عهود العلم فى العصر العباسى وذلك لأمرين الأول . أن المامون نفسه قد اشتغل بالعلم وأمعن فيه حينما كان بمرو فقد جالس كثيرا من العلماء وأخذ عنهم جملة صالحة من العلوم الدينية كالحديث والتفسير والفقه واللغة العربية فكان لذلك محبا للعلم ولازدياد نشره . الثانى : ماكان من الأمة نفسها إذ ذاك حيث وجد فيها شوق إلى العلم والبحث وكثر العلماء فى كل مصر من أمصار المسلمين كما سنبينه فتوافق رأى الامام واستعداد الأمة فكان من وراء ذلك ما نقصه من تقدم حركة العلم ورفعة بغداد

العلوم التى نريد بيان حالها نوعان علوم دينية وعلوم عقلية

أما العلوم الدينية فمنها مايرجع لأصل الدين وهو علم الكلام أو التوحيد ومنها ما يرجع إلى أحكام الأعمال وهى الفقه وأصوله وأدلة تلك الأحكام من القرآن والحديث .

ظهر فى ذلك الوقت جمهور من فطاحل العلماء ورؤساء المتكلمين توغلوا فى البحث فى أصول الدين والعقائد وحكموا فى البحث عقولهم فأنتج لهم ذلك اعتقادات تخالف ماعليه عامة المسلمين وجمهور علمائهم المعروفين بأهل الحديث وهم الذين يستمدون آراءهم من النصوص السمعية كتاب أوسنة أوأثر من آثار السلف وكان أول ما نشأ ذلك الخلاف فى مدينة البصرة وامتد منها إلى بغداد . وجد بالبصرة

واصل بن عطاء الغزال ثم عمرو بن عبيد الذى كان المنصور يحبه ويفضله على جميع معاصريه من العلماء حتى قال فيه :

كلكم يمشى رويد كلكم طالب صيد غير عمرو بن عبيد

ولما مات رثاه ولم يسمع بخليفة رثى من دونه سواه

ثم أبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف وإبراهيم بن سيار النظام وبشر بن غياث المريسى وعمرو بن بحر الجاحظ وثمامة بن أشرس وغيرهم من رؤس الاعتزال وأصحاب الآراء والأقوال وكانوا يتكلمون فى كثير من مسائل أصول الدين وأهم هذه المسائل التى خالفوا فيها الجمهور أهل الحديث (١) مسألة القدر وأفعال العباد فكانوا يقولون إن أفعال العباد مخلوقة لهم لا لله ومن أجل ذلك يستحقون عليها الثواب والعقاب وأن المقصود بالقضاء والقدر ما يمنحه الله لعباده من التوفيق والخذلان ويقابل ذلك رأى العامة أن أفعال العباد مخلوقة لله ليس للعباد منها إلا جريانها على أيديهم وهذا ما أطلقوا عليه اكتساب العباد (٢) صفات الله تعالى فقد نزه المعتزلة الله عن ثبوت صفات قائمة بذاته من القدرة والارادة والسمع والبصر والحياة والكلام وقالوا إن الله قادر بذاته والذى أداهم إلى ذلك الخوف من تعدد القدماء ويقابل ذلك قول العامة إن الله قدير بقدرة وهى صفة قائمة بالذات ليست عين الذات ولا غيرها. وتفرع عن ذلك قولهم فى القرآن أهو قديم لأنه صفة لله جل ذكره كما تقوله العامة أم هو حادث مخلوق لله كسائر المخلوقات لأنه ليس بصفة لله بل يخلق الله هذه الحروف والأصوات فى جسم محدث يسمعه النبى منه وهذا عندهم هو الوحى .

وهاتان المسئلتان أهم ما كان يدور فيه النزاع بين المعتزلة وفقهاء العامة

وكما كان الاختلاف قد ظهر فى أصول الدين التى تشابه ما ذكرنا كان قد ظهر فى الفقه الذى هو أحكام أفعال العباد فكان من أئمة الفقهاء أهل حديث وأهل رأى كما بيناه فى تاريخ التشريع ووجد من كل من الفريقين علماء أجلاء وفقهاء عظام اعترف لهم الناس بالتقدم ونحوا نحوهم فى التشريع واقتدوا بهم منهم من سبق عصر المأمون كأبى حنيفة وأصحابه ومالك وأصحابه ومنهم من كان فى أول عصره كالشافعى محمد بن إدريس الذى توفى فى السنة التى دخل فيها المأمون بغداد . والفرق بين هؤلاء فى اختلافهم وبين أولئك أن المستنبطين من الفقهاء كانوا لا ينكر بعضهم على بعض نتائج استنباطهم

بل كانوا يرون أن كل مجتهد مكلف أن يعمل بنتيجة اجتهاده وليس له أن يقلد غيره فقد سوغ بعضهم لبعض الاجتهاد أما المختلفون فى أصول الدين فكانوا على غير ذلك كل فرقة ترى النقص فى الأخرى وربما تلعنها فأهل الحديث يقولون عن المعتزلة إنهم مبتدعة فارقوا ماعليه سلف الأمة وماتدل عليه الأخبار والآثار وأولئك يقولون عن أهل الحديث إنهم عامة يتخذون مايظهرون به حلية لينفقوا أمام العامة وربما نالوا منهم أكثر من ذلك

وكان هناك اختلافات أخرى ظهر القول فيها وهى مسألة الخلافة ومن يستحقها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان الجمهور يرى أن الخلفاء الراشدين مرتبون فى الاستحقاق ترتيبهم فى تولى الخلافة ومن ورائهم أصناف الشيعة يرون أن عليا هو أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يستحقها من بعده أولاده وهم مختلفون فى الحكم على من سبق عليا من الخلفاء فمنهم الغالى ومنهم الهين القول يرى أنهم أخذوا ماليس لهم ولكن ولوا فعدلوا فلا محل لانتقاصهم ووجد بسبب ذلك شيعتان مختلفتان الامامية والزيدية ثم تشعبت الطرق بكل من الفرقتين فوجد من كل منهما مذاهب وآراء

ولم يكن قبل المأمون لأصحاب المذاهب المخالفة لما عليه العامة حرية البحث وإظهار الآراء بل كانوا يخشون بأس العامة ولم تكن لهم قوة من الخلفاء يرتكزون عليها لأن الخلفاء كانوا كذلك يراعون العامة لأن القوة فيها فلما جاء المأمون رأى أن يجمع إليه العلماء من المتكلمين والفقهاء وأهل الحديث ويجعل لهم مجالس للمناظرة ويظهر أنه كان يرمى إلى أن يتفق هؤلاء العلماء على رأى فيما يلقى عليهم من المسائل ليحمل الجمهور على ذلك الرأى وتتفق كلمة الأمة ولاسيما فيما يتعلق بمباحث أصول الدين ومباحث الامامة

قال الطيفورى فى تاريخ بغداد قال التغلبى سمعت يحيى بن أكثم يقول أمرنى المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض فى فنون الحديث والعلم فلما انقضى ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين قال المأمون يا أبا محمد كره هذا المجلس الذى جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل

أهوائهم وتزكية آرائهم فطائفة عابوا علينا مانقول فى تفضيل على بن أبى طالب رضى الله عنه وظنوا أنه لايجوز تفضيل على إلا بانتقاص غيره من السلف والله ما أستحل أوقال ما أستجيز أنأنتقص الحجاج فكيف السلف الطيب . وإن الرجل ليأتينى بالقطعة من العود أو بالخشبة أو بالشىء الذى لعل قيمته لاتكون إلا درهما أو نحوه فيقول إن هذا كان للنبى صلى الله عليه وسلم أوقد وضع يده عليه أو شرب فيه أو مسه وما هو عندى بثقة ولا دليل على صدق الرجل إلا أنى بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر ثم أضعه على وجهى وعينى وأتبرك بالنظر إليه وبمسه فأستشفى به عند المرض يصيبنى أو يصيب من أهتم به كصيانتى نفسى وإنما هو عود لم يفعل هو شيئا ولا فضيلة له يستوجب بها المحبة إلا ماذكر من مس رسول الله ﷺ له فكيف لاأرعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه وبذل ماله ودمه دونه وصبر معه أيام الشدة وأوقات العسرة وعادى العشائر والعمائر والأقارب وفارق الأهل والأولاد واغترب عن داره ليعز الله دينه ويظهر دعوته ياسبحان الله والله لو لم يكن هذا فى الدين معروفا لكان فى الأخلاق جميلا وإن من المشركين لمن يرعى فى دينه من الحرمة ماهو أقل من هذا معاذ الله مما فطن به الجاهلون . ثم لم ترض هذه الطائفة بالعيب لمن خالفها حتى نسبته إلى البدعة فى تفضيله رجلا على أخيه ونظيره ومن يقاربه فى الفضل وقد قال الله جل من قائل — ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض — ثم وسع لنا فى جهل الفاضل من المفضول فما فرض علينا ذلك ولا ندبنا إليه إذ شهدنا لجماعتهم بالنبوة فمن دون النبيين من ذلك بعد إذ شهد لهم بالعدالة والتفضل أمر لوجهله جاهل رجونا أن لايكون اجترح إثما — وهم لم يقولوا بدعة فيمن قال بقول واحد من أصحاب النبى ﷺ وشك الآخر واحتج فى كسره وإبطاله فى الأحكام فى الفروج والدماء والأموال التى النظر فيها أوجب من النظر فى التفضيل فيغلط فى مثل هذا أحد يعرف شيئا أوله روية أوحسن نظر أويدفعه من له عقل بل معاند يريد الالطاط أو متبع لهواه ذاب عن رياسة اعتقدها وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلسا اعتقد به رياسة لعله يدعو فئة لضرب من البدعة ثم لعل كل رجل منهم يعادى من خالفه فى الأمر الذى قد عقد به رياسة بدعة ويشيط بدمه وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك إلا أن

ذلك أمر لا رياسة له فسالمه عليه وأمسك عنه عند ذكر مخالفته إياه فيه فاذا خولف في نحلته ولعلها مما وسع الله في جهله أو قد اختلف السلف في مثله فلم يعاد بعضهم بعضا ولم يروا في ذلك إثما فلعله يكفر مخالفه أو يبدعه أو يرميه بالأمور التي حرمها الله عليه من المشركين دون المسلمين بغيا عليهم وهم المترقبون الفتن والراسخون فيها لينتهبوا أموال الناس ويستحلوها بالغلبة وقد حال العدل بينهم وبين ما يريدون يزأرون على الفتنة زئير الأسد على فرائسها — وإني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده ومعونته على إتمامه سببا لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين . أما شاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعا وأما معاند فيرد بالعدل كرها .

وروى أيضا عن بشر المريسي قال حضرت عبد الله المأمون أنا وثمامة ومحمد ابن أبي العباس وعلي بن الهيثم فتناظروا في التشيع فنصر محمد بن أبي العباس الامامية ونصر علي بن الهيثم الزيدية وجرى الكلام بينهما إلى أن قال محمد لعلي يا نبطي ما أنت والكلام . فقال المأمون وكان متكئا فجلس الشتم عي والبذاءة لؤم إنا قد أبحنا الكلام وأظهرنا المقالات فمن قال بالحق حمدناه ومن جهل ذلك وقفناه ومن جهل الأمرين حكمنا فيه بما يجب فاجعلا بينكما أصلا فان الكلام فروع فاذا افترعتم شيئا رجعتم إلى الأصول

فيستفاد من هذين الخبرين أمور جديرة بامعان النظر

(١) أن المأمون أباح الكلام وأظهر المقالات لدرجة قلما تجدها أمة وما ظنك بخليفة عباسي تناظر في مجلسه اثنان في الامامة فينصر أحدهما الامامية والثاني الزيدية وهذان المذهبان كلاهما إن صحا يذهبان بما في أيدي آل العباس من الامامة ولم يمنعه ذلك من ترك حرية القول لهم

(٢) أن طوائف من الناس عابت ذلك على المأمون لأنه علم عنه الموافقة على بعض آراء تخالف رأي العامة كما كان مذهبه في تفضيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه على سائر الخلفاء واتهموه بسبب ذلك بما هو منه بريء وهو انتقاص غيره من الصحابة وقد دافع المأمون عن نفسه في ذلك بما يغلب على الظن أنه صادق فيه

(٣) أن المأمون كان يرى في علماء وقته أنهم إنما كانوا ينكرون ما ينكرون في الآراء التي كانت لهم سبب رياسة ولو كانت تافهة لا يترتب عليها في الدين أثر

ويغفرون لمن خالفهم فى الأمور الجسمية التى تترتب عليها الآثار العظيمة مادامت لاترتبط بشىء مما يعتقدون به رياسة عند العامة

(٤) أن المأمون كان يظن أنه بمجالس المناظرة هذا يتوصل إلى إزالة الخلاف بين العلماء فيما اختلفوا فيه فان الشاك يتبين أو يتثبت والمعاند يكره

وهذا الذى فعله المأمون أول تجربة وآخرها لأنه لم يفكر أحد ممن قبله فى مثل هذا ولما انتهت تجربته بالفشل لم يعد أحد من الخلفاء إلى مثله

كانت قوة فقهاء العامة محكمة العرى لأن العامة كانت تجلهم وتحترم آراءهم كما أن الفقهاء كانوا يحوطون معتقدات الجمهور ويقفون ضد من يعلن مخالفتها . أدت المناقشات الكثيرة التى كانت بين يدى المأمون إلى أنه كان يرى بعض آراء المعتزلة لا كلها فانه لم يكن قدريا روى الطيفورى عن محمد بن إسحاق بن إبراهيم اليزيدى أنه سمع ثمامة يقول إن المأمون عامى لتركه القول بالقدر وإنما الذى صار إليه من آرائهم القول بخلق القرآن وأظهر رأيه ذلك سنة ٢١٢ وكان يظن كما قدمنا أنه متى أعلن رأيه للعلماء وفقهاء الأمة يجيبوه إلى إعلان رضاهم به فكانت النتيجة عكس ماظن فانهم تكلموا فيه وقالوا إنه مبتدع وغلا بعضهم فى ذلك فقال بكفر من رأى خلق القرآن وبذلك تجسمت هذه المسألة التى لم تكن تستحق تجسيما إذا نظر إليها بشىء من التدقيق ولم تكن هناك أشياء أخرى غير المسألة العلمية توسع مسافة الخلف بين المأمون ومن شايعه وبين فقهاء الجمهور

مرت سنوات أربع والخلف يتسع والكلام من الفريقين فى الآخر يزيد حتى كانت سنة ٢١٨ فرأى المأمون أن يستعين بسلطانه فى رد الفقهاء إلى رأيه حتى لايكون معترفا بفشله فيما شرع فيه فكتب كتابا وهو غاز إلى إسحق بن إبراهيم عامله على بغداد (محافظها) بين فيه أن واجبه بصفته إماما للمسلمين أن يجتهد فى إقامة الدين ثم ذكر ماعليه الجمهور من حشو الرعية وسفلة العامة من الجهالة بالله حتى ساووا بينه وبين ماأنزل من القرآن فأطبقوا على أنه قديم مع النصوص الدالة على خلاف ذلك ثم قال — ثم هم الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السنة وفى كل فصل من كتاب الله قصص من تلاوته مبطل لقولهم ومكذب دعواهم يرد عليهم قولهم ونحلتهم ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين والجماعة وأن من

سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة فاستطالوا بذلك على الناس وغروا به الجهال حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه ومواطأتهم على سيء آرائهم تزينا بذلك عندهم وتصنعا للرياسة والعدالة فيهم فتركوا الحق إلى باطلهم واتخذوا دين الله وليجة إلى ضلالتهم فقبلت بتزكيتهم لهم شهادتهم ونفذت أحكام الكتاب بهم على دغل دينهم ونغل أديمهم وفساد نياتهم ويقينهم وكان ذلك غايتهم التى إليها أجروا وإياها طلبوا فى متابعتهم والكذب على مولاهم — وبعد أن أعطاهم ما يستحقون على رأيه من مثل هذه القوارع قال لإسحاق — فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن وإحداثه وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه فاذا أقروا بذلك ووافقوا أمير المؤمنين فيه وكانوا على سبيل الهدى والنجاة فرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ومسألتهم عن علمهم فى القرآن وترك إثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق محدث ولم يره والامتناع من توقيعها عنده واكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك فى مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم حتى لا تنفذ أحكام الله إلا بشهادة أهل البصائر فى الدين والاخلاص للتوحيد واكتب إلى أمير المؤمنين بما يكون فى ذلك إن شاء الله وكتب فى شهر ربيع الأول سنة ٢١٨

وكتب إلى إسحاق أن يشخص إليه سبعة نفر من كبار مشايخ الجمهور منهم محمد ابن سعد كاتب الواقدى ويحيى بن معين وأبو خيثمة زهير بن حرب وأحمد بن ابراهيم الدورقى فأشخصوا إليه فامتحنهم وسألهم عن خلق القرآن فأجابوا جميعا أن القرآن مخلوق فأشخصهم إلى مدينة السلام وأحضرهم إسحاق بن ابراهيم داره فشهر أمرهم وقولهم بحضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث فأقروا بمثل ما أجابوا به المأمون فخلى سبيلهم

وكتب المأمون إلى إسحاق كتابا ثانيا زاد فيه على الكتاب الأول قال فيه فى صفة من خالفوه . وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظا فى الدين ولا نصيبا من الايمان واليقين ولا يرى أن يحل أحدا منهم محل الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق فى قول ولا حكاية ولا تولية شيء من أمر الرعية

لجمع إسحاق نحو ثلاثين رجلا من هؤلاء العلماء وهذا نموذج من أجوبتهم لإسحاق قال لبشر بن الوليد ماتقول فى القرآن — فقال قد عرفت مقالتى لأمير المؤمنين غير مرة — قال فقد تجددمن كتاب أمير المؤمنين ماقدترى — قال — أقول القرآن كلام الله — قال لم أسألك عن هذا أمخلوق هو — قال الله خالق كل شىء — قال أما القرآن شىء — قال هو شىء — قال فمخلوق هو — قال ليس بخالق — قال ليس أسألك عن هذا أمخلوق هو — قال ماأحسن غير ماقلت لك وقداستعهدت أمير المؤمنين ألاأتكلم فيه وليس عندى غير ماقلت لك

وقال لعلى بن أبى مقاتل ماتقول ياعلى — قال قد سمعت كلامى لأمير المؤمنين فى هذا غير مرة وما عندى غير ماسمع — فقال له القرآن مخلوق — قال القرآن كلام الله — قال لم أسألك عن هذا — قال هو كلام الله وإن أمرنا أمير المؤمنين بشىء سمعنا وأطعنا

وقال لأبى حسان الزيادى القرآن مخلوق هو — قال القرآن كلام الله — والله خالق كل شىء ومادون الله مخلوق وأمير المؤمنين إمامنا وبسببه سمعنا عامة العلم وقد سمع مالم نسمع وعلم مالم نعلم وقد قلده الله أمرنا فصار يقيم حجنا وصلاتنا ونؤدى إليه زكاة أموالنا ونجاهد معه ونرى إمامته إمامة وإن أمرنا ائتمرنا وإن نهانا انتهينا وإن دعانا أجبنا — قال القرآن مخلوق هو — فأعاد إليه حسان مقالته — قال إن هذه مقالة أمير المؤمنين — قال قدتكون مقالة أمير المؤمنين ولايأمر بها الناس ولايدعوهم إليها وإن أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول قلت ماأمرتنى به فانك الثقة المأمون عليه فيما أبلغتنى عنه من شىء فان أبلغتنى عنه بشىء صرت إليه — قال ماأمرنى أن أبلغك شيئاً — قال قديكون قوله كاختلاف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الفرائض والمواريث ولم يحملوا الناس عليها

وكان إسحاق يكتب مقالة كل قائل فلما أتم امتحانهم جميعا أرسل إلى المأمون نتيجة الامتحان. ولما رأى المأمون هذه المحاولة منهم غاظه ذلك وكتب فى شأنهم كتابا ثالثا قرع فيه أولئك العلماء أشد التقريع وذكر كل واحد منهم بما يعلمه فيه من النكوب عن الجادة فى عمله أو خلقه كأنه يعرف دخائل كل منهم معرفة خبير. فمن ذلك قوله

وأما الذيال بن الهيثم فأعلمه أنه كان فى الطعام الذى كان يسرقه فى الأنبار وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبى العباس مايشغله وأنه لو كان مقتفيا آثار سلفه وسالكا مناهجهم ومحتذيا سبيلهم لما خرج إلى الشرك بعد إيمانه

وأما الفضل بن غانم فأعلمه أنه لم يقف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر وما اكتسب من الأموال فى أقل من سنة وماشجر بينه وبين المطلب بن عبدالله فى ذلك فانه من كان شأنه شأنه وكانت رغبته فى الدينار والدرهم رغبته فليس بمستنكر أن يبيع إيمانه طمعا فيهما وإيثارا لعاجل نفعهما وأنه مع ذلك القائل لعلى بن هشام ماقاله والمخالف له فيما خالفه فيه فما الذى حال به عن ذلك ونقله إلى غيره

وأما الفضل بن الفرخان فأعلمه أنه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن أخذ الودائع التى أودعها إياه عبد الرحمن بن إسحاق وغيره تربصا بمن استودعه وطمعا فى الاستكثار لما صار فى يده ولا سبيل عليه عن تقادم عهده وتطاول الأيام به فقل لعبد الرحمن بن إسحاق لاجزاك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا وإيمانك إياه وهو معتقد للشرك منسلخ عن التوحيد

وأما محمد بن حاتم وابن نوح والمعروف بأبى معمر فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم فى الله ومجاهدتهم إلا لاربائهم وما نزل به كتاب الله فى أمثالهم لاستحل ذلك فكيف بهم وقد جمعوا مع الارباء شركا وصاروا للنصارى مثلا

وأما سعدويه الواسطى فقل له قبح الله رجلا بلغ به التصنع للحديث والتزين به والحرص على طلب الرياسة فيه أن يتمنى وقت المحنة فيقول بالتقرب بها متى يمتحن فيجلس للحديث .

وأما المعروف بسجادة وإنكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من أهل الحديث وأهل الفقه القول بأن القرآن مخلوق فأعلمه أنه فى شغله بأعداد النوى وحكه لاصلاح سجادته وبالودائع التى دفعها إليه على بن يحيى وغيره ما أذهله عن التوحيد وألهاه ثم سله عما كان يوسف بن أبى يوسف ومحمد بن الحسن يقولانه إن كان شاهدهما وجالسهما

وقد ذكر مثل ذلك فى غير هؤلاء وخلاصة مايطلب فى هذا الكتاب أنه ذكر له رجلين هما بشر بن الوليد وإبراهيم بن المهدى أمره أن يستتيبهما فان تاب أشهر

أمرهما وإلا ضرب أعناقهما أما من عداهما فان لم يقولوا بخلق القرآن حملهم جميعا موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين . وقال فى ختام هذا الكتاب - وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا فى خريطة بندارية ولم ينتظر به اجتماع الكتب الخرائطية معجلا به تقربا إلى الله عز وجل وبما أصدر من الحكم ورجا ما اعتمد وإدراك ما أمل من جزيل ثواب الله عليه فأنفذ لما أتاك من أمر أمير المؤمنين وعجل إجابة أمير المؤمنين بما يكون منك فى خريطة بندارية مفردة عن سائر الخرائط لتعرف أمير المؤمنين ما يعملونه إن شاء الله وكتب سنة ٢١٨

فأحضرهم إسحاق مرة ثانية وسألهم فأجابوا جميعا أن القرآن مخلوق ماعدا أربعة منهم فأمر بهم فشدوا فى الحديد وفى اليوم الثانى أعاد عليهم المحنة فأجابه واحد من الأربعة فأطلقه وفى اليوم الثالث فعل كذلك فأجابه ثان وبقى اثنان صمما على عدم الاجابة وهما أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح فوجه بهما إسحاق إلى طرسوس . وبعد ذلك ورد كتاب من المأمون على إسحاق يقول له فيه إن سليمان بن يعقوب صاحب الخبر كتب إليه أن بشر بن الوليد تأول الآية التى أنزلها الله تعالى فى عمار بن ياسر إلا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان — وقد أخطأ التأويل إنما عنى الله عز وجل بهذه الآية من كان معتقد الايمان مظهر الشرك فأما من كان يعتقد الشرك مظهر الايمان فليست هذه له فأشخصهم جميعا إلى طرسوس ليقيموا بها إلى خروج أمير المؤمنين من بلاد الروم فأشخصهم جميعا ولما وافوا الرقة بلغتهم وفاة المأمون فأقامهم والى الرقة بها ثم أعيدوا إلى مدينة السلام

هذه كانت النتيجة لما شرع فيه المأمون وهى نتيجة تضاد ماقصده من تأليف القوم وجمعهم على رأى واحد فيما اختلف فيه من المسائل وقد كبر الخلاف فى مسألة من أهون المسائل وأيسرها حلا ولكن المأمون قال إن أصغر المسائل متى كان أساسا لنحلة أوسببا لرياسة فان الخلاف يعظم بسببه أما أعضل الأمور فان الخلاف الشديد لايجد اليه سبيلا إذا لم يكن أساسا لنحلة أوسببا لرياسة وهذا يكاد يكون صحيحا ومع اعترافنا بأن الخلاف لامحل له فى هذه المسألة لانرى للمأمون حقا وهو سلطان الأمة أن يصادرها فيما تعتقد على الشكل الذى سنه مما بيناه

وليعلم أن جميع الذين تهاونوا مع المأمون فى مسئلة القرآن أهمل المحدثون أمرهم

وأنزلوا رتبتهم وعدوا ذلك عيبا من عيوبهم وقد كاد إمام المحدثين البخارى يصيبه أثر من آثار هذه النكبة فان فريقا من العلماء رأى أن يفصل بين لفظ القرآن ومعناه فكان يقول لفظى بالقرآن مخلوق وكان البخارى ممن يقول بذلك فاضطهده محمد بن يحيى الذهلى إمام المحدثين بنيسابور حتى خرج البخارى عنها خوفا من العامة أن تبطش به وكذلك ترك مسلم بن الحجاج مجلس محمد بن يحيى من أجل ذلك فانه لما سمع محمدا يقول من قال لفظى بالقرآن مخلوق فلا يقربن مجلسنا أخذ كساءه وخرج . أما الذين وقفوا فى المحنة وثبتوا على آرائهم ولم يتساهلوا فانهم استحقوا من العناية والتكريم مالا مزيد عليه والعلم المفرد فيهم هو الامام أحمد بن حنبل فان هذه الحادثة شرفته بين القوم شرفا عظيما .

ولم يكتف المأمون بما كان منه فى حياته بل أوصى إلى أخيه المعتصم الذى استخلفه من بعده بأن يسير بسيرته فى القرآن فلم يجد المعتصم بدا من أن يتبع هذه الوصية مع أنه لم يكن له فى ميدان العلم كبير جولة ولكن وصية أخيه وبقاء رؤس الاعتزال بجانبه جعلاه يتشدد فى الأمر فأحضر أحمد بن حنبل وعرض عليه أن يقول كما قال غيره من العلماء فصمم على إنكار أن يكون القرآن مخلوقا ولم يثنه عن ذلك مالقيه من الضرب والتعذيب فى مجلس المعتصم نفسه وكان أحمد يتردد بين ذلك وبين ضيق المحبوس وهو صابر محتسب

وقد اتبع الواثق سيرة أبيه وعمه فى هذه المحنة وبسببها حصلت فتنة أحمد بن نصر ابن مالك بن الهيثم الخزاعى ومالك بن الهيثم كان أحد نقباء الدعوة العباسية وكان أحمد يغشاه أصحاب الحديث وكان يظهر المباينة لمن يقول القرآن مخلوق مع منزلة أبيه كانت من السلطان فى دولة بنى العباس ويبسط لسانه فيمن يقول ذلك مع غلظة الواثق كانت على من يقول ذلك وكان أحمد إذا تكلم عن الواثق يقول الافعل هذا الكافر فحركه المطيفون به من أهل الحديث وحملوه على الحركة لانكار القول بخلق القرآن وقصدوه دون غيره لما كان لأبيه وجده فى دولة بنى العباس من الأثر فرجوا استجابة العامة له والتفافهم عليه فيقال إنه أجاب إلى ذلك وسعى له فى دعاء الناس رجلان ممن كان يغشاه فنجحا وألفا فرقتين إحداهما بالجانب الشرقى والأخرى بالجانب الغربى من بغداد واتعدوا ليلة يضربون فيها طبولهم للاجتماع صبيحتها للوثوب بالسلطان

فاتفق أن بعض المحافظين على الطبل انتبذ نبيذا فلما أخذ منه ضرب على الطبل قبل الموعد المضروب بليلة فانتبه لصوت الطبل محمد بن إبراهيم بن مصعب خليفة صاحب الشرطة فأرسل يسأل عن سببه وبعد التدقيق عرف سر المؤامرة فتتبع القوم من ليلتهم فأخذوا وصيروا إلى الحبس وقبض أحمد بن نصر أيضا وحمل رؤس القوم إلى الواثق بسامرا فجلس لهم الواثق مجلسا عاما لامتحانهم ولما حضروا إليه لم يناظر الواثق أحمد بن نصر فى الشعب ولا فيما رفع إليه من إرادة الخروج عليه لكنه سأله ماتقول فى القرآن قال هو كلام الله ولم يزد على ذلك وبعد أخذ ورد أفتى الحاضرون بقتله فقام الواثق إليه بنفسه وقتله وصلب جسمه بسامرا وحمل رأسه إلى بغداد فنصب بها فى الجانب الشرقى وجعل فى أذنه رقعة فيها هذا رأس الكافر المشرك الضال وهو أحمد بن نصر ابن مالك ممن قتله الله على يدى عبد الله هارون الامام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة فى خلق القرآن ونفى التشبيه وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى إلا المعاندة والتصريح والحمد لله الذى عجل به إلى ناره وأليم عقابه وإن أمير المؤمنين سأله عن ذلك فأقر بالتشبيه وتكلم بالكفر فاستحل أمير المؤمنين دمه ولعنه

وممن حمل إلى الواثق فى هذه المحنــة من علماء مصر أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى أكبر أصحاب الشافعى الامام رضى الله عنه نمى إلى الواثق أنه لا يقول بخلق القرآن فأرسل إلى والى مصر فى امتحانه فامتحنه فلم يجب وكان الوالى حسن الرأى فيه فقال له قل فيما بينى وبينك قال إنه يقتدى بى مائة ألف ولا يدرون المعنى . فلما امتنع أمر الواثق بحمله فحمل وسجن ببغداد حتى مات فى سجنه سنة ٢٣١

واستمرت هذه المشكلة حتى ملها الواثق نفسه وتمنى لو يجد مخرجا وانتقلت المسألة من الجد إلى الهزل . دخل عبادة المضحك على الواثق فقال ياأمير المؤمنين أعظم الله أجرك فى القرآن قال ويلك القرآن يموت قال ياأمير المؤمنين كل مخلوق يموت بالله ياأمير المؤمنين من يصلى بالناس التراويح إذا مات القرآن . فضحك الواثق وقال قاتلك الله ـــ أمسك .

وجىء الواثق بشيخ مقيد فسأله ابن أبى دؤاد عن قوله فى القرآن فقال له الشيخ لم تنصفنى المسألة أنا أسألك قبل الجواب . هذا الذى تقوله ياابن أبى دؤاد من خلق

القرآن شيء علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم أو جهلوه — فقال بل علموه قال فهل دعوا إليه الناس كما دعوتهم أنت أو سكتوا — قال بل سكتوا — قال فهلا وسعك ماوسعهم من السكوت — فسكت ابن أبي دؤاد وأعجب الواثق كلامه وأمر باطلاقه وقام وهو يقول هلا وسعك ماوسعهم يكرر هذه الكلمة

كانت تلك الحوادث مما أخمد نار المحنة ولذلك لما جاء المتوكل بعد الواثق أمر برفع المحنة وأن يترك الناس وشأنهم فيما يعتقدون وحسنا فعل وقد استحق المتوكل ثناء الجمهور العظيم بسبب ذلك وتجاوزوا له عما كان من هفواته

ويمكن القول بأن هذه المجالس التى تعقد للمناظرة رجاء الوصول إلى الوفاق إنما تقرر الخلاف وتؤكده لاتزيله متى اتصل بهذا الخلاف شيء من الرياسة فى الدنيا وتاريخ المجامع والمجالس التى كان من شأنها البحث فى الأمور الدينية شاهد بذلك

علوم الصناعات

كما كانت للمأمون جولة فى العلوم الدينية كانت له جولة فى العلوم الصناعية وقد كان أثره فى هذه أظهر من أثره فى تلك كما يتبين مما يأتى

كانت الأمة العربية أمة أمية لاتتعلق بشيء من الصناعات ولا العلوم إلا قليلا كما بيناه فى خلاصة تاريخها فى الجزء الأول فلما جاءها الاسلام لم يكن لها مجال فى العلوم لأنها كانت فى دور التكوين وذلك محتاج إلى استعمال ماعندها من القوة والفكر فى سبيل ذلك فانقضت مدة الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم فى الفتح وتأسيس المملكة وتمهيد طريق الدعوة إلى الدين وكانت الحال على ذلك فى صدر الدولة الأموية إلا أنه وجد من رجالهم فى أوسط أدوارها من عنوا ببعض الصناعات التى كانت فيمن سبقهم من الأمم واهتموا بترجمة كتب منها وأول من عرف اسمه فى ذلك خالد بن يزيد بن معاوية الذى كان يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلا فى نفسه وله همة ومحبة للعلوم خطر بباله الصنعة «الكيميا» فأمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى وهذا أول نقل كان فى الاسلام من لغة إلى لغة . ثم

نقل الديوان وكان باللغة الفارسية إلى العربية فى أيام الحجاج نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم كما قدمنا ذلك فى تاريخ بنى أمية ثم نقل ديوان الشام إلى العربية فى زمن هشام بن عبد الملك نقله أبو ثابت سليمان سعد مولى حسين.

وكانت الدولة الأموية أقرب إلى من قبلها فى السذاجة الصناعية فلم يكن لترجمة الكتب فيها كبير حظ ولا عظيم أثر . فلما جاءت الدولة العباسية كان اختلاطها بالفرس أكثر لأن دولتهم بالخراسانيين والموالى قامت وهذا الاختلاط جعل نفوس العباسيين تصبو إلى الاطلاع على شىء مما عند الفرس واليونان من آثار متقدميهم من العلماء والحكماء والفلاسفة وكان أول من عنى بترجمة شىء من هذه الكتب أبو جعفر المنصور ثانى خلفاء العباسيين وكان الذى قام بترجمة الكتب له طبيبه جورجس بن جبرائيل الذى كان طبيبا البيمارستان جنديسابور ثم طلبه المنصور إليه سنة ١٤٨ ليعالجه فحظى عنده حظوة عظيمة وترجم له كتبا كثيرة من اليونانى إلى العربى والبطريق قال فى طبقات الأطباء إن المنصور أمره بنقل أشياء من الكتب القديمة وله نقل كثير جيد إلا أنه دون نقل حنين بن إسحاق وقد وجدت بنقله كتب كثيرة فى الطب من كتب أبقراط وجالينوس وترجم له ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية وترجم كتاب السند هند وكتاب المجسطى لبطليموس وكتاب اقليدس فى الهندسة وغير ذلك إلا أن العناية لم تبذل كثيرا فى الحصول على الكتب المفيدة حتى تترجم وتشغل بها الأمة

فلما كان فى زمن هرون الرشيد وغلب على بعض المدائن الرومية الكبرى كأنقرة وعمورية عثر على كنز ثمين من كتب اليونان فأمر أن تترجم له فترجمت وبذلك كانت حركة الترجمة أقوى منها فى عهد المنصور وكان للبرامكة يد طولى فى الترجمة وعون المترجمين عليها بما كانوا يدرونه عليهم من الأرزاق

لما ولى المأمون كان قد تأثر فكره بما قرأ من هذه الكتب وأحس بنفعها فقوى حركة الترجمة ونشطها تنشيطا أساسه الاقتناع بالفائدة وساعده الجود والبذل فى هذا السبيل . حكى ابن النديم فى الفهرس أن المأمون رأى فى منامه كأن رجلا أبيض اللون مشربا حمرة واسع الجبهة مقرون الحاجب أجلح الرأس أشهل العينين حسن الشمائل جالس على سريره قال المأمون وكأنى بين يديه قد ملئت له هيبة فقلت من أنت قال أنا ارسطاليس فسررت به وقلت أيها الحكيم أسألك قال سل قال ما الحسن

قال ما حسن فى العقل قلت ثم ما ذا قال ماحسن فى الشرع قلت ثم ماذا قال ماحسن عند الجمهور قلت ثم ما ذا قال ثم لا ثم لا — وفى رواية أخرى قلت زدنى قال من نصحك فى الذهب فليكن عندك كالذهب وعليك بالتوحيد — قالوا فكان هذا المنام من أوكد الأسباب فى إخراج الكتب — وإذا صحت هذه الحكاية فهذه الرؤيا أثر لشغف المأمون بارسطاليس وتعاليمه .

كان بين المأمون وملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون فكتب إلى ملك الروم يسأله الاذن فى إنفاذ ما عنده من مختار العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم فأجاب إلى ذلك بعد امتناع فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج(١) بن مطر وابن(٢) البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم فأخذوا مما وجدوا مما اختاروا فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنقل وقيل إن يوحنا بن ما سويه ممن نفذ إلى بلاد الروم .

ولم تكن هذه العناية قاصرة على المأمون وحده بل كان لعهده جماعة ذوو يسار اعتنوا جد العناية بنقل هذه الكتب إلى اللسان العربى ومن هؤلاء محمد وأحمد والحسن بنو شاكر المنجم بذلوا الرغائب وأنفذوا حنين بن إسحاق وغيره إلى بلد الروم فجاؤهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والارثماطيقى والطب . قال أبو سليمان المنطقى السجستانى إن بنى المنجم كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن إسحاق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم فى الشهر نحو ٥٠٠ دينار للنقل والملازمة . وقال ابن النديم فى موضع آخر هؤلاء القوم ممن تناهى فى طلب العلوم القديمة وبذل فيها الرغائب وأتعبوا فيها نفوسهم وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها إليهم فأحضروا النقله من الأصقاع والأماكن بالبذل السنى فأظهروا عجائب الحكمة وكان الغالب عليهم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى

---

(١) قال فى طبقات الأطباء الحجاج بن مطر نقل المأمون ومن نقله كتاب اقليدس ثم أصلح نقله فيما بعد ثابت بن قرة الحرانى

(٢) قال فى الطبقات يحى بن البطريق كان فى جملة الحسن بن سهل وكان لا يعرف العربية حق معرفتها ولا اليونانية وإنما كان لطينيا يعرف لغة الروم وكتابتها وهى الحروف المتصلة لا اليونانية القديمة

والنجوم وهو الأقل وتوفى محمد بن موسى سنة ٢٥٩ فى شهر ربيع الأول . ثم ذكر الكتب التى ألفوها . وقال ابن خلكان ومما اختصوا به فى ملة الاسلام وأخرجوه من القوة إلى الفعل وإن كان أرباب الأرصاد المتقدمون على الاسلام قد فعلوه لكنه لم ينقل أن أحدا من أهل هذه الملة تصدى له وفعله إلا هم وهو أن المأمون كان مغرى بعلوم الأوائل وتحقيقها ورأى فيها أن دور كرة الأرض ٢٤٠٠٠ ميل كل ثلاثة أميال فرسخ فيكون المجموع ٨٠٠٠ فرسخ بحيث لو وضع طرف حبل على أى نقطة كانت من الأرض وأدرنا الحبل على كرة الأرض حتى انتهينا بالطرف الآخر إلى ذلك الموضع من الأرض والتقى طرفا الحبل فاذا مسحنا ذلك الحبل كان طوله ٢٤٠٠٠ ميل فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك فسأل بنى موسى المذكورين عنه فقالوا نعم هذا قطعى فقال أريد أن تعملوا الطريق الذى ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أم لا — فسألوا عن الأراضى المتساوية فى أى البلاد هى فقيل لهم صحراء سنجار فى غاية الاستواء وكذلك وطآ الكوفة فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون إلى أقوالهم ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة وخرجوا إلى سنجار وجاؤا إلى الصحراء المذكورة فوقفوا فى موضع منها فأخذوا ارتفاع القطب الشمالى ببعض الآلات وضربوا فى ذلك الموضع وتدا وربطوا فيه حبلا طويلا ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف إلى اليمين واليسار حسب الامكان فلما فرغ الحبل نصبوا فى الأرض وتدا آخر وربطوا فيه حبلا طويلا ومشوا إلى جهة الشمال أيضا كفعلهم الأول ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا إلى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفاع الأول درجة فمسحوا ذلك القدر الذى قدروه من الأرض بالحبال فبلغ ⅔ ٦٦ ميلا فعلموا أن كل درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الأرض ⅔ ٦٦ ميلا ثم عادوا إلى الموضع الذى ضربوا فيه الوتد الأول وشدوا فيه حبلا وتوجهوا إلى جهة الجنوب ومشوا على الاستقامة وعملوا كما عملوا فى جهة الشمال من نصب الأوتاد وشد الحبال حتى فرغت الحبال التى استعملوها فى جهة الشمال ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالى قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة فصح حسابهم وحققوا ما قصدوا من ذلك — وهذا إذا وقف عليه من له يد فى علم الهيئة ظهر له حقيقة ذلك ومن المعلوم

أن عدد درج الفلك ٣٦٠° لأن الفلك مقسوم باثنى عشر برجا برج ٣٠° فتكون الجملة ٣٦٠° فضربوا عدد درج الفلك فى $\frac{2}{3}$ ٦٦ ميلا التى هى حصة كل درجة فكانت الجملة ٢٤٠٠٠ وهى ٨٠٠٠ فرسخ (الميل $\frac{2}{3}$ ١٦٦٦م والفرسخ ٥٠٠٠م) وهذا محقق لاشك فيه فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخبروه بما صنعوا وكان موافقا لما رآه فى الكتب القديمة من استخراج الأوائل طلب تحقيق ذلك فى موضع آخر فسيرهم إلى أرض الكوفة وفعلوا كما فعلوا فى سنجار فتوافق الحسابان فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء فى ذلك . وممن كان ينقل لهم حنين بن إسحاق العبادى وكان فاضلا فى صناعة الطب فصيحا باللغة اليونانية والسريانية والعربية والفارسية دار البلاد فى جمع الكتب القديمة ودخل بلد الروم وأكثر نقوله لبنى موسى ونقله فى غاية الجودة وكانت وفاته سنة ٢٦٠

وكان هناك كثير غير بنى شاكر يحذون حذوهم فى ذلك فكثرت الكتب المترجمة فى جميع العلوم الصناعية ولما نقلت إلى العربية اشتغل بها الناس كثيرا علما وعملا ففسروا مغلقها وأصلحوا خللها ووجد منهم فلاسفة عظام ألفوا كتبا عظيمة فى هذه العلوم منهم من صميم العرب يعقوب بن إسحاق الكندى ينتهى نسبه إلى الأشعث ابن قيس بن معد يكرب ثم إلى كندة وكان عظيم المنزلة عند المأمون وعند المعتصم وله مصنفات جليلة ورسائل كثيرة جدا فى جميع العلوم ونقل فى طبقات الأطباء عن سليمان بن حسان أنه كان عالما بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللحون والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم ولم يكن فى الاسلام فيلسوف غيره احتذى فى تواليفه حذو ارسطوطاليس وله تواليف كثيرة فى فنون العلم وخدم الملوك فباشرهم بالأدب وترجم من كتب الفلسفة الكثير وأوضح منها المشكل ولخص المستصعب وبسط العويص . وقال أبو معشر فى كتاب المذكرات لشاذان : حذاق التراجمة فى الاسلام أربعة حنين بن إسحاق ويعقوب بن إسحاق الكندى وثابت ابن قرة الحرانى وعمر بن الفرخان الطبرى وقد ذكر فهرس كتبه فى نحو خمس صفحات فى علوم شتى

وإنما ذكرنا هذا لندل على أن الأمة كانت فى استعداد تام لتلقى هذه الكتب والتصرف فيها والبناء عليها والزيادة فيها فنفقت بسبب ذلك هذه العلوم واشتغل بها

المتعلمون فى بغداد حاضرة الخلافة وفى غيرها من الحواضر ولم يقفهم عن التقدم كلمات العلماء من أهل الحديث التى كانت توجه إليهم أحيانا خفية لمكان الخليفة منهم فقد كان هو المساعد الأكبر فى نفاق هذه العلوم

فالمأمون يعد فى الحقيقة حامل لواء هذه العلوم وسبب تلك الحركة الكبرى التى وجدت فى الأمة الاسلامية مع حفظ الفضل لمن سبقه فى ذلك كأبيه الرشيد وجده المنصور فانهما وضعا الأساس وهو حذا حذوهم إلا انه فاقهم فى الاهتمام والعزم

الأحوال الخارجية

لم يكن بين المسلمين والروم حروب فى أول عهد المأمون إلى سنة ٢١٥ وفيها شخص المأمون بنفسه من مدينة السلام لغزو الروم فى المحرم (مارس سنة ٨٣٠) واستخلف على المدينة إسحاق بن إبراهيم بن مصعب وسلك طريق الموصل حتى صار إلى منبج ثم دابق ثم أنطاكية ثم المصيصة ومنها خرج إلى طرسوس وهى الثغر الاسلامى ومن طرسوس دخل إلى بلاد الروم فى منتصف جمادى الأولى (يوليه سنة ٨٣٠) ففتح حصن قرة عنوة وأمر بهدمه . ولما تم فتحه اشترى السبى بستة وخمسين ألف دينار ثم خلى سبيلهم وأعطاهم دينارا دينارا — وكان قبل ذلك افتتح حصنا اسمه ماجدة فمن على أهله — ثم أرسل أشناس إلى حصن سندس فأتاه برأسه — ووجه عجيفا وجعفر الخياط إلى صاحب حصن سنان فسمع وأطاع

وبعد ذلك شخص إلى الشام وهناك ورد الخبر عليه بأن ملك الروم قتل قوما من أهل طرسوس والمصيصة عدتهم فيما يقال ١٦٠٠ فأعاد الكرة على بلاد الروم فنزل على أنطيغو فخرج أهلها على صلح وصار إلى هرقلة فخرج أهلها على صلح ووجه أخاه إسحاق فافتتح ثلاثين حصنا ووجه يحيى بن أكثم من طوانة فأغار وغنم ورجع إلى العسكر — ثم خرج المأمون إلى كيسوم ثم إلى دمشق ومنها خرج إلى مصر فى ١٦ الحجة سنة ٢١٦ ثم عاد منها إلى دمشق سنة ٢١٧ فدخل أرض الروم ثالث مرة فأناخ على لؤلؤة مائة يوم ثم رحل عنها وخلف عليها عجيفا فاختدعه أهلها وأسروه فمكث أسيرا فى أيديهم ثمانية أيام ثم أخرجوه وسار توفيل إلى لؤلؤة فأحاط بعجيف فصرف المأمون الجنود إليه فارتحل توفيل قبل موافاتهم وخرج أهل لؤلؤة إلى عجيف بالأمان

وكاتب ملك الروم المأمون فى سفرته هذه وأجابه المأمون على كتابه وهذه نسخة كتابيهما

كتب ملك الروم إلى المأمون : أما بعد فان اجتماع المختلفين على حفظهما أولى بهما فى الرأى مما عاد بالضرر عليهما ولست حريا أن تدع لحظ يصل إلى غيرك حظا تحوزه إلى نفسك وفى علمك كاف عن أخبارك وقد كنت كتبت إليك داعيا إلى المسالمة راغبا فى فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ونكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا مع اتصال المرافق والفسح فى المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة فان أبيت فلا أدب لك فى الخمر ولا أزخرف لك فى القول فانى لخائض إليك غمارها آخذ عليك أسدادها شان عليك خيلها ورجلها وإن أفعل فبعد أن قدمت إليك المعذرة وأقمت بينى وبينك علم الحجة والسلام

رد المأمون : أما بعد فقد بلغنى كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به من فسح المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ورفع القتل والقتال فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ فى تقليب الفكرة وأن لا أعتقد الرأى فى مستقبله إلا فى إصلاح ما أوثره فى معتقبه لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكالكم ويتقربون إلى الله بدمائكم ويستقلون فى ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ثم أوصل لهم من الأمداد وأبلغ لهم كافيا من العدة والعتاد هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم موعدهم إحدى الحسنيين عاجل غلبة أو كريم منقلب غير أنى رأيت أن أتقدم اليك بالموعظة التى يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية فان أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة وإن تركت ذلك ففى يقين المعاينة لقوتنا ما يغنى عن الابلاغ فى القول والاغراق فى الصفة والسلام على من اتبع الهدى

شخص المأمون إلى الرقة سنة ٢١٨ وفى هذه السنة فى جمادى (يونية سنة ٨٣٣) سير ابنه العباس إلى أرض الروم وأمره بنزول الطوانة وبنائها فابتدأ البناء بناها ميلا فى ميل وجعل سورها على ثلاثة فراسخ وجعل لها أربعة أبواب وبنى على كل باب حصنا . ثم سار المأمون بعده إلى بلاد الروم فدخلها من ناحية طرسوس وهناك كانت وفاته كما يأتى

أخلاق المأمون

أول ماظهر من حلى المأمون ميله للعفو وكراهته للانتقام فانه عفا عن جميع من ساعدوا خصومه عليه ولم يجبههم بشيء حتى الفضل بن الربيع الذى أخذ قواده وسلاحه وجنوده وجميع ماأوصى به أبوه له فذهب به إلى الأمين وتركه بمرو مجردا عن كل ذلك ثم أفسد عليه أخاه وأغراه على خلعه وكان أشد عليه من كل شيء ومع هذا لم يؤاخذه بجرمه ولما دخل على المأمون وأعلنه المأمون بالعفو سأله الرضا فقال المأمون أجل العفو لايكون إلا عن رضا وسجد المأمون شكرا لله على أن ألهمه نعمة العفو عنه وقال الحمد لله قديما ما كنت أسلم عليه فأفرح برده فسبحان الذى ألهمنى الصفح عنه فلذلك سجدت قال طاهر بن الحسين فعجبت لسعة حلمه . وقال زيد بن على بن الحسين جلس المأمون يوما للغداء وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يذكر مناقبه ويصف سيرته ومجلسه إذ انهملت عين المأمون فلما سئل عن سبب بكائه قال ماذلك من حدث ولا لمكروه هممت به لأحد ولكنه جنس من أجناس الشكر لله لعظمته وذكر نعمته التى أتمها على كما أتمها على أبوى من قبلى أماترون ذاك الذى فى صحن الدار (يعنى الفضل ابن الربيع) كان فى أيام الرشيد وحاله حاله يرانى بوجه أعرف فيه البغضاء والشنآن وكان له عندى كالذى لى عنده ولكنى كنت أداريه خوفا من سعايته وحذرا من أكاذيبه فكنت إذا سلمت عليه فرد على أظل لذلك فرحا وبه مبتهجا وكان صفوه إلى المخلوع فحمله على أن أغراه بى ودعاه إلى قتلى وحرك الآخر مايحرك القرابة والرحم الماسة فقال أما القتل فلا أقتله ولكن أجعله بحيث إذا قال لم يطع وإذا دعا لم يجب فكان أحسن حالاتى عنده أن وجه مع على بن عيسى قيد فضة بعد ماتنازعا فى الفضة والحديد ليقيدنى به وذهب عنه قول الله تعالى « ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله » فذاك موضعه من الدار بأخس مجالسها وأدنى مراتبها (وكان يجلس مع أصحاب الحرس) وهذا الخطيب على رأسى وكان بالأمس يقف على هذا المنبر الذى بازائى مرة وعلى المنبر الغربى مرة فيزعم أنى المأفون ولست بالمأمون ثم هو الساعة يقرظنى تقريظه المسيح ومحمدا عليهما السلام .

وكان له فى العفو لذة لا يعادلها لذة حتى أنه لما ظفر بعمه إبراهيم عفا عنه مع

عظيم جرمه وهذا خلق كاد ينساه التاريخ حتى حازه للمأمون الذى أحس من نفسه بقدرة السلطان فأذهب ذلك عنه الحفيظة ولم يؤثر عنه ما يعيبه إلا ما كان منه بمصر حيث أمر بقتل محاربين نزلوا على حكمه مع ضياع قوتهم واقتناعه بعذرهم وهم أهل البشرود بأسفل مصر كانوا ثاروا على عمالهم بسبب سوء سيرتهم فأرسل إليهم الأفشين فأوقع بهم حتى نزلوا على حكم أمير المؤمنين ولما ذهب إليهم المأمون حكم بقتل رجالهم وبيع نسائهم وأطفالهم وذلك فى صفر سنة ٢١٧ وهى حادثة فى غاية الغرابة بالنسبة لما عرف من خلق المأمون الذى اشترى سبي الروم بماله وأطلقهم وأعطى كل واحد دينارا دينارا ومن على غيرهم من السبي

ومن مزايا المأمون أنه كان فى جدله ميالا إلى الاقناع فكان يناقش من خالفه حتى يبين له الحجة وله فى ذلك مجالس مأثورة مشهورة وله فى الجدل حجج قوية ناصعة مع سعة الصدر والاحتمال لما يبدر ممن حضره فى المناقشة وكان أصحابه ووزراؤه يدلونه على موضع الخطأ مما يريد أن يفعل . أراد مرة أن ينتقص معاوية بن أبى سفيان ويلعنه فقال له يحيى بن أكثم إن العامة لا تحتمل مثل هذا سيما أهل خراسان ولا تأمن أن يكون لهم نفرة وإن كانت لم تدر ما عاقبتها والرأى أن تدع الناس على ما هم عليه ولا تظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق فان ذلك أصلح فى السياسة وأحرى فى التدبير . فاتبع المأمون نصيحته وطوى الكتاب الذى كان قد أنشئ فى هذا المعنى فلم يقرأ على العامة ولكنه بقى فى دفاترهم مسجلا

كان المأمون مع حلمه يعلم ما عليه رؤساء جنده ورجال دولته فلم يكن بالمغفل الذى ينخدع برياء الناس ونفاقهم وظهورهم بما ليس من خيمهم قال يوما وفى مجلسه جماعة ماتوا فى عسكرنا من يطلب ما عندنا بالرياء فقال كل واحد بما عنده إما أن يقول فى عدو يقدح فيه أو يقول بما يعلم أنه يسر خليفته فلما قالوا ذلك قال ما أرى عند أحد منكم ما يبلغ إرادتى ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره أهل الرياء حتى لو كان قد أقام فى رحل كل واحد منهم حولا ما زاد على معرفته فكان مما حفظ عنه إذ قال حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس — تسبيح حميد الطوسى وصلاة قحطبة . وصوم النوشجانى . ووضوء بشر المريسى . وبناء مالك بن شاهى المساجد . وبكاء إبراهيم بن بريهة على المنبر . وجمع الحسن بن قريش اليتامى . وقصص منجا

وصدقة على بن الجنيد . وحملان إسحاق بن إبراهيم فى السبيل . وصلاة ابن رجاء فى الضحى . وجمع على بن هشام القصاص — حتى جمع جماعة كثيرة فقال رجل من عظماء العسكر لآخر بعد أن خرجا من الدار هل رأيت أو سمعت بملك قط أعلم برعيته ولا أشد تنقيرا من هذا — فحدث إبراهيم بن المهدى بهذا الحديث رجلا من أصحاب الأخبار والعلم فقال له وما تصنع بهذا قد شهدت رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم فى الفقهاء يخبر بمعايبهم رجلا رجلا حتى لهو بها أعلم منهم بما فى منازلهم .

قعد مرة للمظالم فقدم إليه أصحاب الحاجات فقضى ما شاء من حاجاتهم وكان فيهم نصرانى من أهل كسكر كان قد صاح بالمأمون غير مرة وقعد له فى طريقه فلما بصر به المأمون أثبته معرفة فأمر سلما صاحب الحوائج أن يبطحه ويضربه عشرين درة وقال لسلم قل له تعود تصيح بى فقال له سلم ذلك وهو مبطوح فقال الرجل أعود وأعود وأعود حتى تنظر فى حاجتى فأبلغه سلم ذلك فقال هذا مظلوم موطن نفسه على القتل أو قضاء حاجته ثم قال لأبى عباد اقض حاجة هذا كائنة ما كانت الساعة . فلا أدرى مم يعجب الانسان أمن ملاحظة المأمون وعرفان الرجل لأنه هو الذى صاح به مرة أو مرتين أم من تأميل الرجل فيه بعد أن أمر بضربه أم من رجوع المأمون عن خطئه فيما صنع وأمره بقضاء حاجة الرجل كائنة ما كانت

وكان مع هذه الأخلاق أديبا يعرف جيد الشعر ورديئه ويثيب على ما أعجبه منه ثوابا فوق كل أمل . حدث عمارة بن عقيل قال أنشدت المأمون قصيدة فيها مديح له فيها مائة بيت أو أكثر فما ابتدأت بصدر بيت إلا بادرنى إلى قافيته فقال عمارة والله ياأمير المؤمنين ماسمعها منى أحد قط فقال المأمون هكذا ينبغى أن يكون، وقال عمارة قال لى عبدالله بن السمط علمت أن المأمون لا يبصر الشعر فقلت ومن ذا يكون أعلم منه فوالله إنك لترانا ننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره . قال إنى أنشدته بيتا أجدت فيه فلم أره تحرك له — قلت وما الذى أنشدته فقال

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلا ... بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فقلت ماصنعت شيئا وهل زدت على أن جعلته عجوزا فى محرابها فى يده سبحتها فمن القائم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المطوق بها هلا قلت فيه كما قال جرير فى عبد العزيز بن الوليد

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه ٭ ولاعرض الدنيا عن الدين شاغله

ولعلمه بالشعر ومحبته له راجت فى زمنه سوقه وكثر الشعراء والأدباء كما كثر المغنون ونبغوا . وكان المأمون يسمع الغناء ويحب الجيد منه وكان يشرب النبيذ على رأى أهل العراق

أما كرمه فما سارت به الأمثال فقد أربى على جميع خلفاء بنى العباس حتى على أبيه الذى كان يعطى عطاء من لايخاف فقرا ولايخشى إقلالا وحكايات المأمون فى العطاء كثيرة فلانطيل بذكرها إلا أنا نذكر حادثة تدل على مقدار الترف فى القوم وسعة اليد وكثرة البذل

بنى المأمون سنة ١٢٠ ببوران بنت الحسن بن سهل فى فم الصلح واحتفل أبوها بأمرها وعمل من الولائم والأفراح مالم يعهد مثله فى مصر من الأمصار وانتهى أمره إلى أن نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك فكانت البندقة إذا وقعت فى يد الرجل فتحها وقرأ مافيها ثم يمضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ويتسلم مافيها ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر وأنفق على المأمون وقواده وجميع أصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه حتى على الجمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره فلم يكن فى العسكر من يشترى شيئا لنفسه ولا لدوابه تسعة عشر يوما وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين الف الف درهم (نحو مليون جنيه) وأمر المأمون له عند انصرافه بعشرة آلاف ألف درهم وأقطعه فم الصلح وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة . وهذا سرف عظيم سهل أمره الوارد الكثير

وفاة المأمون

بينما كان المأمون ببلاد الروم فى آخر غزواته وهو بالبدندون شمالى طرسوس أصابته حمى لم تمهله كثيرا وفى ١٨ رجب سنة ٢١٨ أدركته منيته فحمل إلى طرسوس ودفن بها وكانت سنه إذ توفى ٤٨ سنة

ولاية العهد

عهد المأمون وهو مريض إلى أخيه أبي اسحاق بن الرشيد ولم يخطىء خطأ من قبله بالعهد إلى اثنين وأوصاه بوصية مأثورة تقدم منها أشياء ومما جاء فيها (واعمل فى الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله الخائف من عقابه وعذابه ولا تغتر بالله ومهلته فكان قد نزل بك الموت ولا تغفل أمر الرعية الرعية الرعية العوام العوام فان الملك بهم وبتعهدك المسلمين والمنفعة لهم الله الله فيهم وفى غيرهم من المسلمين ولا ينهين إليك أمر فيه صلاح المسلمين ومنفعة لهم إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك وخذ من أقويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم فى شىء وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم وقربهم وتأنهم وعجل الرحلة عنى والقدوم إلى دار ملكك بالعراق وانظر هؤلاء القوم الذين أنت بساحتهم فلا تغفل عنهم فى كل وقت)

٨ — المعتصم

هو أبو إسحاق محمد بن الرشيد بن المهدى بن المنصور وأمه أم ولد اسمها ماردة ولد سنة ١٧٩ فبينه وبين أخيه المأمون تسع سنوات وكان فى عهد أخيه المأمون واليا على الشام ومصر وكان المأمون يميل إليه لشجاعته فولاه عهده وترك ابنه وفى اليوم الذى توفى فيه المأمون ببلاد الروم بويع له بالخلافة ولقب بالمعتصم بالله فى ١٩ رجب سنة ٢١٨ (١٠ أغسطس سنة ٨٣٣) ولم يزل خليفة إلى أن توفى بمدينة سامرا فى ١٨ ربيع الأول سنة ٢٢٧ (٤ فبراير سنة ٨٤٢) فكانت خلافته ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام

وكان يعاصره فى الأندلس عبد الرحمن الثانى بن الحكم بن هشام رابع أمراء بنى أمية بالأندلس (٢٠٦ — ٢٣٨)

ويعاصره فى المغرب الأقصى من الأدارسة محمد بن إدريس بن إدريس (٢١٣ — ٢٢١) ثم على بن محمد (٢٢١ — ٢٣٤)

ويعاصره فى أفريقية من الأغالبة زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب (٢٠١ — ٢٢٣) ثم الأغلب بن زيادة الله (٢٢٣ — ٢٢٦) ثم محمد بن الأغلب بن زيادة الله (٢٢٦ — ٢٤٢)

ويعاصره فى اليمن محمد بن إبراهيم الزيادى الذى ولاه المأمون (٢٠٣ — ٢٤٥)
ويعاصره فى خراسان الأمير عبد الله بن طاهر الذى ولاه المأمون (٢١٣ — ٢٣٠)
ويعاصره فى مملكة الروم بالقسطنطينية توفيل بن ميخائيل (٨٢٩ - ٨٤٢)
ويعاصره فى فرنسا لويز الأول الملقب باللين (٨١٤ - ٨٤٠) ثم شارل الملقب بالاصلع (٨٤٠ - ٨٧٧)

الأحوال فى عهد المعتصم

بعد أن تمت البيعة المعتصم ببلاد الروم عاد بالعسكر قاصدا بغداد بعد أن أمر بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانة وحمل ما كان بها من السلاح والآلة وغير ذلك مما قدر على حمله وأحرق مالم يقدر على حمله وأمر بصرف من كان المأمون أسكنه ذلك من الناس إلى بلادهم . وكان دخول المعتصم بغداد يوم السبت مستهل رمضان سنة ٢١٨

وزراء المعتصم

الفضل بن مروان بن ماسرخس . كان رجلا نصرانيا من أهل البردان وكان متصلا برجل من العمال يكتب له وكان حسن الخط ثم صار مع كاتب كان للمعتصم قبل أن يستخلف وهذا الكاتب هو يحيى الجرمقانى فلما مات يحيى صير الفضل فى موضعه ولم يزل كذلك حتى بلغ المعتصم الحال التى بلغها والفضل كاتبه . لما خرج المعتصم مع المأمون فى غزوته الأخيرة كان الفضل ببغداد ينفذ أمور المعتصم ويكتب على لسانه بما أحب فلما بلغه موت المأمون قام بأمر بيعة المعتصم ببغداد وضبط الأمور حتى قدم المعتصم بغداد خليفة فعرف له فضل اجتهاده ونشاطه فسلم إليه أمر الخلافة وخلع عليه ورد أموره كلها إليه فغلب عليه بطول خدمته وتربيته واستقل بالأمور ولم يزل على ذلك سنتين فلما بدا للمعتصم استبداده بالأمور ثقل عليه . كان يدخل على المعتصم فيقول له احمل إلى كذا وكذا من المال فيقول ماعندى فيقول فاحتلها من وجه من الوجوه فيقول ومن أين أحتالها ومن يعطينى هذا القدر من المال وعند من أجده فكان ذلك يسوء المعتصم ويعرف فى وجهه . وكان للمعتصم رجل

مضحك اسمه إبراهيم الهفتى كان يصحبه قبل الخلافة فيقول له فيما يداعبه والله لاأفلحت أبدا فلما ولى المعتصم أمر للهفتى بمال وأمر الفضل أن يعطيه إياه فلم يفعل - فبينا الهفتى يوما عند المعتصم بعدما بنيت له داره التى ببغداد واتخذ له فيها بستان قام المعتصم يمشى فى البستان ينظر إليه وإلى ما فيه من أنواع الرياحين والغروس ومعه الهفتى وكان رجلا مربوعا ذا كدنة والمعتصم رجلا معرقا خفيف اللحم فجعل المعتصم يسبق الهفتى فى المشى فاذا تقدم ولم يره التفت إليه فقال مالك لاتمشى يستعجله فى المشى فلما كثر ذلك من أمر المعتصم قال له الهفتى مداعبا كنت أرانى أماشى خليفة ولم أكن أرانى أماشى فيجا والله لاأفلحت — فضحك المعتصم وقال ويلك وهل بقى من الفلاح شىء لم أدركه بعد الخلافة فقال الهفتى أتحسب أنك أفلحت الآن إنما لك من الخلافة الاسم والله مايجاوز أمرك أذنك وإنما الخليفة الفضل بن مروان الذى ينفذ أمره من ساعته فقال المعتصم أى أمر لى لاينفذ فقال الهفتى أمرت لى بكذا وكذا منذ شهرين فما أعطيت مما أمرت به منذ ذاك حبة فاحتجنها المعتصم على الفضل مع ماسبق له معه فأول مافعله أن جعل عليه زماما فى نفقات الخاصة وهو أحمد بن عمار الخراسانى وزماما فى الخراج وجميع الأعمال وهو نصر بن منصور. ثم زاد الأمر واستفحل فاشتد غضب المعتصم عليه وعلى أهل بيته وأمرهم برفع ما جرى على أيديهم أى تقديم الحساب عما وصل إليهم من المال وعما صرفوه ولما فرغ الحساب أمر بحبس الفضل وأن يحمل إلى منزله ببغداد ثم نفى إلى قرية فى طريق الموصل يقال لها السن وبقى كذلك حياة المعتصم قال الصولى فى أخبار الوزراء إن المعتصم أخذ من بيته لما نكبه ألف ألف دينار وأخذ أثاثا وآنية بألف ألف دينار

كان الفضل قليل المعرفة بالعلم جيد الكتابة ومن المأثور عنه: لاتتعرض لعدوك وهو مقبل فان إقباله يعينه عليك ولاتتعرض له وهو مدبر فان إدباره يكفيك أمره واستمرت حياة الفضل بن مروان إلى سنة ٢٥٠

استوزر المعتصم بعد الفضل أحمد بن عمار الخراسانى الذى تقدم ذكره فلم يكن فيه كفاية كتابية. ورد على المتعصم كتاب من بعض العمال فقرأه الوزير عليه وكان فى الكتاب ذكر الكلأ فقال المعتصم ما الكلأ فقال لاأدرى. فقال المعتصم خليفة أمى ووزير عامى (وكان المعتصم ضعيف الكتابة) ثم قال أبصروا من بالباب من

الكتاب فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات فأدخلوه إليه فقال له ما الكلأ — فقال الكلأ العشب على الاطلاق فان كان رطبا فهو الخلا فاذا يبس فهو الحشيش وشرع فى تقسيم أنواع النبات فعرف المعتصم فضله واستوزره

محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة المعروف بابن الزيات : كان جده أبان رجلا قرويا من الدسكرة يجلب الزيت من موضعه إلى بغداد فعرف محمد به . نشأ محمد ببغداد فتعلم وتأدب ونال من ذلك حظا وافرا حتى قيل إن أبا عثمان المازنى لما قدم بغداد فى أيام المعتصم كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه فى علم النحو فاذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم أبو عثمان ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب (يعنى ابن الزيات) فاسألوه فاعرفوا جوابه فيفعلون ويصدر جوابه بالصواب الذى يرتضيه أبو عثمان ويوقفهم عليه . وكان محمد فى أول أمره من الكتاب بالديوان فحصلت المسألة التى شرحناها فى تاريخ أحمد بن عمار فاستوزره المعتصم فقام بأمر الوزارة خير قيام واستمر وزيرا إلى وفاة المعتصم وخدم الخلفاء بعد ذلك كما يأتى

وكان محمد بن عبد الملك مع علمه وأدبه ومعرفته بخدمة الملوك شاعرا ظريفا عده دعبل بن على فى طبقات الشعراء وذكره أبو عبد الله هارون بن المنجم فى كتابه البارع ومن رقيق شعره قوله فى موت أم ابنه ولابنه ثمانى سنوات .

ألا من رأى الطفل المفارق أمه * بعيد الكرى عيناه تنسكبان
رأى كل أم وابنها غير أمه * يبيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا فى الفراش تجيبه * بلابل قلب دائم الخفقان
فهبنى أطلت الصبر عنها لأننى * جليد فمن للصبر بابن ثمان
ضعيف القوى لايعرف الصبر جسمه * ولا يأتسى بالناس فى الحدثان

وقد مدحه الوليد بن عبادة الشاعر المعروف بالبحترى بقصيدة مطلعها :

بعض هذا العتاب والتفنيد * ليس ذم الوفاء بالمحمود

يقول فيها واصفا مامنحه من البلاغة :

لتفننت فى الكتابة حتى * عطل الناس فن عبد الحميد
فى نظام من البلاغة ماشك امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا * حك فى رونق الربيع الجديد

مشرق فى جوانب السمع مايخـلقه عوده على المستعيد
ماأعيرت منه بطون القراطيس وماحملت ظهور البريد
مستميل سمع الطروب المعنى ٭ عن أغانى مخارق وعقيد
حجج تخرس الألد بألفا ٭ ظ فرادى كالجوهر المعقود
ومعان لو فصلتها القوافى ٭ هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختيارا ٭ وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركـن به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون فى الحلل البيض إذا رحن فى الخطوط السود
قد تلقيت كل يوم جديد ٭ ياأبا جعفر بمجد جديد
يئس الحاسدون منك ومامجـدك مما يرجوه ظن الحسود
واذا استطرفت سيادة قوم ٭ بنت بالسودد الطريف التليد
وذوو الفضل مجمعون على فضـلك من بين سيد ومسود
عرف العالمون فضلك بالعلم وقال الجهال بالتقليد

والذى كان يعاب عليه شدته فى معاملة العمال الذين يصادرهم لخياناتهم فى الأعمال وكان إذا قال له أحد منهم أيها الوزير ارحمنى قال الرحمة خور فى الطبيعة

أحمد بن أبى دؤاد الأيادى : كان من المعتصم كيحيى بن أكثم من المأمون ولذلك سقنا خبره فى عداد الوزراء

أصل بيته فيما يقال من إحدى قرى قنسرين وكان أبوه يتجر إلى الشام أماهو فولد بالبصرة سنة ١٦٠ ونشأ بها فى طلب العلم وخاصة الفقه والكلام وصحب هياج بن العلاء السلمى وكان من أصحاب واصل بن عطاء الغزالى كبير المعتزلة ومقدمهم فمال أحمد من أجل ذلك إلى الاعتزال وكان يحضر ببغداد مجلس القاضى يحيى بن أكثم فلما أمره المأمون أن يختار جماعة من الفقهاء يجالسونه ويبحثون معه كان أحمد فى هؤلاء المختارين فكان المأمون اذا شرع أحمد فى الكلام ينظر اليه ويتفهم مايقول ويستحسنه فأمره أن يحضر مجلسه دائما ولا يتأخر عنه وأحبه المأمون جدا وخف على قلبه حتى قال لأخيه المعتصم فى وصيته (وأبو عبد الله أحمد بن أبى داود لا يفارقك وأشركه فى المشورة فى كل أمرك فانه موضع لذلك منك) فولاه المعتصم قضاء القضاة

واختص به حتى كان لايفعل فعلا باطنا ولاظاهراً إلا برأيه فكان له فى حياة المعتصم مركز لا يدانيه فيه أحد حتى قال أزون بن اسمعيل مارأيت أحدا قط أطوع لأحد من المعتصم لابن أبى دؤاد وكان يسأل الشىء اليسير فيمتنع منه ثم يدخل ابن أبى دؤاد فيكلمه فى أهله وفى الثغور وفى الحرمين وفى أقاصى أهل المشرق والمغرب فيجيبه إلى كل مايريد ولقد كلمه يوما فى مقدار الف الف ليحفر بها نهرا فى أقاصى خراسان فقال المعتصم وماعلى من هذا النهر فقال ياأمير المؤمنين إن الله تعالى يسألك عن النظر فى أمر أقصى رعيتك كما يسألك عن النظر فى أمر أدناها ولم يزل يرفق به حتى أطلقها

وقال الحسين بن الضحاك الشاعر لبعض المتكلمين ابن أبى دؤاد عندنا لايعرف اللغة وعندكم لايحسن الكلام وعند الفقهاء لايحسن الفقه وعند المعتصم يحسن هذا كله

كان ابن أبى دؤاد ممن يحبون الخير للناس وله شرف نفس وجمال خلق عربى حتى عرف بالمروءة وكان يحمل فى سبيلها مالايحمله أحد قال أحمد بن عبد الرحمن الكلبى : ابن أبى دؤاد روح كله من قرنه إلى قدمه . ومن طريف نوادره فى المروءة أن الافشين كان يحسد أبا دلف القاسم بن عيسى العجلى للعربية والشجاعة فاحتال عليه حتى شهد عليه بجناية وقتل فأخذه وأحضر السياف لقتله وبلغ الخبر ابن أبى دؤاد فخاف إذا هو ذهب إلى المعتصم وكلمه فى شأنه أن يكون الكلام بعد فوات الوقت فركب فورا مع من حضره من العدول ودخل على الافشين وقد جىء بأبى دلف ليقتل فوقف وقال إنى رسول أمير المؤمنين إليك وقد أمرك ألا تحدث فى القاسم ابن عيسى حدثا حتى تسلمه إلى ثم التفت إلى العدول وقال اشهدوا أنى أديت إليه الرسالة عن أمير المؤمنين والقاسم حى معافى فقالوا شهدنا وخرج فلم يقدر الافشين على تنفيذ مراده وذهب ابن أبى دؤاد إلى المعتصم من وقته فقال له ياأمير المؤمنين قد أديت عنك رسالة لم تقلها ماأعتد بعمل خير خيرا منها وإنى لأرجو لك الجنة بها ثم أخبره الخبر فصوب المعتصم رأيه ووجه من أحضر القاسم فأطلقه ووصله وعنف الافشين على ما كان عزم عليه .

وكان وجود ابن أبى دؤاد مع المعتصم مما عدل مزاجه لأنه شجاع شديد عجول فكان إذا أسرع إليه الغضب هدأ ابن أبى دؤاد من حدته وأراه وجه الأناة والعفو فلا يسعه إلا أن يسير فى سبيلهما وكان له عليه من الدالة وعلو المركز مايستعين

به على تنفيذ غرضه — غضب المعتصم مرة على خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى وأشخصه من ولايته لعجز لحقه فى مال طلب منه فجلس المعتصم لعقوبته وكان خالد قد طرح نفسه على ابن أبى دؤاد فتكلم فيه فلم يجبه المعتصم فلما جلس المعتصم حضر أحمد وهو قاضى القضاة فجلس دون مجلسه المعتاد فقال له المعتصم ياأبا عبد الله جلست فى غير مجلسك فقال ماينبغى لى أن أجلس إلا دون مجلسى هذا فقال له وكيف قال لأن الناس يزعمون أنه ليس موضعى موضع من يشفع فى رجل فيشفع — فقال المعتصم ارجع إلى مجلسك قال مشفعا أو غير مشفع قال بل مشفعا فارتفع إلى مجلسه ثم قال إن الناس مايعلمون رضاء أمير المؤمنين إن لم يخلع عليه فأمر بالخلع عليه فقال ياأمير المؤمنين قد استحق هو وأصحابه رزق ستة أشهر لابد أن يقبضوها وإن أمرت لهم بها فى هذا الوقت قامت مقام الصلة فقال قد أمرت له بها فخرج خالد وعليه الخلع وبين يديه المال وإن الناس ينتظرون الايقاع به فصاح به رجل الحمد لله على خلاصك ياسيد العرب فقال له اسكت سيد العرب والله أحمد بن أبى دؤاد . وكان فى ابن أبى دؤاد عصبية عربية ولعل هذا أفاد العرب وحفظ لهم شيئا من مقامهم فى عهد المعتصم الذى جعل القوة كلها لغلمان الأتراك الذين استكثر منهم ومن قوادهم

وكان ابن أبى دؤاد مع ذلك شاعرا أديبا مجيدا فصيحا بليغا ذكره دعبل فى طبقات الشعراء ومن مأثور قوله ثلاثة ينبغى أن يبجلوا وتعرف أقدارهم العلماء وولاة العدل والاخوان فمن استخف بالعلماء أهلك دينه ومن استخف بالولاة أهلك دنياه ومن استخف بالاخوان أهلك مروءته ولأبى تمام فيه مدائح جليلة منها قصيدته التى مطلعها

سقى عهد الحمى سبل العهاد ❊ وروض حاضر منه وباد

يقول فيها :

لقد أنست مساوى كل دهر ❊ محاسن أحمد بن أبى دؤاد
متى تحلل به تحلل جنابا ❊ رضيعا للسوارى والغوادى
ترشح نعمة الأيام فيه ❊ وتقسم منه أرزاق العباد
وما اشتبهت طريق المجد إلا ❊ هداك لقبلة المعروف هاد
وما سافرت فى الآفاق إلا ❊ ومن جدواك راحلتى وزادى
مقيم الظن عندك والأمانى ❊ وإن قلقت ركابى فى البلاد

معاد البعث معروف ولكن ٭ ندى كفيك فى الدنيا معادى

العلويون فى عهد المعتصم

لأول عهده توفى محمد الجواد بن على الرضا تاسع أئمة الشيعة الامامية الاثنى عشرية. وكانت وفاته سنة ٢٢٠ وسنه ٢٥ سنة وكانت تحته أم الفضل بنت المأمون فحملت إلى قصر عمها المعتصم فتولى الامامية بعده ابنه أبو الحسن على الهادى وكانت سنه حين مات أبوه سبع سنين

وخرج على المعتصم من الزيدية محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين ابن على. كان مقيما بالكوفة ثم خرج منها إلى الطالقان من خراسان يدعو إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم فاجتمع إليه بها ناس كثير فاهتم بأمره عبد الله بن طاهر أمير خراسان وبعث له البعوث فكان بين الفريقين وقعات بناحية الطالقان وجبالها فهزم هو وأصحابه فخرج هاربا يريد بعض كور خراسان كان أهله كاتبوه فلما وصل إلى نسا دل عليه فأخذه عاملها واستوثق منه وبعث به إلى عبد الله بن طاهر فأرسل به إلى المعتصم فحبس بسامرا سنة ٢١٩ فأقام فيه حتى كانت ليلة الفطر واشتغل الناس بالعيد والتهنئة احتال للخروج بواسطة رجال من شيعته فهرب ولم يعرف له خبر وقد انقاد إلى إمامته كثيرون من الزيدية ومنهم خلق كثير يزعمون أنه لم يمت وأنه حى يرزق وأنه يخرج فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وأنه مهدى هذه الأمة وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان وبقى ذلك الاعتقاد حتى سنة ٢٣٢ كما قال المسعودى فى مروج الذهب

الجيش

قدمنا ما كان فى عهد المأمون من كثرة العناصر الغريبة عن الأمة العربية فى جيش الدولة العباسية وذلك أمر قضت به الأحوال لذلك العهد كما شرحنا ذلك فلما جاء المعتصم أربى على أسلافه فى ذلك فقد كان يغلب عليه من أخلاق الرجال الشجاعة والميل إلى الشجعان: رأى أن من ببغداد من جنود الأبناء لا يوثق بهم لكثرة اضطرابهم وقيامهم على الخلفاء ورأى ما للأتراك من شدة البأس والنجدة فأراد أن يكون منهم جيشاً يستعز به على هؤلاء الأبناء ويرغم أنوفهم فاستكثر من غلمان

الاتراك وأحضر منهم عددا عظيما فوق ما كان منهم فى عهد أخيه المأمون وأسكنهم بغداد واستغنى عن جيوش العرب بمرة وأسقطهم كافة من الدواوين بحيث لم يبق مرتزق لعهده إلا من كان من الأتراك أو الأبناء الأنه اصطنع قوما من حوف مصر ومن حوف اليمن وحوف قيس وسماهم المغاربة وأتى بكثير من الفراغنة أهل فرغانة والاشروسنية أهل اشروسنة فكثر جيشه وكان هؤلاء القوم عجما جفاة يركبون الدواب فيترا كضون فى طرق بغداد وشوارعها فيصدمون الرجل والمرأة والصبي فيأخذهم الابناء فينكسونهم عن دوابهم ويجرحون بعضهم فربما هلك من الجراح بعضهم فشكا الاتراك ذلك الى المعتصم وتأذت به العامة فرأى المعتصم أن بقاء هؤلاء الأتراك فى وسط بغداد وبجانب جنود الأبناء خطر عليهم فكان ذلك سببا لتفكيره فى اختطاط حاضرة جديدة له ولهذا الجيش الجديد الذى أعجب به فاختطت سامرا

وكان المعتصم يلبس هذه الجنود أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وأبانهم بالزى عن سائر جنوده واشتهر منهم قواد اصطنعهم المعتصم ورفع من أقدارهم وجعل بيدهم مستقبل الخلافة الاسلامية وسنذكر بعضهم

(١) الافشين حيدر بن كاوس وهو تركى من أشروسنة « كورة من بلاد ماوراء النهر شرقيها فرغانة وغربيها سمرقند وشماليها الشاش وبعض فرغانة وجنوبيها بعض حدود كش والصغانيان وغيرهما ومدينتها التى يسكنها الولاة بنجكث »

كان حيدر فى حاشية المعتصم فى حياة المأمون وأصله من أبناء ملوك أشروسنة الذين يلقب الواحد منهم بالافشين ولما رأى شجاعته وشهامته استعان به فيما ولى من الأعمال وكان المعتصم واليا على مصر والشام فأرسله نيابة عنه لازالة الاضطراب فى برقة ومصر فنجح فيهما . ولما استخلف المعتصم كان الافشين فى مقدمة قواده فعين سنة ٢٢٠ لحرب بابك كما تقدم ذكره فظهرت على يديه عظائم الأعمال وإحكام سير الجيوش حتى ظفر بخصمه مع مناعة موقعه . ولما أمره المعتصم بالعود إلى سامرا كان يوجه اليه كل يوم من حين فصل من برزند إلى أن وافى سامرا فرسا وخلعة . ولما حضر توجه وألبسه وشاحين بالجوهر ووصله بعشرين ألف ألف درهم منها عشرة آلاف ألف صلة وعشرة آلاف ألف يفرقها فى أهل عسكره وعقد له على السند . ولما غزا المعتصم عمورية كان قائداً لاحدى الفرق الثلاث التى دخلت

بلاد الروم وهو الذى تولى حرب توفيل ملك الروم وهزم جنده . كل ذلك الاعظام والاجلال جعل الافشين يمنى نفسه بالملك والاستقلال فى بلاده أشرو سنة يوما ما وأول ماعرف ذلك منه أنه كان وهو يحارب بابك لايأتيه هدية ولامال إلاوجه به إلى أشروسنة فيجتاز ذلك بعبد الله بن طاهر أمير خراسان فيكتب إلى المعتصم بخبره فيكتب المعتصم إلى ابن طاهر يأمره بتعريف جميع مايوجه الافشين من الهدايا إلى أشروسنة فيفعل ذلك عبد الله . كان الافشين كلما تهيأ عنده مال حمله أوساط أصحابه بقدر طاقتهم فكان الرجل يحمل من الألف فما فوقه من الدنانير فى وسطه فأخبر عبد الله بذلك . فبينا هو فى يوم من الأيام وقد نزلت رسل الافشين نيسابور معهم الهدايا وجه إليهم ابن طاهر وأخذهم ففتشهم فوجد فى أوساطهم همايين فأخذها منهم وقال لهم من أين لكم هذا المال فقالوا هذه هدايا الافشين وأمواله فقال كذبتم لو أراد الافشين أخى أن يرسل بهذه الأموال لكتب إلى يعلمنى به لابذرقه « أحرسه » لأن هذا مال عظيم وأنتم لصوص فأخذ عبد الله المال وأعطاه جنده وكتب إلى الافشين يذكر له ماقال القوم وقال أنا أنكر أن تكون وجهت بهذا المال إلى أشروسنة ولم تكتب إلى تعلمنى لابذرقه فان كان هذا المال ليس لك فقد أعطيته الجند مكان المال الذى يوجه إلى أمير المؤمنين فى كل سنة وان كان المال لك كما زعم القوم فاذا جاء المال من قبل أمير المؤمنين رددته إليك وان يكن غير ذلك فأمير المؤمنين أحق بهذا المال وانما دفعته الى الجند لأنى أريد أن أوجههم إلى بلاد الترك . فكتب اليه يعلمه أن ماله ومال أمير المؤمنين واحد و يسأله اطلاق القوم ففعل ذلك ابن طاهر .

رأى الافشين أنه لايتم له أمر مادام ابن طاهر بخراسان فانتظر الفرص ليحمل المعتصم على عزله وتوليته مكانه وحينئذ يتسع له المجال . كان ببلاد طبرستان دهقان من أبناء ملوكها اسمه مازيار بن قارن بن ونداهرمز وكان منافرا لآل طاهر لايحمل إليهم الخراج ويحمله إلى المعتصم فكان إذا وصل المال همذان يأمر المعتصم رجلا من قبله فيستوفيه ثم يسلمه إلى صاحب عبد الله بن طاهر ليرده إلى خراسان فكانت هذه الحال بينهما حتى زادت المنافرة وبلغت حدها الأقصى فأراد الافشين انتهاز هذه الفرصة فكتب إلى مازيار يقويه على خلاف ابن طاهر ويخبره أن

المعتصم وعده إمارة خراسان وأراد الافشين بذلك أن يخالف مازيار فيولى المعتصم الافشين حربه ويكون له مع ذلك ولاية خراسان . دعا ذلك مازيار إلى إظهار الخلاف وشق عصا الطاعة ومنع الخراج وتحصن بجبال طبرستان . بلغ ذلك عبدالله ابن طاهر فوجه إليه عمه الحسن بن الحسين بن مصعب وضم إليه جيشا كثيفا يحفظ جرجان ووجه المعتصم من قبله محمد بن إبراهيم بن مصعب فى جمع كثيف وضم إليه الحسن بن قارن الطبرى القائد ومن كان بالباب من الطبرية ووجه منصور بن الحسن صاحب دنباوند إلى مدينة الرى ليدخل طبرستان من ناحية الرى - ولم ينتدب الافشين لشىء مما كان ظن وقد أحاطت هذه الجنود بطبرستان من كل جانب وهزمت جنود مازيار - فرأى أن يستأمن إلى الحسن بن الحسين فاستأمن إليه هو وأخوه قوهيار فأمر عبد الله بن طاهر بتسليم مازيار وأهل بيته إلى محمد بن إبراهيم لحملهم إلى المعتصم بسامرا

تحقق المعتصم من كل مابلغه عن الافشين واطلع على الكتب التى كان أرسلها أخو الافشين إلى مازيار وعلم الافشين ذلك فعزم على الهرب وصار يدبر التدابير الشنيعة للفتك بالمسلمين وقد وصل شىء من علم ذلك إلى قائد من القواد الأشروسنية فأخبر به المعتصم فأمر بحضور الافشين ولما حضر أخذ سواره وحبسه ثم أحضره فى مجلس عام لتبكيته ومناظرته وكان الذى تولى ذلك الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فثبت من التحقيق أن الرجل لايزال على كفره وأنه كان يكيد المكايد للوصول إلى ملك بلاده وأن أهل أشروسنة كانوا يخاطبونه باله الآلهة ثم ثبت أنه كان يكاتب المازيار وشهد المازيار أن أخاه خاش كتب إلى قوهيار أخى مازيار (إنه لم يكن ينصر هذا الدين الأبيض غيرى وغيرك وغير بابك فأما بابك فانه بحمقه قتل نفسه ولقد جهدت أن أصرف عنه الموت فأبى حمقه إلا أن دلاه فيما وقع فيه فان خالفت لم يكن للقوم مايرمونك به غيرى ومعى الفرسان وأهل النجدة والبأس فان وجهت إليك لم يبق أحد يحاربنا إلا ثلاثة المغاربة والعرب والأتراك والعربى بمنزلة الكلب اطرح له كسرة ثم اضرب رأسه بالدبوس وهؤلاء الذباب (يعنى المغاربة) إنما هم أكلة رأس وأولاد الشياطين (يعنى الأتراك) فانما هى ساعة حتى تنفد سهامهم ثم تجول الخيل عليهم جولة فتأتى على آخرهم ويعود الدين إلى مالم يزل عليه (أيام العجم) — ولما تبين

أمره قال القاضي أحمد بن أبي دؤاد قد وضح لكم أمره فعليك به يابغا فأعيد إلى محبسه حتى مات وبعد موته أخرج وصلب على باب العامة حتى يراه الناس ثم أحرق مع خشبته

(٢) إيتاخ: كان غلاما خزريا لسلام الابرش طباخا فاشتراه منه المعتصم سنة ١٩٩ وكان لايتاخ رجلة وبأس فرفعه المعتصم وولاه بعد الخلافة معونة سامرا مع إسحاق ابن إبراهيم وكان من قبله رجل ومن قبل إسحاق رجل وكان من أراد المعتصم قتله فعند إيتاخ يقتل وبيده يحبس، وولاه المعتصم قيادة إحدى الفرق الثلاث التي دخلت بلاد الروم إلى عمورية وقد استمر إيتاخ على منصبه وزعامته مدة الواثق وقتل لأول عهد المتوكل سنة ٢٣٥ . ففي سنة ١٩٩ اشترى بالمال وفي عهد الواثق كانت المملكة في يده فكان إليه الجيش والمغاربة والأتراك والبريد والحجابة ودار الخلافة — وما الذي بقي بعد هذا

(٣) أشناس: غلام تركي اشتراه المعتصم ورقاه لما ظهر من شجاعته وكان في غزوة عمورية على مقدمة الجيش واستخلفه مرة على سامرا حينما خرج منها وزاده رفعة سنة ٢٢٥ بأن أجلسه على كرسي وتوجه ووشحه كما فعل بالافشين وزوجه ابنته أترنجة للحسن بن الافشين وأحضر عرسه عامة أهل سامرا وكان يباشر بنفسه تفقد من حضر . وكانت تلك منزلته عند الواثق حتى أنه في سنة ٢٢٨ توجه وألبسه وشاحين بالجوهر ولم يزل في عظمته حتى توفي سنة ٢٣٠

وغير هؤلاء كان من القواد عجيف بن عنبسة ووصيف وبغا الكبير أبو موسى وغيرهم

كل هؤلاء قواد من الأتراك اختارهم المعتصم لشجاعتهم وسلمهم زمام ملك آبائه وأنزل العرب عما كان لهم من قيادة الجيوش وأسقط أسماءهم من الدواوين واعتز بهؤلاء المجاوبين فجعل بذلك بنيه تحت سلطان هؤلاء الغلف القلوب يتصرفون فيهم كما يشاؤون . ومع اغترار المعتصم بهؤلاء القواد كان يحس بما وقع فيه من الخطأ باختيارهم ولا سيما أنه ليس لأكثرهم نسب معروف فقد حدث إسحاق بن إبراهيم أن المعتصم قال له ياإسحاق في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة وإنما بسطتك في هذا الوقت لأفشيه لك — نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم اصطنع المأمون طاهر بن الحسين

فقد رأيت وسمعت وعبد الله بن طاهر فهو الرجل الذى لم ير مثله وأنت فأنت والله الذى لايعتاض منك السلطان أ .ا وأخوك محمد بن إبراهيم وأين مثل محمد وأما أنا فاصطنعت الافشين فقد رأيت إلى ماصار إليه أمره وأشناس ففشل أيه وايتاخ فلا شيء ووصيف فلا مغنى فيه — فقال إسحاق جعلنى الله فداك أجيب على أمان من غضبك قال قل — قلت ياأمير المؤمنين أعزك الله نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها واستعمل أمير المؤمنين فروعا لم تنجب إذ لاأصول لها — فقال ياإسحاق لمقاساة مامربى فى طول هذه المدة أسهل على من هذا الجواب

المعتصم وحده يتحمل أ كثر تبعة ماحل بالعباسيين من بعده من اضطراب أمرهم وضعف سلطانهم وما حل بالأمة العربية من غلبة هذا العنصر الغريب على أمرها . لم يكن الرجل بعيد النظر فى العواقب وإنما كان شجاعا جسورا يحب الشجعان ويعتزبهم مهما كان شأنهم سواء كانت لهم احساب يحترمونها أم ليست لهم أحساب وسواء كان يهمهم شأن الدولة وبقاؤها أم لا وهذا خطأ عظيم يحط بقدر الدول وينزلها من عظمتها

ومن النتائج التى سببها غطرسة هؤلاء الجنود الغرباء وعدم احترامهم لحقوق الأمة ثورة أبى حرب المبرقع اليمانى بفلسطين . وذلك أن بعض الجند أراد النزول فى داره وهو غائب عنها وذلك أمر لم يكن معروفا فى الدولة العربية قبل ذلك وكان فى الدار إما زوجة أبى حرب وإما أخته فمانعته من ذلك فضربها بسوط كان معه فاتقته بذراعها فأصاب السوط ذراعها فأثر فيها فلما رجع أبو حرب إلى منزله شكت إليه مافعل بها وأرته الأثر فاشتمل سيفه ومشى إلى الجندى وهو غار فقتله ثم هرب وألبس وجهه برقعا كيلا يعرف فصار إلى جبل من جبال الاردن فطلبه السلطان فلم يعرف له خبر وكان يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذى أوى إليه متبرقعا فيراه الرائى فيأتيه فيذكره ويحرضه على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويذكر السلطان ومايأتى إلى الناس ويعيبه فما زال ذلك دأبه حتى استجاب له قوم من حراثى أهل تلك الناحية وأهل القرى فلما كثرت غاشيته من هذه الطبقة من الناس دعا أهل البيوتات من تلك الناحية فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية منهم رجل يقال له ابن بيهس كان مطاعا فى أهل اليمن فاتصل خبره بالمعتصم فبعث

إليه رجاء بن أيوب الحضارى فى زهاء ألف رجل من الجند فلما صار إليه وجده فى عالم من الناس زهاء مائة ألف فتريث رجاء حتى كان أول عمارة الناس الأرضين وحراثتهم وانصرف من كان معه من الحراثين إلى الحراثة وأرباب الأرضين إلى أرضيهم وبقى أبو حرب فى زهاء ألف أو ألفين فناجزه رجاء وأسره وجل من معه ثم صار به إلى المعتصم أسيرا

الخراج

كما يمتاز عصر المأمون بالثبت الذى نقله العلامة ابن خلدون فى مقدمة تاريخه عن كتاب جراب الدولة يمتاز عصر المعتصم بالثبت الذى أورده قدامة بن جعفر فى كتاب الخراج له عن مقدار الجباية فى عهد المعتصم ونحن نورد خلاصته

الجهة	مقدار الجباية بالدراهم أو الدنانير
سواد العراق	١١٤ ٤٥٧ ٦٥٠ درهم
الاهواز	٢٣ ٠٠٠ ٠٠٠
فارس	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠
كرمان	٦ ٠٠٠ ٠٠٠
مكران	١ ٠٠٠ ٠٠٠
اصبهان	١٠ ٥٠٠ ٠٠٠
سجستان	١ ٠٠٠ ٠٠٠
خراسان	٣٧ ٠٠٠ ٠٠٠
حلوان	٩ ٠٠٠ ٠٠٠
الماهين	٩ ٨٠٠ ٠٠٠
همذان	١ ٧٠٠ ٠٠٠
ماسبذان	١ ٢٠٠ ٠٠٠
مهرجان قذق	١ ١٠٠ ٠٠٠
الايغارين	٣ ١٠٠ ٠٠٠
	٢٤٢ ٨٥٧ ٦٥٠

ماقبله	٢٤٢ ٨٥٧ ٦٥٠	
قم وقاشان	٣ ٠٠٠ ٠٠٠	
أذربيجان	٤ ٥٠٠ ٠٠٠	
الري ودنباوند	٢٠ ٠٨٠ ٠٠٠	
قزوين وزنجان وأبهر	١ ٨٢٨ ٠٠٠	
قومس	١ ١٥٠ ٠٠٠	
جرجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	
طبرستان	٤ ٢٨٠ ٧٠٠	
تكريت والطيرهان	٩٠٠ ٠٠٠	
شهرزور والصامغان	٢ ٧٥٠ ٠٠٠	
الموصل وما اليها	٦ ٣٠٠ ٠٠٠	
قردى وبازبدى	٣ ٢٠٠ ٠٠٠	
ديار ربيعة	٩ ٦٣٥ ٠٠٠	
ارزن وميافارقين	٤ ٢٠٠ ٠٠٠	
طرون	١٠٠ ٠٠٠	
آمد	٢ ٠٠٠ ٠٠٠	
ديار مصر	٦٠٠ ٠٠٠	
أعمال طريق الفرات	٢ ٩٠٠ ٠٠٠	
المجموع	٣١٤ ٢٨١ ٣٥٠	
قنسرين والعواصم	٣٦٠ ٠٠٠	دينار
جند حمص	٢١٨ ٠٠٠	»
جند دمشق	١١٠ ٠٠٠	»
جند الأردن	١٠٩ ٠٠٠	»
جند فلسطين	٢٩٥ ٠٠٠	دينار
مصر والاسكندرية	٢ ٥٠٠ ٠٠٠	»
	٣ ٥٩٢ ٠٠٠	

ماقبله	٣ ٥٩٢ ٠٠٠	
الحرمين	١٠٠ ٠٠٠	دينار
اليمن	٦٠٠ ٠٠٠	»
اليمامة والبحرين	٥١٠ ٠٠٠	»
عمان	٣٠٠ ٠٠٠	»
	٥ ١٠٢ ٠٠٠	

وذلك قريب بما كان فى حياة المأمون لأن الأحوال لم تتغير تغيرا يذكر

العلاقات الخارجية

قدمنا أن الذى كان يعاصر المعتصم من ملوك الروم توفيل بن ميخائيل وكان ينتهز الفرص الملائمة لينتقم من المسلمين الذين دوخوه وألزموه أن يدفع الفدية قهرا فحدث أنه لما كان الافشين يحارب بابك وقد ضيق عليه أن كتب بابك إلى ملك الروم يقول إن ملك العرب قد وجه معظم عساكره إلى ولم يبق على بابه أحد فان أردت الخروج إليه فليس فى وجهك أحد يمنعك وكان يطمع أن ملك الروم إذا تحرك ينكشف عنه بعض ماهو فيه فلم يلبث توفيل أن خرج فى مائة ألف مقاتل حتى أتى زبطرة ومعه جمع من المحمرة الذين أجلاهم إسحاق بن إبراهيم عن الجبال كما ذكرنا ذلك فى حروب البابكية فلما دخل زبطرة قتل من فيها من الرجال وسبى النساء والذرية وأحرق المدينة ومضى من فوره إلى ملطية فأغار على أهلها وعلى أهل حصون من حصون المسلمين وسبى من المسلمات فيما قيل أكثر من الف امرأة ومثل بمن صار فى يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع آذانهم وآنافهم . بلغت تلك الأخبار المعتصم بسامرا فاشتدعليه وصاح فى قصره النفير ثم ركب دابته وسمط خلفه شكالا وسكة حديد وحقيبة فلم يستقم له الخروج إلا بعد التعبئة ولكنه أرسل مقدمته لتكون مددا لأهل زبطرة فلما شارفتها وجدت ملك الروم قد رحل عنها فوقفوا قليلا حتى تراجع الناس إلى قراهم واطمأنوا

فلما انتهى أمر بابك سأل المعتصم أى بلاد الروم أمنع وأحصن فقيل عمورية

وهى مسقط رأس توفيل كما أن زبطرة مسقط رأس المعتصم ولم تكن غزيت قبل ذلك فتجهز المعتصم جهازا لم يتجهزه خليفة قبله من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط وكانت التعبئة هكذا — على المقدمة أشناس ويتلوه محمد بن إبراهيم المصعبى وعلى الميمنة إيتاخ وعلى الميسرة جعفر بن دينار بن عبد الله الخياط وأمر الأفشين أن يمضى فيدخل بلاد الروم من درب الحدث وسمى له يوما أمره أن يكون وصوله فيه إلى أنقرة وقدر هذا اليوم بنفسه لاشناس الذى أمره أن يكون دخوله من درب طرسوس. ولما وصل أشناس إلى مرج الأسقف ورد عليه كتاب من المعتصم يأمره بالتوقف لأنه بلغه عن ملك الروم أنه على نهر اللامس ويريد العبور ليكبس أشناس وجنده فأقام بالمرج ثلاثة أيام ثم علم بواسطة الجواسيس أن ملك الروم ارتحل عن نهر اللامس يريد مقابلة الأفشين فأرسل بخبر ذلك إلى المعتصم فبعث الادلاء مسرعين يخبرون الأفشين بذلك وأمره أن يقف مكانه حذرا من مواقعة ملك الروم له قبل أن تجتمع الجيوش فلم تصل هذه الأدلاء إلى الأفشين فتم على مسيره حتى التقى بملك الروم فكانت بينهما موقعة هائلة كانت على الأفشين أول النهار ثم أعاد الكرة فى الفرسان فغلب ملك الروم وهزمه هزيمة منكرة وتفرقت عنه الجنود. أما عسكر أشناس والمعتصم فانهما وردا أنقرة من غير أن يلقيا حربا لتفرق الجنود التى كان الملك قد جمعها لمحاربة المعتصم ثم ورد الأفشين بعد مقدمهما بيوم أنقرة

وحينئذ قسم المعتصم الجيش ثلاثة أقسام قسم فيه أشناس فى الميسرة وقسم فيه المعتصم وهو القلب وقسم فيه الأفشين وهو الميسرة وبين كل قسم فرسخان فسارت هذه الأقسام على تعبئة وسارت هذه الأقسام حتى بلغت عمورية وبينها وبين أنقرة سبع مراحل كان أول من وردها أشناس فدار حولها دورة ثم نزل على ميلين منها وجاء بعده المعتصم فدار حولها دورة ثم جاء الأفشين فكذلك تحصن أهل عمورية وتحرزوا لحصرهم الجيش المعتصمى وكان لكل واحد من القواد أبراج على قدر أصحابه قلة وكثرة ونصبت المجانيق فضربت بها الأسوار لاتلافها حتى سقط منها جانب فى ناحية المعتصم بعد معاناة شديدة وأعمال جسام ثم حصل القتال فى ناحية هذه الثلمة بعد أن ردمت الخنادق ولم يزل القتال مستمرا حتى اقتحم المسلمون عمورية عنوة

وغنموا منها مغانم كثيرة . وانتقم المعتصم من الروم بما فعلوه فى زبطرة وملطية . وبعد انتهاء الواقعة عاد المعتصم إلى طرسوس وكانت إناخته على عمورية فى ٦ رمضان سنة ٢٢٣ وقفل عنها بعد ٥٥ يوما

ومن غريب الأمور وأكبر الجرائم أن العباس بن المأمون اتفق مع بعض قواد المعتصم من الأتراك على أن يغتالوا المتعصم ويقيموه خليفة مقامه : تآمروا على ذلك وهم فى وجه العدو والعهد قريب باصطناع المعتصم لهم وإغداق النعم عليهم فلم يتم لهم غرض واطلع المعتصم على سر مؤامرتهم فأخذ جميع أولئك القواد وقتلهم وحبس العباس حتى مات من شدة الأذى وكان الذى تولى كبر ذلك عجيف بن عنبسة

ولما ورد المعتصم سامرا كان دخوله إليها يوما مشهودا وامتدحه أبو تمام حبيب ابن أوس بقصيدته المشهورة التى أولها

السيف أصدق أنباء من الكتب * فى حده الحد بين الجد واللعب

يقول فيها

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به * نظم من الشعر أو نثر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له * وتبرز الأرض فى أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت * عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بنى الاسلام فى صعد * والمشركين ودار الشرك فى صبب
أم لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا * فداءها كل أم برة وأب
وبرزة الوجه قد أعيت رياضتها * كسرى وصدت صدودا عن أبى كرب
من عهد إسكندر أو قبل ذلك قد * شابت نواصى الليالى وهى لم تشب
بكر فما افترعتها كف حادثة * ولا ترقت إليها همة النوب
حتى إذا مخض الله السنين لها * مخض الحليبة كانت زبدة الحقب
أتتهم الكربة السوداء سادرة * منها وكان اسمها فراجة الكرب
جرى لها الفال نحسا يوم أنقرة * إذ غودرت وحشة الساحات والرحب
لما رأت أختها بالأمس قد خربت * كان الخراب لها أعدى من الجرب
كم بين حيطانها من فارس بطل * قانى الذوائب من آنى دم سرب
بسنة السيف والخطى من دمه * لا سنة الدين والاسلام مختضب

لقد تركت أمير المؤمنين بها * للنار يوما ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى * يقله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الضحى رغبت * عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة * وظلمة من دخان فى ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت * والشمس واجبة فى ذا ولم تجب
تصرح الدهر تصريح الغمام لها * عن يوم هيجاء منها طاهر جنب

ويقول فى ختامها :

خليفة الله جازى الله سعيك عن * جرثومة الدين والاسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها * تنال إلا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم * موصولة أو ذمام غير مقتضب
فبين أيامك اللاتى نصرت بها * وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقت بنى الأصفر المصعر كاسمهم * صفر الوجوه وجلت أوجه العرب

صفات المعتصم

كانت أظهر صفات المعتصم الشجاعة والاقدام وشدة البأس وكان يحب العمارة ويقول إن فيها أمورا محمودة فأولها عمران الأرض التى يحيا بها العالم وعليها يزكو الخراج وتكثر الأموال وتعيش البهائم وترخص الأسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش وكان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك إذا وجدت موضعا متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءنى بعد سنة أحد عشر درهما فلا تؤامرنى فيه . ولم يكن للمعتصم نفوذ فى العلم كأخيه المأمون ولا كأبيه الرشيد وإنما كان همه الجيش وتحسينه .

ومن آثاره اختطاط مدينة سامرا وهانحن أولاء نقص شيئا من أمرها :

لما ضاقت بغداد عن عسكر المعتصم من الأتراك قال لأحد كتابه إنى أتخوف أن يصيح هؤلاء الحربية صيحة فيقتلوا غلمانى فاذا ابتعت لى موضع سامرا كنت فوقهم فان رابنى رائب أتيتهم فى البر والبحر حتى آتى عليهم فقصد كاتبه موضع سامرا وهو على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخا (١٥٠ كيلومترا) فابتاع ديرا كان هناك بخمسة آلاف درهم وابتاع بستانا كان فى جانبه بمثل ذلك ولما تم أمر البيع خرج المعتصم

فى آخر سنة ٢٢٠ حتى نزل القاطول وهو نهر عند سامرا كان احتفره الرشيد وبنى عليه قصرا فنزل المعتصم هناك وبدأ بالبناء سنة ٢٢١ فبنى دارا له وأمر عسكره بمثل ذلك فعمر الناس حول قصره وبنى بها مسجدا جامعا فى طرف الأسواق وأنزل أشناس بمن ضم إليه من القواد كرخ سامرا وهو كرخ فيروز . ومازال البنيان يتسع حتى صارت مدينة من أعظم الحواضر الاسلامية وكادت تضارع بغداد وأعظم اتساع وحضارة لها كان فى عهد المتوكل بن المعتصم وسيذكر ذلك بعد

وفاة المعتصم

احتجم المعتصم فى أول يوم من المحرم سنة ٢٢٧ فأصيب عقب ذلك بعلته التى قضت عليه يوم الخميس لثمانى ليال مضت من شهر ربيع الأول من تلك السنة ورثاه محمد بن عبد الملك الزيات فقال

قد قلت إذ غيبوك واصطفقت ٭ عليك أيد بالتراب والطين
اذهب فنعم الحفيظ كنت على الد ٭ نيا ونعم الظهير للدين
لاجبر الله أمة فقدت ٭ مثلك إلا بمثل هارون

ولاية العهد

ولى المعتصم عهده ابنه هرون ولم يجعل معه فى الولاية غيره

---

٩ ــ الواثق

هو أبو جعفر هارون الواثق بالله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها قراطيس ولد سنة ١٨٦ بطريق مكة وبويع بالخلافة عقب وفاة والده فى يوم الخميس ٨ ربيع الأول سنة ٢٢٧ (٥ يناير سنة ٨٤٢) ولم يزل خليفة إلى أن توفى لست بقين من ذى الحجة سنة ٢٣٢ (١١ أغسطس سنة ٨٤٧) فكانت مدته خمس سنين وتسعة أشهر و١٥ يوما وسنه ٣٦ سنة

ويعاصره من الملوك والأمراء المستقلين من كان يعاصر أباه إلا فى مملكة الروم بالقسطنطينية فان ترفيل مات فى السنة التى توفى فيها المعتصم وخلفه ابنه ميخائيل

الثالث الملقب بالسكير وكان إذ ذاك صبيا فكانت أمه تدورة تقوم مقامه وفى خراسان حيث توفى عبد الله بن طاهر سنة ٢٣٠ وولى بعده ابنه طاهر بن عبد الله

وزراء الواثق

لم يستوزر الواثق غير محمد بن عبد الملك الزيات وزير أبيه وكان الواثق متغيرا عليه فى حياة أبيه حتى حلف أنه لينكبنه إذا صار خليفة لكنه لما استخلف غلب عقله على هواه لأنه لم يجد بين رجاله من يقوم مقام محمد بن عبد الملك فكفر عن يمينه وصار هذا الوزير فى عهده صاحب الأمر والنهى أكثر مما كان فى عهد أبيه .

الجيش

كانت حال الجيش لعهد الواثق كما كانت فى حياة أبيه إلا أن قدم المماليك التى اصطنعهم المعتصم قد توطدت وصار رؤساء الأتراك أصحاب نفوذ عظيم ولاسيما أشناس الذى توجه الواثق وألبسه وشاحين بالجوهر فى شهر رمضان سنة ٢٢٨ وقد قام قواد الأتراك بأعظم الأعمال الحربية حتى فى جزيرة العرب نفسها التى كانت حمى مايستطاع أن تتعدى حدوده وهنا نسوق أسباب الاضطراب الذى كان هنالك وكيف أزيل

كان بنو سليم من قيس عيلان من أقوى القبائل العربية وأكثرها عددا وكانوا ينزلون بالقرب من المدينة بالحرة المعروفة بهم وهى حرة بنى سليم فاجترؤا بالتطاول على الناس حول المدينة بالشر وكانوا إذا وردوا سوقا من أسواق الحجاز أخذوا سعرها كيف شاؤا ثم ترقى بهم الأمر إلى أن أوقعوا بالجار يناس من كنانة وباهلة فأصابوهم وقتلوا بعضهم فى جمادى الآخرة سنة ٢٣٠ وكان رئيسهم عزيزة بن قطاب السلمى فوجه اليهم أمير المدينة محمد بن صالح بن العباس حماد بن جرير الطبرى وكان الواثق أرسله مسلحة للمدينة فى ٢٠٠ من الشاكرية لئلا يتطرقها الأعراب فتوجه اليهم حماد وقاتلهم بالرويثة على ثلاث مراحل من المدينة وكانت الهزيمة على جند حماد بعد أن قتل وحازت بنو سليم الكراع والسلاح والثياب وغلظ أمرهم فاستباحوا القرى والمناهل فيما بينها وبين مكة والمدينة حتى لم يمكن أحدا أن يسلك تلك الطريق

وتطرقوا من يليهم من قبائل العرب فوجه اليهم الواثق بغا الكبير فى الشاكرية والأتراك والمغاربة فشخص الى حرة بنى سليم وعلى مقدمته طردوش التركى فلقى بنى سليم بقراهم وقتل منهم نحو الخمسين وأسر مثلهم وانهزم سائرهم فدعاهم بغا الى الأمان على حكم الواثق فأتوه واجتمعوا اليه فاحتبس منهم من وصف بالشر والفساد وهم زهاء الف رجل وخلى سبيل سائرهم ثم رحل بالأسرى الى المدينة فى ذى القعدة سنة ٢٣٠ فحبسهم بها وشخص الى مكة حاجا . ولما انقضى الموسم انصرف الى ذات عرق ووجه الى بنى هلال من عرض عليهم مثل الذى عرض على بنى سليم فأقبلوا فأخذ من مردتهم وعتاتهم نحوا من ٣٠٠ رجل وخلى سائرهم ثم انصرف الى المدينة وجعل المحبوسين من بنى هلال مع إخوانهم من سليم وجمعهم جميعا فى دار يزيد بن معاوية فى الأغلال والأقياد وعدتهم نحو ١٣٠٠ رجل وسار هو الى بنى مرة أما المحبوسون فنقبوا السجن ليخرجوا فعلم بهم أهل المدينة فجاؤهم واجتمعوا عليهم ومنعوهم الخروج فباتوا محصورين وفى الغد حاربهم أهل المدينة وكاثروهم فقتلوهم أجمعين وقتل سودان المدينة من لقوا من الأعراب فى أزقة المدينة ممن دخل يمتار أويزور . كل ذلك تم وبغا غائب فلما قدم ووجدهم قتلوا شق ذلك عليه ووجد وجدا شديدا .

أما مافعله ببنى مرة وفزارة الذين تغلبوا على فدك فانه لما قاربهم أرسل اليهم رجلا فزاريا يعرض عليهم الأمان ويأتيه بأخبارهم فلما قدم عليهم الفزارى حذرهم سطوته وزين لهم الهرب فهربوا ودخلوا البرية وخلوا فدكا ولم يستأمن اليه إلا القليل وهرب الباقون إلى موضع من البلقاء من عمل دمشق . ثم صار إليه جماعة من بطون غطفان وفزارة وأشجع فلما صاروا إليه استحلفهم الأيمان المؤكدة ألا يتخلفوا عنه متى دعاهم فحلفوا ثم شخص إلى ضرية لطلب بنى كلاب ووجه إليهم رسله فاجتمع إليه منهم نحو ٣٠٠٠ رجل فاحتبس من أهل الفساد نحوا من ١٣٠٠ رجل ثم قدم بهم المدينة فى رمضان سنة ٢٣١ فحبسهم بها ثم شخص إلى مكة حاجا ورجع إلى المدينة بعد حجه فأرسل إلى من كان استحلف من ثعلبة وأشجع وفزارة فلم يجيبوه وتفرقوا فى البلاد فوجه فى طلبهم فلم يلحق منهم كثير أحد

وفى سنة ٢٣٢ أمره الواثق أن يذهب إلى غزوة بنى نمير لما كان من عيثهم وفسادهم

فى الأرض فمضى نحو اليمامة يريدهم فلقى منهم جماعة بموضع يقال له الشريف فحاربوه فقتل منهم نيفا وخمسين رجلا وأسر نحوا من ٤٠ ثم سار إلى قرية لبنى تميم من عمل اليمامة تدعى مرأة فتتابع إلى سكانها رسله يعرض عليهم الأمان ودعاهم إلى السمع والطاعة وهم يمتنعون عليه ويشتمون رسله ويتفلتون إلى حربه فسار بغا إليهم من مرأة فى أول صفر سنة ٢٣٢ حتى دخل نخيله وأرسل إليهم أن ائتونى فاحتملت بنوضبة من نمير فركبت جبالها مياسر جبل السود وهو جبل خلف اليمامة أكثر أهله باهلة فأرسل إليهم سرية لم تدركهم ثم إنه سار إليهم حتى التقى بهم بموضع يقال له روضة الابان وبطن السر فجعل يناشدهم ويدعوهم إلى الرجوع وإلى طاعة أمير المؤمنين ويكلمهم بذلك محمد بن يوسف الجعفرى فجعلوا يقولون له يامحمد بن يوسف قد والله ولدناك فما رعيت حرمة الرحم ثم جئتنا بهؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم والله لنرينك العبر . ولما أصبح الصبح عليهم حملوا على بغا وجنده وكانوا قد جعلوا رجالهم أمامهم وفرسانهم وراءهم ونعمهم ومواشيهم من ورائهم وحملوا فهزموا بغا وجيشه وكاد يهلك لولا حصول أمر لم يكن مقصودا وذلك أنه كان قد وجه من أصحابه نحو ٢٠٠ نفس لتغير على خيل لهم علم وجودها بمكان من بلادهم فبينا جيش بغا على شرف الانكسار إذ خرجت هذه الجماعة منصرفة من الموضع الذى وجهت إليه فى ظهور بنى نمير فنفخوا فى صفاراتهم ولما سمع العرب نفخ الصفارات ظنوا أن قد جاءهم كمين من خلفهم فولوا هاربين وأسلم فرسانهم رجالتهم بعد أن كانوا على غاية المحاماة عنهم فلم يفلت من رجالتهم كثير أحد قتلوا عن آخرهم أما الفرسان فطاروا هربا على ظهور الخيل . وأقام بغا بموضع الواقعة حتى جمعت له الرؤس واستراح هو وأصحابه ثلاثة أيام ثم أرسل الهاربون يطلبون الأمان فأعطاهم إياه فصاروا إليه فقيدهم وحبسهم وأشخصهم معه وقد حاولوا أن يفروا وهم عائدون فضربهم بغا بالسياط ثم سار بهم حتى أتى البصرة فى ذى القعدة سنة ٢٣٢ وأرسل إلى صالح بن العباس أن يسير بمن قبله بالمدينة من بنى كلاب وفزارة ومرة وثعلبة وغيرهم فوافاه صالح ببغداد وساروا جميعا إلى سامرا وكانت عدة الأسرى جميعا نحو ٢٢٠٠ رجل

نكبة الكتاب فى عهد الواثق

سأل الواثق سماره ذات ليلة عن السبب الذى من أجله نكب الرشيد البرامكة فقال له أحدهم إن سبب ذلك ماعلمه بعد التفتيش من أن البرامكة استهلكوا الأموال وتعللوا فى إنفاذ ما كان الرشيد يأمر به من العطايا لمن يوقع له بها ومنهم رجل يقال له أبو العود أمر له الرشيد بثلاثين ألف درهم فمطلوه بها فدخل على الرشيد ليلة فتحدث عنده ولم يزل يحتال حتى وصل حديثه بقول عمر بن أبى ربيعة :

وعدت هند وما كانت تعد ❊ ليت هندا أنجزتنا ماتعد

واستبدت مرة واحدة ❊ إنما العاجز من لايستبد

فقال الرشيد أجل والله إنما العاجز من لايستبد حتى انقضى المجلس وبعد ذلك جد الرشيد فى أمرهم حتى وثب عليهم وأزال نعمتهم فقال الواثق صدق والله جدى إنما العاجز من لايستبد وأخذ فى ذكر الخيانة ومايستحق أهلها ولم يمض على ذلك أسبوع حتى أوقع بكتابه وعذبهم حتى أدوا المال الذى ظن أنهم اختانوه مما عهد إليهم حفظه وهذه أسماء الكتاب ومقدار ما أخذ من كل منهم

أحمد بن إسرائيل	٨ ٠٠٠	دينار
سليمان بن وهب كاتب ايتاخ	٤٠٠ ٠٠٠	«
الحسن بن وهب	١٤ ٠٠٠	«
أحمد بن الخصيب وكتابه	١ ٠٠٠ ٠٠٠	«
إبراهيم بن رباح وكتابه	١٠٠ ٠٠٠	«
نجاح	٦٠ ٠٠٠	«
أبو الوزير	١٤٠ ٠٠٠	«
	١ ٧٢٢ ٠٠٠	

وذلك سوى ما أخذ من العمال بسبب عمالاتهم

وكانت العمال تسرع إليهم الثروة لاتساع مجال الخيانة إذلم يكن هناك دقة فى المحاسبات فاذا رأى الخليفة على العامل مظاهر الثروة فى وقت قريب وتلك الثروة لاتقوم بها أرزاقه التى يتقاضاها حكم الخليفة قطعا أنه خائن ولايجد أمامه إلا تلك المصادرة التى لانظام لها

العلاقات الخارجية — الفداء بين المسلمين والروم

كانت الحروب دائمة الاتصال بين المسلمين والروم ولم تقدر إحدى الدولتين أن تتغلب على الأخرى وكثيرا ما يكون فى يد إحدى الدولتين أسرى من الأخرى ولما كان يهم كلتا الدولتين أن تخلص أسراها حذرا من الاسترقاق كانتا تتفقان على المفاداة كل أسير بمثله وأول فداء حصل كان فى عهد الرشيد على نهر اللامس قريبا من طرسوس فودى فيه بثلاثة آلاف وسبعمائة أسير من المسلمين على يد القاسم بن الرشيد وحصل فداء مثله فى عهده أيضا فودى فيه بألفين وخمسين

وقد كان الفداء الثالث فى عهد الواثق سنة ٢٣١ أرسل ملك الروم إلى الواثق رسلا يسألونه أن يفادى بمن فى يده من أسارى المسلمين فأجاب وانتدب للفداء خاقان الخادم بعد أن أعد من أسرى الروم عددا كبيرا وقد تقابل الفريقان فى يوم عاشوراء سنة ٢٣١ على نهر اللامس وكان عدد من فودى به من المسلمين ٤٦٠٠ منهم ٦٠٠ نساء وصبيان ومنهم من أهل الذمة نحو ٥٠٠ فوقع الفداء كل نفس عن نفس صغيرا أو كبيرا وقد عقد المسلمون جسرا على النهر وعقد الروم جسرا فكان المسلمون يرسلون الرومى على جسرهم ويرسلون الروم المسلم على جسرهم وقد أعطى خاقان الروم بمن كان فضل فى يده ١٠٠ نفس ليكون له عليهم الفضل استظهارا .

ومن غريب ماحصل فى هذا الفداء أن أحمد بن أبى داؤد القاضى أرسل مندوبا من قبله يمتحن الأسرى حتى لايفدى منهم من لايقول بأن القرآن مخلوق وهذا غلو قد وصل إلى نهايته :

صفات الواثق

كان الواثق كثير الأكل والشرب واسع المعروف متعطفا على أهل بيته متفقدا لرعيته وكان محبا للنظر مكرما لأهله مبغضا للتقليد وأهله محبا للاشراف على علوم الناس وآرائهم بمن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطبيين وكان له مجلس نظر عقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين فى أنواع العلوم من العقليات والسمعيات فى جميع الفروع فكانت سيرته فى ذلك سيرة عمه المأمون ومن أجل ذلك أخذت مسألة خلق القرآن فى عهده شكلا حادا أكثر مما كانت فى عهد أبيه المعتصم لأن المعتصم

كان يتسكلف ذلك لمكان وصية أخيه

وفاة الواثق

أصيب الواثق بعلة الاستسقاء وكانت سبب وفاته فى ٦ ذى الحجة سنة ٢٣٢ وسنه ٣٦ سنة وبموته مضى على الدولة العباسية قرن كامل . ولم يعهد الواثق لأحد من بعده بالخلافة فالخلافة من بعده بدء شكل جديد لم تكن له سابقة فى الدولة العباسية وقد ختم هذا القرن بانتهاء الخلفاء العسكريين الذين كانوا يقودون الجيوش بأنفسهم ويخوضون غمرات الموت ولا يستسلمون لداعى الترف المضنى

١٠ — المتوكل

هو جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد خوارزمية يقال لها شجاع . ولد فى شوال سنة ٢٠٦ بفم الصلح ولم يكن بالمرضى عنه فى حياة أخيه حتى كان الواثق قد وكل به رجلين هما عمر بن فرج الرخجى ومحمد بن العلاء الخادم فكانا يحفظانه ويكتبان بأخباره فى كل وقت وقد جر عليه ذلك انحراف الوزير محمد بن عبد الملك الزيات فكان لا يلقاه لقاء حسنا وكانت صكاك رزقه لا تختم له إلا بعناء حتى أن عمر بن فرج أخذ منه الصك مرة فرمى به فى صحن المسجد الذى كان عمر يجلس فيه وكان الذى يصلح من شأنه عند الواثق أحمد بن أبى دؤاد

ولما توفى الواثق ولم يكن عهد إلى أحد اجتمع كبراء الدولة أحمد بن أبى داؤد القاضى ومحمد بن عبد الملك الوزير وعمر بن فرج وأحمد بن خالد الكاتبان وإيتاخ ووصيف من قواد الأتراك وتناظروا فيمن يولونه الخلافة فأشار محمد بن عبد الملك بمحمد بن الواثق وكاد الأمر يتم له إلا أنهم لما جاؤا به وألبسوه دراعة سوداء وقلنسوة رصافية قال لهم وصيف أما تتقون الله تولون مثل هذا الخلافة وهو لا تجوز معه الصلاة ثم أشار ابن أبى دؤاد بجعفر بن المعتصم فاتفق رأيهم عليه وأحضروه فألبسه أحمد بن أبى دؤاد الطويلة وعممه وقبله بين عينيه وقال السلام عليك يا أمير المؤمنين وبايعه الحاضرون ولقب بالمتوكل على الله ثم بايعته العامة وتم ذلك كله فى اليوم الذى توفى فيه الواثق وهو ٢٤ ذى الحجة سنة ٢٣٢ (١١) أغسطس

سنة ٨٤٧) واستمر خليفة إلى أن قتل ليلة الخميس رابع شوال سنة٢٤٧ (١١ ديسمبر سنة ٨٦١) فكانت مدته ١٤ سنة وتسعة أشهر وعشرة أيام وكانت سنه إذ قتل ٤١ سنة

وكان يعاصره فى بلاد الأندلس عبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ - ٢٣٨) ثم ابنه محمد (٢٣٨ - ٢٧٣)

ويعاصره فى بلاد المغرب من الأدارسة على بن محمد بن إدريس الثانى (٢٢١ - ٢٣٤) ثم يحيى بن محمد (٢٣٤)

ويعاصره فى أفريقية من الأغالبة محمد بن الأغلب بن إبراهيم (٢٢٦ - ٢٤٢) ثم أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٤٢ - ٢٤٩)

ويعاصره فى بلاد اليمن من الدولة الزيادية محمد بن عبدالله بن زياد (٢٠٤ - ٢٤٥) ثم إبراهيم بن محمد (٢٤٥ - ٢٨٩)

ويعاصره فى خراسان من آل طاهر محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر (٢٣٠ - ٢٤٨)

ويعاصره من ملوك الروم بالقسطنطينية ميخائيل الثالث الملقب بالسكير

ويعاصره فى فرنسا شارل الأصلع (٨٤٠ - ٨٧٧)

وزراء الدولة

كان الوزير الأول لأول عهد المتوكل هو محمد بن عبد الملك الزيات الذى كان وزيرا لأخيه ولأبيه إلا أن المتوكل كان منحرفا عنه لما كان يفعله معه فى حياة أخيه من قبح المقابلة وعدم الرعاية وزاد على ذلك أنه أشار بتولية محمد بن الواثق فكانت شهوة الانتقام متمكنة منه ففى سابع صفر سنة ٢٣٣ أمر فقبض عليه وصادر جميع ماله من عقار ومنقول وكذلك ضياع أهل بيته حيث كانت . أما ماناله من المكروه فى نفسه فهو أعظم من أن يسطر ولم يزل ذلك دأبهم معه حتى مات تحت العذاب. إلى هذا الحد وصل ضعف الوازع الدينى عند هؤلاء القوم — الرجل لم يكن على وفاق مع الخليفة قبل أن يتولى فأشد مايكون من عقوبته ألا يستعان به فى عمل — الرجل خان فيما عهد إليه من الأمانات فأقصى عقوبته أن يصادر فى أمواله — الرجل قتل نفسا بدون حق فأقصى عقوبته أن يقتل فلم هذا التعذيب الذى سطره المؤرخون

أليس ذلك دليلا على أن شهوة الانتقام حالت بين القوم وبين دينهم الذى نهى أشد النهى عن التعذيب والمثلة أليس ذلك دليلا على أن صوت العلماء لايظهر إلا فى الأمور النظرية المحضة التى لا يترتب عليها عمل ولا أثر فى الحياة أماما تكون آثاره ظلم الناس بأخذ أموالهم وإزهاق نفوسهم فلا تكاد تسمع لهم ركزا أين هذا مما كان فى عهد عمر بن الخطاب الذى كانت أمته تحاسبه على كل مايصدر منه من جليل وحقير

وكان مبلغ ماقبض له مع قيمة موجوداته ٩٠٠٠٠ دينار وبين القبض عليها ووفاته أحد وأربعون يوما

ولم يمض على ذلك خمسة أشهر حتى أمر المتوكل بالقبض على عمر بن فرج الرخجى وهو الكاتب الذى رمى بصك المتوكل فى صحن المسجد أيام خلافة الواثق فقبض عليه وصودرت أملاكه وكان مقدار ماأخذ منه ومن أخيه محمد بن فرج ٢٧٤٠٠٠ دينار و١٥٠٠٠٠ درهم سوى القصر والأمتعة والضياع وقد حمل متاعه وفرشه على خمسين جملا كرت مرارا ثم صالحوه بعد ذلك على أن يدفع ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم على أن ترد عليه ضياعه بالأهواز فقط فردت عليه وأطلق من عقاله

استكتب المتوكل بعد ابن عبد الملك أبا الوزير أحمد بن خالد الذى كان فى حياة الواثق زماما على عمر بن فرج الرخجى فى ديوان النفقات ولما استكتبه لم يسمه باسم الوزير واستمر كاتبا له زمنا قليلا فانه فى ذى الحجة من سنة ٢٣٣ غضب عليه وأمر بمحاسبته فحمل نحوا من ٦٠٠٠٠ دينار وحمل بدور دراهم وحليا وأخذ له من متاع مصر ٦٢ سفطا و٣٢ غلاما وفرشا كثيرا وحبس بسببه جماعة من الكتاب وأغرموا من المال قدرا كثيرا .

وبعد أبى الوزير استوزر محمد بن الفضل الجرجرائى منسوب إلى جرجرايا (وهى بلد من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد من الجانب الشرقى) وكان الجرجرائى من أهل الفضل والأدب والشعر وقال صاحب الآداب السلطانية إنه كان عالما بالغناء مشتهرا به واستمر على وزارته إلى سنة ٢٣٦ وفيها صرفه عن العمل لأنه قال قد ضجرت من الشيوخ وأريد حدثا أستوزره فمن أجل ذلك صرفه .

اختار بعده لوزارته عبيد الله بن يحيى بن خاقان وبقى وزيرا للمتوكل إلى أن مات وكان حسن الخط وله معرفة بالحساب والاستيفاء وكانت فيه عيوب يسترها كرمه

وحسن خلقه وعفته ومن أجل ذلك كان الجند يحبونه وقد حصل فى وزارته حادثة تبين مقدار ما كان من الفساد عند العمال واحتجانهم الأموال لأنفسهم ووقيعتهم بعضهم ببعض وكل ذلك سببه عدم الضبط فى الادارة المالية . كان نجاح ابن سلمة على ديوان التوقيع والتتبع على العمال فكان لذلك مخشى الجانب نافذ الكلمة وكان الحسن بن مخلد على ديوان الضياع وموسى بن عبد الملك على ديوان الخراج وكان بين نجاح وبين ابن خاقان الوزير وحشة ومضادة وكان ميل الحسن وموسى إلى الوزير . احتاج المتوكل فى سنة ٢٤٥ إلى المال لبناء القصور التى أراد تأسيسها بسامرا . فقال له نجاح أسمى لك قوما تدفعهم إلى حتى أستخرج لك منهم من الأموال مايكفيك لبناء مدينتك وسمى له نحوا من عشرين رجلا موسى بن عبدالملك وخليفته والحسن بن مخلد وخليفته وعبيد الله بن يحيي الوزير وأخواه وغيرهم من العمال فأعجب ذلك المتوكل وقال له بكر إلى غدا — وناظر الوزير المتوكل فى ذلك فقال له ياأمير المؤمنين أراد ألا يدع كاتبا ولا قائدا ولا عاملا إلا أوقع بهم فمن يقوم بالأعمال ياأمير المؤمنين وخرج من عنده فدعا موسى بن عبد الملك والحسن بن مخلد فقال لهما إن دخل نجاح إلى أمير المؤمنين دفعكما إليه فقتلكما وأخذ ماتملكان من المال ولكن اكتبا إلى أمير المؤمنين تتقبلان به فيها بألفى ألف دينار ففعلا وأوصل الوزير رقعتهما إلى المتوكل وأعانهما بالقول على القبول ثم أدخلهما على المتوكل وحجب نجاحا فضمنا ذلك ودفع إليهما نجاحا فأخذاه وانتقما منه شر انتقام أما فى المال فأخذا من نجاح وابنه نحو ١٤٠٠٠٠ دينار سوى قيمة قصورهما وفرشهما ومستغلاتهما بسامرا وبغداد وسوى ضياع لهما كثيرة قبض ذلك كله وأخذ كثير من المال من وكلاء نجاح ومن يتصل به أما كاتبه اسحاق بن سعد الذى كان يتولى خاص أموره فقد أمر المتوكل أن يغرم ٥١٠٠٠ دينار ولم ذلك قال المتوكل إنه أخذ منه أيام الواثق حينما كان يخلف عمر بن فرج خمسين دينارا حتى أطلق أرزاق نخذوا لكل دينار ألفا وزيادة الف فضلا كما أخذ فضلا لحبس ونجم عليه ثلاثة أنجم ولم يطلق حتى أدى تعجيل ١٧٠٠٠ دينار وأخذ منه كفلاء بالباقى . وأما نفس نجاح فقد فاتت تحت الضرب والتعذيب

وبعد وفاة نجاح ضم ديوان التوقيع إلى عبيد الله بن يحيي الوزير ثم توفى موسى

ابن عبد الملك فضم ديوان الخراج إلى الوزير أيضا

من أغرب مافى هذا التاريخ أن يرتشى العامل من أخى الخليفة حتى يطلق له أرزاقه فما الظن بغيره من أصحاب الأرزاق ماذا يدفعون حتى يوقع لهم على صكاكهم بقبض تلك الأرزاق ولا يستغرب بعد ذلك ما كان يجتمع إلى هؤلاء الكتاب من الأموال الوفيرة فى الزمن القليل والعمال يعرف بعضهم بعضا فيعلم الواحد منهم ما اقتنى الآخر من الأملاك والضياع وما احتجن من المال فاذا بلغ خليفته شيئا من ذلك هاج أطماعه فيعمد إلى ما يماثل ما ذكرنا من عقوبة العامل ومصادرة أمواله (وما ظالم إلا سيبلى بظالم) وتلك أمور تعم الفساد فى جسم الدولة

أحمد بن أبى دؤاد : هو الرجل الموثوق به فى عهد المأمون وعظيم دولة المعتصم والواثق وقاضى القضاة فى زمنهما والذى كان يعطف على المتوكل فى عهد أخيه الواثق حتى استرضاه عنه بعد أن كان قد غضب عليه فلما ولى المتوكل حفظ له مقامه ورتبته وسابقته فكان قاضى القضاة وعظيم الدولة . وفى سنة ٢٣٣ فالج فعجز عن العمل فكان ابنه أبو الوليد يقوم مقامه فى القضاء وولاية المظالم إلا أن الرجل لم تكن سيرته سيرة أبيه فكانت النتيجة أن غضب المتوكل على أحمد بن أبى دؤاد وعلى ابنه فعزلهما عن المظالم والقضاء ورضى عن يحيى بن أكثم فأشخصه من بغداد إلى سامرا وولاه قضاء القضاة والمظالم . وأمر بالتوكيل على ضياع أحمد بن أبى دؤاد لخمس بقين من صفر سنة ٢٣٧ وحبس يوم السبت لثلاث خلون من شهر ربيع الأول ابنه محمد فى ديوان الخراج وحبس إخوته عند عبيد الله بن السرى خليفة صاحب الشرطة وبعد ذلك بيومين حمل أبو الوليد ١٢٠٠٠٠ دينار وجواهر بقيمة ٢٠٠٠٠ دينار ثم صولح بعد ذلك على ١٦٠٠٠٠٠ درهم وأشهد عليهم جميعا ببيع كل ضيعة لهم وفى أواخر سنة ٢٣٩ مات محمد بن أحمد بن أبى دؤاد ببغداد وبعد وفاته بعشرين يوما توفى أبوه أحمد وهم على تلك الحال

العلويون

امتاز المتوكل عن سائر أهل بيته بكراهة على بن أبى طالب رضى الله عنه وأهل بيته وهذا ما يعرف فى العقائد بالنصب وهو ضد التشيع وكان يقصد من يبلغه عنه

أنه يتولى عليا وأهله بأخذ المال والدم وكان فيما يقال يبغض ممن تقدمه من الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق لمحبة على وأهل بيته وكان ينادمه ويجالسه جماعة اشتهروا بالنصب وبغض على فكانوا يخوفونه من العلويين ويشيرون عليه بإبعادهم والاعراض عنهم والاساءة إليهم ثم حسنوا له الوقيعة فى أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم فى الدين ومن آثار تلك الكراهة أنه أمر فى سنة ٢٣٧ بهدم قبر الحسين بن على بكربلاء وهدم ماحوله من المنازل والدور وأن يحرث ويبذر ويسقى موضع قبره وأن يمنع الناس من إتيانه فذكر أن عامل صاحب الشرطة نادى فى الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة بعثنا به إلى المطبق فهرب الناس وامتنعوا من المصير إليه وحرث ذلك الموضع وزرع ماحواليه

وكان إمام الامامية فى عهده ابو الحسن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين ابن على بن أبى طالب سعى به إلى المتوكل فأقدمه من المدينة إلى سامرا التى كانت تعرف بالعسكر فلقب بالعسكرى وقد ظل مقيما بها نحو عشرين سنة ومات بها ولما جاء سامرا لم تنقطع السعايات عنه فقيل له إن فى منزله سلاحا وكتبا وغيرها من شيعته فوجه إليه ليلا من هجم عليه منزله وهو غافل فوجد فى بيت وحده عليه مدرعة من شعر ولا بساط فى البيت إلا الرمل والحصا وعلى رأسه ملحفة من صوف وهو يقرأ ويدعو فحمل إلى المتوكل فى جوف الليل فمثل بين يديه والمتوكل يشرب فأجلسه إلى جنبه وعرض عليه الكأس فاستعفى فأعفاه ثم قال له أنشدنى شعرا فأنشده

باتوا على قلل الأجبال تحرسهم ... غلب الرجال فما أغنتهم القلل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم ... فأودعوا حفرا يابئسما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ماقبروا ... أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التى كانت منعمة ... من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهرا وما شربوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمروا دورا لتحصنهم ... ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادخروا ... فخلفوها على الأعداء وارتحلوا

أضحت منازلهم قفـــرا معطلة * وساكنوها إلى الأجداث قد رحلوا

فبكى المتوكل حتى بلغت دموعه لحيته ثم أمر برفع الشراب وأمر له بأربعة آلاف دينار يقضى بها دينه ورده إلى منزله مكرما

وفى عهد المتوكل أتى بيحيى بن عمر بن يحيى بن زيد بن على بن الحسين من بعض النواحى وكان قد جمع جمعا فضربه عمر بن فرج ثمـانى عشرة مقرعة وحبس ببغداد فى المطبق

الجيش

كان الجيش على العهد الذى كان عليه فى مدة الواثق والمعتصم وكلمـا قدم العهد زاد الأتراك نفوذا وقوة وقد أحس المتوكل بتوغل الأتراك فى الدولة واستبدادهم بأموال الخلافة وإدارتها وجيشها فأحب أن يضعف شوكتهم ويقلل من نفوذهم فبدأ بأيتاخ الذى كان له الجيش والمغاربة والأتراك والموالى والبريد والحجابة ودار الخلافة . أراد المتوكل الايقاع به ليتخلص من هذا السلطان الواسع فرأى أن ذلك لا يمكنه معه وهو بسامرا بين قومه وجنده فدس اليه من أشار عليه بالاستئذان فى الحج ففعل فأذن له المتوكل وصيره أمير كل بلد يدخله وخلع عليـه وركب معـه جميع القواد وخرج معه من الشاكرية والقواد والغلمـان سوى غلمانه وحشمه بشر كثير فلما حج وانصرف إلى العراق وجه اليه المتوكل بكسوة وألطاف وأمر الرسول أن يلقاه بالكوفة أو ببعض الطريق وتقدم إلى عامله على شرطة بغداد وهو إسحاق بن إبراهيم المصعبى بأمره فيه . فلما وصل بغداد قال له إسحاق بن إبراهيم إن أمير المؤمنين أراد أن تدخل بغداد وأن يلقاك بنو هاشم ووجوه الناس وأن تقعد لهم فى دار خزيمة بن خازم فتأمر لهم بجوائز . فلما صار إيتاخ بالقرب من دار خزيمة حجز عنه غلمانه ودخل الدار وحده فكان فيها سجنه ثم نقل إلى منزل إسحاق فأدخل ناحية منه وقيد وأثقل بالحديد فى عنقه ورجليه ثم قدم بابنيه منصور ومظفر وبكاتبيه سليمان بن وهب وقدامة بن زياد فحبسوا وكانت الشدة التى عومل بها إيتاخ سببا لوفاته فمـات سـنة ٢٣٥ وأما ابناه فبقيا فى الحبس حياة المتوكل ثم أطلقهما المستعين بعده

ولكراهة المتوكل لهؤلاء الغلمان ورؤسائهم كره من أجلهم المدينة التى أنشئت لهم فعزم أن يغير حاضرة خلافته فاختار سنة ٢٤٣ أن يجعل دمشق حاضرته فشخص

إليها ونقل دواوين الملك وأمر بالبناء بها فتحرك الأتراك فى أرزاقهم وأرزاق عيالهم مريدين التشغيب عليه لأنهم ظنوا أن المتوكل يريد أن يستعين بسلطان العرب عليهم حيث اختار بلاد الشام فأمر المتوكل لهم بما أرضاهم وبعد أن أقام بدمشق أياما أظهر أنه استوبأ البلد لأن الهواء بارد ندى والماء ثقيل والريح فيها تهب مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضى عامة الليل وغلت فيها الأسعار وحال الثلج بين السابلة والميرة فبارحها عائداً إلى سامرا ويظهر أن الأتراك هم الذين حملوه على العودة . وفى سنة ٢٤٥ أمر ببناء الماحوزة وسماها الجعفرى وأقطع القواد وأصحابه وجد فى بنائها وامر بنقض القصر المختار والبديع من قصور سامرا وحمل ساجهما إلى الجعفرى وأنفق عليها فيما قيل أكثر من ألفى ألف دينار وكان يسميها هو وأصحابه المتوكلية وكانت بالقرب من سامرا وبنى فيها قصرا سماه لؤلؤة لم ير مثله فى علوه وأمر بحفر نهر يأخذ رأسه من موضع يقال له كرى على رأس خمسة فراسخ فوق الماحوزة جعله شربا لما حوله من فوه النهر إليها وقدر للنهر من النفقة ٢٠٠٠٠٠ دينار لكنه مات قبل أن يتم فأهمل وهذه المدينة خربت بعد قتل المتوكل . لما انتقل إلى مدينته الجديدة شاع أنه عزم على الفتك بوصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم ولكن لم يتأت له ذلك لأنهم تغدوا به قبل أن يتعشى بهم كما نبينه فى خبر مقتله

وقد حصلت حوادث فى أطراف الدولة فى عهد المتوكل فأطفئت منها

أولا — حادثة محمد بن البعيث بن حلبس من ولد عتيب بن عمرو بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة فى مدينة مرند وهى من مشاهير مدن أذربيجان استدارتها فرسخان وبينها وبين تبريز يومان كانت فى الأصل قرية صغيرة فنزلها حلبس أبو البعيث ثم حصنها البعيث ثم محمد ابنه وبنى بها محمد قصرا . وكان محمد بن البعيث محبوسا فى حبس إسحاق بن إبراهيم فتكلم فيه بغا الشرابى وأخذ منه الكفلاء وأطلق فهرب إلى مرند وهى موضعه من أذربيجان فرم ما كان وهى من سورها وأتاه من أراد الفتنة من كل ناحية من ربيعة وغيرهم فصار فى نحو من ٢٢٠٠ رجل وكان الوالى بأذربيجان محمد بن حاتم ابن هرثمة فقصر فى طلبه فولى المتوكل حمدويه بن على بن الفضل السعدى أذربيجان ووجه من سامرا على البريد فلما صار إليها جمع الجند والشاكرية ومن استجاب له فصار فى عشرة آلاف فزحف إلى ابن البعيث فألجأه إلى مدينة مرند ولما طالت

مدته وجه إليه المتوكل زيرك التركى فى عدد كبير من الأتراك فلم يغن شيئا فوجه إليه عمرو بن سيسل بن كال فكذلك فاختار له بغا الشرابى فى ٤٠٠٠ رجل مابين تركى وشاكرى ومغربى وكان القواد الذين سبقوه قد زحفوا إلى مدينة مرند وقطعوا ماحولها من الشجر شجر الغياض ونصبوا عليها عشرين منجنيقا وبنوا بحذاء المدينة مايستكنون ونصب عليهم ابن البعيث من المجانيق مثل ذلك وما زالوا على ذلك حتى قرب منهم بغا الشرابى ومعه أمانات لوجوه أصحاب ابن البعيث ولابن البعيث أن ينزلوا وينزل على حكم أمير المؤمنين وإلا قاتلهم فان ظفربهم لم يستبق منهم أحدا ومن نزل فله الأمان وأرسلت لهم هذه الأمانات مع عيسى ابن الشيخ الشيبانى وكان عامة من مع ابن البعيث من ربيعة فنزل منهم قوم كثير من القلعة بالحبال ثم فتح باب القلعة جماعة ممن خانوا ابن البعيث فدخلت جنود المتوكل المدينة وقد أراد ابن البعيث أن يهرب فأدرك وأخذت حرمه وأخذ نحو ٢٠٠ من رجاله فوافاهم بغا الشرابى وقد تم الأمر فكتب إلى المتوكل بالفتح . ثم عاد إلى سامرا ومعه أسراه فأمر المتوكل بحبسهم جميعا ثم أتى بابن البعيث فأمر عنقه فطرح على نطع وجاء السيافون فلوحوا له فقال المتوكل وغلظ عليه مادعاك يامحمد إلى ماصنعت قال — الشقوة وأنت الحبل الممدود بين الله وبين خلقه وإن لى فيك لظنين أسبقهما إلى قلبى أولاهما بك وهو العفو — ثم اندفع بلا فصل فقال

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلى ٭ إمام الهدى والصفح بالناس أجمل
وهل أنا إلا جبلة من خطية ٭ وعفوك من نور النبوة يجبل
فانك خير السابقين إلى العلا ٭ ولاشك أن خير الفعالين تفعل

فالتفت المتوكل إلى على بن الجهم وقال إن معه لأدبا وعفا عنه وكان ابن البعيث أديبا شجاعا يقال إن له أشعارا نظمها بالفارسية . وكان ابن البعيث لما هرب قال :

كم قد قضيت أمورا كان أهملها ٭ غيرى وقد أخذ الأفلاس بالكظم
لا تعذليني فيما ليس ينفعنى ٭ إليك عنى جرى المقدار بالقلم
سأتلف المال فى عسر وفى يسر ٭ إن الجواد الذى يعطى على العدم

ولم يمكث ابن البعيث بعد ذلك كثيرا فانه توفى بعد شهر ثم أطلق بنوه الثلاثة وهم حلبس والبعيث وجعفر وصاروا فى عداد الشاكرية مع عبيد الله بن يحيى بن

خاقان وأجريت عليهم الانزال

(٢) اضطراب أرمينية . كان لبغا الشرابي ولاية أرمينية وأذربيجان وابنه فارس خليفته فولى عليها بالنيابة عنه أباسعيد محمد بن يوسف المروزى وفى شوال سنة ٢٣٦ مات فجأة فولى بعده ابنه يوسف بن محمد ولى حربها وخراجها فشخص إليها فضبطها ووجه عماله فى كل ناحية وبينا هوفى عمله خرج عليه رجل من بطارقةأرمينيةوهو كبير البطارقة واسمه بقراط بن أشوط خرج يطلب الامارة لنفسه فأخذه يوسف بن محمد فقيده وبعث به إلى باب الخليفة فهاج ذلك من بطارقة أرمينية فأجمعوا أمرهم على الخروج على يوسف وكان يقيم بمدينة طرون فحصروه بها ولما خرج لقتالهم قاتلوه فقتلوه وقتلوا أصحابه فلما علم بذلك المتوكل بعث بغا الشرابي إلى أرمينية مطالبا بدمه فشخص إليها من ناحية الجزيرة فبدأ بارزن وكان بها موسى بن زرارة الذى وافق البطارقة على الفتك بيوسف فحمله بغا إلى باب الخليفة ثم سار حتى أناخ بجبل الخويثية وهم جمة أهل أرمينية وقتلة يوسف بن محمد فحاربهم وظفر بهم فقتل زهاء ثلاثين ألفا وسبى منهم خلقا كثيرا ثم سار مخترقا بلاد أرمينية لارهاب عصاتها حتى بلغ دبيل فأقام بها شهرا ومنها سار إلى تفليس ففى يوم السبت ١٠ ربيع أول سنة ٢٣٨ وجه زيرك التركى فجاوز الكر وعليه تفليس فى الجانب الغربى وصغدبيل فى الجانب الشرقى وكان معسكر بغا فى الشرق وكان غرضهم من ذلك إخضاع إسحاق بن إسماعيل مولى بنى أمية الثائر بها فناوشوه القتال فخرج لقتالهم فبعث بغا بالنفاطين فضربوا المدينة بالنار فأقبل إسماعيل إلى المدينة لينظر فاذا النار قد أخذت فى قصره ثم أتاه الأتراك والمغاربة فأخذوه أسيرا وأخذوا ابنه عمرا فأتوا بهما بغا فأمر بضرب عنقه ويقال إنه احترق فى المدينة ٥٠٠٠٠ إنسان وأسر من بقى حيا فيها وكان إسحاق قد حصنها وحفر خندقها وجعل فيها مقاتلة من الخويثية وغيرهم وأعطاهم بغا الامان على أن يضعوا أسلحتهم ويذهبوا حيث شاؤا وكان إسحاق مصاهر الملك السرير تزوج بنته . ولم يزل بغا يجوس خلال هذه الديار حتى استنزل أكثر العصاة من معاقلهم وأخذ معه كثيرا من بطارقة أذربيجان وأران

الدولة اليعفرية

فى آخر عهد المتوكل ابتدأت الدولة اليعفرية بصنعاء وكان جدهم عبد الرحيم بن

إبراهيم الحوالى نائبا عن جعفر بن سليمان بن على الهاشمى الذى كان واليا للمعتصم على نجد اليمن صنعاء وما إليها ولما توفى عبد الرحيم قام فى الولاية مقامه ابنه يعفر بن عبد الرحيم وهو رأس الدولة ومبدأ استقلالها إلا أنه كان يهاب آل زياد ويدفع لهم خراجا يحمل إلى زبيد كأنه عامل لهم ونائب عنهم وكان ابتداء استقلال يعفر ابن عبد الرحيم سنة ٢٤٧ واستمر ملك صنعاء فى أعقابه إلى سنة ٣٨٧ وهذه أسماء ملوكهم

(١) يعفر بن عبد الرحيم	٢٤٧ — ٢٥٩
(٢) محمد بن يعفر	٢٥٩ — ٢٧٩
(٣) عبد القادر بن أحمد بن يعفر	٢٧٩ — ٢٧٩
(٤) إبراهيم بن محمد	٢٧٩ — ٢٨٥
(٥) أسعد بن إبراهيم	٢٨٥ — ٢٨٨
فترة لأئمة صنعاء والقرامطة	٢٨٨ — ٣٠٣
(٦) أسعد بن إبراهيم مرة ثانية	٣٠٣ — ٣٣٢
(٧) محمد بن إبراهيم	٣٣٢ — ٣٥٢
(٨) عبد الله بن قحطان	٣٥٢ — ٣٨٧

وقد اتبعنا فى ثبت هذه الدولة ماجاء فى تاريخ الدول الاسلامية لمؤلفه لين بول وفيه بعض مخالفة لما فى تاريخ الدول الاسلامية للشيخ دحلان اه والحوالى نسبة إلى عبد الله بن حوالة الأزدى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم

العلاقات الخارجية : كانت الحروب بين المسلمين وبين الروم لاتزال دائمة الاتصال برا وبحرا لاتنقطع إلا لهدنة وقتية

ففى سنة ٢٣٨ أغار الروم على مصر من جهة دمياط وكان أمير مصر قد أمر حاميتها أن يحضروا إليه بالفسطاط ليتجمل بهم فلما جاءها الروم بحرا كبهم لم يجدوا بها حامية وكانوا فى نحو ٣٠٠ مركب فدخلوا البلد وعاثوا فيه وأحرقوا دوره والمسجد الجامع وسبوا كثيرا من نساء المسلمين وأهل الذمة وأخذوا ماوصلت إليه أيديهم من المغانم ثم عادوا إلى بلادهم لم يكلم أحد منهم كلما . وكان المسلمون يفعلون مثل ذلك فى صوائفهم من جهة الدروب التى تلاصق الممالك الاسلامية من الجهة الشمالية وفى بحر الروم

وفى سنة ٢٤١ كان الفداء الرابع بين المسلمين والروم على نهر اللامس فى ١٢ شوال وكان القائم به شفيف خادم المتوكل وحضر معه جعفر بن عبد الواحد الهاشمى القاضى وعلى بن يحيي الأرمنى أمير الثغور الشامية وكانت عدة من فودى به من المسلمين فى سبعة أيام ٢١٠٠ رجل وامرأة على رواية المقريزى فى الخطط وروى الطبرى أن عـدة أسرى المسلمين كانت ٧٨٥ إنسان ومن النساء ١٢٥ امرأة قال المقريزى وكان مع الروم من النصارى المأسورين من أرض الاسلام مائة رجل ونيف فعرضوا مكانهم عدة أعلاج

وفى سنة ٢٤٢ خرجت الروم من ناحية شمشاط بعد خروج على بن يحيي الأرمنى من الصائفة حتى قاربوا آمد ثم خرجوا من الثغور الجزرية فانتهبوا عدة قرى وأسروا عددا عظيما من الأهلين ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم فخرج فى أثرهم قربياس وعمر ابن عبدالله الأقطع وقوم من المتطوعة فلم يلحقوا منهم أحدا فكتب إلى على بن يحيي أن يسير إلى بلادهم شاتيا

وفى سنة ٢٤٤ وجه المتوكل بغا من دمشق لغزو الروم فى شهر ربيع الآخر فغزا الصائفة فافتتح صملة

وفى سنة ٢٤٥ أغارت الروم على سميساط فقتلوا وسبوا نحوا من ٥٠٠ وغزا على بن يحيي الأرمنى الصائفة

وفى سنة ٢٤٦ كان الفداء السادس بين المسلمين والروم فى صفر على يد على بن يحيي الأرمنى ففودى بألفين وثلثمائة وسبعة وستين نفسا

صفات المتوكل وأخلاقه

لم يكن المتوكل كمن قبله فى حب النظر والجدل بل كان ميالا إلى التقليد فأمر لأول ولايته بترك النظر والمباحثة والجدال والترك لما كان عليه الناس فى أيام المعتصم والواثق وأمر الناس بالتسليم والتقليد وأمر الشيوخ والمحدثين بالتحديث وإظهار السنة

لم يكن المتوكل ممن يوصف فى عطائه بالبذل والجود ولا بتركه وإمساكه بخلا ولم يكن أحد ممن سلف من خلفاء بنى العباس ظهر فى مجلسه اللعب والمضاحك والهزل

فلما جاء المتوكل أحدث ذلك كله فاتبعه فيها أكثر خواصه ورعيته فلم يكن فى وزرائه والمتقدمين من كتابه من يوصف بجود ولا إفضال ولا يتعالى عن مجون أو طرب .

دخل عليه أبو عبادة البحترى الشاعر المشهور فأنشده قصيدة يمدحه بها قال فيها

عن أى ثغر تبتسم * وبأى طرف تحتكم
حسن يضىء بحسنه * والحسن أشبه بالكرم
قل للخليفة جعفر المتوكل بن المعتصم
المرتضى ابن المجتبى * والمنعم ابن المنتقم
اما الرعية فهى من * أمان عدلك فى حرم
يابانى المجد الذى * قد كان قوض فانهدم
أسلم لدين محمد * فاذا سلمت فقد سلم
نلنا الهدى بعد العمى * بك والغنى بعد العدم

فلما انتهى مشى القهقرى للانصراف فوثب أبو العنبس فقال ياأمير المؤمنين تأمر برده فقد والله عارضته فى قصيدته هذه فأمر برده فأخذ ينشد أبياتا هزلية غثة لم نستحسن إيرادها فضحك المتوكل حتى استلق على قفاه وفحص برجله اليسرى وقال يدفع إلى أبى العنبس عشرة آلاف درهم فقال الفتح بن خاقان ياسيدى البحترى الذى هجى وأسمع المكروه ينصرف خائبا فقال ويدفع إلى البحترى عشرة آلاف درهم فوصل الجاد فى كرامة الهازل

وكان ينفر من استعمال أهل الذمة فى الدواوين ويكره أن يظهروا فى الطريق بمظهر المسلمين ولذلك أصدر أمره فى سنة ٢٣٥ أن يلبسوا زيا خاصا بهم وهو الطيالسة العسلية والزنانير وأن تكون لهم سروج خاصة بهم لركوبهم ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال السلطان التى يجرى فيها أحكامهم على المسلمين ونهى أن يتعلم أولادهم فى كتاتيب المسلمين ولا يعلمهم مسلم وكتب منشورا إلى عماله فى الآفاق بذلك كتبه إبراهيم بن العباس الصولى فى شوال سنة ٢٣٥

قال المسعودى وكانت أيام المتوكل فى حسنها ونضارتها ورفاهية العيش بها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لاضراء كما قال بعضهم كانت خلافة المتوكل أحسن من أمن السبيل ورخص السعر وأمانى الحب وأيام الشباب

وتتعادل عند المحدثين سيئاته وحسناته فابطاله المناقشة فى القرآن وحدوثه ترفعه إلى أعلى الدرجات وهدمه قبر الحسين يحطه إلى أسفل الدركات فكأنه عندهم لاعليه ولاله . أما الحكم على زمنه بما كان من مصادرة الكتاب وعقوباتهم الشديدة فلم يكن محل عناية من أحد

ولاية العهد

تشبه المتوكل فى كثير من أعماله بجده الرشيد ومن ذلك توليته العهد فقد عقد الولاية لأولاده الثلاثة وهم محمد المنتصر ومحمد المعتز وإبراهيم المؤيد وذلك فى ٢٧ ذى الحجة سنة ٢٣٥ وقسم البلاد بينهم

فجعل لأكبرهم المنتصر أفريقية والمغرب كله من عريش مصر إلى حيث بلغ سلطانه من المغرب وجند قنسرين والعواصم والثغور الشامية والجزرية وديارمضر وديار ربيعة والموصل وهيت وعانات والخابور وقرقيسيا وكوربا جرمى وتكريت وطساسيج السواد وكوردجلة والحرمين واليمن وعك وحضرموت واليمامة والبحرين والسند ومكران وقندابيل وفرج بيت الذهب وكور الأهواز والمستغلات بسامرا وماه الكوفة وماه البصرة وماسبذان ومهرجان قذق وشهرزور ودراباذ والصامغان وأصبهان وقم وقاشان وقزوين وأمور الجبل والضياع المنسوبة إلى الجبال وصدقات العرب بالبصرة

وجعل لابنه المعتز كور خراسان وما يضاف إليها وطبرستان والرى وأرمينية وأذربيجان وكور فارس وضم إليه فى سنة ٢٤٠ خزن بيوت الأموال فى جميع الآفاق ودور الضرب وأمر بضرب اسمه على الدراهم

وجعل لابنه المؤيد جند دمشق وجند حمص وجند الأردن وجند فلسطين

وكتب بينهم كتابا يشبه الكتاب الذى كتبه الرشيد بين الأمين والمأمون والقاسم . وقد جعل المتوكل لابنيه المعتز والمؤيد تمام الاستقلال فى أعمالهما إذا آلت الخلافة للمنتصر بحيث لايجوز أن يشرك فى شىء من أعمال أحدهما أحدا ولايوجه عليه أمينا ولا كاتبا ولا بريدا ولايضرب على يده فى قليل ولا كثير وكذلك جعل على المعتز للمؤيد إذا آلت الخلافة للمعتز وكتب من هذا الكتاب أربع نسخ

نسخة بخزانة أمير المؤمنين وعند كل من أولياء العهد نسخة وهذا نموذج مما قيل من الشعر فى هذه البيعة وهو ينم على نفاق قائله لأن القوم لم ينسوا بعد ما كان بين أولاد الرشيد . قال إبراهيم بن العباس الصولى :

أضحت عرى الاسلام وهى منوطة ٭ بالنصر والاعزاز والتأييد
بخليفة من هاشم وثلاثة ٭ كنفوا الخلافة من ولاة عهود
قمر توالت حوله أقماره ٭ يكنفن مطلع سعده بسعود
كنفتهم الآباء واكتنفت بهم ٭ فسموا بأكرم أنفس وجدود

مقتل المتوكل

لم تكن قلوب كبار الأتراك مطمئنة إلى المتوكل فقد وقع فى أنفسهم أنه يريد تدبير المكايد لهم حتى يتخلص منهم واحدا بعد واحد فأخذتهم من ذلك وحشة وكان وزير المتوكل عبيد الله بن خاقان ونديمه الفتح بن خاقان منحرفين عن المنتصر ولى العهد مائلين إلى المعتز فأوغرا قلب أبيه عليه حتى هم أن يعزله من ولاية العهد فاجتمع لذلك الخصمان قواد الأتراك وولى العهد . مال الأتراك إلى المنتصر ليستعينوا به فى تنفيذ غرضهم ومال إليهم ليحفظ لنفسه الخلافة عاجلا أو آجلا . ومما زاد فى إغراء المنتصر أن المتوكل اشتكى فأمره أن يصلى بالناس يوم الجمعة فقال عبيد الله والفتح للمتوكل مر أبا عبد الله المعتز بالله بالصلاة لتشرفه بذلك فى هذا اليوم الشريف فقد اجتمع أهل بيته والناس جميعا فقد بلغ الله به فأمره المتوكل بالصلاة فركب وصلى بالناس وأقام المنتصر فى منزله وفى الجمعة التالية أراد المتوكل أن يصلى المنتصر بالناس فحسنا له أن يركب هو لئلا يرجف الناس بعلته ففعل . كل ذلك زاد المنتصر حقدا وخوفا على الخلافة أن تفوته . ويقال إن المتوكل اتفق مع الفتح بن خاقان على الفتك بالمنتصر وقتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ولم يكن هذا السر ليستتر مع النبيذ والاستهتار بشربه فاتفق القوم على أن يفتكوا بالمتوكل

وقد تولى كبر ذلك بغا الصغير المعروف بالشرابى فانه أعد لذلك قوما فى مقدمتهم باغر التركى الذى كان يقوم بحراسة المتوكل وأعد معه عشرة من الأجناد فدخلوا القصر وسيوفهم مسلولة والمتوكل قد أخذ منه الشراب فابتدره أحدهم بضربة وثنى

عليه بأخرى أتت على نفسه وكان معه الفتح بن خاقان فقتل معه وكان قتله ليلة الأربعاء لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٧ ويعجبنى ماقاله بعض شعراء الوقت فى تلك الحادثة

لاحزن إلا أراه دون ماأجد ٭ وهل كمن فقدت عيناى مفتقد
لايبعدن هالك كانت منيته ٭ كما هوى عن غطاء الزبية الأسد
لايدفع الناس ضيما بعد ليلتهم ٭ إذلا تمد إلى الجانى عليك يد
لوأن سيفى وعقلى حاضران له ٭ أبليته الجهد إذ لم يبله أحد
هلا أتاه أعاديه مجاهرة ٭ والحرب تسعر والأبطال تطرد
خر فوق سرير الملك منجدلا ٭ لم يحمه ملكه لما انقضى الأمد
وأصبح الناس فوضى يعجبون له ٭ ليثا صريعا تنزى حوله النقد
علتك أسياف من لادونه أحد ٭ وليس فوقك إلا الواحد الصمد
أضحى شهيد بنى العباس موعظة ٭ لكل ذى عزة فى رأسه صيد
خليفة لم ينل ما ناله أحد ٭ ولم يضع مثله روح ولا جسد
كم فى أديمك من فوهاء هادرة ٭ من الجوائف يغلى فوقها الزبد
إذا بكيت فان الدمع منهمل ٭ وإن رثيت فان القول مطرد
قد كنت أسرف فى مالى وتخلف لى ٭ فعلمتنى الليالى كيف أقتصد
لما اعتقدتم أناسا لاحلوم لهم ٭ ضعتم وضيعتم من كان يعتقد
فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم حمتكم السادة المذكورة الحشد
قوم هم الجذم والأنساب تجمعهم ٭ والمجد والدين والأرحام والبلد

وقال على بن الجهم من قصيدة له

عبيد أمير المؤمنين قتلنه ٭ وأعظم آفات الملوك عبيدها
بنى هاشم صبرا فكل مصيبة ٭ سيبلى على وجه الزمان جديدها

وهذه الحادثة أول ثمرة لغرس المعتصم فانه ملك الخلافة قوما لاحلوم لهم وليس لهم من الأخلاق مايمنعهم مما فعلوا ولا من العصبية مايجعل جانبهم مأمونا وأجل من ذلك أن يكون ولى العهد شريكا فى دم أبيه وهذا أيضا أول حادث من نوعه ويعجبنى ما قاله البحترى

أكان ولى العهد أضمر غدره ٭ فمن عجب أن ولى العهد غادره
فلا ملك الباقى تراث الذى مضى ٭ ولا حملت ذاك الدعاء منابره

١١ — المنتصر

هو محمد المنتصر بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية اسمها حبشية ولد سنة ٢٢٢ وعقد له أبوه ولاية العهد سنة ٢٣٥ وسنه ثلاث عشرة سنة . ولما قتل أبوه بايعه قواد الأتراك عقيب مقتله فى ٤ شوال سنة ٢٤٧ (١١ ديسمبر سنة ٨٦١) واستمر خليفة إلى أن توفى يوم الأحد لخمس خلون من شهر ربيع الآخر سنة ٢٤٨ (٧ يونية سنة ٨٦٢) فكانت مدته التى تعجلها بقتل أبيه ستة أشهر

استوزر المنتصر أحمد بن الخصيب وكان كاتبه قبل أن يستخلف وكان مقصرا فى صناعته مطعونا عليه فى عقله وكانت فيه مروءة وحدة وطيش فمن احتمله بلغ منه ماأراد وقد وصفه المسعودى بأنه كان قليل الخير كثير الشر وقد ندم المنتصر على مافعل من تقليده الوزارة ونفيه عبيدالله بن خاقان وزير أبيه بسبب ماشاع من حدة ابن الخصيب وطيشه وذلك أنه ركب ذات يوم فتظلم اليه متظلم بقصة فأخرج رجله من الركاب فزج بها فى صدر المتظلم فقتله فتحدث الناس بذلك فقال بعض شعراء ذلك الزمان

قل للخليفة يا ابن عم محمد ٭ أشكل وزيرك إنه شكال
أشكله عن ركل الرجال وإن ترد ٭ مالا فعند وزيرك الأموال

الجيش

بقتل المتوكل واستيلاء المنتصر الشاب زادت الأتراك قوة فى الدولة على قوتهم لأن أيديهم امتدت إلى حياة الخلفاء فقتلوا خليفة وساقوا الخلافة إلى خليفة فأنشبوا أظفارهم بذلك فى جسم الدولة ولم يكن هناك من حيلة للتخلص منهم لما دب إلى قلوب الخلفاء من الهيبة لهم ورعاية جانبهم ومما يدل على ذلك أن الأتراك لم يكونوا يحبون أن تكون ولاية العهد المعتز والمؤيد ابنى المتوكل فأشاروا على المنتصر بخلعهما فأحضرا دار الخلافة وطلب منهما أن يكتبا طالبين أن يخلعا من ولاية العهد لضعفهما عن ذلك فرضى

المؤيد وأبي المعتز فقال له المؤيد ياجاهل تراهم قد نالوا من أبيك وهو هو مانالوا ثم تمتنع عليهم اخلع ويلك ولا تراجعهم — ومازال به حتى أجاب وكتبا ماأملى عليهما في ذلك وهذا ما كتباه — بسم الله الرحمن الرحيم إن أمـــير المؤمنين المتوكل على الله رضى الله عنه قلدني هذا الأمر وبايع لي وأنا صغير من غير إرادتي وبحبتى فلما فهمت أمرى علمت أنى لاأقوم بماقلدنى ولاأصلح لخلافة المسلمين فمن كانت بيعتى في عنقه فهو من نقضها في حل وقد حللتكم منها وأبرأتكم من أيمانكم ولا عهدلى في رقابكم ولاعقد وأنتم براء من ذلك — ثم دخلا على المنتصر فاعترفا بما في الكتاب ثم أقبل عليهما والأتراك وقوف وقال لهما أتريانى خلعتكما طمعا في أن أعيش حتى يكبر ولدى وأبايع له والله ماطمعت في ذلك ساعة قط وإذالم يكن في ذلك طمع فوالله لأن يليها بنو أبي أحب إلى من أن يليها بنو عمي ولكن هؤلاء (وأومأ إلى سائر الموالى ممن هو قائم وقاعد) وألحوا على في خلعكما فخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتى عليكما فما تريانى صانعا أقتله فوالله ماتفى دماؤهم كلهم بدم بعضكم فكانت إجابتهم إلى ماسألوا أسهل على

فانظروا كيف كان عجز الخليفة عن أن يرد مشورة لهم تخالف ماعقده المتوكل وأكده بالأيمان والمواثيق والعهود . وقد كتب المنتصر بذلك إلى الآفاق وظهر في كتابه براعة المنشئين في ذلك الوقت وإن لم تظهر فيه براعة الأخلاق الفاضلة وحفظ العهود والمواثيق وكان الكاتب له هو أحمد بن الخصيب

صفات المنتصر

لئن كان الغضب قد حمل المنتصر على تذليل السبيل لاهراق دم أبيه فانه كان يزال ذا نفس تحس فتتأثر فلم يزل يلاق أهوال التوبيخ في يقظته ومنامه حتى أسقم ذلك بدنه وأذل نفسه . دخل عليه عبدالله بن عمر البازيار ذات يوم وهو يبكى وينتحب فسأله عن سبب بكائه فقال كنت نائما فرأيت كأن المتوكل قد جاءنى فقال لى ويلك يامحمد قتلتنى وظلمتنى وغبنتنى خلافتى والله لاتمتعت بعدى إلا أياما يسيرة ثم مصيرك إلى النار فانتبهت وما أملك عينى ولاجزعى . فهون عبدالله عليه الأمر . وكان كثيرا مايقول إذا سئل عن حاله ذهبت والله منى الدنيا والآخرة — فكان الرجل يكابد

نيرانا تضطرم بين جنبيه جزاء فعلته وكان يهم أن يكفر سيئته فينتقم من قتلة أبيه أو أنه أحس بأن الذين تمكنوا من قتل أبيه لايبعد عليهم أن يكرروا التجربة فيه فكان يفكر فى تفريق جميعهم وأثرت عنه كلمات فى ذلك ولكن قوتهم كانت أكبر من أن تتأثر بتفكير ذلك الخليفة الشاب

كان من خلق المنتصر سعة الاحتمال وكثرة المعروف والرغبة فى الخير والسخاء والعفة وكان يأخذ نفسه بمكارم الأخلاق وحسن المعاشرة بمالم يسبقه خليفة إلى مثله . ومما حببه إلى الناس إزالته عن آل أبى طالب ما كان قد أوحشهم فتقدم بالكف عنهم وترك البحث عن أخبارهم وألا يمنع أحد زيارة قبر الحسين رضى الله عنه ولا قبر غيره من آل أبى طالب وأطلق أوقاف الطالبيين وترك التعرض لشيعتهم ودفع الأذى عنهم ومما يؤثر من قوله (إن لذة العفو أعذب من لذة التشفى وأقبح أفعال المقتدر الانتقام) وقد أظهر الانصاف فى الرعية فمالت إليه قلوب الخاصة والعامة مع شدة هيبتها له

وفاة المنتصر

قال الطبرى لم أزل أسمع الناس حين أفضت إليه الخلافة من لدن ولى إلى أن مات يقولون إنما مدة حياته ستة أشهر مدة شيرويه بن كسرى قاتل أبيه مستفيضا ذلك على ألسن العامة والخاصة وكذلك كان فقد أصابته العلة التى قضت عليه يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع الأول سنة ٢٤٨ ومات مع العصر من يوم الأحد لخمس ليال خلون من شهر ربيع الآخر ويقال إن تلك العلة كانت الذبحة فى حلقه وبعضهم يقول كانت ورما خبيثا فى معدته ويقال أيضا إنه سم سمه الطبيب فى مبضع والله أعلم أى ذلك كان

١٢ ــــ المستعين

هو أحمد بن محمد بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد صقلية اسمها مخارق ولد سنة ٢٢٠ وبويع بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه المنتصر وهو خامس ربيع الآخر سنة ٢٤٨ (٧ يونية سنة ٨٦٢) ولم يزل خليفة إلى أن خلع يوم الجمعة ٤ محرم سنة ٢٥٢ (١٥ يناير سنة ٨٦٦) فكانت مدته ثلاث سنوات وثمانية أشهر و٢٨ يوما

كيف انتخب

اجتمع الموالى وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير وأتامش ومن معهم فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية على أن يرضوا بما رضى به من سميناً فأجمع رأى الثلاثة على ألا يولوا أحداً من أولاد المتوكل لئلا يغتالهم بدم أبيه كما أنهم لم يريدوا إخراجها عن أولاد المعتصم مولاهم فاقترح عليهم تولية أحمد بن المعتصم فقال لهم محمد بن موسى بن شاكر المنجم أتولون رجلا عنده أنه أحق الناس بالخلافة قبل المتوكل وأنكم دفعتموها عنه وأنه أحق بالأمر من المتوكل والمنتصر فبأى عين يراكم وأى قدر يكون لكم عنده ولكن أطيعوا إنساناً يعرف لكم ذلك . فكانت هذه الكلمات مما وافق هواهم جميعا إلا بغا الكبير فانه قال لهم نجىء بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه وإن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضا فقتلنا أنفسنا . ثم ذكروا أبا العباس أحمد بن محمد بن المعتصم وقالوا هو من ولد مولانا المعتصم ولم نخرجها عنهم ونصطنعه فيعرف ذلك لنا ولم يزالوا ببغا الكبير حتى وافقهم عليه فبايعوه جميعا . وهو أول خليفة من بنى العباس لم يكن أبوه خليفة بعد مؤسسى الدولة السفاح والمنصور وأول خليفة تولى بعد ابن عمه

وفى عهده توفى من الأغالبة بأفريقية أحمد بن محمد بن الأغلب سنة ٢٤٩ وخلفه أخوه زيادة الله بن محمد إلى سنة ٢٥٠ وخلفه ابن أخيه محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب إلى سنة ٢٦١

وفى عهده توفى من آل طاهر بخراسان طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين فولى مكانه محمد بن طاهر إلى سنة ٢٥٩

الوزارة فى عهد المستعين

لم يكن للخليفة شيء من النفوذ فان الموالى هم الذين حولوا الخلافة عن المعتز بخلعهم إياه من ولاية العهد وهم الذين ساقوها إلى المستعين بلا عهد ولا سابقة فكان من المعقول أن يكون بين أيديهم يفعلون به ما شاؤا حتى مثله بعض الشعراء بقوله

خليفة فى قفص ٭ بين وصيف وبغا

يقول ما قاله له ٭ كما تقول الببغا

فالوزير من قبلهم يولى فان وافق هواهم رضوا عنه وإن خالفهم فى شىء أزالوه عن رتبته وأقاموا غيره

تركوا الوزارة فى يد أحمد بن الخصيب الذى كان وزيرا للمعتصم ثم لم يلبثوا أن غضبوا عليه فى جمادى الأولى من سنة ٢٤٨ فاستصفوا ماله ومال ولده ونفوه إلى جزيرة أقريطش

واختير لوزارة المستعين أتامش أحد قواد الأتراك وكان الذى يقوم بأمر الكتابة كاتبه شجاع فكان أتامش بذلك صاحب السلطان التام فأطلقت يده فى الأموال ومعه شاهك الخادم الذى جعله المستعين على داره وكراعه وخزائنه وخاص أموره وضم إليهما فى النفوذ والتصرف أم المستعين فانه لم يمنعها من شىء تريده وكان كاتبها سعيد بن سلمة النصرانى فكانت الأموال التى ترد على السلطان من الآفاق يصير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة فعمد أتامش إلى مافى بيوت الأموال من الأموال فاكتسحه وكان المستعين قد جعل ابنه العباس فى حجر أتامش فكان مافضل من الأموال عن هؤلاء الثلاثة يؤخذ للعباس فيصرف فى نفقاته وأسبابه وصاحب ديوان ضياعه يومئذ كاتب اسمه دليل بن يعقوب النصرانى فاقتطع من ذلك أموالا جليلة لنفسه . نظرت الموالى إلى هذه الحال : الأموال تستهلك وهم فى ضيقة وأتامش هو صاحب المستعين وصاحب أمره والمستولى عليه ينفذ أمور الخلافة ووصيف وبغا من ذلك كله بمعزل فأغريا الموالى به ولم يزالا يدبران الأمر عليه حتى أحكما التدبير فتذمرت الأتراك والفراغنة على أتامش وخرج إليه منهم يوم الخميس ١٢ ربيع الآخر سنة ٢٤٩ أهل الدور والكرخ فعسكروا وزحفوا إليه وهو فى الجوسق مع المستعين وبلغه الخبر فأراد الهرب فلم يمكنه واستجار بالمستعين فلم يجره وفى يوم السبت دخلوا الجوسق فاستخرجوا أتامش من موضعه الذى توارى فيه فقتل وقتل كاتبه شجاع وانتهبت دار أتامش فأخذوا منها أموالا جليلة ومتاعا وفرشا وآلة

استوزر المستعين بعده أبا صالح عبد الله بن محمد بن يزداد وأبوه كان قبل ذلك وزيرا للمأمون فمكث فى الوزارة نحو ثلاثة أشهر لم يرض فيها أحزاب الموالى لأنه أراد أن يضبط حساب المملكة فلم يعجب ذلك بغا الصغير وحزبه فأظهروا له

الغضب فهرب منهم إلى بغداد فى شعبان من سنة ٢٤٩

استكتب المستعين بعده محمد بن الفضل الجرجرائى وهو الذى كان وزير المتوكل قبل ذلك ولم يسمه باسم وزير

العلويون فى عهد المستعين

كان الذى فى عهد المستعين من أئمة الامامية الاثنى عشرية على الهادى وهو العاشر من أئمتهم وكان مقيما بسامرا

أما الزيدية فقد خرج منهم :

(أولا) يحيى بن عمر بن يحيى بن حسين بن زيد بن على بن الحسين خرج بالكوفة وكان قبل خروجه يتردد بين بغداد وسامرا يطالب كبار الدولة بما يصلح من شأنه فكان يرجع دائما بالفشل فاستثار جمعا كثيرا من الأعراب وانضم إليهم جمع من الكوفة فعسكر بهم بضواحى الكوفة ولما علم بخبره محمد بن عبد الله بن طاهر وجه الجنود إليه فبادر يحيى إلى الكوفة فاستولى عليها وعلى بيت مالها ثم خرج منها وصار يتردد فى السواد ثم عاد إلى الكوفة ودعا إلى الرضا من آل محمد وكشف أمره وتولاه العامة من أهل بغداد ولا يعلم أنهم تولوا من أهل بيته غيره أقام بالكوفة يعد العدد ويطبع السيوف ويعرض الرجال ويجمع السلاح. كان الذى توجه لحربه فرع من فروع الأسرة المصعبية وهو الحسين بن إبراهيم بن مصعب فلما وصل بجنده إلى ظاهر الكوفة أشار على يحيى جماعة من الزيدية لا علم لهم بالحرب بمعاجلة الحسين وألح عليه عوام أصحابه بمثل ذلك فخرج من وراء الخندق ليلة الاثنين ١٣ رجب سنة ٢٥٠ فى جمع ليسوا بذى علم ولا تدبير ولا شجاعة فأسروا ليلتهم حتى صبحوا الحسين وهو وأصحابه مستريحون مستعدون فلم يكن بأسرع أن انهزم جند يحيى ووضع فيهم السيف وكان أكثر رجالة الكوفة عزلا فداستهم الخيل ولما انكشف العسكر عن يحيى تقطر به برذونه فقتل وأخذت رأسه إلى محمد بن عبد الله ابن طاهر فحمله إلى المستعين بسامرا فنصب الرأس بباب العامة بسامرا واجتمع الناس لذلك وكثروا وتذمروا فرد إلى بغداد لينصب بها فلم يمكن لما أبداه العامة من كراهة ذلك وقال أبو هاشم داود بن الهيثم الجعفرى فى ذلك

يابنى طاهر كلوه وبيـا ٭ إن لحم النبى غير مرى
إن وترا يكون طالبه الله لوتر نجـاحه بالحرى

ومع هذا الميل من الناس إلى العلويين لم يمكنهم الاستفادة من ذلك الميل لأنهم لم يكن لهم تدبير منتظم ولا استعانه بذوى التدبير والحيل من رجال الحرب

(ثانيا) خرج الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن ابن على . خرج بنواحى طبرستان وسبب خروجه أن المستعين أقطع محمد بن طاهر قطائع من صوافى السلطان بطبرستان وذلك بعد ان انتصر على يحيى بن عمر وكان من جملة تلك القطائع قطيعة قرب ثغرى طبرستان من نواحى الديلم وهما كلاروسالوس وبحذاء تلك القطيعة أرض لأهل تلك الناحية فيها مرافق منها محتطبهم ومراعى مواشيهم ومسرح سارحتهم وليس لأحد عليها ملك . وجه محمد بن طاهر جابر بن هارون أخا كاتبه النصرانى لحيازة ماأقطع من تلك الأراضى وكان عامل طبرستان إذ ذاك سليمان بن عبد الله بن طاهر وقد غلب على أمره محمد بن أوس البلخى ومن ولده كان العمال على مدن طبرستان وهم أحداث سفهاء فاستأذى بهم وبسفههم من تحت أيديهم والرعية واستنكروا منهم ومن والدهم ومن سليمان بن عبد الله سفههم وسيرهم فيهم وزاد على ذلك أن محمد بن أوس وتر الديلم بدخوله إلى ماقرب من بلادهم من حدود طبرستان على غرة وهم أهل سلم وموادعة لأهل طبرستان فسبى منهم ورجع

لما جاء رسول محمد بن طاهر وأراد استلام القطيعة أحب أن يحوز معها تلك الأرض التى تتصل بها من الموات الذى يرتفق به أهل تلك الناحية

كان هناك رجلان معروفان بالبأس والشجاعة وكانا معروفين قديما بضبط تلك الناحية ممن رامها من الديلم وهما محمد وجعفر ابنا رستم فأنكرا مافعله جابر ومنعاه وكانا مطاعين فاستنهضا من أطاعهما فنهضوا معهم وهرب جابر خوفا على نفسه ولحق بسليمان بن عبد الله فأيقن الرجلان حينئذ بالشر وراسلا جيرانهم من الديلم يطلبون منهم المساعدة والمظاهرة على سليمان بن عبدالله فأجابهم الديلم إلى ذلك وتعاقدوا هم وأهل كلاروسالوس أن يعين بعضهم بعضا على حرب سليمان بن عبد الله ومحمد ابن أوس وغيرهما ممن قصدهم بحرب ثم أرادوا أن يكون على رأسهم رجل يبايعونه

فاتفقوا على الحسن بن زيد وكان مقيما بالرى فوجه إليه القوم من دعاه إلى أمرهم فأجاب وتوجه إليهم فبايعوه وبايعه رؤساء الديلم ثم ناهضوا من فى تلك النواحى من عمال ابن أوس فطردوهم عنها فلحقوا بمدينة سارية

ثم زحف الحسن ومن معه على مدينة آمل وهى حاضرة طبرستان وجاء محمد بن أوس يريد دفعه عنها فلم يقدر وفر هاربا . دخل الحسن مدينة آمل فكثف جيشه وغلظ أمره ومال اليه كل طالب نهب ومريد فتنة من الصعاليك والحوزية وغيرهم

ثم سار من آمل إلى سارية وبها العامل سليمان بن عبد الله فغلبه عليها ولم يكن له هو ومحمد بن أوس إلا النجاء منها بأنفسهما فهربا إلى جرجان وبذلك تم للحسن بن زيد الاستيلاء على بلاد طبرستان كلها فوجه خيلا إلى الرى فاستولت عليها وطردت عنها عمال ابن طاهر

ورد الخبر بذلك إلى المستعين ومدبر أمره وصيف التركى فوجه إلى همذان قائدا فى جمع من الجنود ليقيم بها ويمنع خيل الحسن أن تتجاوزها لأن ماوراء همذان كان لمحمد بن طاهر وبه عماله وعليه صلاحه

هكذا نجح الحسن بن زيد فى تكوين هذه الدولة التى تعرف بالدولة الزيدية بطبرستان واقتطع من ملك بنى العباس أو آل طاهر طرفا عظيما تحميه جبال طبرستان والديلم واستمرت هذه الدولة نحو قرن كامل (٢٥٠ - ٣٥٥) تولى فيها :

(١) الحسن بن زيد الداعى	٢٥٠ - ٢٧٠
(٢) محمد بن زيد القائم بالحق	٢٧٠ - ٢٧٩
الدولة السامانية	٢٧٩ - ٣٠١
(٣) الحسن الأطروش بن على بن عمر بن زين العابدين	٣٠١ - ٣٠٤
(٤) الحسن بن القاسم بن على بن عبد الرحمن ومعه أولاد الأطروش	٣٠٤ - ٣٥٥

ولم تكن هذه الدولة ذات نظام ملكى ولا مرتاحة من الأعداء فان بنى سامان الآتى ذكرهم قتلوا محمد بن زيد واستولوا على طبرستان إلى سنة ٣٠١ ثم ظهر الحسن الأطروش فاسترد طبرستان من آل سامان ولكنه قتل فى بعض حروبه مع السامانية

فقام بعده الحسن بن القاسم ونازعه أولاد الأطروش ولم يزل النزاع والخلاف قائما بينهم حتى انتهى أمرهم سنة ٣٥٥ وانقضى الملك الزيدى من تلك الجبال

الجيش

كان ماظنه بغا الكبير فى محله فانه قال للقوم (نجيء بمن نهابه ونفرقه فنبقى معه وإن جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضا فقتلنا أنفسنا) وجد التحاسد بين هؤلاء القوم وليس للخليفة سلطان يقمع به من بغى منهم فكانت أولى جناياتهم قتل أتامش لما رأوه قد استبد بأموال الدولة وبمصالحها . ثم اتفق وصيف وبغا على قتل باغر التركى الذى تولى قتل المتوكل لأنهما خافاه على أنفسهما وكان باغر قد جمع اليه الجماعة الذين كانوا بايعوه على قتل المتوكل فجدد عليهم البيعة التى كان أخذها عليهم وقال لهم الزموا الدار حتى نقتل المستعين وبغا ووصيفا (وكانا يسميان بالأميرين) ونجيء بعلى بن المعتصم أو بابن الواثق فنقعده خليفة حتى يكون الأمر لنا كما هو لهذين اللذين قد استوليا على أمر الدنيا وبقينا نحن على غير شيء فأجابوه إلى ذلك وانتهى الأمر إلى المستعين فبعث إلى وصيف وبغا فقال لهما ماطلبت إليكما أن تجعلانى خليفة وإنما جعلتمانى وأصحابكما ثم تريدان أن تقتلانى فحلفا له أنهما ما علما بذلك فأعلمهما الخبر فاتفق الرأى على التدبير على باغر ففعلا وقتلاه فهاج أصحابه هيجانا شديدا ولم يكن من الأميرين إلا حمل المستعين معهما والانحدار به إلى بغداد يوم الأربعاء ٤ محرم سنة ٢٥١ ونزل المستعين بدار محمد بن عبد الله بن طاهر ولحقهم جماعة من قواد الأتراك فدخلوا إلى المستعين فرموا بأنفسهم بين يديه وجعلوا مناطقهم فى أعناقهم تذللا وخضوعا وسألوه الصفح عنهم فقال لهم أنتم أهل بغى وفساد واستقلال للنعم ألم ترفعوا إلى فى أولادكم فألحقتهم بكم وهم نحو من ألفى غلام وفى بناتكم فأمرت بتصييرهن فى عداد المتزوجات وهن نحو من أربعة آلاف امرأة وفى المدركين والمولودين وكل هذا قد أجبتكم إليه وأدررت لكم الأرزاق حتى سبكت لكم آنية الذهب والفضة وحرمت نفسى لذتها وشهوتها كل ذلك إرادة لصلاحكم ورضاكم وأنتم تزدادون بغيا وفسادا وتهددا وإبعادا . فتضرعوا إليه حتى قال قد رضيت عنكم فقال له أحدهم بايكباك إن كنت رضيت عنا وصفحت فقم فاركب معنا إلى

سامرا فان الأتراك ينتظرونك . فاومأ محمد بن عبد الله بن طاهر إلى محمد بن أبي عون فلكز فى حلق بايكباك وقال له هكذا يقال لأمير المؤمنين قم فاركب معنا فضحك المستعين من ذلك وقال هؤلاء قوم عجم ليس لهم معرفة بحدود الكلام

وقال لهم المستعين تصيرون إلى سامرا فان أرزاقكم دارة عليكم وأنظر أنا فى أمرى ههنا ومقامى . فانصرفوا آيسين منه غاضبين عما حصل لهم فأجمعوا أمرهم على إخراج المعتز والبيعة له وكان المعتز والمؤيد فى حبس الجوسق فى حجرة صغيرة مع كل واحد منهما غلام يخدمه فأخرجوا المعتز وبايعوه بالخلافة ولأخيه المؤيد بولاية العهد .

وبذلك صارت بغداد فى جانب المستعين والقائم بأمره محمد بن عبد الله بن طاهر ومن لف لفه وسامرا فى جانب المعتز . كان من أول مافعله ابن طاهر أن منع الميرة عن سامرا وقام بتحصين بغداد فأدير عليها السور وحفرت حولها الخنادق ورتبت الرجال على أبوابها وأسوارها وكتب المستعين إلى عمال الخراج بكل بلدة وموضع أن يكون حملهم مايحملون من الأموال إلى بغداد ولا يحملون إلى سامرا شيئا

دارت المكاتبات فكتب المستعين إلى أتراك سامرا يأمرهم بنقض بيعة المعتز ومراجعة الوفاء ببيعتهم إياه ويذكرهم أياديه عندهم وينهاهم عن معصيته ونكث بيعته وكان كتابه بذلك إلى سيما الشرابى . وكتب المعتز إلى محمد بن عبد الله بن طاهر يدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه من بايعه بالخلافة وخلع المستعين ويذكره ما كان أبوه المتوكل أخذ له عليه بعد أخيه المنتصر من العهد وعقد الخلافة . فلم تفد هذه المكاتبات شيئا وهيأ المعتز جيشا لحرب المستعين جعل قيادته لأخيه أبى أحمد بن المتوكل وتدبيره إلى كلباتكين التركى . خرج هذا الجيش من سامرا فوافى عكبرا فى غاية المحرم من سنة ٢٥١ ووصل باب الشماسية ببغداد لسبع خلون من صفر . وقد حصل بين الفريقين مواقع هائلة حول أسوار بغداد وبعيدا عنها وانقطعت بذلك السابلة وخربت الضياع وذهبت الأرزاق وكانت الحرب بين الفريقين فى البر وفى النهر . وقد ظلت بغداد مرسحا للفتن والحروب سنة ٢٥١ كلها وفى آخرها كاتب ابن طاهر المعتز فى الصلح وأشيع بين عامة بغداد أن ابن طاهر مال إلى خلع المستعين وأنه وجه قواده فبايعوا المعتز فلما سمعوا ذلك

هاجوا وأظهروا الوقيعة فى ابن طاهر وشتموه أقبح الشتم وتجمعوا حول داره يريدون الايقاع به فكلم ابن طاهر المستعين وسأله أن يطلع إليهم ويسكنهم ويعلمهم ما عليه ابن طاهر فأشرف عليهم من أعلى الدار وعليه البردة والطويلة وابن طاهر بجانبه فحلف لهم بالله ما اتهمه وإنه لفى عافية ماعليه من ابن طاهر بأس ووعدهم أن يخرج فى غد يوم الجمعة ويصلى بهم فانصرفوا وجاؤا فى الغد يطلبون خروج المستعين إليهم فلم يخرج فازداد هياجهم وطلبوا خروج الخليفة من دار ابن طاهر فلم يجد من ذلك بدا وانتقل فى أوائل ذى الحجة إلى دار رزق الخادم وكان معه حين انتقاله ابن طاهر وبيده الحربة يسير بها والقواد خلفه وكان هذا الانتقال على غير إرادة المستعين

ويقال إن السبب فى عدول ابن طاهر عن الاخلاص للمستعين أن عبيد الله بن يحيى بن خاقان الذى كان وزيرا للمتوكل قال له أطال الله بقاءك إن هذا الذى تنصره وتجد فى أمره من أشد الناس نفاقا وأخبثهم دينا والله لقد أمر وصيفا وبغا بقتلك فاستعظما ذلك ولم يفعلاه وإن كنت شاكا فيما وصفت من أمره فسل تخبره . وإن من ظاهر نفاقه أنه كان وهو بسامرا لا يجهر فى صلاته ببسم الله الرحمن الرحيم فلما صار إلى ما قبلك جهر بها مراآة لك وتترك نصرة وليك وصهرك وتربيتك . ونحو ذلك من كلام كلمه به فقال محمد بن عبدالله أخزى الله هذا لا يصلح لدين ولا لدنيا

كان من وراء ذلك أن تخلى محمد عن نصرة المستعين وكانت نتيجة هذا التخلى أن تضعضع أمره وانحياز العامة له لم يفده فرأى من مصلحته أن يقبل خلع نفسه واشترط شروطا تضمن حياته وراحته

وفى يوم السبت ١٠ ذى الحجة سنة ٢٥١ ركب محمد بن عبد الله إلى الرصافة وجمع القضاة والفقهاء وأدخلهم على المستعين فوجا فوجا وأشهدهم عليه أنه قد صير أمره إلى محمد بن عبد الله فأرسل حينئذ محمد إلى المعتز من جاء بخطه بقبول الشروط التى طلبها المستعين وعادت الرسل فى ثالث المحرم سنة ٢٥٢ وفى رابعه دخل ابن طاهر على المستعين ومعه كتاب الشروط كتبه سعيد ابن حميد فقال ابن طاهر يا أمير المؤمنين قد كتب سعيد الشروط وأكد غاية التأكيد فنقرأ الكتاب عليك فقال المستعين لا عليك لا عليك فما القوم بأعلم بالله منك وقد أكدت على نفسك قبلهم فكان ما قد علمت — فما رد عليه محمد شيئا

ولما بايع المستعين للمعتز ببغداد أخذ منه البردة والقضيب والخاتم ووجه ذلك إلى المعتز وأشخص المستعين إلى واسط . ويعجبني هنا ما قاله أحد شعراء العصر

خلع الخليفة أحمد بن محمد ‌» وسيقتل التالى له أو يخلع
ويزول ملك بنى ابيه فلا يرى ‌» أحد بملك منهم يستمتع
أيها بنى العباس إن سبيلكم ‌» فى قتل أعبدكم طريق مهيع
رقعتم دنياكم فتمزقت ‌» بكم الحياة تمزقا لا يرقع

الأحوال الخارجية

كان الحال فى الخارج أشد من ذلك وأنكى فان الاضطراب الحادث فى داخلية الدولة كان سببا فى تقاعد أولى الأمر عن حماية الثغور والوقوف فى وجه الروم الذين كانوا ينتظرون مثل هذه الفرصة وقد صادف أن قائدين عظيمين من قواد الثغور قتلا فى حرب مع الروم أول عهد المستعين وهما عمر بن عبيد الله الأقطع وعلى بن يحيى الأرمنى وكانا نابين من أنياب المسلمين شديدا بأسهما عظيما غناؤهما فى الروم فأما أولهما فقد غزا ملطية فقابله ملك الروم فى جمع عظيم فأحاطوا به فقتل وقتل معه ألفا رجل وجرأهم قتله على قصد الثغور الجزرية فقصدوها وكلبوا عليها وعلى حرب المسلمين فبلغ ذلك على بن يحيى وهو قافل من أرمينية إلى ميافارقين فنفر إليهم فى جماعة قليلة فقتل نحو ٤٠٠ رجل

لما بلغ ذلك أهل بغداد شق على عامتهم وعظم مقتل الرجلين فى صدورهم مع ما لحقهم من استفظاعهم من الاتراك قتل المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء واستخلافهم من أحبوا استخلافه من غير رجوع منهم إلى ديانة ولا نظر لأمور المسلمين فثاروا وربما كانوا ينجحون فيما إليه قصدوا من ثورتهم هذه لو وجدوا قائدا يدبر أمرهم ويبعدهم عن الفوضى ولكنهم لم يظفروا به اجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنفير وانضمت إليهم الأبناء الشاكرية وفتحوا أبواب السجون وأخرجوا من فيها ثم أخرج أهل اليسار من أهل بغداد وسامرا أموالا كثيرة من أموالهم فقووا من خف للنهوض إلى الثغور لحرب الروم وأقبلت إليهم العامة من نواحى الجبل وفارس وغيرهما لهذا القصد كل ذلك والخليفة لاه بما هو فيه عن ثغور المسلمين فلم يوجه لها عسكرا ولم تجد حركة العامة شيئا

١٣ — المعتز

هو أبو عبد الله المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد اسمها قبيحة ولد سنة ٢٣١ وكان أبوه المتوكل جعله ولى عهده بعد المنتصر فلم تتم له الولاية لأن المنتصر أرغمه على أن يخلع نفسه ولما ولى المستعين بعد المنتصر حبسه هو وأخاه المؤيد حتى كانت الفتنة بين قواد المستعين فأخرج المعتز وبويع وتم له الأمر بعد خلع المستعين فى رابع محرم سنة ٢٥٢ (٢٥ يناير سنة ٨٦٦) ولم يزل واليا إلى أن خلع لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥ (١١ يوليه سنة ٨٦٩) فكانت مدة خلافته بعد خلع المستعين ثلاث سنوات وستة أشهر و٢٣ يوما

وزراء المعتز

لم يكن للوزارة فى هذا العهد كبير شأن لانحطاط أمر الخلافة نفسها وقد كان الوزراء كتاب أموال فمن أمكنه أن يقوم بحاج كبار الاتراك ومقدميهم بقى فى منصبه وإلا عزل وفعلت به الأفاعيل

أول وزراء المعتز أبو الفضل جعفر بن محمود الاسكافى . لم يكن له علم ولا أدب ولكنه كان يستميل القلوب بالمواهب والعطايا وكانت وزارته على غير رغبة المعتز لأنه كان يكرهه وكان الأتراك فيه فريقين فثارت بسبب ذلك فتنة فعزل من أجل ذلك

وتولى الوزارة بعده عيسى بن فرخانشاه ولم يمكث إلا قليلا حتى عزل بسبب فتنة كالأولى فولى بعده أحمد بن إسرائيل الأنبارى وهو كاتب حاذق ذكى وكان المعتز يميل إليه لأنه كان يتولى له أموره قبل أن يلى الخلافة فمكث وزيرا إلى سنة ٢٥٥ ومما يدل على قدر ما صار إليه سلطان الخليفة ومبلغ الفساد فى أحوال الدولة الكيفية التى عزل بها احمد بن إسرائيل عن الوزارة هو والكتاب الذين معه

دخل صالح بن وصيف مقدم الأتراك على المعتز وقال له ياأمير المؤمنين ليس للأتراك عطاء ولا فى بيت المال مال وقد ذهب ابن إسرائيل وأصحابه بأموال الدنيا فقال له أحمد بن إسرائيل ياعاصى يا ابن العاصى ثم لم يزالا يتراجعان الكلام بحضرة الخليفة حتى سقط صالح مغشيا عليه من شدة الغيظ والحرد فرش على وجهه الماء

وبلغ ذلك أصحابه وهم على الباب فصاحوا صيحة واحدة واخترطوا سيوفهم ودخلوا على المعتز مصلتين فلما رأى ذلك المعتز دخل وتركهم وأخذ صالح بن وصيف أحمد ابن إسرائيل الوزير والحسن بن مخلد كاتب قبيحة أم المعتز وأبانوح عيسى بن إبراهيم فقيدهم وطالبهم بالمال فقال المعتز لصالح قبل أن يحملهم هب لى أحمد فانه كاتبى وقد ربانى فلم يفعل ذلك صالح وبعثت إليه أم المعتز فى ابن إسرائيل تقول له إما حملته إلى المعتز وإما ركبت إليك فيه . فلم يفد هذا ولا ذاك شيئا . وهذا دليل على انحطاط عظيم فى أمر الخلافة وزاد صالح الأمر شنعة فبعث إلى جعفر بن محمود الاسكافى الذى كره المعتز أن يعمل له وولاه الوزارة رغم أنفه

وإسكاف الذى ينتمى إليها جعفر بن محمود قرية من نواحى النهروان بين بغداد وواسط من الجانب الشرقى وهى إسكاف العليا وهناك إسكاف السفلى بالنهروان أيضا

العلويون فى عهد المعتز

فى عهد المعتز مات على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا وهو الامام العاشر من أئمة الشيعة الامامية فولى الشيعة بعده ابنه الحسن العسكرى وهو الحادى عشر من أئمتهم وإنما لقب بالعسكرى لاقامته بسامرا التى كانت تدعى إذ ذاك بالعسكر

أما الزيدية فكانوا قد وجدت لهم دولة ببلاد طبرستان على يد الحسن بن زيد كما تقدم وقد اتهم جماعة من الطالبيين فى بغداد والكوفة بالدعوة للحسن بن زيد ووجدت مع بعضهم كتب من الحسن فأمر المعتز بحملهم إليه بسامرا فحملوا إليه ولم يعرض المعتز لهم بمكروه وإنما توثق منهم

حال الجيش والأتراك

استخلف المعتز وأحوال الجند والأتراك على شر مايكون فهم أصحاب السلطان والنفوذ وهم فيما بينهم مختلفون لأنه لايد فوق أيديهم تقف كلا منهم عند حده ولا حيلة للخليفة إلا مراعاة جانبهم حينا وإعمال الحيلة والدسائس حينا وهكذا يفعل كل من سلب سلطانه ولا قدرة له على استرداده

فى أول خلافة المعتز كتب باسقاط اسم وصيف وبغا وهما أكبر قواد الأتراك لما

كان من مساعدتهما المستعين وكان هذا الكتاب مرسلا إلى محمد بن عبدالله بن طاهر أمير بغداد فبلغ ذلك وصيفا وبغا فجاءا إلى محمد وقالا بلغنا أيها الأمير ماعزم عليه القوم من قتلنا والقوم قد غدروا وخالفوا مافارقونا عليه والله لو أرادوا أن يقتلونا ماقدروا فحلف لهم محمد بالله أنه لم يعلم بشيء من ذلك فذهب الرجلان وتحرزا وتكلم لها عند المعتز من أرضاه عنهما ثم اجتمع الأتراك عند المعتز وسألوه الأمر باحضارهما وقالوا هما كبيرانا ورئيسانا فكتب اليهما بالرضا عنهما فذهبا من بغداد إلى سامرا فذهب لزيارتهما فى منزلها وزير المعتز أحمد بن إسرائيل وردهما المعتز إلى مراتبهما رغم أنفه بناء على إلحاح الأتراك وردت اليهما ضياعهما

كان من عناصر الجيش المهمة المغاربة وهم ممن اصطنع المعتصم كاصطنع الأتراك رأى المغاربة ماعليه الأتراك من النفوذ والعلو فساءهم ذلك فاجتمع بعضهم إلى بعض مع محمد بن راشد ونصر بن سعيد منهم وجاءوا إلى الأتراك وهم بالجوسق من سامرا فغلبوهم عليه وأخرجوهم منه وقالوا لهم فى كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتقتلون وزيرا وكانوا قد وثبوا على عيسى بن فرخانشاه الذى كان وزيرا للمعتز قبل احمد بن اسرائيل فتناولوه بالضرب وأخذوا دوابه

ولما أخرجت المغاربة الأتراك من الجوسق وغلبوهم على بيت المال أخذوا خمسين دابة مما كان الأتراك يركبونها فاجتمع الأتراك ولموا شعثهم فتلاقوا هم والمغاربة وكان يعين المغاربة الغوغاء والشاكرية فضعفت الأتراك وانقادوا للمغاربة فأصلح جعفر بن عبد الواحد بين الفريقين على ألايحدثوا شيئا ويكون فى كل موضع فيه رجل من قبل أحد الفريقين يكون فيه آخر من الفريق الآخر فمكثوا على ذلك مدة ثم احتال الأتراك على محمد بن راشد ونصر بن سعيد اللذين اجتمع عليهما المغاربة حتى ظفروا بهما فقتلوهما والذى تولى ذلك بايكباك أحد كبارقواد الأتراك ولم يفعل المعتز فى ذلك شيئا وعاد النفوذ إلى الأتراك

وفى سنة ٢٥٣ شغب الأتراك والفراغنة والأشروسنية وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر فخرج اليهم بغا ووصيف وسيما الشرابى فكلمهم وصيف وقال لهم ماتريدون قالوا أرزاقنا فقال خذوا ترابا وهل عندنا مال وقال لهم بغا نذهب فنستأمر أمير المؤمنين ومضى هو وسيما وبقى وصيف فى أيديهم فوثب عليه بعضهم فضربه بالسيف

ضربتين ووجأه آخر بسكين ثم أجهزوا عليه ونصبوا رأسه على محراك تنور

ولما علم بذلك المعتز لم يكن له من العمل إلا أن جعل ما كان إلى وصيف من الأمور إلى بغا الشرابي . خاف بغا من أن يكون له من هؤلاء يوم كيوم وصيف فصار يحض المعتز على المسير إلى بغداد والمعتز يأبى عليه ذلك لخوفه أن يجرى عليه ماجرى على سلفه . وكان با يكباك كبير الأتراك ومقدمهم بعد بغا منحرفا عن بغا وكانا متهاجرين وكان المعتز مع با يكباك يريد التخلص من بغا فجمع با يكباك جموعه وساعده المعتز حتى تمكن من بغا فقتله ونصب رأسه بسامرا ثم ببغداد ووثبت المغاربة على جثته فأحرقوها بالنار وتتبع عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بنيه ببغداد وكانوا صاروا اليها هرابا فحبس من ولده وأصحابه نحو ٢٥ شخصا وصارت الكلمة العليا فى الأتراك وفى الدولة لصالح بن وصيف وبا يكباك

كانت بغداد بعيدة عن الاضطرابات لأمرين الأول بعد هؤلاء الغلف القلوب عنها والثانى وجود محمد بن عبد الله بن طاهر بها وهو رجل ذو عزم وأيد زيادة على ماله فى نفس القوم من الهيبة ومع ذلك كله فقدمها طائف من شيطان الاضطراب فى سنة ٢٥٢ وذلك أن المعتز كتب إلى محمد بن طاهر يأمره أن يبيع غلال بعض الضياع التى منها أرزاق جند بغداد وكتب إلى والى البريد ببغداد يأمره أن يقرأ كتابه على من بها من القواد ففعل ذلك دون أن يعلم الأمير ابن طاهر فلما قرىء الكتاب على القواد جاؤا إلى ابن طاهر فخبروه الخبر فأحضر والى البريد وقال له ماحملك على هذا بغير علمى وتهدده على ذلك ثم اجتمعت الجنود البغدادية إلى باب ابن طاهر تطلب أرزاقها فأخبرهم أن كتاب الخليفة ورد عليه بجواب كتاب له كان كتبه بمسألة أرزاق جند بغداد إن كنت فرضت الفروض لنفسك فأعطهم أرزاقهم وإن كنت فرضت لنا فلا حاجة لنا فيهم — أعطاهم ابن طاهر ماسكنهم به وقتا ثم اجتمعوا فى ١١ رمضان سنة ٢٥٢ ومعهم الأعلام والطبول وضربوا المضارب والخيم على باب حرب والشماسية وغيرهما وبنوا بيوتا من بوارى القصب وهكذا استعدوا للشغب على ابن طاهر كما يشغب أتراك سامرا على المعتز فجمع ابن طاهر الجند القادمين معه من خراسان وأعطاهم لشهرين وأعطى جند بغداد القدماء الفارس منهم دينارين والراجل دينارا وشحن داره بالرجال

اجتمع أهل الشغب وعليهم رجل يقال له عبدان بن الموفق وهو رجل قد اعتاد هذه الثورات وهو الذى كان يحض أهل الشغب على الطلب بأرزاقهم وفائتهم وضمن لهم أن يكون رأسا يدبرهم وأن يعينهم بماله حتى ينالوا مايطلبون . عزموا بعد اجتماعهم أن يحضروا إلى الجامع فيمنعوا الخطيب من الدعاء للمعتز فذهبوا إلى الامام وحظروا عليه ذلك فتعلل بالمرض ولم يذهب إلى الجامع

وجه إليهم ابن طاهر قواده فى جماعة من الفرسان فكانت بين الفريقين حروب ووقائع غلب فيها المشغبون قواد ابن طاهر ثم فسد نظام جماعة المشغبين ووشى بعضهم بسائرهم فقبض على رؤسهم وعوقبوا أشد العقوبات وصلب رئيسهم عبدان بن الموفق وبذلك انتهى هذا الاضطراب وعادت أحوال بغداد إلى ما كانت من الأمن

وفى ١٤ ذى القعدة سنة ٢٥٣ توفى الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد واستخلف على إمارته أخاه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وهذه نسخة وصيته : —

«أما بعد فقد استخلفت عبيد الله بن عبد الله مولى أمير المؤمنين أخى الموثوق باقتفائه أثرى وأخذه بسد ما أنا بسبيله من سلطان أمير المؤمنين إلى أن يأتيه من أمره مايعمل بحسبه فاعلم ذلك وأتمر فيما تتولاه بما يرد به كتب عبيد الله وأمره إن شاء الله وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذى القعدة سنة ٢٥٣ وقد أقره المعتز على هذه الولاية وعاش عبيد الله إلى سنة ٣٠٠ وهى سنة وفاته»

خاتمة المستعين سلف المعتز

قدمنا أن المعتز كتب للمستعين شروطا عند خلعه منها تأمينه على حياته وقد أكدوا فى هذا الكتاب تأكيدا شديدا وارتضى أن يقيم بالبصرة فقيل له إن البصرة وبية فكيف اخترت أن تنزلها فقال المستعين هى أوبأ أوترك الخلافة . فأشخص المستعين مع محمد بن مظفر بن سيسل وابن أبى حفصة إلى واسط لا إلى البصرة فى نحو ٤٠٠ من الفرسان وقبل أن تنتهى السنة بدا للمعتز فعزم على قتل المستعين ولم يبال بكتاب الأمان فأرسل إلى ابن طاهر يأمره أن يكتب إلى عامل البصرة أن يسلم المستعين لمن ندبه المعتز لاستلامه وهو أحمد ابن طولون التركى فأخرج المستعين من واسط لست بقيت من شهر رمضان فوافى به القاطول لثلاث خلون من شوال فتسلمه

منه سعيد بن صالح وكان في ذلك ختام حياة المستعين وكيفية قتله مبهمة مختلف فيها كثيرا وأتى المعتز فيما قيل برأسه وهو يلعب الشطرنج فقيل هذا رأس المخلوع فقال ضعوه هنالك ثم فرغ من لعبه ودعا به فنظر إليه ثم أمر بدفنه وأجاز سعيد بن صالح بخمسين ألف درهم وولى معونة البصرة

وكالم يأبه المعتز بكتابة أمان المستعين وقتله كذلك لم يأبه لعهدأخيه إبراهيم المؤيد ولالسابقة أخيه أبي أحمد بن المتوكل وهو الذي قاد الجيش إلى بغداد وحصرها حتى أسقط المستعين من عرش الخلافة فانه خلع الأول من ولاية العهد وحبسه ثم أماته وحبس الثاني وضيق عليه وسبب ذلك أن عامل أرمينية العلاء بن أحمد بعث إلى إبراهيم المؤيد بخمسة آلاف دينار ليصلح بها أمره فبعث ابن فرخانشاه الوزير إليها فأخذها فأغرى المؤيد الأتراك بابن فرخانشاه وخالفهم المغاربة وكانت فتنة فبعث المعتز إلى أخويه المؤيد وأبي أحمد فحبسهما في الجوسق وقيد المؤيد وصيره في حجرة ضيقة ثم خلعه عن ولاية العهد يوم الجمعة ٧ رجب سنة ٢٥٢

وبعد هذا الحبس والتضييق والخلع بلغ المعتز أن الأتراك يريدون إخراجه من سجنه فأرسل إلى موسى بن بغا فسأله فأنكر وقال إنما أرادوا أن يخرجوا أبا أحمد ابن المتوكل لأنسهم به كان في الحرب التي كانت وأما المؤيد فلا . فأغرى ذلك المعتز بأخيه فعمل على موته بدون أثر ظاهر وحول أبو أحمد إلى الحجرة التي كان فيها المؤيد ثم نفاه سنة ٢٥٤ إلى واسط ثم إلى البصرة ثم رد إلى بغداد وأنزل إلى الجانب الشرقي في قصر دينار بن عبدالله

خلع المعتز

لما أخذ صالح بن وصيف الكتاب على الشكل الذي أوضحناه قبل في تاريخ الوزراء لم يجد عندهم من المال مايسد مطامعه ومطامع الجنود الذين معه فذهبت الجنود إلى المعتز وقالوا له أعطنا ارزاقنا حتى نقتل لك صالح بن وصيف فأرسل المعتز إلى أمه ذات الثروة الطائلة يسألها أن تعطيه مالا ليعطيهم فأبت أن تعطيه شيئا وأنكرت أن يكون عندها شيء ولما وجد الأتراك أن المعتز وأمه قد امتنعا أن يسمحا لهم بشيء وبيت المال خال اتحدت كلمة الأتراك والفراغنة والمغاربة على خلع المعتز فصاروا

إليه لثلاث بقين من رجب فلم يرعه إلا صياح القوم وإذا صالح بن وصيف وبايكباك ومحمد بن بغا قد دخلوا عليه فى السلاح فجلسوا على باب المنزل الذى ينزله المعتز ثم بعثوا إليه اخرج الينا فبعث إليهم إنى أخذت الدواء أمس وقد أجفلنى اثنتى عشرة مرة ولاأقدر على الكلام من الضعف فان كان أمرا لابد منه فليدخل إلى بعضكم فليعلمنى فدخل إليه القوم فجروا برجله إلى باب الحجرة وتناولوه كما قيل ضربا بالدبابيس فخرج وقميصه مخرق فى مواضع وآثار الدم على منكبه فأقاموه فى الشمس فى الدار فى وقت شديد الحر فصار يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذى قد أقيم فيه ثم بعثوا إلى قاضى القضاة محضر وأمر المعتز أن يمضى على كتاب خلع كتب له فأمضى وشهد عليه الحاضرون . ويقال إنه بعد الخلع دفع إلى من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه حتى مات وهكذا انتهت حياة هذا الخليفة البائس الذى سعى كثيرا للحصول على هذه الخلافة وركب فى سبيل الخلاص ممن توهمهم مزاحمين له مالا يجوز من خليفة ولا من سوقة فقتل المستعين وخلع أخاه ثم قتله ونفى أخاه الثانى كل ذلك لتهنأ له الخلافة فلم ينل ما أراد بسبب الفساد المستحكم فى الدولة وقال بعض شعراء العصر فى ذلك

عين لا تبخلى بسفح الدموع * واندبى خير فاجع مفجوع
خانه الناصح الشفيق ونالتـــه أكف الردى بحتف سريع
بكر الترك ناقمين عليـــه * خلعته أفديه من مخلوع
قتلوه ظلمـــا وجورا فألفو * ه كريم الأخلاق غير جزوع
كان يغشى بحسنه بهجة البـــد * ر فتلقاه مظهرا للخضوع
وترى الشمس تستكين فلا تشـــرق إما رأته وقت الطلوع
لم يهابوا جيشا ولا رهبوا السيـــف فلهفى على القتيل الخليع
أصبح الترك مالكى الأمر والعا * لم ما بين ســـامع ومطيع
وترى الله فيهم مالك الأمـــر سيجزيهم بقتل ذريع

وقال آخر من قصيدة

أصبحت مقلتى تسح الدموعا * إذ رأت سيد الأنام خليعـا
لهف نفسى عليه ما كان أملا * ه وأسراه تابعـــا متبوعا

ألزموه ذنبا على غير جرم * فثوى فيهم قتيلا صريعا
وبنو عمه وعم أبيه * أظهروا ذلة وأبدوا خضوعا
ما بهذا يصح ملك ولا يغزى عدو ولا يكون جميعا

وكان المعتز أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب وكان من سلف قبله من خلفاء بنى العباس وكذلك جماعة من بنى أمية يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة والمناطق واتخاذ السيوف والسروج واللجم فلما ركب المعتز بحلية الذهب اتبعه الناس فى فعل ذلك

١٤ — المهتدى

هو محمد المهتدى بالله بن هرون الواثق بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية يقال لها قرب ، ولد سنة ٢١٨ وبويع له بالخلافة بعد أن خلع المعتز نفسه لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥ (١١ يوليه سنة ٨٦٩) ولم يزل خليفة إلى أن خلع فى ١٤ رجب سنة ٢٥٦ (١٧ يونية سنة ٨٧٠) فكانت مدته ١١ شهرا وأياما

كيف انتخب

لما عزم الأتراك على خلع المعتز أرسلوا إلى بغداد فأحضروا محمدا هذا وقد كان المعتز نفاه إليها واعتقله فيها فأتى به فى يوم وليلة إلى سامرا فتلقاه الموالى فى الطريق ودخل إلى الجوسق فعرضوا عليه الخلافة فأبى أن يقبلها حتى يرى المعتز ويسمع كلامه فأتى بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل فلما رآه محمد وثب إليه فعانقه وجلسا جميعا على السرير فقال له محمد يا أخى ما هذا الأمر قال المعتز أمر لا أطيقه ولا أقوم به ولا أصلح له فأراد محمد أن يتوسط أمره ويصلح الحال بينه وبين الأتراك فقال المعتز لا حاجة لى فيها ولا يرضونى لها فقال محمد فأنا فى حل من بيعتك قال أنت فى حل فلما جعله فى حل من بيعته حول وجهه عنه فأقيم عن حضرته ورد إلى محبسه وكان من أمره ما قدمنا

وزراء المهتدى

أبقى المهتدى محمود بن جعفر الاسكافى على وزارته مدة قليلة ثم عزله واستوزر

من بعده سليمان بن وهب بن سعيد . وهو من بيت قديم فى الكتابة منذ عهد معاوية ابن أبى سفيان وكان جده سعيد فى خدمة آل برمك وكان أبوه وهب فى خدمة جعفر بن يحيى البرمكى ثم تحول إلى ذى الرياستين الفضل بن سهل وهو القائل فيه عجبت لمن معه وهب كيف تهمه نفسه ثم استكتبه الحسن بن سهل بعده . أما سليمان فكتب للمأمون وعمره ١٤ سنة ثم لايتاخ ثم لأشناس وولى الوزارة للمهتدى وللمعتمد وكان أخوه الحسن بن وهب يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات ومن طريف المدح ماقاله أبو تمام فى سليمان بن وهب :

كل شعب كنتم به آل وهب ٭ فهو شعبى وشعب كل أديب
إن قلبى لكم لكالكبد الحر ٭ ى وقلبى لغيركم كالقلوب

وقال فيه البحترى :

كأن آراءه والحزم يتبعها ٭ تريه كل خفى وهو إعلان
ماغاب عن عينه فالقلب يكلؤه ٭ وإن تنم عينه فالقلب يقظان

وكان سليمان أحد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلا وأدبا وكتابة فى الدرج والدستور وأحد عقلاء العالم وذوى الرأى منهم واستمر وزيرا للمهتدى إلى أن خلع

حدث عبد الله الباقطانى وكان يتقلد ديوان المشرق قال دخلت مع أبى العباس ابن ثوابة إلى المهتدى وكان سليمان بن وهب وزيره وكان يدخل إليه الوزير وأصحاب الدواوين والعمال والكتاب فيعملون بحضرته فيوقع إليهم فى الأعمال فأمر سليمان أن يكتب عنه عشرة كتب مختلفة إلى جماعة من العمال فأخذ سليمان بيد أبى العباس بن ثوابة ثم قال له أنت اليوم أحد ذهنا منى فهلم نتعاون فدخلا بيتا ودخلت معهما وأخذ سليمان خمسة أنصاف وأبو العباس خمسة أنصاف أخر فكتبا الكتب التى أمر بها سليمان مااحتاج أحدهما إلى نسخة وقد أكمل كل واحد منهما ما كتب به صاحبه فاستحسنه وقرظه ثم وضع سليمان الكتب بين يدى المهتدى فقال له وقد قرأها أحسنت ياسليمان ونعم الرجل أنت لولا المعجل والمؤجل وكان سليمان إذا ولى عاملا أخذ منه مالا معجلا وأجل له مالا إلى أن يتسلم عمله فقال له ياأمير المؤمنين هذا قول لا يخلو من أن يكون حقا أو باطلا فان كان باطلا فليس مثلك من يقوله وإن كان حقا وقد علمت أن الأصول محفوظة فمايضر من يساهمنى من عمالى على بعض مايصل

إليهم من بر من غير تحيف للرعية ولا نقص للأموال . فقال إذا كان هكذا فلا بأس ثم قال له اكتب إلى فلان العامل بقبض ضيعة فلان المصروف المعتقل فى يده بباقى ماعليه من المصادرة فقال له أبو العباس بن ثوابة كلنا ياأمير المؤمنين خدمك وأولياؤك وكلنا حاطب فى حبلك وساع فيما أرضاك وأيد ملكك أفنمضى ماتأمر به على ماخيلت أم نقول بالحق قال بل قل بالحق ياأحمد فقال ياأمير المؤمنين الملك يقين والمصادرة شك أفترى أن أزيل اليقين بالشك قال لا قال فقد شهدت للرجل بالملك وصادرته عن شك فيما بينك وبينه وهل خانك أم لا فتجعل المصادرة صلحا فاذا قبضت ضيعته بها فقد أزلت اليقين بالشك فقال له صدقت ولكن كيف الوصول إلى المال فقال له أنت لابد لك من عمال على أعمالك وكلهم يرتزق ويرتفق فيحوز رفقه ورزقه إلى منزله فاجعله أحد عمالك ليصرف هذين الوجهين إلى ماعليه ويسعفه معاملوه فيتخلص بنفسه وضيعته ويعود إليك مالك فأمر سليمان به وهب أن يفعل ذلك

وقد سقنا هذه الحكاية لنبين ماكان عليه العمال إذ ذاك من تحليل الارتفاق وإقامة البرهان بين يدى الخليفة على جوازه وليس ارتفاق العامل إلا رشوة وماهذا المعجل والمؤجل الذى لاحظ المهتدى على وزيره أليس هو رشوة ومع ذلك نراه احتج له وأقنع خليفته بأنه لاضرر فيه وكذلك قول ابن ثوابة فهو حق شيب بباطل وباطل أشبه الحق

صفات المهتدى

كان المهتدى من صالح بنى العباس يكره الظلم ويحب رفعه وبنى قبة لها أربعة أبواب وسماها قبة المظالم وجلس فيها للعام والخاص للمظالم وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرم الشراب ونهى عن القيان وأظهر العدل وكان يحضر كل جمعة إلى المسجد الجامع ويؤم بهم وكان فيه ديانة وتقشف حتى أن الجند تأسوا به إلا أن الدولة كانت وصلت إلى الدرجة التى لايصلحها فيها مثل المهتدى فى صلاحه وكثرة عبادته

فى بدء خلافته كان موسى بن بغا أميرا على الرى وقائدا للجنود التى تولى حرب الحسن بن زيد الطالبى فلما بلغه مافعل صالح بن وصيف بالمعتز وبيعة المهتدى ترك

ذلك الثغر وأقبل مريدا سامرا فكتب الخليفة إليه كتبا كثيرة يطلب إليه بها البقاء بموضعه فلم يفعل ثم أرسل إليه فى ذلك رسلا من بنى هاشم فلم يطع وكان صالح ابن وصيف يتخوف عودة موسى فكان يعظم انصرافه عن الثغر وينسبه إلى المعصية والخلاف. قدم موسى سامرا حنقا على صالح فاختفى منه ودخلت جنود موسى على المهتدى وهو جالس المظالم فأقاموه من مجلسه وحملوه إلى معسكرهم فقال لموسى ما تريد ويحك اتق الله وخفه فانك تركب أمرا عظيما فرد عليه موسى خيرا ثم أخذوا عليه العهود والمواثيق ألا يمالئ صالحا عليهم ففعل فجددوا له البيعة فى ١٢ محرم سنة ٢٥٦ ولثمان بقين من صفر قتل صالح بن وصيف بعد خطوب طويلة وكان أصحاب موسى قد اتهموا المهتدى باخفائه فأرادوا خلعه فانتشر الخبر فى العامة فكتبوا رقاعا ألقوها فى المسجد الجامع وفى الطرقات ونص هذه الرقاع (بسم الله الرحمن الرحيم يامعشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهى لعمر بن الخطاب أن ينصره على عدوه ويكفيه مؤنة ظالمه ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه فان الموالى قد أخذوه بأن يخلع نفسه وهو يعذب منذ أيام والمدبر لذلك فلان وفلان رحم الله من اخلص النية ودعا وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم) فلما بلغ ذلك الأتراك خافوا ثورة العامة فأرسلوا إلى المهتدى يخبرونه أنهم يبذلون دماءهم دونه وشكوا مع ذلك سوء حالهم وتأخر أرزاقهم وما صار من الاقطاعات إلى قوادهم التى قد أجحفت بالضياع والخراج وماصار لكبرائهم من المعاون والزيادات من الرسوم القديمة مع أرزاق النساء والدخلاء الذين قد استغرقوا كثيرا من أموال الخراج. وهذه الشكوى كانت فى الحقيقة بدء انقلاب جديد لو وجدت خليفة قويا ينتفع بها لأنها عبارة عن تغير الجند على قوادهم الذين أقطعوا ضياعا كثيرة لم يلتفتوا إلى إصلاحها فخربت وأدى ذلك إلى نقصان الخراج حتى لم يكن عند الخليفة مايسد به حاجة الجند

كتب إليهم المهتدى يذكر سروره من طاعتهم وأخبرهم أنه يعز عليه ماذكروا من حاجتهم ولكن ليس لديه مايرفع عنهم هذه الخلة وأنه سينظر فى أمر الاقطاعات ويسير فيها على مايحبون. فأعادوا عليه الكتاب مبينين مايطلبون وهو

(١) أن ترد الأمور إلى أمير المؤمنين فى الخاص والعام ولا يعترض عليه معترض

(٢) أن ترد رسومهم إلى ما كانت عليه أيام المستعين وهو أن يكون على كل

تسعة عريف منهم وعلى كل خمسين خليفة وعلى كل مائة قائد

(٣) ألا يدخل مولى فى قبالة ولا غيرها

(٤) أن يوضع لهم العطاء كل شهرين على مالم يزل

(٥) أن تبطل الاقطاعات وأن يكون أمير المؤمنين يزيد من شاء ويرفع من شاء

وذكروا أنهم سيصيرون إلى باب أمير المؤمنين حتى تقضى حوائجهم وأنه إن بلغهم أن أحدا اعترض على أمير المؤمنين فى شىء من الأمور أخذوا رأسه وإن سقط من رأس أمير المؤمنين شعرة قتلوا به موسى بن بغا وبايكباك ومفلحا وياجور وبكالبا وغيرهم

وهذه المطالب كلها فى مصلحة الخلافة لذلك أجابهم إليها المهتدى موقعا بخطه إجابة إلى كل ماسألوا . فوصلهم كتابه وفيه اعتذار عن رؤسائهم ومع كتابه رسل هؤلاء الرؤساء يعتذرون إليهم

فأعادوا الكتاب يقولون لانرضى حتى يخرج الخليفة خمس توقيعات بطلباتهم ثم يصير أمير المؤمنين الجيش إلى أحد إخوته أو غيرهم ليسفر بنهم وبينه بأمورهم ولا يكون رجلا من الموالى وأن يحاسب الرؤساء على ماعندهم من الأموال . وكتبوا إلى القواد بمثل ما كتبوا به إلى المهتدى وأخبروهم أنه إن شاكته شوكة أو أخذ منه شعرة أخذوا رؤسهم جميعا

فلما جاء كتابهم المهتدى كتب لهم بكل مايريدونه ودفع لهم التوقيعات الخمس التى طلبوها وكذلك كتب لهم موسى بن بغا . فلما وصلتهم الكتب والتوقيعات كان بينهم اختلاف وهرج كثير فطائفة يقولون نريد أن يعزالله أمير المؤمنين ويوفر علينا أرزاقنا فانا قد هلكنا بتأخيرها عنا — وطائفة يقولون لا نرضى حتى يولى علينا أمير المؤمنين أحد إخوته فيكون واحدا بالكرخ وآخر بسامرا ولا نريد أحدا ما يكون علينا رأسا ولم يكتبوا للمهتدى جوابا شافيا . فأرسل إليهم المهتدى يسألهم عن سبب اجتماعهم بعد أن أجيبت طلباتهم فتفرقوا ثم عادوا إلى الاجتماع

كانت كل هذه الأحوال فرصا لخلاص المهتدى من سيادة القواد الاتراك ولم يفعل بل كان ظاهره مع الرؤساء وباطنه مع الجنود ويظهر أنه أراد استعمال الحيلة فى الخلاص منهم فأنفذ جند المحاربة بخارجى وفيه موسى بن بغا وبايكباك ومفلح

فكتب المهتدى إلى بايكباك يأمره أن يضم العسكر الذى مع موسى إلى نفسه وأن يكون هو أمير الجيش وأن يقتل موسى ومفلحا — فلما وصل الكتاب بايكباك ذهب إلى موسى وأراه إياه وقال له إنى لست أفرح بهذا وإنما هو تدبير علينا جميعا وإذا فعل بك اليوم شىء فعل بى غدا مثله فما ترى قال أرى أن تصير إلى سامرا وتظهر له أنك فى طاعته فانه يطمئن إليك ثم تدبر فى قتله فقدم بايكباك فدخل على المهتدى فأظهر المهتدى الغضب من مخالفته حيث لم يقتل موسى ومفلحا فاعتذر إليه بايكباك فاحتبسه المهتدى عنده وأخذ سلاحه ولما رأى الجند الذين معه غيبته عنهم جاشوا وأحاطوا بالجوسق فلما رأى المهتدى ذلك استشار صالح بن على ابن يعقوب بن المنصور فأشار عليه أن يفعل مافعله المنصور بأبى مسلم فأمر المهتدى بضرب عنق بايكباك فضرب عنقه والأتراك مطيفون بالجوسق بسلاحهم فلم يرعهم إلا رأس بايكباك بين أيديهم أمر المهتدى برميها إليهم فلما رأوها اضطربوا واستعدوا للقتال فحاربتهم الفراغنة والمغاربة والأشروسنية وكثر بينهم القتل ثم انفصل الفريقان وذهب الأتراك فقووا أنفسهم وجاء منهم زهاء عشرة آلاف وخرج المهتدى وفى عنقه مصحف يدعو الناس إلى نصرته فلما التحم القوم مال الاتراك الذين مع المهتدى إلى إخوانهم وبقى فى المغاربة والفراغنة ومن خف من العامة فحملت عليهم الأتراك حملة شديدة ففروا منهزمين معهم المهتدى والسيف فى يده مشهور وهو يقول يامعشر الناس انصروا خليفتكم : حتى صار إلى دار محمد بن يزداد وفيها أحمد بن جميل صاحب الشرطة فدخلها ووضع سلاحه فعلم الأتراك خبره فجاؤا إليه وقبضوا عليه وحملوه إلى داره مهانا وذلك فى ١٤ رجب سنة ٢٥٦ ثم خلعوه لماأبى أن يخلع نفسه ثم مات لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٦

١٥ — المعتمد

هو أحمد المعتمد على الله بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد كوفية اسمها فتيان ولد سنة ٢٣١ وبويع له بالخلافة من غير عهد سابق يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٦ (١٩ يونيه سنة ٨٧٠) ولم يزل خليفة حتى توفى ليلة الاثنين لاحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٧٩ (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) فكانت

مدته ٢٣ سنة وثلاثة أيام وكان يعاصره فى الأندلس محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٢٧٣ ثم ابنه المنذر بن محمد (٢٧٣ - ٢٧٥) ثم عبدالله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠)

وفى إفريقية وصقلية من الاغالبة محمد بن أحمد بن الأغلب المتوفى سنة ٢٦١ ثم أخوه إبراهيم المتوفى سنة ٢٨٩

وفى اليمن من آل زياد بزبيد إبراهيم بن محمد بن إبراهيم (٢٤٥ - ٢٨٩)

وفى اليمن من آل الحوالى بصنعاء محمد بن يعفر (٢٥٩ - ٢٧٩)

وفى خراسان من آل طاهر محمد بن طاهر بن عبدالله بن طاهر (٢٤٨ - ٢٥٩) وهو آخر الأمراء الطاهرية بخراسان

ويعاصره فى طبرستان الحسن بن زيد (٢٥٠ - ٢٧٠) ثم أخوه محمد بن زيد (٢٧٠ - ٢٧٩)

ويعاصره فى بلاد الروم بالقسطنطينية الملك بسيل الصقلبى (٨٦٧ - ٨٨٦) ثم لاون السادس الملقب بالفيلسوف (٨٨٦ - ٩١١)

ويعاصره فى فرنسا شارل الملقب بالأصلع (٨٤٠ - ٨٧٧) ثم لويز الثانى الملقب بالتمتام إلى سنة ٨٧٩ ثم لويز الثالث إلى سنة ٨٨٢ ثم كارلومان[1] إلى سنة ٨٨٤ ثم شارل الملقب بالغليظ إلى سنة ٨٨٧ وكان امبراطور المانيا أيضا ثم أودون الذى توفى سنة ٨٩٨

الأحوال الداخلية

كانت نتيجة طلبات الأتراك أن يتولى أمر الجيش أحمد إخوة أمير المؤمنين وألا يرأسهم أحد منهم لما كان بينهم من الخلاف والمنافسة أن ولى المعتمد أخاه أبا أحمد طلحة بن المتوكل أمر الجيش والولايات فولاه فى صفر سنة ٢٥٧ الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن ثم ولاه فى رمضان من هذه السنة بغداد والسواد وكور دجلة والبصرة والأهواز وفارس. وفى ربيع الأول سنة ٢٥٨ عقد له على ديار مضر وقنسرين والعواصم فصار السلطان الفعلى لأبى أحمد لا للخليفة وصارت كلمة أبى أحمد هى العليا على الأتراك وقوادهم فكان ذلك مما حسن الأحوال العامة بعض التحسين وإن كانت ساءت أحوال المعتمد نفسه لأنه لم يترك له شىء من

التصرف حتى أنه احتاج فى بعض الأحيان إلى ثلثمائة دينار فلم يجدها فقال

أليس من العجائب أن مثلى * يرى ماقل ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا * وما من ذاك شىء فى يديه
إليه تحمل الأموال طرا * ويمنع بعض مايجبى إليه

كان أبو أحمد الموفق بن المتوكل رجلا صاحب عزيمة ثابتة ومحبة للغلب والسلطان وعلى يديه تمت الحوادث الجسام فى عهد المعتمد وسنقتصها بعد أن نذكر إجمال الوزارة لعهده

كان الذى يولى الوزراء هو أبو أحمد الموفق لأن المعتمد لم يكن له إلا الخطبة والسكة والاسم وما عدا ذلك فهو لأخيه

كان أول الوزراء عبيد الله بن يحيى بن خاقان وقد قدمنا ذكره إذ كان وزيرا للمتوكل ولما عرضت عليه الوزارة كرهها وتنصل منها ولكنهم أبوا إلا إياه فرضى بعد ذلك الاباء وكان عبيد الله خبيرا بأحوال الرعايا والأعمال ضابطا للأموال ولم يزل وزيرا إلى سنة ٢٦٣ حيث مات بسقوطه عن دابته فى الميدان وصلى عليه أبو أحمد ابن المتوكل ومشى فى جنازته

استوزر بعده الحسن بن مخلد وكان كاتبا لأبى أحمد الموفق فاجتمعت له وزارة المعتمد وكتابة الموفق . وأصله من ديرقنى وكان أحد كتاب الدنيا قالوا كان له دفتر صغير يعمله بيده فيه أصول أموال المملكة ومحمولاتها بتاريخها فلا ينام كل ليلة حتى يقرأه ويتحقق ما فيه بحيث لو سئل فى الغد عن أى شىء كان منه أجاب من خاطره بغير توقف ولا مراجعة دستور . ولم يمكث فى وزارة المعتمد كثيرا فان مدته لاتزيد على ١٦ يوما من ١١ ذى القعدة سنة ٢٦٣ إلى ٢٧ منه وذلك لقدوم موسى بن بغا أحد كبار قواد الأتراك فانه لم يكن على وفاق معه فهرب إلى بغداد عقب حضوره

ولى الوزارة بعده سليمان بن وهب وهو الذى كان وزيرا للمهتدى وقد قدمنا صفته وبيته وولى عبد الله بن سليمان كتابة أبى أحمد الموفق إلى ما كان له قبل ذلك من كتابة موسى بن بغا

وفى سنة ٢٦٤ خرج سليمان بن وهب من بغداد إلى سامرا حيث يقيم الخليفة فلما

صار بها غضب عليه المعتمد وحبسه وقيده وانتهب داره ودارى ابنيه وهب وإبراهيم وأعاد إلى الوزارة الحسن بن مخلد لثلاث بقين من ذى القعدة فلما علم بذلك الموفق شخص من بغداد ومعه عبد الله بن سليمان فلما قرب من سامرا تحول المعتمد إلى الجانب الغربى فعسكر به ونزل أبو أحمد ومن معه جزيرة المؤيد واختلفت الرسل بينهما . ولما كان بعد أيام خلون من ذى الحجة صار المعتمد إلى حراقة فى دجلة وصار إليه أخوه أبو أحمد فى زلال فخلع المعتمد عليه وعلى من معه من القواد وفى ثامن ذى الحجة عبر جند أبى أحمد إلى جند المتوكل على وفاق وأطلق سليمان بن وهب ورجع المعتمد إلى الجوسق وهرب الحسن بن مخلد وأحمد بن صالح بن شيرزاد وكتب فى قبض أموالها وأموال أسبابهما

ولم يدم رضا أبى أحمد طويلا عن سليمان بن وهب فانه غضب عليه سنة ٢٦٥ وأمر بحبسه وحبس ابنه عبد الله لحبسا وعدة من أسبابهم فى دار أبى أحمد وانتهبت دور عدة من أسبابه ووكل بحفظ دارى سليمان وابنه عبد الله وأمر بقبض ضياعهما وأموالها وأموال أسبابهما وضياعهما خلا أحمد بن سليمان ثم صولح سليمان وابنه عبد الله على ٩٠٠٠٠٠ دينار وصيرا فى موضع يصل إليهما من أحبا

وقد مات سليمان بن وهب فى حبس أبى أحمد سنة ٢٧٢

ولى الوزارة بعده للمعتمد أبو الصقر إسماعيل بن بلبل وهو عربى ينتسب إلى شيبان ولكن نسبه كان مغموزا ومن مساورة الظنون للمتهم أن ابن الرومى الشاعر مدح أبا الصقر بقصيدة نونية مطلعها

أجنت لك الوصل أغصان وكثبان ❊ فيهن نوعان تفاح ورمان

يقول فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم ❊ كلا لعمرى ولكن منه شيبان

كم من أب قد علا بابن له شرفا ❊ كما علا برسول الله عدنان

فلما سمع أبو الصقر قوله قلت لهم كلا ظن أن ابن الرومى قد هجاه بذلك باطنا وأنه عرض بأنه دعى واشتبه على أبى الصقر الأمر فاستحكم ظنه فأعرض عنه وتوصل ابن الرومى إلى إفهامه معنى الشعر فلم يقبل فى ذلك قول قائل وقيل له ياسبحان الله فانظر إلى البيت الثانى وحسن معناه فانه معنى مخترع مامدح أحد بمثله قبلك فلم يصغ

وجزم بأن ابن الرومى هجاه فكان ذلك داعيا إلى أن سل ابن الرومى عليه لسانه وهجاه فأفحش فى هجائه ومما هجاه به قوله

مهــلا أبا الصقر فكم طائر * خر صريعا بعـــد تحليق
زوجت نعمى لم تكن كفؤها * فصانهـــا الله بتطليق
لاقدست نعمى تسربلتها * كم حجة فيهـــا لزنديق

وكان أبو الصقر كريما مطعاما متجملا وبلغ فى الوزارة مبلغا عظيما وجمع له السيف والقلم فنظر فى أمر العساكر أيضا وسمى الوزير الشكور

وفى سنة ٢٧٨ قبض على أبى الصقر وأسبابه وانتهبت منازلهم وخلع بعد ذلك على عبيد الله بن سليمان بن وهب وولى الوزارة وكان من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب وقد مر ذكر أبيه سليمان وبيته وبيت وهب

وممن خدموا فى كتابة الموفق أبو أحمد صاعد بن مخلد خلع عليه سنة ٢٦٥ واستعمله الموفق فى قود الجيوش مع الكتابة ومن أجل ذلك سمى ذا الوزارتين سنة ٢٧٠ وقبض عليه الموفق سنة ٢٧٢ وعلى ابنيه أبى عيسى وأبى صالح وعلى أخيه عبدون

وعلى الجملة فان أحوال الوزارة كانت لذلك العهد مضطربة جدا وقد استوزر بعض من سمينا من الوزراء أكثر من مرة

العلويون

فى عهد المعتمد على الله توفى أبو محمد الحسن العسكرى بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن على وهو الحادى عشر من أئمة الشيعة الامامية الاثنى عشرية والذين فى عمود نسبه إلى على بن أبى طالب تسعة أئمة والعاشر هو الحسن بن على وكانت وفاة الحسن العسكرى سنة ٢٦٠ بسامرا ودفن بها بجانب أبيه على الهادى ولما توفى اختلفت الشيعة بعده اختلافا كثيرا وجمهورهم على أن الامام بعده ابنه محمد العسكرى وهو الثانى عشر من أئمتهم قالوا إنه دخل سردابا فى دار أبيه بسامرا وأمه تنظر اليه فلم يخرج اليها وسيظهر فيملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا ويسمونه

المنتظر والقائم والمهدى والشيعة ينتظرون خروجه من ذلك السرداب

ويقول غيرهم إن الحسن العسكرى لم يعقب وإن سلسلة الأئمة انقطعت بوفاته وبعضهم يتولى أخاه جعفر بن على

لم يسكت الذين يريدون الانتفاع من التشيع وتأثر جمهور المسلمين به بل وجهوا وجوههم شطر فرع آخر من فروع جعفر الصادق فقد كان له سبعة من الأولاد منهم عبد الله الأفطح ومحمد وموسى واسماعيل

فقال قوم إن الامامة بعد جعفر لابنه عبد الله الأفطح لأنه أسن أولاد الصادق .وزعم بعضهم أن جعفراً نص على إمامته بعده ومع ذلك فانه لم يعش بعد أبيه إلا سبعين يوما ولم يعقب ولدا ذكرا

وقال قوم إن الامامة من بعده لابنه محمد ورووا عنه أنه قال إن صاحبكم اسمه اسم نبيكم .

وقال قوم منهم الاثنا عشرية الذين ذكرناهم إن الامامة من بعده لابنه موسى ورووا عنه أنه قال سابعكم قائمكم واجتمع عليه جمهور الشيعة وساقوا الامامة فى أولاده كما بينا

ومنهم من قال إن الامام بعد جعفر ابنه اسمعيل نصا عليه من أبيه جعفر ثم اختلفوا فمن قائل إنه عاش بعد أبيه ومن قائل إنه مات فى حياة أبيه وفائدة النص بقاء الامامة فى أولاده دون غيره وساقوا الامامة من بعده إلى ابنه محمد ويقال لهؤلاء الشيعة الاسماعيلية نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق وهم إمامية يتفقون مع الامامية الاثنى عشرية فى المبدأ العام للتشيع الامامى وهو أنه لابد للناس من امام معصوم يبلغهم الشريعة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأن الشريعة لا تؤخذ بالرأى ويتفقون معهم على إمامة الستة من على بن أبى طالب إلى جعفر الصادق ومنه يبتدئ الاختلاف فالاثنا عشرية ذهبوا إلى فرع موسى الكاظم والاسماعيلية ذهبوا إلى فرع اسماعيل

ولما كان الامام هو حجة الله على خلقه وأنه لابد من وجوده ليؤدى ما نيط به من تبليغ الشريعة وأحكامها ورأوا أنه لم يقم أحد من ولد إسماعيل بالظهور للناس قالوا إن الامام قد يكون مستورا مكتوما عن الناس خبره وحينئذ لابد له من نائب

يكون هو الحجة وهو القائم بالدعوة والتبليغ عنه وساقوا الامامة إلى محمد بن إسماعيل ثم إلى أولاده من بعده وظهرت الدعوة إلى هذا المذهب عقب وفاة الحسن العسكرى خاتمة أئمة الشيعة الاثنى عشرية وكان لهم تعاليم دينية يسترون كثيرا منها عن الناس ومن أجل ذلك قيل لهم الباطنية ويقدمون هذه التعاليم برفق وتأن لمن يدعونه حتى يجيبهم إلى بغيتهم وقد حاول قوم أن يربطوا نحلة هؤلاء القوم بالنحلة الديصانية وهى نحلة تنسب إلى رجل يعرف بابن ديصان خرج بالبلاد الفارسية قبل ظهور الدين الاسلامى بعد ظهور مرقيون بنحو ثلاثين سنة وكان ظهور مرقيون فى السنة الأولى من ملك ططوس بن أنطونيانوس الرومى وجاء بعد ابن ديصان مانى وهذه المذاهب الثلاثة متقاربة فى أصولها فالمرقيونية يقولون بوجود أصلين قديمين هما النور والظلمة وقالوا إن ههنا كونا ثالثا هو الحياة وهو عيسى وزعمت طائفة أن عيسى رسول ذلك الكون الثالث وهو الصانع للأشياء بأمره وقدرته إلا أنهم أجمعوا على أن العالم محدث وأن الصنعة بينة فيه لا يشكون فى ذلك وزعموا أن من جانب الزهومات والمسكر وصلى لله دهره وصام أبدا أفلت من حبائل الشيطان وقالوا بتنزيه الله عز وجل عن الشرور وأن خلق جميع الأشياء كلها لا يخلوا من ضرر والله متنزه عنه

أما الديصانية الذين جاؤا على أثرهم فتقول أيضا بالأصلين النور والظلمة وتقول طائفة منهم إن النور خالط الظلمة باختيار منه ليصلحها فلما حصل فيها ورام الخروج منها امتنع ذلك عليه وقالت طائفة إن النور أراد أن يرفع الظلمة عنه لما أحس بخشونتها ونتنها فشابكها بغير اختيار وزعم ابن ديصان أن النور جنس واحد والظلمة جنس واحد وزعم بعض الديصانية أن الظلمة أصل النور وذكر أن النور حى حساس عالم وأن الظلمة بضد ذلك عامية غير حساسة ولا عالمة فتكارها ولهم كتب كثيرة فى مذهبهم .

والمانية يقولون أيضا بالأصلين النور والظلمة وهما مبدأ العالم فالنور هو العظيم الأول ليس بالعدد وهو الاله وزعم أنه أزلى بصفاته ومعه شيئان اثنان أزليان أحدهما الجو والآخر الأرض — والأصل الثانى الظلمة وله كلام طويل فى بدء كون الانسان واشتباكه مع إبليس وغلبة الثانى الأول ثم خلاص الثانى من هذه الشباك

وفرض لمتبعيه فرائض أوجب عليهم اتباعها وسن لهم عبادات من الصلاة والصوم . وقد دان بتلك الشريعة كثيرون من أمة الفرس وكان لهم بعد مانى أئمة يدينون بطاعتهم قبل الاسلام وبعد ظهوره ولهم كتب دينية كتبها لهم مانى ومن بعده من الأئمة . وقد نسب كثير من فلاسفة المسلمين إلى اعتقاد مذهب مانى وكانوا يعرفون بالزنادقة وهم الذين تجرد لهم المهدى وابنه الهادى فقتل منهم عددا كبيرا قال ابن النديم فى الفهرس قيل إن البرامكة بأسرها إلا محمد بن خالد بن برمك كانت زنادقة وقيل فى الفضل وأخيه الحسن بن سهل مثل ذلك وكان محمد بن عبيد الله كاتب المهدى زنديقا واعترف بذلك فقتله المهدى قرأت بخط بعض أهل المذهب أن المأمون كان منهم وكذب فى ذلك وقيل كان محمد بن عبد الملك الزيات زنديقا . ومن رؤسائهم يزدان بخت وهو الذى أحضره المأمون من الرى بعد أن أمنه فقطعه المتكلمون فقال له المأمون أسلم يا يزدان بخت فلولا ما أعطيناك إياه من الأمن لكان لنا ولك شأن فقال يزدان بخت نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم فقال المأمون أجل

قال الذين يريدون تأكيد الصلة بين الديصانية والباطنية إن عبدالله بن ميمون القداح كان هو وأبوه ميمون ديصانيين وادعى عبدالله أنه نبى مدة طويلة وكان يظهر الشعابيذ ويذكر أن الأرض تطوى له فيمضى أين أحب فى أقرب مدة وكان يخبر بالأحداث والكائنات فى البلدان الشاسعة وكان له مرتبون فى مواضع يرغبهم ويحسن إليهم ويعاونونه على نواميسه ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المتفرقة إلى الموضع الذى فيه بيته فيخبر من حضره بما يكون فيموه ذلك عليهم وكان انتقل فنزل عسكر مكرم فكبس بها فهرب منها فنقضت له داران فى موضع يعرف بسباط أبى نوح فبنيت إحداهما مسجدا والأخرى تمت على خرابها وصار إلى البصرة فنزل على قوم من أولاد عقيل ابن أبى طالب فكبس هناك فهرب إلى سلمية ومن هناك ابتدأت الدعوة ويزعم أصحاب هذا القول أن عبيدالله المهدى رأس الدولة الفاطمية العبيدية من نسل هذا الرجل وأن عبيد الله هو سعيد بن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح وأنه تسمى بعبيدالله لما ورد مصر

وهذا كلام كله يظهر عليه التوليد والاختراع كتب إرضاء لبنى العباس الذين

غصوا بمكان الفاطميين ولم يجدوا لهم مايحاربونهم به إلا مثل هذه الأقاويل والحق أن النحلة سياسية يقصد منها الوصول إلى هدم دولة بنى العباس إلا أنها شيبت بشىء من التعاليم لتكون مقدمة للدعوة وأساسا لهـا حتى لايفجأ المدعو بالغرض السياسى لأول وهلة والتعاليم متى كانت سرية حامت حولها الظنون وجعلتها الشكوك فى ظلمات حتى لاتتميز حقيقتها

نشأ عن هـذا المذهب قوتان كبريان كلتاهما ضد الدولة العباسية إحداهما منظمة معتدلة ومركزها قرية سلمية بقرب حمص وهى موئل الدولة الفاطمية العبيدية ومجمع أسرارها كما كانت قرية الحميمة منذ ١٦٠ سنة موئل الدولة العباسية ومجمع أسرارها (الثانية) قوة ذات فوضى وجور ونكرب عن حسن السياسة ومركزها كان لأول ظهورها بالعراق وهى القرامطة وهذه أولاهما فى الظهور فانها ظهرت بوادر شرها فى عهد المعتمد على الله والثانية تأخرت عنها وسنتكلم الآن عن القرامطة .

ظهر فى أواخر دولة المعتمد رجل بسواد الكوفة قدم إليها من نواحى خوزستان وكان يظهر الزهد والتقشف ويسف الخوص ويأكل من كسبه ويكثر الصلاة فأقام على ذلك مـدة وأعلم الناس أنه يدعو إلى إمام من أهل البيت وكان يزداد فى أعين الناس نبلا بمـا يظهره من الزهد ثم مرض وكان فى القرية رجل يلقبه أهلها بكرمية لحمرة عينيه وهو بالنبطية أحمر العين فحمل هذا العليل إلى منزله ووصى أهله بالاشراف عليه والعناية به ولم يزل مقيما عنده حتى برأ فكان كرمية يدعو الناس إلى مذهبه حتى أجابه جمع كثير من الأكرة وكان يأخـذ من كل من دخل فى مذهبه دينارا يزعم أنه للامام واتخـذ من أهل القرية نقباء اثنى عشر فاشتغل الزراع هناك عن أعمالهم بما رسم لهم من الصلوات الكثيرة التى أخبرهم أنها مفروضة عليهم

كان للهيصم فى تلك النواحى ضياع فوقف على تقصير أكرته فى العمارة فسأل عن ذلك فعلم بخبر الرجل فوجه فى طلبه فأخذ وجىء به إليه فحبسه واشتغل بشربه . رقت إحدى جوارى الهيصم للرجل فأخذت مفتاح الحجرة التى حبس فيها من تحت رأس الهيصم وفتحت الباب وأخرجته ثم أعادت المفتاح إلى مكانه فلما أصبح الهيصم فتح الباب ليقتل الرجل فلم يجده وشاعت تلك الحادثة فى الناس فافتتنوا به وقالوا رفع

ثم ظهر في ناحية أخرى وأشيع بين الناس أنه لا يمكن أحداً أن يناله بسوء فعظم في أعينهم . ومع ذلك فانه خاف على نفسه وخرج إلى الشام وأطلق على نفسه اسم الرجل الذى آواه وهو كرمية ثم خفف فقيل قرمط

ثم فشا مذهب القرامطة فى سواد الكوفة والسلطان لاه عنهم لا يفكر فى تغيير شيء مما هم عليه حتى كان منهم ما كان من الكوارث العظمى التى حلت بالأمة الاسلامية وحتى أخيفت السبل وقطع طريق الحاج مما سنذكره فى مواضعه إن شاء الله

دعى آل على

لم يكف بنى العباس ما أصاب دولتهم من آل على بن أبى طالب الذين نفسوا عليهم ملك الدنيا وخلافة النبوة فضعضعوا جوانب دولتهم وزعزعوا أركانها بل قام دعى فى آل على لا يعرف له الطالبيون نسبا ولا رحما يدلى بدلوه فى الدولة لينال منها حظا لنفسه ذلك هو علوى البصرة أو الخبيث صاحب الزنج الذى زعم أنه على بن محمد بن أحمد بن على بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب وأصله من عبد القيس من ربيعة ورد البحرين سنة ٢٤٩ فادعى أنه عباس ودعا الناس بهجر إلى طاعته فاتبعه قوم وأباه آخرون فوجدت فتنة بين الفريقين فانتقل عنهم إلى حى من تميم فأقام بينهم وقد عظم مقامه بين أهل البحرين حتى أحلوه من أنفسهم محل النبى وجبوا له الخراج هناك وقاتلوا أسباب السلطان ووتر منهم جماعة كثيرة فتنكروا له فتحول عنهم إلى البادية ومعه جماعة من أهل البحرين منهم مولى لبنى حنظلة أسود يقال له سليمان بن جامع وهو قائد جيشه . نبت به البادية لسوء طاعة أهلها فشخص إلى البصرة فنزل بها فى بنى ضبيعة فاتبعه بها جماعة منهم على بن أبان المعروف بالمهلبى وأخواه محمد والخليل وغيرهم وكان قدومه البصرة سنة ٢٥٤ وعاملها محمد بن رجاء الحضارى فعلم بهم فخرجوا من البلد خائفين وحبس ابن رجاء جماعة ممن اتهموا بالميل إليه منهم ابن الدعى

مضى الدعى مع من اتبعه حتى صار إلى مدينة السلام فأقام بها حولا يستميل إليه الناس سرا حتى إذا عزل محمد بن رجاء عن البصرة شخص إليها فى رمضان سنة ٢٥٥ ونزلوا بقصر قريب منها يعرف بقصر القرشى وهناك خطرت له فكرة غريبة وهى

الاستعانة بالعبيد الذين كانوا يعملون بتلك النواحي فى حمل السباخ وغيره لأهل البصرة وهم كثير والعدد يهمهم أن ينالوا الحرية ويخرجوا مما هم فيه فكيف لو وعدوا مع الحرية بالسيادة على مالكى رقابهم فأخذ منهم غلاما اسمه ريحان ابن صالح ووعده أن يكون قائدا وأمره أن يحتال للعبيد الذين يعرفهم حتى يجيبوه إلى نحلته ويتركوا ساداتهم وأعمالهم فاجتمع إليه كثير منهم فخطب فيهم فمناهم ووعدهم أن يقودهم ويرأسهم ويملكهم الأموال وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدر بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئا من الاحسان إلا أتى به إليهم . حذر الناس على غلمانهم وكان هناك نحو ١٥٠٠٠ غلام

لم يزل الرجل يحتال لجمع هؤلاء الزنوج حتى كان يوم عيد الفطر من سنة ٢٥٥ وفيه صلى بأصحابه صلاة العيد وخطبهم خطبة ذكر فيها ماكانوا عليه من سوء الحال وإن الله قد استنقذهم به من ذلك وأنه يريد أن يرفع أقدامهم ويملكهم العبيد والأموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الأمور ثم حلف لهم على ذلك . وشرع فقودقواده وقال لهم كل من أتى برجل فهو مضموم إليه . استمر يعيث فى تلك الجهات وينهب الأموال ويستكثر من الرجال وقد أرسلت إليه جيوش من البصرة نهزمها ثم اتجه نحو البصرة فقابلته جنود كثيرة من أهل السلطان ومرتزقة الديوان فانتصر عليها وقتل منها مقتلة عظيمة وقوى أمره جدا بتلك الواقعة وحل الرعب فى قلوب أهل البصرة وكتبوا إلى السلطان بخبره والخليفة يومئذ المهتدى بالله . أقام الدعى بعد ذلك بالقرب من البصرة بسبخة هناك تعرف بسبخة أبى قرة ثم تحول منها إلى الجانب الغربى من نهر أبى خصيب وهناك غنم مغانم كثيرة من المراكب الماخرة فى دجلة وكانت شيئا كثيرا

وفى رجب سنة ٢٥٦ أحرق مدينة الأبلة واستسلم له أهل عبادان خوفا أن يصيبهم ما أصاب أهل الأبلة فأخذ من كان بها من العبيد وضمهم إلى جنده وفرق فيهم السلاح ومن هناك سير عسكرا إلى الأهواز فاستولى عليهما وأسر إبراهيم بن المدبر عامل الخراج بها فزاد ذلك أهل البصرة رعبا . أرسل السلطان إلى الدعى جنودا فكان نصيبها أبدا الفشل

وفى شوال سنة ٢٥٧ أوقع بأهل البصرة وقعة هائلة قتل فيها من أهل البصرة عدد

عظيم وخربت أكثر مبانيها

وكان كل يوم يكتسب قوة جديدة بما يضاف إليه من العبيد ومايتاح له من النصر المتتابع حتى استفحل أمره وعظم شره وخيف على الدولة منه فلم ير مدبر الدولة وقائد جيوشها أبو أحمد الموفق إلا أن يحشد إليه الجموع ويتولى هو قيادتها ليكتسب الجيش العباسي من ذلك قوة روح . فعبأ جندا كثير العدد ثم العدة وجاءه كثير من المتطوعين انتدبوا أنفسهم لحرب هذا الدعى وقد كانت لأبي أحمد معه وقائع هائلة وخطوب جسام استمرت أعواما وفى آخر الأمر أنزل الله نصره على رجال الدولة وهزموا الزنوج وقتلوا هذا الدعى وكان ذلك فى أواخر سنة ٢٧٠ وأمر الموفق كاتبه أن يكتب إلى أمصار الاسلام بالنداء فى أهل البصرة والأبلة وكوردجلة وأهل الأهواز وكورها وأهل واسط وما حولها مما دخله الزنج بقتل الدعى وأن يؤمروا بالرجوع إلى أوطانهم ففعل ذلك فسارع الناس إلى ما أمروا به وقدموا المدينة الموفقية التى اختطها الموفق هناك من جميع النواحى وأقام الموفق بعد ذلك بالموفقية ليزداد الناس بمقامه أمنا وإيناسا

وكان خروج صاحب الزنج فى يوم الأربعاء لأربع بقين من رمضان سنة ٢٥٥ وقتل يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة ٢٧٠ فكانت أيامه من لدن أن خرج إلى اليوم الذى قتل فيه ١٤ سنة وأربعة أشهر وستة أيام . وكان دخوله الاهواز لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة ٢٥٦ وكان دخوله البصرة وقتله أهلها وإحراقها لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال سنة ٢٥٧

ولم يكن يدرى إلا الله ماذا تكون العاقبة لو انتصر هذا الرجل بزنوجه على آل العباس بأترا كهم كان الأمر ينتقل من أيدى الأتراك إلى أيدى الزنوج فتقع الأمة فى الشر العظيم والوبا الوبيل لأن هؤلاء الزنوج ليس لهم أدب معروف بل لا يكادون يفقهون قولا فانتصار العباسيين عليه خلاص للأمة من شر مستطير

الاضطراب فى المشرق

كان آل طاهر أمراء المشرق منذ عهد المأمون إليهم خراسان وما وراءها من بلاد ما وراء النهر وما إليها من بلاد الرى وطبرستان وجرجان وكرمان وكانوا

كفاة لما عهد به إليهم موثوقا بهم في ارتباطهم بحبل الخلافة العباسية إلا أن خال بغداد وسامرا ونزوع الأتراك إلى الاستيلاء على أمور الملك والاستبداد على الخلفاء جعل الطامعين فيما بعد عن دار الخلافة أشره إلى الاستبداد بما يمكن أن يحوزوه ويستولوا عليه والقوة الظاهرية لم تكن تحل المحل الأرفع أمام معا كسيها إلا بهيبة الخلافة وشدة بأس القوة المركزية التي يحسب حسابها كل عاص وكل طامع

وجد بالشرق ثلاث قوى تحيط بآل طاهر وتنازعها ما بيدها من هذا الملك الطويل العريض

(الأولى) القوة الزيدية بطبرستان وجرجان وقد شرحناها قبل

(الثانية) القوة الصفارية بسجستان أوجدها يعقوب بن الليث الصفار وأخوه عمرو . كان هذان الرجلان يشتغلان في حداثتهما بعمل الصفر وكانا يظهران الزهد فصحبا رجلا من أهالي سجستان وكان مشهورا بالتطوع في قتال الخوارج اسمه صالح بن النضر الكناني فأحبهما وحظى بهما حتى جعل يعقوب مقام الخليفة عنه . ولما توفي صالح ولي مكانه في رياسة المطوعة درهم بن الحسين فكان يعقوب مع درهم كما كان مع صالح وكان قائدا لعسكره . كان درهم غير ضابط لأموره على عكس ما كان يعقوب فرأت المطوعة ذلك فعزلوا درهما وولوا يعقوب مكانه فحارب الخوارج والشراة فظفر بهم ظفرا عظيما وأطاعه أصحابه بمكره ودهائه طاعة لم يطيعوها أحدا قبله ثم اشتدت شوكته فغلب على سجستان وهراة وبوشنج وما إليها . ثم قاتل الترك الذين بتخوم سجستان وانتصر عليهم فرهبه الملوك الذين حوله منهم ملك الملتان وملك الرخج وملك الطبسين وملك ذابلستان وملك السند ومكران وغيرهم وأذعنوا له . وكان ملكه هراة وبوشنج سنة ٢٥٣ وأمير خراسان محمد بن طاهر بن عبد الله ابن طاهر

لم يكن يعقوب بن الليث يريد الاستقلال التام عن الخلافة العباسية بل كان يريد أن يكون أميرا بعهد من خليفة بغداد ليستعين بذلك على تأييد مركزه والحلول محل آل طاهر فراسل المعتز وبعث إليه بهدية سنية منها مسجد فضة مخلع يصلي فيه خمسة عشر إنسانا وسأل أن يعطى بلاد فارس ويقرر عليه خمسة عشر ألف ألف درهم على أن يتولى إخراج علي بن الحسين المتغلب على بلاد فارس . ثم شخص على أثر كتابه

للمعتز إلى كرمان فنزل بهم وهى الحد الفاصل بين كرمان وسجستان ثم استولى على كرمان ثم دخل إلى عمل فارس فخندق على بن الحسين على نفسه بشيراز وذلك فى ١٨ ربيع الآخر سنة ٢٥٥ وأرسل إلى يعقوب يعلمه أنه إن كان يريد فارس فكتاب أمير المؤمنين يأمرنى بتسليم العمل لأنصرف فلم يلتفت يعقوب إلى ذلك الطلب المقبول وآذنه بحرب فحصلت بينهما موقعة فى جمادى الأولى سنة ٢٥٥ انهزم فيها جند شيراز وأسر على بن الحسين ودخل يعقوب شيراز ظافرا وصلى الجمعة بها ودعا خطيبه للمعتز بالله . ثم عاد بعد ذلك إلى كرمان ثم إلى سجستان

رفع ذلك من شأن يعقوب بن الليث فان كورا عظيمة أذعنت لسلطانه وفى سنة ٢٥٩ فى عهد المعتمد قصد نيسابور فلما قرب منها ألق بنو طاهر بأيديهم وقابلوه مطيعين لما رأوا أنه لاقبل لهم بمقاومته وأن قوة الخلافة ضعفت عن إعانتهم فلما دخلها حبس محمد بن طاهر وآل بيته وبهذا انتهت دولتهم ونض اللواء الذى كان المأمون قد عقده لطاهر بن الحسين إذ ولاه خراسان وبلاد المشرق

بعد هذا الانتصار الباهر أرسل يعقوب إلى سامرا وفدا معهم كتاب يذكر فيه ماتناهى اليه من حال أهل خراسان وأن الشراة المخالفين قد غلبوا عليها وضعف عنهم محمد بن طاهر وأن أهل خراسان كاتبوه وسألوه القدوم عليهم وأنه بسبب ذلك صار اليها فلما كان على عشرة فراسخ منها سار اليه أهلها فدفعوها اليه فدخلها

كان المدبر للدولة فى ذلك الوقت أبو أحمد الموفق فأجاب الرسل بأن أمير المؤمنين لا يقار يعقوب على مافعل وأنه يأمره بالانصراف إلى العمل الذى ولاه إياه وأنه لم يكن له أن يفعل مافعل بغير أمر أمير المؤمنين فليرجع إلى عمله فانه إن فعل ذلك كان من الأولياء وإلا لم يكن له إلا ما للمخالفين . فلم يكن لهذه الرسالة أدنى تأثير فى نفس يعقوب ولا فى مركزه القوى لأن المسألة مسألة تنازع فى الحياة ولا بقاء للحياة إلا بالقوة

وفى سنة ٢٦٠ كانت بين قوة يعقوب وقوة الحسن بن زيد المتغلب على طبرستان وقائع انهزم فيها الحسن ودخل يعقوب سارية وآمل ظافرا وصار يتبع الحسن وهو منهزم حتى صار إلى بعض جبال طبرستان فأدركته هنالك الأمطار وتتابعت عليه نحو أربعين ليلة فلم يتخلص مما هو فيه إلا بمشقة شديدة ولما رأى صعوبة السير إلى الأمام انصرف بجنده وقد فقد منه فى هذه الواقعة نحو أربعين ألفا وتقرب بما فعل إلى

سامرا فبعث يخبر به ويذكر أنه نفى الحسن بن زيد من طبرستان وأسر سبعين من الطالبيين

لم تكن أعمال يعقوب مما يعجب السلطان لأن رجال الدولة خافوا ماوراء ذلك من استقلاله أو غلبته على حاضرة الخلافة نفسها فأمر الموفق عبيد الله بن طاهر أن يجمع من كان ببغداد من حاج خراسان والرى وطبرستان وجرجان ويقرأ عليهم كتابا يعلمهم فيه أن السلطان لم يول يعقوب بن الليث خراسان ويأمرهم بالبراءة منه لانكار الخليفة دخوله خراسان وحبسه محمد بن طاهر . وهذا رجوع منهم إلى القوة الروحية التى لخليفة المسلمين ولكنهم لم يروا لها تأثيرا بازاء القوة فعادوا إلى الحيلة خوفا من أن ذلك يحرج يعقوب فيدعو لنفسه ويعلن استقلاله فأعلنوا أن أمير المؤمنين ولاه خراسان وطبرستان وجرجان والرى وفارس والشرطة بمدينة السلام وذلك إقامة له مقام آل طاهر

لما نال يعقوب ماطلب ازداد طمعا وجرأة فأرسل يقول إنه لا يرضيه ما كتب به اليه دون أن يصير إلى باب السلطان ويظهر أنه كان يريد بذلك الاستيلاء الفعلى على بغداد وبلاد العراق فلما علم المعتمد ذلك رأى أورأى مدبر وأمره أنه لم يبق بد من قيام الخليفة بنفسه إلى حربه ولاسيما بعد أن علم أن يعقوب قادم بجيوشه إلى سامرا فرحل المعتمد عن سامرا إلى بغداد ومنها اتجه نحو عسكر يعقوب الذى وصل إلى واسط فتقابل الجيشان بين سيب بنى كوما ودير العاقول وكانت هناك موقعة هائلة بين الطرفين كان الظفر فيها أولا لجند يعقوب ولكن أصابهم بعد ذلك شر من جراء ذلك فان كثيرا من الجند اليعقوبى كرهوا القتال إذ رأوا أنفسهم يحاربون الخليفة وجها لوجه فانفصلوا عن الجيش فانهزم جنده أما يعقوب فانه فارق موضعه على تعبئة ومضى . تخلص بسبب ذلك محمد بن طاهر من أسره فأحضره الخليفة وخلع عليه على مرتبته وقرئ على الناس كتاب يذكر فيه مثالب يعقوب وأنه لم يرضه ماتفضل السلطان به عليه حتى جاء مشاقا محاربا وكان هذا الكتاب مؤرخا بيوم ١١ رجب سنة ٢٦٢

رجع المعتمد إلى سامرا وقدم محمد بن طاهر بغداد وقد رد إليه عمله فخلع عليه فى الرصافة . أما يعقوب فعاد من طريق فارس وضبطها وولى على كورها رجالا من قبله وكانت له بها وقائع مع رجال الدعى صاحب الزنج الذى لم يكن انتهى أمره بعد

وفى سنة ٢٦٥ توفى يعقوب بن الليث بالأهواز

كان هذا الرجل عصاميا نشأ فى صناعة الصفر ثم مازال يهم بالمعالى فتقاد له . قاد الجنود لفتح البلدان وساس من تغلب عليهم سياسة سلطانية عالية حتى أمكنه أن يفعل ما فعل ولم يؤخذ عليه فى تدبيره إلا هذه الفعلة الأخيرة وهى قدومه من بلدان قاصية لحرب الخليفة بسامرا وبغداد وهو فى جيوشه وعدده ومواليه فكانت عاقبته الفشل ويظهر أن الرجل ما كان يظن أنه يلقى حربا وكان يرى أن كتبه التى يظهر فيها الخضوع وأنه لم يجىء إلا لخدمة أمير المؤمنين والمثول بين يديه تجوز حيلتها على القائمين بأمر الدولة . وكانت مدته ١٨ سنة

بعد موت يعقوب بايع جنده أخاه عمرو بن الليث فكان خيرا من أخيه فى التدبير وإحكام السياسة حتى كان يقال ما أدرك فى حسن السياسة للجنود والهداية إلى قوانين المملكة منذ زمان طويل مثل عمرو بن الليث وكان يحضر بنفسه يوم أن تصرف الأعطيات للجنود حين يعرضون عدتهم الحربية فكان العارض يقعد والأموال بين يديه والجند بأسرهم حاضرون وينادى المنادى أولا باسم عمرو بن الليث لتقدم دابته إلى العارض بجميع آلة الفارس فيتفقدها ويأمر بوزن ٣٠٠ درهم باسم عمرو بن الليث فتحمل إليه فى صرة فيأخذ الصرة فيقبلها ويقول الحمد لله الذى وفقنى لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق ثم يضعها فى خفه تكون لمن يخلع خفه . ويدعى بعد ذلك بأصحاب الرسوم على مراتبهم فيتعرض لآلاتهم التامة ودوابهم الفره ويطالبون بجميع ما يحتاج إليه الفارس والراجل من صغير آلة وكبيرها فمن أخل باحضار شىء حرموه رزقه . وفوق ذلك كان يرضى الخليفة وبطانته لما كان يرسله من الأموال والهدايا والتحف فجعله الخليفة واليا على ما كان بلى أخوه ووجهت إليه بذلك الخلع مع العهد والعقد

ولم يزل أمره على ذلك حتى تغير عليه الخليفة سنة ٢٧٢ لما كان يبدو له من طموحه إلى ما طمح إليه أخوه فأدخل عليه من كان ببغداد من حاج خراسان ولعنه بحضرتهم وأخبرهم أنه قلد خراسان محمد بن طاهر وأمر بلعن عمرو بن الليث على المنابر ثم رضى عنه بعد ذلك لما استرضاه بالمال لم يزل عمرو فى حروب ووقائع لاقيمة لها حتى تعرض أخيرا لما كان بيد السامانيين من بلاد ماوراء النهر فولاه الخليفة إياها فكانت تلك الولاية خاتمة عزه كما سيجىء

السامانيون

تنسب الأسرة السامانية إلى بهرام جور صاحب كسرى هرمز فهى أسرة عريقة المجد فى الأمة الفارسية. كان فى عهد المأمون من تلك الأسرة أولاد أسد بن سامان وكان المأمون يرعى حقوق الحرمة لذوى البيوتات فقربهم ورفع من أقدارهم وكانت بلاد ماوراء النهر مقسمة بينهم يلونها من جهة أمير خراسان فكان نوح بن أسد فى سمرقند وأحمد بن أسد فى فرغانة ويحيى بن أسد فى الشاس وأشروسنة والياس بن أسد فى هراة. وكان أحمد بن أسد عفيف الطعمة مرضى السيرة لا يأخذ رشوة ولا أحد من أصحابه. ولما توفى استخلف ابنه نصرا على أعماله بسمرقند وماوراءها فبقى عاملا بها إلى آخر أيام الطاهرية. وكان إسماعيل بن أحمد يخدم أخاه نصرا فولاه بخارى سنة ٢٦١ وكان بين هذين الأخوين خطوب طويلة بسبب سعاة السوء حتى إنه فى سنة ٢٧٥ تحارب نصر وإسماعيل فقهر نصر وحمل إلى أخيه إسماعيل فلما رآه ترجل له وقبل يديه ورده من موضعه إلى سمرقند وتصرف هو على النيابة عنه ببخارى

وإسماعيل هذا هو الذى على يده انتهى عز عمرو بن الليث وورث ما كان بيده من ملك خراسان وصارت له دولة عظيمة أورثها أهل بيته واستمرت دولتهم ١٧٠ سنة وستة أشهر ثم انتهت على أيدى آل سبكتكين من جهة والترك الخاقانية من جهة أخرى وهذه أسماء ملوكهم وتواريخهم

(١) نصر بن أحمد بن سامان	٢٦١ — ٢٧٩
(٢) إسمعيل بن أحمد	٢٧٩ — ٢٩٥
(٣) أحمد بن اسمعيل	٢٩٥ — ٣٠١
(٤) نصر بن أحمد	٣٠١ — ٣٣١
(٥) نوح بن نصر	٣٣١ — ٣٤٣
(٦) عبد الملك بن نوح	٣٤٣ — ٣٥٠
(٧) منصور بن نوح	٣٥٠ — ٣٦٦
(٨) نوح بن منصور	٣٦٦ — ٣٨٧
(٩) منصور بن نوح	٣٨٧ — ٣٨٩

(١٠) عبد الملك بن نوح ٣٨٩ — ٣٨٩

مما تقدم يفهم أن البلاد المشرقية تقلص عنها ظل الخلافة العباسية فعلا وإن كان يدعى لهم ببعضها اسما

فكانت الدولة الصفارية بفارس وكرمان وسجستان وخراسان وكانت الدولة السامانية ببلاد ماوراء النهر وكان بطبرستان وجرجان الدولة الزيدية العلوية وهؤلاء يدعون لأنفسهم بالخلافة ولا يدينون لبنى العباس بطاعة

أما بالمغرب فقد حدثت قوة جديدة اقتطعت من بنى العباس برقة ومصر وسوريا وهى دولة أحمد بن طولون

أحمد بن طولون

كان طولون مملوكا تركيا أهداه نوح بن أسد السامانى إلى المأمون وهو بمرو سنة ٢٠٠ فكان من عداد الجنود التركية الكفاة وولد له أحمد ابنه بسامرا سنة ٢٢٠ فربى فى حلبة أولئك الجنود وتفصح بالعربية وحفظ القرآن الكريم وكان ذا خلق قويم ولما بلغت سنه العشرين توفى أبوه طولون فكان بعده فى ضمن جنود بايكباك الذى تقدم ذكره

كانت ولاية مصر مضافة إلى بايكباك وهو الذى يختار أميرها ففى سنة ٢٥٤ اختار لها أحمد بن طولون لما رأى من كفايته وشجاعته فعقد له عليها ودخلها أحمد لتسع بقين من رمضان وكان يتقلد القصبة وحدها وكان معه أحمد بن محمد الواسطى كاتب بايكباك

لما توفى المعتز سنة ٢٥٥ وتولى المهتدى وقتل بايكباك حل محله أماجور وكان صهرا لأحمد بن طولون فان أحمد كان زوج ابنته فكتب إليه أماجور تسلم من نفسك لنفسك وزاده الأعمال الخارجة عن قصبة مصر فعظمت لذلك منزلته واتسع ماسكه وكان يدعى على منابر مصر للخليفة أولا ثم لأماجور ثم لأحمد بن طولون حتى مات أماجور سنة ٢٥٨ فاستقل أحمد بمصر ودعى له بها وحده بعد الدعاء للخليفة وضبط ابن طولون بلاد مصر أحسن ضبط وخضد شوكة الثائرين الذين كانوا يثورون بها من وقت لآخر

وفى سنة ٢٦٢ حصل بينه وبين أبى أحمد الموفق تنافر أدى إلى وحشة استحكمت حلقاتها فكتب أبو أحمد إلى ابن طولون يهدده بالعزل فأجابه جوابا فيه بعض الغلظة فسير إليه الموفق جيشا يقوده موسى بن بغا فلما بلغ الرقة أقام بها عشرة أشهر ولم يمكنه المسير لقلة الأموال وطالبته الجنود بالعطايا فلم يكن معه مايعطيهم فاختلفوا عليه وثاروا بوزيره فاضطر ابن بغا أن يعود إلى العراق وكفى ابن طولون شره

وفى سنة ٢٦٣ ولى المعتمد أحمد بن طولون طرسوس ليقوم بحفظ ذلك الثغر عن الروم الذين كانوا قد تطرقوا البلاد لضعف قوة الخلافة

وفى سنة ٢٦٤ دخل فى حوزته بلاد الشام والثغور بعد وفاة أماجور الذى كانت تلك البلاد له فاتسع ملكه اتساعا عظيما حتى كانت حدود مملكته تنتهى إلى نهر الفرات

وبذلك تم التغلب والانفراد عن بنى العباس من أقاصى الغرب إلى نهر الفرات فضاقت مملكة بنى العباس واقتصرت على العراق والجزيرة الفراتية على مافيها من الثورات والاضطرابات وبلاد الرى والأهواز

وكان الموفق فى ذلك الوقت مشغولا بحرب الدعى صاحب الزنج فكان فى ذلك فرصة عظيمة لأحمد بن طولون أن يقوى أمر ملكه وكان يعلم مابين المعتمد الخليفة وبين أخيه من الفتور فأراد أن ينتفع من ذلك وصادف أن أرسل المعتمد إلى ابن طولون يشكو له مما هو فيه من استبداد الموفق عليه وأنه ليس له من الخلافة إلا الاسم فأشار عليه ابن طولون أن يلحق به بمصر ولو تم ذلك لانتقلت الخلافة العباسية إلى القطائع مدينة أحمد بن طولون بمصر ولكن حال دونه عامل الموصل والجزيرة الذى أرسل إليه الموفق أن يبذل جهده فى منع المعتمد من المسير إلى مصر فلما بارح المعتمد سامرا ووصل إلى عمل الموصل منعه العامل من المسير فعاد ثانية إلى سامرا وبسبب ذلك اتسعت مسافة الخلف بين الموفق وابن طولون حتى أن ابن طولون قطع خطبة الموفق وأسقط اسمه من الطراز فتقدم الموفق إلى المعتمد بلعنه ففعل مكرها لأن هواه كان مع ابن طولون

وفى سنة ٢٧٠ توفى أحمد بن طولون فخلفه فى مصر والشام والثغور الشامية ابنه خمارويه وقد استمر ملك مصر والشام فى أعقاب ابن طولون إلى سنة ٢٩٢ وقد ولى من هذا البيت خمسة أمراء وهم :

(١) أحمد بن طولون	٢٥٤ - ٢٧٠
(٢) خمارويه بن أحمد	٢٧٠ - ٢٨٢
(٣) أبو العساكر جيش بن خمارويه	٢٨٢ - ٢٨٣
(٤) هارون بن خمارويه	٢٨٣ - ٢٩٢
(٥) شيبان بن أحمد بن طولون	٢٩٢ - ٢٩٢

الحوادث الخارجية

ترتب على الاضطراب الذى قصصنا حديثه فى عهد المعتمد أن الحدود الرومية كانت محل اضطراب دائم يغير عليها الروم كل وقت فيجدون الدفاع عنها ضعيفا حتى أنهم أخذوا سنة ٢٦٣ حصن لؤلؤة الذى كان شجى فى حلوقهم وغلبوا كثيرا من الجيوش ولم تتحسن الأحوال قليلا إلا بعد أن أخذ ابن طولون مدينة طرسوس وعهد اليه حماية الثغور الشامية فتولى الغزو بجنوده المصرية والشامية وقد أوقع بالروم وقعة هائلة سنة ٢٧٠

وكانت غارات الروم بعد ذلك على ديار ربيعة وثغورها الجزرية فكانت ترد السرايا من تلك الجهة فتغير على المسلمين وهم غارون فيأخذون منهم كثيرا من الأسرى ولولا جنود المتطوعين لكانت الحال أسوأ مما حصل

ولاية العهد

كان أبو أحمد الموفق ولى العهد بعد المعتمد وكانت اليه أمور الخلافة فعلا فلما توفى سنة ٢٧٨ جعل ولى العهد المفوض بن المعتمد ومن بعده أبو العباس بن أبى أحمد الموفق وكان أبو العباس صاحب الكلمة فى الخلافة بعد أبيه فلم يلبث أن خلع المفوض من ولاية العهد وجعل نفسه مقدما

صفات المعتمد

لم يكن للمعتمد نفوذ فى إدارة البلاد ولا فى شىء من سياسة المملكة لأن الأمر كله كان منوطا بأخيه أبى أحمد وكان المعتمد مشغوفا بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهى لاهم له إلا ذلك وله أحاديث فى الغناء والرقص والندامى

وهيئة المجالس ومنازل التابع والمتبوع وكيفية مراتبهم وتعبية مجالس الندماء استبدل هذا بتعبية الجيوش وسوقها إلى خوض الغمرات

وكانت وفاة المعتمد على أثر شراب شربه فأكثر منه ثم اتبعه بأكلة هاضته وأتت على حياته لأحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٧٩

١٦ — المعتضد

هو أبو العباس أحمد بن أبي أحمد الموفق طلحة بن المتوكل بن المعتصم وأمه أم ولد اسمها ضرار ولد سنة وكان عضدا لأبيه الموفق فى حروبه وأعماله وولى العهد بعد وفاة أبيه وبعد خلع المفوض ابن المعتمد سنة ٢٧٩ وبويع له بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه المعتمد على الله لأحدى عشرة بقيت من رجب سنة ٢٧٩ (١٥ أكتوبر سنة ٨٩٢) ولم يزل خليفة حتى توفى لثمان بقين من ربيع الآخر سنة ٢٨٩ (١٥ أبريل سنة ٩٠٢) فكانت مدته تسع سنوات وتسعة أشهر وثلاثة أيام

وكان يعاصره فى الأندلس عبد الله بن محمد الذى توفى سنة ٣٠٠

وكانت دولة الأدارسة على غاية من الاضطراب يؤذن بقرب الانتهاء

ويعاصره فى إفريقية وصقلية من الأغالبة إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الذى توفى سنة ٢٨٩

وفى مصر من آل طولون خمارويه بن أحمد المتوفى سنة ٢٨٢ ثم جيش بن خمارويه المتوفى سنة ٢٨٢ ثم هارون بن خمارويه المتوفى سنة ٢٩٢

وفى زبيد من آل زياد إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن زياد المتوفى سنة ٢٨٩

وفى صنعاء من آل يعفر عبد القادر بن أحمد بن يعفر المتوفى سنة ٢٧٩ ثم ابراهيم ابن محمد بن يعفر المتوفى سنة ٢٨٥ ثم أسعد بن إبراهيم المخلوع سنة ٢٨٨ ثم دخلت صنعاء تحت سلطان الزيدية ثم القرامطة

وفى طبرستان وجرجان محمد بن زيد العلوى المقتول سنة ٢٨٧

وفى خراسان وسجستان عمرو بن الليث الصفار الذى أسر سنة ٢٨٧

وفى بلاد الروم لاون السادس الملقب بالفيلسوف المتوفى سنة ٩١١ م

وفى فرنسا أودون أول ملك من الكاباسيان المتوفى سنة ٨٩٨ ثم شارل الثالث الملقب بالساذج المتوفى سنة ٩٢٣

وزراء الدولة

اول وزراء المعتضد عبيد الله بن سليمان بن وهب واستمر فى وزارته حتى مات سنة ٢٨٨ فاستوزر بعده ابنه أبو الحسين القاسم بن عبيد الله ومات وهو وزيره

من المهم أن نذكر هنا ملخصا لما أورده الكاتب هلال بن المحسن الصابىء فى كتابه الموسوم بتحفة الأمراء فى أخبار الوزراء لندل بذلك على مقدار مصروف الخليفة المعتضد

قال عن عبد الحميد الكاتب لما تولى أبو القاسم عبيدالله بن سليمان وزارة المعتضد بالله رحمة الله عليه والدنيا منغلقة بالخوارج والاطماع مستحكمة من جميع الجوانب والمواد قاصرة والأموال معدومة وقد استخرج إسمعيل بن بلبل خراج السواد لسنتين فى سنة وليس فى الخزائن موجود من مال ولا صياغة احتاج فى كل يوم إلى ما لا بد منه من النفقات إلى سبعة آلاف دينار وتعذر عليه قيام وجهها وقال له يوما وهو فى مجلسه من دار المعتضد بالله . يا أبا الفضل قد وردنا على دنيا خراب مستغلقة وبيوت مال فارغة وابتداء عقد لخليفة جديد الأمر وبيننا وبين الافتتاح مدة ولا بد لى فى كل يوم من سبعة آلاف دينار لنفقات الحضرة على غاية الاختصار والتجزئة فان كنت تعرف وجها تعيننى به فأحب أن ترشدنى إليه فحسن له إطلاق ابنى الفرات (أبى الحسن على وأبى العباس أحمد ابنى محمد بن موسى بن الفرات) وكانا محبوسين بعد أن صودرا فحسن الوزير للمعتضد إطلاقها والاستعانة بهما ففعل وحينئذ أحضرا أحمد بن محمد الطائى وضمناه أعمال سقى الفرات ودجلة وجوخى وواسط وكسكر وطساسيج نهر بوق وغيرها على أن يحمل من ماله فى كل يوم سبعة آلاف دينار وفى كل شهر ستة آلاف دينار وأخذا خطه بالتزام الضمان وتصحيح المال على ما تقرر من أوقاته واستقبلا به فى المياومة يومهما وفى المشاهرة غدهما

وهذا تفصيل وجوه خرج المياومة مما شرط فيه ما قرره المعتضد بالله :

١٠٠٠	دينار أرزاق أصحاب النوبة من الرجال ومن برسمهم من البوابين ومن يجرى مجراهم
١٠٠٠	دينار أرزاق الغلمان الخاصة وفيهم الحاجب وخلفاء الحجاب
١٥٠٠	دينار أرزاق مماليك المعتضد المعروفين بالمماليك الحجرية
٦٠٠	أرزاق المماليك المختارين
٥٠٠	أرزاق الفرسان المميزين
١١٠	أرزاق سبعة عشر صنفا من الموسومين بخدمة الدار
٥٠	المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم ومن يجرى مجراهم
٣٠٠	أثمان أنزال الغلمان المماليك
٢٥٣ ١/٣	نفقات المطابخ الخاصة والعامة والمخابز ونزال الحرم ومخابز السودان
١٠٠	ثمن وظائف شراب الخاصة والعامة ونفقات خزائن الكسوة والخلع والطيب وحوائج الوضوء وماشابه ذلك
٤	أرزاق السقائين بالقرب
١٦٧	أرزاق الخاصة ومن يجرى مجراهم من الغلمان والمماليك
١٠٠	أرزاق الحرم من المستخدمين فى شراب العامة وخزائن الكسوة الخ
١٠٠	أرزاق الحرم
٤٠٠	ثمن علوفة الكراع فى الاصطبلات الخمسة
٦٦ ٢/٣	مايصرف فى ثمن الكراع والابل ومايبتاع من الخيل
٣٠	أرزاق المطبخين
٣٠	أرزاق الفراشين ومن جرى مجراهم
٦ ٢/٣	ثمن الشمع والزيت
٥	أرزاق أصحاب الركاب والجنائب والسروج
٤٤ ١/٣	أرزاق الجلساء وأكابر الملهين
٢٣ ١/٣	أرزاق المتطببين وتلامذتهم مع أثمان الأدوية
٧٠	أرزاق أصحاب الصيد وثمن الطعم والعلاج للجوارح
٦٤٦٠ ١/٣	

٦٤٦٠١/٣	ماقبله
٦١ ٢/٣	أرزاق الملاحين
٤	ثمن نفط ومشاقة
١٥	صدقة يومية
٣٣ ١/٣	جارى أولاد المتوكل
١٦ ٢/٣	جارى ولد الواثق والمهتدى والمستعين وسائر أولاد الخلفاء
١٦ ٢/٣	جارى ولد الناصر
٢٠	أرزاق مشايخ الهاشميين والخطباء بمدينة السلام
٣٣ ١/٣	جارى جمهور بنى هاشم
٣٣ ١/٣	رزق الوزير وابنه
١٥٦ ٢/٣	أرزاق أكابر الكتاب وسائر من فى الدواوين وثمن الصحف والقراطيس والكاغد
١٦ ٢/٣	رزق القاضى وخليفته وعشرة فقهاء
٣ ١/٣	خدام المسجدين الجامعين بمدينة السلام
٥٠	نفقات السجون
١٠	نفقات الجسرين وأرزاق الجسارين
١٥	نفقات البيمارستان الصاعدى وأرزاق أطبائه وأثمان الأدوية
٦٩٤٦	

فهذه وجوه الصرف تبين أن جميع المصروفات التى كانت تصرف فى الحضرة كل يوم حوالى سبعة آلاف دينار وفى الشهر ٢١٠٠٠٠ وفى السنة ٢٥٢٠٠٠٠ دينار وهو مقدار قليل إذا قيس بما كان يرد على حضرة الخلافة فى عهد المأمون والمعتصم ولا غرابة فى ذلك فان كثيرا من الأقاليم استقل بادارته وأمواله المتغلبون ومابقى لبنى العباس لم يعمره العدل والأمن لكثرة الاضطرابات فى الجزيرة وبلاد العراق وفارس

اضطرابات الجزيرة

كانت العرب مع تغلب الأتراك على دولة بنى العباس لايقرون بالخضوع لهم

بل كانوا على مالم يزالوا عليه من الاستقلال بأمر أنفسهم فى ديار ربيعة فى ديار مضر ولا سيما بعد أن أسقط العباسيون أسماء العرب من ديوان المرتزقة فكانت لاتزال تخرج منهم خوارج يدعون الناس إلى خلع طاعة العباسيين وأكثر هؤلاء العرب جمعا وخروجا بنوشيبان من ربيعة

ففى أول خلافة المعتضد صار إلى بنى شيبان بالموضع الذى يجتمعون فيه من أرض الجزيرة فلما بلغهم قصده جمعوا إليهم أموالهم وأغار المعتضد على الأعراب عند السن فنهب أموالهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وغرق منهم فى نهر الزاب مثل من قتل ثم سار إلى الموصل فلقيته بنو شيبان يسألونه العفو وبذلوا له رهائن فأجابهم إلى ماطلبوا وعاد إلى بغداد

وفى سنة ٢٨١ سار يريد قلعة ماردين للاستيلاء عليها من يدى حمدان بن حمدون الذى تغلب عليها وهو جد الأسرة الحمدانية فلما بلغه مسير المعتضد إليه ترك فى القلعة ابنه وسار عنها فلما وصلها المعتضد نازلها يومه وفى الغد ركب بنفسه حتى أتى باب القلعة وصاح بابن حمدان فأجابه فأمره بفتح باب القلعة ففتحه فقعد المعتضد فى الباب وأمر بنقل مافى القلعة وهدمها ثم وجه خلف حمدان من يطلبه أشد الطلب حتى ظفر به بعد عودته إلى بغداد

وكان مما يهم المعتضد خارجى ظهر بالجزيرة اسمه هارون الشارى واستفحل جمعه واشتدت قوته حتى لم يحاربه جند من جنود السلطان إلا هزمه فرأى المعتضد أن يضرب الحديد بالحديد فندب الحسين بن حمدان لحرب هارون فقال له الحسين إن أنا جئت به فلى ثلاث حاجات عند أمير المؤمنين إحداهما إطلاق أبى وحاجتان أذكرهما بعد مجيئى فأجابه المعتضد إلى ذلك فمضى مع جند اختاره حتى لقيه فحاربه وهزمه ثم مازال يتبعه حتى ظفر به فأخذه أسيرا وأحضره للمعتضد فخلع على الحسين وطوقه وخلع على إخوته وأمر بفك أبيه والتوسعة عليه والاحسان إليه فكان هذا بدء ظهور الأسرة الحمدانية

القرامطة

قد ذكرنا فيما مضى كيف ابتدأت نحلة القرامطة تشيع فى سواد الكوفة ويدخل

الناس فيها حتى كثر أتباع القرامطة

فى قريب من الوقت الذى انتشر فيه هذا المذهب بسواد الكوفة ظهر بالبحرين رجل يقال له أبو سعيد الحسن الجنابى وجنابة من سواحل فارس يدخل إليها فى المراكب فى خليج من البحر الفارسى وبين المدينة والبحر ثلاثة أميال وقبالتها فى وسط البحر جزيرة خارك نشأ بها أبو سعيد هذا وكان دقاقا فنفى عن جنابة فخرج إلى البحرين فأقام بها تاجرا وجعل يستميل العرب إلى نحلته حتى استجاب له أهل البحرين وما والاها وقوى أمره فقتل ما حوله من أهل القرى وفعل ذلك بالقطيف وأظهر أنه يريد البصرة التى كتب عليها الشقاء فانه لم يمض على مالاقته من السوء على يد دعى العلويين أكثر من ١٥ سنة فكتب واليها إلى المعتضد يخبره بالأمر فأمره المعتضد أن يبنى على البصرة سورا ففعل وفى سنة ٢٨٧ أقبل الجنابى بجموعه يريد البصرة فأرسل إليه المعتضد جيشا قائده العباس بن عمرو الغنوى فهزمه أبو سعيد وأسر العباس واحتوى ما فى العسكر وقتل الأسرى ثم سار الجنابى بعد الواقعة إلى هجر وانصرف المنهزمون إلى البصرة فلقيهم الأعراب فأفنوهم. أحدث ذلك بالبصرة قلقا واضطرابا حتى هم أهلها بالجلاء عنها ولكن واليها هدأ بالهم

أما أمرهم بسواد الكوفة فانه لما علم المعتضد أمر انتشار مذهبهم هنالك وكثرة متبعه أرسل إليهم جيشا يقوده شبل غلام أحمد بن محمد الطائى فظفر بهم وأخذ رئيسا لهم يعرف بأبى الفوارس فقدم به على المعتضد فسأله المعتضد هل تزعمون أن روح الله تعالى وأرواح أنبيائه تحل فى أجسادكم فتعصمكم من الزلل وتوفقكم لصالح العمل فقال يا هذا إن حلت روح الله فينا فما يضرك وإن حلت روح إبليس فما ينفعك فلا تسأل عما لا يعنيك وسل عما يخصك. فقال ما تقول فيما يخصنى قال أقول إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات وأبوكم العباس حى فهل طالب بالخلافة أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك ثم مات أبو بكر فاستخلف عمر وهو يرى موضع العباس ولم يوص إليه ثم مات عمر وجعلها شورى فى ستة أنفس ولم يوص إليه ولا أدخله فيهم فبماذا تستحقون أنتم الخلافة وقد اتفق الصحابة على دفع جدك عنها — فأمر به المعتضد فقتل

كان تتابع الجيوش من المعتضد إلى من بسواد الكوفة سببا لأن داعية قرمط

ز كرويه بن مهرويه سعى فى استغواء كلب بن وبره بواسطة أولاده فأجابه بعض بطونهم وبايعوا سنة ٢٩١ ابن ز كرويه المسمى يحيي المكنى بأبى القاسم ولقبوه الشيخ وزعموا أنه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وزعم لهم أن له بالبلاد مائة ألف تابع وسمى أتباعه الفاطميين فقصدهم شبل مولى المعتضد من ناحية الرصافة فاغتروه فقتلوه وأحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى بلغوا بلاد الشام وكانت إذ ذاك فى حوزة خمارويه ابن أحمد بن طولون وينوب عنه فيها طغج بن جف فقاتلهم مرارا فهزموه

هذا ما كان منهم فى حياة المعتضد ظهروا بثلاثة مواضع بالبحرين والعراق والشام وبدؤوا بخروجهم شعلة النار المحرقة التى آذت المسلمين ودوختهم وسلبتهم أمن الطريق إلى بيت الله المقدس كما يأتى بيانه

وفى تلك الأزمنة كان يشتغل دعاة الفاطميين باليمن وأفريقية فكانت الدعوة الاسماعيلية رتبت أن تكون فى آن واحد بجميع الجهات الاسلامية حتى لا يكون لبنى العباس قبل بملافاة شرها وكذلك كان

أمر المشرق

اتسع سلطان عمرو بن الليث فى أول عهد المعتضد ودخل نيسابور سنة ٢٨١ ولما خرج بجيشه منها خالفه رافع بن هرثمة وأعلن خضوعه لمحمد بن زيد العلوى ودعا له على منبر نيسابور فعاد عمرو بن الليث وحاصره بنيسابور حتى احتلها ثانيا وكان رافع قد هرب إلى طوس فأرسل إليه عمرو جندا فلحقوه هناك وقاتلوه فانهزم إلى خوارزم فتبعوه إليها وهناك قتلوه وأرسل عمرو إلى المعتضد كتابا بذلك مع رأس رافع فأرسلت إلى عمرو الخلع ولواء الولاية على الرى وهدايا من قبل المعتضد

لما اتسع لعمرو هذا السلطان أرسل إلى الخليفة يطلب منه عهد الولاية على بلاد ماوراء النهر وعزل إسماعيل بن أحمد السامانى أميرها ففعل المعتضد ذلك وأرسل إليه عهد الولاية فأجابه عمرو على ذلك بارسال هدية فكان مبلغ المال الذى وجهه أربعة آلاف ألف درهم وعشرين من الدواب بسروج ولجم محلاة و ١٥٠ دابة بجلال مشهرة وكسوة وطيب وبزاة

كانت هذه الولاية سببا لمصيبة عمرو بن الليث فانه خرج ليحوزها ولم يكن إسماعيل بالذى يسلمها إليه فكتب إليه إنك قد وليت دنيا عريضة وإنما فى يدى ماوراء النهر وأنا فى ثغر فاقنع بما فى يدك واتركنى مقيما بهذا الثغر فأبى إجابته إلى ذلك فذكر لعمرو أمر نهر بلخ والشدة فى عبوره فقال لو أشاء لسكرته ببدر الأموال وعبرته ولما أيس إسماعيل من انصرافه عنه جمع من معه من التناء والدهاقين وعبر النهر إلى الجانب الغربى وجاء عمرو فنزل بلخا وأخذ إسماعيل عليه النواحى فصار كالمحاصر وندم على مافعل وطلب المحاجزة فأبى إسماعيل عليه ذلك فلم يكن بينهما كبير قتال حتى هزم عمرو فولى هاربا ومر بأجمة فى طريقه قيل له إنها أقرب فقال لعامة من معه أمضوا فى الطريق الواضح ومضى فى نفر يسير فدخل الأجمة فوحلت دابته فوقعت ولم يكن له فى نفسه حيلة ومضى من معه ولم يلووا عليه وجاء أصحاب إسماعيل فأخذوه أسيرا وخيره إسماعيل بين أن يقيم عنده وأن يرسل إلى المعتضد فاختار أن يوجه إلى المعتضد فحبس وبذلك انتهت أيام عزه وختم المعتضد حياته بالأمر بقتل عمرو فقتل فى أول خلافة المكتفى

لما علم محمد بن زيد بأمر عمرو ظن ذلك فرصة لأخذ خراسان لأنه فهم أن إسماعيل ابن أحمد لايبارح عمله بما وراء النهر فخرج من طبرستان مريدا الاستيلاء على خراسان فلما صار إلى جرجان كتب إليه إسماعيل يسأله الرجوع إلى طبرستان وترك جرجان له فأبى عليه ذلك ابن زيد فندب إسماعيل لحربه قائدا فى جند فلقيه على باب جرجان فانهزم عسكر ابن زيد وأصابته ضربات وأسر ابنه زيد ثم مات محمد بعقب هذه الواقعة بأيام فدفن على باب جرجان وحمل ابنه زيد إلى إسماعيل بن أحمد . بذلك زالت على يد السامانيين دولة رجلين كبيرين عمرو بن الليث الصفار ومحمد بن زيد ولم يكن لأولادهما بعدهما كبير ذكر فى التاريخ

ولما تم ذلك كله عن يد إسماعيل أرسل إليه المعتضد الخلع وبدنة وتاجا وسيفا من ذهب مركبا على جميع ذلك الجوهر وهدايا وثلاثة آلاف ألف دينار يفرقها فى جيش من جيوش خراسان يوجهه إلى حرب سجستان لمحاربة من فيها من أصحاب طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث وبذلك صارت القوة فى المشرق للأسرة السامانية فبيدهم بلاد ماوراء النهر وخراسان إلى الرى وسجستان ولهم فيها النفوذ والسلطان التام

أمر المغرب

كانت علاقة المعتضد بخمارويه بن أحمد بن طولون حسنة وكان خمارويه يتقرب إليه كثيرا فأهدى إليه كثيرا فأهدى إليه لأول خلافته من العين عشرين حملا على بغال وعشرة من الخدم وصندوقين فيهما طراز وعشرين رجلا على عشرين نجيبا بسروج محلاة بحلية فضية كثيرة ومعهم حراب فضة وعليهم أقبية الديباج والمناطق المحلاة وسبع عشرة دابة بسروج ولجم منها خمسة بذهب والباقى بفضة و٣٧ دابة بجلال مشهرة وخمسة أبغل بسروج ولجم وزرافة . ثم أراد أن يتقرب إلى الخليفة بالمصاهرة فعرض أن يزوج ابنته قطر الندى من على بن المعتضد فقال المعتضد أنا أتزوجها فتزوجها واحتفل خمارويه بجهازها أتم احتفال ومن ضمن ذلك الجهاز دكة (سرير) أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة جوهر لايعرف لها قيمة ومائة هون من ذهب ومنها ألف تكة ثمنها عشرة آلاف دينار فانظروا كم يكون بعد هذا . ولما تم الجهاز أمر فبنى لها على رأس كل مرحلة تنزل بها قصر فيما بين مصر وبغداد وأخرج معها أخاه شيبان بن أحمد بن طولون فى جماعة فكانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد فاذا وافت المنزل وجدت قصراً قد فرش فيه جميع مايحتاج إليه وعلقت فيه الستور وأعد فيه كل مايصلح لمثلها فى حال الاقامة فكانت فى سيرها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة كأنها فى قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس حتى قدمت بغداد أول المحرم سنة ٢٨٢ وكان المعتضد إذذاك غائبا بالموصل فأدخلت للحرم حتى قدم فنقلت إليه فى رابع ربيع الثانى ونودى فى جانبى بغداد ألا يعبر أحد فى دجلة يوم الأحد وهو يوم الزفاف وغلقت أبواب الدروب التى تلى الشط ومد على الشوارع النافذة إلى دجلة شراع ووكل بحافتى دجلة من يمنع الناس أن يظهروا فى دورهم على الشط فلما صليت العتمة وافت الشذا من دار المعتمد وفيها خدم معهم الشمع فوقفوا بازاء دار صاعد التى كانت فيها قطر الندى وكانت أعدت أربع حراقات شدت مع دار صاعد فلما جاءت الشذا أحدرت الحراقات وصارت الشذا بين أيديهم فنزلت إليها حتى وصلت إلى دار المعتضد

كان خمارويه يلى مصر واليه طرسوس والشام فكانت إليه المحافظة على ثغر طرسوس

وجنوده تقوم بذلك خير قيام . لم يزل الحال على ذلك حتى قتل خمارويه سنة ٢٨٣ ولم يكن عند ولده جيش من المقدرة ما يسوس بها ملك أبيه فاتفق جمع من جنده على الفتك به ولكن عرف أمرهم فهربوا ووردوا بغداد فأكرم المعتضد وفادتهم وبعد ذلك ثار جماعة آخرون بجيش فقتلوه وولوا أخاه هارون وكانت هذه المنازعات الداخلية سببا لخروج طرسوس من أيدى بنى طولون فقد قدم وفد من أهلها على المعتضد يطلبون أن يولى عليهم واليا من قبله ففعل

ثم اتفق المعتضد بعد ذلك مع هارون أن يتنازل هارون عن قنسرين والعواصم وتقصر ولايته على مصر والشام على أن يحمل إلى بيت المال ببغداد كل سنة ٤٥٠٠٠٠ دينار ووجهت الخلع والعقد إلى هارون . ومن هذا يتبين أن نفوذ المعتضد فى مصر والشام صار أقوى مما كان قبل لضعف أمر الطولونيين بالخلاف الذى وقع بينهم

صفات المعتضد

كان المعتضد قوى القلب جريئاً ولذلك كان للخلافة فى عهده أكثر مما كان فى عهد أبيه من الهيبة وإن كان الأمر فى الحقيقة جل أن يصلح لأن وراءهم عدوا لا ينام يريد إفساد ملكهم بما أمكنه ولو أدى ذلك إلى إفساد البلاد كلها . وكان مع شجاعته قليل الرحمة سفاكا للدماء شديد الرغبة فى التمثيل بمن يقتله

وله اصطلاحات داخلية جليلة منها أنه أمر برد الفاضل من سهام المواريث على ذوى الأرحام وأمر بإبطال ديوان المواريث وكان أصحاب التركات يلقون من ذلك عناء . ومنها اهتمامه بكرى دجيل وهو أحد روافد دجلة وقلع من فوهته صخرا كان يمنع الماء

ومن أهم إصلاحه ما يعرف بالتقويم المعتضدى وإنا قائلون كلمة فى شرحه :

معلوم أن دين الاسلام يستعمل السنة الهلالية ويجعل أهلة الشهور علامة على عبادات افترضها منها صوم رمضان وحج البيت فى ذى الحجة فلم يكن هناك معتبر للسنة الشمسية التى تزيد على السنة الهلالية أحد عشر يوما وربعا إلا قليلا . ولم يكن هناك مجال للتوفيق بين السنتين الشمسية والهلالية ولكن حصل أن المسلمين اضطروا فيما بعد لمراعاة السنة الشمسية لأن جباية الخراج إنما تكون عند إدراك الثمار

والغلات وهذه وقتها واحد فكانوا يفتتحون الخراج فى يوم النيروز

وكانت الفرس تعتبر السنة الشمسية ٣٦٠ يوما كل شهر ثلاثون يوما كاملة وكانوا يضيفون إليها خمسة أيام بين آبان ماه وآذرماه وهما الشهر الثامن والشهر التاسع من شهورهم ويجتمع لهم فى كل ١٢٠ سنة من ربع اليوم أيام شهر تام ومن خمس الساعة الذى يتبع ربع اليوم عندهم يوم واحد فألحقوا الشهر التام بها فى كل ١١٦ سنة وبناء على ذلك كانوا يؤخرون النيروز عن وقته شهرا كاملا كلما مضت هذه العدة. فلما سقط ملكهم أغفلوا هذا الكبس واستمر فتح الخراج أيام النيروز ففى عهد المتوكل دخل بعض بساتينه فمر بزرع فرآه أخضر فقال لعلى بن يحي المنجم إن الزرع اخضر بعد ما أدرك وقد استأمرنى عبيد الله بن يحي فى استفتاح الخراج فكيف كانت الفرس تستفتح الخراج فى النيروز والزرع لم يدرك بعد فقال له على ليس يجرى الأمر اليوم على ما كان يجرى عليه أيام الفرس ولا النيروز فى هذه الأيام فى وقته الذى كان فى أيامها لأنها كانت تكبس فى كل ١٢٠ سنة شهرا وكان النيروز إذا تقدم شهرا وصار فى خمس من حزيران كبست ذلك الشهر فصار فى خمس من إيار وأسقطت شهرا وردته إلى خمس من حزيران فكان لا يتجاوز هذا فلما تقلد خالد القسرى العراق وحضر الوقت الذى تكبس فيه الفرس منعها من ذلك فلما امتنعوا من الكبس تقدم النيروز تقدما شديدا حتى صار يقع فى نيسان والزرع أخضر فقال المتوكل فاعمل لهذا عملا ترد النيروز فيه إلى وقته الذى كان يقع فيه أيام الفرس وعرف بذلك عبيد الله بن يحي ليكون استفتاح الخراج فيه فكتبت بذلك كتب سنة ٢٤٣ ولكن أمرها لم يتم لقتل المتوكل. فلما ولى المعتضد وأخبر بخبر المتوكل اهتم بالأمر وحسب المدة التى تقدمها تاريخ النيروز بسبب إهمال الكبس فوجد أنه تأخر ستين يوما فأخر النيروز بقدره فكان فى ١١ حزيران فجعله كذلك دائما لا يتأخر عنه وجعله على حساب شهور الروم لتكبس شهوره كلما كبست الروم شهورها فصار لا يتقدم النيروز عن زمنه ولا يتأخر. قال البيرونى فى كتابه الآثار الباقية وهذا وإن دقق فى تحصيله فلم يعد به النيروز إلى ما كان عليه عند الكبس فى دولة الفرس وذلك أن إهمال الفرس كبيسهم كان قبل هلاك يزدجرد بقريب من سبعين سنة لأنهم كانوا كبسوا السنة فى زمان يزدجرد بن

سابور بشهرين أحدهما لما لزم السنة من التأخر وهو الواجب ووضعوا اللواحق خلفه علامة له وكانت النوبة لآبان ماه كما سنذكر والشهر الآخر للمستأنف ليكون مفروغا منه إلى مدة طويلة فاذا أسقط من السنين التى بين يزدجرد بن سابور وبين يزدجرد بن شهريار ١٢٠ سنة بقى بالتقريب سبعون سنة لا بالتحقيق فان تواريخ الفرس مضطربة جدا ويكون حصة هذه السبعين سنة من الأرباع قريبا من ١٧ يوما فكان يجب بالتحليل من القياس أن يؤخر ٧٧ يوما لا ٦٠ حتى يكون النيروز فى ٢٨ حزيران ولكن المتولى لذلك ظن أن طريقة الفرس فى الكبس كانت شبيهة بالتى يسلكها الروم فيه فحسب الأيام من لدن زوال ملكهم والأمر فيه على خلاف ذلك اه

أما مسألة اتفاق السنة الخراجية مع السنة الهلالية فانهم لما رأوا بالحساب أن كل ٣٢ سنة شمسية تساوى بالتقريب ٣٣ سنة هلالية كانوا يضيفون على السنة الخراجية كلما مرت ٣٢ سنة ففى سنة ٢٤١ الخراجية نسب الخراج إلى سنة ٢٤٢ الهلالية وأسقطت سنة ٢٤١ لأن الغلة إنما أدركت سنة ٢٤٩ واضرب لذلك مثلا يفهم به ما كانوا يعملونه كان أول المحرم سنة ٢٠٤ هو ٤ مايو سنة ٨٢٤ وأول المحرم سنة ٢٤٢ هو ١٠ مايو سنة ٨٥٦ ومن بين هذين ٣٣ سنة قمرية و ٣٢ سنة شمسية فتكون السنة بالحساب الخارجى سنة ٢٤١ فلكى تتحد مع السنة الهلالية يضيفون عليها واحدا حتى تكون سنة ٢٤٢ ويسقطون من الخراج سنة ٢٤١

وقد كتب المعتضد بذلك كتابا أمر فيه أن تكون جباية الخراج فى العراق والمشرق وما يتصل بهما ويجرى مجراهما على الطريق التى رسمها وإنما قيد بالعراق والمشرق لأن الحال فى مصر كانت على الكبس القبطى وفى الشام على الكبس الرومى وكلاهما لا يتغير به الزمان

والمعتضد هو الذى ترك سامرا واستبدل بها بغداد فضاعت أبهتها وخربت بعد أن كانت تضارع بغداد بل لم يكن فى الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكا منها ولما استدبر أمرها جعلت تنقض وتحمل أنقاضها إلى بغداد يعمر بها فقال ابن المعتز:

قد أقفرت سامرا ٭ وما لشىء دوام

فالنقض يحمل منها * كأنها آجام
ماتت كما مات فيـــل * تسل منـــه العظام

وبها قبور ستة من الخلفاء وهم الواثق والمتوكل والمنتصر والمعتز والمهتدى والمعتمد وبها قبر إمامين من أئمة الشيعة وهما على بن محمد والحسن بن على العسكريان وبها السرداب التى تزعم الشيعة أنه يخرج منه المهدى المنتظر

وفاة المعتضد

توفى المعتضد لثمان بقين من ربيع الآخر سنة ٢٨٩ وكان ولى عهده ابنه المكتفى

١٧ — المكتفى

هو على المكتفى بن المعتضد بن أبى أحمد المتوكل وأمه أم ولد تركية اسمها جيجك ولد سنة ٢٣٦ وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المعتضد بعهد منه وذلك فى ٢٢ ربيع الآخر سنة ٢٨٩ (١٥ أبريل سنة ٩٢٠) ولم يزل خليفة إلى أن توفى فى ١٢ ذى القعدة سنة ٢٩٥ (١٣ أغسطس سنة ٨٠٩) فكانت مدته ست سنوات وستة أشهر و١٩ يوما

وتولى فى عهده على بلاد المغرب الأقصى من الأدارسة يحيى بن إدريس بن عمر ابن إدريس بن إدريس بعد اختلافات طويلة كانت بين أفراد هذا البيت وكانت ولايته سنة ٢٩٢

وفى عهده تولى إفريقية من الأغالبة زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب وهو آخر أمراء هذا البيت وكانت ولايته سنة ٢٩٠

وكان أمير مصر على عهده شيبان بن أحمد بن طولون وهو آخر الأمراء من هذا البيت

وكان الأمير على زبيد من آل زياد زياد بن إبراهيم بن محمد (٢٨٩ — ٢٩١) ثم أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم

وكان الأمير من آل سامان بالمشرق إسمعيل بن أحمد (٢٧٩ — ٢٩٥) ثم أحمد بن إسمعيل (٢٩٥ — ٣٠١)

ويعاصره فى بلاد الروم لاون السادس الملقب بالفيلسوف وفى فرنسا شارل الثالث الملقب بالساذج

وزراء المكتفي

لما استخلف المكتفي أبقى فى الوزارة وزير أبيه القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب تدبر الأمور على ما كانت فى زمن المعتضد واستمر فى الوزارة عظيما مهيبا إلى أن توفى سنة ٢٩١

فاستوزر المكتفي بعده العباس بن الحسن

الأحوال فى عهده

انتكست البلاد فى عهد المكتفي بعد أن كانت ابتدأت تنتعش فى عهد أبي أحمد الموفق وعهد ابنه المعتضد فقد ابتدأت ولايته بظهور المنافسات بين ذوى النفوذ من الدولة فكان أحدهم يكيد للآخر شركيد حتى يورده المهالك من غير نظر فى ذلك إلى ماتقتضيه مصلحة الأمة

ومما حصل مما يدل على ذلك أن بدرا غلام المعتضد كان يقود الجيش المحافظ فى اقليم فارس وكان بينه وبين وزير المكتفي القاسم بن عبيد الله مباعدة فلم يكن من الوزير إلا أن أرسل للقواد الذين مع بدر بفارس يأمرهم بالمسير إليه ومفارقة بدر ففعلوا ولما رأى ذلك بدر انصرف إلى واسط فلما بلغ الخليفة انصرافه وكل بداره وقبض على جماعة من غلمانه وقواده فحبسوا وأمر بمحو اسمه من التراس والأعلام كلها وكان عليها (أبو النجم مولى المعتضد بالله) وذلك كله حصل باغراء الوزير وتخويفه الخليفة من غدر بدر.

أراد الوزير بعد ذلك استعمال الحيلة فى القبض على بدر فدعا بأبي عمر محمد بن يوسف القاضى وأمره بالمضى إلى بدر ورفقائه وتطييب نفسه وإعطائه الأمان من أمير المؤمنين على نفسه وماله وولده فذهب إليه القاضى ودفع إليه الأمان فاستقر الأمر بينهما على أن بدرا يدخل بغداد سامعا مطيعا وأمر غلمانه أن ينزعوا سلاحهم وأن لايحاربوا أحدا وبينما هو يسير فى الحراقة إذ وافاه محمد بن إسحاق بن كنداج فى شذا فلما قاربه تحول إلى الحراقة وطيب نفس بدر ثم ورد عليه فى ذلك الحين أحد غلمان السلطان فى طيار فأخذه من الحراقة حتى صار به إلى جزيرة فى الصافية فأخرجه إليها

وقتله وتسلم السلطان ضياعه ومستغلاته ودوره وجميع ماله

وكان بهذا العمل الخزى للقاضى الذى توسط فى أمر لم يكن قادرا على تنفيذه وقد كانت العامة تدرك ما فى الاخلال بالعهود والمواثيق من المعرة حتى قال أحد الشعراء يذم القاضى على فعلته

قل لقاضى مدينة المنصور ٭ بم أحللت أخذ رأس الأمير
بعد إعطائه المواثيق والعهد وعقد الأيمان فى منشور
أين أيمانك التى شهد الله على أنها يمين فجور
أن كفيك لاتفارق كفيه إلى أن ترى مليك السرير
ياقليل الحياء ياأ كذب الأمة ياشاهدا شهادة زور
ليس هذا فعل القضاة ولا يحسن أمثاله ولاة الجسور
أى أمر ركبت فى الجمعة الزهراء من شهر خير الشهور
قد مضى من قتلت فى رمضان ٭ صائما بعد سجدة التعفير
يابنى يوسف بن يعقوب أضحى ٭ أهل بغداد منكم فى غرور
بدد الله شملكم وأرانى ٭ ذلكم فى حياة هذا الوزير
فأعد الجواب للحكم العا ٭ دل من بعد منكر ونكير
أنتم كلكم فداء لأبى حا ٭ زم المستقيم كل الأمور

والذى هاج الناس من هذا الأمر أنهم لم يكونوا يتوقعون من القضاة الذين ينفذون فيهم شريعة الاسلام أن يكونوا عونا على الغدر وعدم احترام الأيمان .

كانت تلك الحال سببا لازدياد أمر القرامطة واضطرام نيرانهم فى الشام والعراق والبحرين وطريق مكة

لما رأى داعيتهم زكرويه أن أهل السواد لايغنون عن أنفسهم سعى لاستغواء أعراب الكوفة من أسد وطيء وتميم وغيرهم إلى رأيه فلم يستجيبوا وكانت جماعة من كلب تخفر الطريق على البر بالسماوة بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر وتحمل الرسل وأمتعة التجار على إبلها فأرسل زكرويه أولاده إليهم فبايعوهم وخالطوهم وانتموا إلى على بن أبى طالب فقبلوهم على ذلك ثم دعوهم إلى رأى القرامطة فقبل ذلك منهم أحد أفخاذهم فبايعوا فى آخر سنة ٢٨٩ يحيى بن زكرويه ولقبوه الشيخ

وزعم لهم أن بالسودان والمشرق مائة ألف تابع ومخرق لهم حتى اعتقدوه وأطاعوه فقصدهم سبك الديلمي مولى المعتضد بناحية الرصافة غربي ديار مضر فاغتروه وقتلوه وحرقوا مسجد الرصافة واعترضوا كل قرية اجتازوا بها حتى أصعدوا إلى أعمال الشام التي كانت في حوزة هارون بن خمارويه ويليها من قبله طغج بن جف فهزم القرمطي كل جيش وجهه إليه طغج حتى حصره في مدينة دمشق فأنفذ إليه المصريون بدرا الكبير غلام أحمد بن طولون فاجتمع مع طغج على حربه فواقعهم قريبا من دمشق وقتل في الواقعة يحيى القرمطي ثم دارت الدائرة على المصريين فانحازوا وولى القرامطة عليهم الحسين بن زكرويه أخا يحيى فأظهر شامة في وجهه وزعم أنها آية له فلقب ذا الشامة وظهر على المصريين وعلى جند حمص وغيرها من أرض الشام وتسمى بأمرة المؤمنين على منابرها — كان ذلك كله في سنتي ٢٨٩ و ٢٩٠

وكان يكثر القتل في كل بلد دخلها إلا من اتقت شره بصلحه والدخول في أمره وكان لا يترك أحدا حتى صبيان المكاتب ومن البلدان التي لم يبق بها أحدا سلمية

توالت كتب أهل الشام إلى الخليفة ببغداد يشكون مما ألم بهم من ذي الشامة من القتل والسبي وتخريب البلاد فلم ير بدا من الخروج بنفسه إلى الشام فتأهب وسار إلى الشام وجعل طريقه على الموصل وقدم بين يديه أبا الأغر في عشرة آلاف فارس فنزل أبو الأغر قريبا من حلب فكبسهم القرمطي فقتل منهم خلقا كثيرا وسلم أبو الأغر فدخل حلب في ألف رجل فتبعه القرمطي إلى حلب فحاربه أبو الأغر بمن بقي معه من أهل البلد فرجع عنهم

سار المكتفي حتى نزل الرقة وسير الجيوش إليه وجعل أمرها إلى محمد بن سليمان الكاتب فسار محمد حتى صار بينه وبين حماه ١٢ ميلا فالتقوا بأصحاب القرمطي فالتحمت الحرب بين الفريقين واشتدت فهزم أصحاب القرمطي وقتلوا وأسر من رجالهم بشر كثير وتفرق الباقون في البوادي وتبعهم أصحاب السلطان . ولما رأى القرمطي ما نزل بجنده حمل أخا له مالا وتقدم إليه أن يلحق بالبوادي إلى أن يظهر في موضع فيسير إليه وركب هو في ثلاثة معه وسار يريد الكوفة عرضا في البرية حتى انتهى إلى موضع نفد معه زاده وعلفه فوجه بعض من كان معه إلى موضع يعرف بالدالية من أعمال طريق الفرات فلما دخلها أنكر زيه وسئل عن أمره فتجمج ثم

أقر أن ذا الشامة معه فخرج متولى المسلحة بتلك الناحية وقبض عليه وعلى من معه فساروا به إلى المكتفى وفى ٢٦ محرم سنة ٢٩١ أدخل الرقة مشهرا ثم حمل إلى بغداد وعقب ذلك أقبل محمد بن سليمان بجنده وبالأسرى الذين أخذهم من القرامطة وهم نيف وسبعون أسيرا فأعدموا كلهم ونظفت النواحي الشامية من هذه الفرقة المنكرة إلا أن ذلك لم يكن مبيدا للمذهب القرمطى فان والد يحيى ذا الشامة لم يزل على قيد الحياة وهو زكرويه رأس الفتنة

لما بلغه مقتل ذى الشامة أنفذ رجلا كان معلما القرآن باحدى القرى اسمه عبد الله بن سعيد فتسمى نصرا ليعمى أمره فدار على أحياء كلب يدعوهم إلى رأيه فساعده رجل اسمه مقدام واستغوى له طوائف من أعراب البادية فذهب بهم إلى جهات الشام فأغار على مدينتى بصرى وأذرعات فحارب أهلها ثم أمنهم فلما استسلموا قتلهم وسبى ذراريهم واستصفى أموالهم ثم سار يوم دمشق فغلب مقاتلها ولكنه لم يطمع فى دمشق لدفاع أهلها عنها . ولما علم الخليفة بفعله أنفذ إليه الحسين ابن حمدان فورد دمشق وقد دخل القرامطة طبرية فلما اتصل بهم خبره عطفوا نحو السماوة وتبعهم الحسين فى برية السماوة وهم ينتقلون من ماء إلى ماء فلما أوغلوا انقطع عنهم . أما هم فأسروا إلى هيت فصبحوها وأهلها غارون فنهبوا نعمها وقتلوا من قدروا عليه من أهلها ثم رحل عنها إلى البرية فأرسل إليهم الخليفة محمد بن إسحاق فى جيش وأمر الحسين بن حمدان أن يصمد نحوهم . ولما علم بنو كلب بتوجه هذه الجيوش إليهم عمدوا إلى نصر فقتلوه وتقربوا برأسه إلى السلطان وأظهروا الخضوع فعفا عنهم أما بقية القرامطة فانحازوا إلى البادية .

ولما بلغ زكرويه كل ذلك أرسل إليهم داعية بدل نصر اسمه القاسم بن أحمد وواعدهم أن يوافوه بالكوفة ليغيروا عليها يوم النحر من سنة ٢٩٣ فامتثلوا أمره ووافوا باب الكوفة منصرف الناس من صلاة العيد وعددهم نحو ٨٠٠ رجل فأوقعوا بمن لحقوه من العوام وسلبوا جماعة وبادر الناس إلى الكوفة فدخلوها وتنادوا السلاح فنهض العامل بمن عنده من الجند وصاف القرامطة فهزمهم ثم بعث يطلب نجدة من بغداد فأرسل من هناك جند لمحاربة القرامطة بجهة القادسية ولكن هذا الجند لم يحافظ على خط رجعته فجاءته القرامطة من خلفه فانهزم أقبح هزيمة

واحتوى القرامطة على مافى معسكرهم فأخذوه وصارت لهم به قوة ثم أرسلوا إلى زكرويه فاستخرجوه من مخبئه فسار معهم وهو محتجب يدعونه السيد ولا يبرزونه والقاسم يتولى الأمور دونه ويمضيها وجعلوا مقر أعمالهم الصحراء.

ومن أخبث مافعلوه فى سنة ٢٩٤ أنهم أغاروا على قوافل الحج الآيبة من مكة إلى المشرق خراسان والعراق فلم يتركوا من هؤلاء الحجاج من يخبر بخبر وأخذوا من الأموال شيئا عظيما وورد خبر ذلك إلى بغداد فعظم الأمر على الناس وعلى السلطان فاهتم الوزير بالأمر وندب اليهم جيشا عظيما ذهب اليهم فى جادة مكة وقاتلهم فقتل منهم كثيرا وأسر زكرويه وخليفته وجماعة من خاصته واحتوى الجند على مافى معسكره وعاش زكرويه بعد الواقعة خمسة أيام ثم مات والذين هربوا من القرامطة لقيهم الحسين بن حمدان فأوقع بهم

ولنذكر هنا نص كتابين أحدهما من ذى الشامة إلى عامل من عماله والثانى من عامل إلى ذى الشامة ليتضح لنا كيف كان لسان هؤلاء القوم فى دعاويهم التى بها يستحلون سفك دماء الناس والسعى فى الأرض بالفساد.

الكتاب الأول — من عبد الله أحمد بن عبد الله المهدى المنصور بالله الناصر لدين الله القائم بأمر الله الحاكم بحكم الله الداعى إلى كتاب الله الذاب عن حرم الله المختار من ولد رسول الله أمير المؤمنين وإمام المسلمين ومذل المنافقين خليفة الله على العالمين وحاصد الظالمين وقاصم المعتدين ومبيد الملحدين وقاتل القاسطين ومهلك المفسدين وسراج المبصرين وضياء المستضيئين ومشتت المخالفين والقيم بسنة سيد المرسلين وولد خير الوصيين ﷺ وعلى أهل بيته الطيبين كثيراً ، إلى جعفر بن حميد الكردى سلام عليك فأنى أحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو وأسأله أن يصلى على جدى محمد رسول الله ﷺ أما بعد فقد انتهى إلينا ماحدث قبلك من أخبار أعداء الله الكفرة وما فعلوه بناحيتك وأظهروه من الظلم والعيث والفساد فى الأرض فأعظمنا ذلك ورأينا أن ننفذ إلى ماهناك من جيوشنا من ينتقم الله به من أعدائه الظالمين الذين يسعون فى الأرض فسادا وأنفذنا عطيرا داعيتنا وجماعة من المؤمنين إلى مدينة حمص وأمددناهم بالعساكر ونحن فى أثرهم وقد أوعزنا اليهم فى المصير إلى ناحيتك لطلب أعداء الله حيث كانوا ونحن نرجو أن يجرينا الله فيهم على أحسن عوائده

عندنا فى أمثالهم فينبغى أن تشد قلبك وقلوب من معك من أوليائنا وتثق بالله وبنصره الذى لم يزل يعودناه فى كل من مرق عن الطاعة وانحرف عن الايمان وتبادر الينا بأخبار الناحية وما يتجدد فيها ولا تخف عاشيئا من أمرها ان شاء الله سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على جدى محمد رسول الله وعلى أهل بيته وسلم كثيرا

الكتاب الثانى — بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله أحمد الامام المهدى المنصور بالله — ثم الصدر كله على مثال صدر نسخة كتابه إلى عامله — ثم بعد ذلك من عامر ابن عيسى العنقانى سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته أما بعد أطال الله بقاء أمير المؤمنين وأدام الله عزه وتأييده ونصره وسلامته وكرامته ونعمته وسعادته وأسبغ نعمه عليه وزاد فى إحسانه إليه وفضله لديه فقد كان وصل كتاب سيدى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يعلمنى فيه ما كان من نفوذ بعض الجيوش المنصورة مع قائد من قواده إلى ناحيتنا المجاهدة أعداء الله بنى الفصيص والخائن ابن دحيم وطلبهم حيث كانوا والايقاع بهم وبأسبابهم وضياعهم ويأمرنى أدام الله عزه عند نظرى فى كتابه بالنهوض فى كل من قدرت عليه من أصحابى وعشائرى للقائهم ومكاتفة الجيش ومعاضدتهم والمسير بسيرهم ولعمد كل ما يومون إليه ويأمرون به ونهمته ولم يصل إلى هذا الكتاب أعز الله أمير المؤمنين حتى وافت الجيوش المنصورة فنالت طرفا من ناحية ابن دحيم وانصرفوا بالكتاب الوارد عليهم من مسرور بن أحمد الداعية ليلقوه بمدينة أفامية ثم ورد على كتاب مسرور بن أحمد فى درجة الكتاب الذى اقتصصت ما فيه فى صدر كتابى هذا يأمرنى فيه بجمع من تهيأ من أصحابى وعشيرتى والنهوض إلى ما قبله ويحذرنى التخلف عنه وكان ورود كتابه على وقت صح عندنا نزول المارق سبك عبد مفلح مدينة عرقة فى زهاء ألف رجل ما بين فارس وراجل وقد شارف بلدنا وأطل على ناحيتنا وقد وجه أحمد بن الوليد عبد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه إلى جميع أصحابه ووجهت إلى جميع أصحابى فجمعناهم إلينا ووجهنا العيون إلى ناحية عرقة لنعرف أخبار هذا الخائن وأين يريد فيكون قصدنا ذلك الوجه ونرجو أن يظفر الله به ويمكن منه بمنه وقدرته ولولا هذا الحادث ونزول هذا المارق فى هذه الناحية وإشرافه على بلدنا لما تأخرت فى جماعة أصحابى عن النهوض إلى مدينة

أفامية لتكون يدى مع أيدى القواد المقيمين لجاهدة من بتلك الناحية حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين وأعلمت سيدى أمير المؤمنين أطال الله بقاءه السبب فى تخلفى عن مسرور بن أحمد ليكون على علم منه ثم إن أمرنى أدام الله عزه بالنفوذ إلى أفامية كان نفوذى برأيه وامتثلت ما يأمرنى به إن شاء الله أتم الله على أمير المؤمنين نعمه وأدام عزه وسلامته وهنأه كرامته وألبسه عفوه وعافيته والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد النبى وعلى أهل بيته الطاهرين الاخيار.

هكذا ضعف سلطان هذه الطائفة بالعراق بعد قتل زكرويه وأولاده وقتل أكثر دعاتهم ولكن قد بقى ذنب الأفعى وهو الجنابى بالبحرين ولم يكن له فى عهد المكتفى كبير عمل وإنما كانت مصائبه ورزاياه فى عهد المقتدر وسنبين ذلك فى حينه

خبر المشرق

انتظمت بلاد خراسان وماوراء النهر لاسماعيل بن أحمد السامانى وكان رجلا عاقلا مدبرا ذا عزيمة ثابتة ولم يزل أمره على ماهو عليه والمكتفى راض عنه حتى توفى سنة ٢٩٥ فولى بعده ابنه أحمد بن اسماعيل وعقد له المكتفى بيده لواء وأرسله اليه.

خبر المغرب

وفى عهد المكتفى انقرضت دولتان إحداهما دولة بنى طولون بمصر على يدى العباسيين وآخر أمرائها شيبان بن أحمد بن طولون سنة ٢٩٢ والثانية دولة الأغالبة بافريقية انتهت على أيدى أبى عبد الله الشيعى داعية الفاطميين بالمغرب.

العلاقات مع الروم

كانت العلاقات فى أول الأمر حسنة مع ملك الروم حتى أنه تبودلت الهدايا بين الملكين.

وفى سنة ٢٩٠ وردت رسل صاحب الروم يسألون المكتفى المفاداة بمن فى أيدى المسلمين من الأسرى ومعهم هدايا فأجيبوا إلى طلبهم ولم يتم هذا الفداء إلا سنة ٢٩٣ فكان جملة من فودى به من المسلمين نحو ١٢٠٠ وكان المتولى للفداء أمير الثغور

رستم بن برد ولم تستمر العلاقات حسنة

ففي سنة ٢٩١ سار جيش إسلامي من طرسوس وصمد نحو أنطاكية ففتحها بالسيف عنوة وهي من أهم مدن الروم وثغورهم البحرية وقد قتل في فتحها نحو ٥٠٠٠ من الروم وأسر مثلهم واستنقذ من أسارى المسلمين مثل ذلك وأخذوا من الروم ستين مركبا فحملت فيها الغنائم من الأموال والمتاع والرقيق وقدر نصيب كل رجل ألف دينار وغزا من المسلمين أمير الثغور رستم مرتين وبلغ في غزاته الثانية سلندوا ففتحها وصار إلى آلس فأسر من الروم عددا كبيرا وغزا ابن كيغلغ من طرسوس

وفي سنة ٢٩٤ استأمن إلى السلطان بطريق اسمه أندرونقس وكان على حرب أهل الثغور من قبل ملك الروم فأجيب طلبه وأخرج نحوا من مائتي نفس من المسلمين كانوا أسرى في حصنه وكان ملك الروم قد وجه من يقبض عليه فأعطى المسلمين الذين كانوا أسرى في حصنه السلاح وأخرج معهم بعض بنيه فكبسوا البطريق الموجه إليه للقبض عليه ليلا وقتلوا ممن معه خلقا كثيرا وغنموا مافي معسكرهم. وكان رستم قد خرج في أهل الثغور في جمادى الأولى قاصدا أندرونقس ليتخلصه فوافى رستم قونية بعقب الواقعة وعلم البطارقة بمسير المسلمين إليهم فانصرفوا ووجه أندرونقس ابنه إلى رستم ووجه رستم كاتبه وجماعة من البحريين فباتوا في الحصن فلما أصبحوا خرج أندرونقس وجميع من معه من أسرى المسلمين ومن صار إليهم منهم ومن وافقه على رأيه من النصارى وأخرج ماله ومتاعه إلى معسكر المسلمين وضرب المسلمون قونية ثم قفلوا إلى طرسوس هم وأندرونقس وأسارى المسلمين ومن كان مع أندرونقس من النصارى وقد وصل هذا البطريق إلى بغداد فأكرم

وحصل في آخر عهد المكتفي مفاداة ثانية تمت سنة ٢٩٥ وكان عدة من فودي به من الرجال والنساء ثلاثة آلاف نفس

وفاة المكتفي

توفي المكتفي في ١٢ ذي القعدة سنة ٢٩٥

١٨ — المقتدر

هو جعفر المقتدر بالله بن المعتضد بن أبي أحمد بن المتوكل وهو أخو المكتفى وأمه ام ولد اسمها شغب ولد سنة ٢٨٢ وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه ولم يزل خليفة إلى أن قتل فى ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ (١ نوفمبر سنة ٩٣٢) فتكون مدته ٢٤ سنة و١١ شهراً و١٦ يوما

وكان يعاصره فى الأندلس عبد الله بن محمد إلى سنة ٣٠٠ ثم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٣٥٠ وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين من بنى أمية بالأندلس

ويعاصره بأفريقية عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين بالمغرب (٢٩٧ - ٣٢٢)

ويعاصره فى بلاد الروم لاون السادس ثم أخوه الاسكندر بن بسيل (٩١١ - ٩١٢) ثم قسطنطين السابع بن لاون السادس وكانت تدبره أمه زوا ثم رومانس الأول الأرمنى الذى اغتصب الملك سنة ٩١٩ ولم يبق لقسطنطين إلا الاسم وشارك رومانس فى الملك أبناؤه خريستوف واسطفانس وقسطنطين أحدهم بعد الآخر وتصرف به تصرف مالك ٢٥ سنة إلى سنة ٩٤٤ فأغرى قسطنطين السابع ابنى رومانس وهما اسطفانس وقسطنطين الثامن بالمناصبة لأبيهما فثارا به وثلا عرشه وحبساه فى دير حيث مات سنة ٩٤٨ وعاد قسطنطين السابع إلى ملكه سنة ٩٤٥ حيث مات مستبدا به إلى سنة ٩٥٩ حيث مات مسموما على مايقال

ويعاصره فى فرنسا شارل الثالث الملقب بالساذج ثم روبرت الأول (٩٢٢ - ٩٢٣) ثم راوول من أقارب الكاباسيان (٩٢٣ - ٩٦٢)

ويعاصره فى خراسان وماوراء النهر أحمد بن إسماعيل بن أحمد السامانى

كيف انتخب

لما ثقل المكتفى كان فى منصب الوزارة العباس بن الحسن ففكر فيمن يتولى الخلافة بعده لأنه لم يكن ولى أحدا العهد فى صحته وكان من عادة الوزير أن يسايره إذا ركب واحد من هؤلاء الأربعة الذين يتولون الدواوين وهم أبو عبد الله محمد بن

داود بن الجراح وأبو الحسن محمد بن عبد الله وأبو الحسن على بن محمد بن الفرات وأبو الحسن على بن عيسى فاستشار الوزير يوما محمد بن داود بن الجراح فى ذلك فأشار بعبدالله بن المعتز ووصفه بالعقل والأدب والرأى واستشار بعده أبا الحسن بن الفرات فقال هذا شىء ماجرت به عادتى أن أشير فيه وإنما أشاور فى العمال لا فى الخلفاء فغضب الوزير وقال هذه مقاطعة باردة وليس يخفى عليك الصحيح وألح عليه فقال إن كان رأى الوزير قد استقر على أحد بعينه فليفعل فعلم الوزير أنه يعنى ابن المعتز لاشتهار خبره فقال لا اقنع إلا أن تمحضنى النصيحة فقال ابن الفرات فليتق الله الوزير ولا ينصب إلا من قد عرفه واطلع على جميع أحواله ولا ينصبه بخيلا فيضيق على الناس ويقطع أرزاقهم ولا طماعا فيشره فى أموالهم فيصادرهم ويأخذ أموالهم وأملاكهم ولا قليل الدين فلا يخاف العقوبة والآثام ويرجو الثواب فيما يفعله ولا يولى من عرف نعمة هذا وبستان هذا وضيعة هذا وفرس هذا ومن قد لقى الناس ولقوه وعاملهم وعاملوه ويتخيل ويحسب حساب نعم الناس وعرف وجوه دخلهم وخرجهم فقال الوزير صدقت ونصحت فبمن تشير قال أصلح الموجودين جعفر بن المعتضد فقال ويحك هو صبى قال ابن الفرات إلا أنه ابن المعتضد ولم نأت برجل كامل يباشر الأمور بنفسه غير محتاج إلينا . فمالت نفس الوزير إلى مشورة ابن الفرات وانضاف إلى ذلك وصية المكتفى فانه أوصى لما اشتد مرضه بتقليد أخيه جعفر الخلافة فلما مات المكتفى اختار الوزير جعفرا للخلافة بالاتفاق مع صافى الحرمى ولقب المقتدر بالله وسنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة

وكأن ذلك لم يرق للناس لصغر سن المقتدر فاجتمع القواد والقضاة والكتاب مع الوزير العباس بن الحسن واتفقوا على خلع المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز فراسلهم فى ذلك فأجابهم على ألا يكون فيه سفك دم ولا حرب فأخبروه باجتماعهم عليه وأنه ليس لهم منازع ولا محارب وكان رأس هذا التدبير الوزير ومحمد بن داود ابن الجراح وأحمد بن يعقوب القاضى ومن القواد الحسين بن حمدان وبدر الأعجمى ووصيف بن صوارتكين ثم إن الوزير أراد الانفصال عنهم لأنه رأى حاله صالحا مع المقتدر وأنه على مايحب فقام عليه الآخرون فقتلوه قتله الحسين بن حمدان وبدر ووصيف فى ٢٠ ربيع أول سنة ٢٩٦ وفى غده خلعوا المقتدر وبايعوا لابن المعتز

وحضر البيعة الناس والقوادو أصحاب الدواوين سوى أبي الحسن بن الفرات وخواص المقتدر و كتبت الكتب بذلك إلى العمال ووجه المقتدر يأمره بالانتقال من دار الخلافة فأجابه بالسمع والطاعة وسأل الامهال إلى الليل . ولم يكن بقي مع المقتدر من القواد إلا مؤنس الخادم ومؤنس الخازن وغريب الخال وحاشية الدار . فلما هم المقتدر بالانتقال قال بعضهم لبعض لا نسلم الخلافة من غير أن نبلي عذرا ونجتهد في دفع ما أصابنا فأجمع رأيهم على أن يصعدوا في الماء إلى الدار التي فيها ابن المعتز ويقاتلوه وعاونهم المقتدر بالسلاح والزرديات وغير ذلك فركبوا في السميريات وأصعدوا في الماء فلما رآهم من عند ابن المعتز هالهم كثرتهم واضطربوا وهربوا على وجوههم من قبل أن يصلوا إليهم . وكان قد حصل قبل ذلك أن الحسين بن حمدان فارق بغداد بأهله وتركهم في هذا المأزق ولا يدرى لم فعل ذلك

فلما رأى ابن المعتز هذه الحال ركب ومعه وزيره الذي اختاره أو اختير له وهو محمد بن داود وهربا وغلام له ينادي يامعشر العامة ادعوا لخليفتكم السني البربهاري (ينسبونه إلى الحسين بن القاسم بن عبيد الله البربهاري مقدم الحنابلة وأهل السنة وللعامة فيه اعتقاد فأرادوا من تلك النسبة استمالتهم بهذا القول) سار ابن المعتز على هذه الصفة نحو الصحراء ظنا منهم أن من بايع ابن المعتز من الجند يتبعونه فلم يلحقه منهم أحدا ولما رأوا ذلك اختفى محمد بن داود في بيته ونزل ابن المعتز عن دابته ومعه غلامه وانحدر إلى دار أبي عبد الله بن الجصاص فاستجار به واستتر أكثر من بايع ابن المعتز ووقعت الفتنة والنهب والقتل ببغداد وثار العيارون والسفل ينهبون الدور لأن صاحب الشرطة كان ممن بايع ابن المعتز فهرب أيضا

في ذلك الوقت خرج المقتدر بالعسكر وقبض على كل من كان لهم يد في بيعة ابن المعتز فقتلهم وأرسل إلى ابن الفرات فاستوزره . ثم عثر على ابن المعتز فأخذ وحبس إلى الليل وعذب حتى مات وأخذ وزيره محمد بن داود فقتل ثم أرسل خلف الحسين ابن حمدان فلم يدرك وأخيرا رضى عنه المقتدر فحضر إلى بغداد مرضيا عنه

وانتهت بذلك هذه الفتنة التي بها ابتدأ ضعف الخلافة وسقوط هيبتها واشتد الانتكاس في عهد المقتدر حتى لم يعد للخلافة أدنى سلطان ولا احترام فان المقتدر حين ولي كان شابا غرا لا يعرف من السياسة ولا من الشجاعة شيئا

وكانت له أم وقهرمانة صارلهما الحكم فى كل مايجرى من الشؤون وإليهما يتقرب بالرشوة من يريد عملا أووزارة والمقتدر لاه بماهو فيه من اللعب واللهو والسرف لايفكر فى صلاح ولم يعد بيده شيء . ولتصور لكم الحال تماما نبدأ بذكر الوزراء أيام دولته وكيف كانوا ينالون الوزارة وكيف كان يفعل بهم إذا قدمت رشوة ممن يريد أن يحل محلهم

كان أول وزرائه أبوالحسن على بن محمد بن موسى بن الفرات استوزره يوم الأحد لعشر بقين من شهر ربيع الأول سنة ٢٩٦ فنظر فى الأمور نظر جد واهتمام وأمر جماعة من القواد بطواف البلد ليلا والايقاع بأهل الدعارة ومن يرونه متعرضا لنهب دار وأخذ مال وعلى يد ابن الفرات كانت عقوبات جميع من خرجوا مع ابن المعتز فصادر من صادر وقتل من قتل وكان ممن دخل فى هذه الفتنة أبوعمر محمد بن يوسف القاضى فأخذ فيمن أخذ وحضر أبوه يوسف وهو شيخ كبير مجلس ابن الفرات وبكى بين يديه بكاء شديدا رق له منه وسأله حراسة نفس ولده أبى عمر والتصدق عليه به فقال الوزير الجناية عظيمة ولايمكن تخليته إلا بمال جليل يطمع الخليفة فيه من جهته فبذل يوسف أن يفقر نفسه وابنه طلبا لبقائه وتلطف ابن الفرات فيما قاله للمقتدر وقرر أمر أبى عمر على مائة ألف دينار فأدى منها تسعين ألفا من جملتها ٤٥ ألفا كانت عنده وديعة للعباس بن الحسن وأمره ابن الفرات بعد ذلك بملازمة داره وألا يخرج منها لئلا يجعل له حديث مجدد

مضى ابن الفرات فى وزارته هذه ثلاث سنين وثمانية أشهر وأربعة عشر يوما اختلفت عليه الأمور فيها وحدثت الحوادث وحضر عيد النحر من سنة ٢٩٨ فاحتيج فيه من النفقات إلى ماجرت العادة به وكانت المواد قد قصرت والمؤن قد تضاعفت وطلب المقتدر أن يعطيه من بيت مال الخاصة مايصرفه فى نفقات هذا العيد فمنعه من ذلك وألزمه القيام به من جهته فوجد بذلك أعداؤه الطريق إلى الوقيعة فيه

فركب فى يوم الأربعاء لأربع خلون من ذى الحجة إلى دار الخلافة وهو على غاية السكون والطمأنينة وجلس فى الموضع الذى كان يجلس فيه قبل الوصول إلى السلطان فقبض عليه وعلى كاتبه ومضى القواد للقبض على أسبابه وكتابه فقبضوا عليهم وصار مؤنس الخادم إلى دار الوزارة فوكل بها وأنفذ يلبق إلى دار ابن الفرات فأحاط

عليها وتسرع الجند والعوام إلى دور أولاده وأهله فنهبوها وأخربوها وأخذوا ساجها وسقوفها وعظم الأمر فى النهب حتى ركب أبو القاسم فى الحال بعد العصر فى القواد والغلمان وطلب النهابة وعاقب قوما منهم فقامت الهيبة وسكنت الفتنة وأحضر الوزير الثانى

محمد بن عبيد الله بن خاقان

فقلد الوزارة وقبض ما كان لابن الفرات من الضياع والأقطاع والأملاك والعقار والأموال والغلات وصح له ما مقداره ألف ألف دينار عينا وستمائة ألف دينار سوى الأثاث والرحل والكراع والجمال

تولى ابن خاقان فبدأ وزارته بالمصادرات والمضايقات يريد بذلك سد حاجة الخليفة حتى لايقع فيما وقع فيه سلفه وحول من بيت مال الخاصة إلى بيت مال العامة ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار على سبيل القرض ولم يؤد من عوض ذلك سوى أربعين ألف دينار وكان فى ابن خاقان إهمال للأمور واطراح للأعمال وتلون فى الأفعال فكانت الكتب ترد عليه وتصدر جواباتها عنه من غير أن يقف عليها أو يأمر بشىء فيها وإذا أخرجت اليه جوامعها تركها أياما فلم يطالعها وربما وردت رسائل بحمول وكتب فيها سفاتج بمال فتبقى أياما لاتفض وإذا قلد عاملا أتبع بمن يعزله قبل وصوله إلى عمله وأتبع الصارف بمن يصرفه فقيل إنه اجتمع فى خان بحلوان سبعة أنفس وقد قلد كل واحد منهم ماه الكوفة فى عشرين يوما وبالموصل خمسة قد قلدوا قردى وبازبدى وأنهم اجتمعوا وتشاكوا ما دفعوا اليه وخرج عن أيديهم من نفقاتهم وما بذلوه عن تقليدهم على أن ينالوا من مال العمل ما قدموه وأنفقوه واستظهروا لنفوسهم به وخاوا العمل على آخر من ورد من الناحية

وكان اذا سئل حاجة دق صدره بيديه وقال نعم وكرامة حتى لقب دق صدره وبسط يده وأيدى أولاده وكتابه بالتوقيعات بالصلات والاطلاقات والاقطاعات والتسويغات وتخفيف الطسوق والمعاملات وأخذ المرافق على إضاعة الحقوق واسقاط الرسوم فسخفت الوزارة وأخلقت الهيبة وزادت الحال فى خلال الأعمال ووقوف الأحوال وقصور المواد وتضاعف الاستحقاقات واشتداد المطالبات وشغب الجند

شغباً بعد شغب وتسحبوا على السلطان تسحباً بعد تسحب وأخرج اليهم من بيت مال الخاصة شيئاً بعد شيء . حتى إذا انحل النظام وبان الانتشار وتصور المقتدر الصورة فيما تطرق من الوهن على المملكة شاور مؤنسا الخادم فيمن يقلده الوزارة فاستقر الأمر على وزارة :

علي بن موسى

وكان بمكة بعيدا عما يجرى ببغداد خوفا على نفسه فأنفذ اليه فلما حضر قلد الوزارة فى عاشر محرم سنة ٣٠١ فكانت مدة سلفه سنة واحدة وشهرا وخمسة أيام فسلم إلى الوزير الجديد هو وولداه وأبو الهيثم بن ثوابة ولما نظر على فى الأمور وجد فى أيدى القواد والحاشية والرعية توقيعات كثيرة بخط ابن خاقان وخط ابنيه وكتابه فى فك واثبات وتقرير وإيجاب ومظالم وتسويغات واقطاعات ومقاطعات مما مثله يأتى على ارتفاع المملكة وقد كان الخاقانى أذن لهذه الجماعة فى التوقيع عنه بكل ما رأوه وكانوا على فاقة وضغطة وخروج من نكبة وعطلة وغرضهم الارتفاق وأخذ مالاح . تأمل على بن عيسى هذه التوقيعات فأسقطها وكان منها ماثبت فى الدواوين ومالم يثبت وعمل على إعلام المقتدر ماعلى الملك وبيت المال من الوهن والنقص بامضائها فقال له أحد خلصائه لاتفعل فان الخليفة على ماتعرفه من التدبر بآراء النساء والقبول من الحاشية وأكثر هذه التوقيعات لهم وللمتعلقين عليهم والملتجئين اليهم فاعدل إلى أن تنظر ماقد أنشىء الكتاب به من ديوان الدار إلى أصحاب الدار فتمضيه وما كان بخلاف ذلك أبطلته فانك تمضى القليل وتبطل الكثير وتأمن عداوة الناس ومتى استأذنت الخليفة لم تأمن أن يأمرك بامضائها كلها فتقع فى الطويل العريض — فلم يقبل ومضى فطالع المقتدر بالصورة واستأمره فى إسقاط التوقيعات وقد كان الحواشى سبقوا اليه بالشكوى فقال له ارجع إلى الخاقانى وابنه فما عرفاك أنه بتوقيعهما أمضيته وما كان بتوقيع أصحابهما رددته . فأمر بجمع الرقاع وأنفذت إلى الخاقانى وابنه فى السجن فأقر الخاقانى بصدور كلها عن إذنه فقامت قيامة على بن عيسى من ذلك الجواب واضطر إلى امضاء الأكثر وإسقاط من استضعف صاحبه واستلان جانبه ولم تكن له جهة يشفع له وعرف الحاشية ذلك وشكروا للخاقانى وتعصبوا له وقاموا بأمره كما سيجىء

كان علي بن عيسى رجلا عاقلا متدينا متصونا متعففا عارفا بالأعمال حافظاً للأموال كثير الوقار والجد بعيدا من التبذل والهزل على شح غالب فى طباعه وتجهم ظاهر فى أخلاقه وعمد فى نظره إلى تخفيف المؤن وحذف الكلف ونقص الخرج والمضايقة فى الجارى والرزق ورد كثيرا مما وقع به الخاقانى من الاثبات والزيادات فأوحش خواص المقتدر وعاداهم فكثرت السعاية عليه والوقيعة فيه واستثقل أكثر الناس موضعه وضاقت صدورهم بنظره ووقع الشروع فى إفساد أمره ورد ابن الفرات.

عرف الوزير ما يجرى من ذلك فبدأ بالاستعفاء وكان فيما كتب من رقاعه بذلك إلى السيدة أم المقتدر

بسم الله الرحمن الرحيم أطال الله بقاء السيدة وأدام عزها وتأييدها وكلاءتها وحراستها وأسبغ نعمه عليها وزاد فى إحسانه إليها ومواهبه الجميلة وآلائه الجزيلة وأقسامه الهنيئة وفوائده السنية عندها وبلغها فى سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وأدام له العز والتمكين والنصر والتأييد غاية محبتها وأفضل أمنيتها ووصل أيام سرورها بعافيته واغتباطها برؤيته ووقاها فيه وفى نفسها وفى الأمراء أستودعهم الله واستوهبه أيامهم كل سوء محظور ومخوف بمنه ورأفته وصلت الرقعة أعز الله السيدة وعرفت ما تضمنت فأما الفتنة التى كانت ملتحمة مع أعظم الأعداء مضرة وأقربهم محلة وأشدهم على المطالبة جرأة فقد تكافت الانفاق عليها وقمت بتدبيرها حتى بلغ الله أمير المؤمنين والسيدة فى جميعها المحبة وانتظمت فى صدور الأعداء شرقا وغربا الهيبة وما أنفقت مع ذلك من بيت مال الخاصة بعد الذى رددته إليه نصف عشر ما أنفقه محمد بن عبيد الله الخاقانى وابن الفرات قبله وأنا عامل بعون الله على رد ذلك عن آخره ومتى لم ينفق المعتضد بالله فى أسفاره على مائدة أعدائه من بيت مال الخاصة أضعاف هذه النفقة وقد أنفق المكتفى بالله وكان من النظر فى القليل اليسير على ما عرف به من بيت مال الخاصة جملة بعد جملة مع قلة النفقات فى أيام المعتضد بالله وما أقول قولا يدفع لأن الدواوين تشهد به وحسبانات بيوت الأموال تدل عليه ومؤنس خازن بيت مال الخاصة منذ أيام المعتضد بالله وإلى هذه الغاية يعلمه وإن سئل عنه صدق هذا مع رفقى بالرعية وعمارتى النواحى المختلة وإزالتى عنها كل ظلم ومؤونة حتى صارت أيام أمير المؤمنين أطال الله بقاءه منذ خدمته أيام الخير وفيها الآثار الموصوفة وامتلأت

قلوب الرعية هيبة بعد أن كانت تثب على الرؤساء وترمى بالحجارة على ماقيل لى عند اجتيازهم فى دجلة . وأما الاستحقاقات المتأخرة فلست أعرفها و بباب أمير المؤمنين الكبير من الغلمان والحاشية والفرسان والرجالة وماأحسب صنفا من هذه الأصناف يقدر أن يقول إنه قبض فى وقت من الأوقات قبضا متصلا وليس يقول أحدمنهم إنه دفع عن استحقاق ولا تأخرله شىء من رزقه ونزله كذلك الفرسان والعساكر الخارجة مع مؤنس وغيره مستوفية وأكثر من بالحضرة فهذه سبيلهم . وقد حضروا منذ مدة بباب العامة وطالبوا فأدخلت طائفة منهم و نوظرت فلم تكن لهم حجة فى الاستحقاقات وإنما التمسوا الزيادة والنظر والصلة وهذا خارج عن الواجب ولو منع بعضهم فلم يعط شيئا لكان ذلك واجبا صالحا ومتى كان الجند يوفون حتى لا يكون لهم شىء متأخر ما كان هذا فى زمن من الأزمان وما تركت أن قلت لسيدنا أمير المؤمنين أعزه الله فى ذلك ما يجب أن أقوله وخاطبت أم موسى مرة بعد مرة فيه وأما ماقيل للسيدة أعزها الله فى استعفائى فلم أستعف نصا ولو حملت الرماد على رأسى لما تكرهت ذلك ولا تأبيته وإنى لألزم نفسى الصبر على كل نائبة فى خدمة سيدنا أمير المؤمنين أيده الله وأرى ذلك ديانة ولكنى أعز الله السيدة أضجر كما يضجر الناس إذا خوطب بما لا يحب وأنا أبلغ جهدى فى النصيحة وتأدية الأمانة فان كان ذلك واقعا موقعه فهو الذى أقصد وإن كان يظن بى غير ما أنا عليه فهى المصيبة وقد يحرم الانسان ثمرة اجتهاده ويقع مايفعله على خلاف مذهبه واعتماده ومايسعنى ومايحل لى أن أؤخر الصدق فى جميع الأحوال قاضيا بذلك حق الله عز وجل وحق سيدنا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وحق السيدة أعزها الله وأسأل الله أولا وآخراً أن يصلح لها أمورهما ظاهراً و باطنا صغيرها و كبيرها ويكفيهما المهم ويسهل الصلاح بهما وعلى أيديهما بمنه وقدرته وجوده و كرمه .

وإنما كتبنا هذا الكتاب بطوله ليتبين كيف كان تداخل النساء فى سياسة المملكة أن على بن عيسى كان أحسن وزراء المقتدر وقد كان مما فعله فى وزارته هذه أن أسقط المكس بمكة والتكملة بفارس وسوق بحر الأهواز وحصن مهدى ونهر السدرة و كان يعترض فى هذه المواضع على مايجهز إلى البحر ويرد منه وتؤخذ الضرائب المسرفة عنه وأزال جباية الجهور بديار ربيعة وأشار على المقتدر بوقف

المستغلات بدار السلام وغلتها نحو ثلاثة عشر ألف دينار والضياع الموروثة بالسواد الجارية فى ديوان الخاصة وارتفاعها نيف وثمانون ألف دينار على الحرمين والثغور فقبل رأيه ونصب على بن عيسى لهذه الوقوف ديوانا سماه ديوان البر . ولما كان بمكة وجد الماء ضيقا على أهلها وعلى أصحاب السلطان يسخرون جمال الناس وحميرهم لنقله من جدة إليها فابتاع عددا كثيرا من الجمال والحمير ووقفها على حمل الماء وأقام لها العلوفة الراتبة ومنع من السخرة وحظرها وحفر بئرا عظيمة فخرجت عذبة شروبا وسماها الجراحية . وابتاع عينا غزيرة بألف دينار وفتحها ووسعها حتى كثر الماء بمكة ووصل الرفق به إلى أهل الضعف والمسكنة

ومع كل ما أجراه من الاصلاح فان حكومة النساء لم تتركه هادىء البال قرب عيد الأضحى واحتيج إلى ماجرت العادة باطلاقه للحرم فجاءته أم موسى القهرمانة فى آخر ذى القعدة مخاطبة فى ذلك ومقررة للأمر فيه وكان محتجبا فلم يأذن لها حاجبه واعتذر لها عذرا لطيفا وصرفها صرفا جميلا فغضبت وانصرفت وأعلم على بن عيسى خبرها فى حضورها وانصرافها فأنفذ إليها واستعذرها فلم تعذر وصارت إلى المقتدر بالله وإلى السيدة وأغرتهما به وتكذبت عندهما عليه وأدى ذلك إلى القبض عليه فى يوم الاثنين ثامن ذى الحجة سنة ٣٠٤ فكانت مدة وزارته ثلاث سنين وعشرة أشهر و ٢٨ يوما .

وفى يوم القبض عليه أطلق الوزير ابن الفرات وأعيد من محبسه إلى دست الوزارة ورد عليه المقتدر ما كان قبض عنه وعن أهله وكتابه وأسبابه من الضياع والأموال فارتجع ما كان حصل فى أيدى الناس القواد وخواص الدولة من ذلك

وكان قد تعهد وهو فى السجن أنه متى رد للوزارة أطلق للولد والحرم والخدم ومن بالحضرة من الفرسان برسم التغاريق مثل ما كان يطلقه فى وزارته الأولى تماما وإدرارا وأن يحمل إلى المقتدر كل يوم ألف دينار وإلى السيدة والأمراء ٥٠٠ دينار فوفى بما تعهده به

كان حامد بن العباس قد تضمن واسطا وضياعها بمال يخرجه ضمنه إياها على بن عيسى فلما وزر ابن الفرات كان يعلم أن حامد بن العباس يربح منها ربحا كثيرا فلما انتهت مدة ضمانه أراد أن يخرجها عنه إلى غيره وكان بواسط قسيم الجوهرى يشرف

للسيدة أم المقتدر على ضياعها بواسط ويكثر هناك المقام ويحضر عند حامد فيبسطه فاتفقا على أن قسيما يسفر له فى نيل الوزارة فذهب قسيم إلى بغداد وخاطب نصرا الحاجب فى ذلك وأطعمه فى حامد وملأ يده منه وعرفه سعة صدره وسخاء نفسه وضمن له منه تصحيح المال الكثير من ابن الفرات وأسبابه وراسل السيدة أيضا ووافق هذا القول والسعى سوء رأى نصر الحاجب فى ابن الفرات وخوفه منه وكثرة الوقيعة فيه وقول الناس إنه قد قلد ولده الدواوين وأقاربه الأعمال إلى غير ذلك من الوشايات التى تروج فى حكومة النساء فاتفق الأمر على إصعاد حامد وتوليته الوزارة فأرسل إليه فحضر وفى يوم حضوره قبض على ابن الفرات يوم الخميس لثلاث بقين من جمادى الأولى سنة ٣٠٦ وكانت مدة وزارته هذه الدفعة سنة وخمسة أشهر و١٩ يوما

حامد بن العباس

لم يكن لحامد من الخصال ما يؤهله للوزارة فظفر ذلك لحاشية المقتدر فعابوه عنده ونسبوه إلى الجهل بأمور الوزارة فأمر باطلاق على بن عيسى من محبسه وجعله يتولى الدواوين شبه النائب عن حامد فكان يراجعه فى الأمور ويصدر عن رأيه ثم إنه استبد بالأمر دون حامد ولم يبق لحامد غير اسم الوزارة حتى قيل فيهما

هـذا وزير بلا سواد ٭ وذا سواد بلا وزير

ثم إن حامدا أحضر ابن الفرات ليقابله على أعماله ووكل بمناظرته على بن أحمد الماذرئى ليصحح عليه الأحوال فلم يقدر على إثبات الحجة عليه فانتدب له حامد وسبه ونال منه وقام إليه فلكمه وكان حامد سفيها فقال له ابن الفرات أنت على بساط السلطان وفى دار المملكة وليس هذا الموضع مما تعرفه من بيدر تقسمه أو غلة تستفضل فى كيلها ولا هو مثل أكار تشتمه ثم قال لشفيع اللؤلؤى قل لأمير المؤمنين عنى إن حامدا إنما حمله على الدخول فى الوزارة وليس من أهلها أننى أوجبت عليه أكثر من ألفى ألف دينار من فضل ضمانه وألححت عليه فى مطالبته بها فظن أنها تندفع عنه بدخوله فى الوزارة وأنه يضيف إليها غيرها فاستشاط حامد وبالغ فى شتمه فأنفذ المقتدر فأقام ابن الفرات من مجلسه ورده إلى محبسه وقال على بن عيسى ونصر الحاجب لحامد قد جنيت علينا وعلى نفسك جناية عظيمة بما فعلت بابن الفرات

وأيقظت منه شيطانا لا ينام

ولما رأى حامد أنه لا عمل له مع على بن عيسى شرع فى عمل له آخر فضمن أعمال الخراج والضياع الخاصة والعامة والمستحدثة والفراتية بسواد بغداد والكوفة وواسط والبصرة والأهواز وأصبهان واستأذن فى الانحدار إلى واسط ليدبر أمر ضمانه الأول فأذن له فانحدر واسم الوزارة عليه وعلى بن عيسى يدبر الأمور وأظهر حامد زيادة ظاهرة فى الأموال فسر المقتدر وبسط يد حامد فى الأعمال حتى خافه على بن عيسى ثم إن السعر غلا ببغداد فثارت العامة والخاصة واستغاثوا وكسروا المنابر وكان حامد يخزن الغلال وكذلك غيره من القواد فأمر المقتدر باحضار حامد بن العباس فحضر فعاد الناس إلى شغبهم فأنفذ حامد جندا لمنعهم فقاتلتهم العامة وأحرقوا الجسرين وأخرجوا المحبسين من السجون ونهبوا دار صاحب الشرطة ولم يتركوا له شيئا فأنفذ المقتدر جيشا قاتل العامة حتى هربوا ودخلوا الجامع بباب الطاق فوكل بأبواب الجامع وأخذ كل من فيه فحبسوا وضربوا بالمقارع وقطعت أيدى من عرف بالفساد فسكنت الفتنة وأمر المقتدر بفتح مخازن الغلة التى لحامد ولأم المقتدر وغيرهما وبيع مافيهما فرخصت الأسعار وسكن الناس وأفهم على بن عيسى المقتدر أن سبب غلاء الأسعار إنما هو ضمان حامد لأنه منع من بيع الغلال فى البيادر وخزنها فأمر المقتدر بفسخ الضمان عن حامد وصرف عماله عن السواد وأمر على ابن عيسى أن يتولى ذلك فسكن الناس

ضج الأولاد والحرم والخدم والحشم إلى المقتدر مستغيثين من تأخير أرزاقهم فان على بن عيسى كان يؤخرها فاذا اجتمع عدة شهور أعطاهم بعضا وأسقط بعضا وحط من أرزاق العمال فى كل سنة شهرين فزادت عداوة الناس له وضجر المقتدر من هذه الاستغاثات وكذلك ضجر حامد بن العباس من مقامه ببغداد وليس له من الأمر شىء غير لبس السواد وأنف من إطراح على بن عيسى لجانبه فاستأذن حامد وسار إلى واسط . وجرى بين حامد وبين مفلح الأسود كلام فقال حامد لقد هممت أن أشترى مائة خادم أسود وأسميهم مفلحا فحقدها عليه مفلح وكان خصيصا بالمقتدر فسعى ومعه المحسن بن الحسن بن الفرات للحسن بالوزارة وضمن أموالا جليلة وكتب على يده رقعة يقول أن تسلم الوزير وعلى بن عيسى وابن الحوارى وشفيعا اللؤلؤى ونصرا

الحاجب وأم موسى القهرمانة والمادرائيين يستخرج منهم سبعة آلاف ألف دينار وهذه رشوة عظيمة لا يستهان بها فأصاب ذلك السعي وقبض على علي بن عيسى في ربيع الآخر سنة ٣١١ وأطلق ابن الفرات وعهدت إليه وزارته الثالثة وسمع حامد بالخبر واختفى ببغداد ثم لبس زي راهب وخرج من مكانه الذي اختفى فيه ومشى إلى نصر الحاجب وسأله أن يوصل حاله إلى الخليفة فدعا نصر مفلحا فلما حضر ورأى حامدا قال أهلا بمولانا الوزير أين ممالكك السودان الذين سميت كل واحد منهم مفلحا ولم يكن لحضوره نتيجة تفيده بل سلم إلى ابن الفرات الوزير فاستلمه المحسن ابنه وكان وقحا سيء الأدب ذا قسوة شديدة وكان الناس يسمونه الخبيث فعذب حامدا بأنواع العذاب وأخيرا أنفذه إلى واسط ليبيع أملاكه بها ثم دس من سمه في الطريق فمات وظهر في هذه الوزارة من المحسن شر عظيم لكثرة ما نكب الناس وصادرهم وعذبهم بأنواع العذاب لاستخراج أموالهم حتى مات أكثرهم تحت العذاب من غير شفقة ولا رحمة وفيهم كبار الدولة ورؤساؤها وكتاب دواوينها وصادف ذلك أن وقع الشر العظيم من القرامطة بالحجاج فتضاعفت المصائب على أهل بغداد رؤساهم تقتل وحجاجهم تنهب وتموت عطشا ولا مدافع ولا محام فكثر الارجاف على ابن الفرات وأخيرا أصدر الأمر بالقبض عليه في ثامن ربيع الأول سنة ٣١٢ بعد أن استقر في هذه الوزارة الأخيرة عشرة أشهر وثمانية عشر يوما فقبض عليه ثم قبض على ابنه المحسن .

وتولى الوزارة :

عبد الله بن محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان

بعد أن تكفل بمصادرة ابن الفرات بألفي ألف دينار فكان ذلك سبباً لتضييقه على ابن الفرات وولده ثم عذب المحسن بأنواع العذاب ليجيب إلى مصادرة يبذلها فلم يجبهم إلى دينار واحد وقال لا أجمع لكم بين نفسي ومالي واشتد عليه العذاب بحيث امتنع عن الطعام والشراب فلما علم بذلك المقتدر أمر بحمله مع أبيه إلى دار الخلافة ثم اتفق رجال الحاشية على قتلهما فذبحوهما كما تذبح الغنم وكان عمر ابن الفرات حين قتل ٧١ سنة وعمر ولده المحسن ٣٣ سنة وكان ابن الفرات يقول إن المقتدر يقتلني . عاد يوما وهو مفكر كثير الهم فقيل له في ذلك فقال كنت عند أمير المؤمنين فما

خاطبته فى شىء من الأشياء إلاقال لى نعم فقلت له الشىء وضده ففى كل ذلك يقول نعم فقيل له هـذا لحسن ظنه بك وثقته بما تقول فقال لا والله ولكنه أذن لكل قائل ومايؤمننى أن يقال له يقتل الوزير فيقول نعم والله إنه قاتلى . وكان ابن الفرات كريماذارياسة وكفاية فى عمله حسن السؤال والجواب ولم يكن له سيئة إلا ولده المحسن

لم يكن الوزير الخاقانى بأحسن حظاً من غيره من الوزراء فقد وجد من يساوم عليه فرفع إلى المقتدر رقعة من أبى العباس الخصيبى يذكر معايبه ومعايب ابنه عبد الوهاب وعجزهما وضياع الأموال وطمع العمال ثم إن الوزير مرض فوقفت الأحوال وطلب الجند أرزاقهم وشغبوا فأرسل اليه المقتدر فى ذلك فلم يقدر على شىء فعزل فى رمضان سنة ٣١٣ وولى الوزارة :

أبو العباس الخصيبى

وكان هذا الوزير الجديد لايصلح لعمل فانه كان شروبا فكان يصبح سكران لاقصد فيه لعمل وسماع حديث وكان يترك الكتب الواردة للدواوين لا يطالعها إلا بعد مدة ويهمل الأجوبة عنها فضاعت الأموال وماتت المصالح ثم إنه لضجره وتبرمه بها وبغيرها من الأشغال وكل الأمور لنوابه وأهمل الاطلاع عليهم فباعوا مصلحته بمصلحة نفوسهم ولما ظهر هذا الاختلال أشير على المقتدر بعزله وولاية على بن عيسى فقبض عليه فى ذى القعدة سنة ٣١٤ بعد وزارة مدتها سنة وشهران وأخذ ابنه وأصحابه لحبسوا واستدعى على بن عيسى من مكة وكان بها مقيما ليدبر أمر الوزارة وأمر عبيد الله بن محمد الكلوذانى بالنيابة عن على بن عيسى إلى أن يحضر فسار على ابن عيسى لحضر بغداد فى أول سنة ٣١٥ وبه صلحت الأحوال نوعا وكان من أقوم الأسباب فى ذلك أن الخصيبى كان قد اجتمع عنده رقاع المصادرين وكفالات من كفل منهم وضمانات العمال بما ضمنوا من المال بالسواد والأهواز وفارس والمغرب فنظر فيها على وأرسل فى طلب تلك الأموال فأقبلت اليه شيئا بعد شىء فأدى الأرزاق وأخرج العطاء وأسقط من الجند من لايحمل السلاح ومن أولاد المرتزقة من هو فى المهد فان آباءهم أثبتوا أسماءهم ومن أرزاق المغنيين والمساخرة والندماء وغيرهم وتولى الأعمال بنفسه ليلا ونهارا واستعمل العمال فى الولايات واختار الكفاة ومع ماأظهره من

الهمة وظهر على يده من الصلاح لم يكن ممن يعجب حاشية المقتدر لأنه كان يرى أن الاصلاح لا يكون إلا مع الاقتصاد فى النفقة ونفقة الخدم والحرم ولا سيما أم المقتدر كانت هائلة فلابد من الاقتصاد فيها ولما علموا بذلك شرعوا يشون به فلما أحس على بذلك استعفى من الوزارة واحتج بالشيخوخة وقلة النهضة فأمره المقتدر بالصبر وقال أنت عندى بمنزلة والدى المعتضد فألح فى ذلك ومع أن الرجل كان يستقيل ليخرج من هذه المضايق بسلام أبى سوء الحال فى تلك الأزمنة وتغلب النساء والحاشية أن ينيله هذه الراحة فى خروجه فأمر المقتدر فى منتصف ربيع الأول سنة ٣١٦ بالقبض عليه وعلى أخيه عبد الرحمن وولى الوزارة :

أبو على بن مقلة

وكما كانت لأبى على يد ماهرة فى الكتابة حتى ضرب بها المثل كانت ماهرة فى أخذ الرشاء على التولية والعزل وكان بينه وبين أكبر القواد مؤنس المظفر مودة فلذلك كان يثبت قدمه كلما قاربها الزلل حتى حصلت الوحشة بين المقتدر ومؤنس فدعا ذلك إلى عزل ابن مقلة فى آخر جمادى الأولى سنة ٣١٨ وقبض عليه بعد سنتين وأربعة أشهر وثلاثة أيام واستوزر :

سليمان بن الحسن

ولما لم يكن المقتدر ميالا لسليمان وإنما رضيه تبعا لرأى مؤنس أمر على بن عيسى بالاطلاع على الدواوين وأن لا ينفرد عنه سليمان بشىء وصودر ابن مقلة بمائتى ألف دينار لم تطل هذه الوزارة كثيراً لأن الأحوال ضاقت على سليمان وكثرت عليه المطالبات ووقفت وظائف السلطان واتصلت رقاع من يرشح نفسه للوزارة بالسعاية والضمان بالقيام بالوظائف وأرزاق الجند وغير ذلك وكانت وزارته غير متمكنة لأن على بن عيسى كان معه على الدواوين وسائر الأمور وأفرد على بن عيسى بالنظر فى المظالم واستعمل على ديوان السواد غيره فانقطعت مواد الوزير فانه كان يقيم من قبله من يشترى توقيعات أرزاق جماعة لا يمكنهم مفارقة ماهم عليه من الخدم فكان يعطيهم نصف المبلغ وكذلك إدرارات الفقهاء وأرباب البيوت فكانت أحواله رديئة وأدى

ذلك إلى القبض عليه لثلاث بقين من رجب سنة ٣١٩ بعد سنة وشهرين واستوزر :

أبو القاسم الكاوذانى

ولم تكن وزارته أيضا عن رغبة المقتدر بل عن رأى مؤنس وقد حصلت حوادث غريبة الشكل تبين لنا ما كان عليه المقتدر من الجهل والغباوة وذلك أنه كان ببغداد إنسان يعرف بالدانيالى وكان زراقا ذكيا محتالا وكان يعتق الكاغد ويكتب فيه بخطه مايشبه الخط العتيق ويذكر فيه إشارات ورموزا يودعها أسماء أقوام من أرباب الدولة فيحصل له بذلك رفق كثير . توصل إلى الحسين بن القاسم حتى جعل اسمه فى كتاب ووضعه وعتقه وذكر فيه علامات وجهه ومافيه من الآثار ويقول إنه يوزر للخليفة الثامن عشر من بنى العباس وتستقيم الأمور على يديه ويقهر الأعادى وتتعمر الدنيا فى أيامه وجعل هذا كله فى جملة كتاب فيه ذكر حوادث وقعت وأشياء لم تقع بعد ونسب ذلك إلى دانيال وعتق الكتاب وأخذه وقرأه على مفلح الأسود فأخذ الكتاب وأحضره للمقتدر فقال له أتعرف فى الكتاب من هو على هذه الصفة فقال ماأعرف إلا الحسين بن القاسم فقال المقتدر صدقت وإن قلبى ليميل إليه فان جاءك رسول برقعة منه فاعرضها على وا كتم حاله ولا تطلع على أمره أحدا وذهب الدانيالى إلى الحسين وعرفه الخبر فكتب رقعة إلى مفلح فأوصلها إلى المقتدر وفيها يطلب الوزارة وضمن أنه يقوم بالنفقات من غير أن يطالب شيئا من بيت المال الخالص فعزل الكلوذانى فى رمضان سنة ٣١٩ بعد شهرين وثلاثة أيام وتولاها :

الحسين بن القاسم

ولما جاء لم يكن من أهل الوزارة ولامن ذوى التدبير فضاقت عليه الأحوال وكثرت الاخراجات فاستسلف جملة وافرة وأطلع المقتدر على اضطرابه فعزله فى ربيع الآخر سنة ٣٣٠ بعد سبعة أشهر واستوزر

أبا الفتح الفضل بن حجر وهو آخر وزرائه

تولى الوزارة فى عهد المقتدر اثنا عشر وزيرا ومنهم من تقلد الوزارة مرتين وثلاثا وكانت تنال بالرشوة ودخل فى أمر تعيين الوزراء النساء والخدم والحاشية

ولم يكن الصالح منهم يبقى فى العمل كثيرا لأن مدار طول المدة كان على رضا أم المقتدر وقهرماناته وخدم الدار وهؤلاء لا يرضون إلا إذا حوبوا بالأموال الكثيرة التى بها تفسد المالية وتختل موازنتها فمتى حصل التقصير فى ذلك وقدم رجل آخر رشوة فسرعان مايقبض على الأول ويصادر ويعين الثانى وهذه حال أخلقت ديباجة الدولة وأسقطت حرمتها حتى لم يكن لها فى نظر العامة ولا فى نظر متغلبى الأطراف حرمة

وليس ذلك كل ماأسقط أمر الدولة فى عهد المقتدر بل أضيف إلى ذلك قوة القرامطة وما كان منهم من الاخلال بالأمن فى العراق والحجاز

أمر القرامطة

كان رئيس القرامطة بالبحرين أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابى فقتل سنة ٣٠١ بعد أن استولى على هجر والاحساء والقطيف وسائر بلاد البحرين فولى بعده ابنه أبو طاهر سليمان الجنابى وكانت له غزوات متتابعة إلى جهة البصرة يريد الاستيلاء عليها وأشد غزواته لها سنة ٣١١ فانه سار إليها فى ألف وسبعمائة من القرامطة ودخلها وقتل حاميتها ووضع السيف فى أهلها وأقام بها سبعة عشر يوما يحمل منها مايقدر عليه من المال والأمتعة والنساء والصبيان ثم عاد إلى بلده ومنها توجه إلى طريق الحاج ليلقاهم عند رجوعهم إلى مكة فأوقع بقافلة تقدمت معظم الحاج وكان فيها خلق كثير من أهل بغداد وغيرهم فنهبهم واتصل الخبر بباقى الحاج وهم بفيد فأقاموا بها حتى فنى زادهم فارتحلوا مسرعين إلى طريق الكوفة فأوقع بهم القرامطة وأخذوا جمال الحجاج جميعها وما أرادوا من الأمتعة والأموال والنساء والصبيان ثم عاد الجنابى إلى هجر وترك الحاج فى مواضعهم فمات أكثرهم جوعا وعطشا من حر الشمس فانقلبت بغداد من سوء تأثير هذا الخبر وكان وصوله فى الوقت الذى قتل فيه المحسن ابن الفرات من قتل من المصادرين فازدوجت المصيبة وكان ابن الفرات يتهم بالتشيع فذكر بكل قبيح على ألسنتهم

اضطر المقتدر أن يكاتب أبا طاهر يطلب منه أن يطلق من عنده من أسرى الحاج فأطلقهم وطلب ولاية البصرة والأهواز فلم يجبه المقتدر فسار من هجر يريد الحاج وكان جعفر بن ورقاء الشيبانى متقلدا أعمال الكوفة وطريق مكة فلما سار

الحاج من بغداد سار جعفر بين أيديهم خوفا من أبي طاهر ومعه ألف رجل من بنى شيبان وسار معهم أيضا قواد السلطان ومعهم ستة آلاف رجل فاتى أبو طاهر القرمطى جعفرا الشيبانى فقاتله جعفر فبينما هو يقاتله إذ طلع جمع من القرامطة عن يمينه فانهزم من بين أيديهم فاتى القافلة الأولى فردها إلى الكوفة ومعها عسكر الخليفة وتبعهم أبو طاهر إلى باب الكوفة فقاتلهم فانهزم عسكر الخليفة ودخل أبو طاهر الكوفة وأقام ستة أيام بظاهرها يدخل البلد نهارا فيقيم فى الجامع إلى الليل ثم يخرج فيبيت فى عسكره وحمل منها ماقدر على حمله من الأموال والثياب وغير ذلك ثم عاد إلى هجر وكان أهل بغداد قد خافوا أن يهجم القرامطة عليهم

وفى سنة ٣١٥ سار أبو طاهر نحو الكوفة فأمر المقتدر يوسف بن أبى الساج أن يسير إليها لحمايتها من القرامطة وقد أعدله بالكوفة الانزال له ولعسكره فسبقه إليها أبو طاهر واستولى على كل هذه المؤن وكانت شيئا كثيرا ووصل يوسف بعد أبى طاهر بيوم واحد فلما وصل أرسل إلى القرامطة يوم الجمعة يدعوهم إلى طاعة المقتدر فان أبوا فموعدهم الحرب يوم الأحد فقالوا لاطاعة علينا إلا لله والموعد بيننا للحرب بكرة غد فلما كان الغد رأى يوسف قلة القرامطة فاحتقرهم وقال إن هؤلاء الكلاب بعد ساعة فى يدى وتقدم بأن يكتب كتاب الفتح والبشارة بالظفر قبل اللقاء تهاونا بهم ثم زحف الناس بعضهم إلى بعض واستمر القتال إلى غروب الشمس فلما رأى أبو طاهر ذلك باشر الحرب بنفسه ومعه جماعة يثق بهم وحمل بهم فطحن أصحاب يوسف ودقهم فانهزموا بين يديه وأسر يوسف وعدد كثير من أصحابه وورد الخبر بذلك إلى بغداد فخاف الخاص والعام من القرامطة خوفا شديدا وعزموا على الهرب إلى حلوان وهمذان وجاء المنهزمون من وقعة الكوفة إلى بغداد ووصل الخبر بأن القرامطة قد ساروا إلى عين التمر فأنفذ من بغداد خمسمائة سميرية فيها المقاتلة لتمنعهم من عبور الفرات وسير جماعة من الجيش إلى الأنبار لحفظها ومنع القرامطة من العبور هنالك . ثم إن القرامطة قصدوا الأنبار ولما وصلوها نزلوا غرب الفرات لأن أهل الأنبار كانوا قد قطعوا الجسر ثم أنفذ أبو طاهر أصحابه إلى الحديثة فجاءوه بسفن عقدها وعبر عليها نحو ثلثمائة من أصحابه فقاتلوا عسكر الخليفة فهزموهم وقتلوا منهم جماعة واستولوا على مدينة الأنبار وعقدوا الجسر وعبر عليه

أبو طاهر ولكنه خلف عظم جيشه فى البر الغربى ولما ورد الخبر بعبور أبى طاهر إلى الأنبار خرج نصر الحاجب بجيش جرار فلحق بمؤنس المظفر فاجتمعا فى نيف وأربعين ألف مقاتل وكان هذا الجيش مضطربا فى مسيره قد تمكن الخوف من قلب أجناده وكان يمكنهم لودبروا جيشهم تدبيرا حسنا أن يأخذوا أبا طاهر الذى كان قد عبر وترك جنده ولكنهم تهاونوا حتى عاد إلى جيشه ثم اقتطع مؤنس من الجيش نحو ستة آلاف أمرهم بالعبور ليغنموا معسكر القرامطة ويخلصوا يوسف ابن أبى الساج ففشلوا وانهزموا أمام شجاعة القرامطة وكانت نتيجة ذلك أن أمر أبو طاهر بقتل يوسف وجميع الأسرى وكانت عدة القرامطة فى هذه الخرجة ٢٧٠٠ ولما علم المقتدر بعدة عسكره وعدة القرامطة قال لعن الله نيفا وثمانين ألفا يعجزون عن ٢٧٠٠ وجاء إنسان إلى على بن عيسى الوزير وأخبره أن فى جيرانه رجلا من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أباطاهر بالأخبار فأحضره وسأله فاعترف وقال ماصحبت أبا طاهر إلا لما صح عندى أنه على الحق وأنت وصاحبك كفار تأخذون ماليس لكم ولا بد لله من حجة فى أرضه وإمامنا المهدى محمد بن فلان ابن فلان ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب ولسنا كالرافضة والاثنى عشرية الذين يقولون بجهلهم أن لهم إماما ينتظرونه ويكذب بعضهم لبعض فيقول قد رأيته وسمعته وهو يقرأ ولا ينكرون بجهلهم وغباوتهم أنه لا يجوز أن يعطى من العمر ما يظنونه . فقال له الوزير قد خالطت عسكرنا وعرفتهم فمن فيهم على مذهبك فقال وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة كيف تطمع منى أن أسلم قوما مؤمنين إلى قوم كافرين يقتلونهم لا أفعل ذلك فأمر به فضرب ضربا شديدا ومنع الطعام والشراب فمات بعد ثلاثة أيام

أما أبو طاهر فانه سار من الأنبار وعثى فى أرض الجزيرة نهبا وقتلا إلا من اعتصم منه بالأمان والفدية وجيوش السلطان لا تؤثر فيها أثرا وتخاف أن تقدم عليه فلما تم له ما أراد من الجزيرة عاد إلى الكوفة ومنها دخل هو وأصحابه البرية بعد أن أخافوا السبل وأهلكوا العدد الجم

وكانت هذه الانتصارات سببا فى ظهور من كان بالسواد ممن يعتقد مذهب القرامطة ويكتم اعتقاده خوفا فأظهروا اعتقادهم واجتمع منهم بسواد الكوفة أكثر من

عشرة آلاف رجل وولوا أمرهم رجلا يعرف بحريث بن مسعود واجتمعت طائفة أخرى بعين التمر ونواحيها فى جمع كثير وولوا أمرهم رجلا يعرف بعيسى بن موسى وكانوا يدعون إلى المهدى وسار عيسى إلى الكوفة ونزل بظاهرها وجبى الخراج وصرف عمال السلطان على السواد وسار حريث إلى أعمال الموفق وبنى بها دارا سماها دار الهجرة واستولى على تلك الناحية فكان أصحابه ينتهون ويقتلون ويسبون . فأرسل المقتدر إلى حريث بن مسعود ومن معه هارون بن غريب وإلى عيسى بن موسى ومن معه بالكوفة صافيا البصرى فأوقع كل منهما بمن أرسل إليه من القرامطة وأسر منهم خلق كثير وقتل أكثر ممن أسر وأخذت أعلامهم وكانت بيضاء كتب عليها ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين فأدخلت بغداد منكوسة واضمحل أمر من بالسواد منهم وكفى الله الناس شرهم وإن كان كل ذلك مما يعجل بخراب القرى وإتلاف المزارع

وفى سنة ٣١٧ فعل أبو طاهر ما هو أشنع وأدهى وذلك أنه سار بجنده إلى مكة فوافاها يوم التروية فلم يرع حرمة البيت الحرام بل نهب هو وأصحابه أموال الحجاج وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام وفى البيت نفسه وقلع الحجر الأسود وأنفذه إلى هجر فخرج إليه أمير مكة فى جماعة من الأشراف فسألوه فى أموالهم فلم يشفعهم فقاتلوه فقتلهم أجمعين وقلع باب البيت وطرح القتلى فى بئر زمزم ودفن الباقين فى المسجد الحرام حيث قتلوا بغير غسل ولا كفن ولا صلى على أحد منهم وأخذ كسوة البيت فقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة . ولم يحصل فى التاريخ أن انتهكت حرمة هذا البيت إلى هذا الحد حتى أن المهدى عبيدالله العلوى لما علم ذلك كتب إلى أبى طاهر ينكر عليه ذلك ويلومه ويلعنه ويقيم عليه القيامة ويقول قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والالحاد بما فعلت وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم وترد الحجر الأسود إلى مكانه وترد كسوة الكعبة فأنا برىء منك فى الدنيا والآخرة ولما وصله هذا الكتاب أعاد الحجر الأسود واستعاد ما أمكنه من أموال أهل مكة فرده وقال إن الناس اقتسموا كسوة الكعبة وأموال الحجاج ولا أقدر على منعهم

المتغلبون وما كان منهم :

فى عهد المقتدر اشتد سلطان المتغلبين بأطراف المملكة وهذه نتيجة طبيعية لما أصاب الدولة من الخلل

ففى الأندلس قام رجل الدولة الأموية عبد الرحمن الناصر وتسمى باسم أمير المؤمنين لأنه لم يعد هناك ما يراعيه رجال الدولة الأموية من أمر الخلافة الاسلامية ببغداد لانحطاط شأنها ولعب الفساد بها وخيانة الوزراء فيها وكان عبد الرحمن قد مكنه عقله الواسع وفكره الثاقب من العلو وبعد الصيت حتى رهبته ملوك الافرنجة والروم وهادوه وأرسلوا إليه السفراء وكذلك فعل هو معهم

وفى أفريقية قامت الدولة العلوية ومحت فى طريق غلبتها دولة الأدارسة من المغرب الأقصى والأغالبة من أفريقية وجعلت مقرها مدينة المهدية التى أسسها عبيد الله المهدى بالقرب من القيروان وكانت همته بعد ذلك موجهة إلى الاستيلاء على مصر فكان يناوشها بالجنود ولكنه لم يتهيأ له الاستيلاء عليها

وفى البحرين وما صاقبها اتسع سلطان القرامطة واستقلوا بملك تلك البلاد وكانت العراق دائما على خوف مستمر منهم وقطعوا طريق الحج حتى كان حجاج العراق قد اتخذوا لهم طريقا آخر إلى مكة على الموصل ثم الشام ثم مكة

وفى خراسان وما وراء النهر استقر ملك الدولة السامانية وكان الديلم يناوشونها من وقت لآخر كما سيأتى فى تاريخهم

وفى الموصل ابتدأت دولة آل حمدان ولكن لم يتمكن سلطانهم فى عهد المقتدر أما ما فعله الروم بثغور المسلمين فى هذا العهد فهو فى غاية الشنعة ففى سنة ٣٠٣ أغاروا على الثغور الجزرية وقصدوا حصن منصور وسبوا من فيه وجرى على الناس أمر عظيم ولم يكن أمام الروم من الجيوش من يصدهم لأنهم كانوا مشغولين برتق الفتوق الداخلية التى كانت متوالية

وفى سنة ٣٠٥ وصل رسولان من ملك الروم إلى المقتدر يطلبون المهادنة والفداء فأكرما إكراما كثيراً وأدخلا على الوزير وهو فى أكمل أبهة وقد صف الأجناد بالسلاح والزينة التامة فأديا الرسالة ثم إنهما دخلا على المقتدر وقد جلس لهما واصطف الأجناد بالسلاح والزينة التامة وأديا الرسالة فأجابهما المقتدر إلى ما طلب ملك الروم

من الفداء وسير مؤنساً الخادم ليحضر الفداء وجعله أميراً على كل بلد يدخله يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج منه وسير معه جمعاً من الجنود وأطلق لهم أرزاقا واسعة وأنفذ معه مائة وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين وسار مؤنس والرسل وكان الفداء على يديه

ولم يدم هذا الصفاء طويلا بل عادت الحروب والغارات من الطرفين وكانت سجالا وكلما كان يجتمع عند الطرفين أسرى يحصل الفداء كالعادة

وفى سنة ٣١٣ كتب ملك الروم الى أهل الثغور الاسلامية يأمرهم بحمل الخراج اليه فان فعلوا وإلا قصدهم فقتل الرجال وسبى الذرية وقال انني صح عندى ضعف ولاتكم فلم يفعلوا فسار اليهم وأخرب البلاد ودخل ملطية سنة ٣١٤ فأخربها وسبى منها ونهب وأقام فيها ستة عشر يوما ولما رأى أهل ملطية ماحل بقراهم من التخريب قصدوا بغداد مستغيثين فلم يغاثوا وعادوا بغير فائدة

وفى سنة ٣١٥ خرجت سرية من طرسوس إلى بلاد الروم فوقع عليها العدو وأسروا من المسلمين أربعمائة رجل فقتلوا صبرا . وفيها سار الدمستق فى جيش عظيم من الروم إلى مدينة دبيل وهى قاعدة أرمينية وكان معه دبابات ومجانيق ومعه مزارق تزرق بالنار فلا يقوم بين يديها أحد من شدة النار فكان ذلك أشد شيء على المسلمين حتى أصيب الرامى بسهم من سهام المسلمين فخفت الشدة وكان الدمستق يجلس على كرسى عال يشرف على البلد وعلى عسكره فأمرهم بالقتال على مايراه فصبر لهم المسلمون حتى وصلوا إلى سور المدينة فنقبوا فيها نقوبا كثيرة ودخلوا المدينة فقاتلهم أهلها قتالا شديدا حتى أخرجوهم من المدينة وقتلوا منهم عشرة آلاف قتيل . وكانت هذه السنة سنة نجاح للمسلمين على الروم

وفى سنة ٣١٩ اشتدت وطأة المسلمين على الروم وغزوا بلادهم حتى بلغوا عمورية وأنقرة والفضل فى ذلك كله يرجع إلى قائد عظيم من غلمان المقتدر اسمه ثمل وكان والى الثغور فأمكنه بما أوقعه من الرعب فى قلوب أعدائه أن يستعيد بعض الهيبة للدولة بعد أن كادت تذهب من صدر الروم بمرة

وعلى الجملة فكانت خلافة المقتدر فى جميع أيامها شر أيام على الدولة العباسية لأنه حكم فيها النساء والخدم وبذر فى الأموال تبذيرا مفظعا وكان يعزل الوزراء ويولى غيرهم بما يقدم من الرشاء له ولأمه ولقهرمانته ولخدمه ولا يأخذ الوزارة

بالرشوة إلا من هو عازم على الخيانة ليحصل على مادفعه فكان جلهم الكثيرمنهم ان يسد حاجته أولا ثم حاجة من ولاه لايسألون أجاءت تلك الأموال من ظلم أو عدل وهذا نهاية الفساد فى الدولة وهو المؤذن بخرابها واضمحلالها

قتل المقتدر

كان فى دولة المقتدر قائدان هما فى أرفع الدرجات أولها مؤنس المظفر وهو القائد العام للجيوش وعليه المعول فى تسييرها ويليه فى المرتبة محمد بن ياقوت وكان بينهما شيء من المنافسة

ففى سنة ٣١٩ قوى أمر محمد بن ياقوت وقلد مع الشرطة الحسبة وضم إليه رجال فقوى بهم فعظم ذلك على مؤنس وسأل المقتدر صرف محمد عن الحسبة وقال هذا شغل لايجوز أن يتولاه غير القضاة والعدول فأجابه المقتدر وصرف محمدا عن الحجبة وصرف ابنه عن الشرطة وأبعدهما عن الحضرة فأخرجا إلى المدائن حسبما طلبه مؤنس وولى بدلهما إبراهيم بن رائق وأخاه محمدا الحجبة والشرطة وهذا كان بدء الوحشة بين المقتدر ومؤنس ومتى وجدت الوحشة ساءت الظنون وكان للوهم فى النفوس أكبر الآثار

بلغ مؤنسا أن الوزير الحسين بن القاسم قد وافق جماعة من القواد فى التدبير عليه فتنكرله مؤنس وطلب من المقتدر عزله ومصادرته فأجاب إلى عزله ولم يصادره فلم يقنع مؤنس بذلك فبقى الحسين فى الوزارة وكتب إلى هرون بن غريب أحد القواد وهو بدير العاقول أن يحضر إلى بغداد وكذلك كتب إلى محمد بن ياقوت يستقدمه فزادت الوحشة عند مؤنس وصح عنده أن الحسين يسعى فى التدبير عليه ثم صح عنده أنه قد جمع الرجال والغلمان الحجرية فى دار الخليفة فأظهر الغضب وذهب نحو الموصل وأرسل غلاماله إلى المقتدر برسالة فطلب الوزير منه أن يسلمها إليه فأبى فسبه الوزير وشتم صاحبه وأمر بضربه وصادره بثلثمائة ألف دينار وأخذ خطه بها وحبسه ونهب داره فلمابلغ مؤنسا الخبرسار نحو الموصل فى أصحابه ومماليكه وتقدم الوزيربقبض أقطاع مؤنس وأملاكه وأملاك من معه فحصل من ذلك مال عظيم وزاد فى محل الوزير عند المقتدر فلقبه عميد الدولة وضرب اسمه على الدينار والدرهم

وتمكن من الوزارة وولى وعزل .

أما مؤنس فانه استولى على الموصل من يد بنى حمدان واستولى على أموالهم وديارهم وخرج إليه كثير من العساكر من بغداد والشام ومصر لاحسانه كان إليهم وعاد إليه ناصر الدولة بن حمدان فصار معه . فلما اجتمعت إليه العساكر انحدر إلى بغداد فى شوال سنة ٣٢٠ فلما بلغ خبره جند بغداد شغبوا وطلبوا أرزاقهم ففرق المقتدر فيهم مالا عظيما إلا أنه لم يشبعهم وسير العساكر لمقابلة مؤنس فى طريقه فلم يقدروا على رد لجامه حتى نزل بباب الشماسية فحل الخوف فى قلب المقتدر وجنده وكان يريد ترك بغداد لمؤنس والرحيل إلى واسط فرده عن ذلك محمد بن ياقوت وزين له اللقاء وقوى نفسه بأن القوم متى رأوه عادوا بأجمعهم اليه فرجع إلى قوله وهو كاره ثم أشار عليه بحضور الحرب فخرج وهو كاره وبين يديه الفقهاء والقراء معهم المصاحف مشهورة وعليه البردة والناس حوله فوقف على تل بعيد عن المعركة فأرسل قواد أصحابه إليه يسألونه التقدم مرة بعد أخرى وهو لا يريم مكانه فلما ألحوا عليه تقدم من موضعه فانهزم أصحابه قبل وصوله إليهم فلقيه على بن بليق من أصحاب مؤنس فترجل وقبل الأرض وقال له أين تمضى ارجع فلعن الله من أشار عليك بالحضور فأراد الرجوع فلقيه قوم من المغاربة والبربر فشهروا عليه سيوفهم وضربه أحدهم بسيفه على عاتقه فسقط إلى الأرض وذبحه بعضهم ثم رفعوا رأسه على خشبة وهم يكبرون ويلعنونه وأخذ جميع ما عليه حتى سراويله وتركوه مكشوفا إلى أن مر به رجل من الأكرة فستره بحشيش ثم حفر له موضعه ودفن وكان عمره حين قتل ٣٨ سنة ثم تقدم مؤنس وانفذ إلى دار الخليفة من يمنعها من النهب

١٩ — القاهر

هو أبو محمد بن المعتضد بن الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد بربرية اسمها قتول بويع بالخلافة يوم أن قتل المقتدر فى ٢٨ شوال سنة ٣٢٠ (١ نوفمبر سنة ٩٣٢) ولم يزل خليفة حتى خلع فى ٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢ (٢٣ إبريل سنة ٩٣٤) فكانت مدته سنة وستة أشهر وستة أيام

ومعاصروه من الملوك والمتغلبين هم معاصرو المقتدر ماعدا أحمد بن إسماعيل السامانى

كيف انتخب

لما قتل المقتدر كان من رأى مؤنس إقامة ولد أبي العباس أحمد وقال انه تربيتي وهو صبي عاقل وفيه دين وكرم ووفاء بما يقول فاذا جلس للخلافة سمحت نفس جدته والدة المقتدر وإخوته وغلمان أبيه ببذل المال ولم ينتطح فى قتل المقتدر عنزان فاعترض عليه أبو يعقوب إسحق بن إسماعيل النوبختى وقال بعد الكد والتعب استرحنا من خليفة له أم وخالة وخدم يدبرونه فنعود إلى تلك الحال والله لانرضى إلا برجل كامل يدبر نفسه ويدبرنا وما زال بمؤنس حتى رده عن رأيه وذكر له محمد بن المعتضد وهو أخو المكتفى فأجابه إليه على كره منه فانه كان يقول إنى عارف بشره وسوء نيته ولكنه لا حيلة . فبايعوه واستحلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه بليق ولعلى بن بليق وأخذوا خطه بذلك واستقرت له الخلافة وبايعه الناس واستوزر أبا على بن مقلة واستحجب على بن بليق

الحال فى عهد القاهر

كان القاهر كما قال مؤنس شريرا خبيث النية فانه فى أول خلافته اشتغل بالبحث عمن استتر من أولاد المقتدر وحرمه واشتغل بمناظرة أم المقتدر وكانت مريضة قد ابتدأ بها داء الاستسقاء وقد زاد مرضها بقتل ابنها ولما سمعت أنه بقى مكشوفا جزعت جزعا شديدا وامتنعت من الأكل والشرب حتى كادت تهلك فوعظها النساء حتى اكلت شيئاً يسيرا من الخبز والملح . أحضرها القاهر عنده وهى على تلك الحال من المرض والجزع وسألها عن مالها فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشىء من المال والجوهر فضربها أشد ما يكون من الضرب وعلقها برجلها وضرب المواضع الغامضة من بدنها فحلفت أنها لا تملك غير ما أطلعته عليه وقالت لو كان عندى مال لما أسلمت ولدى للقتل ولم تعترف بشىء ثم أخرجها على تلك الحال لتشهد على نفسها القضاة والعدول أنها قد حلت أوقافها ووكلت فى بيعها فامتنعت من ذلك وقالت قد وقفتها على أبواب البر والقرب بمكة والمدينة والثغور وعلى الضعفى والمساكين ولا أستحل حلها ولا بيعها وإنما أوكل فى بيع أملاكى فلما علم القاهر

بذلك أحضر القاضى والعدول وأشهدهم على نفسه أنه قد حل وقوفها جميعها ووكل فى بيعها فبيع ذلك جميعه مع غيره واشتراه الجند من أرزاقهم . ثم صادر جميع ولد المقتدر وحاشيته ولم نسمع فى التاريخ ما يقارب فعل القاهر نذالة وجبنا وخسة وشراهة نفس.

بعد قتل المقتدر هرب كبار معينيه وخاصة محمد بن ياقوت وابنا رائق وهارون ابن غريب ومفلح وعبد الواحد بن المقتدر فلما صاروا بواسط أرسل هارون بن غريب يطلب الأمان لنفسه ويبذل مصادرة ثلثمائة ألف دينار وعلى أن تطلق له أملاكه فأجيب إلى طلبه وتم رفقاؤه سائرين إلى السوس وسوق الأهواز فأقاموا بالأهواز وطردوا عماله فجهز إليهم مؤنس جيشا أخرجهم منها ثم طلبوا إليه الأمان فأمنهم وتوجهوا معه إلى بغداد ومعهم محمد بن ياقوت فتقدم عند القاهر وعلت منزلته وصار يخلو به ويشاوره فغلظ ذلك على الوزير مؤنس المظفر وبليق الحاجب وابنه لأنهم ما حاربوا المقتدر إلا من أجله وثبت عندهم أن محمد بن ياقوت يدبر عليهم فاستوحشوا من القاهر وضيقوا عليه وأمر مؤنس بتفتيش كل من يدخل الدار ونقل من كان محبوسا بدار الخلافة كوالدة المقتدر التى اشتد عليها المرض مما نالها من الضرب وعلم القاهر أن العتاب لا يفيد فأخذ فى التدبير على القوم الذين أجلسوه هذا المجلس وكان اعتماد مؤنس على العساكر الساجية فأفسد القاهر قلوبهم عليه وأغراهم بمؤنس وأغرى كاتب ابن مقلة به ووعده الوزارة محله فكان يكاتب القاهر بجميع الأخبار

أما هؤلاء الخصوم فاتفقوا على خلع القاهر وتحالفوا على ذلك ولكنهم لم يبدوا شيئا من الحكمة أمام مكر القاهر ودهائه فرأى الوزير أن يظهروا أن أبا طاهر القرمطى ورد الكوفة وأن على بن بليق صائر إليه ليمنعها منه فإذا دخل على القاهر يودعه قبض عليه فكتب ابن مقلة إلى الخليفة بما اتفقوا على إخباره به ولكن لم يتم ذلك لأن الخبر جاء القاهر سرا بما دبر عليه فاحتاط لنفسه وأنفذ إلى الساجية فأحضرهم وفرقهم فى دهاليز الدار مستخفين فلما جاء ابن بليق وطلب الاذن لم يؤذن له وردردا قبيحا من الساجية فخرج هاربا من الدار وعلم بليق بما جرى على ابنه فاحتد وقال لابد من المضى إلى دار الخليفة حتى أعلم سبب مافعل بابنى فذهب هو وجميع القواد الذين بدار مؤنس فلما حضر أمر القاهر فقبض عليه وقبض كذلك على أحمد بن زيرك

صاحب الشرطة ثم أرسل إلى مؤنس فى داره من أحضره بالحيلة وكان قد استولى عليه الضعف والكبر فلما حضر الدار أمر بالقبض عليه واختفى الوزير ابن مقلة وأمر القاهر بالختم على دور مؤنس وبليق وابنه على وابن مقلة وأحمد بن زيرك والحسن بن هرون ونقل دوابهم ووكل بحرمهم وأمر باحراق دار ابن مقلة فأحرقت وظهر محمد بن ياقوت فولى الحجبة

ولما تمكن القاهر من هؤلاء الأعداء وضبطهم بداره أمر بقتلهم جميعاً فقتلوا ورأى الناس من شدة القاهر ماعلموا معه أنهم لايسلمون من يده وندم كل من أعانه من الجنود حيث لم ينفعهم الندم

ومن الغريب أن القاهر بعد أن تم له ماأراد أمر بالقبض على أكبر رجل ساعده وهو طريف السبكرى الذى كان من قواد مؤنس فخانه

بقى من أعداء المقتدر الوزير ابن مقلة فانه كان مستترا لم يظهر عليه وكذلك الحسن ابن هرون فكانا يراسلان قواد الساجية والحجرية ويخوفانهم من شر القاهر ويذكران لهم غدره ونكثه مرة بعد مرة وكان ابن مقلة يجتمع بالقواد ليلا تارة فى زى أعمى وتارة فى زى مكد وتارة فى زى امرأة ويغريهم به حتى ملأ صدورهم فاتفقوا على خلعه وزحفوا إلى الدار وهجموا عليها من سائر الأبواب فلما سمع القاهر الأصوات والجلبة استيقظ مخمورا وطلب بابا يهرب منه فلم يجده فقبضوا عليه وحبسوه ثم سملوا عينيه وبذلك انتهت مدته وكانت جامعة للمعايب والقبائح ومن ذلك عدا ماتقدم ذكره أنه أمر بتحريم الخمر والغناء وسائر الأنبذة وأما الجوارى والمغنيات فأمر ببيعهن على أنهن سواذج لايعرفن الغناء ثم وضع له كل من يشترى كل حاذقة فى صنعة الغناء فاشترى منهن ماأراد بأرخص الأثمان وكان القاهر مشتهرا بالغناء والسماع فجعل ذلك طريقا إلى تحصيل غرضه رخيصا نعوذ بالله من هذه الأخلاق التى لايرضاها العامة من الناس

٢٠ — الراضى

هو أبو العباس أحمد بن المقتدر بن أبى أحمد الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد

اسمها ظلوم ولد سنة ٢٩٧ وبويع بالخلافة بعد خلع القاهر فى ٥ جمادى الأولى سنة ٣٢٢ (٢٣ إبريل سنة ٩٣٤) ولم يزل خليفة إلى أن توفى فى منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٩ (٨ ديسمبر سنة ٩٤٠) فكانت مدته ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام

كيف انتخب

لما قبض القاهر سأل القواد الخدم عن المكان الذى فيه أبو العباس بن المقتدر فدلوهم عليه وكان هو ووالدته محبوسين فقصدوه وفتحوا عليه ودخلوا فسلموا عليه بالخلافة وأجلسوه على السرير يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى ولقبوه الراضى وبايعه القواد

الحال فى عهده

كانت الحال تزيد إدبارا وانتكاسا واضطرابا فى عهده فأصحاب السلطان فى العراق يتنافسون ويقتتلون والذين يحيطون بهم من المتغلبين يجدون ويجتهدون فدولة الأندلس زهت وعظمت بهمة الرجل العظيم أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر الذى أعلن فى بلاده أنه أمير المؤمنين بعد أن لم يكن سلفه يتسمون بذلك وإنما كانوا يسمون بالأئمة . والدولة العبيدية فى المغرب والمهدية قد اشتدت وطأتها وهى آخذة فى العلو وتحاول الاستيلاء على مصر . وبنو بويه ظهروا واستولوا على كثير من بلاد الجبال والأهواز . والروم انتهزوا هذه الفرص لاقتطاع البلاد الاسلامية وغزو الثغور وأهل بغداد مع هذا كله مشغولون بأنفسهم ومتكالبون على ما فى أيديهم من البلاد العراقية كما ترى

كانت الكلمة العليا فى أول عهد الراضى لوزيره ابن مقلة وحاجبه محمد بن ياقوت فهما اللذان كان بأيديهما الحل والعقد فى البلاد . فى سنة ٣٢٣ نظر ابن مقلة فوجد محمد بن ياقوت قد تحكم فى البلاد بأسرها وأنه هو لم يعد بيده شىء فسعى به إلى الراضى وأدام السعاية فبلغ ما أراده ففى خامس جمادى الأولى ركب جميع القواد إلى دار الخليفة حسب عادتهم وحضر الوزير ومحمد بن ياقوت ومعه كاتبه فأمر الخليفة بالقبض عليه وعلى أخيه المظفر بن ياقوت وحبسهما وقد مات محمد فى الحبس

ثم أطلق المظفر بعد أن أخذ عليه ابن مقلة العهد أنه يواليه ولا ينحرف عنه ولا يسعى له ولا لولده بمكروه . ظن ابن مقلة أن الوقت قد صفا له بحبس ابنى ياقوت وأنه لم يعد له منافس فى سلطانه ولكنه غفل عن المظفر الذى أطلقه من السجن بعد موت أخيه محمد فان المظفر كان يظن أن ابن مقلة سم أخاه فكان لذلك يتحين الفرصة للقبض عليه فاتفق مع الجنود الحجرية أن يقبضوا على ابن مقلة فقبضوا عليه وأرسلوا إلى الراضى يعلمونه فاستحسن فعلهم وطلبوا من الخليفة أن يعين وزيرا فرد الاختيار اليهم فاختاروا للوزارة على بن عيسى وعرضوها عليه فامتنع واشار بوزارة أخيه عبد الرحمن فاستوزره الراضى وسلم اليه ابن مقلة فصادره

رأى عبد الرحمن أنه لايمكنه ادارة الحركة لازدياد الفساد فاستعفى فلم يقبل الراضى منه وقبض عليه وصادره على سبعين ألف دينار وصادر أخاه عليا على مائة ألف

واستوزر بعده أبا جعفر الكرخى فرأى قلة الأموال وانقطاع المواد فازداد عجزا إلى عجزه وضاق عليه الأمر وما زالت الاضاقة تزيد وطمع من بين يديه من المعاملين فيما عنده من الأموال وقطع محمد بن رائق والى البصرة ما كان يحمل من البصرة وواسط إلى بغداد وقطع البريدى والى الأهواز ما كان يحمل من الأهواز وأعمالها وكان ابن بويه قد تغلب على فارس فتحير أبو جعفر وكثرت المطالبات عليه ونقصت هيبته واستتر بعد ثلاثة أشهر ونصف من وزارته فلما استتر استوزر الراضى أبا القاسم سليمان بن الحسن فكان فى الوزارة كأبى جعفر فى وقوف الحال وقلة المـــال

ولما رأى الراضى ذلك اضطرته الحال لمراسلة محمد بن رائق وهو بواسط يعرض عليه الولاية ببغداد فحضر مسرعا فقلده الراضى لقلب أمير الأمراء وولاه الخراج والمعاون فى جميع البلاد والدواوين وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر أنفذ إليه الخلع فانتقل السلطان ببغداد إليه ومن ذلك الوقت بطلت الدواوين وبطلت الوزارة فلم يكن الوزير ينظر فى شيء من الأمور وإنما كان ابن رائق وكاتبه ينظران فى الأمور جميعها وكذلك كل من تولى إمرة الأمراء بعده وصارت الأموال تحمل إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون ويطلقون للخليفة مايريدون وبطلت بيوت الأموال وتغلب

أصحاب الأطراف وزالت عنهم الطاعة ولم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها والحكم فيها جميعها لابن رائق ليس للخليفة حكم.

كتب ابن رائق كتابا عن الراضى إلى أبي الفتح جعفر بن الفرات يستدعيه ليجعله وزيرا وكان يتولى الخراج بمصر والشام وظن ابن رائق أنه إذا استوزره جبى له أموال الشام ومصر فقدم بغداد ونفذت له الخلع قبل وصوله فلقيته بهيت فلبسها ودخل بغداد وتولى وزارة الخليفة ووزارة ابن رائق جميعاً.

فكر ابن رائق فيما بيد أبي عبد الله البريدى من بلاد الأهواز وأشار على الراضى بالانحدار معه إلى واسط ليقرب من الأهواز ويراسل البريدى فان أجاب إلى مايطلب منه وإلا قرب قصده عليه فأجاب الراضى وانحدر معه إلى واسط ثم تهيأ للسير إلى الأهواز ولما علم بذلك البريدى جدد ضمان الأهواز كل سنة بثلثمائة وستين ألف دينار يحمل كل شهر قسطه فأجاب الراضى إلى ذلك وعاد إلى بغداد ولكن البريدى لم يحمل بما ضمن ولادينارا واحدا

رأى ابن رائق استفحال قوة البريدى وعدم التمكن من قهره ففكر فى أنه يستوزره فكتب إليه بذلك وطلب منه أن يرسل نائبا عنه فى الوزارة فأجاب وأرسل أحمد ابن على الكوفى نائبا عنه فسارت أمور البريدى ببغداد على مايروق وضمت البصرة التى كانت فى يد ابن رائق إلى أبي يوسف بن البريدى أخى أبي عبد الله فصار بيد البريديين الأهواز والبصرة وأرسل إلى البصرة جندا للاستيلاء عليها وكان ذلك سببا لتجدد الوحشة بين ابن رائق والبريدى حيث رأى الأول أنه زاد البريدى سلطانا على سلطانه بما أخذ من البصرة ولم يمكنه أن يعمل معه شيئا ما ففكر فى إرسال جند إلى الأهواز لقتال البريدى فاختار رجلين لقيادة الجند أحدهما بدر الخرشنى والثانى بجكم الديلمى فسار بجكم بالجند إلى السوس واستولى عليه بمن معه من الأتراك والديالمة ثم أخذ تستر ولما رأى ذلك أبو عبدالله البريدى ركب هو وإخوته ومن يلزمه السفن وأخذ معه مابقى من الأموال و ٣٠٠ ألف درهم فغرقت السفينة بهم فأخرجهم الغواصون وقد كادوا يغرقون فركبوا ووصلوا إلى الأبلة فأقام بها وكتب إلى رائق يستعطفه فلم يجبه وكانت الرسل من أعيان أهل البصرة فلما رأوا ذلك منه ازدادوا جدا فى مقاومته فصاروا كلما جهز إليهم جندا هزموه ولما رأى ذلك ابن رائق سار بنفسه إلى واسط.

وكتب إلى بجكم وهو فى الأهواز مستول عليها يأمره باللحاق به فأتاه فيمن عنده من الجند فتقدموا وقاتلوا أهل البصرة فقاوموهم مقاومة عنيفة حتى ردوهم منهزمين . ورأى البريدى أنه لابد له من معين على ابن رائق وبجكم فسار إلى عماد الدولة ابن بويه وأطمعه فى العراق والاستيلاء عليه فسير معه أخاه معز الدولة فاستولى على الأهواز بعد أن حارب بجكم وانتصر عليه فسار بجكم إلى واسط لم يستمر الصفاء بين البريدى ومعز الدولة لأن كلا طامع يريد أن يمكر بالثانى وكانت نتيجة المنافسة بينهما أن أنفذ بجكم جماعة من أصحابه فاستولوا على السوس وجند يسابور وبقيت الأهواز بيد البريدى ولم يبق بيد معز الدولة إلا عسكر مكرم ثم عاد فاستولى على الأهواز وأجلى عنها البريدى إلى البصرة

أما حال ابن رائق ببغداد فكانت حال إدبار لأن بجكم منع عنه مال واسط ولم يرسل إليه شيئا وكان يميل إلى أن يحل محل ابن رائق فى إمارة الأمراء ببغداد وكان يسعى له فيها ابن مقلة وقد كلم الخليفة بذلك فأجاب وأبلغ ابن مقلة ما استقر عليه الأمر لبجكم فسار من واسط نحو بغداد فى غرة ذى القعدة سنة ٣٢٦ ولم يزل حتى ورد بغداد فقاتلته الجنود الرائقة ولكنهم انهزموا عنه فدخل بجكم بغداد فى ١٣ ذى القعدة ولقى الراضى من الغد وخلع عليه وجعله أمير الأمراء فكتب إلى جميع القواد الذين كانوا مع ابن رائق يطلب إليهم العودة إليه ومناهم فجاءه أكثرهم وسقط ابن رائق بعد إمارة استمرت سنة واحدة وعشرة أشهر و١٦ يوما واستتر عن العيون.

فى أول سنة ٣٢٧ منع ناصر الدولة بن حمدان ماضمنه من مال الموصل فسار إليه الراضى هو وبجكم فأقام الراضى بتكريت وسار بجكم لحرب ناصر الدولة فقهره. انتهز ابن رائق فرصة غيابهما عن بغداد فظهر واستولى عليها ولما بلغ الراضى وبجكم خبره انزعجا واضطرهما ذلك إلى الاسراع بمصالحة ناصر الدولة ابن حمدان على أن يعجل ٥٠٠ ألف درهم وعادا يريدان بغداد فراسلهما ابن رائق يطلب الصلح فاتفقا معه على ذلك وقلد طريق الفرات وديار مضر حران والرها وما جاورهما وجند قنسرين والعواصم

أراد بجكم أن يستعيد بلاد الجبل والأهواز من يد ابن بويه فاتفق مع البريدى أن يسير إلى الأهواز وأمده برجال وأن يسير بجكم إلى بلاد الجبل ولكن علم بجكم

أن البريدى يريد استعمال الحيلة معه ليلقيه فى المهالك ويعود هو إلى بغداد ليكون أمير الأمراء فبدلا من أن يسير إلى بلاد الجبل سار إلى واسط فاستولى عليها وأجلى عنها البريدى .

هكذا كانت مدة الراضى منازعات سياسية بين هؤلاء المتغلبين الذين كل منهم يود أن له تكون إمارة الأمراء ببغداد والأعداء ينتقصون كل يوم أطراف الخلافة ولم يعد لها شيء من الهيبة ولا نفوذ الكلمة

ومما زاد الأمر إدبارا ظهور المنازعات الدينية ببغداد عاصمة الخلافة فقد ظهر بها الحنابلة وقويت شوكتهم وصاروا يكبسون دور القواد والعامة وإن وجدوا نبيذا أراقوه وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء واعترضوا فى البيع والشراء ومشى الرجال مع النساء والصبيان فاذا رأوا من يمشى مع امرأة أو صبى سألوه عن الذى معه من هو فان أخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة فأرهجوا بغداد فركب بدر الخرشنى وهو صاحب الشرطة ونادى فى جانبى بغداد فى أصحاب أبى محمد البربهارى الحنابلة لا يجتمع منهم اثنان ولا يناظرون فى مذهبهم ولا يصلى منهم إمام إلا إذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى صلاة الصبح والعشاءين فلم يفد فيهم وزاد شرهم وفتنتهم واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون إلى المساجد وكانوا إذا مر بهم شافعى المذهب أغروا به العميان فيضربونه بعصيهم حتى يكاد يموت فخرج توقيع الراضى بما يقرأ على الحنابلة ينكر عليهم فعلهم ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره فمنه تارة أنكم تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم الرذلة على هيئته وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين والشعر القطط والصعود إلى السماء والنزول إلى الدنيا تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ثم طعنكم على خيار الأئمة ونسبتكم شيعة آل محمد صلى الله عليه وسلم إلى الكفر والضلال ثم استدعاؤكم المسلمين إلى التدين بالبدع الظاهرة والمذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن وإنكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف ولا نسب ولا سبب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرون بزيارته وتدعون له معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء فلعن الله شيطانا زين لكم هذه المنكرات

وما أغواه وأمير المؤمنين يقسم بالله قسما جهداً يلزمه الوفاء به لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوج طريقتكم ليوسعنكم ضربا وتشريداً وقتلا وتبديداً وليستعملن السيف فى رقابكم والنار فى منازلكم ومحالكم

وبذلك يتبين أن الشقاق والنزاع تجاوزا الأمراء إلى عامة الناس وقلما وجدت المنازعات الدينية بين قوم إلا ذلوا وفشلوا

أمر القرامطة

لم تزل القرامطة على حالهم فى الافساد والعيث واعتراض الحجاج وفى سنة ٣٢٢ أرسل محمد بن ياقوت رسولا إلى أبى طاهر يدعوه إلى طاعة الخليفة ليقره على ما بيده من البلاد ويقلده بعد ذلك ماشاء من البلدان ويحسن اليه ويلتمس منه أن يكف عن الحاج جميعهم وأن يرد الحجر الأسود إلى موضعه بمكة فأجاب أبو طاهر إلى أنه لايعترض للحاج ولا يصيبهم بمكروه ولم يجب إلى رد الحجر الأسود إلى مكة وسأل أن تطلق له الميرة من البصرة ليخطب للخليفة بهجر. فسار الحاج إلى مكة هذه السنة ولم يعترضهم القرمطى. ولكنه فى سنة ٣٢٣ اعترضهم فخرج جماعة من العلويين بالكوفة إلى أبى طاهر فسألوه أن يكف عن الحاج فكف عنهم وشرط عليهم أن يرجعوا إلى بغداد فرجعوا ولم يحج هذه السنة من العراق أحد وسار أبو طاهر إلى الكوفة فأقام بها عدة أيام ورحل عنها

وفى سنة ٣٢٦ أصابهم خلل وفساد فى سياستهم وسببه ما كان من ابن سنبر وهو رجل كان من خواص أبى سعيد القرمطى والمطلعين على سره وكان له عدو من القرامطة يدعى أباحفص فعمد ابن سنبر إلى رجل من أصبهان وقال له إذا ملكتك أمر القرامطة أريد منك أن تقتل عدوى أبا حفص فأجابه إلى ذلك وعاهده عليه وأطلعه على أسرار أبى سعيد وعلامات كان يذكر أنها فى صاحبهم الذى يدعون اليه فحضر عند أولاد أبى سعيد وذكر لهم ذلك فقال أبو طاهر هذا هو الذى ندعو اليه فأطاعوه ودانوا له حتى كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله وكان إذا كره رجلا يقول إنه مريض يعنى إنه قد شك فى دينه ويأمر بقتله وبلغ أبا طاهر أن الأصبهانى يريد قتله ليتفرد بالملك فقال

لاخوته لقد أخطأنا فى هذا الرجل وسأكشف حاله فقال له إن لنا مريضاً فانظر اليه ليبرأ فحضروا وأضجعوا والدته وغطوها بازار فلما رآها قال إن هذا المريض لا يبرأ فاقتلوه فقالوا له كذبت هذه والدتك ثم قتلوه بعد أن قتل منهم خلق كثير من عظمائهم وشجعانهم وكان هذا سبب تمسكهم بهجر وترك قصد البلاد والافساد فيها

وفى عهد الراضى ظهرت الدولة الاخشيدية بمصر على يد مؤسسها محمد الاخشيد ابن طغج وهو من موالى آل طولون وكان ملكه مصر سنة ٣٢٣ واستمر الملك فى عقبه الى سنة ٣٥٨ وهم الذين تسلم منها الفاطميون مصر وهذا ثبت ملوكهم

(١) محمد الاخشيد بن طغج	٣٢٣ — ٣٣٤
(٢) أبو القاسم أنوجور بن الاخشيد	٣٣٤ — ٣٤٦
(٣) أبو الحسن على بن الاخشيد	٣٤٦ — ٣٥٥
(٤) أبو المسك كافور مولى الاخشيد	٣٥٥ — ٣٥٧
(٥) أبو الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد	٣٥٧ — ٣٥٧

وفى عهد الراضى مات عبيد الله المهدى أول خلفاء الفاطميين بالمهدية وولى بعده ابنه أبو القاسم محمد وكان يحاول ملك مصر فلم يتمكن

ختم الراضى الخلفاء فى أشياء منها أنه آخر خليفة دون له شعر وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة وآخر خليفة جالس الندماء ووصل إليه العلماء وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجرى على قواعد الخلفاء المتقدمين

وفى أيامه حدث اسم أمير الأمراء فى بغداد وصار إلى أمير الأمراء الحل والعقد والخليفة يأتمر بأمره وليس له من نفوذ الكلمة ولا سلطان الخلافة شيء

وكان الراضى أديباً له شعر مدون يحب محادثة الأدباء والفضلاء والجلوس معهم وكان سمحا سخياً

توفى الراضى فى منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٩ (١٨ ديسمبر سنة ٩٤٠) ابن الأثير

٢١ — المتقى

هو إبراهيم المتقى لله بن المعتمد بن أبى أحمد الموفق طلحة بن المتوكل وأمه أم ولد اسمها خلوب بويع بالخلافة فى ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٢٩ (٢٤ ديسمبر سنة ٩٤٠) ولم يزل خليفة حتى خلع فى ٢٠ صفر سنة ٣٣٣ (١٢ أكتوبر سنة ٩٤٤) فكانت مدته ٤ سنوات و ١١ شهرا

كيف انتخب

لما مات الراضى كان بجكم بواسط فورد كتابه مع وزيره أبى عبد الله الكوفى يأمر فيه بأن يجتمع مع أبى القاسم سليمان بن الحسن وزير الراضى كل من تقلد بالوزارة وأصحاب الدواوين والعلويون والقضاة والعباسيون ووجوه البلد ويشاورهم الكوفى فيمن ينصب للخلافة ممن يرتضى مذهبه وطريقته فجمعهم الكوفى واستشارهم فاتفقوا على إبراهيم بن المقتدر فبايعوه فى التاريخ السابق ولقب نفسه المتقى لله وسير الخلع واللواء إلى بجكم بواسط

الحال فى عهده

كان بجكم أمير الأمراء والتدبير كله إلى وزيره أبى عبد الله الكوفى وليس للخليفة ولا لوزيره سليمان بن الحسن شىء لم يطل زمن بجكم فى الامارة فان البريدى كان لايزال يمنى نفسه بالاستيلاء على بغداد فأنفذ من البصرة جيشا الى المذار فأنفذ اليه بجكم جيشا يقوده قائد من كبار قواده اسمه توزون فالتقى الجيشان واقتتلا وكان النصر أولا لجيش البريدى فأرسل توزون إلى بجكم يطلب أن يلحق به فسار اليه وصادف أن عادت الكرة لتوزون فأرسل إلى بجكم يخبره بالظفر فأراد الرجوع إلى واسط فأشار عليه بعض أصحابه أن يتصيد فسار حتى بلغ نهرجور وحينذاك اغتاله رجل من الاكراد الذين يسكنون هناك وكان قتله مفرجا عن البريدى ومفيدا للمتقى لأنه استولى على داره وما فيها من الأموال فبلغ ماناله ألف ألف ومائتى دينار . وكانت مدة امارة بجكم سنتين وثمانية أشهر

لما قتل بجكم انحدر الديلم إلى البريدى فقوى بهم وعظمت شوكته فسار مريدا الاستيلاء على بغداد ولم يتمكن الخليفة من صده فدخلها فى ١٢ رمضان سنة ٣٢٩ ولقيه الوزير والقضاة والكتاب وأعيان الناس فأنفذ اليه المتقى يهنئه بسلامته . ولم يتم له ما أراده من التأمير لأن الأتراك والديالمة اختلفوا عليه ففارق بغداد بعد أن أقام بها ٢٤ يوما وحينئذ تقدم على الجند كورتكين الديلمى فسماه المتقى أمير الأمراء وخلع عليه . وكانت مدته مضطربة لأن عامة البغداديين تأذوا من الديلم فلم ينكر كورتكين على جنده مافعلوه لذلك حصلت وقائع بين العامة والديلم ولما رأى المتقى أن كورتكين ليس عنده من المنعة مايزيل به الاضطراب أرسل إلى ابن رائق وهو بالشام يطلب إليه الرجوع إلى بغداد ليكون أمير الأمراء فعاد . أما كورتكين فانه خرج إليه وقابله بعكبرا فوقعت الحرب بينهما عدة أيام وفى ٢١ ذى الحجة سار ابن رائق بجيشه ليلا فأصبح ببغداد وقابل المتقى . أما كورتكين فانه لما أحس فى الصباح بمسير ابن رائق تبعه إلى بغداد وكانت عليه الهزيمة حين لاقته جنود ابن رائق فاختفى وأخذ ابن رائق من استأمن إليه من الديلم فقتلهم وكانوا نحو ٤٠٠ وحينئذ خلع المتقى على ابن رائق وسماه أمير الأمراء .

تجددت أطماع البريدى لما علم بضعف الديلم والأتراك بسبب ماقتل منهم ابن رائق فأرسل جندا فى الدجلة للاستيلاء على بغداد ولم ير مقاومة شديدة فاستولى عليها وهرب المتقى وابنه وابن رائق إلى الموصل أما أصحاب البريدى فانهم فعلوا ببغداد فعالا قبيحة قتلوا من وجدوه فى دار الخليفة من الحاشية ونهبوها ونهبوا دور الحرم وكثر النهب فى بغداد ليلا ونهارا وكبسوا الدور وأخرجوا أهلها منها حتى عظم الأمر وغلت أسعار الحنطة والشعير وأصناف الحبوب وكان ذلك كله سببا لوقوع الفتن والاضطراب وفى آخر شعبان زاد البلاء على الناس فكبسوا منازلهم ليلا ونهارا واستتر أكثر العمال لعظيم ماطولبوا به مما ليس فى السواد وعلى الجملة فان هذه الفترة ببغداد لم ير أهلها مثل ماحصل فيها من الشدة

طلب المتقى من ناصر الدولة بن حمدان أن يعينه على البريديين فأرسل أخاه سيف الدولة لنصرته فلقيه هو وابن رائق بتكريت فرجع معهما إلى الموصل وهناك جاء ناصر الدولة واغتال ابن رائق لأنه يريد أن يحل محله فى إمرة الأمراء وقد كان ذلك

فان المتقى خلع عليه وسماه أمير الأمراء فى أول شعبان سنة ٣٣٠ وخلع على اخيه أبى الحسن على ولقبه ذلك اليوم بسيف الدولة

بعد ذلك تجهز ناصر الدولة وسار إلى بغداد معه المتقى ولما قارباها هرب عنها أبو الحسين بن البريدى وسار إلى واسط بعد أن أقام ببغداد ثلاثة أشهر وعشرين يوما ودخل المتقى بغداد ومعه بنو حمدان فى جيوش كثيرة

ثم خرج بنو حمدان يريدون واسط لأخذها من البريدى فأقام ناصر الدولة بالمدائن وسير أخاه سيف الدولة لقتال البريدى فالتقى به تحت المدائن بفرسخين وكانت مقاومة البريدى شديدة حتى إنه هزم سيف الدولة ومن معه فعاد إلى المدائن فقواهم ناصر الدولة بجنود أخرى فعادوا فقاتلوا أبا الحسين وهزموه ولكن سيف الدولة لم يتبعه إلى واسط لما فى أصحابه من الوهن والجراح ولما اندملت جراحهم وقووا سار سيف الدولة إلى واسط فأخذها وانحدر أبو الحسين إلى البصرة وأقام سيف الدولة بواسط وكان يريد المسير إلى البصرة فلم يمكنه لقلة المال عنده فكتب إلى أخيه فلم يسعفه فحصل بين الأخوين وحشة ووقع سيف الدولة فى أخيه ناصر الدولة وكان القواد الذين معه من الأتراك قد قلت عندهم هيبته لقلة المال فساروا به وكبسوه ليلا فهرب وترك معسكره ولما علم ناصر الدولة بالخبر سار عن بغداد إلى الموصل وترك إمارة الأمراء بعد أن أقام فيها ثلاثة عشر شهرا وخمسة أيام

اختار المتقى بعد رحيل ناصر الدولة لامارة الأمراء أكبر قواد الديلم واسمه توزون ولم يكن عنده شىء من حسن السياسة فاستوحش منه المتقى وخافه على نفسه فرأى أن يسير إلى الموصل مستعينا بالحمدانيين فبارح بغداد اليها ولما بلغ ذلك توزون تبعه حتى وصل تكريت وهناك التقى بسيف الدولة فقابله وهزمه مرتين ثم استولى على الموصل فسار عنها بنو حمدان والمتقى معهم إلى نصيبين . ثم ترددت الرسل بين توزون من جهة وبين الحمدانيين والمتقى من جهة على الصلح فتم على أن يضمن ناصر الدولة مابيده من البلاد ثلاث سنين كل سنة بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم وعاد توزون إلى بغداد ولم يعد معه المتقى بل استمر فى الموصل . ثم أرسل إلى توزون يطلب منه أن يعود إلى بغداد فأظهر توزون الرغبة فى ذلك وحلف المتقى أنه لايغدر به فاغتر المتقى بتلك اليمين وسار إلى بغداد فلقيه توزون تحت هيت ولما رآه قبل له

الأرض وقال هاأنا ذاقد وفيت بيميني والطاعة لك ثم وكل به وبعدذلك سمله وخلعه وبذلك انتهت خلافة المتقى

٢٢ — المستكفى

هو أبو القاسم عبد الله المستكفى بالله بن المكتفى بن المعتضد
لما قبض توزون على المتقى أحضر المستكفى اليه إلى السندية وبايعه هو وعامة الناس

الخلافة العباسية تحت سلطان آل بويه .

يبتدئ هذا الدور من سنة ٣٣٤ إلى سنة ٤٤٧ تولى الخلافة فيه خمسة خلفاء وهم المستكفى والمطيع والطائع والقادر والقائم

تاريخ هذا الدور يرتبط بتاريخ آل بويه الديلميين الذين كانوا أصحاب النفوذ الحقيق والسلطان الفعلى فى العراق لذلك أردنا أن نسوق فصلا نبين فيه أحوال الديلم وكيف تصرفت بهم الأحوال إلى أن وصلوا إلى ذروة العظمة باستيلائهم على بغداد عاصمة الخلافة العباسية

بلاد الديلم أو بلاد جيلان واقعة فى الجنوب الغربى من شاطئ بحر الخزر سهلها للجبل وجبالها للديلم وقصبتها روزبار

كانت فى القديم إحدى الايالات الفارسية إلا أن اهلها لم يكونوا من العنصر الفارسى بل عنصر ممتاز يطلق عليه اسم الديالمة أو الجيل . ولما أذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالانسياح فى بلاد العجم كانت بلاد الديلم مما فتحه المسلمون واستمر الديلم خاضعين للحكم الاسلامى مع بقائهم على وثنيتهم ولم يكن استيلاء المسلمين عليهم مما ينقص من شجاعتهم أو يفقدهم جنسيتهم . وكانت تجاورهم بلاد طبرستان وأكثر أهلها دانوا بالاسلام وكان بين الديالمة والطبريين سلم وموادعة

على هذا كان الحال فى صدر الدولة العباسية فلا الديالمة تحدثهم أنفسهم بالخروج إلى بلاد المسلمين ولا المسلمون يحدثون أنفسهم بالتوغل فى بلادهم حتى كانت حادثة إقطاع المستعين محمد بن طاهر تلك القطائع التى يقرب بعضها من ثغور طبرستان وأراد

رسول ابن طاهر أن يستلمها ومعها الأرض التي كانت مرافق لأهل تلك النواحي فامتنع من ذلك أهل طبرستان وأظهروا العصيان لمحمد بن طاهر ورأوا أن ذلك لا يتم إلا أن يكون على رأسهم رجل يدينون بطاعته فاتفقوا على الحسن بن زيد الذي قدمنا حديثه في خلافة المستعين وكان مقيما بالري فراسلوه فأقبل اليهم فبايعوه وطلبوا من الديلم أن يساعدوهم على عمال ابن طاهر فبذلوا لهم ماطلبوا من المساعدة لاساءة كانت من عمال ابن طاهر اليهم. استولت هذه القوة على مدن طبرستان ثم الري وجرجان ولم يزل الحسن مدبر أمرهم حتى مات سنة ٢٧١ ثم ولي أخوه محمد بن زيد وكانت مدته مضطربة حتى قتل سنة ٢٨٧ وكان وجود الحسن بن زيد وأخيه في تلك البلاد سبباً لمواصلة أهل الديلم وشيوع الدعوة الاسلامية بينهم

بعد ذلك دخل بلاد الديلم الحسن بن علي الملقب بالأطروش وأقام بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم إلى الاسلام ويقتصر منهم على العشر ويدفع عنهم عدوهم فأسلم منهم خلق كثير واجتمعوا عليه وبنى في بلادهم المساجد. وكان لآل سامان بازائهم ثغور مثل قزوين وسالوس وغيرهما وكان بمدينة سالوس حصن منيع فهدمه الحسن لما أسلم الديلم والجيل — ثم إنه جعل يدعوهم إلى الخروج معه إلى طبرستان فلا يجيبونه لاحسان عبدالله بن محمد بن نوح الذي كان أميراً على تلك الجهات من قبل آل سامان فاتفق أن أحمد الساماني عزل عبد الله وولى بدله آخر اسمه سلام فلم يحسن سياسة أهلها فهاج عليه الديلم فقاتلهم وهزمهم واستقال من الولاية فأعاد أحمد الساماني عبد الله بن محمد بن نوح فصلحت البلاد — ولما مات جاءها وال غير رسومه وأساء السيرة وقطع عن رؤساء الديلم ما كان يهديه اليهم ابن نوح فانتهز الحسن بن علي الفرصة وهيج الديلم عليه ودعاهم إلى الخروج معه فأجابوه وخرجوا معه حتى التقوا بأمير طبرستان فهزموه واستولوا على طبرستان وكان أكبر معينيه ليلى بن النعمان وماكان ابن كالي الديلميان وكانا من عظماء الديلم وقوادهم استوليا على طبرستان وجرجان باسم الحسن بن علي الأطروش. وممن عرف اسمه في تلك الوقائع الحسن بن القاسم الداعي العلوي وكان ختن الأطروش

توفي الأطروش سنة ٣٠٤ وكان يلقب بالناصر لله وكان له من الأولاد الحسن وأبو القاسم والحسين وكان الحسن مغاضبا له فلم يوله شيئا وولى ابنيه الآخرين

فكانت طبرستان في أيديهما بمعونة الحسن بن القاسم الداعى

وفى سنة ٣٠٩ قتل ليلى بن النعمان أحد قواد الزيدية وكان يلى بلادجرجان وكان أولاد الأطروش يكاتبونه المؤيد لدين الله المنتصر لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلى بن النعمان وكان سبب قتله أنه سار إلى نيسابور بأمر الحسن بن القاسم يريد الاستيلاء عليها وكانت بيد السامانية فكان فى هذه الاغارة حتفه وانهزام جنوده ثم تقدمت جنود السامانية إلى جرجان وبها أبو الحسين بن الناصر فانهزم عنها إلى استراباذ ثم فارقها وقصد مدينة سارية وجعل باستراباذ ماكان بن كالى وهو ثانى القواد المشهورين من الديلم بعد ليلى بن النعمان فاجتمع إليه الديلم وقدموه وأمروه عليهم وكان على يديه إعادة جرجان من الجنود السامانية فأقام بها

وكان من أصحاب ماكان قائد ديلمى اسمه أسفار بن شيرويه وكان سيء الخلق والعشرة فأخرجه ماكان من عسكره فاتصل بأمير نيسابور للسامانية وهو بكر بن محمد بن اليسع فأكرمه بكر وسيره إلى جرجان ليأخذها من يد أبي الحسن ابن كالى أخى ماكان وكان أخوه قد ولاه عليها وذهب إلى طبرستان . وكان أبو الحسن قد اعتقل أبا على بن الأطروش عنده فتمكن أبو على من الخلاص من هذا الاعتقال واغتال أباالحسن ماكان وأرسل إلى جماعة القواد يخبرهم بقتله ففرحوا وبايعوا العلوى وألبسوه القلنسوة وكاتبوا أسفار بن شيرويه وعرفوه الحال واستقدموه إليهم فسار إلى جرجان وضبطها وجاءه ماكان يحاربه فهزمه أسفار وصادف أن مات أبو على ابن الأطروش وصفت جرجان لأسفار وأسفار هذا هو ثالث قواد الديلم . ولما تمكنت قدمه بجرجان أرسل لمرداويج بن زيار الجيلى يستدعيه فحضر عنده وجعله أمير الجيوش وأحسن اليه ثم قصدا طبرستان فاستوليا عليها فعلم بذلك الحسن بن القاسم الداعى وهو بالرى ومعه ماكان بن كالى فسار نحوطبرستان والتقى بأسفار عند سارية فانهزم الحسن وماكان ثم أدرك الحسن فقتل وبقتله صفت لأسفار طبرستان والرى وجرجان وقزوين وزنجان وأبهر وقم والكرج ودعالصاحب خراسان وهو السعيد بن نصر السامانى وأقام بسارية ثم استولى على قلعة الموت وهى قلعة على جبل شاهق فى حدود الديلم

عظمت جيوش أسفار وجل قدره فتجبر وعصى على الأمير السعيد صاحب خراسان

وأراد أن يجعل على رأسه تاجا وينصب الرى سرير ذهب للسلطنة ويحارب خليفة بغداد المقتدر بالله فسير اليه المقتدر جيشا حاربه أسفار وانتصر عليه ولما علم السعيد بذلك سار من بخارى حاضرة ملكه ليحارب أسفار ويأخذ بلاده فلما علم أسفار بوصول السعيد إلى نيسابور أدرك أنه لايمكنه أن يقاومه فراسله فى الصلح واتفقا على شروط منها حمل الأموال والخطبة باسمه فى بلاده

وبينما هو فى ذروة عزه قام عليه أكبر قواده مرداويج بن زيار وشق عصا طاعته واتحد مع سلار صاحب شميران وتحالفا وتعاقدا على التساعد على حرب أسفار . ومن حسن حظ مرداويج أن أكثر قواد أسفار كانوا ملوه لجبره وظلمه فسرعان ماأجابوا مرداويج حين أعلمهم بأمره وكانت نتيجة هذا الاتفاق أن قتل أسفار سنة ٣١٦

ملك البلاد مرداويج وأحبته الجنود لحسن سيرته واتسعت رقعة ملكه وعمل له سريرا من ذهب يجلس عليه وسريرا من فضة يجلس عليه أكابر قواده وإذا جلس على السرير يقف عسكره صفوفا بالبعد عنه ولا يخاطبه أحد إلا الحجاب الذين رتبهم لذلك وخافه الناس خوفا شديدا ودخلت فى حوزته طبرستان وجرجان واجتهد ماكان بن كالى أن يدافعه عنهما واستعان بكل وسيلة فلم يقدر وأقبلت الديلم إلى مرداويج من كل ناحية لبذله وإحسانه إلى جنده فعظمت جيوشه وكثرت عساكره فكثر الخرج عليه فلم يكفه مافى يده فذهب إلى همذان واستولى عليها من يد جنود الخليفة وبذلك تم له الاستيلاء على بلاد الجبل كلها وبلغت عساكره إلى نواحى حلوان وهى أول حدود العراق

ثم ملك بعد ذلك أصبهان والأهواز وأرسل إلى المقتدر رسول يقرر على نفسه مالا على هذه البلاد كلها فأجابه المقتدر إلى ذلك وقوطع على مائتى ألف درهم كل سنة

فى سنة ٣٢٠ أرسل مرداويج إلى أخيه وشمكير وهو ببلاد جيلان يستدعيه إليه فجاءه واعتز به . والمؤرخ أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى يؤكد فى كتابه الموسوم بالآثار الباقية عن القرون الخالية الذى ألفه باسم شمس المعالى قابوس ابن وشمكير أن هذه الأسرة من أصل شريف الطرفين فأما أحد الأصلين فوردانشاه الذى لا تجهل سيادته فى الجيل وأما الأصل الآخر فملوك الجبال الملقبون بأصفهبذية طبرستان والفرجوارجرشاهية وليس ينكر اعتزاء من كان منهم من أهل

بيت الملك إلى مايجمعهم والأكاسرة فى شعب واحد فان خاله هو الاصفهبذ رستم ابن قارن بن شرويه بن رستم بن قارن بن قارن بن شهريار بن شروين بن سرخاب بن شابور ابن كياس بن قباذ والد أنوشروان

ولما استقرت قدم مرداويج قدم عليه ثلاثة نفر من أعيان الديلم كانوا من قواد ماكان بن كالى وفارقوه لما ضاقت بهم الحال وهم على والحسن وأحمد أولاد بويه ساروا إلى مرداويج ومعهم جماعة من قواد ماكان . وهؤلاء الثلاثةهم الذين أسسوا الأسرة البويهية التى امتلكت ناصية بلاد العراق وما يحيط بها من البلاد الاسلامية وهى التى تكون الدور الثانى من أدوار الخلافة العباسية ولما ارتفع شأنهم ظهر لهم ذلك النسب العالى فقد ذكر أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى فى كتابه الذى سماه بالتاج أن بويه ينتهى نسبه إلى بهرام جور الملك والبيرونى السابق ذكره يرجح أن هذا النسب إنما ظهر لهم بعد ثبوت ملكهم وإلافتلك الأمم ليست معروفة بحفظ الأنساب ولا مذكورة بتخليد ذلك ولا بأنها كانت تعرف ذلك منهم قبل انتقال الدولة إليهم مع أنه فيما سبق يرجح صحة نسب أخوال وشمكير ويسوقها نسقا حتى يصل بها إلى قباذ ملك الفرس

لما ورد أبناء بويه على مرداويج خلع على على والحسن وولى القواد الذين وصلوا معهما النواحى وولى على بن بويه بلاد الكرج وكتب لهم بذلك العهود فساروا إلى الرى وبها وشمكير أخو مرداويج ومعه وزير مرداويج الحسين بن محمد الملقب بالعميد . صادف أن كان مع ابن بويه بغلة شهباء من أحسن مايكون فعرضها للبيع فبلغ ثمنها ٢٠٠ دينار فعرضت على العميد فأخذها ونقد ثمنها فلما حمل إلى على أخذ منه عشرة دنانيرورد الباقى ومعه هدية جميلة فكان ذلك بدء الصلة بين العميدوآل بويه

ندم مرداويج بعد انفصال هؤلاء القواد على توليتهم فكتب إلى أخيه وشمكير وإلى العميد يأمرهما بمنع أولئك القواد عن المسير إلى أعمالهم وإن كان بعضهم قد خرج يرد وكانت الكتب تصل إلى العميد قبل وشمكير فيقرؤها ثم يعرضها على وشمكير فلما وقف العميد على هذا الكتاب أنفذ إلى على بن بويه يأمره بالمسير من ساعته إلى عمله ويطوى المنازل فسار من ساعته ولما أصبح العميد عرض الكتاب على وشمكير فمنع سائر القواد من الخروج من الرى واستعاد التوقيعات التى كانت

معهم وأراد أن ينفذ خلف علي بن بويه من يرده فقال العميد إنه لا يرجع طوعاً وربما قاتل من يقصده ويخرج من طاعتنا فتركه . وصل علي الكرج وأحسن إلى الناس ولطف بعمال البلاد فكتبوا إلى مرداويج يشكرونه ويصفون ضبطه للبلد وحسن سياسته . وافتتح قلاعات كانت للخرمية وظفر منها بذخائر كثيرة صرفها جميعاً إلى استمالة الرجال والصلات والهبات فشاع ذكره وقصده الناس وأحبوه . ولما كان مرداويج بالري أطلق مالا لجماعة من قواده على الكرج فاستمالهم علي بن بويه ووصلهم وأحسن إليهم حتى مالوا إليه وأحبوا طاعته وبلغ ذلك مرداويج فاستوحش وندم على إنفاذ أولئك القواد فكتب إليهم والى علي يستدعيهم إليه وتلطف بهم ودافعه علي واشتغل بأخذ العهود عليهم وخوفهم سطوة مرداويج فأجابوه جميعاً فجبى علي مال الكرج واستأمن إليه شيرازاد وهو من أعيان قواد الديلم فقويت نفسه وسار بمن معه إلى أصبهان فاستولى عليها من يد المظفر بن ياقوت . بلغ ذلك الخليفة فاستعظمه وبلغ مرداويج فأقلقه وخاف على ما بيده من البلاد واغتم لذلك غماً شديداً ولكن رأى أن يحتال فراسل علياً يعاتبه ويستميله ويطلب منه أن يظهر طاعته حتى يمده بالعساكر الكثيرة ليفتح بها البلاد ولا يكلفه سوى الخطبة له في البلاد التي يستولي عليها وجهز بعقب تلك الرسالة أخاه وشمكير في جيش كثيف ليكبس علياً وهو مطمئن إلى الرسالة المتقدمة فعلم بذلك فرحل عن أصبهان بعد أن جباها شهرين وتوجه إلى أرجان وبها أبو بكر بن ياقوت فانهزم عنها أبو بكر من غير قتال وقصد رامهرمز فاستولى علي على أرجان في ذي الحجة سنة ٣٢٠ فاستخرج منها أموالا قوي بها . جاءته وهو بها كتب من أبي طالب زيد بن علي النوبندجاني يستدعيه ويشير عليه بالمسير إلى شيراز ويهون عليه أمر ياقوت وأصحابه ويعرفه بتهوره واشتغاله بجباية الأموال وكثرة مؤنته ومؤنة أصحابه وثقل وطأتهم على الناس مع فشلهم وجبنهم فتردد علي أولا ثم عزم على المصير فسار نحو النوبندجان في ربيع الآخر سنة ٣٢١ فلقي بها مقدمة ياقوت فهزمها ثم سار منها إلى اصطخر خوفاً أن يقع بين ياقوت ومرداويج لأنه بلغه أنهما تراسلا ليتفقا عليه فقابله في الطريق ياقوت بجيوشه فكان النصر لعلي وانهزم ياقوت هو ومن معه وكان أحمد بن بويه ممن ظهر أثره في ذلك اليوم وهو صبي لم تنبت لحيته وكان عمره ١٩ سنة . وبعد هذا الانتصار عامل علي

الأسرى أحسن معاملة وخيرهم بين المقام عنده واللحاق بياقوت فاختاروا المقام عنده فخلع عليهم وأحسن إليهم ثم سار حتى أتى شيراز قصبة فارس فاستولى عليها ونادى فى الناس بالأمان وبث العدو وأقام لهم شحنة تمنع ظلمهم واستولى على كثير من أموال ياقوت وودائعه فسهلت عليه أمر استرضاء الجنود والتودد إليهم فأحبوه وثبت ملكه ثم أرسل إلى خليفة بغداد الراضى بالله وإلى وزيره ابن مقلة يعرفهما أنه على الطاعة ويطلب أن يقاطع على ما بيده من البلاد وبذل ألف ألف درهم فأجيب إلى ذلك وأنفذت إليه الخلع واللواء

لما بلغ مرداويج ما ناله ابن بويه قام لذلك وقعد وسار إلى أصبهان للتدبير عليه وبها أخوه وشمكير فرأى أن ينفذ عسكر إلى الأهواز للاستيلاء عليها ويسد الطريق على ابن بويه إذا قصده فلا يبقى له طريق إلى الخليفة ويقصده هو من ناحية أصبهان ويقصده عسكره من ناحية الأهواز فلا يثبت لهم . فسارت عساكر مرداويج حتى بلغت أيذج فى رمضان ثم استولت على رامهرمز فى شوال سنة ٣٢٢ ثم استولت على الأهواز وأجلت عنها ياقوتا . بلغ ابن بويه أن مرداويج استولى على الأهواز فكاتب نائبه يستميله ويطلب منه أن يتوسط بينه وبين مرداويج ففعل واستقر الأمر بينهما على أن ابن بويه يخطب لمرداويج وأهدى له ابن بويه هدية جميلة وأنفذ له أخاه الحسن رهينة

من حسن حظ ابن بويه أن مرداويج قتل بعد ذلك سنة ٣٢٣ تمردت عليه جنوده الأتراك لأنه كان كثير الاساءة إليهم ويفضل عليهم الديالمة الذين هم من عنصره فاتفقوا على اغتياله ففعلوا وكان رؤساء المتألبين عليه من الأتراك بجكم وتوزون وهما اللذان ذكرنا أنهما توليا إمرة الأمراء بالعراق وياروق وابن بغرا ومحمد بن ينال الترجمان . ولما تم لهم ماأرادوا تفرق الجيش فأما الأتراك فافترقوا فرقتين فرقة منهم لحقت بابن بويه وفرقة سارت نحو الجبل مع بجكم . وأما الديلم فذهبوا إلى وشمكير وهو بالرى وأطاعوه . وكان من نتيجة قتل مرداويج أن تخلص الحسن بن بويه الذى كان رهينة عنده وسار إلى أخيه بفارس

سارت القوى الكبرى ببلاد العجم ثلاثا قوة على بن بويه بفارس وقوة وشمكير ابن شيرويه بالرى وقوة السامانية بخراسان وما وراء النهر . أما ياقوت الذى كان

بالأهواز فضعفت قوته جدا حتى لم تعد قادرة على حفظ مامعها فضلا عن مصادمة غيرها أما القوة الحية النامية فهى قوة ابن بويه . سير أخاه الحسن إلى بلاد الجبل ومعه العساكر فاستولى على اصبهان وأزال عنها وعن عدة من بلاد الجبل نواب وشمكير وبقى هو ووشمكير يتنازعان هذه البلاد وهى أصبهان وهمذان وقم وقاشان وكرج والرى وكنكور وقزوين وغيرها حتى تم للحسن بن بويه الاستيلاء عليها بعد خطوب وحروب طويلة وانجلى عنها نواب وشمكير

خطر ببال على بن بويه أن يمد سلطانه إلى الأهواز والعراق لما علمه من ضعف قوة الخليفة ببغداد وكان هو مشغولا بادارة إقليم فارس وأخوه الحسن مشغولا ببلاد الجبل وأخوهما الأصغر لاشغل له فسيره على إلى الأهواز فاستولى عليها بعد حروب بينه وبين بجكم الرائق وانهزم بجكم إلى واسط

كان من أهم مقاصد ابن بويه المسير إلى العراق بعد الاستيلاء على واسط فصار أحمد ابن بويه يسير إلى واسط ثم يعود عنها حتى كاتبه قواد بغداد يطلبون اليه المسير نحوهم للاستيلاء على بغداد فوصلها فى ١١ جمادى الأولى سنة ٣٣٤ والخليفة بها هو المستكفى بالله فقابله واحتفى به وبايعه أحمد وحلف كل منهما لصاحبه هذا بالخلافة وذاك بالسلطنة وفى هذا اليوم شرف الخليفة بنى بويه بالألقاب فلقب عليا صاحب بلاد فارس عماد الدولة وهو أكبرهم ولقب الحسن صاحب الرى والجبل ركن الدولة ولقب أحمد صاحب العراق معز الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على النقود

وهذا اليوم هو تاريخ الدور الثانى للخلافة العباسية وهو تاريخ سقوط السلطان الحقيقى من أيديهم وصيرورة الخليفة منهم رئيسا دينيا لاأمر له ولانهى ولا وزير وإنما له كاتب يدبر اقطاعاته واخراجاته لاغير وصارت الوزارة لمعز الدولة يستوزر لنفسه من شاء

وكان يخطر ببال معز الدولة أن يزيل اسم الخلافة أيضا عن بنى العباس ويوليها علويا لأن القوم كانوا شيعة زيدية لأن التعاليم الاسلامية وصلت اليهم على يد الحسن ابن زيد ثم على يد الحسن الأطروش وكلاهما زيدى فكانوا يعتقدون أن بنى العباس قد غصبوا الخلافة واخذوها من مستحقيها ولكن بعض خواصه أشار عليه ألا يفعل وقال له إنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو

أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوا فأعرض عما كان قدعزم عليه وأبقى اسم الخلافة لبنى العباس وانفرد هو بالسلطان ولم يبق بيد الخليفة شيء البتة إلا ما أقطعه معز الدولة مما يقوم بحاجته

كان السلطان في ذلك الوقت ببلاد الأندلس لبنى أمية والقائم بالأمر منهم عبد الرحمن الناصر وقد تلقب بأمير المؤمنين حينما وصلت خلافة بغداد إلى ما وصلت اليه من الضعف أمام الأتراك والديالمة الذين سال سيلهم ببغداد

وببلاد افريقية للعبيديين الذين تأسست دولتهم على أنقاض الأغالبة والأدارسة والقائم بالأمر منهم اسماعيل المنصور وهو ثانى خلفائهم وكان يلقب بأمير المؤمنين

وبمصر والشام للاخشيديين والأمير منهم أنوجور بن محمد الاخشيد وكانوا يخطبون باسم الخليفة العباسى

وبحلب والثغور لسيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان الشيبانى ويخطب باسم الخليفة العباسى

وبالجزيرة الفراتية لناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان الشيبانى ويخطب باسم الخليفة العباسى

وبالعراق للديلم والسلطان منهم معز الدولة أحمد بن بويه ويخطب على منابره باسم الخليفة العباسى ثم باسم معز الدولة من بعده

وبعمان والبحرين واليمامة وبادية البصرة للقرامطة ويخطبون باسم المهدى

وبفارس والأهواز لعلى بن بويه الملقب عماد الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسى وكان يلقب بأمير الأمراء لأنه أكبر بنى بويه

وبالجبل والرى لحسن بن بويه الملقب ركن الدولة ويخطب باسم الخليفة العباسى وجرجان وطبرستان يتنازعها وشمكير بن شيرويه وركن الدولة وآل سامان

وبخراسان وماوراء النهر لآل سامان ومقر ملكهم مدينة بخارى ويخطبون على منابرهم باسم الخليفة العباسى

هذه هى القوى الكبرى التى كانت لأسر ماوكية فى الرقعة الاسلامية فقد تفرق هذا الملك الواسع تفرقا غريبا بعد أن كان متماسك الأعضاء يرجع كله إلى حاضرة

كبرى تجمع شتاته . ومما يستحق النظر أن العنصر العربي لم يبق له شيء من الملك إلا ما كان لناصر الدولة وأخيه سيف الدولة فانهما من عنصر عربي ومع هذا فقد كان النفوذ والسلطان فيما يليانه من البلاد لقواد من الأتراك ولم يكن لهما استقلال سياسي بل كان أمر بني بويه فوقهما وكانا يذكران اسم معز الدولة في الخطبة بعد ذكر الخليفة العباسي

لم يمكث المستكفي في الخلافة بعد استيلاء معز الدولة إلا أربعين يوما وخلع لأن معز الدولة اتهمه بالتدبير عليه فصمم على خلعه ففي الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ حضر عند الخليفة وحضر الناس ورسول صاحب خراسان ثم حضر اثنان من نقباء الديلم يصيحان فتناولا يد المستكفي فظن أنهما يريدان تقبيلها فمدها اليهما فجذباه عن سريره وجعلا عمامته في حلقه ونهض معز الدولة واضطربت الناس ونهبت الأموال وساق الديلميان المستكفي ماشياً إلى دار معز الدولة فاعتقل بها ونهبت دار الخلافة حتى لم يبق بها شيء وقبض على أبي أحمد الشيرازي كاتب المستكفي وكانت مدة المستكفي سنة واحدة وأربعة أشهر

٢٣ — المطيع

هو الفضل المطيع لله بن المقتدر بن المعتضد فهو ابن عم المستكفي بويع بالخلافة ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ (٢٩ يناير سنة ٩٤٦) ولم يزل خليفة إلى أن خلع في منتصف ذي القعدة سنة ٣٦٣ (٧ أغسطس سنة ٩٧٤) فكانت مدته ٢٩ سنة وخمسة أشهر غير أيام ولم يكن له من الأمر شيء والنفوذ في حياته للملوك من آل بويه وهم .

(أولا) معز الدولة

وهو أحمد بن بويه فاتح العراق وكان أصغر إخوته وكان سلطان معز الدولة بالعراق مبدأ خرابه بعد أن كان جنة الدنيا فانه لما استقرت قدمه فيه شغب الجند عليه وأسمعوه المكروه فضمن لهم أرزاقهم في مدة ذكرها لهم فاضطر إلى ضبط الناس وأخذ الأموال من غير وجوهها وأقطع قواده وأصحابه القرى جميعها التي للسلطان

وأصحاب الأملاك فبطل لذلك أكثر الدواوين وزالت أيدى العمال وكانت البلاد قد خربت من الاختلاف والغلاء والنهب فأخذ القواد القرى وزادت عمارتها معهم وتوفر دخلها بسبب الجاه فلم يمكن معز الدولة العود عليهم بذلك وأما الأتباع فان الذى أخذوه زاد خرابا فردوه وطلبوا العوض عنه فعوضوا وترك الأجناد الاهتمام بمشارب القرى وتسوية طرقها فهلكت وبطل الكثير منها وأخذ غلمان المقطعين فى الظلم وتحصيل العاجل فكان أحدهم إذا عجز الحاصل تممه بمصادراتها . ثم إن معز الدولة قد فوض حماية كل موضع إلى بعض أكابر أصحابه فاتخذه مسكنا فاجتمع إليه الاخوة وصار القواد يدعون الخسارة فى الحاصل فلا يقدر وزير ولا غيره على تحقيق ذلك فان اعترضه معترض صاروا أعداءله فتركوا وما يريدون فازداد طمعهم ولم يقفوا عند غاية فتعذر على معز الدولة جمع ذخيرة تكون للنوائب والحوادث وأكثر من إعطاء غلمانه الأتراك والزيادة لهم فى الاقطاع فحسدهم الديلم وتولد من ذلك الوحشة والمنافرة ولم تمض سنة على بغداد حتى اشتد الغلاء بها فأكل الناس الميتة والسنانير والكلاب وأكل الناس خروب الشوك وكانوا يسلقون حبه ويأكلونه فلحق الناس أمراض وأورام فى أحشائهم وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى فكانت الكلاب تأكل لحومهم وانحدر كثير من أهل بغداد إلى البصرة فمات أكثرهم فى الطريق وبيعت الدور والعقارات بالخبز.

فكان نظام الاقطاعات أول فساد بالعراق لأنه أضعف همة الفلاحين الذين يقومون بزرع الأرض وإصلاحها وتنميتها

السبب الثانى من أسباب الفساد اختلافان . الأول اختلاف عنصرى بين الأجناد فانهم كانوا يتألفون من ديلم وأتراك وبين العنصرين غيرة ومنافسات فكان بينهما فى أكثر الأحيان نزاع شديد يعود بالضرر على الناس حيث تقف حركة التجارة لخوف الناس على ما بيدهم من المال وقد كادت هذه المنازعات تودى سنة ٣٣٥ إلى خلع معز الدولة بيد الديلم أنفسهم فانهم لما رأوا تقدم الأتراك ثاروا به ومقدمهم قائد منهم اسمه روزبهان بن ونداد خورشيد وساعده على ذلك أخوه ولكن معز الدولة انتصر عليه بقوة الأتراك فاصطنعهم دون الديلم وأمر بتوبيخ الديلم والاستطالة عليهم ثم أطلق للأتراك إطلاقات زائدة على

واسط والبصرة فساروا لقبضها مدلين بما صنعوا فأخربوا البلاد ونهبوا الأموال وصار ضررهم أكبر من نفعهم . وأما الاختلاف الثاني فهو اختلاف ديني تأججت ناره ببغداد نفسها وبما جاورها من بلاد العراق فقد كان أهل بغداد قبل الدولة البويهية على مذهب أهل السنة والجماعة يحترمون جميع الصحابة ويفضلون الشيخين أبا بكر وعمر على سائرهم ولا يقدحون فى معاوية ولا غيره من سلف المسلمين فلما جاءت هذه الدولة وهى متشيعة غالية نما مذهب الشيعة ببغداد ووجد له من قوة الحكومة أنصارا فقد كتب على مساجد بغداد سنة ٣٥١ ما صورته (لعن الله معاوية ابن أبى سفيان ولعن من غصب فاطمة رضى الله عنها فدكا ومن منع من أن يدفن الحسن عند قبر جده عليه السلام ومن نفى أبا ذر الغفارى ومن أخرج العباس من الشورى) والخليفة كان محكوما عليه لا يقدر على المنع وأما معز الدولة فبأمره كان ذلك فلما كان الليل حكه بعض الناس فأراد معز الدولة إعادته فأشار عليه وزيره أبو محمد المهلبى بأن يكتب مكان ما محى لعن الله الظالمين لآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يذكر أحدا فى اللعن إلا معاوية ففعل ذلك

وفى سنة ٣٥٢ أمر معز الدولة عاشر المحرم أن يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء وأن يظهروا النياحة ويلبسوا قبابا عملوها بالمسوح وأن يخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن يدرن فى البلد بالنوائح ويلطمن وجوههن على الحسين بن على رضى الله عنهما ففعل الناس ذلك ولم يكن للسنية قدرة على المنع لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم

وفى ثامن عشر ذى الحجة أمر معز الدولة باظهار الزينة فى البلد وأشعلت النيران بمجلس الشرطة وأظهر الفرح وفتحت الأسواق بالليل كما يفعل ليالى الأعياد فعل ذلك احتفالا بعيد الغدير يعنى غدير خم وهو الموضع الذى يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فيه عن على من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . وضربت الدبادب والبوقات وكان يوما مشهودا

وبهذا الانقسام صارت بغداد وبلاد فارس والرى ميدانا للاضطرابات المتكررة بين العامة والسلطان ضلعه مع أحد الفريقين والخليفة ضلعه مع الفريق الآخر وهو الأكثر عددا ومن المعلوم أن جميع العداوات يمكن تلافيها فيهون امرها ماعدا

مامنشؤه الدين منها وأعظمها شدة ما كان بين فرقتين من دين واحد فانها يشتد توهجها إذ أوجدت محضاً يحركها لغاياته ولا أشد من يد السلطان فى تحريكها فاذا لعبت فيها أصبعه ماج الناس وهاجوا وأثر ذلك فى الأحوال العامة أسوأ تأثير ولا يزول ذلك إلا بعد أن ينغرس في نفوس الناس حرية الدين والعقيدة ولم يكن ثم سبيل إلى ذلك لأن إحدى الفرقتين تحترم شخصا والأخرى تلعنه فأنى تتفقان

ومع ماأدت إليه سياسة معز الدولة من هذا الفساد كانت هناك أمور أخرى تشغل باله فى شمالى بلاده وجنوبيها أما فى الشمال فناصر الدولة بن حمدان بالموصل وكان الرجلان يتنازعان السلطان وكل يريد الاغارة على مابيد الآخر

ففى السنة الأولى لولاية معز الدولة جاء ناصر الدولة واستولى على الجانب الشرقى من بغداد وكاد أمر معز الدولة يضمحل لولا أن استعمل الحيلة التى خدع بها ناصر الدولة وهزمه فجاء الديلم ونهبوا أموال الناس فكان مقدار ماغنموه من أموال الناس المعروفين دون غيرهم عشرة آلاف ألف دينار وقتلوا كثيرا ممن اتهموه . واضطر ناصر الدولة أن يطلب من معز الدولة الصلح على مال يؤديه عما تحت يده من البلاد فقبل ذلك معز الدولة

وفى سنة ٣٣٧ سار معز الدولة إلى الموصل مريدا الاستيلاء عليها فسار عنها ناصر الدولة إلى نصيبين فدخلها معز الدولة وظلم أهلها وعسفهم وأخذ أموال الرعايا فكرهه الناس وكان من غرضه أن يستولى على جميع مابيد ناصر الدولة من البلاد ولكن بلغه من أخيه ركن الدولة أن جيوش السامانية خرجت تريد الاستيلاء على جرجان والرى وطلب منه المدد فاضطر إلى مصالحة ناصر الدولة فترددت بينهما الرسل واستقر الأمر على أن يؤدى ناصر الدولة عن الموصل وديار الجزيرة كلها والشام فى كل سنة ثمانية ألف ألف درهم ويخطب فى بلاده لأولاد بويه الثلاثة وإذ ذاك رجع معز الدولة إلى بغداد

ولما قامت فتنة روزبهان الديلمى على معز الدولة أراد ناصر الدولة إعادة الكرة على بغداد فسير إليها أحد أولاده فى جيش لكنه لم يتمكن مما أراد فلما انتصر معز الدولة على خصمه ولى وجهه شطر الموصل للانتقام من ناصر الدولة فراسله ناصر الدولة يطلب الصلح على مال ضمنه فقبل ولكن ناصر الدولة لم يف بما ضمن فسار

إليه معز الدولة سنة ٣٤٧ فلما قارب الموصل سار عنها ناصر الدولة إلى نصيبين فاستولى عليها معز الدولة ثم سار إلى نصيبين ففارقها ناصر الدولة إلى ميافارقين فاستولى عليها معز الدولة

ولما رأى ناصر الدولة ما صار إليه سار إلى أخيه سيف الدولة بحلب فلقيه أخوه وبالغ فى إكرامه وراسل معز الدولة فى طلب الصلح فامتنع معز الدولة من تضمين ناصر الدولة لاخلافه مرة بعد أخرى فضمن سيف الدولة البلاد منه بألفى ألف درهم وتسعمائة ألف درهم وكان ذلك فى محرم سنة ٣٤٨

وإنما أجاب معز الدولة إلى الصلح لأنه ضاقت عليه الأموال وتقاعد الناس عن حمل الخراج واحتجوا بأنهم لا يصلون إلى غلاتهم وطلبوا الحماية من العرب أصحاب ناصر الدولة فاضطر بسبب ذلك إلى الانحدار وأجاب إلى الصلح وانحدر إلى بغداد وعاد ناصر الدولة إلى الموصل ومع كل هذا لم تهدأ الحروب بين هذين الطرفين فاشتغلا بها عن كل مصلحة وكان ذلك سببا فيما يأتى ذكره من الضعف أمام الروم

لم يكن هذا وحده الذى يشغل معز الدولة بل كان له فى الجنوب أيضا مشاغل كبرى فقد كان بالبصرة أبو القاسم البريدى أميرا عليها باسم معز الدولة ولكن نفسه كانت تطمع للاستقلال بها وألا يرسل إلى معز الدولة خراجا فكان معز الدولة يرسل إليه الجيوش والبريدى يرسل مثلها فيحصل القتال بين الطرفين

وفى سنة ٣٣٦ عزم معز الدولة أن يسير إلى البريدى بنفسه فسار إليه سالكا البرية فأرسل إليه القرامطة ينكرون عليه مسيره إلى البرية بغير إذنهم فلم يجبهم على كتابهم وقال من هؤلاء حتى يستأمروا ولما وصل إلى الدرهمية استأمن إليه كثير من عسكر البريدى وهرب هو إلى هجر والتجأ إلى القرامطة وملك معز الدولة البصرة

وكانت نتيجة ما فعله مع القرامطة والاستهانة بهم أن جاءوا إلى البصرة سنة ٣٤١ ومعهم أمير عمان من البحر ولكن البصرة قاومتهم بفضل الوزير المهلبى وزير معز الدولة

وفوق هذا فقد حدثت قوة جديدة زادت متاعبه ومشاغله وهى قوة عمران بن شاهين وكان فى أول أمره جابيا فجبا جبايات ثم هرب إلى البطيحة وهى أرض واسعة بين واسط والبصرة وكانت قديما قرى متصلة وأرضا عامرة فاتفق فى أيام

كسرى ابرويز أن زادت دجلة زيادة مفرطة وزاد الفرات أيضا بخلاف العادة فعجز عن سدها فتبطح الماء فى تلك الديار والعمارات والمزارع فطرد أهلها عنها فلما نقص الماء وأراد العمارة أدركته المنية ولم يفعل من بعده شيئا ثم جاء الاسلام فاشتغلوا بالحروب والجلاء ولم يكن للمسلمين إذ ذاك دراية بعمارة الأرضين فلما ألقت الحروب أوزارها واستقرت الدولة الاسلامية فى قرارها استفحل أمر البطائح وفسدت مواضع البثوق وتغلب الماء على النواحى ودخلها العمال بالسفن فرأوا فيها مواضع عالية لم يصل الماء إليها فبنوا فيها قرى وسكنها قوم وزرعوها الأرز . جاء عمران إلى هذه البطائح خوفا من السلطان وأقام بين القصب والآجام متحصنا بها واقتصر على مايصيد من السمك وطيور الماء ثم صار يقطع الطريق على من يسلك البطيحة واجتمع إليه جماعة من الصيادين وجماعة من اللصوص فقوى بهم وحمى جانبه من السلطان فلما خاف أن يقبض استأمن إلى أبى القاسم البريدى فقلده حماية الجامدة ونواحى البطائح وما زال يجمع الرجال إلى أن كثر أصحابه وقوى واستعد بالسلاح واتخذ معاقل على التلول التى بالبطيحة وغلب على تلك النواحى فلما اشتد أمره سير معز الدولة جيشا لمحاربته قائده وزيره أبو جعفر الصيمرى فانتصر أبو جعفر انتصارا باهرا وكاد يأخذ عمران لولا أن شغل معز الدولة بوفاة أخيه الأكبر عماد الدولة فاضطر إلى أن يأمر وزيره بقصد شيراز لاصلاحها ففارق البطيحة وكان ذلك منفسا عن عمران فزاد قوة وجرأة فأنفذ إليه معز الدولة جيشا ثانيا فكان نصيب هذا الجيش الفشل وغنم عمران ماكان فيه من السلاح فقوى وطمع أصحابه فى السلطان فصاروا إذا اجتاز بهم أحد من أصحاب السلطان يطلبون منه البذرقة والخفارة فان أعطاهم وإلا ضربوه وكان الجند لابد لهم من العبور عليهم إلى ضياعهم ومعايشهم بالبصرة وغيرها ثم انقطع الطريق إلى البصرة إلا على الظهر فشكا الناس ذلك إلى معز الدولة فكتب إلى وزيره المهلبى بالمسير إلى واسط وأمده بالجيوش فزحف إلى البطيحة وضيق على عمران فانتهى إلى المضايق التى لايعرفها إلا هو وأصحابه فهجم عليهم المهلبى وكان عمران قد جعل الكمناء فى تلك المضايق فلما تقدم المهلبى خرج عليه وعلى أصحابه الكمناء ووضعوا فيهم السلاح فقتلوا وأغرقوا وأسروا وألقى المهلبى نفسه فى الماء فنجا سباحة وأسر عمران القواد والأكابر فاضطر معز الدولة إلى

مصالحته وإطلاق من عنده من أهل عمران وإخوته فأطلق عمران من فى أسره من أصحاب معز الدولة وقلده معز الدولة البطائح فقوى واستفحل أمره وقد استمر ملك عمران بن شاهين بالبطيحة من سنة ٣٢٩ إلى سنة ٣٦٩ أى أربعين سنة كان فيها شجا فى حلق بنى بويه لايقدرون منه على شىء وانتقل الملك منه إلى أعقابه ومواليهم إلى سنة ٤٠٨ وهذا ثبتهم

(١) عمران بن شاهين	٣٢٩ - ٣٦٩
(٢) الحسن بن عمران	٣٦٩ - ٣٧٢
(٣) أبو الفرج بن عمران	٣٧٢ - ٣٧٣
(٤) أبو المعالى بن الحسن بن عمران	٣٧٣ - ٣٧٣
(٥) المظفر بن على وزير عمران وابنه الحسن بالتغلب	٣٧٣ - ٣٧٦
(٦) مهذب الدولة أبو الحسن على بن نصر بن أخت المظفر	٣٧٦ - ٤٠٨
(٧) أبو الحسين بن مهذب الدولة	٤٠٨ - ٤٠٨
(٨) عبد الله بن نسى بالتغلب	٤٠٨ - ٤٠٨

ثم صارت البطيحة متغلبا لكثير من الأقوياء يتلقاها أحدهم عن الآخر بطريق التغلب والقوة إلى انتهاء الدولة السلجوقية فعادت إلى خلفاء بغداد

لم يكن عهد معز الدولة ببغداد إلا شراكله من جراء الاختلافات والحروب الداخلية والخراب وضعف هيبة السلطان . ولما أحس بقرب منيته وصى ولده بختيار بطاعة عمه ركن الدولة واستشارته فى كل مايفعل وبطاعة عضد الدولة ابن عمه لأنه أكبر منه سناً وأقوم بالسياسة . ثم أدركته منيته فى ١٣ ربيع الآخر سنة ٣٥٦

ومما حصل من حوادث أهل بيته فى عهده وفاة عمه عماد الدولة على بن بويه سنة ٣٣٨ باصطخر ولما لم يكن له ولد ذكر طلب من أخيه ركن الدولة أن يرسل إليه ابنه فناخسرو الملقب عضد الدولة فأجابه فولاه عهده ولما توفى قام عضد الدولة بأمر فارس من بعده وانتقلت إمرة الأمراء إلى أخيه ركن الدولة الحسن

(ثانياً) عز الدولة بختيار

وهو ابن معز الدولة أحمد بن بويه ولى العراق بعد وفاة أبيه واستمر فى سلطانه

إلى أن خلعه ابن عمه عضد الدولة سنة ٣٦٧ فكانت مدته ١١ سنة قضى منها سبع سنين فى خلافة الفضل المطيع وكانت البلاد فى سلطانه أسوأ حالا منها فى سلطان أبيه فانه اشتغل باللهو واللعب وعشرة النساء والمغنين وشرع فى إيحاش كاتبى أبيه أبى الفضل العباس بن الحسين وأبى الفرج محمد بن العباس مع أن أباه أوصاه بتقريرهما لكفايتهما وأمانتهما وأوحش سبكتكين أكبر القواد فلم يحضر داره ونفى كبار الديلم شرها إلى اقطاعاتهم وأموالهم وأموال المتصلين بهم فاتفق أصاغرهم عليه وطلبوا الزيادات فاضطر إلى مرضاتهم واقتدى بهم الأتراك فعلوا مثل ذلك ولم يتم له على سبكتكين ماأراد من اغتياله لاحتياطه واتفاق الأتراك معه وخرج الديلم إلى الصحراء وطلبوا بختيار باعادة من سقط منهم فاحتاج أن يجيبهم إلى ماطلبوا وفعل الأتراك أيضا مثل فعلهم وفى أول عهده قبض أولاد ناصر الدولة بن حمدان ملك الموصل على أبيهم واستقر فى الأمر منهم ابنه أبو تغلب وضمن البلاد من عز الدولة بألف ألف ومائتى ألف درهم كل سنة وكذلك مات سيف الدولة على بن عبد الله بن حمدان صاحب حلب وقام مقامه ابنه أبو المعالى شريف . ومات كافور الأخشيدى صاحب مصر سنة ٣٥٦ وبموته اضطرب أمرها وتهيأت الفرصة للفاطميين . ومات وشمكير بن زيار وهو يحارب ركن الدولة على بلاد الرى يريد استردادها منه وقام بأمر ملكه بعده ابنه بيستون ابن وشمكير سنة ٣٥٧ ومات أيضا نقفور الذى ملك الروم وهدد الثغور الشامية والجزرية وأذاقها الوبال

حال الثغور الإسلامية فى عهد المطيع

كانت الثغور الاسلامية لذلك العهد فى حوزة سيف الدولة على بن حمدان الذى كان متغلبا على حلب والعواصم وديار بكر فكان هو الذى يقوم بحمايتها ودفع العدو عنها . وكان قد ولى هذه الثغور مولاه نصرا فكانا يتناوبان الغزو ولكن لم تكن بهما الكفاية لمقاومة عدو كانت الخلافة الكبرى تحتدله وتهتم أعظم الاهتمام بأمره

فى سنة ٣٣٧ سار سيف الدولة بنفسه إلى بلاد الروم فلقوه فاقتتلوا فكانت عليه وأخذ الروم مرعش وأوقعوا بأهل طرسوس . وفى السنة التى تليها دخل غازيا فكان له النصر أولا ولكنه توغل فى البلاد فلما أراد العودة أخذ عليه الروم المضايق

فهلك من كان معه من الجند أسرا وقتلا واسترد الروم الغنائم والسبي وغنموا أثقال المسلمين وأموالهم ونجا سيف الدولة في عدد يسير

وفي سنة ٣٤١ ملك الروم مدينة سروج وسبوا أهلها وغنموا أموالهم وخربوا المساجد

وفي سنة ٣٤٣ غزا سيف الدولة البلاد الرومية وكان له بها نصر عظيم وقتل في تلك الواقعة قسطنطين بن الدمستق وقد عظم مقتله على أبيه فجمع عساكره من الروم والروس والبلغار وغيرهم وقصد الثغور فسار إليه سيف الدولة فالتقوا عند الحدث في شعبان فاشتد القتال وصبر الفريقان وكانت العاقبة للمسلمين فانهزم الروم وقتل منهم وممن معهم خلق عظيم وأسر صهر الدمستق وابن بنته وكثير من بطارقته والدمستق عند الروم الرئيس الأكبر للجيش والبطارقة قواده

وفي سنة ٣٤٥ سار سيف الدولة إلى بلاد الروم في جيوشه حتى وصل إلى خرشنة وفتح عدة حصون ثم رجع إلى أذنة فأقام بها حتى جاءه رئيس طرسوس فخلع عليه وأعطاه شيئا كثيرا ثم عاد إلى حلب فلما سمع الروم بما فعل جمعوا جموعهم وساروا إلى ميافارقين بديار ربيعة فأحرقوا سوادها ونهبوه وسبوا أهله ونهبوا أموالهم وعادوا ولم يكتفوا بذلك بل ساروا في البحر إلى طرسوس فأوقعوا بأهلها وقتلوا منهم ١٨٠٠ رجل وأحرقوا القرى التي حولها . ثم غزوها مرة ثانية سنة ٣٤٨ وغزوا الرها أيضا ففعلوا بها الأفاعيل وعادوا سالمين لم يكلم أحد منهم كلما

وفي سنة ٣٤٩ سار سيف الدولة إلى بلاد الروم في جمع عظيم فأثر فيها آثارا شديدة وفتح عدة حصون وبلغ إلى خرشنة ثم إن الروم أخذوا عليه المضايق فلما أراد الرجوع قال له من معه من أهل طرسوس إن الروم قد ملكوا الدرب خلف ظهرك فلا تقدر على العود منه والرأى أن ترجع معنا فلم يقبل منهم وكان معجبا برأيه يحب أن يستبد ولا يشاور أحدا لئلا يقال إنه أصاب برأى غيره وعاد من الدرب الذى دخل منه فظهر الروم عليه واستردوا ما كان معه من الغنائم وأخذوا أثقاله ووضعوا السيف في أصحابه فأتوا عليهم قتلا وأسرا وتخلص هو في ٣٠٠ رجل بعد جهد وهذا من سوء رأى المستبدين

وفي سنة ٣٥٠ سار قفل عظيم من أنطاكية إلى طرسوس ومعهم صاحب أنطاكية فخرج عليهم كمين للروم فأخذ من كان فيه من المسلمين وقتل كثيرا منهم وأفلت صاحب

أنطاكية وبه جراحات

وفى سنة ٣٥١ غزا الدمستق عين زربه وهى من أحصن مدن الثغور فاستولى عليها وقتل أهلها ولم يرحم شيخا ولا صبيا وأفلت قليل منهم هربوا على وجوههم فماتوا فى الطرقات وفتح حول عين زربة ٥٤ حصنا للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالأمان وقد حصل أن حصنا من هذه الحصون التى فتحت بالأمان أمر أهله بالخروج منه فتعرض أحد الأرمن لبعض حرم المسلمين فلحق المسلمين غيرة فجردوا سيوفهم فاغتاظ الدمستق من ذلك فأمر بقتل جميع المسلمين وكانوا ٤٠٠ رجل وقتل النساء والصبيان ولم يترك إلا من يصلح أن يسترق ولما أدركه الصوم انصرف على أن يعود بعد العيد وخلف جيشه بقيسارية . وكان صاحب طرسوس قد خرج فى ٤٠٠٠ رجل فأوقع بهم الدمستق فقتل أكثرهم وكان صاحب طرسوس قد قطع خطبة سيف الدولة فلما رأوا ما أصابهم من الوهن أعاد أهل البلد خطبة سيف الدولة وراسلوه بذلك وراسل أهل بغراس الدمستق وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضتهم

وفى هذه السنة استولى ملك الروم على مدينة حلب حاضرة ملك سيف الدولة فخرج عنها سيف الدولة منهزما بعد أن قتل أكثر أهل بيته وظفر الدمستق بأموال سيف الدولة وكنوزه وأسلحته وخرب داره التى كانت بظاهر حلب وسبى من حلب وحدها بضعة عشر ألف صبى وصبية وقتل أكثر من ذلك ولما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه غنائمهم أمر الدمستق باحراق الباقى وأحرق المساجد وأقام بحلب تسعة أيام ثم أراد الانصراف عنها فانصرف عازما على العودة . وظهر بذلك غلبة الروم على المسلمين إلا أن هؤلاء كانوا يغيرون أحيانا بقيادة سيف الدولة أو أحد غلمانه ولكنهم لا يؤثرون عظيم أثر

وفى سنة ٣٥٣ حصر الدمستق مدينة المصيصة ولكن أهلها أحسنوا الدفاع عنها فأحرق الروم رستاقها ورستاق أذنة وطرسوس لمساعدتهما أهل المصيصة . ثم إن إنسانا وصل إلى الشام من خراسان ومعه خمسة آلاف متطوع للجهاد فأخذهم سيف الدولة وسار بهم نحو بلاد الروم فوجدوا الروم قد عادوا فتفرق الغزاة الخراسانية فى الثغور لشدة الغلاء وعاد أكثرهم إلى بلادهم . وبعد تراجع الأسعار عاد ملك الروم إلى طرسوس لحصرها وجرى بينه وبين أهلها حروب كثيرة وقاوم الطرسوسيون

مقاومة يحمدون عليها فحصرهم الروم ثلاثة اشهر ولم يأتهم جند يردهم لا من قبل سيف الدولة ولا غيره حتى اشتد الغلاء على الروم وكثر بينهم الوباء فاضطروا إلى الرحيل

وفى سنة ٣٥٤ ألح نقفور على المصيصة بالحرب حتى فتحها عنوة ووضع السيف فى أهلها فقتل منهم مقتلة عظيمة ثم رفع السيف عنها ونقل كل من بها إلى بلاد الروم وكانوا نحو من مائتى ألف إنسان ثم سار إلى طرسوس لحصرها فأذعن أهلها بالطاعة وطلبوا الأمان فأجابهم إليه وفتحوا البلد فلقيهم بالجميل وأمرهم أن يحملوا من سلاحهم وأموالهم ما يطيقون ويتركوا الباقى ففعلوا ذلك وساروا برا وبحرا وسير معهم من يحميهم حتى بلغوا أنطاكية وجعل الملك المسجد الجامع اصطبلا لدوابه وأحرق المنبر وعمر طرسوس وحصنها وجلب الميرة إليها حتى رخصت الأسعار وتراجع إليها كثير من أهلها ودخلوا فى طاعة الملك وتنصر بعضهم . ومن غرائب العقول أن يجرى هذا كله بثغور الاسلام والخلاف والشقاق قد استحكم أمرهما بين ولاة المسلمين وأمرائهم

وفى سنة ٣٥٨ دخل ملك الروم الشام فلم يمنعه أحد فسار فى البلاد إلى طرابلس وأحرق بلدها وحصر قلعة عرقة فملكها ونهبها وسبى من فيها ثم قصد حمص وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها فأحرقها ملك الروم ورجع إلى بلدان الساحل فأتى عليها نهباً وتخريبا وملك ثمانية عشر منبرا فأما القرى فكثير لا يحصى وأقام فى بلاد الشام شهرين يقصد أى موضع شاء ويخرب ماشاء ولا يمنعه أحد إلا أن بعض العرب كانوا يغيرون على أطراف الروم أحيانا وأتاه جماعة منهم وتنصروا وكادوا المسلمين من العرب وغيرهم فامتنعت العرب من قصدهم وصار للروم هيبة عظيمة فى قلوب المسلمين وقد عاد ملك الروم بعد ذلك ومعه من السبى مائة ألف رأس ولم يأخذوا إلا الصبيان والصبايا والشبان فأما الكهول والشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه

وكانت هذه الحوادث الجلى سببا لازدياد الهياج ببلاد خراسان وتنادى الناس بالنفير العام لحماية الثغور الاسلامية فتطوع منهم عشرون ألفا عليهم قائد منهم وكان فيهم أبو بكر محمد بن إسماعيل بن القفال الشاشى أحد أئمة الشافعية بما وراء النهر . ومما يحزن أن هذا الجيش المتطوع اضطر إلى المرور ببلاد الجبل التى فى حوزة

ركن الدولة وهو ديلمي يكرهه أهل خراسان ويعتقدون أن الديلم هم سبب كل هذه البلايا فحصلت فتن بين المتطوعين والديلم وكانت نتيجتها أن حاربهم ركن الدولة وشتت شملهم

وفي سنة ٤٥٩ ملك الروم مدينة أنطاكية وهي حاضرة الثغور وأضخمها وأخذوا منها سبيا يزيد على عشرين ألفا كلهم شباب صبيان وصبايا وأخرجوا المشايخ والعجائز والأطفال من البلد ليذهبوا حيث يشاءون. ولما تم لهم ملك أنطاكية غزوا حلب وبها قرعويه السيفي غلام سيف الدولة وكان أبو المعالي شريف بن سيف الدولة يحاربه فلما سمع بخبر الروم فارق حلب وقصد البرية ليبعد عن الروم أما هؤلاء فجاءوا وحصروا البلد فتحصن قرعويه بقلعتها واستولى الروم على البلد ثم صالحهم قرعويه على مال يؤديه لهم وأعطاهم رهائن على ذلك

وفي سنة ٣٦١ أغار ملك الروم على الرها ونواحيها وساروا في الجزيرة حتى بلغوا نصيبين فغنموا وسبوا وأحرقوا وخربوا البلاد وفعلوا مثل ذلك بديار بكر ولم يكن من أبي تغلب بن حمدان في ذلك حركة ولا سعي في دفعه ولكنه حمل إليه مالا كفه به عن نفسه فسار جماعة من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنصرين وقاموا في الجوامع والمشاهد واستنفروا المسلمين وذكروا ما فعله الروم من النهب والقتل والأسر والسبي فاستعظم ذلك الناس وخوفهم أهل الجزيرة من انفتاح الطريق وطمع الروم وأنه لا مانع منهم فاجتمع معهم أهل بغداد وقصدوا دار الخليفة وأرادوا الهجوم عليه فمنعوا من ذلك وغلقت الأبواب وكان بختيار حينئذ يتصيد بنواحي الكوفة فخرج إليه وجوه أهل بغداد مستغيثين منكرين عليه اشتغاله بالصيد وقتال عمران بن شاهين (صاحب البطيحة) وهو مسلم وترك جهاد الروم ومنعهم عن بلاد الاسلام حتى توغلوها فوعدهم التجهز للغزو وأرسل الحاجب سبكتكين يأمره بالتجهز وأن يستنفر العامة ففعل سبكتكين ذلك فاجتمع من العامة عدد كثير لا يحصون كثرة وكتب بختيار إلى أبي تغلب بن حمدان صاحب الموصل يأمره باعداد الميرة والعلوفات ويعرفه عزمه على الغزو فأجابه باظهار السرور وإعداد ما طلب منه ثم أنفذ بختيار إلى المطيع لله يطلب منه مالا فقال المطيع إن الغزو والنفقة عليه وعلى غيره من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وتجبى إلى الأموال وأما إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني

شيء من ذلك وإنما يلزم من البلاد فى يده وليس لى إلا الخطبة فان شئتم أن أعتزل فعلت وترددت الرسائل بينهما حتى وصل الحال إلى تهديد الخليفة فبذل المطيع ٤٠٠ ألف درهم فاحتاج إلى بيع ثيابه وأنقاض داره وغير ذلك وشاع بين الناس من أهل العراق وخراسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر فلما قبض بختيار المال صرفه فى مصالحه وبطل حديث الغزو

وفى سنة ٣٦٢ كانت واقعة بين الدمستق وبين هبة الله بن ناصر الدولة بن حمدان وكان الروم يريدون الاستيلاء على آمد فاستعد له أبو تغلب وأرسل أخاه هبة الله فواقع الدمستق فى مضيق لاتجول فيه الخيل والروم على غير أهبة فانهزموا وأسر الدمستق ولم يزل محبوسا إلى أن مرض سنة ٣٦٣ فبالغ أبو تغلب فى علاجه وجمع الأطباء له فلم ينفعه ذلك ومات

هذه كانت الحال فى خلافة المطيع استرد الروم فيها جميع الثغور الاسلامية الكبرى وصارت لهم الهيبة فى قلوب المسلمين من أهل الجزيرة والشام وبنو بويه وبنو حمدان يغزو بعضهم بعضا وهم عما نابهم من عدوهم مشتغلون

ومما حصل فى عهد المطيع من الحوادث انتقال خلفاء الفاطميين إلى مصر بعد استيلاء جوهر الصقلى عليها وذلك سنة ٣٦١ فى عهد الخليفة المعز لدين الله معد الفاطمى .

موت المطيع

لم يكن للمطيع عمل ولا تاريخ يذكر وقد فلج فأشار عليه سبكتكين مقدم الأتراك أن يعتزل فلم يجد من الامتثال بدا فخلع نفسه فى منتصف ذى القعدة سنة ٣٦٣

٣٤ — الطائع

هو أبو الفضل عبد الكريم الطائع لله بن المطيع بن المقتدر بن المعتضد ولد سنة ٣١٧ وبويع له بالخلافة بعد خلع أبيه المطيع (١٨ أغسطس سنة ٩٧٤) واستمر خليفة إلى أن خلع فى ٢١ رجب سنة ٣٨١ (٣ أكتوبر سنة ٩٩١) فكانت مدته ١٧ سنة وثمانية أشهر وستة أيام

كانت خلافة الطائع والسلطان بالعراق لخمسة من بنى بويه وهم :

أولا — عز الدولة بختيار بن معز الدولة إلى سنة ٣٦٧

ثانياً — عضد الدولة فناخسرو بن ركن الدولة الحسن بن بويه إلى سنة ٣٧٢

ثالثاً — صمصام الدولة أبو كاليجار المرزبان بن عضد الدولة إلى سنة ٣٧٦

رابعاً — شرف الدولة أبو الفوارس شيرزيل بن عضد الدولة إلى سنة ٣٧٩

خامساً — بهاء الدولة أبو نصر فيروز بن عضد الدولة

ويعاصره فى بلاد الأندلس الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ - ٣٦٦) وهشام ابن الحكم (٣٦٦ — ٣٩٩) وهو الذى كان يحجبه المنصور بن أبى عامر

وبافريقية وصقلية يوسف بن بلكين بن زيرى الصنهاجى نيابة عن الفاطميين إلى سنة ٣٧٣ وخلفه ابنه المنصور يوسف إلى سنة ٣٨٦

وبمصر والشام والحجاز المعز لدين الله معد الفاطمى إلى سنة ٣٦٥ وخلفه ابنه العزيز بالله نزار إلى سنة ٣٨٦

وباليمن من آل زياد أبو الجيش إسحاق بن إبراهيم إلى سنة ٣٧١ ثم عبد الله بن إسحاق إلى سنة ٤٩٠

وبصنعاء من آل يعفر عبد الله بن قحطان إلى سنة ٣٨٧ وهو آخر أمراء هذه الدولة .

وبحلب سعد الدولة أبو المعالى شريف بن سيف الدولة إلى سنة ٣٨١

وبالموصل عدة الدولة أبو تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة إلى سنة ٣٦٩ ثم أبو طاهر إبراهيم وأبو عبد الله الحسين ابنا ناصر الدولة إلى سنة ٣٨٠ وفيها انتهت الدولة الحمدانية بالموصل وقام على أثرها الدولة العقيلية وأولها أبو الذواد محمد بن

المسيب بن رافع بن المقلد العقيلى أمير بنى عقيل

وفى ديار بكر ابتدأت الدولة المروانية الكردية على أنقاض دولة بنى حمدان وأول هذه الدولة أبو على الحسين بن مروان الذى ابتدأ ملكه سنة ٣٨٠

وبخراسان وما وراء النهر الدولة السامانية وأميرها نوح بن منصور السامانى. (٣٦٦ — ٣٨٧)

وبجرجان الدولة الزيادية والأمير ظهير الدولة بيستون بن وشمكير إلى سنة ٣٦٦ وخلفه شمس المعالى قابوس بن وشمكير إلى سنة ٤٠٣

وقد ابتدأت فى أيام الطائع الدولة السبكتكينية بمدينة غزنة وجدت على أطلال الدولة السامانية وصارت تنتقص أرضها الخراسانية التى غربى نهر جيحون وكانت دولة الأتراك الايلكخانية تنتقص أملاكها فيما وراء النهر. وأما بلاد فارس والأهواز والرى والجبال والعراق فهى بيد بنى بويه يتناوبونها كما سيأتى توضيحه

ويعاصر الطائع بفرنسا لونار إلى سنة ٩٨٦ ثم لويز الخامس الملقب بالكسلان إلى سنة ٩٨٧ ثم هو فى كابات أول الأسرة الكاباسيانية إلى سنة ٩٩٦

وباستريا أول ملك من جماعة المارغراف وهو ليوبولد الأول كونت دوبابنبرج (٩٨٢ — ٩٩٤)

ولى الطائع وأمر بختيار مضطرب لأن الأتراك وفى مقدمهم سبكتكين قد تباعد ما بينهم وبينه وكانت العامة من أهل السنة تنصر سبكتكين لكراهة ما كان عليه بنو بويه من التشيع الشديد الذى كان سببا لفتنة عظيمة ببغداد بين أهل السنة والشيعة سفكت فيها الدماء وأحرقت الكرخ التى كانت محلة الشيعة وظهر أهل السنة عليهم فكتب بختيار إلى عمه ركن الدولة بأصبهان وإلى ابن عمه عضد الدولة يسألهما أن يساعداه على الأتراك فجهز إليه ركن الدولة جنداً مع وزيره ابن العميد وأما عضد الدولة فكان ميالا إلى ملك العراق فتربص ببختيار الدوائر . كرر إليه بختيار الكتب يستغيث به ويستحثه فلما رأى عضد الدولة أن الأمر قد بلغ ببختيار ما يرجوه سار نحو العراق ظاهره رحمة لبختيار وباطنه إرادة الاستيلاء على العراق فسار إلى واسط ومنها إلى بغداد فتغلب على عساكر الأتراك فى ١٤ جمادى الأولى سنة ٣٦٤ ودخل بغداد ظافرا . وكان يريد القبض على بختيار فوسوس إلى جنده أن يثوروا عليه ويشغبوا

ويطالبوه بالأموال ففعلوا ولم يكن مع بختيار مايسكتهم به وأشار عليه عضد الدولة ألا يلتفت إلى شكواهم ويغلظ فى معاملتهم ففعل ذلك فاستمر هذا الحال أياما وحينئذ استدعى بختيار هو وإخوته اليه وقبض عليهم وجمع الناس وأعلمهم استعفاء بختيار عن الامارة وعجزه عنها ووعد الجنود بالاحسان إليهم وأظهر الخليفة سروره مما تم لأنه كان منافيا لبختيار وقد قابله عضد الدولة بأن أظهر من رسوم الخلافة وتعظيمها ما كان قد نسى وترك وأمر بعمارة دار الخلافة والاكثار من الآلات وعمارة مايتعلق بالخليفة وحماية أقطاعه

بلغ ذلك كله ركن الدولة فاستاء منه جدا كاتبه بذلك محمد بن بقية وزير بختيار الذى استاء أيضا مما جرى ونافر عضد الدولة وجمع الجيوش لحربه فأرسل إليه ركن الدولة يقويه على ماهو بسبيله ويخبره أنه سائر بنفسه إلى العراق لاخراج عضد الدولة عنه فكان ذلك سببا لاضطراب الأمر على عضد الدولة ولم يقبل فى ذلك قول قائل لأنه كان يحب أخاه معز الدولة والد بختيار حبا شديدا ولما وجد ذلك عضد الدولة لم يسعه إلا اعادة بختيار إلى ملكه والمسير إلى فارس

لم يطل الأمر إلا بمقدار ماتوفى ركن الدولة سنة ٣٦٦ فاستولى ابنه عضد الدولة على ملكه بعهد منه وما عتم أن تجهز إلى بغداد وأرسل إلى بختيار يطلب منه الطاعة وأن يسير عن العراق إلى أى جهة شاء وضمن مساعدته بما يحتاج إليه من مال وسلاح فأجاب بختيار إلى ذلك وسلم إلى عضد الدولة وزيره الأمير محمد بن بقية ثم سار حتى دخل بغداد وخطب له بها ولم يكن قبل ذلك يخطب لأحد ببغداد وضرب على بابه ثلاث نوب ولم تجر بذلك عادة من تقدمه وأمر بأن يلقى ابن بقية بين قوائم الفيلة لتقتله ففعل به ذلك وصلب على رأسه الجسر فى شوال سنة ٣٦٧ وهو الذى رثاه أبو الحسين الأنبارى بقصيدته المشهورة التى أولها :

علو فى الحياة وفى الممات .. لحق أنت إحدى المعجزات

استقر ملك عضد الدولة بالعراق وما معها من ملك أبيه وعمه ثم سار نحو الموصل فملكها وأقام بها مطمئنا وأزال عنها الدولة الحمدانية وبث سراياه فى طلب أبى تغلب الحمدانى فهرب أبو تغلب على وجهه إلى بلاد الروم وفتحت الجنود العضدية جميع ديار بكر وديار ربيعة ثم افتتح ديار مضر إلى الرقة وجعل باقيها فى يد سعد الدولة

ابن سيف الدولة صاحب حلب وبذلك اتسعت أملاك عضد الدولة وصار له العراق والجزيرة والأهواز وفارس والجبال والرى ثم دخلت فى حوزته جرجان سنة ٣٧١ أخذها من صاحبها قابوس بن وشمكير

لم يقم فى آل بويه من يماثل عضد الدولة جرأة واقداما وكان عاقلا فاضلا حسن السياسة الاصابة شديد الهيبة بعيد الهمة ثاقب الرأى محبا للفضائل واهبا باذلا فى موضع العطاء مانعا فى مواضع الحزم ناظرا فى عواقب الأمور وهو الذى بنى على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم سورا إلا أنه كان مع ذلك خورا يميل إلى اللهو واللعب ومن شعره

ليس شرب الكاس إلا فى المطر ❊ وغناء من جوار فى السحر
غانيات سالبات للنهى ❊ ناغمات فى تضاعيف الوتر
مبرزات الكاس من مطلعها ❊ ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة وابن ركنها ❊ ملك الأملاك غلاب القدر

وهذا غلو كبير. ومن فضله أنه كان لا يعول فى أموره إلا على الكفاة ولا يجعل للشفاعات طريقا إلى معارضة من ليس من جنس الشافع ولا فيم يتعلق به. حكى عنه أن مقدم جيشه أسفار بن كردويه شفع فى بعض أبناء العدول ليتقدم إلى القاضى ليسمع تزكيته ويعدله فقال له ليس هذا من أشغالك إنما الذى يتعلق بك الخطاب فى قائد ونقل مرتبة جندى وما يتعلق بهم وأما الشهادة وقبولها فهى إلى القاضى وليس لنا ولالك الكلام فيه ومتى عرف القضاة من إنسان ما يجوز معه قبول شهادته فعلوا ذلك بغير شفاعة. وكان يخرج فى إبتداء كل سنة شيئا كثيرا من الأموال للصدقة والبر فى سائر بلاده ويأمر بتسليم ذلك إلى القضاة ووجوه الناس ليصرفوه إلى مستحقيه وكان يوصل إلى العمال المتعطلين ما يقوم بهم ويحاسبهم إذا عملوا. أما اهتمامه بالعلم فكثير ويذكر ذلك فى تاريخ العلوم فى الدول الاسلامية

ومما يعد من سيئاته أنه أحدث فى آخر أيامه رسوما جائرة فى المساحة والضرائب على بيع الدواب وغيرها من الأمتعة ومنع من عمل الثلج والقز وجعل ذلك متجرا خاصا وكان يتوصل إلى أخذ المال بكل طريق. توفى عضد الدولة فى شوال سنة ٣٧٢

اجتمع القواد بعد وفاته على بيعة ابنه أبى كاليجار المرزبان الملقب صمصام الدولة وكان إخوته وبنو أعمامه متفرقين فى الولايات فأخوه شرف الدولة شيرزيل بفارس

وعمه مؤيد الدولة أبو منصور بويه بجرجان

مكث صمصام الدولة قائما بأمر العراق واضطراب لاحق به من جراء خلاف أخيه شرف الدولة عليه فانه أظهر مشاقته وقطع خطبته فسير إليه جيشا كانت عاقبته الهزيمة

وخرجت عن يده بلاد الموصل استولى عليها الأكراد وعليهم شجاع باذبن دوستك وهو من الأكراد الحميدية وكان ابتداء أمره أنه كان يغزو كثيرا بثغور ديار بكر وكان عظيم الخلقة وله شدة وبأس فلما ملك عضد الدولة حضر عنده ثم فاته لما تخوف منه وذهب إلى ثغور ديار بكر وأقام بها إلى أن استفحل أمره وقوى وملك ميافارقين وغيرها من ديار بكر بعد موت عضد الدولة ووصل بعض أصحابه إلى نصيبين فاستولى عليها فجهز إليه صمصام الدولة العساكر فانهزمت وقوى أمر باذ وغلب جيوش الديلم ثم سار إلى الموصل فملكها وحدثته نفسه بالاستيلاء على بغداد وإزالة الديلم عنها فخافه صمصام الدولة وأهمه أمره وأعد له جيشا عظيما مستوفى العدة فلقوه بظاهر الموصل وهزموه هزيمة منكرة فخرج منها ثم انتهى الحال بالصلح بين الديلم وباذ على أن يكون لباذ ديار بكر والنصف من طور عبدين

كانت هذه الاضطرابات والمشاغل سبباً لأن شرف الدولة صاحب فارس تجهز يريد الاستيلاء على الأهواز والعراق فسار بجيشه سنة ٣٧٥ فاستولى على الأهواز من يد أخيه أبي الحسن الملقب بتاج الدولة ثم سار إلى البصرة فملكها . بلغ خبره صمصام الدولة فراسله فى الصلح فاستقر الأمر بينهما على أن يخطب لشرف الدولة بالعراق قبل صمصام الدولة ويكون هذا نائبا عنه فصلح الحال واستقام وخطب لشرف الدولة بالعراق وسيرت إليه الخلع من الطائع لله فلما وردته الرسل بذلك ليحلفوه عاد عن الصلح وعزم على قصد بغداد والاستيلاء عليها ونفذ تلك العزيمة فلما وصل واسط ملكها فاتسع الخرق على صمصام الدولة وشغب عليه الجند فوقع رأيه على اللحاق بأخيه والدخول فى طاعته فسار إليه فقبض عليه شرف الدولة وسار إلى بغداد فدخلها فى رمضان سنة ٣٧٦ وانتهت مدة صمصام الدولة بالعراق ومقدارها ثلاث سنين وأحد عشر شهرا

ومن أحداث هذا البيت فى عهده وفاة عمه مؤيد الدولة بويه بن ركن الدولة صاحب

جرجان واستيلاء أخيه فخر الدولة على بن ركن الدولة على بلاده باختيار القواد والوزير الكبير الصاحب بن عباد

ملك شرف الدولة شيرزيل بغداد بعد صمصام الدولة بسنتين وثمانية أشهر وقد ابتدأ عهده باضطراب وفتن بين جنود الديلم والترك ببغداد أدى إلى قتال بينهم وقد بذل شرف الدولة جهده حتى أزال من بينهم الخصام . ومن فضائل شرف الدولة أنه منع الناس من السعايات ولم يقبلها فأمن الناس وسكنوا

وكانت وفاة شرف الدولة فى جمادى الآخرة سنة ٣٧٩

تولى العراق بعده أخوه بهاء الدولة أبو نصر . ولأول توليه تجددت الاضطرابات بين الترك والديلم وأدت إلى قتال دام خمسة أيام وانضم بهاء الدولة إلى الأتراك فاشتد الأمر على الديلم ومع ما حصل من الصلح بين الفريقين فان الديلم قد ضعفت شوكتهم وتغلب الأتراك عليهم . وكانت بينه وبين آل بيته فتن كثيرة بسبب طمعهم فيما بيده من الملك ومحاولتهم سلبه منه ولكنهم أخفقوا

وفى سنة ٣٨١ قبض بهاء الدولة على الطائع لله وذلك أن الأموال قلت عنده فشغب عليه الجند فأطمعه وزيره فى أموال الخليفة وحسن له القبض عليه فأرسل إلى الطائع وسأله الاذن فى الحضور ليجدد العهد به فأذن له فى ذلك وجلس له كما جرت العادة فدخل إليه بهاء الدولة ومعه عدد كثير فلما دخل قبل الأرض وأجلس على كرسى فدخل بعض الديلم كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة فجذبه فأنزله عن سريره والخليفة يقول إنا لله وإنا إليه راجعون ويستغيث فلا يلتفت إليه وأخذ مافى داره من الذخائر ومن قول الشريف محمد بن الحسين الرضى فى ذلك

من بعد ما كان رب الملك مبتسما * إلى أدنوه فى النجوى ويدنينى
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه * لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى * ياقرب ماعاد بالضراء يبكينى
هيهات أغتر بالسلطان ثانية * قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ولما حمل الطائع إلى دار بهاء الدولة أشهد عليه بالخلع

٢٥ ـ القادر

هو أبو العباس أحمد القادر بالله بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد وأمه أم ولد اسمها دمنة بويع بالخلافة ١٢ رمضان سنة ٣٨١ (٣ أكتوبر سنة ٩٧٤) واستمر خليفة إلى أن توفى فى غاية ذى الحجة سنة ٤٢٢ (١٨ دسمبر سنة ١٠٣١) فكانت مدته ٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوما

كان أبو العباس لما مات أبوه إسحاق بن المقتدر جرى بينه وبين أخت له منازعة فى ضيعة وطال الأمر بينهما ثم إن الطائع مرض مرضا أشفى منه ثم أبل فسعت إليه بأخيها وقالت له إنه شرع فى طلب الخلافة عند مرضك فتغير رأيه فيه وأرسل فى القبض عليه فلما وصلت إليه رسل الطائع خرج عن داره واستتر ثم سار إلى البطيحة فنزل على صاحبها مهذب الدولة أبى الحسن على بن نصر صاحب البطيحة فأكرم نزله ووسع عليه وحفظه وبالغ فى خدمته وكان ذلك فى سنة ٣٧٩ فأقام عنده حتى قبض بهاء الدولة على الطائع فذكر من يصلح للخلافة فأجمع رأيه ورأى مستشاريه على أبى العباس فأرسل إليه بهاء الدولة خواص أصحابه ليحضروه إلى بغداد ليتولى الخلافة وشغب الديلم ببغداد ومنعوا من الخطبة فقيل على المنبر (اللهم أصلح عبدك وخليفتك القادر بالله) ولم يذكروا اسمه . ولما وصلت الرسل إلى القادر بالله انحدر معهم وقام مهذب الدولة بخدمته خير قيام وحمل إليه من المال وغيره ما يحمله كبار الملوك للخلفاء وشيعه فسار القادر بالله إلى بغداد فلما دخل جيل انحدر بهاء الدولة وأعيان الناس لاستقباله وساروا فى خدمته فدخل دار الخلافة ثانى عشر رمضان وبايعه بهاء الدولة والناس وخطب له ثالث عشر رمضان

والقادر هو ثالث خليفة عباسى لم يكن أبوه خليفة

معاصرو القادر من الملوك

كان الخليفة بالأندلس هشام بن الحكم الملقب بالمؤيد إلى سنة ٣٩٩ ثم خلفه محمد المهدى بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر إلى سنة ٤٠٣ وقد ثار عليه سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر فأخذ منه قرطبة وكانت

بينهما خطوب إلى أن قتل المهدى وانتهت مدة المستعين سنة ٤٠٨ ثم كانت البلاد الأندلسية ميدانا للنزاع بين أعقاب الأمويين والعلويين من ذرية إدريس بن عبدالله فكانت الحال هناك فى اضطراب يشبه ما كان فى الشرق يزيد عليه

وكان الأمير بافريقية من آل زيرى النائبين عن الدولة الفاطمية المنصور بن يوسف بلكين إلى سنة ٣٨٦ ثم ابنه باديس إلى سنة ٤٠٦ ثم المعز بن باديس إلى سنة ٤٥٣ وكان الخليفة بمصر والشام من الدولة الفاطمية العزيز بالله نزار إلى سنة ٣٧٦ ثم ابنه الحاكم بأمر الله منصور إلى سنة ٤١١ ثم ابنه الظاهر لاعزاز دين الله إلى سنة ٤٢٧

وفى عهده ابتدأت الدولة النجاحية بزبيد على أطلال الدولة الزيادية وكان ابتداؤها على يد المؤيد نجاح سنة ٤١٢ وهو مولى موالى آل زياد وأصله عبد حبشى سمعت به همته إلى أن تولى ملك تهامة اليمن وما إليها وقد استمر ملكها فيه وفى أعقابه إلى سنة ٥٥٤ وهذا ثبتهم

(١) المؤيد نجاح	٤١٢ - ٤٥٢
فترة على الداعى الصليحى	٤٥٢ - ٤٧٣
(٢) سعيد الأحول بن نجاح	٤٧٣ - ٤٨٢
(٣) جياش بن نجاح	٤٨٢ - ٤٩٨
(٤) فاتك بن جياش	٤٩٨ - ٥٠٣
(٥) منصور بن فاتك	٥٠٣ - ٥١٧
(٦) فاتك بن منصور	٥١٧ - ٥٣١
(٧) فاتك بن محمد بن فاتك	٥٣١ - ٥٥٤

وانتقل الملك عنهم إلى الدولة المهدية وسيأتى حديثها إذ ذاك

أما الجزيرة الفراتية وما إليها من حوض الفرات فكانت منقسمة إلى ثلاث إمارات وهى ديار ربيعة وحاضرتها الموصل وديار بكر وحاضرتها آمد وديار مضر وحاضرتها الرقة

ففى عهد القادر ظهرت الدولة العقيلية التى أسسها أبو الذواد محمد بن المسيب بن رافع ابن مقلد العقيلى بالموصل ولم يكن له تمام الاستقلال بل كان معه نائب من قبل بهاء الدولة الديلمى إلا أن النفوذ الفعلى كان لأبى الذواد ولم يزل كذلك حتى توفى

سنة ٣٨٦ فخلفه أخوه حسام الدولة المسيب بن المقلد . وكان الاتفاق أن يتولى الموصل والكوفة والقصر والجامعين ولم يزل يليها إلى أن قتل سنة ٣٩١ فخلفه ولده أبو المنيع معتمد الدولة قرواش بن المقلد ومن أهم حوادثه السياسية أنه خطب للحاكم بأمر الله العلوى صاحب مصر بأعماله كلها وهى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة وغيرها وكان ابتداء الخطبة بالموصل (الحمد لله الذى انجلت بنوره غمرات العصب وانهدت بقدرته أركان النصب واطلع بنوره شمس الحق من العرب) فأرسل القادر بالله القاضى أبا بكر بن الباقلانى شيخ الأشعرية ببغداد إلى بهاء الدولة يعرفه ذلك فأكرم بهاء الدولة القاضى وكتب إلى نائبه ببغداد يأمره أن يسير لحرب قرواش فسار عميد الجيوش لحربه ولما علم بذلك أرسل يعتذر وأعاد خطبة القادر بالله

وقد استمرت هذه الدولة العربية بالموصل إلى سنة ٤٨٩ وانتهت على يد السلاجقة كما انتهت الدولة الديلمية وهذا ثبت ملوكها

(١) حسام الدولة المقلد بن المسيب	٣٨٦ — ٣٩١
(٢) معتمد الدولة قرواش بن المقلد	٣٩١ — ٤٤٢
(٣) زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلد	٤٤٢ — ٤٤٣
(٤) علم الدولة أبو المعالى قرواش بن بدران بن المقلد	٤٤٣ — ٤٥٣
(٥) شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن قرواش	٤٥٣ — ٤٧٨
(٦) إبراهيم بن قرواش	٤٧٨ — ٤٨٦
(٧) على بن مسلم بن قرواش	٤٨٦ — ٤٨٩

وفى ديار بكر ظهرت دولة الأكراد من آل مروان على يد مؤسسها أبى على الحسن بن مروان قام بالأمر سنة ٣٨٠ بعد خاله باذ الذى قدمنا حديثه وضبط ديار بكر أحسن ضبط وأحسن إلى أهلها وألان جانبه لهم ثم تزوج ست الناس بنت سيف الدولة ولم يزل ملكا إلى أن قتل سنة ٣٨٧ فخلفه أخوه ممهد الدولة أبو منصور ابن مروان إلى أن قتل سنة ٤٠٢ فتولى بعده أخوه أبو نصر نصر الدولة أحمد بن مروان وهو واسطة عقد آل مروان فان أيامه طالت وأحسن السيرة جدا وكان مقصودا من العلماء فى كافة الأقطار فكثروا ببلاده وممن قصده أبو عبدالله الكازرونى وعنه انتشر مذهب الشافعى رحمه الله بديار بكر وقصده الشعراء فأجزل

مواهبهم وبقى كذلك إلى سنة ٤٥٣ وكانت الثغور معه آمنة وسيرته فى رعيته أحسن سيرة وولى بعده ابنه نظام الدولة نصر إلى سنة ٤٧٢ ثم منصور بن نصر إلى سنة ٤٨٩ وعلى يده انتهت دولتهم بملك آل سلجوق لها

أما ديار مضر فقد استولى عليها لأول عهد القادر بكجور الذى كان واليا على دمشق للعزيز بالله الفاطمى خليفة مصر وفى سنة ٣٨٧ عزله عنها فتوجه إلى الرقة فاستولى عليها وعلى الرحبة وما يجاورها ثم راسل بهاء الدولة ملك العراق فى الانضمام إليه وكاتب أيضا باذ الكردى المتغلب على ديار بكر وكذلك راسل سعد الدولة ابن سيف الدولة صاحب حلب بأن يعود إلى طاعته ويعطى مدينة حمص كما كانت له فلم يجبه واحد منهم إلى شىء فبقى بالرقة يراسل جماعة من مماليك سعد الدولة ويستميلهم فأجابوه وحينئذ أغرى العزيز بالله نزارا صاحب مصر على قصد حلب فأجابه وأرسل إليه العساكر تتصرف بأمره ولكنه لم ينجح لأن سعد الدولة استعان عليه بوالى أنطاكية الرومى وبالعرب الذين مع بكجور فكانت النتيجة فشل بكجور وقتله ثم سار سعد الدولة إلى الرقة فاستولى عليها من وزير بكجور وأخذ أولاد بكجور وأمواله ثم إن سعد الدولة هلك بعقب ذلك فأرسل أهل الرحبة إلى بهاء الدولة يطلبون إليه أن ينفذ من يتسلم بلدهم فأنفذ لهم أميرا تسلمها ولم يتمكن من الاستيلاء على الرقة . ولم تمكث الحال على ذلك كثيرا فان البلاد انتقلت إلى حوزة العلويين أصحاب مصر وصار يخطب لهم بالرقة والرحبة إلا أن سلطانهم كان اسميا والنفوذ إلى رؤساء القبائل المضرية فكان فيها أولا أبو على بن ثمال الخفاجى ثم استولى عليها عيسى ابن خلاط العقيلى ثم صار أمرها إلى صالح بن مرداس الكلابى وكان محسنا للرعية ويدعو للعلويين

أما حلب فكان السلطان بها لأول عهد القادر بالله لسعد الدولة بن سيف الدولة ابن حمدان وكان قد عصى عليه بكجور الذى تقدم ذكره وهو أحد مماليك أبيه وغزاه من الرقة بعساكر خليفة مصر العلوى ولكنه لم يفز وقتل كما قدمنا وتسبب عن ذلك ان سعد الدولة أراد أن يقصد دمشق ليأخذها من يد العزيز بالله فمات عقب خروجه سنة ٣٨٢ وعهد لابنه أبى الفضائل وأوصى به لؤلؤا أحد مماليك أبيه سيف الدولة فلما توفى سعد الدولة قام ابنه مقامه وأخذ له لؤلؤ العهد على الأجناد

كان خليفة مصر لايزال يتطلع إلى الاستيلاء على حلب فسير إليها جيشا من دمشق عليه منجوتكين أحد أمرائه ولما كانت عساكره كثيرة ولا قبل للؤلؤ بمقاومتها استنجد بملك الروم بسيل فأرسل إلى نائبه بأنطاكية يأمره أن ينجد أبا الفضائل فسار إليه بجاب حتى نزل على الجسر الجديد بالعاصي. ولما سمع منجوتكين الخبر سار إلى الروم ليلقاهم قبل اجتماعهم بأبي الفضائل وعبر إليهم العاصي وأوقع بهم وقعة شنيعة وسار إلى أنطاكية فنهب بلدها وقراها وأحرقها. وأنفذ أبو الفضائل إلى بلد حلب فنقل مافيه من الغلال وأحرق الباقى إضرارا بعساكر مصر. وعاد منجوتكين إلى حلب فحصرها فأرسل لؤلؤ إلى رؤساء المصريين يبذل لهم مالا ايردوا منجوتكين عنهم هذه السنة بعلة تعذر الأقوات ففعلوا ذلك وكان منجوتكين قد ضجر من الحرب فأجابهم وعاد إلى دمشق ولكن ذلك لم يعجب العزيز بالله وكتب بإعادة الكرة على حلب وأرسل الأقوات من مصر إلى طرابلس بحراً ومنها إلى العسكر فنازل المصريون حلب وأقاموا عليها ثلاثة عشر شهرا فقلت الأقوات بحلب وعاد لؤلؤ إلى مراسلة ملك الروم معتضدا به وقال له متى أخذت حلب أخذت أنطاكية وعظم عليك الخطب فجاء ملك الروم منجدا له فلما علم منجوتكين بقرب وروده سار عن حلب فجاء ملك الروم فنزل عليها وخرج إليه أبو الفضائل ولؤلؤ. ثم سار بسيل إلى الشام ففتح حمص وشيزر ونهبها وسار إلى طرابلس فنازلها فامتنعت عليه وأقام عليها نيفا وأربعين ليلة ولما أيس منها عاد إلى بلاده. ولما علم العزيز بتلك الأخبار عظم الأمر عليه ونادى فى الناس بالنفير لغزو الروم فحال موته دون ذلك

لم يزل الأمر لأبى الفضائل حتى سنة ٤٠٢ حيث غزاه صالح بن مرداس الكلابى وكان السلطان الحقيقى فى حلب للؤلؤ وكان يخطب باسم الحاكم بأمر الله العلوى بمقتضى اتفاق عقد بين الطرفين بعد الحوادث المتقدمة. غزاه صالح وبنو كلاب وغلبوه وأخذوه أسيرا ولكن صالحا أطلقه مقابل مائتى ألف دينار ومائة ثوب وإطلاق كل أسير عنده من بنى كلاب. ثم إن غلاما لابن لؤلؤ كان يتولى القلعة غدر به وكاتب الحاكم بأمر الله وأظهر طاعته وأظهر العصيان لأستاذه فخرج ابن لؤلؤ من حلب إلى صاحب أنطاكية فأقام عنده وصارت حلب من البلاد التابعة لصاحب مصر يتناوبها نواب يرسلهم من قبله حتى صارت بيد إنسان من الحمدانية يعرف بعزيز

الملك قدمه الحاكم واصطنعه وولاه حلب ولما مات الحاكم وولى الظاهر عصى عليه فوضعت ست الملك أخت الحاكم فراشا له على قتله فقتله

وفى سنة ٤١٤ اتفق ثلاثة من أمراء العرب وهم حسان أمير طيء وصالح بن مرداس أمير بنى كلاب وسنان بن عليان على أن يكون من حلب إلى عانة لصالح بن مرداس ومن الرملة إلى مصر لحسان ودمشق لسنان . فقصد صالح حلب فاستولى عليها من يد عامل المصريين وكان الحلبيون يحبون صالحا لاحسانه إليهم ولسوء سيرة أمراء العلويين معهم فملك من بعلبك إلى عانة وأقام بحلب ست سنين وفى سنة ٤٢٠ جهز الظاهر صاحب مصر جيشا سيره إلى الشام لقتال صالح وحسان وكان مقدم الجيش أنوشتكنين البربرى والالتقاء عند طبرية فقتل فى الموقعة صالح وابنه ونجا ولده أبو كامل نصر بن صالح فجاء إلى حلب وملكها وكان يلقب بشبل الدولة وقد استمرت الدولة المرداسية بحلب إلى سنة ٤٧٢ وهذا ثبت ملوكها

(١) صالح بن مرداس	٤١٤ — ٤٢٠
(٢) شبل الدولة أبو كامل نصر	٤٢٠ — ٤٢٩
الفاطميون	٤٢٩ — ٤٣٤
معز الدولة أبو علوان طمل بن صالح	٤٣٤ — ٤٤٩
الفاطميون	٤٤٩ — ٤٥٢
رشيد الدولة محمود بن شبل الدولة	٤٥٢ — ٤٥٣
معز الدولة (ثانيا)	٤٥٣ — ٤٥٤
أبو ذؤابة عطية بن صالح	٤٥٤ — ٤٥٤
رشيد الدولة (ثانيا)	٤٥٤ — ٤٦٨
جلال الدولة نصر بن رشيد الدولة	٤٦٨ — ٤٦٨
أبو الفضل سابق بن رشيد الدولة	٤٦٨ — ٤٨٢

وهذا آخرهم وقد انتهى أمرهم على يد الدولة العقيلية التى تقدم ذكرها

فى المشرق

كانت المملكة السامانية بما وراء النهر بخراسان تنهار قواعدها وتتزلزل جوانبها .

كان أميرها نوح بن منصور وقد نشأ بالشرق دولة تركية صاحب الأمر فيها شهاب الدين هارون بن سليمان بن أيلك خان المعروف ببغراخان وكانت دولته غضة جديدة أمام دولة رثت بكثرة الاختلاف ففي سنة ٣٨٣ غزا بغراخان نوحا في بخارى بممالأة أبي الحسن سيمجور أمير خراسان لنوح وكان القصد أن يملك الأول ما وراء النهر كله والثاني أقليم خراسان فسار بغراخان نحو بخارى واستولى على بلادها شيئا بعد شيء . ثم نازل بخارى فاختفى نوح وملكها بغرا ونزلها وخرج منها نوح مستخفيا فعبر النهر إلى آمد وأقام بها ولحق به أصحابه يريد إعادة الكرة على بخارى وصادف أن أصاب بغراخان مرض ثقيل اضطر بسببه للانتقال نحو بلاده وبينما هو سائر أدركه أجله ولما سمع نوح بذلك عاد إلى دار ملكه وولى الترك بعد بغراخان ابنه أيلك خان — ثم مات بعقب ذلك نوح سنة ٣٨٧ وخلفه ابنه منصور وبايعه الأمراء والقواد

ولما بلغ أيلك خان وفاة نوح سار إلى سمرقند وسير الجنود لأخذ بخارى يقدمها فائق أحد القواد السامانية قبلا فاستولى عليها ولكنه اتفق مع منصور بن نوح أن يكون اسم الملك لمنصور والسلطان لفائق فاستمرت الحال على ذلك إلى أن اتفق فائق وبكتوزون قائد الجنود السامانية على القبض على منصور فقبضا عليه وأقاما مقامه أخاه عبد الملك وهو صبي صغير وأعقب ذلك موت فائق وهو مدبر الأمر فارتبك أمرهم وكان نجم الدولة السبكتكينية قد بزغ بخراسان فسار أيلك خان إلى بخارى وأظهر لعبد الملك المودة والموالاة والحمية له فظنوه صادقا ولم يحترسوا منه وخرج إليه بكتوزون وبقية الأمراء فلما اجتمعوا قبض عليهم وسار حتى دخل بخارى يوم الثلاثاء عاشر ذي الحجة سنة ٣٨٩ فلم يدر عبد الملك ما يصنع فاختفى فنزل أيلك دار الامارة وبث الطلب والعيون على عبد الملك حتى ظفر به فأودعه باوزكند فمات بها وهو آخر ملوك الدولة السامانية وانقضت بموته دولتهم كأن لم تغن بالأمس . وكانت هذه الدولة قد انتشرت ودخل في حوزتها من حدود حلوان إلى بلاد الترك بما وراء النهر وكانت من الدول العلمية الكبرى ولم يزل أمرهم على سداد حتى ظهرت دولة الترك الايلكخانية فأخذت منهم ولايات ماوراء النهر وظهرت دولة ابن سبكتكين فأخذت منهم خراسان

الدولة السبكتكينية :

من ضمن أعمال الدولة السامانية غزنة وهى مدينة عظيمة وولاية واسعة فى طرف خراسان وهى الحد بين خراسان والهند ويلفظها الخاصة غزنين وكان صاحب جيشها إسحاق بن البتكين وكان من ضمن غلمانه سبكتكين وهو المقدم عنده وعليه مدار أمره قدم بخارى أيام الأمير منصور بن نوح مع أستاذه إسحاق فعرفه أرباب تلك الدولة بالعقل والعفة وجودة الرأى والصرامة وعاد معه إلى غزنة فلم يلبث إسحاق أن توفى فاجتمع جنده على سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكان خلال الخير فيه فوليهم وأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة وجعل نفسه كأحدهم فى الحال والمال وكان يدخر من أقطاعه مايعمل منه طعاما لهم فى كل أسبوع مرتين وكان جنده يطيعونه طاعة تامة فغزا بهم ماجاوره من بلاد الهند حتى خافه ملوك تلك البلاد ثم استولى على مدينة بست وقصدار ولما رأى ملك الهند جيبال مادهاه وأن بلاده تملك من أطرافها حشد جموعه وسار حتى اتصل بولاية سبكتكين فخرج هذا إليه من غزنة وأوقع به وقعة شنيعة على حدود بلاده فأرسل ملك الهند إلى سبكتكين يطلب صلحه فأجابه إلى ذلك على مال يؤديه إليه وبلاد يسلمها وخمسين فيلا يحملها إليه واستقر الأمر على ذلك ولما أبعد ملك الهند ورأى نفسه فى مأمن خاس بعهده فسار سبكتكين نحوه حتى ورد لفان وهى من أحسن قلاعهم فافتتحها عنوة وهدم بيوت الأصنام وأقام فيها شعار الاسلام ولما علم بذلك جيبال حشد الجيوش مرة ثانية لحرب سبكتكين فكان نصيبه الفشل والهزيمة فقوى سبكتكين بهذا الانتصار وأطاعه من أجله الأفغان والخلج

وفى سنة ٣٨٤ لما ثارت الفتن والقلاقل بالبلاد الخراسانية رأى الأمير نوح بن منصور أن يكل أمرها إلى سبكتكين ليكسر من جناح قواده الذين جاهروا بعصيانه فكتب إليه وهو بغزنة يطلعه على الأحوال ويأمره بالمسير إليه لينجده وولاه خراسان فأجاب إلى ذلك سبكتكين وجمع العساكر وحشدها ولما بلغ قائدى نوح الخبر وهما فائق وأبو على بن سيمجور راسلا فخر الدولة بن بويه يستنجدانه ويطلبان منه عسكرا فأجابهما إلى ذلك وسير إليهما عسكرا كثيرا وكانت

الواقعة بين هذين الجيشين بنواحى هراة فكان الظفر لسبكتكين ثم سار نحو نيسابور التى انهزم إليها أبو على وفائق فلما علما بالخبر سارا نحو جرجان واستولى نوح بن منصور بمعونة سبكتكين وجيشه على خراسان فولاه محمود بن سبكتكين وسماه سيف الدولة ولقب أباه ناصر الدولة فأحسن السيرة وأقام محمود بنيسابور وعاد نوح إلى بخارى وسبكتكين إلى هراة.

لما علم أبو على بمبارحة سبكتكين ونوح نيسابور طمع فى استردادها فقدم إليها ومعه فائق فخرج إليهما محمود وقاتلهما ولما كانت رجاله قليلة لم تمكنه المقاومة فانهزم عنهما قاصداً أباه فلما استقر هذا الخبر عند سبكتكين جمع الجند وأتى مدداً لابنه فتقابلت جنوده مع جنود أبى على بنواحى طوس فانهزم أبو على هزيمة منكرة ولم يرتفع له بعد ذلك ذكر وصفت خراسان لسبكتكين.

وفى سنة ٣٨٧ توفى سبكتكين بين بلخ وغزنة ودفن بغزنة بعد ملك دام عشرين سنة وكان عادلا خيراً كثير الجهاد ذا مروءة تامة وحسن عهد ووفاء وعهد بالملك من بعده لابنه إسمعيل وكان أصغر من أخيه محمود فاستضعفه الجند وأرسل إليه محمود من نيسابور يقول له إن أباك إنما عهد إليك لبعدى عنه وذكره مايتعين من تقديم الكبير على الصغير ويطلب منه الوفاق وإنفاذ مايخصه من تركة أبيه فلم يفعل وكان ذلك داعيا إلى أن محموداً قصده بغزنة واستولى عليها ولكنه عامل أخاه معاملة كريمة ولما تم له أمر غزنة واستقام له الملك عاد إلى بلخ ومحمود هذا هو ثالث آل سبكتكين وواسط عقدهم لقبه الخليفة القادر بيمين الدولة . وكانت هناك بعض مناوشات بينه وبين قواد السامانية انتهت بالنصر والتمكين له فى خراسان فأزال عنها اسم السامانية وخطب للقادر بالله سنة ٣٨٩ وجعل أخاه نصراً قائداً لجند نيسابور وسار هو إلى بلخ فاتخذها دار ملك له واتفق أصحاب الأطراف على طاعته.

كان عهد محمود عهد ارتفاع وقوة فوسع أملاكه فقد كانت فى الأصل بلاد غزنة ثم انضم إليها بلاد الغور وهى جبال وولاية بين هراة وغزنة وأكبر مافيها قلعة يقال لها فيروز كوه . ثم أدخل جزءاً عظيما من بلاد الهند تحت سلطانه حتى وصل إلى قشمير فأسلم صاحبها على يده وأسلم كذلك كثير من ملوك الهند وقد عبر نهر الكنج فى فتوحاته . ومن الجهة الأخرى ضمت إليه خراسان والرى والجبال ودانت له ملوك

طبرستان وجرجان ولم يزل فى عزه وسلطانه إلى أن أدركته الوفاة سنة ٤٢١ وعهد بالملك من بعده لابنه محمد وكان أصغر من مسعود ولقب بجلال الدولة إلا أن ذلك لم يرق لأخيه مسعود فسار إليه وأخذ الملك منه وتوفى القادر بالله والملك فى آل سبكتكين لمسعود بن محمود بن سبكتكين وقد استمرت الدولة فى أعقاب هذا البيت إلى سنة ٥٨٢ وهذا ثبت ملوكها

(١) سبكتكين	٣٦٦ — ٣٨٧
(٢) إسماعيل بن سبكتكين	٣٨٧ — ٣٨٨
(٣) يمين الدولة محمود بن سبكتكين	٣٨٨ — ٤٢١
(٤) جلال الدولة محمد بن محمود	٤٢١ — ٤٢١
(٥) ناصر دين الله مسعود بن محمود	٤٢١ — ٤٣٢
(٦) شهاب الدولة مودود بن مسعود	٤٣٢ — ٤٤٠
(٧) مسعود بن مودود	٤٤٠ — ٤٤٠
(٨) بهاء الدولة أبو الحسن على بن مسعود بن محمود	٤٤٠ — ٤٤٠
(٩) عز الدولة عبد الرشيد بن محمود	٤٤٠ — ٤٤٤
(١٠) جمال الدولة فرخزاد بن مسعود بن محمود	٤٤٤ — ٤٥١
(١١) ظهير الدولة إبراهيم بن عبد الرشيد	٤٥١ — ٤٩٢
(١٢) علاء الدولة مسعود بن إبراهيم	٤٩٢ — ٥٠٨
(١٣) كمال الدولة شيرزاد بن مسعود	٥٠٨ — ٥٠٩
(١٤) سلطان الدولة ارسلان بن مسعود	٥٠٩ — ٥١٢
(١٥) يمين الدولة بهرام شاه بن مسعود	٥١٢ — ٥٤٨
(١٦) معز الدولة خسروشاه بن بهرام شاه	٥٤٧ — ٥٥٥
(١٧) تاج الدولة خسرو ملك بن خسروشاه	٥٥٥ — ٥٨٢

وكان انقضاء هذه الدولة على يد الدولة الغورية

كان بجرجان من الدولة الزيادية شمس المعالى قابوس بن وشمكير إلى سنة ٤٠٣ ثم فلك المعالى منوجهر بن بستون بن وشمكير إلى سنة ٤٢٠ ثم أنوشروان بن قابوس إلى سنة ٤٣٤ وهو الذى انتهى على يده ملك أهل بيته على يد الدولة الغزنوية

أما السلطان ببلاد العراق فكان لأربعة ملوك من آل بويه يتلو أحدهم الآخر

الأول بهاء الدولة أبو نصر عضد الدولة وهو الذى ولى القادر الخلافة وكان عهده عهد اضطراب بينه وبين أهل بيته فأضعف ذلك من سلطانه وآذن البيت كله بالانحلال وكانت وفاته سنة ٤٠٣ وكان فى سلطانه العراق والأهواز وفارس وكرمان

الثانى سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة ولم يكن عهده أحسن من عهد أبيه بل كان عهد ضعف واستكانة فان جنده ما كانوا يطيعونه وكثيرا ماشغبوا عليه يطلبون منه طلبات لا يقدر عليها وكان ذلك سبباً لقيام أخيه وهو :

الثالث شرف الدولة أبو على بن بهاء الدولة قام على أخيه وانتزع منه ملك العراق فخطب له ببغداد فى آخر المحرم سنة ٤١٢ ونفى سلطان الدولة عن العراق فذهب إلى بلاد فارس وضبطها ثم اصطلح الأخوان على أن يكون لشرف الدولة العراق ولسلطان الدولة فارس وكرمان إلا أن مدة سلطان الدولة لم تطل فانه توفى سنة ٤١٥ بشيراز وخلفه ابنه أبو كاليجار وفى ربيع الأول سنة ٤١٦ توفى شرف الدولة وكان كثير الخير قليل الشر عادلا حسن السيرة

الرابع جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة خطب له ببغداد بعد وفاة أخيه وكان إذ ذاك بالبصرة والياً عليها وطلب إلى بغداد فلم يصعد إليها وإنما بلغ واسطا وأقام بها ثم عاد إلى البصرة فقطعت خطبته وخطب لابن أخيه أبى كاليجار بن سلطان الدولة الذى كان صاحب الأهواز وكان بها وراسله الجند فى ذلك فوعدهم أن يجىء ولكنه تأخر لما كان بينه وبين عمه أبى الفوارس صاحب كرمان من الحرب فازدادت الفتن ببغداد لعدم السلطان وكثر شر الأتراك بها ولما رأى ذلك عقلاء القواد راسلوا جلال الدولة ليصعد إليهم فيملك أمرهم وخطبوا باسمه فى جمادى الأولى سنة ٤١٨ فاعتم أن صعد إليهم وملك أمرهم ولكن لم يكن عنده من المال مايضمن راحتهم وراحته فكثر الشغب عليه من الجند وأتراك بغداد حتى كادوا يخلعونه وكان ينازعه أخوه أبو كاليجار . وانتهت مدة القادر بالله وهما على ذلك النزاع

لم يكن للخليفة القادر بالله شىء من السلطان كمن مضى فى عهد سلاطين ابن بويه إلا أنه ضعف البيت المالك أحياله شيئا من الكلمة والنفوذ وكان فيه من خلال الخير مايساعد على ذلك فقد كان حليما كريما خيرا يحب الخير وأهله ويأمر به وينهى عن

الشر ويبغض أهله وكان حسن الاعتقاد صنف كتابا على مذهب أهل السنة والجماعة وكان يخرج من داره فى زى العامة ويزور قبور الصالحين وإذا وصل اليه حال أمر فيه بالحق

وكان فى زمنه أحداث عظام فى جميع الأصقاع الاسلامية من قيام دول وإبادة أخرى وكلها تهتف على منابرها باسمه وتتقلد الولايات منه إلا ما كان من البلاد التى تحت يد الدولة العلوية المصرية فانها كانت تخطب باسم أئمتها ومع ذلك فان المعز بن باديس صاحب المغرب والقيروان دعا باسم القادر على منابر بلاده

توفى القادر بالله فى ذى الحجة سنة ٤٢٢ وعمره ست وثمانون سنة وعشرة أشهر وخلافته ٤١ سنة وثلاثة أشهر وعشرون يوما

٢٦ — القائم

هو أبو جعفر عبد الله القائم بأمر الله . ولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه وكانت بيعته فى ذى الحجة سنة ٤٢٢ (نوفمبر سنة ١٠٣١) وبقى خليفة إلى ١٣ شعبان سنة ٤٦٧ (٢ ابريل سنة ١٠٧٥) فكانت مدته ٤٤ سنة و ٢٥ يوما

كان سلطان العراق لأول عهده جلال الدولة بن بهاء الدولة ولم يكن أمره فى سلطانه على سداد لكثرة شغب الغلمان والأتراك عليه طالبين مرتباتهم التى لم يكن يقدر على أدائها فى أوقاتها لقلة الوارد عليه فلم تجىء سنة ٤٢٦ إلا وقد أنحل أمر الخلافة والسلطنة جميعا ببغداد حتى أن بعض الجند خرجوا إلى قرية يحيى فلقيهم أكراد فأخذوا دوابهم فعادوا إلى قراح الخليفة فنهبوا شيئا من ثمرته وقالوا للعمال فيه أنتم عرفتم حال الأكراد ولم تعلمونا فسمع الخليفة الحال فعظم عليه ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الأكراد لعجزه ووهنه واجتهد فى تسليم الجند إلى نائب الخليفة فلم يمكنه ذلك فتقدم الخليفة إلى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه وإلى الشهود بترك الشهادة وإلى الفقهاء بترك الفتوى فلما رأى ذلك جلال الدولة سأل أولئك الأجناد ليجيبوه إلى أن يحملهم إلى دار الخلافة ففعلوا فلما وصلوا إليها أطلقوا وعظم امر العيارين وصاروا يأخذون الأموال ليلا ونهارا ولا مانع لهم لأن الجند يحملون على السلطان ونوابه والسلطان عاجز عن قهرهم وانتشر العرب فى البلاد فنهبوا النواحى وقطعوا

الطريق وبلغوا أطراف بغداد حتى وصلوا إلى جامع المنصور وأخذوا ثياب النساء فى المقابر

ولكثرة تشغيب الجند على جلال الدولة كان الخليفة يتداخل بين الفريقين متوسطا فى أمر الصلح ومع ماظهر من ضعف جلال الدولة وسقوط هيبته سأل الخليفة القائم سنة ٤٣٢ أن يخاطب بملك الملوك فامتنع الخليفة من ذلك فاستعان عليه جلال الدولة بالفقهاء الذين يلجأ إليهم السلاطين فى مثل ذلك فأفتى بالجواز القاضى أبو الطيب الطبرى والقاضى أبو عبد الله الصيرفى والقاضى ابن البيضاوى وأبو القاسم الكرخى وامتنع من الفتيا قاضى القضاة أبو الحسن الماوردى وجرى بينه وبين من أفتى بالجواز مراجعات فأجاب الخليفة طلب جلال الدولة وخطب له بملك الملوك وكان الماوردى من أخص الناس بجلال الدولة وكان يتردد إلى دار المملكة كل يوم . فلما أفتى بهذه الفتيا انقطع ولزم بيته خائفا وأقام منقطعا من شهر رمضان إلى يوم عيد النحر فاستدعاه جلال الدولة فحضر خائفا فأدخله وحده وقال له قد علم كل أحد أنك من أكثر الفقهاء مالا وجاها وقربا منا وقد خالفتهم فيما خالف هواى ولم تفعل ذلك إلا لعدم المحاباة واتباع الحق وقد بان لى موضعك من الدين ومكانك من العلم وجعلت جزاء ذلك إكرامك بأن أدخلتك وحدك وجعلت إذن الحاضرين إليك ليتحققوا عودى إلى ماتحب فشكره ودعا له وأذن لكل من حضر بالخدمة والانصراف وهكذا يفعل بالانسان قول الحق حسبما يعتقد لا يخشى فى ذلك لومة لائم ولا غضب سلطان

قضى جلال الدولة حياته فى منازعات بينه وبين جنوده وبينه وبين أبى كاليجار إلى أن توفى سنة ٤٣٥ بعد ملك مدته ١٦ سنة و ١١ شهرا قال ابن الأثير ومن علم سيرته وضعفه واستيلاء الجند والنواب عليه ودوام ماسكه إلى هذه الغاية علم أن الله على كل شيء قدير يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء وكان يزور الصالحين ويقرب منهم وزار مرة مشهدى على والحسين عليهما السلام وكان يمشى حافيا قبل أن يصل إلى كل مشهد منهما نحو فرسخ يفعل ذلك تدينا

استقر فى الملك بعده منازعه ابن أخيه أبو كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة ولقبه الخليفة محيي الدين ولم تكن قدمه بأثبت من قدم أبيه ولا سلطانه أوفر

بل كان النزاع كثيرا ما يستحكم بين الديلم عنصر السلطان وبين الأتراك قدماء العهد ببغداد وكانت وفاة أبي كاليجار سنة ٤٤٠

بويع بالسلطان بعده ابنه أبو نصر خسروفيروز وطلب من الخليفة أن يلقبه بالملك الرحيم فلم يجب إلى ذلك وقال لا يجوز أن يلقب بأخص صفات الله تعالى. فأبى إلا أن يكون ذلك لقبه فكان ما أراد واستقر ملكه بالعراق وخوزستان والبصرة. وقد استمر سلطانا حتى ورد إلى بغداد السلطان طغرلبك فأزاله عن ملكه ونفاه إلى قلعة السيرجان وبذلك انقضت مدة آل بويه التي لم يكن فيها شيء من الصلاح للبلاد بل زادتها فسادا وفرقة بما أظهرته من التشيع في بغداد مع أن أكثرية أهلها أهل سنة وجماعة فكان النزاع كثيرا ما يقع بين الفرقتين وتحصل حوادث شديدة الوقع في بغداد لا يغيرها الخليفة لضعفه ولا السلطان لأنه كان يعين طائفته ووجد الخلاف بين أفراد البيت بعد وفاة الرجال الثلاثة الذين أسسوا هذا الملك العظيم وكان هذا الخلاف كثيرا ما يدعو إلى وقوف بعضهم إزاء بعض متحاربين وعلى الجملة فان البلاد التي استولوا عليها لم تستفد من دولتهم شيئاً على طول مدتهم وضخامة دولتهم. وأجمل هذه المدة عهد عضد الدولة فناخسرو ثالث ملوك هذه الدولة بالعراق

آل سلجوق

من عشائر الغز الكبرى عشيرة السلاجقة تنسب إلى مقدمها سلجوق بن تقاق. وكانت هذه العشيرة تقيم في بلاد تركستان تحت حكم ملك الترك المسمى بيغوا وكان تقاق مقدم العشيرة إلى قوله يرجعون وعن أمره يصدرون وولد له ابنه سلجوق بذلك الاقليم فلما كبر ظهرت عليه أمارات النجابة ومخايل التقدم فقربه ملك الترك وجعله قائد الجند (شباسى) وكانت امرأة الملك تخوفه من سلجوق لما ترى من طاعة الناس له فأغرته بقتله وبلغ سلجوق ذلك الخبر فجمع عشيرته وهاجر إلى ديار الاسلام واعتنق الحنيفية فازداد بذلك عزا إلى عزه وأقام بنواحي جند (على طرف سيحون من حدود الترك) وصار يشن الغارة على بلاد الترك

في تلك الأوقات قام النزاع بين أحد ملوك السامانية وهرون بن أيلك خان وقد استولى هرون على بعض بلاده فرأى أن يضرب الحديد بالحديد فاستنجد

سلجوق فأنجده بابنه أرسلان فى جمع من أصحابه فقوى بهم السامانى واسترد من خصمه ماأخذه وهذه أول صلة بين عشيرة السلاجقة والسامانية

لم يزل سلجوق بجند حتى توفى وكان له ثلاثة من الأولاد وهم أرسلان وميكائيل وموسى

فأما ميكائيل فغزا غزوة فى بلاد الترك فاستشهد وبقيت أولاده وهم بيغو وطغرلبك محمد وجغرى بك داود فأطاعتهم عشيرتهم

رحلوا بعد ذلك من جند ونزلوا بالقرب من بخارى على عشرين فرسخا منها فخافهم أميرها فأساء جوارهم وأراد الايقاع بهم فالتجؤا إلى بغراخان ملك تركستان وأقاموا فى بلاده ولمزيد حرصهم على أنفسهم اتفق طغرلبك وداود أنهما لا يجتمعان عند بغراخان حذرا من مكر يمكره بهم وكان بغراخان يجتهد أن يجمع بينهما عنده فلم ينجح فقبض على طغرلبك وأسره فثار داود فى عشائره ليخلص أخاه فأنفذ اليه بغراخان عسكرا فانهزم ذلك العسكر وخلص طغرلبك من الأسر وانصرف إلى جند

لما انقرضت دولة السامانية سنة ٣٨٩ وملك ايلك خان عظم محل ارسلان بن سلجوق بما وراء النهر وكان على تكين أحد قواد السامانية فى حبس ارسلان خان فهرب ولحق ببخارى واستولى عليها واتفق مع ارسلان بن سلجوق فامتنعا واستفحل أمرهما وقصدهما ايلك فهزماه وبقيا ببخارى

لما عبر محمود بن سبكتكين النهر إلى بخارى للاستيلاء على بلاد ماوراء النهر هرب على تكين من بخارى وأما ارسلان بن سلجوق وجماعته فانهم دخلوا المفازة والرمل فاحتموا من محمود فرأى من قوتهم ماهاله وأراد أن يستعمل معهم الحيلة فكاتب ارسلان واستماله ورغبه فورده عليه فلم يكن من محمود إلا أن قبض عليه وسجنه فى قلعة ونهب خركاهاته ثم أمر عشيرته فعبروا نهر جيحون وفرقهم فى بلاد خراسان فلم يطمئنوا بها من جور العمال عليهم فسار منهم أهل ألفى خركاه فلحقوا بأصبهان ومنها إلى أذربيجان ودخلوا مراغة سنة ٤٢٩ وأحرقوا جامعها وقتلوا من عوامها مقتلة عظيمة فعظم الأمر على أهلها واشتد بهم البلاء

رأى ذلك أكراد أذربيجان وكانوا مختلفين فاتفقت كلمتهم على هؤلاء المفسدين فانتصفوا منهم ورأى الغز أنهم لا مقام لهم هناك فافترقوا فرقتين فطائفة سارت إلى الري ومقدمهم بوقا وطائفة أخرى سارت إلى همذان ومقدمهم منصور وكوكتاش

أما الذين ذهبوا إلى الرى فانهم استولوا عليها ونهبوها نهبا فاحشا وسبوا النساء وبقوا كذلك خمسة أيام حتى لجأ الحرم إلى الجامع وتفرق الناس كل مذهب ومهرب وكان السعيد من نجا بنفسه وكادوا يستأصلون أهل الرى

وأما الذين ساروا إلى همذان فانهم ملكوها أيضا من يد بنى بويه سنة ٤٢٠ ولما دخلوها نهبوها نهبا منكرا لم يفعلوه بغيرها من البلدان غيظا منهم وحنقا عليهم حيث قاتلوهم أولا وأخذوا الحرم وضربت سراياهم إلى أسداباذ وقرى الدينور واستباحوا تلك البلاد

ولم يزالوا على هذا الافساد والتخريب حتى ظهرت السلاجقة وخرج إبراهيم ينال أخو طغرلبك إلى الرى فلما علموا بمسيره جفلوا من بين يديه وفارقوا بلاد الجبل قاصدين أذربيجان فلم يمكنهم القيام بها لما فعلوا بها أولا ولأن إبراهيم ينال وراءهم وكانوا يخافونه لأنهم كانوا له ولأخيه طغرلبك رعية فساروا إلى ديار بكر وأميرها سليمان بن نصر الدولة بن مروان فأخربوها ونهبوا أعمالها إلى أن بذل لهم سليمان مالا ليفارقوا عمله . إذ ذاك صمموا على قصد الموصل وأميرها قرواش من الدولة العقيلية فانهزم عنهم لما حاربوه فدخلوا البلد ونهبوه ووصل قرواش إلى مدينة السن وهناك راسل جلال الدولة سلطان بغداد يعرفه الحال ويطلب النجدة واستنجد أيضا دبيس بن مزيد ملك الحلة وغيره من أمراء العرب والأكراد

عمل الغز بأهل الموصل الأعمال الشنيعة من الفتك وهتك الحريم ونهب المال ولما اشتد الأمر على أهل الموصل ثاروا بالغز وقتلوا منهم كثيرا فخرج الغز وعسكروا خارج المدينة حتى جمعوا قواهم ثم عادوا إليها متفقين فوضعوا السيف فى أهلها وأسروا كثيرا ونهبوا الأموال وأقاموا على ذلك اثنى عشر يوما يقتلون وينهبون لما طال مقامهم بتلك البلاد كتب جلال الدولة ونصر الدولة بن مروان إلى طغرلبك يشكوان ما حل بالبلاد من تلك الفئة

بقى قرواش بالسن حتى جاءته النجدات فسار إلى الموصل وبلغ الخبر الغز فتهيئوا للحرب فاجتمعت القوتان على نهر العجاج وكان النصر أولا للغز ثم نصر الله العرب فانهزمت الغز شر هزيمة وأخذهم السيف وتفرقوا وكثر القتل فيهم وملك العرب حللهم وخركاهاتهم وكفى الله أهل الموصل شرهم وتبعهم قرواش إلى نصيبين ثم

عاد عنهم فقصدوا ديار بكر وصاروا يعيثون فسادا ولكن قواهم وهنت وتضعضع امرهم ويسمى التاريخ هـذه الطائفة بالغز العراقيـة وهى بقايا من كان مع أرسلان ابن سلجوق

أما من كان من أولاد ميكائيل بن سلجوق فانهم أقلعوا بنواحى بخارى كما قدمنا فغص بمكانهم أمير بخارى على تـكين فأعمل الحيلة فى الظفر بهم فأرسل إلى يوسف ابن موسى بن سلجوق ومناه الاحسان وفوض إليه التقدم على جميع الأتراك الذين فى ولايته ولقبه بالأمير اينانج بيغو وأراد بذلك أن يستعين به وبعشيرته على ابنى عمه طغرلبك وداود وأن يفرق كلمتهم ويضرب بعضهم ببعض فلم تجز هـذه الحيلة على يوسف فلم يـكن من على تـكين إلا أن قبض عليـه وقتله بيد أمير من أمرائه فعظم قتله على ابنى عمه فجمعا قومهما للأخذ بثاره وجمع على تـكين جيوشه فـكان النصر لطغرلبك وأخيه ثم احتشد على تـكين مرة ثانيـة وأوقع بالسلاجقة وقعة كانت عليهم شديدة ألجأتهم إلى عبور النهر نحو خراسان فـكتب إليهم خوارزمشاه هرون بن التونتاش ملك خوارزم يستدعيهـم للاتفاق معه فساروا إليـه وخيموا بظواهر خوارزم سـنة ٤٢٦ واطمأنوا إلى خوارزمشاه ولـكن غدر بهم وكبسهم وهم غارون فقتل منهم جمعا فساروا عن خوارزم إلى مفازة نسا ثم كتبوا إلى الملك مسعود بن محمود بن سبكتـكين يطلبون منه الأمان ويضمنون أن يكونوا عوناله على من يعاديه فلم يفعل وسير إليهـم جيوشه فلقيتهم عنـد نسا فأوقع السلاجقة بجيش مسعود ولما بلغه ذلك ندم على رده طاعتهم وعلم ان هيبتهم تمـكنت من قلوب عسكره فأرسل إليهم يتهددهم ويتوعدهم فـكتب إليه طغرلبك هـذه الآية (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) فلما ورد الـكتاب على مسعود كتب إليهم ثانية يعـدهم المواعيد الجميلة ويأمرهم أن يرحلوا إلى آمل على شاطىء جيحون وينهاهم عن الشر والفساد وأقطع داهستان لداود «وداهستان مدينة عند مازندران بناها عبـد الله بن طاهر بين جرجان وخوارزم آخر حدود طبرسـتان» وأقطع نسا لطغرلبك وأقطع فراوة لبيغو وفراوة بلدة مما يلى خوارزم بناها عبـد الله بن طاهر . استخف السلاجقة برسل مسعود لعدم ثقتهـم بالرسالة وصاروا يشنون

الغارة على البلاد وعسكر مسعود قد هابهم ومسعود قد شغل عنهم بنفسه وأعرض عن خراسان والسلاجقة فاجتمع وزراؤه وقالوا له إن هؤلاء القوم إذا تركوا وشأنهم استولوا على خراسان سريعاً ثم ساروا منها إلى مدينة غزنة فأيقظوه من رقدته فجهز لهم الجنود مع أكبر قواده وكان داود قد استولى على مرو وأحسن السيرة فى أهلها وخطب له بها أول جمعة فى رجب سنة ٤٢٨ ولقب فى الخطبة بملك الملوك . جاءت الجنود المسعودية فالتقت بجند داود عند باب مرو فلم يثبت العسكر المسعودى وانهزم أقبح هزيمة وسار أخزى سير إلى هراة فتبعهم داود إلى طوس وكانت هذه الواقعة هى التى ملك السلاجقة بعدها خراسان ودخلوا قصبات البلاد فدخل طغرلبك نيسابور وخطب له بها فى شعبان ولقب بالسلطان المعظم وفرقوا النواب فى النواحى

علم ذلك مسعود فاضطر أن يسير بنفسه من غزنة فى جيوش عظيمة حتى وصل بلخ ومنها سار فى أول رمضان سنة ٤٢٩ واستعد له السلاجقة فلما التقى الفريقان كان التعب قد أخذ من عسكر مسعود فاجتاحهم السلاجقة واضطر مسعود أن ينهزم ومعه مائة فارس وغنم السلاجقة من هذا العسكر مالا يدخل تحت الاحصاء فقسمه داود على عسكره وآثرهم على نفسه

بعد تلك الواقعة عاد طغرلبك إلى نيسابور فملكها ثانية آخر سنة ٤٣١ وسكن الناس واطمأنوا بعد أن كانوا فى شدة من الفوضى ثم ملك داود بلخ وفى سنة ٤٣٣ ملك طغرلبك جرجان وطبرستان من يد أنوشروان بن منوجهر بن قابوس بن وشمكير . وفى سنة ٤٣٤ ملك خوارزم

لما تم له ذلك سار يريد الرى وبلاد الجبل وكان قد سبقه إليها أخوه لأمه إبراهيم ينال واستولى على الرى فلما سمع بقدومه سار إليه وسلمه إياها وجميع ماملك من بلاد الجبل فأمر طغرلبك بعمارة الرى وكانت قد خربت ثم سار إلى قزوين فملكها صلحا وملك أيضا همذان

بذلك تم له ملك أصقاع كبيرة من البلاد الاسلامية وهى خوارزم وخراسان وبلاد الرى ووصلت طلائع جنوده إلى البلاد العراقية . أهم ذلك الملك أبا كاليجار صاحب العراق ولم يجد فى نفسه قدرة على صد ذلك السيل فأرسل إلى طغرلبك فى

الصلح فأجابه إليه واصطلحا وكتب طغرلبك الى أخيه إبراهيم ينال يأمره بالكف عما وراء مابيده واستقر الحال على أن يتزوج طغرلبك بابنة أبي كاليجار ويتزوج الأمير أبو منصور بن أبي كاليجار بابنة الملك داود أخي طغرلبك وتم هذا فى ربيع الأول سنة ٤٣٩ وفى سنة ٤٤١ خطب لطغرلبك بديار بكر خطب له بهانصر الدولة ابن مروان صاحبها وفى سنة ٤٤٣ استولى على اصبهان ثم أطاعته أذربيجان وأرسل إليه من بها من الأمراء يبذلون له الطاعة والخطبة فأبقى بلادهم بأيديهم وأخذ رهائنهم ثم سار إلى أرمينية وقصد ملازجرد وهى للروم فحصرها وأخرب ماحولها وأثر فى بلاد الروم آثارا عظيمة وبلغ فى غزوته هـذه إلى ارزن الروم (ارضروم) ولما هجم عليه الشتاء عاد إلى أذربيجان ثم توجه إلى الرى فأقام بها إلى سنة ٤٤٧

فى هذا الوقت كانت الأحوال سيئة فى بغدادفان آل بويه قدتفرقت كلمتهم وزالت من القلوب هيبتهم فلم يكن يمكنهم أن يحفظوا بغداد لامن عدو طارىء ولا من عياريها ولصوصها فأعدوا الجمهور لقبول مايغير من هـذه الحال . ومما زاد الحال فسادا ماكان من أمر أبي الحارث أرسلان المعروف بالبساسيرى وهو غلام تركى من مماليك بهاء الدولة فانه أراد أن يزيل الخلافة عن بنى العباس وكاتب الخليفة المستنصر العلوى بمصر ليدخل فى طاعته ويخطب باسمه على منابر بغداد والخليفة العباسى عنده علم ذلك فكتب إلى السلطان طغرلبك مستنجدا مستغيثا وكانت هذه أمنيته فأظهر أنه يريد الحج وإصلاح طريق مكة والمسير إلى الشام ومصر وإزالة المستنصر العلوى صاحبها وكاتب أصحابه بالدينور وقرميسين وحلوان وغيرها فأمرهم باعداد الأقوات والعلوفات فعظم الأرجاف ببغداد وفت أعضاد الناس . وصل طغرلبك إلى حلوان وانتشر أصحابه فى طريق خراسان فأجفل الناس إلى غربى بغداد وأرسل طغرلبك إلى الخليفة يبالغ فى إظهار العبودية والطاعة وإلى الأتراك البغداديين يعدهم الجميل والاحسان فاتفق من ببغداد من الرؤساء والأمراء على مكاتبة طغرلبك يبذلون له الطاعة والخطبة وفعلا تقدم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطغرلبك بجوامع بغداد فخطب له فى يوم الجمعة ٢٢ محرم سنة ٤٤٧ ودخلها طغرلبك فى الخامس والعشرين منه وقبض على آخر سلاطين بنى بويه وهو الملك الرحيم وبذلك انقضت دولتهم ووجدت بالعراق وما وراءه هذه الدولة الجديدة الفتية وهى دولة السلاجقة

هذه العشيرة استولت على جل ماملكه المسلمون وقد انقسمت إلى خمس بيوت الأول السلاجقة العظمى وهى التى كانت تملك خراسان والرى والجبال والعراق والجزيرة وفارس والأهواز

الثانى سلاجقة كرمان

الثالث سلاجقة العراق

الرابع سلاجقة سوريا

الخامس سلاجقة الروم

أما السلاجقة الكبرى فهى الدولة التى أسسها ركن الدين ابو طالب طغريل بك وحياتها ٩٣ سنة من سنة ٤٩٢ (١٠٣٩) م إلى سنة ٥٢٢ (١١٢٧) م وهذا ثبتها

(١) ركن الدين أبو طالب طغريل بك من ٤٢٩ - ٤٥٥

(٢) عضد الدين أبو شجاع الب أرسلان ٤٥٥ — ٤٦٥

(٣) جلال الدين أبو الفتح ملكشاه ٤٦٥ — ٤٨٥

(٤) ناصر الدين محمود ٤٨٥ — ٤٨٧

(٥) ركن الدين أبو المظفر بركياروق ٤٨٧ — ٤٩٨

(٦) ركن الدين ملكشاه الثانى ٤٩٨ — ٤٩٨

(٧) غياث الدين أبو شجاع محمد ٤٩٨ — ٥١١

(٨) معز الدين أبو الحارث سنجر ٥١١ — ٥٢٢

وقد انقضت دولتهم على أيدى شاهات خوارزم

وأما سلاجقة كرمان فكانوا من عشيرة قاورت بك بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وهو أخو الب أرسلان ومدة ملكهم ١٥٠ سنة من ٤٣٢ (١٠٤١) م إلى ٥٨٣ (١١٨٨) م وهذا ثبت ملوكها

(١) عماد الدين قرا أرسلان قاورت بك ٤٣٣ - ٤٥٦

(٢) كرمانشاه ٤٥٦ - ٤٦٧

(٣) حسين ٤٦٧ - ٤٦٧

(٤) ركن الدين سلطانشاه ٤٦٧ - ٤٧٧

(٥) تورانشاه ٤٧٧ - ٤٩٠

(٦) ارانشاه ٤٩٠ - ٤٩٤
(٧) ارسلانشاه ٤٩٤ - ٥٣٦
(٨) مغيث الدين محمد الأول ٥٣٦ - ٥٥١
محي الدين طغريل شاه بهرامشاه ٥٥١ - ٥٦٣
ارسلانشاه الثاني
طرخان شاه
محمد الثاني ٥٦٣ - ٥٨٣

وقد انقضت دولتهم على أيدى الغز التركمان

وأما سلاجقة العراق و كردستان فقدابتدأت دولتهم سنة ٥١١ (١١١٧) أى من عهد وفاة غياث الدين أبي شجاع محمد سابع ملوك السلاجقة وانتهت سنة ٥٩٠ (١١٩٤) فبقيت ٧٩ سنة وانقرضت على أيدى شاهات خوارزم وهذا ثبت ملوكها

(١) مغيث الدين محمود ٥١١ - ٥٢٥
(٢) غياث الدين داود ٥٢٥ - ٥٢٦
(٣) طغريل الأول ٥٢٦ - ٥٢٧
(٤) غياث الدين مسعود ٥٢٧ - ٥٤٧
(٥) معين الدين ملكشاه ٥٤٧ - ٥٤٨
(٦) محمد ٥٤٨ - ٥٥٤
(٧) سليمانشاه ٥٥٤ - ٥٥٦
(٨) أرسلانشاه ٥٥٦ - ٥٧٣
(٩) طغريل الثاني ٥٧٣ - ٥٩٠

وأما سلاجقة سوريا فكانوا من بيت تتش بن الب أرسلان بن داود بن ميكائيل ابن سلجوق وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٨٧ (١٠٩٤) أى فى أول عهد ركن الدين بركياروق خامس ملوك السلاجقة العظمى وانتهت سنة ٥١١ (١١١٧) فكانت حياتها ٢٤ سنة وانتهت على أيدى الدولتين النورية والأرتقية وهذا ثبت ملوكها

(١) تتش بن الب ارسلان ٤٨٧ - ٤٨٨
(٢) رضوان بن تتش ٤٨٨ - ٤٨٨

(٣) تقاق بن تتش فى دمشق	٤٨٨ - ٥٠٧
(٤) الب ارسلان أخرص بن رضوان	٥٠٧ - ٥٠٨
(٥) سلطانشاه بن رضوان	٥٠٨ - ٥١١

وأما السلاجقة الروم ملوك قونية واقصرا فكانوا من بيت قطلمش بن إسرائيل ابن سلجوق وقد ابتدأت دولتهم سنة ٤٧٠ (١٠٧٧) فى عهد جلال الدين أبى الفتح ملكشاه ثالث ملوك السلاجقة العظمى وانتهت سنة ٧٠٠ (١٣٠٠) فمدة حياتها ٢٣٠ سنة فهى أطول دول السلاجقة حياة وقد انتهت دولتهم على أيدى الأتراك العثمانيين والمغول وهذا ثبت ملوكها

(١) سليمان بن قطلمش	٤٧٠ — ٤٧٥
(٢) قليج ارسلان داود بن سليمان	٤٧٥ — ٥٠٠
(٣) ملكشاه بن قليج ارسلان	٥٠٠ — ٥١٠
(٤) مسعود بن قليج ارسلان	٥١٠ — ٥٥١
(٥) عز الدين قليج ارسلان بن ملكشاه	٥٥١ — ٥٨٤
(٦) قطب الدين ملكشاه بن قليج ارسلان	٥٨٤ — ٥٧٨
(٧) غياث الدين كيخسرو بن قليج ارسلان	٥٨٨ — ٥٩٧
(٨) ركن الدين سليمان بن قليج ارسلان	٥٩٧ — ٦٠٠
(٩) قليج ارسلان بن سليمان	٦٠٠ — ٦٠١
غياث الدين كيخسرو بن قليج ارسلان ثانيا	٦٠١ — ٦٠٧
(١٠) عز الدين كيقاوس بن ملكشاه	٦٠٧ — ٦١٦
(١١) علاء الدين كيقباذ بن ملكشاه	٦١٦ — ٦٣٤
(١٢) غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ	٦٣٤ — ٦٤٣
(١٣) عز الدين كيقاوس بن كيخسرو	٦٤٣ — ٦٥٥
(١٤) ركن الدين قليج ارسلان بن كيخسرو	٦٥٥ — ٦٦٦
(١٥) غياث الدين كيخسرو بن قليج ارسلان	٦٦٦ — ٦٨٢
(١٦) غياث الدين مسعود بن كيقاوس	٦٨٢ — ٦٩١
(١٧) علاء الدين كيقباذ	٦٩١ — ٧٠٠

والذى كان يرتبط تاريخه من هذه البيوت بتاريخ الدولة العباسية لدخول بغداد فى حوزتهم السلاجقة العظمى وسلاجقة العراق الذين كان لهم السلطان على العباسيين ٤٤٧ إلى سنة ٥٩٠ أى ١٤٣ سنة

استخلف من آل العباس فى عهد الدولة السلجوقية تسعة خلفاء وهم

٢٦ عبد الله القائم بأمر الله بن القادر بن المقتدر
٢٧ عبد الله المقتدى بالله بن محمد بن القائم
٢٨ أحمد المستظهر بن المقتدى
٢٩ الفضل المسترشد بن المستظهر
٣٠ المنصور الراشد بن المسترشد
٣١ محمد المقتفى بن المستظهر
٣٢ يوسف المستنجد بن المقتفى
٣٣ الحسن المستضىء بن المستنجد
٣٤ أحمد الناصر بن المستضىء

وأولهم القائم بأمر الله هو الذى فى عهده انتهى العصر البويهى وابتدأ ملك السلجوقى وآخرهم الناصر لدين الله هو الذى انتهى فى عصره ملك السلاجقة

ملك السلطان طغرلبك بغداد وتقرب من الخليفة تقربا عظيما حتى أن الخليفة تزوج أرسلان جاتون واسمها خديجة بنت داود أخى طغرلبك وقبل الخليفة العقد بنفسه وذهبت والدة الخليفة وتسلمتها وأحضرتها إلى دار الخلافة . ولم تقف المصاهرة بين البيتين عند هذا الحد بل إن السلطان طغرلبك تطلع إلى أن يتزوج هو أيضا من البيت العباسى وهو أمر لم تجر به العادة فأرسل سنة ٤٥٣ يخطب بنت الخليفة فانزعج الخليفة من هذا الطلب وأرسل إلى السلطان رسولا أمره أن يستعفى من الاجابة فان أعفى وإلا تم الأمر على أن يحمل السلطان ٣٠٠٠٠٠ دينار ويسلم واسط وأعمالها فلما وصل الرسول قال له عميد الملك الكندرى وزير طغرلبك لا يحسن أن يرد السلطان وقد سأل وتضرع ولا يجوز مطالبته أيضا بطلب الأموال والبلاد فهو يفعل أضعاف ماطلب منه ففوض الرسول الأمر إلى الوزير فبنى الوزير الأمر على الاجابة وطالع السلطان فسر به وجمع الناس وعرفهم أن همته سمت

به إلى الاتصال بتلك الجهة النبوية وبلغ من ذلك مالم يبلغه سواه من الملوك وأمر الوزير أن يسير إلى بغداد لاتمام ذلك فلما ورد الوزير بغداد رأى من الخليفة امتناعا ولم يزل المحيطون بالخليفة يرفقون به حتى رد الأمر إلى عميد الملك فحضر إلى دار الخلافة ومعه جمع من الأمراء والحجاب والقضاة والشهود فتكلم وقال للخليفة أسأل مولانا أمير المؤمنين التطول بذكر ما شرف به العبد المخلص شاهنشاه ركن الدين فيما رغب فيه ليعرفه الجماعة فأظهر الخليفة نفرة من ذلك وكاد الأمر يفضى إلى فساد ولما رأى الخليفة شدة الأمر أذن فى العقد ووكل فيه عميد الملك فجرى العقد فى شعبان سنة ٤٥٤ بظاهر تبريز وحمل السلطان أموالا كثيرة وجواهر نفيسة للخليفة ولولى العهد ولزوجته ولوالدتها وغيرهم وجعل يعقوبا وما كان بالعراق للخاتون زوجة السلطان التى توفيت للسيدة ابنة الخليفة ولما تم ذلك حضر السلطان إلى بغداد فأراد الخليفة أن يستقبله فاستعفاه من ذلك وأرسل عميد الملك يطلب السيدة من دار الخلافة فنقلت إلى دار المملكة فى منتصف صفر سنة ٤٥٥ وجلست على سرير ملبس بالذهب ودخل السلطان إليها وقبل الأرض وخدمها ولم تكشف الخمار عن وجهها ولا قامت له وحمل لها شيئا كثيرا من الجواهر وغيرها وبقى كذلك يحضر كل يوم يخدم وينصرف وخلع على كثير من الأمراء وظهر عليه كثير من السرور

الحادث العظيم ببغداد

فى السنة التى تلى حكم السلاجقة ببغداد وهى سنة ٤٤٨ كانت عند مدينة سنجار وقعة شديدة بين البساسيرى ومعه نور الدولة دبيس بن مزيد الأسدى وبين قريش ابن بدران العقيلى ومعه قتلمش ابن عم السلطان طغرلبك انهزم فيها قريش وقتلمش فوصل خبر هذه الواقعة إلى السلطان بعد أن أقام ببغداد ثلاثة عشر شهرا لم يقابل فيها الخليفة فسار عنها بجيوشه فقاتل العرب بالموصل والجزيرة وانتصر عليهم وانتهى الأمر باستيلائه على جميع البلاد الموصلية والجزرية وسلمها إلى أخيه لأمه إبراهيم ينال ثم عاد إلى بغداد فى أوائل سنة ٤٤٩ وقابل الخليفة لأول مرة وفوض إليه الخليفة أمر إدارة البلاد وقد بالغ طغرلبك فى احترام مقام الخلافة العباسية وخلع عليه الخليفة سبع خلع وتوج وعمم إشارة إلى جمعه بين ملك العرب والعجم وقلد

سيفا محلى بالذهب وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب فقبل يد الخليفة دفعتين ووضعها على عينه تبركا فعل ما فعل من ذلك التعظيم والاجلال تدينا.

فى سنة ٤٥٠ ترك إبراهيم ينال بلاد الموصل وتوجه نحو بلاد الجبل ويقال إن المصريين كاتبوه وأطمعوه فى الملك فأهم ذلك السلطان وسار وراءه إلى همذان. فى ذلك الوقت عاد البساسيرى بقوته وكان المصريون يساعدونه ويمدونه ولم يزل يجتاح البلاد حتى وصل إلى بغداد فى ثامن ذى القعدة سنة ٤٥٠ واستولى عليها لأنه ليس بها جند يحميها وخطب بجامع المنصور لمعد المستنصر العلوى صاحب مصر وأذن بخير العمل وكانت العامة قد مالت إليه أما الشيعة فلاتحاد المذهب وأما أهل السنة فلما فعل بهم الأتراك

أما الخليفة القائم فانه خرج من قصره فى ذمام رئيس العرب قريش بن بدران العقيلى استذم منه بذمام الله وذمام رسوله صلى الله عليه وسلم وذمام العربية فأعطاه ذلك ونزع قريش قلنسوته فأعطاها الخليفة ثم حمله إلى معسكره وعليه السواد والبردة وبيده السيف وعلى رأسه اللواء وأنزله فى خيمه ثم سلمه إلى ابن عمه مهارش بن المجلى وهو رجل فيه دين وله مروءة فحمله فى هودج وسار به إلى حديثة عانة فتركه بها آمنا مطمئنا فى ذمام العربية الذى يرى الخيانة عارا

أما البساسيرى فانه سار ببغداد سيرة مالك ورفعت على رأسه الألوية البيضاء التى أرسلت إليه من مصر ثم ملك بعد ذلك واسط والبصرة وهتف على منابر تلك البلاد باسم آل على

أما السلطان فانه استنجد بأولاد أخيه ارسلان وياقوتى وقاورت بك لجاءوه بالعساكر يتلو بعضها بعضا فلق بهم أخاه إبراهيم ينال بالقرب من الرى فتغلب عليه وأسره ثم أمر به فخنق بوتر قوسه فى تاسع جمادى الآخرة سنة ٤٥١ ولما تم له ذلك عاد يطلب العراق وليس له هم إلا إعادة القائم بأمر الله إلى خلافته ولما قارب بغداد أدرك البساسيرى أنه لاقبل له بمقاومته فرحل عن بغداد وكان دخوله إليها سادس ذى القعدة سنة ٤٥٠ وخروجه منها سادس ذى القعدة سنة ٤٥١ وكان السلطان قد أرسل وهو بالطريق إمام أهل السنة أبا بكر أحمد بن محمد المعروف بابن فورك إلى قريش بن بدران يشكره على مافعله بالخليفة ويخبره أنه أرسل ابن فورك

للقيام بخدمة الخليفة وإحضاره فأرسل قريش إلى ابن عمه مهارش يقول له أودعنا الخليفة عندك ثقة بأمانتك لينكف بلاء الغز عنا والآن نقد عادوا وهم عازمون على قصدك فارحل أنت وأهلك إلى البرية فانهم إذا علموا أن الخليفة عندنا فى البرية لم يقصدوا العراق ونحكم عليهم بما نريد فأبى ذلك مهارش وقال إن الخليفة قد استحلفنى بعهود ومواثيق لا مخلص منها وسار بالخليفة إلى العراق وقد لقيهما ابن فورك بتل عكبرا فساروا معا حتى وصلوا إلى النهروان فى ٢٤ ذى القعدة فخرج السلطان إلى خدمة الخليفة فاجتمع به وقبل الأرض بين يديه وهنأه بالسلامة وأظهر الفرح بسلامته واعتذر من تأخره بعصيان أخيه إبراهيم وأنه قتله عقوبة لما جرى من الوهن على الدولة العباسية فقلده الخليفة بيده سيفا وقال لم يبق مع أمير المؤمنين من داره سواه وقد تبرك به أمير المؤمنين فكشف غشاء الخركاه حتى رآه الأمراء فخدموا وانصرفوا ثم ساروا جميعا إلى بغداد وكان دخول الخليفة لخمس بقين من ذى القعدة سنة ٤٥١

ثم أنفذ السلطان جيشا للاحقة البساسيرى الذى توجه سمت الشام وسار السلطان فى أثرهم فقابلته الطلائع ببعض الطريق فوقف لهم فقاتلوه وقتلوه وحملوا رأسه إلى بغداد وكان البساسيرى هذا مملوكا تركيا من مماليك بهاء الدولة الديلمى تقلبت به الأمور حتى بلغ هذا المقام المشهور وكنيته أبو الحرث وهو منسوب إلى بسا مدينة بفارس كان سيده الأول منها

وبعد أن تم ما أراده عاد إلى الرى التى جعلت دار ملكه وكان له ببغداد محافظ يسمى الشحنة . وفى سنة ٤٥٥ عاد إلى بغداد ليبنى بابنة الخليفة التى ذكرنا فيما مضى حديثها ثم عاد إلى الرى وبها كانت وفاته فى يوم الجمعة ٨ رمضان سنة ٤٥٥

ولما توفى أراد عميد الملك أن يقيم فى الملك بعده ابن أخيه سليمان بن داود ولكن لم يتهيأ له ما أراد وتم الأمر للسلطان

(٢) عضد الدولة أبى شجاع الب ارسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق وقد عارضه فى الملك ابن عم أبيه قتلمش بن اسرائيل فقتل دون مراده . استعان الب ارسلان فى ادارة ملكه بوزيره العظيم نظام الملك وسيأتى التعريف به وبما ناله المملكة من الخير العميم على يديه

كان الب ارسلان بعيد الهمة ثاقب العزم ميمون النقيبة إلى بره بالرعية وارادته خيرهم وكان إذا أمر ببناء أوعز بأن يكون أسمى بنيان ويقول آثارنا هذه تدل على علو همتنا ووفور نعمتنا . وكانت أظهر أعماله بالبلاد الرومية فقد أقبل لأول عهده سنة ٤٦٢ ملك الروم وأخنى على منبج واستباحها وسبى حاميتها فأساء ذلك الب ارسلان ولا سيما أنه بلغه أن الروم عازمون على إعادة الكرة فأغذ السير إلى أذربيجان لأنه سمع أن ملك الروم أخذ على سمت خلاط ومعه من الجنود من لايحصون كثرة ولما قارب خلاط أرسل اليها بعشرين ألف فارس فوقف فى أوجههم مقدم عسكر خلاط وانتصف منهم وذلك فى رابع ذى القعدة سنة ٤٦٣ ثم تلاحق عسكر الروم ونزل على خلاط محاصرا ونزل على ملازكرد فسلمت حاميتها . حصل ذلك والعسكر السلطانى مجد فى سيره ولم ينتظر السلطان تلاحق جنده بل قال أنا أحتسب عند الله نفسى بالشهادة وكان وصول السلطان فى اليوم الذى سلمت فيه حامية ملازكرد وكان نزول عسكره فى يوم الخميس ٦ ذى القعدة والروم بين خلاط وملازكرد فأرسل السلطان إلى ملك الروم يقول له إن كنت ترغب فى الهدنة أتممنا ماتريد وإلا اعتزمنا وعلى الله اعتمدنا فظن ملك الروم أن صدور هذه الرسالة عن خور فقال للرسول سوف أجيب عن هذا بالرى فكان ذلك مما ألهب النفوس الاسلامية وزادها حمية وقال إمام السلطان أبو نصر محمد بن عبد الملك البخارى الحنفى للسلطان إنك تقاتل عن دين الله الذى وعد باظهاره فالقهم يوم الجمعة بعد الزوال والناس يدعون لك على المنابر . فلما أصبحوا يوم الجمعة وكادت الشمس تزول تهيأ السلطان وعبأ أصحابه تعبئة عسكرية تدل على فهم ثاقب لأنه قسمهم أربع فرق كل فرقة أقامها فى نقطة لاتبرحها لتكون عند اللزوم وراء جند العدو ثم أشعل نار الحرب بهمته العالية واستجر الروم اليه حتى صار الكمين من ورائهم وحينئذ أخذتهم الجنود السلجوقية من أمامهم ومن خلفهم فما عتم الروم أن انهزموا بعد أن أخذ منهم الذعر والرعب وأسر ملكهم قالوا وكان مع الروم ثلاثة آلاف عجلة لحمل الأثقال ومعهم منجنيقات كثيرة منها منجنيق له ثمانية أسهم ويمد فيه ألف ومائتا رجل ويحمله مائة عجلة يرمى حجرا وزنه بالرطل الكبير الخلاطى قنطار وكثر عدد الأسرى من الروم وكذلك الغنائم حتى سقطت قيم الدواب والكراع والسلاح والمتاع فبيعت ١٢

خوذة بسدس دينار وثلاثة أدراع بدينار

وعاد السلطان مؤيدا ظافرا بعد هذه الواقعة التى لم تقم للروم بعدها قائمة فى نواحى أرمينية

وكان عهد الب ارسلان كله عهد نمو وارتقاء فى دولة السلاجقة لا للسيف وحده بل للعلم أيضا فان نظام الملك أسس فى عهده أول المدارس النظامية ببغداد وقد تم بناؤها سنة ٤٥٨ ودرس فيها شيخ الشافعية بالعراق بل وبغيرها وهو الشيخ أبو إسحاق الشيرازى ولما رأى ذلك شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور مستوفى المملكة ببغداد بنى على ضريح أبى حنيفة رحمه الله بباب الطاق مشهدا ومدرسة لأصحابه وكتب على تلك القبة

ألم تر هذا العلم كان مشتتا * فجمعه هذا المغيب فى اللحد
كذلك كانت هذه الأرض ميتة * فأنشرها فضل العميد أبى سعد

وفى سنة ٤٦٥ توجه الب أرسلان قاصدا بلاد الترك فعبر نهر جيحون ولكن المشيئة سابقته فسبقته . حكى عنه أنه قال وهو يقرب من الموت ما كنت قط فى وجه قصدته ولا عدو أردته إلا توكلت على الله وطلبت منه النصر وأما فى هذه النوبة فانى أشرفت من تل عال فرأيت عسكرى فقلت أين من له قدر بمصارعتى ومعارضتى وإنى أصل بهذا العسكر إلى بلاد الصين . فكان ما أراد الله وكانت وفاته فى ٦ ربيع الأول سنة ٤٦٥

ولى السلطنة بعده ولى عهده السلطان جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه

ولأوائل حكمه توفى الخليفة القائم بأمر الله ثالث عشر شعبان سنة ٤٦٧ فقام بالأمر بعده ولى عهده حفيده

---

٢٧ ـ المقتدى بأمر الله

أبو القاسم عبدالله بن الذخيرة أبي العباس محمد بن القائم ولم يكن للقائم من أعقابه ذكر سواه فان الذخيرة توفى أيام أبيه ولم يكن له غيره فأيقن الناس بانقراض نسله وانقراض الخلافة من البيت القادرى إلى غيره ولم يشكوا فى اختلال الأحوال بعد القائم لأن من عدا البيت القادرى كانوا يخالطون العامة فى البلد ويجرون مجرى السوقة فلو اضطر الناس إلى خلافة أحدهم لم يكن له قبول ولا هيبة فقدر الله أن الذخيرة كانت له جارية أرمنية اسمها أرجوان وكان يلم بها فلما توفى ظهر أنها حامل وولدت بعد موت سيدها بستة أشهر وذلك الولد هو عبدالله الذى ولاه جده العهد بعده لما بلغ الحلم وقد بويع بعد وفاة جده واستمر خليفة إلى أن توفى فجأة فى يوم السبت خامس محرم سنة ٤٨٧ (   ) فكانت خلافته ١٩ سنة وثمانية أشهر غير يومين وهو من خيرة بنى العباس كان قوى النفس عظيم الهمة أصلح كثيرا من الأحوال الأدبية ببغداد فأمر بنفى المغنيات والمفسدات منها وقمع الهرادى والأبراج التى للطيور ومنع من اللعب بها لأجل الاطلاع على حرم الناس ومنع الملاحين أن يحملوا الرجال والنساء مجتمعين ولذلك أصلح كثيرا من المـاديات فعمرت فى بغداد عدة محال فى خلافته ومنع من إجراء ماء الحمامات إلى دجلة وألزم أربابها بحفر آبار للمياه وأمر أن من يغسل السمك المالح يعبر إلى النجمى فيغسله هناك وكانت أيامه كثيرة الخير واسعة الرزق وعظمت الخلافة أكثر مما كان من قبله وكان سلطان السلاجقة فى عهده ملكشاه الذى ذكرنا قيامه بعد أبيه الب أرسلان

وكان ملكشاه سلطانا عادلا ذا فضل وإنصاف شجاعا مقداما صائب الرأى والتدبير أيامه فى دولة السلاجقة واسطة عقدها وكان ميمون النقيبة لم يتوجه إلى إقليم إلا فتحه ولما توجه إلى الشام وأنطاكية بلغ إلى حد قسطنطينية وقرر ألف دينار على ملوكها تحمل إلى خزانته ووضع فى النواحى التى فتحها من الروم خمسين منبرا إسلاميا ولم يزد زمن ذلك العمل على شهرين ثم عاد إلى الرى وقصد سمرقند فظفر بخانها وأسره فحمل غاشية السلطان على كتفه وسار فى ركابه إلى موضع سرير ملكه ثم من عليه وأعاده إلى ملكه وتوجه فى السنة الثانية إلى أوزكند فأخضعها وخضع

له جميع الملوك والرؤساء بالمشرق والمغرب وهذه السعادة كلها إنما تيسرت بسعادة الوزير الكبير خواجه بزرك قوام الدين نظام الملك أبي على الحسن بن على بن إسحق رضى أمير المؤمنين الطوسى وكان معدوداً من العلماء الأجواد وكان محباً للعلم مجلسه دائما معمور بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح أمر ببناء المدارس المعروفة بالنظامية فى سائر الأمصار والبلاد وأجرى لها الجرايات العظيمة وسمع الحديث بالبلاد ببغداد وخراسان وغيرهما وكان يقول إنى لست من أهل هذا الشأن ولكنى أحب أن أجعل نفسى على قطار نقلة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان إذا سمع المؤذن أمسك عن كل ماهو فيه وتجنبه فاذا فرغ لايبدأ بشىء قبل الصلاة وأسقط فى زمنه كثيرا من المكوس والضرائب وهو الذى أزال لعن الأشعرية من المنابر وكان سلفه عميد الملك الكندرى قد حسن للسلطان طغرلبك التقدم بلعن الرافضة فأمره بذلك فأضاف اليهم الأشعرية ولعن الجميع فلهذا فارق كثير من الأئمة بلادهم مثل إمام الحرمين وأبى القاسم القشيرى وغيرهما فلما ولى نظام الملك أزال ذلك جميعه وأعاد العلماء إلى أوطانهم

ومن ظريف الأخبار أن نظام الملك كان إذا دخل عليه إمام الحرمين وأبو القاسم القشيرى يقوم لهما ويجلس فى مسنده كما هو وإذا دخل عليه أبو على الفارمذى يقوم اليه ويجلسه فى مكانه ويجلس هو بين يديه فقيل له فى ذلك فقال إن هذين وأمثالهما إذا دخلوا علىَّ يقولون لى أنت كذا وكذا يثنون بما ليس فىَّ فيزيدنى كلامهم عجباً وتيها وهذا الشيخ يذكر لى عيوب نفسى وما أنا فيه من الظلم فتنكسر نفسى لذلك وأرجع عن كثير مما أنا فيه . وكان ينظر فى الأوقاف والمصالح ويرتب عليها الأمناء ويشدد فى أمرها وعلى الجملة فكان غرة فى جبين آل سلجوق ومن حسناته حجة الاسلام الامام الغزالى فهو قرينه فى الطالب ازدانت بهما طوس واختالت على ماسواها من بلاد فارس وكان مؤيدا بقرينين مؤيدين لدولته وهما كمال الدولة أبو الرضى فضل الله بن محمد صاحب ديوان الانشاء والطغراء وشرف الملك أبو سعد محمد بن منصور ابن محمد صاحب ديوان الزمام والاستيفاء وكلاهما صاحب الرأى والتدبير والدهاء والجود . ومع ماظهر منه من الكفاية ويمن النقيبة وسعادة الحركة لم يترك المفسدون أديم المودة بينه وبين سلطانه صحيحاً بل مازالوا فى سعاياتهم حتى نغل ذلك الأديم

وملّ السلطان طول مدة الوزير واستطالة مدته فأنفذ اليه أحد خاصته برسالة واختار عيناً يحصى على الوزير مايفوه به وكان مضمون الرسالة إنك استوليت على ملكى وقسمت ممالكى على أولادك وأصهارك أتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يديك وأخلص الناس من استطالتك فكان جوابه عن تلك الرسالة ـ قولوا للسلطان إن دواتى مقترنة بتاجك فمتى رفعتها رفع ومتى سلبتها سلب ـ فاشتد من ذلك الجواب غيظ السلطان وكان بعد ذلك أن أحد الملاحة اعتدى على نظام الملك فقتله وذلك سنة ٤٨٥

ومن غرائب المصادفات أن السلطان لم يعش بعده إلا ٣٣ يوما وبموتهما انتهت سعادة البيت السلجوقى ووقعت بين رؤسائه الفتن وحكموا بينهم السيف

مات ملكشاه بعد أن اتسع ملكه اتساعا عظيما فخطب له من حدود الصين إلى آخر الشام ومن أقاصى بلاد الاسلام فى الشمال إلى آخر بلاد اليمن وحملت إليه ملوك الروم الجزية ولم يفته مطلب وانقضت أيامه على أمن عام وسكون شامل وعدل مطرد أسقط المكوس والمؤن من جميع البلاد وعمر الطرق والقناطر والمرابط التى فى المفاوز وحفر الأنهار الخراب وعمر الجامع ببغداد وعمل المصانع بطريق مكة وبنى البلد بأصبهان

وكان للسلطان ملكشاه أربعة بنين وهم بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود. وكان محمود طفلا وأمه تركان خاتون فطلبت من الخليفة المقتدى أن يعين ولدها للسلطنة فأجاب إلى ذلك على شروط اشترطها إلا أن جنود نظام الملك ساعدوا أخاه الأكبر بركياروق على أن يكون هو السلطان فتم ماأرادوا وأرسل تقليده إلى الخليفة ليوقعه فمات الخليفة والتقليد بين يديه وكانت وفاته فى ١٥ محرم سنة ٤٨٧

وفاة المقتدى

فى منتصف المحرم سنة ٤٨٧ توفى المقتدى بالله فجأة بعد أن قدم إليه تقليد السلطان بركياروق فقرأه وعلم مافيه ولم يمضه

٢٨ — المستظهر بالله

بويع بالخلافة بعده ولده أبو العباس أحمد المستظهر بالله واستمر خليفة إلى أن توفى فى ١٦ ربيع الآخر سنة ٥١٢ فكانت خلافته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر و ١١ يوما وكانت سنه حين توفى ٤١ سنة وستة أشهر وستة أيام

حال الممالك الاسلامية فى عهده

كان بالأندلس والمغرب الأقصى دولة الملثمين والقائم بأمرهم يوسف بن تاشفين (٤٨٠ — ٥٠٠) ثم من بعده ابنه على إلى سنة ٥٣٧

وبأفريقية من آل زيرى تميم بن المعز بن باديس إلى سنة ٥٠١ ثم يحيى بن تميم إلى سنة ٥٠٩ ثم على بن يحيى إلى سنة ٥١٥

وبمصر من الفاطميين المستعلى أبو القاسم أحمد بن المستنصر معد إلى سنة ٤٩٥ ثم الآمر بأحكام الله على المنصور بن المستعلى إلى سنة ٥٢٤

وبزبيد من الدولة النجاحية الأمير جيش بن نجاح إلى سنة ٤٩٨ ثم فاتك بن جيش إلى سنة ٥٠٣ ثم منصور بن فاتك إلى سنة ٥١٧

وبصنعاء ومهرة ظهر الأمير حاتم بن غاشم الهمدانى من سنة ٤٩٢ إلى سنة ٥٠٢ ثم عبد الله بن حاتم إلى سنة ٥٠٤ ثم معن بن حاتم إلى سنة ٥١٠ ثم هشام بن قبيط وحاتم بن حماص

وما عدا ذلك من البلدان الاسلامية فى آسيا فهو محكوم بدولة السلاجقة كان المستظهر بالله من خيار بنى العباس لين الجانب كريم الأخلاق يحب الاصطناع ويفعل الخير ويسارع إلى أعمال البر والمثوبات مشكور المساعى لا يرد مكرمة تطلب منه وكان كثير الوثوق بمن يوليه غير مصغ إلى سعاية ساع ولا ملتفت إلى قوله ولم يعرف منه تلون وانحلال عزم بأقوال أصحاب الأغراض وكانت أيامه أيام سرور لرعيته وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره وإذا تعرض سلطان أو نائب له إلى أذى أحد بالغ فى إنكار ذلك والزجر عنه وكان حسن الخط جيد التوقيعات لا يقاربه فيها أحد وله شعر رقيق فمن ذلك قوله

أذاب حـر الهوى فى القلب ماجدا * لما مـددت إلى رسم الوداع يدا
وكيف تسلك نهج الاصطبار وقـد * أرى طرائق فى مهوى الهوى قددا
قد أخلف الوعد بدر قـد شغفت به * من بعدما قد وفى دهرى بما وعـدا
إن كنت أنقض عهد الحب فى خلدى * من بعد هـذا فلا عاينته ابدا

تولى ملك العراق فى خلافة المستظهر بالله ملكان من آل سلجوق أولهما السلطان أبو المظفر بركياروق بن ملكشاه ولأول عهده استوزر عز الملك أبا عبد الله الحسين ابن نظام الملك ولم يكن فيه شىء من كفاية أبيه وكان أخوه عبد الرحيم إليه منصب الطغراء وتولى ديوان الاستيفاء الاستاذ على بن أبى على القمى وكانوا جميعا سواسية فى النكوب عن جادة الاعتـدال وسياسة المملكة والسلطان مشغول عما يصلح ملكه باللعب وعشرة الصبيان والوزير منهمك فى شرابه وقد ذهب الجميع إلى بغداد واختاروا المقام فيها لاهين بمغانيها وغوانيها . وكان ذلك مجرئا عم السلطان تتش ابن الب أرسلان صاحب دمشق أن يقوم طالبا السلطنة لنفسه فقام بجنوده واستولى على بلاد الجزيرة والموصل وديار بكر وأذربيجان ثم بدا له فعاد إلى دمشق لما رأى كثيرا من أمرائه ميالين إلى مساعدة بركياروق وانتظم الأمر لبركياروق ولكن أمر ذلك لم يطل إلا بمقدار ما أعـد تتش للأمر عـدته فعاد سـنة ٤٨٧ بجنوده التى أعدها واستولى على حلب والجزيرة وديار بكر وأذربيجان وهمذان ثم أرسل إلى الخليفة ببغداد يطلب الخطبة له فأجيب طلبه بعد أن وصل إليهم الخبر بأن تتش هزم بركياروق فى وقعة كانت بينهما ولم يزل الأمر على ذلك حتى لم بركياروق شعثه وأصلح من أمر جنوده والتقى بعمه فى موضع قريب من الرى فكانت الهزيمة على جند تتش وأما هو فثبت حتى قتل وذلك سـنة ٤٨٨ واستقام الأمر لبركياروق بعد أن كاد يضمحل وكان نجاحه بآراء الوزير مؤيد الملك أبى بكر عبد الله بن نظام الملك الذى استوزره بعد أخيه عز الملك ولم يكن فى أولاد نظام الملك أكفى منـه وكان وحيدا فى بلاغة النظم والنثر ولما هنأ السلطان بالفتح قال له كل هذا ببركتك ويمن نقيبتك إلا أن مدة ذلك الوزير الأيمن لم تطل فإن أم السلطان كانت متداخلة تداخلا كثيرا فى سياسة دولة ابنها فتغير قلبها على الوزير ولما رأى ذلك أخوه فخر الملك أبو الفتح المظفر أرسـل وبذل أموالا جزيلة فى الوزارة فأجيب اليها وعزل أخوه

واعتقل فاحتال حتى خلص من اعتقاله وتوجه إلى محمد بن ملكشاه الذى كان ملكا على أران ومقره مدينة جنزة فقبله محمد واصطفاه واستشاره فى مهماته ثم سلم اليه وزارته فلم يزل يقرب لمحمد قصد أخيه بركياروق والاستيلاء على ملكه حتى حرك منه ما كمن من هواه فسار من أران فى شرذمة يسير حتى وصل دار الملك اصفهان فلم تستعص عليه فملكها واستمال اليه العساكر فمالوا اليه

كانت مطالبة محمد للسلطنة وقيامه فى وجه أخيه بركياروق فاتحة شر مستطير على هذين الأخوين بل على البيت السلجوقى كله بل على الاسلام جميعا فقد ظلت نيران الحرب بينهما مستعرة من سنة ٤٩٢ إلى سنة ٤٩٧ خمس سنين ما أشد وقعها على الرعية والجند حصلت فيها مواقع هائلة والحرب فيها سجال . الافرنج تحركوا من مرابضهم للاغارة على البلاد الاسلامية لتخليص البيت المقدس كما زعموا وملوك الاسلام وهم من بيت واحد وأبناء رجل واحد يتطاحنون ويتخاصمون

رأى الرجلان أن الحروب تطاولت بينهما وعم الفساد فصارت الأموال منهوبة والدماء مسفوكة والبلاد مخربة والقرى محرقة والسلطنة مطموعا فيها وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قاهرين وكان الأمراء الأكابر يؤثرون ذلك ويختارونه ليدوم تحكمهم وانبساطهم وإدلالهم وكان السلطان بركياروق حينئذ بالرى والخطبة له بها وبالجبل وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة وبالحرمين الشريفين وكان السلطان محمد بأذربيجان والخطبة له فيها وببلاد أران وأرمينية وأصبهان والعراق كلها ماعدا تكريت وأما أعمال البطائح فيخطب ببعضها لبركياروق وببعضها لمحمد وأما البصرة فكان يخطب فيها لهما جميعا وأما خراسان فان السلطان سنجر بن ملكشاه كان يخطب له فى جميعها وهى من حدود جرجان إلى ماوراء النهر ولأخيه السلطان محمد - فلما رأى السلطان بركياروق المال عنده معدوما والطمع من العسكر زائدا أرسل القاضى أبا المظفر الجرجانى الحنفى وأبا الفرج أحمد بن عبد الغفار الهمدانى إلى أخيه محمد فى تقرير قواعد الصلح فسارا إليه ورغباه فى الصلح وفضيلته وذكراله ماشمل البلاد من الخراب وطمع عدو الاسلام فى أطراف الأرض فأجاب إلى ذلك واستقر الأمر بينهما على أن بركياروق لايعترض أخاه محمدا فى الطبل وألا يذكر معه على سائر البلاد التى صارت له وألا يكاتب أحدهما الآخر بل تكون المكاتبة

بين وزيريهما ولا يعارض أحد من العسكر فى قصد أيهما شاء وأن يكون للسلطان محمد من النهر المعروف بأسبيذه روذ إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام ويكون له من بلاد العراق بلاد سيف الدولة صدقة وهى الحلة وما إليها وقد حلف كل منهما لصاحبه على الوفاء فتحسنت الأحوال وزال الخلف والشغب ولم تطل مدة بركياروق بعد هذا الصلح فانه توفى فى ثانى ربيع الآخر سنة ٤٩٨

بعد موت بركياروق خطب أمراؤه لابنه ملكشاه إلا أن أمره لم يتم فان عمه محمدا ماعتم أن قدم إلى بغداد بجيوشه الوافرة فلم يكن أمامه من يقدر على رده وقد حاول أكبر الأمراء البركياروقية أن يوقد نار الحرب ليقوم بما يجب عليه لمولاه ولكن الله حسن الصلح والاتفاق فتم ذلك وخطب لمحمد بالسلطنة بدون منازع ثم عاد إلى دست ملكه بأصفهان

لم يكن السلطان محمد موفقا لاختيار كبار مملكته وقد كانت الأعمال الكبرى فى دولة آل سلجوق هى

(١) الوزارة (٢) استيفاء المملكة ويقال لصاحبها المستوفى (٣) الطغراء وهو رياسة الديوان ومن جملته ديوان الرسائل والانشاء (٤) الاشراف وعرض الجيش قال بعض الكتاب فى حق السلطان محمد قد كثر تعجبى من السلطان يتأنق فى تخير كلاب الصيد وفهوده وإنما يقتنى منها ما يراه موافقا لمقصوده فيسئل عن فروعه وأصوله وانقطاعه ووصوله فما باله لا يتخير لديوانه ومراتب سلطانه من الكفاة الأفاضل والصدور الأماثل من عرفه ذاك وعرفه زاك وعرقه كريم ومجده قديم وطريقه فى الكفاية مستقيم لقد كان هؤلاء أولى بالاختيار وأجدر بالاختبار فانهم أمناؤه على مملكته ووكلاؤه على دولته وسفراؤه فى خدمته . ولعدم حسن الاختيار كثر الاضطراب والتغيير واستمر ملك محمد هذا الى سنة ٥١١ حيث توفى فى ٢٤ ذى الحجة وعمره إذذاك ٣٧ سنة وكان عادلا حسن السيرة شجاعا وقد أطلق فى حياته المكوس والضرائب فى جميع البلاد ولم يعرف منه فعل قبيح وعلم الأمراء سيرته فلم يقدم أحد منهم على الظلم وكفوا عنه

فاختير للملك بعده ابنه السلطان مغيث الدنيا والدين أبو القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه يمين أمير المؤمنين وخطب له ببغداد فى ١٣ محرم سنة ٥١٢

ولم يقم الخليفة المستظهر بالله طويلا بعد وفاة محمد بن ملكشاه فانه توفى فى ١٦ ربيع الآخر فلم يكن بين رحيلهما من هذا العالم الا أقل من أربعة أشهر

كان فى حياة المستظهر بالله أحداث عظيمة فى المملكة الاسلامية فى الشرق والغرب. فأما فى الشرق فظهور الباطنية وعيثهم فى البلاد حتى كادوا يميلون ميزانها وأما فى الغرب فأغارت الفرنج على البلاد الاسلامية وبدءت الحروب الصليبية ولابد أن نشير إلى كل من الحادثين بكلمة لنبين كيف كان ابتداؤهما فان استيفاء ما يتعلق بهما يرجع إلى شرح حال الدولة الفاطمية المصرية لأن الحادثين يتعلقان بها فالباطنية أنصارهم والافرنج أعداؤهم

الباطنيـــة

لما نجح الفاطميون باقامة دولتهم بالمغرب ثم بمصر واتسعت رقعة مملكتهم حتى وصلت إلى نواحى الفرات دار فى خلدهم أن يمدوا سلطانهم متجهين إلى المشرق حتى يعم بقاع الأرض ملكهم وكانت الطريقة التى جروا عليها من أول نشأتهم أن يرسلوا الدعاة إلى الأقطار فيدعون الناس إليهم سرا ويزينون لهم ما يدعون إليه بضروب من الزينة التى مهروا فى إبداعها وكان للدعوة بمصر درجة رفيعة الشأن عليها رجل كبير يعرف بداعى الدعاة ودرجته تلى قاضى القضاة وكان الدعاة يحصلون على أسرار الدعوة بمصر ثم يبرحونها إلى كل قطر متبعين نظاما مسنونا ومن البلاد التى اهتم الفاطميون بها وأرسلوا دعاتهم إليها البلاد الفارسية وقد كان أول رواج هذه الدعوة فى عهد ملكشاه وسبب هذا الرواج أنه لم يكن للدولة أصحاب أخبار وكان الرسم فى أيام الديلم ومن قبلهم من الملوك أنهم لا يخلون البلاد من أصحاب الأخبار والبريد فلم تكن تخفى عنهم الأخبار فلما تولى السلطان ألب أرسلان فاوضه وزيره نظام الملك فى هذا الأمر فأجابه لا حاجة بنا إلى صاحب خبر فان الدنيا لا تخلو كل بلد فيها من أصدقاء لنا وأعداء فاذا نقل إلينا صاحب الخبر خبرا وكان له غرض أخرج الصديق فى صورة العدو والعدو فى صورة الصديق ومن أجل ذلك أسقط السلطان هذا الرسم فصادف الباطنية بسبب ذلك نجاحا وأول ما عرف من أمرهم أنه اجتمع منهم ١٨ رجلا بمدينة ساوة وهى مدينة بين الرى وهمذان فصلوا صلاة العيد ففطن بهم الشحنة

فأخذهم وحبسهم ثم سئل فيهم فأطلقهم فهذا أول اجتماع كان لهم ثم إنهم دعوا مؤذنا من أهل ساوة كان مقيما بأصبهان فلم يجبهم إلى دعوتهم فخافوه أن ينم عليهم فقتلوه فهو أول قتيل لهم وأول دم أراقوه فبلغ خبره إلى نظام الملك الوزير فأمر بأخذ من يتهم بقتله فوقعت التهمة على نجار اسمه طاهر فقتل ومثل به فهو أول قتيل منهم . ولما رأى الباطنية ذلك من نظام الملك أمروا واحدا منهم فقتله وهى أول فتكة مشهورة كانت لهم وقالوا قتل نجارا فقتلناه به . وأول موضع غلبوا عليه وتحصنوا به بلد عند قاين وهى بين نيسابور وأصبهان وكان متقدم هذا البلد على مذهبهم فاجتمعوا عنده وقووا به فاجتازت بهم قافلة عظيمة من كرمان إلى قاين فخرج عليهم الباطنية فقتلوا القفل أجمعين ولم ينج منهم غير رجل واحد تركمانى فوصل إلى قاين وأخبر بالخبر فتسارع أهلها إلى جهادهم فلم يقدروا عليهم ثم قتل نظام الملك ومات ملكشاه فعظم أمرهم واشتدت شوكتهم وقويت أطماعهم ولا سيما بأصبهان واستولوا على قلعة أصبهان وهى قلعة بناها السلطان ملكشاه .

كان الداعية الأكبر للباطنية بتلك البلاد هو أحمد بن عبدالملك بن عطاش فقدموه عليهم وألبسوه تاجا وجمعوا له الأموال ثم ظهر منهم الرئيس الثانى وهو الحسن بن الصباح أخذ هذا المذهب عن عبدالملك بن عطاش ثم رحل إلى مصر فالتقى بها الخليفة المستنصر وتلقى بمصر أصول الدعوة الباطنية وكان شهما ذكيا عالما بالهندسة والحساب والنجوم ثم عاد بمرو لنصرة هذا المذهب بقلمه وسيفه فكان أول مافعله أن استولى على قلعة الموت وتحصن بها وهى من نواحى قزوين فى موضع حصين ولم يكن نظام الملك إذ ذاك قد توفى فلما بلغه الخبر بعث إلى تلك القلعة عسكراً لحصروا فيها ابن الصباح وأخذوا عليه الطرق ولما ضاق ذرعه بالحصر أرسل من قتل نظام الملك فلما قتل رجع العسكر عنها .

ودخل فى حوزتهم أيضاً بعض قهستان وطبس وملكوا كذلك قلعة وسنكوه بقرب أبهر وغير ذلك من القلاع التى جعلوها حصونا لهم ومعاقل . تمكنت أقدامهم بالبلاد الفارسية وصار يحسب لهم حساب وكان الواحد منهم يهجم على كثير وهو يعلم أنه يقتل فقتل بذلك من شاء غيلة وكان رؤساؤهم يستعملونهم فيما ارادوا ويمنونهم الأمانى الجميلة التى يخضع لسلطانها أمثال هؤلاء الناس فيأتون بالعجب العجاب . وقد

صارت الناس فيهم فرقتين فمنهم من جاهرهم بالعداوة والمقارعة ومنهم من عاهدهم على المسالمة والموادعة فمن عاداهم خاف من فتكهم ومن سالمهم نسبه الناس إلى الارتكاس فى عقيدتهم وكان الناس منهم على خطر عظيم من الجهتين ولما كانوا قد تجمعوا من كل صنف تطرقت إلى جميع أصناف الناس التهم ودب إلى البرآء السقم وتعين على السلطان أن يكاشفهم مدافعاً لئلا ينسبه العوام وأهل الدين إلى الالحاد وفساد الاعتقاد وقد حصل ذلك للملك تيرانشاه بن تورانشاه بن قاورت بك فقد اتهمته رعيته بالميل إلى الباطنية والقول بدعوتهم فثاروا عليه وأخرجوه عن مدينة بردسير التى هى مدينة كرمان واتفقوا بعد خروجه على تولية ارسلانشاه بن كرمانشاه بن قاورت بك.

ومن المصيبة أنه ما كان سلطان يثق بخواصه والناس فى كل جيل يميل بعضهم إلى الانتقام من بعض لنيل هذه الدنيا ومظاهرها الكاذبة فلما رأوا جد السلطان فى إبادة القوم سعى بعض الناس ببعض وأحب وصمه بالالحاد لما بينهما من العداوة ولم يبق للناس فى هذا المصاب رأى ولا تدبير

لما اشتد أمر الباطنية وقويت شوكتهم وكثر عددهم صار بينهم وبين أعدائهم ذحول وإحن فلما قتلوا جماعة من الأمراء الأكابر وكان أكثر من قتلوا ممن هو فى طاعة السلطان محمد أخى بركياروق مثل شحنة أصبهان وغيره نسب أعداء بركياروق ذلك إليه واتهموه بالميل إليهم فلما ظفر السلطان بركياروق وهزم أخاه محمدا انبسط جماعة منهم فى العسكر واستغووا كثيرا منهم وأدخلوهم فى مذهبهم وكادوا يظهرون بالكثرة والقوة وحصل بالعسكر منهم طائفة من وجوههم وزاد أمرهم فصاروا يتهددون من لا يوافقهم بالقتل فصار يخافهم من يخالفهم حتى لم يجسر أحد من مخالفيهم لا أمير ولا متقدم على الخروج من منزله حاسرا بل يلبس تحت ثيابه درعا واستأذن السلطان بركياروق خواصه فى الدخول عليه بسلاحهم وعرفوه خوفهم من الباطنية وأشاروا على السلطان أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافى أمرهم وأعلموه ما يتهمه الناس به من الميل إلى مذهبهم حتى أن عسكر أخيه السلطان محمد يشنعون بذلك وكانوا فى المصاف يكبرون ويقولون يا باطنية فاجتمعت هذه البواعث كلها فأذن السلطان فى قتلهم والفتك بهم وركب هو والعسكر معه وطلبوهم وأخذوا جماعة منهم ولم يفلت منهم إلا من لم يعرف وأخرج الجماعة المتهمون إلى

الميدان. فقتلوا وقتل معهم جماعة برآء لم يكونوا منهم سعى بهم أعداؤهم ومن الغريب أنه قد اتهم بتلك التهمة الكيا الهراسى مدرس النظامية ورفيق الغزالى فى الطلب والتلمذة لامام الحرمين فأمر السلطان محمد فقبض عليه فأرسل الخليفة المستظهر بالله من استخلصه وشهد له بصحة الاعتقاد وعلو الدرجة فى العلم فأطلق

وفى سنة ٤٩٤ جمع الأمير برغش وهو أكبر أمير مع السلطان سنجر جموعا كثيرة وقواهم بالمال والسلاح وسار إلى بلد الاسماعيلية فنهبه وخربه وقتل فيهم فأكثر وحصر طبس وضيق عليها ورماها بالمنجنيق فخرب كثيرا من سورها وضعف من بها ولم يبق إلا أخذها فأرسلوا إليه الرشا الكثيرة واستنزلوه عما كان يريده منهم فرحل عنهم وتركهم فأعادوا عمارة ماانهدم من سورها وملؤوها ذخائر من سلاح وأقوات وغير ذلك ثم عاد إليهم سنة ٤٩٧ بجمع فيه كثير من المتطوعين فخرب طبس وما جاورها من القلاع والقرى وأكثر فيهم القتل والنهب والسبى وفعل بهم الأفعال العظيمة ثم إن أصحاب سنجر أشاروا بأن يؤمنوا ويشرط عليهم أنهم لا يبنون حصنا ولا يشترون سلاحا ولا يدعون أحدا إلى عقائدهم فسخط كثير من الناس هذا الأمان وهذا الصلح ونحوه على سنجر ثم توفى برغش بعد عوده من هذه الغزاة

وكان تركهم بعد هذا التضيق عليهم داعيا إلى اشتداد قوتهم وقوة شوكتهم بعد ذلك ومن جملة أفعالهم الخبيثة أن قفل الحاج تجمع هذه السنة مما وراء النهر وخراسان والهند وغيرها من البلاد فوصلوا إلى جوار الرى فأتاهم الباطنية وقت السحر فوضعوا فيهم السيف وقتلوهم كيف شاءوا وغنموا أموالهم ودوابهم ولم يتركوا شيئا

وفى سنة ٥٠٠ رأى السلطان محمد ماوصل إليه أحمد بن عبد الملك بن عطاش من القوة والهيبة فان أمره استفحل بالقلعة التى ملكها بجوار أصبهان وكان يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الأموال وقتل من قدروا على قتله فقتلوا خلقا كثيرا لا يمكن إحصاؤهم وجعلوا له على القرى السلطانية وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفوا عنها الأذى فتعذر بذلك انتفاع السلطان بقراه والناس بأملاكهم ونسى أمر الباطنية بالخلف الواقع بين السلطانين بركياروق وأخيه محمد فلما صفت السلطنة لمحمد لم يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية وحربهم والانتصاف للمسلمين من

جورهم وعسفهم فرأى البداية بقلعة أصبهان التى بأيديهم لأن الأذى بها أكثر وهى متسلطة على سرير ملكه فخرج إليهم بنفسه فحاصرهم وصعد جبلا يقابل القلعة من غربيها ونصب له التخت بأعلاه واجتمع له من أصبهان وسوادها لحربهم الأمم العظيمة للذحول التى يطالبونهم بها وأحاطوا بجبل القلعة ودوره أربعة فراسخ ورتب الأمراء لقتالهم فكان يقاتلهم كل يوم أمير فضاق الأمر بهم واشتد الحصار عليهم وتعذرت عندهم الأقوات ولما اشتد الأمر عليهم كتبوا فتوى فيها (مايقول السادة الفقهاء أئمة الدين فى قوم يؤمنون بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن ماجاء به محمد صلى الله عليه وسلم حق وصدق وإنما يخالفون الامام هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم وأن يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذى) فأجاب أكثر الفقهاء بجواز ذلك وتوقف بعضهم فجمعوا للمناظرة ومعهم أبو الحسن على ابن عبد الرحمن السمجانى وهو من شيوخ الشافعية فقال بمحضر من الناس يجب قتالهم ولا يجوز إقرارهم بمكانهم ولا ينفعهم التلفظ بالشهادتين فانهم يقال لهم أخبرونا عن إمامكم إذا أباح لكم ماحظره الشرع أو حظر عليكم ماأباحه الشرع أتقبلون أمره فانهم يقولون نعم وحينئذ تباح دماؤهم بالاجماع وطالت المناظرة فى ذلك ثم إن الباطنية سألوا السلطان أن يرسل اليهم من يناظرهم وعينوا لذلك أشخاصا من العلماء منهم القاضى أبو العلاء صاعد بن يحيى شيخ الحنفية بأصبهان وقاضيها وغيره فصعدوا اليهم وناظروهم وعادوا كما صعدوا وإنما كان قصدهم التعلل والمطاولة فلج حينئذ السلطان فى حصرهم فلما رأوا منه عين الجد أذعنوا إلى تسليم القلعة على أن يعطوا عنها قلعة خالنجان وهى على سبعة فراسخ من أصبهان وقالوا إنا نخاف على دمائنا وأموالنا من العامة فلابد من مكان نحتمى فيه فأشير على السلطان باجابتهم إلى ماطلبوا فسألوا أن يؤخرهم إلى النوروز ليرحلوا إلى خالنجان ويسلموا قلعتهم وشرطوا ألا يسمع فيهم قول متنصح وإن قال أحد عنهم شيئا سلمه اليهم وأن من أتاه منهم رده اليهم فأجابهم اليه وطلبوا أن يحمل اليهم من الاقاتة ما يكفيهم يوما بيوم فأجيبوا . وكان قصدهم المطاولة انتظارا لفتق ينفتق أو حادث يتجدد ورتب لهم وزير السلطان مايحمل إليهم كل يوم من الطعام والفاكهة وجميع مايحتاجون إليه فجعلوا هم يرسلون ويبتاعون من الأطعمة مايجمعونه ليتمنعوا فى قلعتهم ثم إنهم وضعوا من أصحابهم

من يقتل أميرا كان يبالغ فى قتالهم فوثبوا عليه فجرحوه وسلم منهم وحينئذ أمر السلطان باخراب قلعة خالنجان وجدد الحصار عليهم فطلبوا أن ينزل بعضهم ويرسل السلطان معهم من يحميهم إلى أن يصلوا إلى قلعة الناظر بارجان وهى لهم وينزل بعضهم ويرسل معهم من يوصلهم إلى طبس وأن يقيم باقيهم فى ضرس من القلعة إلى أن يصل اليهم من يخبرهم بوصول أصحابهم فينزلون حينئذ ويرسل معهم من يوصلهم إلى ابن الصباح بقلعة الموت فأجيبوا إلى ذلك فنزل منهم جماعة إلى الناظر وإلى طبس وتسلم السلطان القلعة فأخربها ثم إن الذين ساروا إلى قلعة الناظر وطبس وصل منهم من أخبر ابن عطاش بوصولهم فلم يسلم السن الذى بقى بيده وبان للسلطان منه الغدر فقرر الزحف عليه فزحف الناس كافة عليه وكان قد قل عنده من يمنع ويقاتل فظهر منهم صبر عظيم جدا وشجاعة زائدة وكان قد استأمن إلى السلطان إنسان من أعيانهم فدله على عورة لهم فأتى بهم إلى جانب لذلك السن لا يرام فقال اصعدوا من هنا فقيل إنهم ضبطوا هذا المكان وشحنوه بالرجال فقال إن الذى ترون أسلحة وكزاغندات جعلوها كهيئة الرجال لقلتهم عندهم وكان جميع من بقى ثمانين رجلا فزحف الناس من هناك وملكوا الموضع وقتل أكثر الباطنية واختلط جماعة منهم مع من دخل فخرجوا معهم وأما ابن عطاش فأخذ أسيرا فترك أسبوعا ثم قتل هو وولده ومثل بهما وحملت رءوسهما إلى بغداد وألقت زوجته نفسها من رأس القلعة فهلكت وكانت مدة البلوى بابن عطاش اثنتى عشرة سنة

وكما اهتم بأمر ابن عطاش وقلعته كذلك اهتم بأمر الحسن بن الصباح صاحب قلعة الموت وما معها فقد كان يعلم أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم وإخراب ديارهم وملك حصونهم وقلاعهم فجعل قصدهم دأبه وكانت أيام ابن الصباح قد طالت وله منذ ملك قلعة الموت ما يقارب ستاً وعشرين سنة وكان المجاورون له فى أقبح صورة من كثرة غزواته لهم وقتله وأسره رجالهم وسبى نسائهم فسير اليهم السلطان العساكر ولكنها لم تبلغ منه غرضا ولما أعضل داؤه ندب لقتاله الأمير أنوشتكين شيركير صاحب آبه وساوة وغيرهما فملك منهم عدة قلاع وكان كلما ملك قلعة سير من فيها إلى الموت ولما تهيأت له الجنود وأمده السلطان بعدة من أمرائه سار إلى الموت لحصرها وكان أنوشتكين من بين أولئك الأمراء صاحب القريحة والبصيرة

فى قتالهم مع جودة رأى وشجاعة فبنى عليها مساكن يسكنها هو ومن معه وعين لكل طائفة من الأمراء أشهرا يقيمونها فكانوا يغيبون ويحضرون وهو ملازم الحصار وكان السلطان ينقل اليه الميرة والذخائر والرجال فضاق الأمر على الباطنية وعدمت عندهم الأقوات وغيرها فلما اشتد عليهم الأمر أنزلوا نساءهم وأبناءهم مستأمنين ويسألون أن يفرج لهم ولرجالهم عن الطريق ويؤمنوا فلم يجابوا إلى ذلك وأعادهم إلى القلعة قاصداً أن يموت الجميع جوعا وكان ابن الصباح يجرى على كل رجل منهم فى اليوم رغيفاً وثلاث جوزات فلما بلغ بهم الأمر إلى الحد الذى لا مزيد عليه بلغهم موت السلطان محمد فقويت نفوسهم وطابت قلوبهم ووصل الخبر إلى العسكر المحاصر لهم بعدهم بيوم فعزموا على الرحيل فقال لهم شيركير إن رحلنا عنهم وشاع الأمر نزلوا الينا وأخذوا ما أعددنا من الأقوات والذخائر والرأى أن نقيم على قلعتهم حتى نفتحها وإن لم يمكن المقام فلا بد من مقام ثلاثة أيام حتى ينفد منا ثقلنا وما أعددنا ونحرق ما نعجز عن حمله لئلا يأخذه العدو فلما سمعوا قوله أجابوه ولكنهم لما أمسوا رحلوا من غير مشاورة فتبعهم شيركير فغنم الباطنية ما تخلف عندهم

هذا حالهم وما أثاروه من الفتن والنكبات إلى وفاة السلطان محمد بن ملكشاه وسنذكر بعد خاتمة أمرهم

خطر المغرب

كما كان اختلاف آل سلجوق وتفرق كلمتهم سببا لنكبتهم بالباطنية كذلك كان سببا لنكبتهم من المغرب بالحروب الصليبية وليس غرضنا الآن أن نشرح هذه الحروب شرحا وافيا فانها حوادث أجيال إذ قد استمر أمرها من سنة ٤٩٠ الى سنة ٦٩٠ أى قرنين كاملين اشترك فيها من الدول الاسلامية الدولة الفاطمية بمصر ودولة السلاجقة ودول الأتابكية التى تفرعت عن السلاجقة ودولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية بمصر ولما كنا الآن فى اقتصاص أحوال آل سلجوق نسوق من أخبار هذه الحروب ما ارتبط بتاريخهم

امتد سلطان السلاجقة بلاد الروم (أرمينية والأناضول) وتأسست هناك دولة سلجوقية عظيمة الشأن بقونية وأقصرا وما إليهما وأخذوا بمخنق الروم ففقدوا كل

حيلة فى استرداد ما أخذ منهم لقوة الهاجمين وخافوا على مابقى لهم من الأملاك فى آسيا . وكان ملك السلاجقة الروميين فى أيام تلك الحوادث السلطان قليج ارسلان داود بن سليمان بن قتلمش (٤٨٥ — ٥٠٠)

وكذلك امتد على بلاد سوريا وتأسست لهم بها دولة حاضرتها دمشق وكان سلطانها فى هذه الحوادث السلطان رضوان بن تتش بن ألب ارسلان وكان بينه وبين أخيه دقاق بن تتش حروب سببها المنافسة فى الملك

وكان خليفة مصر الفاطمى هو المستعلى بالله أبو القاسم أحمد بن المستنصر (٤٨٧ — ٤٩٥)

كان البيت المقدس مما ملكه تاج الدولة تتش بن ألب ارسلان مؤسس الدولة السلجوقية بسوريا فأقطعه للأمير سقمان بن أرتق التركمانى فاستمر فى حوزته إلى سنة ٤٨٩ وهى السنة التى سار فيها الصليبيون قاصدين فى الظاهر الاستيلاء عليه وتخليصه من أيدى هؤلاء المغتصبين

وقد اضطربت كلمة المؤرخين من العرب فى السبب الذى حدا بأولئك المغيرين إلى الخروج من بلادهم بهذه الشدة والكثرة فقال فريق منهم أن هذه الحملة كانت فى الأصل موجهة إلى شمال أفريقية وكانت إذ ذاك تحت يد الدولة الزيرية والقائم بالأمر فيها تميم بن المعز بن باديس (٤٥٣ — ٥٠١) وكان رجار الصقلى قد قام فى عهده واستولى على صقلية وحارب تميما فى عقر داره حروبا كانت بينهما سجالا ولما بلغ رجار ماعزم عليه الصليبيون لم يعجبه لأنه قال إذا وصلوا إلى أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى إفريقية وعساكر من عندى أيضا فان فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤنة لهم من صقلية وينقطع عنى مايصل من المال من ثمن الغلات كل سنة وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادى وتأذيت بهم ويقول تميم غدرت بى ونقضت عهدى وتنقطع الوصلة والأسفار بيننا وبلاد أفريقية باقية لنا متى وجدنا قوة أخذناها ومن أجل ذلك أشار على هؤلاء المتحمسين بقصد بيت المقدس لأن الجهاد فى تخليصه أعظم أثرا وأبقى فخرا

وقال فريق آخر إن أصحاب مصر من العلويين لما رأوا قوة الدولة السلجوقية وتمكنها واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى

تمنعهم وقد دخل بعضهم فعلا إلى بلاد مصر لما رأوا ذلك خافوا وأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الشام ليملكوه ويكون بينهم وبين المسلمين

وقال فريق من غيرهم إن ملك الروم هو الذى دعا الافرنج إلى ذلك لما خاف على دولته من السلاجقة فانهم كما أخافوا المصريين أخافوا الروم فكل من الفريقين خائف وجل

والذي عليه جمهور المؤرخين ان الغيرة الدينية التى أثارها فى أوربا بطرس الراهب بمساعدة البابا أوربانس الثانى هى التى هاجت أنفس الافرنج لهذه الاغارة

وكل هذه الأسباب لا يبعده العقل ولا يبعد أن يكون بعضها قد ساعد بعضا والافرنج يميلون إلى جعلها حربا دينية لا سياسية أثار غبارها ما كان من حمية الجاهلية فى ذلك العصر

زار بطرس الراهب البيت المقدس فعز عليه مارآه من ملك المسلمين لهذا البيت الذى فيه آثار المسيح عليه السلام فعاد إلى أوربا شاكياً باكياً مستغيثاً متضرعا واستعان بسلطان البابا أوربانس الثانى الذى كان إذ ذاك صاحب الكلمة العليا فى أوربا فأعانه وعقد المؤتمرات لبث الحمية الدينية فى قلوب المسيحيين فنجح فى ذلك ولا سيما أنه أعطى امتيازات لها قيمة لمن يتطوع فى هذه الحرب فتألفت جيوش عظيمة سارت إلى طلبتها فى ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ (٤٨٩) يقدمها بطرس الراهب وغيره إلا أن هذه الحملة لم تنجح فى مسيرها لأنها لم تكن ذات نظام عسكرى فعاثت فى الأرض فسادا فقاومها البلغاريون والهونغريون وأفنوا كثيرا منها والذين تخلصوا وجازوا البحر عند القسطنطينية إلى آسيا أخذتهم سيوف السلطان قليج ارسلان عند قونية فلم ينج منهم أحد وهذه هى الحملة الأولى من الحرب الصليبية الأولى

قام على أثرها حملة أخرى وهى الحملة الثانية يقدمها غودا فرودى بوليون دوق دى لورين السفلى ومعه عدد وافر من قواد فرنسا والنمسا وجيش آخر يقدمه هوكز أخو ملك فرنسا ومعه عدد من القواد وجيش ثالث يقدمه بوهيمند أمير تارنت الايطالى

سارت هذه الجيوش ومرت بالقسطنطينية بعد خطوب نالتهم من ملك الروم اليكسيوس ثم عبرت المجاز قاصدة مدينة قونية التى كانت من أعمال قليج ارسلان

وعددهم عظيم جداً فلقيهم ذلك السلطان مدافعاً عن ملكه فتغلب عليه الصليبيون لكثرة عددهم ثم حصروا قونية نحو خمسين يوماً وفى نهايته سلمت حامية هذه المدينة لكنها لم تسلم للصليبيين بل سلمت لقائد ملك الروم الذى أرسل مع الصليبيين لهذه الغاية وكان هذا العمل سبباً لغيظ قوادهم أصاب هذا الجيش بعد ذلك نكبات شديدة جداً فى مسيره ففنى كثير منه بالحرب والجوع والتعب والأوبئة والاختلاف الكثير بين القواد الذين كان لكل منهم مقصد فى العلو والرفعة وقد انفصل عنهم وهم سائرون أحد القواد وهو بودوين وسار إلى الجزيرة الفراتية فامتلك مدينة الرها وكانت للروم إذ ذاك

سار القوم إلى أنطاكية وكان حاكمها أحد قواد السلجوقية باغسيان فحصروها تسعة أشهر وظهر من شجاعة باغيسيان وجودة رأيه وحزمه واحتياطه مالم يشاهد من غيره فهلك أكثر الفرنج وبعد هذا الحصر استولوا على المدينة بخيانة أحد المستحفظين للأبراج الذى بذل له الافرنج مالا وأقطاعا وكان الافرنج قد كاتبوا صاحب حلب ودمشق : إننا لانقصد غير البلاد التى كانت للروم لانطلب سواها وانما فعلوا ذلك معهم حتى لايساعدوا صاحب أنطاكية وقد كان ماأرادوا . سار الافرنج بعد ذلك إلى معرة النعمان فامتلكوها

كان البيت المقدس فى تلك الأيام قد خرج من حوزة السلاجقة وامتلكه المصريون فانهم لما علموا بما أصاب الأتراك على أنطاكية أرسلوا جيشاً يقدمه الأفضل بن بدر الجمالى فاستولى عليه من يد الأمير سقمان بن أرتق التركمانى واستناب فيه رجلا يعرف بافتخار الدولة وهو الذى تلقى حملة الصليبيين الذين حضروا اليه بعد أن حصروا عكا ولم يقدروا على فتحها . حصروا البيت المقدس نيفاً وأربعين ليلة وأخيرا استولوا عليه فى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ٤٩٢ ولم يكن منهم مايحمد عليه المحارب الشجاع بل أساءوا معاملة أهليه وقتلوا منهم خلقا كثيرا وورد المستنفرون من الشام فى رمضان الى بغداد صحبة القاضى أبى سعيد الهروى فأوردوا فى الديوان كلاما أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوما جمعة فاستغاثوا وبكوا وأبكوا والسلطانان السلجوقيان بركياروق ومحمد إذ ذاك يتطاحنا يريد كل منهما الانفراد بالملك وإقصاء أخيه عنه

ولما تم للافرنج ماطلبوا من الاستيلاء على البيت المقدس انتخبوا القائد غودافرو ليكون ملكا هناك ولكنه لم يرض أن يلقب بلقب ملك بل بحامى قبر المسيح وأقام معه بعض الجنود ورحل سائرهم إلى أوطانهم

وضع غودافرو قانونا لادارة مملكته الجديدة إلا أن زمنه لم يطل فانه توفى فى ١٨ يوليو سنة ١١٠٠ فأقيم مقامه بودوين ملك الرها وشقيق غودافرو وأعلم بذلك فقبله وأقام بدله فى ملك الرها ابن عمه بودوين دى بورغ ملكا على الرها وسار هو إلى حاضرة ملكه وهو المعروف فى التواريخ العربية باسم بردويل . هكذا وجدت مملكة افرنجية فى وسط أملاك المسلمين لأول مرة ولم يتركها المسلمون براحة بالولا هى تركتهم بل كانت الحروب متصلة بين الطرفين المصريون يناوشونهم من الجنوب والأتراك من الشرق . ولم تكن المملكة الافرنجية واحدة فى البلاد التى استولوا عليها بل كانت جملة ممالك مملكة القدس وانطاكية والرها وغيرذلك إلا أن المملكة الكبرى كانت مملكة القدس . وسنتكلم فى حوادثها عند ظهور الدولة الأتابكية والدولة الأيوبية اللتين أججتا نار الحرب مع هؤلاء الافرنج

---

٢٩ ــ المسترشد بالله

هو أبو منصور الفضل المسترشد بالله بن المستظهر ولاه أبوه بالعهد فبويع بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه والده ١٦ ربيع الآخر سنة ٥١٢ (٧ أغسطس سنة ١١١٨) واستمر خليفة إلى أن قتل فى يوم الأحد ١٧ ذى القعدة سنة ٥٢٩ (٣٠ أغسطس سنة ١١٣٥)

كان سلطان العراق لأول عهده هو السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان السلطان سنجر بن ملكشاه فى ذلك الوقت ملك خراسان وما إليها من بلاد ما وراء النهر إلى غزنه وخوارزم وقد عظمت دولته وهو شيخ البيت السلجوقى وعظيمه. فلما توفى أخوه محمد وجلس ابن أخيه محمود وهو زوج ابنته لحقه لوفاة أخيه حزن أليم وجزع شديد وجلس للعزاء على الرماد وتقدم إلى الخطباء بذكر السلطان محمد بمحاسن أعماله من قتال الباطنية وإطلاق المكوس وغير ذلك وكان يلقب ناصر الدين فلما توفى أخوه تلقب معز الدين وهو لقب أبيه ملكشاه وعزم على قصد الجبل والعراق وما بيد ابن أخيه محمود. ثم إن السلطان محمود ارسل إلى عمه سنجر وفدا معه الهدايا والتحف وطلب إليه ان ينزل له عن مازندران فغاظه هذا الطلب وقال إن ولد أخى صبى وقد تحكم عليه وزيره وحاجبه وصمم على المسير فسار وكذلك فعل السلطان محمود والتقيا عند الرى بالقرب من ساوة وكان العسكر المحمودى قد استهان بالعسكر السنجرى لكثرة الأولين وشجاعتهم وكثرة خيلهم ولما حصل اللقاء انهزمت ميمنة سنجر وميسرته وسارت جنودهما لا تلوى على شىء أما سنجر فكان واقفا فى القلب وأمامه السلطان محمود وقد أشار بعض المقربين من سنجر عليه أن ينهزم فقال إما النصر وإما القتل وأما الهزيمة فلا وهجم بفيلته على قلب محمود هجوما شديدا فتراجعت خيل محمود على أعقابها وكان بذلك هزيمة السلطان محمود ولما تم النصر لسنجر أرسل من رد المنهزمين من جنده ووصل الخبر إلى بغداد فى عشرة أيام فأشير على الخليفة بالخطبة للسلطان سنجر ففعل. أما محمود فانه سار إلى أصبهان ومعه وزيره وبعض أمرائه وأما سنجر فسار إلى همذان وهناك راسل ابن أخيه فى الصلح وكانت والدة سنجر تشير عليه بذلك وتقول قد استوليت على غزنة وأعمالها وما وراء النهر وملكت

ما لاحد عليه وقررت الجميع على أصحابه فاجعل ولد أخيك كأحدهم فأجاب إلى قولها وبعد مطاولات تقرر الصلح وسار محمود إلى عمه سنجر ونزل على جدته أم السلطان سنجر وأكرمه عمه وبالغ فى إكرامه وحمل له محمود هدية عظيمة فقبلها ظاهرا وردها باطنا ولم يأخذ منه سوى خمسة أفراس عربية وكتب السلطان سنجر إلى جميع أعماله أن يخطب لمحمود من بعده حيث جعله ولى عهده ورد عليه جميع ما أخذه منه سوى الرى

ولم يكد السلطان محمود ينتهى من هذا النزاع بينه وبين عمه حتى قام ضده أخوه مسعود بن محمد وكان لمسعود حينئذ الموصل وأذربيجان وذلك سنة ٥١٤ وقد أجج الأمراء نار هذا الخلاف لينالوا من وراء ذلك حظوظهم ولا يبالون بالمملكة الافرنجية التى صارت شوكة فى جنوبهم وكان وزير مسعود هو الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن على الاصفهانى وهو الذى حسن لمسعود أن يقوم مطالبا بالمملكة ولما بلغ ذلك محمودا كتب إليهم يخوفهم إن خالفوه ويعدهم الاحسان إن أقاموا على طاعته وموافقته فلم يصغوا إلى قوله وأظهروا ما كانوا عليه وما يسرونه وخطبوا للملك مسعود بالسلطنة وضربوا له النوب الخمس ثم سار كل منهم إلى لقاء صاحبه فالتقوا عند عقبة أسداباذ واقتتلوا من بكرة إلى آخر النهار وأبليت الجنود المحمودية بلاء حسنا فانهزم عسكر محمود آخر النهار وأسر جماعة من مقدمى جنودهم ومنهم الوزير أبو إسماعيل الطغرائى فأمر السلطان بقتله وقال قد ثبت عندى فساد دينه واعتقاده وكان حسن الكتابة والشعر

ثم أرسل محمود وراء أخيه من لحقه وأتى به بعد أن بذل له الامان

فاستقبله استقبالا عظيما وفى له بما بذله وخلطه بنفسه فى كل أفعاله فعد ذلك من مكارم محمود ولا عجب فقد علمه ذلك عمه سنجر

كان الخليفة المسترشد بالله فى هذا العصر قد استرد شيئا من نشاط الخلفاء العباسيين وقاد الجيوش بنفسه لحرب المخالفين عليه وأهمهم دبيس بن صدقة ملك الحلة ولم يكن للخلفاء عهد بذلك منذ زمن طويل ولا شك أن الملوك السلجوقيين لا يقع ذلك عندهم موقع الاستحسان فانهم يتخوفون عاقبته ويرون منه خطرا على نفوذهم ومما يدل على أن ذلك منحه قوة لم تكن لسلفه أن شحنة بغداد برنقش الذكوى حصل بينه

وبين نواب الخليفة نفرة فتهدده الخليفة فخاف فسار عن بغداد إلى السلطان محمود وشكا إليه وحذره جانب الخليفة وأعلمه أنه قاد العساكر ولقي الحروب وقويت نفسه ومتى لم تعاجله بقصد العراق ودخول بغداد ازداد قوة وجمعا ومنعك عنه وحينئذ يتعذر عليك ماهو الآن بيده فأثر ذلك الكلام في نفس السلطان وتوجه نحو العراق فأرسل إليه الخليفة يعرفه ما البلاد وأهلها عليه من الضعف والوهن وأن الغلاء قد اشتد بالناس لعدم الغلات والأقوات لهرب الأكرة ويطلب منه أن يؤخر حضوره حتى تصلح الأحوال وبذل له على ذلك مالا كثيرا فكان هذا مما زاد في إغراء السلطان حتى قصد بغداد فسار إليها مجدا ولما بلغ الخليفة الخبر أظهر الغضب والنزوح عن بغداد واستعد لذلك أن جاء السلطان فأثر ذلك في أنفس العامة تأثيرا عظيما حتى أكثروا البكاء والضجيج ولما علم السلطان بذلك أرسل يستعطف الخليفة ويطلب إليه العودة إلى داره فأبى إلا أن يعود السلطان ولا يحضر إلى بغداد فلم يلتفت السلطان إلى قوله واستمر قاصدا بغداد أما الخليفة فاستعد لمقابلته بالقوة وكان معه كثير من العامة والجند يدافعون عنه تدينا وقد حصلت مناوشات بين الفريقين في أول سنة ٥٢١ وكان مع كل جمع عظيم ولما رأى المسترشد بالله ذلك جنح إلى الصلح الذي طلبه السلطان محمود فتم ذلك وكان أعداء الخليفة يشيرون على السلطان باحراق بغداد فلم يفعل وقال لاتساوي الدنيا فعل مثل هذا وأقام ببغداد إلى رابع شهر ربيع الآخر سنة ٥٢١ ثم فارقها بعد أن حمل إليه الخليفة الخلع والدواب الكثيرة

وفي سنة ٥٢٤ ملك السلطان محمود قلعة الموت من يد صاحبها الحسن بن الصباح

وفي سنة ٥٢٥ توفي السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وكان حليما كريما عاقلا يسمع مايكره ولا يعاقب عليه مع القدرة قليل الطمع في أموال الرعايا عفيفا عنها كافا لأصحابه عن التطرق إلى شيء منها

لما توفي خطب لولده داود بالسلطنة في بلاد الجبل وأذربيجان إلا أنه قام ضده ابن عمه السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه فكان الظفر لمسعود وخطب له بالسلطنة على منابر بغداد إلا أن هذا لم يرق لعميد البيت ورئيسه السلطان سنجر فأقبل من خراسان قاصدا دفع مسعود عن السلطنة وسار اليه مسعود فالتقيا بعولان عند الدينور وكانت النتيجة أن انهزم مسعود وقل جيشه وتحكم سنجر فيما بقي ثم أرسل

وراء ابن أخيه من يرده فردوه اليه فلما حضر عنده قبله وأكرمه وعاتبه على عصيانه ومخالفته ولم يعده إلى السلطنة بل رده إلى كنجه وأجلس الملك طغرل ابن أخيه محمد مكانه وخطب له فى جميع البلاد ثم عاد إلى نيسابور فلما رأى ذلك مسعود خرج من مكمنه وتوجه إلى بغداد ثانيا بما جمعه من الجيوش فدخلها فقابله الخليفة بالاكرام ووعده أن يرسل معه جيشا لمحاربة طغرل وقد وفى بما وعد فسارت الجنود المسعودية صوب طغرل حتى التقوا به عند همذان فكانت بينهما موقعة انهزم فيها طغرل واستقر الأمر ثانية للسلطان (غياث الدنيا والدين أبى الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه)

كان هذا الخلاف بين البيت السجوقى مقويا للمسترشد فصار يعد نفسه صاحب الأمر الذى يجب أن يطاع لا بالقوة المعنوية وحدها بل بقوة السيف أيضا فقد صار تحت أمره أجناد ورجال يلبون دعوته وينفذون كلمته وقد حصل بسبب ذلك نفرة بينه وبين السلطان مسعود أدت إلى أن أمر الخليفة بقطع خطبة مسعود من منابر بغداد ولم يقف عند ذلك بل تجهز بجيشه يريد حرب مسعود بدار سلطنته ومعه الجنود الكثيرة إلا أنها لم تكن ذات عصبية تصدق عند اللقاء فان العصبية الجنسية غلابة مهما كانت الأحوال ولذلك لما التقى الطرفان انحاز كثير من عسكر الخليفة الأتراك إلى السلطان مسعود فانهزم جند الخليفة أما هو فبقى ثابتا حتى أسر ولما بلغ ذلك الخبر بغداد قامت قيامة أهلها وخرجوا من الأسواق يحثون التراب على رءوسهم ويبكون ويصيحون وخرج النساء حاسرات فى الأسواق يلطمن

أما الخليفة فقد جعله السلطان فى خيمة ووكل به من يحفظه وقام بما يجب من خدمته وترددت الرسل بينهما فى تقرير قواعد الصلح على مال يؤديه الخليفة وألا يعود إلى جمع العساكر وألا يخرج من داره فأجيب إلى ذلك ولم يبق إلا أن يعود الخليفة إلى بغداد إلا أنه صادف أن هجم على خيمة الخليفة جماعة من الباطنية فقتلوه ومثلوا به وكان ذلك فى يوم الأحد ١٧ ذى القعدة على باب مدينة مراغة وكان المسترشد شهما شجاعا كثير الاقدام بعيد الهمة وكان فصيحا بليغا حسن الخط قال ابن الأثير ولقد رأيت خطه فى غاية الجودة ورأيت أجوبته على الرقاع من أحسن ما يكتب وأفصحه ولقد حاول أن يعيد شيئاً من مجد أهل بيته فحالت الأقدار بينه وبين ما أراد

٣٠ – الراشد بالله

بويع بالخلافة بعد المسترشد بالله ابنه أبو جعفر المنصور الراشد بالله وكان ولى العهد فلما مات أبوه جددت له البيعة فى ٢٧ من ذى القعدة وكتب السلطان إلى شحنة بغداد بالبيعة له وحضر بيعته ٢١ رجلا من أولاد الخلفاء.

لم يكن السلطان مسعود مع الراشد أسعد حظا من أبيه معه بل حاول الراشد أن يثأر لأبيه ويخل سلطنة مسعود فاتفق مع داود بن السلطان محمود أخى مسعود ومع كثير من أمراء الأطراف على مقاومة مسعود وخلعه ولما سمع بذلك مسعود أقبل مسرعا صوب بغداد ولما وصلها حصرها لامتناع الخليفة ومن معه بها ولكن سرعان ما اختلفت كلمة الأمراء الذين خالفوا الخليفة وتفرقوا تاركين بغداد حتى أكبرهم شأنا عماد الدين زنكى صاحب الموصل ولما رأى الخليفة ذلك بارح بغداد فى رفقة عماد الدين ولما رأى مسعود ذلك دخل بغداد ظافرا وأمر بجمع القضاة والشهود والفقهاء وعرضوا عليهم اليمين التى حلف الراشد بالله لمسعود وفيها بخط يده إنى متى جندت أو خرجت أو لقيت أحدا من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسى من الأمر. فأفتوا بخروجه من الخلافة. وكانت خلافته ١١ شهرا و ١١ يوما

---

٣١ – المقتفى لأمر الله

هو أبو عبد الله الحسين المقتفى لأمر الله بن المستظهر اختاره السلطان مسعود للخلافة بعد أن كتب محضر بخلع ابن أخيه الراشد من الخلافة وكانت بيعته فى ثامن ذى الحجة سنة ٥٣٠ (٧ سبتمبر سنة ١١٣٦) واستمر فى الخلافة إلى أن توفى ثانى ربيع الأول سنة ٥٥٥ (١٢ مارس سنة ١١٦٠) فكانت خلافته ٢٤ سنة وثلاثة أشهر و١٦ يوما وكان عمره إذ توفى ٦٦ سنة

ولما بايع السلطان المقتفى صاهره فزوجه أخته فاطمة على صداق مائة ألف دينار وبذلك أمن السلطان أن يكون الخليفة ضده . وقد حاول الخليفة المعزول أن يعيد لنفسه الخلافة فاتحد مع الملك داود ابن السلطان محمود ولكنه مع ما بذل من المجهود العظيم لم ينجح فقد ائتمر به جماعة من الباطنية فسقوه الردى بنواحى أصفهان

استمر السلطان مسعود فى سلطانه مع كثرة المخالفين والخارجين عليه من أهل بيته ومن أمرائه إلى أن توفى سنة ٥٤٧ بهمذان وذلك على رأس مائة سنة من الخطبة ببغداد للسلطان طغرلبك وماتت مع مسعود سعادة البيت السلجوقى فلم تقم له بعده راية يعتمد بها ولا يلتفت إليها . وكان رحمه الله حسن الأخلاق كثير المزاح والتبسط مع الناس وكان كريما عفيفا عن أموال الرعية حسن السيرة فيهم . من أصلح السلاطين سيرة وألينهم عريكة سهل الأخلاق وكان مسعود قد عهد بالسلطنة بعده لابن أخيه ملكشاه ابن السلطان محمود

أما الخليفة فانه لما بلغه وفاة مسعود طرد شحنة السلجوقية بها وأخذ داره ودور أصحاب السلطان ببغداد وأخذ كل ما لهم فيها وكل من عنده وديعة لأحد منهم أحضرها بالديوان وجمع الرجال والعساكر وأكثر التجند وتقدم باراقة الخمور من مساكن أصحاب السلطان وأرسل جنوده فاستولت على سائر البلاد العراقية الحلة وواسط وغيرها وخرج بنفسه ليقوى جنده

أصبح ذلك الملك العظيم الذى أسسه طغريل بك وإخوته ورفع بنيانه ملكشاه أصبح نهبا تقاسمته دول شتى تعرف بالدول الأتابكية وها نحن أولاء نقص حديثها

الأتابكية

من الدول التركية التى زاحمت دولة السلاجقة وسامتها الدول الأتابكية وبيوتها شتى لاتنتهى إلى نسب واحد إلا أنها يجمعها الاتصال بالبيت السلجوقى وأتابك كلمة تركية معناها مربى الملك فكان آل سلجوق إذا امتاز أحدقوادهم بهذا الامتياز أطلقوا عليه هذا اللقب واستحق به أعلى درجات التكريم والاحترام

قد وصل بعض هؤلاء الأتابكية إلى درجة الملك فى بعض الأقاليم الاسلامية وأورثوا أبناءهم ملكهم ويطلق على هؤلاء الأسر الأتابكية ومعهم دول ينتسبون أيضا إلى ولاء السلاجقة ولا يلقبون بهذا اللقب بل بلقب شاهات وسنسوق أخبارها بالاجمال حسب ترتيب ظهورها

---

١ — شاهات خوارزم

ينسبون إلى محمد بن أنوشتكين وكان أبوه أنوشتكين مملوكا لأمير من أمراء السلجوقيين اسمه بلكباك اشتراه من رجل من غرشستان فقيل له أنوشتكين غرشه فكبر وعلا أمره وكان حسن الطريقة كامل الأوصاف وكان مقدما مرجوعا إليه وولد له ولد سماه محمد . وهو بانى هذا البيت علمه أبوه وخرجه وأحسن تأديبه وتقدم بنفسه بالعناية الالهية فولاه الأمير حبشى قائد بركياروق خوارزم ولقبه خوارزمشاه فقصر أوقاته على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها وقرب أهل العلم والدين فازداد ذكره حسنا ومحله علوا . ولما ملك السلطان سنجر خراسان أقر محمد خوارزمشاه على خوارزم وأعمالها فظهرت كفايته وشهامته فعظم سنجر محله وقدره . ولم يزل على جلالة القدر والكفاية إلى أن توفى سنة ٥٢١ فولى بعده ابنه أتسز فقربه السلطان سنجر وعظمه واعتضد به واستصحبه معه فى أسفاره وحروبه فظهرت منه الكفاية والشهامة فزاده تقدما وعلوا ورسخت أقدام هذا البيت فى الملك وقد استمر إلى سنة ٦٢٨ حيث زال على ايدى التتر الذين هاجموا البلاد الاسلامية بزعامة جنكيزخان كما سيأتى توضيحه وهذا ثبت ملوك الخوارزمشاهية

(١) أنوشتكين ٤٧٠ — ٤٩٠

(٢) قطب الدين محمد بن أنوشتكين — ٥٢١
(٣) أتسز بن محمد — ٥٥١
(٤) أرسلان بن أتسز — ٥٦٨
(٥) سلطان شاه محمود بن أرسلان — ٥٦٨
(٦) تكش بن أرسلان — ٥٩٦
(٧) علاء الدين محمد بن تكش — ٦١٧
(٨) جلال الدين منكبرتى بن محمد — ٦٢٨

وعلى يد هذه الدولة انقضت دولة السلاجقة بخراسان وما اليها من بلاد الرى والجبل وما وراء النهر

٢ — الدولة الأرتقية

تنسب هذه الدولة إلى أرتق بن أكسب التركمانى وهو مملوك من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقى وقائد من قواده

وأول من أسس هذا البيت معين الدولة سقمان بن أرتق استولى على حصن كيفا سنة ٤٩٥ من يد الأمير موسى التركمانى فى عهد السلطان بركياروق بن ملكشاه ثم ضم اليها ماردين

وفى سنة ٥٠٢ انقسمت هذه المملكة الصغيرة إلى مملكتيه إحداهما بالحصن والثانية بماردين فأما مملكة الحصن فاستمرت إلى سنة ٦٢٠ وانتهت على أيدى الأيوبيين — وأما مملكة ماردين فاستمرت إلى سنة ٨١١ أى بعد ظهور آل عثمان بمائة وإحدى عشرة سنة وانتهت على يد قره قيونلى وهذه أسماء ملوك الحصن

(١) معين الدولة سقمان بن ارتق ٤٩٥ — ٤٩٨
(٢) إبراهيم بن سقمان — ٥٠٢
(٣) ركن الدين داود بن سقمان — ٥٤٣
(٤) قمر الدين قره أرسلان بن داود — ٥٧٠
(٥) نور الدين محمد بن أرسلان — ٥٨١
(٦) قطب الدين سقمان بن محمد — ٥٩٧

(٧) ناصر الدين محمود بن محمد — ٦١٩

(٨) ركن الدين مودود بن محمود — ٦٢٠

وهذه أسماء ملوك ماردين :

(١) نجم الدين غازى بن أرتق ٥٠٢ — ٥١٦

(٢) حسام الدين تيمورتاش بن غازى — ٥٤٧

(٣) نجم الدين ألبى بن تيمورتاش — ٥٧٢

(٤) قطب الدين غازى بن البى — ٥٨٠

(٥) حسام الدين يولق بن أرسلان بن غازى — ٥٩٧

(٦) ناصر الدين أرتق أرسلان بن غازى — ٦٣٧

(٧) نجم الدين غازى بن أرتق أرسلان — ٦٥٨

(٨) قره أرسلان بن غازى — ٦٦١

(٩) شمس الدين داود بن قره أرسلان — ٦٩٣

(١٠) نجم الدين غازى بن قره أرسلان — ٧١٢

(١١) شمس الدين صالح بن غازى — ٧٦٥

(١٢) المنصور أحمد بن صالح — ٧٦٩

(١٣) الصالح محمود بن أحمد — ٧٦٩

(١٤) المظفر داود بن صالح — ٧٧٨

(١٥) الظاهر مجد الدين عيسى بن داود — ٨٠٩

(١٦) صالح بن داود — ٨١١

وصالح هذا آخر ملك من موالى السلجوقيين

٣ ــ أتابكية دمشق

ابتدأت هذه الدولة سنة ٤٩٧ وأول ملوكها سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين وأصله مملوك للملك تتش بن الب أرسلان أول سلاجقة سوريا ثم صار من قواده الذين يعتمد عليهم وكان اتابك ولده دقاق . وبعد قتل تتش استمر مع ولده دقاق وكان سنده وظهيره فلما توفى دقاق سنة ٤٩٧ خطب أتابك لولد له صغير وجعل اسم المملكة فيه سنة واحدة ثم قطع خطبته وخطب لبكتاش بن تتش عم هذا الطفل وله من العمر ١٢ سنة وأشار عليه أن يقصد الرحبة فقصدها فملكها ولما عاد منها منعه طغتكين من دخوله دمشق وأعاد خطبة الطفل ولد دقاق . وقد حاول بكتاش أن يسترد ملكه واستعان على ذلك بملك الأفرنج فى القدس فلم ينجح واستمر ملك دمشق لطغتكين فأحسن إلى الناس وبث فيهم العدل فسروا به سروراً كثيرا وقد استمر الملك فى عقبه ٥٢ سنة وانتهى على يد آل زنكى سنة ٥٤٩ وهذا ثبت ملوكهم

(١) سيف الاسلام ظهير الدين طغتكين	٤٩٧ — ٥٢٢
(٢) تاج الملوك بورى	— ٥٢٦
(٣) شمس الملوك اسماعيل	— ٥٢٩
(٤) شهاب الدين محمود	— ٥٣٣
(٥) جمال الدين محمد	— ٥٣٤
(٦) مجير الدين أبق	— ٥٤٩

٤ ــ أتابكية الموصل

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٢١ وتنسب إلى عماد الدين زنكى بن أق سنقر وكان أق سنقر مملوكا للسلطان ملكشاه بن الب أرسلان السلجوقى وكان معدودا من كبار القواد جعله ملكشاه من قواد أخيه تتش ولما ملك حلب استنابه فيها ثم التحق بالسلطان بركياروق بعد وفاة ملك شاه وسار فى خدمته . وكان تتش يمنى نفسه بملك العراق فجهز الجيوش ليسطو عليها فأرسل بركياروق إليه الجنود عليهم أق سنقر فالتقى الفريقان عند نهر سبعين قريبا من تل السلطان بينه وبين حلب ستة فراسخ واقتتلوا فانهزم

من مع أق سنقر وثبت هو فأسر ثم قتل صبرا وكان أحسن الأمراء سياسة وحفظا لرعيته وقد نشأ ابنه أتابك عماد الدين زنكى فى كهف الدولة السلجوقية واهتم به ملوكهم لما لأبيه من الأيادى البيضاء فى حفظ بيتهم ولأنه قتل فى الدفاع عنهم فنشأ نشأة عالية ذاهمة مقداما وكانوا يستعينون به فى مهماتهم فيكفيهم إياها وما زال ينبه ذكره وتقوى همته حتى ولاه السلطان محمود مدينة الموصل سنة ٥٢١ ليقوم بحفظها وإصلاح شأنها وجعله أتابك ولده فروخ شاه المعروف بالخفاجى ليربيه.

أظهر زنكى فى ولايته كفاية وقوة وصلاحا وكان له فى جهاد الصليبيين همة لا تزال تذكر له وهو رأس الأتابكية من بيت زنكى وقد انقسمت إلى أربعة دول

الأولى أتابكية الموصل وهذا ثبت ملوكها :

(١) أتابك عماد الدين زنكى	٥٢١ — ٥٤١
(٢) سيف الدين غازى بن زنكى	— ٥٤٤
(٣) قطب الدين مودود بن زنكى	— ٥٦٥
(٤) سيف الدين غازى بن مودود	— ٥٧٦
(٥) عز الدين مسعود بن مودود	— ٥٨٩
(٦) نور الدين أرسلانشاه بن مسعود	— ٦٠٧
(٧) عز الدين مسعود بن أرسلانشاه	— ٦١٥
(٨) نور الدين أرسلانشاه بن مسعود	— ٦١٦
(٩) نصير الدين محمود بن مسعود	— ٦٣١
(١٠) بدر الدين لؤلؤ	— ٦٥٧
(١١) إسماعيل بن لؤلؤ	— ٦٦٠

وبدر الدين لؤلؤ ليس من هذا البيت بل هو مولاهم استقل بأمر الملك بعد سيده نصير الدين محمود وقد انتهت هذه الدولة على يد المغول.

٥ — اتابكية سوريا

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٤١ وهى السنة التى قتل فيها عماد الدين زنكى فان مملكته انقسمت بين ولديه سيف الدين غازى الذى ملك الموصل ومحمود نور الدين الذى ملك حلب وانتهت سنة ٥٧٧ على أيدى الأيوبيين ولم يكن منها إلا ملكان أحدهما محمود نور الدين بن زنكى والثانى الصالح اسمعيل بن محمود

ومحمود نور الدين هذا هو أستاذ صلاح الدين يوسف بن أيوب والرجلان كلاهما له القدم الثابتة فى جهاد الصليبيين

٦ — أتابكية سنجار

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٦٦ بعد وفاة قطب الدين مودود صاحب الموصل فان بلاده انقسمت بين ولديه سيف الدين غازى بن مودود الذى كان ولى عهد أبيه وهو أصغر الأخوين وهذا ملك الموصل والثانى عماد الدين زنكى ابن مودود وهذا ملك سنجار وما معها بواسطة عمه نور الدين محمود . وانتهت هذه الدولة سنة ٦١٧ على أيدى الأيوبيين وهذا ثبت ملوكها :

(١) عماد الدين زنكى بن مودود	٥٦٦ - ٥٩٤
(٢) قطب الدين محمد بن زنكى	- ٦١٦
(٣) عماد الدين شاهنشاه	- ٦١٦
(٤) عمر	- ٦١٧

٧ — أتابكية الجزيرة

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٧٦ بعد وفاة سيف الدين غازى بن مودود صاحب الموصل فان بلاده انقسمت بين ولديه عز الدين مسعود وهو الأكبر وهذا ملك الموصل والثانى سنجرشاه بن مسعود وهذا ملك جزيرة ابن عمر وقد بقيت فى يد أولاده إلى سنة ٦٤٥ حيث أخذها الأيوبيون والذين تولوها هم :

(١) معز الدين سنجرشاه	٥٧٦ — ٦٠٥
(٢) معز الدين محمود بن سنجر شاه	— ٦٤٨

(٣) مسعود بن محمود - ٦٤٨

٨ ـــ اتابكية اربل

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٣٩ أسسها زين الدين على كجك بن بكتكين وهو مملوك تركانى لعماد الدين زنكى جعله اتابك ولده قطب الدين مودود وقد فتح بلادا كثيرة فى بدء الدولة الزنكية كان بيده منها سنجار وحران وقلعة عقر الحميدية وقلاع الهكارية وتكريت وشهرزور وغيرها واستمر كذلك إلى سنة ٥٦٣ وقبل أن يموت سلم جميع مابيده إلى قطب الدين مودود ولم يبق له سوى إربل فسار عن الموصل وأقام بها وفى هذه السنة توفى فولى بدله ابنه زين الدين أبو المظفر يوسف وهو الصغير تعصب له مجاهد الدين قايماز وكان أخوه الأكبر مظفر الدين كوكبورى فحاول أن يكون بدل أبيه فلم يحصل على بغيته فسار إلى الموصل وملكها يومئذ سيف الدين غازى بن مودود فأقطعه حران فأقام بها مدة ثم انتقل إلى خدمة صلاح الدين يوسف فحظى عنده وتمكن منه وزاد صلاح الدين فى أقطاعه الرها وزوجه أخته وقد حضر معه كثيرا من مشاهده وأظهر نجدة وعزيمة فلما توفى أخوه يوسف سنة ٥٨٣ رده صلاح الدين إلى ملكه باربل فاستقر فيه إلى أن مات سنة ٦٣٠ وأوصى ببلاده قبل موته للخليفة العباسى فبقيت بأيدى العباسيين إلى أن جاء المغول فأخذوها فيما أخذوا

٩ ـــ أتابكية أذربيجان

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٣٦ ومؤسسها هو الأمير ايلدكز وكان مملوكا للكمال السميرمى وزير السلطان محمود السلجوقى فلما قتل الكمال سار ايلدكز إلى السلطان محمود . ولما ولى السلطان مسعود السلطنة ولاه ارانية فمضى إليها ولم يعد يحضر عند السلطان مسعود ولا غيره . ثم ملك أكثر أذربيجان وبلاد الجبل وهمذان وغيرها وأصفهان والرى وما إليهما من البلاد وخطب بالسلطنة لارسلانشاه بن طغرل وهو ربيبه وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الأتباع واتسع ملكه من باب تفليس إلى مكران ولم يكن للسلطان أرسلان معه حكم إنما كانت له جراية تصل إليه وكان

ايلدكز عاقلا حسن السيرة يجلس بنفسه للرعية ويسمع شكواهم وينصف بعضهم من بعض وهذا ثبت ملوك هذا البيت

(١) شمس الدين ايلدكز	٥٣١ - ٥٦٨
(٢) محمد البهلوان جهان بن ايلدكز	- ٥٨١
(٣) قزيل أرسلان عثمان بن ايلدكز	- ٥٨٧
(٤) أبو بكر بن محمد	- ٦٠٧
(٥) مظفر الدين أزبك بن محمد	- ٦٢٢

وقد انتهت دولتهم على أيدى شاهات خوارزم

١٠ — أتابكية فارس (الدولة السلغرية)

ابتدأت هذه الدولة بفارس سنة ٥٤٣ وتنسب إلى سلغر أحد قواد التركمان فى عهد السلاجقة وكانت نهايتها سنة ٦٨٦ على أيدى المغول وهذا ثبت ملوكها

(١) سنغر بن مودود بن سلغر	٥٤٣ - ٥٥٧
(٢) زنكى بن سنقر	- ٥٨١
(٣) دكلا بن زنكى	— ٥٩١
(٤) سعد بن زنكى	— ٦٢٣
(٥) أبو بكر بن سعد	— ٦٥٨
(٦) محمد بن سعد	— ٦٦٠
(٧) محمد شاه بن محمد	-- ٦٦٠
(٨) سلجوقشاه بن سلغر بن سعد	— ٦٦٠
(٩) ابيش بن سعد بن أبى بكر	— ٨٨٦

١١ — أتابكية لورستان (الهزارسبيه)

ابتدأت هذه الدولة سنة ٥٤٣ وهي من فروع الدولة السلغرية أتابكية فارس أسسها أبو طاهر أحد قوادهم وهذا ثبت ملوكهم

(١) أبو طاهر بن محمد	٥٤٣ — ٦٠٠
(٢) نصرة الدين هزارسب بن أبي طاهر	— ٦٥٠
(٣) دكلا بن هزارسب	— ٦٥٧
(٤) شمس الدين الب ارغو بن هزارسب	— ٦٧٣
(٥) يوسف شاه الأول بن الب ارغو	— ٦٨٧
(٦) افراسياب الأول بن يوسف	— ٦٩٦
(٧) نصرة الدين أحمد بن الب ارغو	— ٧٣٣
(٨) ركن الدين يوسف شاه الثانى بن أحمد	— ٧٤٠
(٩) مظفر الدين افراسياب الثانى بن يوسف شاه	— ٧٥٦
(١٠) شمس الدين هوشانج بن افراسياب الثانى	— ٧٨٠
(١١) أحمد	— ٨١٥
(١٢) أبو سعيد	— ٨٢٠
(١٣) حسين	— ٨٢٧
(١٤) غياث الدين	

وقد انتهت هذه الدولة على أيدى الدولة التيمورية

شاهات ارمينية

ابتدأت دولتهم سنة ٥٨٣ ومؤسسها هو الأمير سقمان القطبي بمدينة خلاط وكان مملوكا لقطب الدين اسماعيل السلجوقي صاحب مدينة من أذربيجان ومن ثم قيل له القطبي نشأ شهماً كافياً وكانت خلاط لبنى مروان وظلموا واشتهر عدل سقمان فاتفق أهل خلاط وكاتبوه فجاء وفتحوها له وسلموها إليه وهذه أسماء الملوك من هذا البيت

(١) سقمان القطبي	٤٩٣ — ٥٠٦

(٢) ظهير الدين إبراهيم شاه أرمن	— ٥٢١
(٣) أحمـــد	— ٥٢٢
(٤) ناصر الدين سقمان	— ٥٧٩
(٥) سيف الدين بكتيمور	٥٧٩ — ٥٨٩
كان مملوكا لهم وهو صاحب ميافارقين	
(٦) بدر الدين أق سنقر	٥٨٩ — ٥٩٤
اسمه هزار ديناري وهو مملوك أق سنقر وزوج ابنته	
(٧) المنصور محمد بن بكتيمور	٥٩٤ — ٦٠٣
(٨) عز الدين بلبان	— ٦٠٤

وقد انتهت دولتهم على أيدي الأيوبيين

الدولة الغورية

مما يضاف إلى الدول التي حدثت في هذا العهد الدولة الغورية وهي دولة قامت على أطلال الدولة السبكتكينية . تنسب هذه الدولة إلى مكان نشأتها وهو الغور وهو جبال وولاية بين هراة وغزنة وهي بلاد باردة واسعة موحشة وهي مع ذلك لا تنطوي على مدينة وأكبر ما فيها قلعة يقال لها فيروزكوه قام بهذه البلاد آل سام من سنة ٥٤٣ وملكوا ما كان يملكه آل سبكتكين من بلاد الغور وأفغان والهند ولم يزل ملكهم قائما إلى سنة ٦١٢

وأول من قام من هذا البيت قطب الدين محمد بن الحسين ملك بلاد الغور وصاهر بهرامشاه مسعود بن إبراهيم صاحب غزنة فعظم شأنه بهذه المصاهرة وعلت همته فعاجله بهرامشاه قبل أن يكون منه حدث عظيم فقتله فعظم قتله على الغورية وولوا بعده أخاه سيف الدين سوري بن الحسين فقوي أمره وتمكن في ملكه فجمع عسكرا كثيرا وسار إلى غزنة طالبا بثأر أخيه فلما وصل غزنة ملكها وهرب عنها بهرامشاه إلى الهند فجمع جموعا كثيرة وعاد إلى غزنة وهوى أهلها معه فخرج سوري إلى لقائه فلما تصاف العسكران أسلم سوري جنوده فقهره بهرامشاه وصلبه واستعاد ملك غزنة سنة ٥٤٤ وكان سوري أحد الأجواد له الكرم الغزير والمروءة العظيمة

اختار الغورية بعده أخاه علاء الدين حسين بن الحسن ولقبه جهان سوز فأعاد الكرة على غزنة سنة ٥٥٠ وملكها وأخرج عنها بهرامشاه واستعمل عليها أخاه سيف الدين محمدا وأجلسه على تخت المملكة وخطب لنفسه ولأخيه سيف الدين من بعده وتلقب علاء الدين بالسلطان المعظم وحمل الجتر على عادة السلاطين السلجوقية

ومات علاء الدين سنة ٥٥٦ فملك بعده غياث الدين محمد بن بهاء الدين سام بن الحسن وكان عضده الأقوى أخوه شهاب الدين محمد وقد حسنت سيرتهما وقويت جموعهما فملكا بلاد الغور والأفغان والهند وعلى يدهما انقرض ملك آل سبكتكين سنة ٥٨٢ بعد أن ملكوا ٢١٣ سنة تقريبا

ولما عظم ملك الغوريين وكثرت عساكرهم وأموالهم خطب لغياث الدين وتلقب بألقاب السلاطين وكان يدعى له على المنابر غياث الدين والدنيا معين الاسلام قسيم أمير المؤمنين

وامتد ملك غياث الدين وأخيه على معظم بلاد خراسان ومعظم بلاد الهند تيسر لهما فتح الكثير منها وتدويخ ملوكها وقد بلغا منهم مالم يبلغه أحد قبلهما من ملوك المسلمين وجعل مدينة دهلى كرسى الممالك متى فتحها من بلاد الهند وأقطعها مملوكه قطب الدين أيبك وقطب الدين هذا هو مؤسس بيت سلاطين دهلى الذين استمر ملكهم من سنة ٦٠٢ وهى السنة التى توفى فيها شهاب الدين الغورى إلى سنة ٦٨٦ وهذا ثبت ملوك هذا البيت :

(١) أيبك قطب الدين	٦٠٢ — ٦٠٧
(٢) أرم شاه	— ٦٠٨
(٣) التمش شمس الدين	— ٦٣٣
(٤) فيروزشاه الأول ركن الدين	— ٦٣٤
(٥) رضيا	— ٦٣٨
(٦) بهرام شاه معز الدين	— ٦٣٩
(٧) مسعود شاه علاء الدين	— ٦٤٤
(٨) محمود شاه الأول نصر الدين	— ٦٦٤
(٩) بلبن غياث الدين	— ٦٨٦

(١٠) كيقباذ معز الدين

وغياث الدين الغورى وأخوه شهاب الدين معدودان من ملوك الهند العظام والدولة الغورية هى ثانى مملكة هندية بعد الدولة السبكتكينية

وفى عهد المقتفى حصلت الحرب الصليبية الثانية وسببها أن الأفرنج بالشام رأوا من محمود نور الدين ماهالهم فقد استولى على كثير من معاقلهم وحصونهم فقرروا طلب الاعانة والنجدة من البابا أوجانيوس الثالث وأرسلوا لذلك رسلا أقامت عباراتهم الشديدة البابا وأقعدته وحركت من نفسه الغيرة وخشى أن يكون سلفه أسبق إلى الفوز منه فأرسل دعاته إلى فرنسا وملكها لويز السابع فأجاب الداعية وكان أعظم مؤثر فيهما أخبروا به من سقوط مملكة الرها بين يدى المسلمين وأرسلت الدعاة أيضا إلى ألمانيا وملكها كونراد الثالث فأجاب الداعية أيضا وكان لهذين الملكين الزعامة على جيوش هذه الحرب الثانية

وقد وصل إلى القسطنطينية أولا الملك كونراد الثالث بجيشه وكان ملكها عمانويل ابن اليكسيوس الأول وكان يخاف من الصليبيين على مملكته فكاد لهم المكايد ثم تلاه لويس السابع بجيوشه

ذهب الألمان أولا مجتازين بلاد قونية بلاد السلاجقة فلقيهم هؤلاء بحروب شديدة كسرت حدتهم وقتلت أكثرهم وجعلت زعيمهم يرتد خائبا كسيرا حتى قابل الجيوش الفرنسية فسار معهم بفلول جيشه حتى وصلوا إلى القدس بعد أن ذاقوا من العذاب ألوانا وذلك سنة ٥٤٢ وبعد أن زاروا المدينة المقدسة قرروا الذهاب إلى مدينة دمشق والاستيلاء عليها وكان صاحبها إذ ذاك آخر الدولة الأتابكية وهو مجير الدين أبق ابن محمد بن بورى بن طغتكين والأمر فى دولته لمولاه معين الدين أنز . سار الملكان بجنودهما ومعهما جنود افرنج الشام حتى وصلا دمشق سنة ٥٤٣ وحاصروها فزحف إليهم أهل البلد مجدين فى ردهم وأبلوا بلاء حسنا . كان معين الدين قد أرسل يستنجد بسيف الدين غازى صاحب الموصل فأجاب الداعى وأقبل حتى أتى حلب واستصحب منها أخاه محموداً نور الدين وسارا حتى أتيا حمص ولما علم الصليبيون بذلك خافوا أن يقعوا بين نارين فرحلوا عن دمشق خائبين ورجعوا إلى بلادهم من غير أن يحدثوا أثرا وفى سنة ٥٤٩ استولى محمود نور الدين على دمشق

هذه هى الدول التى ورثت ملك السلاجقة العظيم

نعود الآن إلى بيان الحال بعد وفاة السلطان مسعود قلنا إنه كان عهد إلى ابن أخيه ملكشاه وخطب له فعلا ولكن أحد قواد أبيه المعروف بخاص بك أرسل إلى الملك محمد بن محمود وهو بخوزستان يستدعيه وكان قصده أن يحضر عنده فيقبضه ويخطب لنفسه بالسلطنة فسار الملك محمد اليه فلما وصل أجلسه على تخت السلطنة وخطب له بها وخدمه وبالغ فى خدمته وحمل له هدايا عظيمة جليلة المقدار ثم إنه دخل الى الملك محمد ثانى يوم وصوله فقتله محمد ولم ينتطح فى قتله عنزان واستقر محمد فى السلطنة وأرسل إلى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد والعراق فامتنع من إجابته إلى ذلك فسار من همذان فى عساكر كثيرة نحو العراق ووصل اليها فى ذى الحجة سنة ٥٥١ وقد اهتم الخليفة ووزيره بأمر الدفاع عن بغداد وفرقا السلاح على الجند والعامة ونصبت المنجنيقات والعرادات وجرت بين الفريقين عدة حروب واشتد الحصار على أهل بغداد لانقطاع المواد عنهم وكان بعض الذين يساعدون السلطان محمدا لايناصحونه لأجل الخليفة والمسلمين ففتروا وقصروا وبينماهم على تلك الحال ورد خبر إلى السلطان محمد بأن أخاه ملكشاه بن محمود ومعه ايلدكز صاحب بلاد اران والملك ارسلان بن طغرل قد دخلوا همذان واستولوا عليها وأخذوا أهل الأمراء الذين مع محمد وأموالهم فلما سمع ذلك محمد جد فى القتال لعله يبلغ مناه فلم يقدر على شىء ورحل عنها نحو همذان فى أواخر ربيع الأول سنة ٥٥٢ ولما قارب همذان خرج منها خصومه خائبين خائفين

استقر محمد فى دار ملكه بأصفهان وصار العراق للخليفة لايشركه فيه أحد وكانت وفاة السلطان محمد والخليفة المقتفى فى زمنين متقاربين فأما محمد فانه توفى بهمذان سنة ٥٥٤ وقد اختلف قواده بعد موته اختلافا كثيرا فطائفة طلبوا أخاه ملكشاه وطائفة طلبوا عمه سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه وهم الأكثر وطائفة طلبوا أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه وأخيرا تم الأمر لأرسلان بن طغرل بواسطة المقدم يلدكز وكان هذا السلطان ربيبه

أما الخليفة المقتفى لأمر الله فانه توفى ثانى ربيع الأول سنة ٥٥٥ وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلى الآن وأول

خليفة تمكن من الخلافة وحكم عسكره وأصحابه من حين تحكم المماليك على الخلفاء من عهد المنتصر إلى الآن إلا أن يكون المعتضد وكان شجاعا مقداما مباشرا للحروب بنفسه وكان يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار في البلاد حتى كان لا يفوته منها شيء وكان حليما كريما عادلا حسن السيرة من الرجال ذوى الرأى والعقل الكبير

---

٣٢ — المستنجد بالله

هو أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى لأمر الله وأمه أم ولد اسمها طاوس رومية ولد سنة ٥١٠ وبويع بالخلافة عقب وفاة والده واستمر خليفة إلى أن مات فى تاسع ربيع الآخر سنة ٥٦٦

فكانت خلافته ١١ سنة وشهرا وأسبوعا

والمستنجد معدود من خيرة الخلفاء العباسيين ومن مآثره أنه لما ولى أزال المكوس والمظالم ولم يترك بالعراق منها شيئا وكان شديدا على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس قبض مرة على خبيث كان يسعى بالناس فأطال حبسه فشفع فيه بعض أصحابه المختصين بخدمته وبذل عنه عشرة آلاف دينار فقال الخليفة أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لى إنسانا آخر مثله لأكف شره عن الناس ولم يطلقه ورد كثيرا من الأموال على أصحابها أيضا

ومن أعماله أنه حل المقاطعات وأعادها إلى الخراج وهذا عمل حسن إلا أن بعض العلويين بالعراق تضرروا به ومن أجل ذلك يعدون هذا العمل من عيوبه وهو صلاح للجمهور

وكان ملك السلاجقة لعهده أرسلان شاه بن محمد بن ملكشاه ولم يكن له شيء من السلطان فى بلاد العراق نفسها بل استبد الخليفة بأمرها منذ عهد أبيه

---

٣٣ — المستضىء بالله

هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله وأمه أم ولد أرمنية تدعى غضه . بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه وكان عادلا حسن السيرة فى الرعية كثير البذل للأموال غير مبالغ فى أخذ ماجرت العادة بأخذه وكان الناس معه فى أمن عام وإحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يروا مثله وكان حليما قليل المعاقبة على الذنوب محبا للعفو والصفح عن المذنبين فعاش حميدا ومات سعيدا . وكانت وفاته ثانى ذى القعدة سنة ٥٧٥

وفى عهده انقرضت الدولة الفاطمية بمصر وظهرت الدولة الأيوبية بهمة مؤسسها المقدام صلاح الدين الأيوبى يوسف بن أيوب الذى ظهر فى كنف محمود نور الدين الشهيد وكان ذلك فى محرم سنة ٥٦٧ حيث قطعت خطبة الخليفة العاضد لدين الله واستيفاء ذلك فى تاريخ مصر والذى خطب له من العباسيين هو المستضىء بالله

وفى عهده توفى خوارزمشاه ايل ارسلان بن اتسز وملك بعده ابنه سلطانشاه بتدبير أمه ولما علم بذلك أخوه الأكبر علاء الدين تكش جمع العساكر وقصد خوارزم فاستولى عليها واستقل بالملك

وفى عهده توفى الرجل العظيم ذو القدم الثابتة فى فعال الخير وفى جهاد الأفرنج وهو محمود نور الدين بن زنكى وكان قد اتسع ملكه جدا وخطب له بالحرمين وباليمن ومصر وسوريا وقد طبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله قال ابن الأثير فى تاريخه وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحريا منه للعدل وله أخبار حسان ألفت فيها الكتب خاصة

———

«٣٠»

٣٤ ــ الناصر لدين الله

هو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله بن المستضيء بن المستنجد وأمه أم ولد تركية اسمها زمرد

بويع بالخلافة بعد وفاة والده المستضيء فى ٢ ذى القعدة سنة ٥٧٥ (٣٠مارس سنة ١١٨٠) ولم يزل خليفة إلى أن توفى فى آخر ليلة من رمضان سنة ٦٢٢ (٦ أكتوبر سنة ١٢٢٥) فكانت خلافته ٤٦ سنة وعشرة أشهر و ٢٨ يوماوهو أطول خلفاء بنى العباس مدة ولم يزد عليه من خلفاء الفاطميين إلا المستنصر بالله معه فانه ولى ٦٠ سنة ولا من خلفاء بنى أمية بالأندلس إلا عبد الرحمن الناصر فانه ولى ٥٠ سنة

حال الممالك الاسلامية لعهده

كان فى الأندلس وشمال أفريقية دولة الموحدين . وفى عهد الناصر ابتدأت الدولة المرينية بمراكش أسسها عبد الحق المرينى سنة ٥٩١ وهو من أعقاب الموحدين

وكان بمصر واليمن والحرمين وسوريا الدولة الأيوبية التى أسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٤

وكان بالموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر بقايا دول الأتابكية

وكان بقونية دولة سلاجقة الروم

وكان ببلاد الجبل والعراق من السلاجقة السلطان طغريل الثانى وهو آخر سلاجقة العراق

وكان بخوارزم وخراسان وما إليها الدولة الخوارزمشاهية والقائم بالأمر منهم السلطان تكش بن ايل أرسلان إلى سنة ٥٩٦ ثم علاء الدين محمد إلى سنة ٦١٧ ثم جلال الدين منكبرتى إلى سنة ٦٢٨ وهو آخرهم

وكان بالغور والأفغان والهند الدولة الغورية

فى عهد الناصر لدين الله انتهى ملك السلجوقيين بالعراق سنة ٥٩٠ بقتل طغريل ابن الب أرسلان على يد خوارزمشاه علاء الدين تكش الذى اتسع ملكه جدا فصار

ملكه ممتدا من أقاصى بلاد ماوراء النهر شرقا إلى بلاد الرى التى أخذها بعد القضاء على السلاجقة ولكن ملكه لم يكن بالرى ثابتا فان الخليفة الناصر قد طمع أن تكون البلاد له بعد رحيل خوارزمشاه عنها فأرسل إليها جندا مع وزيره فاستردها بعد أن حارب عسكر خوارزمشاه لكن ذلك لم يطل فان خوارزمشاه لما بلغه ذلك رجع لحارب عسكر الخليفة وأخذ البلاد منهم وفى سنة ٥٩٦ توفى وخلفه ابنه قطب الدين خوارزمشاه محمد وزاد ملكه اتساعا

كان هوى خوارزمشاه بعد اتساع ملكه أن يتشرف بذكر اسمه على منابر بغداد فيخطب له بدل السلاجقة فأبى الخليفة ذلك عليه فاشتدت العداوة بينهما حتى قطع خوارزمشاه خطبة الناصر من منابر بلاده فاستحكمت حلقات الفساد وهذا الذى جعل كثيرا من المؤرخين يعتقد أن خروج التتر إنما كان باستدعاء الناصر لدين الله وليس هذا ببعيد وكان قصده على مايظهر أن يشتغل بهم خوارزمشاه فتخف عنه وطأته وقد اعتادوا ذلك من قبل

الحادث العظيم فى البلاد الاسلامية

إغارة المغول والتتار

من أكبر الحوادث فى التاريخ الاسلامى خروج طوائف المغول والتتر إلى البلاد الاسلامية واستيلاؤهم على معظمها فى آسيا وشرقى أوربا وأول فتح هذا الباب كان على يدى جنكيزخان المغولى وخوارزمشاه محمد بن تكش الخوارزمى

التتر شعب كبير من الأمة التركية ومنه تتفرع معظم بطونها وأفخاذها وهو مرادف للترك عند الافرنج حتى إنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تترا ومنهم العثمانيون والتركمان وقرمان وغيرهم وكانوا مشهورين عند قدماء اليونان باسم سيتيا أو اسكوتيا ومؤرخو الترك ونسابوهم يقولون ألنجه خان أحد ملوك الترك فى الأزمنة القديمة ولد له ولدان توأمان هما تتارخان ومغل خان نحو ربيعة ومضر فى الأمة العربية

وقد استمر أولادهما على صفاء ووداد إلى أن وقع النزاع بين الشعبين فى عهد ايلخان ملك المغل وسونج خان ملك التتر وجر هذا النزاع إلى حروب طويلة انتصر

فيها التتار وقتل ايلخان ملك المغل وصارت السيادة من ذلك الوقت للتتر فاستعبدوا المغل مدة طويلة إلى أن جمع المغل جموعهم واتحدوا فقاموا بحرب التتر وكسروا شوكتهم واستردوا ماضاع من حريتهم فعادت السيادة من ذلك الوقت إلى المغل وصار الملك متوارثاً فيهم إلى زمن يسوكى بهادرخان والد كنجيز

ولد جنكيزخان سنة ٥٤٩ وكان اسمه فى صغره تموجين . توفى أبوه وسنه ١٣ سنة ثم مات بعده مدبر دولته سوغه جمش فاستضعفت قبائل المغل تموجين فتفرقوا عنه وكان ذلك سبباً لحصول الفتن وتمادى الحروب بينهم

ولما كان لتموجين من الهمة العالية والعزيمة الملوكية التى لاتساويها عزيمة اجتهد فى أن يلم شعث قومه فنجح فى ذلك نجاحا عظيما وعادت قبائل المغل إلى الانضمام اليه وكثرت جموعه وعظم أمره لحارب جميع القبائل التركية وانتصر عليهم جميعا بعد حروب شديدة ودخل تحت طاعته جميع زعمائهم فصارت له مملكة واسعة مسكونة بتلك الأمم التى لايعلم عددها إلا الله . وعاصمة ملكه مدينة قراقروم

ولما لم يبق له معارض فكر فى ترقية هذا المجتمع العظيم بوضع قانون يكون لهم ديناً يسيرون على مقتضاه فوضع لهم الياساق أو الياسة وهى كتابهم الذى اليه يرجعون فى معاملاتهم وأحكامهم وكانت عندهم كالقرآن عند المسلمين لايستجيزون أن يخلوا بشىء منها

ومما شرعه فيها أن من زنى يقتل لافرق بين محصن وغيره . ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس على أحد أو دخل بين اثنين وهما يتخاصمان وأعان أحدهما على الآخر قتل . ومن بال فى الماء أو على الرماد قتل . ومن أعطى بضاعة فخسر فيها فانه يقتل بعد الثالثة . ومن أطعم أسير قوم أو كساه بغير اذنهم قتل . ومن وجد عبداً هارباً أو أسيرا قد هرب ولم يرده على من كان فى يده قتل . وأن الحيوان تكتف قوائمه ويشق بطنه ويمرس قلبه إلى أن يموت ثم يؤكل لحمه . وأن من ذبح حيواناً كذبيحة المسلمين ذبح . ومن وقع حمله أو قوسه أو شىء من متاعه وهو يكر أو يفر فى حال القتال وكان وراءه واحد فانه ينزل ويناول صاحبه ماسقط منه فان لم ينزل ولم يناوله قتل . وشرط أن لا يكون على أحد من ولد على بن أبى طالب مؤنة ولا كلفة . وأن لا يكون على أحد من الفقراء ولا القراء ولا الفقهاء ولا الأطباء ولا من عداهم

من أرباب العلوم وأصحاب العبادة والزهد والمؤمنين ومغسلى الأموات كلفة ولا مؤنة وشرط تعظيم جميع الملل من غير تعصب لملة على أخرى وجعل ذلك كله قربة إلى الله تعالى . وألزم قومه أن لا يأكل أحد من يد أحد حتى يأكل المناول منه أولا ولو أنه أمير ومن يناوله أسير . وألزمهم أن لا يتخصص أحد بأكل شيء وغيره يراه بل يشركه معه فى أكله . وألزمهم أن لا يتميز أحد بالشبع على أصحابه ولا يتخطى أحد نارا ولا مائدة ولا الطبق الذى يؤكل عليه . وإن مر بقوم وهم يأكلون فله أن ينزل ويأكل معهم من غير إذنهم وليس لأحد منهم منعه . وألزمهم الا يدخل أحد منهم يده فى الماء ولكن يتناول الماء بشيء يغترفه به . ومنعهم من غسل ثيابهم بل يلبسونها حتى تبلى . ومنع أن يقال لشيء إنه نجس وقال جميع الأشياء طاهرة ولم يفرق بين طاهر ونجس وألزمهم أن لا يتعصبوا لشيء من المذاهب . ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب وإنما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط . وألزم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أراد الخروج إلى القتال وأنه يعرض كل ما سافر به عسكره وينظر حتى الابرة والخيط فمن وجده قصر فى شيء مما يحتاج إليه عند عرضه إياه عاقبه وألزم نساء العسكر القيام بما على الرجال من السخر والكلف فى مدة غيبتهم فى القتال وجعل على العساكر إذا قدمت من القتال كلفة يقومون بها للسلطان ويؤدونها إليه . وألزمهم عند رأس كل سنة بعرض بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه وأولاده . ورتب لعساكره أمراء وجعلهم أمراء ألوف وأمراء مئين وأمراء عشرات . وشرع أن أكبر الأمراء إذا أذنب وبعث إليه الملك أخس من عنده حتى يعاقبه فانه يلقى بنفسه بين يدى الرسول وهو ذليل خاضع حتى يمضى فيه ما أمر به الملك من العقوبة ولو كانت بذهاب نفسه وألزمهم أن لا يتردد الأمراء لغير الملك فمن تردد منهم لغير الملك قتل . ومن تغير عن موضعه الذى يرسم له بغير إذن قتل وألزم السلطان باقامة البريد حتى يعرف أخبار مملكته بسرعة

﴿ تنبيه ﴾ كان من هذه الياسة نسخة بخزانة المدرسة المستنصرية ببغداد . روى المقريزى فى خططه عن أحمد بن البرهان أنه رآها ومنه نقلنا ما ذكرنا

خروج المغول إلى البلاد الاسلامية

قد اكثر المؤرخون فى ذكر الأسباب التى دعت جنكيزخان وقومه للخروج إلى البلاد الاسلامية فقال بعضهم إن خوارزمشاه لما أظهر الخلاف على الناصر لدين الله وقطع خطبته من بلاده وأراد أن يذهب إلى بغداد للاستيلاء عليها أرسل الناصرلدين الله إلى جنكيزخان يحرضه على الخروج إلى خوارزمشاه والتعرض لمملكته يريد بذلك أن تنكسر شوكة خوارزمشاه ويشتغل عنه بنفسه وقد سبق لخلفاء بنى العباس أن فعلوا ذلك مرارا فهم الذين راسلوا بنى بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك البغداديين وتحكمهم فيهم وهم الذين راسلوا طغرلبك شاه السلجوقى ليخلصهم من تحكم البساسيرى حينما أراد تحويل الدعوة إلى المصريين الفاطميين وهم الذين راسلوا خوارزمشاه ليخلصهم من السلاجقة ولكن الفرق أن هؤلاء كلهم كانوا مسلمين وأما المغل فكانوا كفارا ولا نبدى هذا الفرق استبعادا للمكاتبة لأن ذا الملك لايبالى بما يفعل لتخليص ملكه ولم يكن الخليفة يبغى إلا أن المغول يشغلون عنه خوارزمشاه فتكون العدواة بين الرجلين ضامنة لاستقلاله كما أنه لم يكن يظن أن يكون من التتر ما كان لأن بينهم وبين العراق أمكنة مترامية الأطراف وبينه وبينهم ذلك الأسد الهصور ولم يكن يظن به من الضعف مايجعله يجفل أمام جنكيزخان كالحمامة تجفل من صقرها . وهذا السبب وإن كان مطمعا لجنكيزخان فى البلاد الاسلامية ولكنه كان يتطلب سببا آخر يبيح له فتح باب الحرب على خوارزمشاه فيقال إنه فى سنة ٦١٢ أرسل رسلا إلى خوارزمشاه وكانوا من كبار المسلمين الذين يقيمون ببلاده يطلب منه أن يعاهده لتردد التجارة من كل جانب إلى الآخر وأرسل اليه هدايا عظيمة المقدار فلما وصلت الرسل إلى خوارزمشاه أجاب إلى ذلك فرجعوا إلى جنكيزخان مسرورين من تمام ماأرسلوا له فاستبشر بذلك جنكيزخان ومكث الأمر على سداد مدة والتجار والزوار يترددون آمنين مطمئنين

وفى سنة ٦١٥ سافر تجار من بلاد جنكيزخان حتى وصلوا إلى بلدة أترار وهى بلدة بثغر خوارزمشاه بساحل نهر سيحون (سرداريا) وبها وال كان من قبله فلما

ورد عليه هؤلاء التجار وكانوا زهاء ٤٠٠ نفس ومعهم أموال جسيمة طمع ذلك الوالى فى أخذ أموالهم فارسل قاصدا إلى خوارزمشاه يخبره أن جواسيس جنكيزخان قد قدموا فى زى تجار فأمره بقتلهم واستصفاء أموالهم فسارع ذلك الوالى المشؤم إلى ذلك وأرسل إلى خوارزمشاه ما كان معهم من الأموال فأخذها وفرقها على تجار بخارى وسمرقند وأخذ منهم ثمنها . فلما بلغ علم ذلك إلى جنكيزخان أخذه المقيم المقعد وأرسل إلى خوارزمشاه يخبره بصورة الحال ويطلب منه غايرخان ذلك الوالى ليقتص منه فلم يكن من الأحمق خوارزمشاه إلا أن قتل الرسول فلما بلغ ذلك جنكيزخان استشاط غضبا وصمم على قصده وحربه . وعلم خوارزمشاه أنه قد استهدف بعمله لحرب تلك الأمة العظيمة وزاد الطين بلة بأن جمع عساكره وسار بادئا بالعدوان حتى وصل تخوم تركستان وهجم على بلاد عدوه فلقى هناك جموعا قليلة متخلفة فى النساء والصبيان لأن جنكيزخان كان غائبا بجنده فى داخل بلاده فلم يمكن خوارزمشاه أن ينتصر على هذا العدو القليل فعلم أن له يوما ضروسا اذا تحرك عليه جنكيز وهو لا بد فاعل فأمر خوارزمشاه سكان تلك المدن العظيمة التى على حدود بلاده أن يجلوا عنها خوفا عليهم من التتر وكانت من جنان الدنيا فأصبحت بذلك بلاقع وسهل بهذا العمل السبيل إلى عدوه ثم عاد أما جنكيزخان فانه جمع عساكره الجرارة التى تفوت عد العادين وعبر نهر سيحون وليس أمامه من يناوشه قتالا أو يشغله عن قصده وسار حتى أتى بخارى وكان بها عشرون ألفا من الجنود الخوارزمية فلم يكن عندهم طاقة بمادهمهم من ذلك البحر الزاخر فتركوا المدينة من غير حام فأرسل أهلها القاضى بدر الدين قاضيخان يطلب الأمان للناس فأمنهم جنكيز ودخل هو وجنده البلد فى رابع ذى الحجة سنة ٦١٦ وأعلن أهله بأن كل ماهو للسلطان عندكم من ذخيرة وغيرها أخرجوه الينا ثم طلب رؤساء البلد وقال لهم أريد منكم أمتعة التجار التى باعكم إياها خوارزمشاه فانها لى ومن أصحابى أخذت وهى عندكم فأحضر كل من كان عنده شىء منها ماعنده ثم أمرهم بالخروج من البلد فخرجوا منها مجردين من أموالهم واعمل التتر النهب فى البلد وقتلوا من وجدوا فيه ثم أمر أصحابه أن يقتسموا الناس فاقتسموهم وأصبحت بخارى تلك المدينة العظيمة خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس

ثم رحلوا نحو سمرقند وهى قصبة ماوراء النهر والمصر الجامع لعلمائه وأدبائه وثروته واستصحبوا معهم من سلم من أهل بخارى فساروا بهم مشاة على أقبح صورة ومن أعيا عن المشى قتل

ولما وصلوا سمرقند كان بها خمسون ألفاً من جند خوارزمشاه لحاموا عن اللقاء لما دخل قلبهم من الرعب والخور أما أهل البلد فخرج منهم ذوو الجلد والقوة فقاتلتهم العساكر الجنكيزية ظاهر البلد واحتالوا عليهم بأن تقهقروا أمامهم وأهل سمرقند يتبعونهم ويطمعون فيهم حتى أبعدوا عن معقلهم وكان المغول قد أعدوا لهم كميناً يأتيهم من خلفهم فلما جاوزوا الكمين خرج عليهم وحال بينهم وبين البلد ورجع عليهم الباقون من الأمام فأخذهم السيف من كل جانب وقتل عظمهم ولما رأى ذلك الباقون بالبلد من الجند والعامة ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فقال الجند نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا لأن الكل أتراك فطلبوا الأمان فأمنوا وفتحت البلد فخرجوا إلى التتر بأهلهم وأموالهم فطلبوا منهم أن ينزعوا أسلحتهم فنزعوها وإذ ذاك وضعوا فيهم السيف وقتلوهم عن آخرهم وفى اليوم الرابع نادوا فى البلد أن لايتأخر بها أحد ومن تأخر قتلوه وهكذا فعل التتر بسمرقند مافعلوه ببخارى وكان ذلك فى المحرم سنة ٦١٧

ولما تم لجنكيز ملك سمرقند سير عشرين ألفاً من أشداء جنوده وقال لهم اطلبوا خوارزمشاه أين كان ولو تعلق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه فساروا وعبروا جيحون وكان خوارزمشاه مقيما بغربيه يستعد وقد ملىء قلبه رعباً فلما علم بقدوم التتر عليه لم ير إلا أن ينهزم عنهم قبل أن يحصل بينهم وبينه صدام وقتال ورحل لايلوى على شيء وقصد مدينة نيسابور فلم يكد يستقر بها حتى أدركه جنود التتر فطار إلى مازندان والتتر على أثره ولم يعرجوا على نيسابور فكان كلما رحل عن منزلة نزلوها فوصل إلى مرسى من بحر طبرستان ونزل يريد قلعة له فى البحر فلما نزل هو وأصحابه فى السفن وصل التتر فأيسوا من اللحاق به فعادوا عنه وكان ذلك آخر العهد به

وهذه الفرقة من التتر تسمى التتر المغربة لأنهم ساروا إلى غرب خراسان وتشبه هذه الفرقة فرقة السلاجقة العراقية التى قصدت البلاد الاسلامية بالتخريب والافساد قبل أن ينساح السلاجقة ويستولوا على البلاد . ولما أيس التتر من اللحاق

به ساروا إلى مازندران فملكوها فى أسرع وقت مع حصانتها وصعوبة الدخول إليها وامتناع قلاعها . ثم ساروا نحو الرى وقد انضم إليهم كثير من عساكر المسلمين والكفار ومن المفسدين من يريد النهب والشر وهم كثيرون فوصلوا إلى الرى على حين غفلة من أهلها فملكوها وفعلوا بها الأفاعيل وكانوا ينهبون فى طريقهم كل قرية مروا عليها . ثم ساروا إلى همذان فطلب صاحبها الأمان فأمنوه هوومن معه ثم وصلوا إلى قزوين فدخلوها عنوة ويقال إن من قتل من أهلها يبلغون أربعين ألفاً . ثم ساروا إلى أذربيجان فوصلوا إلى تبريز وبها صاحب البلاد أوزبك بن البهلوان فلم يخرج إليهم ولا حدثته نفسه بقتالهم لاشتغاله بما هو بصدده من إدمان الشراب ليلا ونهاراً لا يفيق وإنما أرسل إليهم وصالحهم فساروا عنه إلى ساحل البحر ليشتوا فيه فوصلوا إلى موقان وتطرقوا فى طريقهم إلى بلاد الكرج فخار بهم أهلها لكنهم انهزموا فأرسلوا إلى أوزبك خان يطلبون منه أن يتفق معهم على دفع التتر وكذلك أرسلوا إلى الملك الأشرف ابن العادل الأيوبى صاحب خلاط وديار الجزيرة يطلبون منه الانضمام إليهم وظنوا جميعا أن التتر لا يتحركون حتى ينحسر الشتاء فلم يفعلوا ذلك بل ساروا نحو الكرج وانضاف إليهم مملوك من مماليك أوزبك اسمه أقوش وجميع أهل تلك الجبال والصحراء من التركمان والأكراد وغيرهم فاجتمع إليه خلق كثير وأرسل التتر فى الانضمام إليهم فأجابوا إلى ذلك للجنسية فاجتمعوا جميعا حتى وصلوا تفليس فاجتمعت الكرج وخرجت بحدها وحديدها لكن ذلك لم يجدهم شيئا فانهزموا أقبح هزيمة وركبهم التتر من كل جانب فقتل منهم مالا يحصى وكانت الوقعة فى ذى القعدة سنة ٦١٧ .

ولما دخلت سنة ٦١٨ كروا راجعين إلى مدينة مراغة فملكوها عنوة ووضعوا السيف فى أهلها ونهبوا كل ماصلح لهم ومالا يصلح أحرقوه ثم رحلوا عنها قاصدين اربل لكنهم هابوا الهجوم عليها لخوفهم أن تجتمع بالجنود عليهم من العراق وغيرها فعادوا إلى همذان وساروا إلى بلاد أذربيجان ومنها ساروا إلى دربند شروان فاستولوا على مدينة شماخى عنوة وخرجوا من الدربند إلى البلاد الشمالية وهى دشت القفجاق وفيها أمم كثيرة تركية فأمعن التتر فيهم قتلا وسبيا والذى لقى حد هذه الحروب أمة القفجاق فكثر فيهم القتل والأسر فتفرقوا أيدى سبا فى جميع الأقطار

وكان هذا أول ورود المماليك القفجاقية على البلاد المصرية فاشترى منهم الصالح نجم الدين أيوب مماليكه البحرية ملوك مصر بعد الدولة الأيوبية ومنهم المعزايبك والمظفر قطز والمنصور قلاوون وغيرهم

ثم قصد التتر بعد ذلك بلاد الروس فاتفق هؤلاء مع فلول القفجاق أن يكونوا يدا واحدة ضد التتر ومع هذا فكان الظفر للتتر وانهزم عنهم الروس والقفجاق اقبح هزيمة ونهب التتر بلادهم ثم عادوا عنهم وقصدوا بلغار أواخر سنة ٦٢٠ فلما سمع أهل بلغار بقربهم منهم كمنوا لهم فى عدة مواضع واستجروهم إلى أن جاوزوا موضع الكمناء فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فقتل منهم كثير

هذه أخبار طائفة صغيرة من طوائف التتر وما فعلته

أما جنكيزخان فانه لما سير تلك الطائفة لطلب خوارزمشاه أقام بسمرقند وهناك سير جيشا عليه أحد أولاده لملك خراسان فعبروا النهر وقصدوا مدينة بلخ فطلب أهلها الأمان فأمنوهم وتسلموا البلد سنة ٦١٧ ولم يتعرضوا له بنهب ولا قتل بل جعلوا فيه شحنة ثم صاروا يستولون على تلك البلاد شيئا بعد شيء دون صعوبة أو مقاومة ولذلك لم يكونوا يتعرضون لأهلها بسوء ولا أذى سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم ولم يمض إلا القليل حتى دخل معظم البلاد الفارسية تحت حكم التتر

وأرسل جيشا آخر وجهته الشمال ليملك دشت القفجاق وكان الأمر قد تهيأ لهم بما فعله التتر المغربة من إضعاف القوى التى كانت بهاتيك البلاد على أنها لم تكن قوى مجتمعة يخشى بأسها بل كانوا طوائف شتى لا جامعة لهم فسهل على الجيش الجنكيزى أن يستولى على الدشت كله فى أسرع ما يمكن

فتم بذلك لجنكيز مملكة عظيمة واسعة مترامية الأطراف تبتدئ شرقا من بلاد الصين وتنتهى غربا إلى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الروس وجنوبا ببلاد الهند وشمالا بالبحر الشمالى كل ذلك تم له فى مدة قصيرة

ولما أحس بقرب منيته قسم الممالك الجنكيزية إلى أربعة أقسام بين أبنائه الأربعة وهم جوجى وجغطاى وتولى وأوكداى

فجعل دشت قفجاق بأسرها وبلاد الداغستان وخوارزم وبلغار والروس وما يؤمل

أخذه إلى منتهى المعمورة وسواحل البحر الغربي لولده الأكبر جوجى

وجعل بلاد أيغور والتركستان وما وراء النهر بأسره لولده الثانى جغطاى

وجعل خراسان وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقين إلى منتهى حوافر خيولهم لولده الثالث تولى خان

وجعل بلاده الأصلية والخطا والصين إلى منتهى المعمورة الشرقى لولده الرابع أوكداى وجعله ولى عهده من بعده ويصير قاآنا على الكل أو ملك الملوك وهو عندهم بمنزلة الخليفة عند المسلمين وأمر الباقين بمتابعته وكذا كل من يصير قاآنا من ذريته يجب على الباقين طاعته واتباعه ومن خالفه يجب على الباقين حربه حتى يفيء إلى يساق جنكيزخان

هكذا قدر الرجال لعظم همته أن يملك أولاده الدنيا بأسرها ولا يبقى فيها لغيرهم كلمة ولا سلطان ولولا ما حصل من الخلاف بعده لتم كل ما توقعه

وفى سنة ٦٢٤ أدركته منيته وكان الخليفة العباسى حين وفاته المنصور المستنصر بالله ابن محمد الظاهر

. وجد من آل جنكيزخان أربعة بيوت ورثت الملك وتمت الفتح حتى تهيأ لها أن تملك معظم بلاد المسلمين وجزءا كبيرا من أوربا

وبيت تولى هو الذى كان على يده سقوط الخلافة العباسية ببغداد وامتداد سلطان التتر على الجزيرة والشام وبلاد الروم وسنذكر ذلك فى حينه

حصلت هذه الحوادث الكبرى وخليفة بغداد لاه بما هو فيه من عسف الناس وظلمهم فقد كان قبيح السيرة فى رعيته ظالما فخرب فى أيامه العراق وتفرق أهله فى البلاد وأخذ أملاكهم وأموالهم وكان كثيرا ما يفعل الأشياء ثم ينقضها وجعل جل همه فى رمى البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة فبطلت الفتوة فى البلاد جميعها إلا من يلبس منه سراويل يدعى إليه ولبس كثير من الملوك منه سراويلات الفتوة وكذلك منع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره ومنع الرمى بالبندق إلا من ينتمى إليه . هذه كانت مشاغله العجيبة والتتر يعنون فى بلاد المسلمين

قتلا وأسرا وتخريبا ومع ذلك أثنى عليه ابن طباطبا في تاريخه الموسوم بالفخرى ثناء جما ومن ضمن ما وصفه به أنه كان يرى رأى الأمامية والظاهر أن هذا هو الذى حببه إلى المؤرخ المذكور

بقى الناصر فى أواخر أيامه ثلاث سنين عاطلا عن الحركة وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصارا ضعيفا وفى آخر الأمر أصابه دوسنطاريا عشرين يوما وكانت بها منيته

---

٣٥ ـ الظاهر بأمر الله

هو أبو نصر محمد الظاهر بأمر الله بن الناصر بويع بالخلافة عقب موت أبيه وكان ولى عهده واستمر خليفة إلى ١٤ رجب سنة ٦٢٣ فكانت خلافته تسعة أشهر و ١٤ يوما لما ولى أظهر من العدل والاحسان ماأعاد به سنة العمرين قال ابن الأثير فلو قيل إنه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لمكان القائل صادقا فانه أعاد من الأموال المغصوبة فى أيام أبيه وقبله شيئاً كثيرا وأطلق المكوس فى البلاد جميعها وأمر باعادة الخراج القديم فى جميع العراق وأن يسقط جميع ماجدده أبوه وكان كثيرا لايحصى . ولما أمر بأخذ الخراج الأول من جميع البلاد حضر كثير من أهل العراق وذكروا أن الأملاك التى كان يؤخذ منها الخراج قديماً قد يبس أكثر أشجارها وخرجت ومتى طولبوا بالخراج الأول لايفى دخل الباقى بالخراج فأمر ألا يؤخذ الخراج إلا من كل شجرة سليمة وأما الذاهب فلا يؤخذ منه شىء . ومن أعماله أن المخزن كان له صنجة الذهب تزيد على صنجة البلد نصف قيراط يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التى للبلد يتعامل بها الناس فسمع بذلك فخرج خطه إلى الوزير وأوله ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . قد بلغنا كذا وكذا فتعاد صنجة المخزن إلى الصنجة التى يتعامل بها المسلمون واليهود والنصارى ــ فكتب بعض النواب اليه يقول إن هذا مبلغ كبير وقد حسبناه فوجدناه فى السنة الماضية ٣٥ ألف دينار . فأعاد الجواب ينكر على القائل ويقول لو أنه . ٣٥ ألف دينار يطلق وكذلك أيضا فعل فى إطلاق زيادة الصنجة التى للديوان وهى فى كل دينار حبة ـ وتقدم إلى القاضى أن كل من عرض عليه كتابا صحيحا بملك يعيده اليه من غير إذن ومنها أن العادة كانت فى بغداد أن الحارس بكل درب يبكر ويكتب مطالعة فى الخليفة بما تجدد فى دربه من اجتماع بعض الأصدقاء ببعض على نزهة أو سماع أو غير ذلك ويكتب ماسوى ذلك من كبير وصغير فكان الناس من هذا فى حجر عظيم فلما ولى الظاهر أتته المطالعات على العادة فأمر بقطعها وقال اى غرض لنا فى معرفة أحوال الناس فى بيوتهم فلا يكتب أحد لنا إلا مايتعلق بمصالح دولتنا فقيل له إن العامة تفسد بذلك ويعظم شرها

قال إنا ندعو الله أن يصلحهم . ومنها أنه لما ولى الخلافة وصل صاحب الديوان من واسط وكان قد سار اليها أيام الناصر لتحصيل الأموال فأصعد ومعه مايزيد على مائة ألف دينار وكتب مطالعة تتضمن ذكر مامعه ويستخرج الأمر فى حمله فأعاد الجواب بأن يعاد إلى أربابه فلا حاجة لنا اليه فأعيد عليهم . ومنها أنه أخرج كل من كان فى السجون وأمر باعادة ماأخذ منهم وأرسل إلى القاضى عشرة آلاف دينار ليعطيها عن كل من هو محبوس فى حبس الشرع وليس له مال

ولم يزل كل يوم يزداد من الخير والاحسان إلى الرعية فجدد من العدل ما كان دارسا وأذكر من الاحسان ما كان منسيا . وقبل وفاته أخرج توقيعا إلى الوزير بخطه على أرباب الدولة وقال الرسول أمير المؤمنين يقول ليس غرضنا أن يقال برز مرسوم أو نفذ مثال ثم لايبين له أثر بل أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال . وقد قرئ التوقيع فاذا فى أوله بعد البسملة (اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالا ولا إغضاؤنا إغفالا ولكن لنبلوكم أيكم أحسن عملا وقد عفونا لكم ماسلف من إخراب البلاد وتشريد الرعايا وتقبيح الشريعة وإظهار الباطل الجلى فى صورة الحق الخفى حيلة ومكيدة وتسمية الاستئصال والاجتياح استيفاء واستدارا كالأغراض انتهزتم فرصها مختلسة من براثن ليث باسل وأنياب أسد مهيب تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى وأنتم أمناؤه وثقاته فتميلون رأيه إلى هواكم وتمزجون باطلكم بحقه فيطيعكم وأنتم له عاصون ويوافقكم وأنتم له مخالفون والآن قد بدل الله سبحانه بخوفكم أمناً وبفقركم غنى وبباطلكم حقاً ورزقكم سلطانا يقيل العثرة ولا يؤاخذ إلا من أصر ولا ينتقم إلا ممن استمر يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم يخاف الله ويخوفكم مكره ويرجو الله تعالى ويرغبكم فى طاعته فان سلكتم مسالك نواب خلفاء الله فى أرضه وأمنائه على خلقه وإلا هلكتم والسلام)

ولم تتمع الأمة بهذا الخليفة طويلا فانه لحق بربه قبل أن تمر سنة على خلافته

٣٦ — المستنصر بالله

هو أبو جعفر المنصور المستنصر بالله بن الظاهر

بويع بالخلافة يوم وفاة والده ١٤ رجب سنة ٦٢٣ (١١ يوليه سنة ١٢٢٦) واستمر فى الخلافة إلى أن توفى لعشرين خاون من جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ (٥ ديسمبر سنة ١٢٤٢) فكانت خلافته ١٧ سنة إلا شهرا

كان المستنصر شهماً جواداً يبارى الريح كرماً وجوداً وله الآثار الجليلة فى بغداد منها وهى أعظمها المدرسة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقى مما يلى دار الخلافة وبنى غيرها من القناطر والخانات والربط ودور الضيافة وكان يقول إنى أخاف ألا يثيبنى الله على ماأهبه وأعطيه لأن الله تعالى يقول «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» وأنا والله لافرق عندى بين التراب والذهب

ولما ولى سلك فى الخير والاحسان إلى الناس سيرة أبيه وأمر فنودى ببغداد بافاضة العدل وأن من كانت له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته

وفى عهده توفى ملك المغول الكبير جنكيزخان سنة ٦٢٤ وحل محله فى بلاد خراسان وما وراءها ابنه تولى خان فوسع مملكته إلى الغرب وأرسل فرقة إلى بلاد أذربيجان فملكتها وأجلت عنها جلال الدين منكبرتى وخافهم أهل أذربيجان خوفا شديداً ولم يكن أمامهم من يرد غائلتهم بعد جلال الدين الذى لم يجد له نصيراً لأنه وتر الملوك المجاورين له طرا

قال ابن الأثير تعليقا على هذه الحال (فما نرى من ملوك الاسلام من له رغبة فى الجهاد ولا فى نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندى من العدو قال الله تعالى (واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة)

وكان مقتل جلال الدين فى منتصف شوال سنة ٦٢٨ قتل شريدا طريدا لم يفده هذا الملك العظيم الذى ورثه عن أبيه وبهلاكه تم للمغول ملك جميع البلاد الفارسية إلى حدود العراق ولم يتهيأ للملوك أن يتفقوا ضد هذا العدو الشديد المراس بل كانوا فيما بينهم مختلفين يغير بعضهم على بعض وهم عن عدوهم لاهون غافلون . صار العراق ينتظر النكبة منهم من آن إلى آن وخليفة بغداد مستسلم للحوادث مدل بمركزة الدينى

٣٧ - المستعصم

هو أبو أحمد عبدالله المستعصم بالله بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر بن المستضىء ابن المستنجد ابن المقتفى بن المستظهر بن المقتدى بن محمد الذخيرة بن القائم ابن القادر ابن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد بن طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى بن المنصور ففى آبائه سبعة عشر خليفة

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر بالله فى عاشر جمادى الآخرة سنة ٦٤٠ (٦ ديسمبر سنة ١٢٤٢) ولم يزل خليفة إلى أن قتل بين يدى هولاكوخان فى ٢٠ محرم سنة ٦٥٦ (٢٧ يناير سنة ١٢٥٨) وبقتله انتهت الخلافة العباسية

قال ابن طباطبا كان المعتصم رجلا خيرا متدينا لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان والفرج حمل كتاب الله تعالى وكتب خطا مليحا وكان سهل الأخلاق وكان خفيف الوطأة إلا أنه كان مستضعف الرأى ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة مطموعا فيه غير مهيب فى النفوس ولا مطلع على حقائق الأمور وكان زمانه ينقضى أكثره بسماع الأغانى والتفرج على المساخرة وفى بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوسا ليس فيه كبير فائدة وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من ارذال العوام إلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمى فانه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال وكان مكفوف اليد مردود القول يترقب العزل والقبض صباح مساء

حال التتر

قلنا فيما تقدم إن جنكيزخان لما حانت منيته قسم ممالكه إلى أقسام أربعة بين أولاده ومنهم تولى خان جعل له خراسان وما يؤمل اخذه من ديار بكر والعراقين إلى منتهى حوافر خيولهم وقد استمر تولى فى مملكته الجديدة يتوسع فى الفتح ويمد بلاده إلى الغرب ويستنزل ملوك فارس عن تخوتها حتى توفى سنة ٦٥٤ فى عهد المعتصم بالله وكانت حدود بلاده تنتهى عند بلاد العراق فخلفه فى الملك ابنه هولاكوخان حفيد جنكيزخان فأهمه التوسع فى الفتح وأخذ بغداد وكان بها من يحب ذلك

قال المؤرخون إن أهل السنة والشيعة الذين يتألف منهم جمهور البغداديين كانوا فى نزاع مستمر وقد أدى هذا النزاع بينهم إلى حروب وشدائد رائدها الجهل والغفلة عن المصالح وكان وزير المستعصم من رجال الشيعة فكان يسوءه مايلقاه أهل مذهبه من اضطهاد أهل السنة الذين هم الجمهور الأكبر وكان يزيد فى مساءته أن أهل البيت العباسى كانوا يساعدون أهل السنة لأنهم عماد بيتهم والشيعة يريدون خروج الأمر منهم وقد حصل فى أواخر عهد المستعصم أن أغار أهل السنة على الكرخ وهو محلة الشيعة فأهانوا أهله وأسرفوا فى قتلهم ونهب دورهم وكان ذلك بأمر أبى بكر أحد أولاد الخليفة المستعصم فيقال إن الوزير كاتب هولاكو يحرضه على قصد بغداد ويطمعه فيها وجل رغبته أن تسقط الخلافة العباسية ولا يهمه بعد سقوط عدوه من تولى الملك بعده فكانت تلك المكاتبة مما ساعد هولاكو على تنفيذ رغبته . وأكثر المؤرخين يتهمون ابن العلقمى بهذه التهمة الشنيعة حتى نقل ابن الوردى فى تاريخه ما يؤكد هذه التهمة وهو رسالة أرسلها ابن العلقمى إلى وزير اربل منها أنه قد نهب الكرخ المكرم وقد ديس البساط النبوى المعظم وقد نهبت العترة العلوية واستؤسرت العصابة الهاشمية وقد حسن التمثل بقول شخص من غزية

أمور تضحك السفهاء منها ❊ ويبكى من عواقبها اللبيب

وقد عزموا على نهب الحلة والنيل بل سولت لهم أنفسهم أمرا فصبر جميل

أرى تحت الرماد وميض نار ❊ ويوشك أن يكون لها اضرام

فان لم تطفها عقلاء قوم ❊ يكون وقودها جثث وهام

فقلت من التعجب ليت شعرى ❊ أأيقاظ أمية أم نيام

ومنها

وزير رضى من حكمه وانتقامه ❊ بطى رقاع حشوها النظم والنثر

كما تسجع الورقاء وهى حمامة ❊ وليس لها نهى يطاع ولا أمر

فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون

ووديعة من سر آل محمد ❊ أودعتها أن كنت من أمنائها

فاذا رأيت الكوكبين تقارنا ❊ فى الجدى عند صباحها ومسائها

فهناك يؤخذ ثار آل محمد * وطلابها بالترك من أعدائها
وكن لما أقول بالمرصاد وتأول أول النجم وأحرص والله أعلم

وابن طباطبا العلوى يبعد هذه التهمة عن ابن العلقمى قال فى تاريخه وقد نسبه الناس إلى أنه خامر وليس ذلك بصحيح ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته فى هذه الدولة فان السلطان هولاكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير وأحسن إليه وحكمه فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه اه والله أعلم بمقدار هذا البرهان فى الانتاج

سارت جيوش هولاكو الجرارة قاصدة بغداد وفى منتصف محرم سنة ٦٥٦ نزل بنفسه على باب بغداد وأعد عدة الحصار ولم يكن عند الخليفة ما يدفع به ذلك السيل الجارف واكتفى باقفال الأبواب فجد المغول فى القتال حتى ملكوا الأسوار بعد حصار لم يزد على عشرة أيام وبملك الأسوار تم لهم ملك البلد

ولما رأى الخليفة ذلك استأذن أن يخرج إلى هولاكو فأمر هولاكو أن ينزل باب كلواذى أحد أبواب بغداد وشرعت جنوده فى نهب تلك المدينة التى كانت حاضرة الاسلام كله ثم تقدم باحضار الخليفة فأحضره ومثل بين يديه وقدم لهولاكو جواهر نفيسة ولآلىء ودررا معباة فى أطباق ففرق هولاكو ذلك على أمرائه

وفى رابع عشر صفر سنة ٦٥٦ رحل عن بغداد واستصحب معه الخليفة وفى أول مرحلة قتله هو وابنه الاوسط مع ستة نفر من الخصيان وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على باب كلواذى وبهذا القتل كسفت شمس الخلافة العباسية من بغداد بعد أن مكثت مشرقة ٥٢٤ سنة واشتفت قلوب العلويين من بنى عمهم بما حل بهم من هذا الخراب والدمار

أما بغداد دار الخلافة وعاصمة الملة فقد جرى عليها ماجرى على سواها من أمهات المدن الاسلامية فقد قتل معظم أهلها وقليل منهم من نجا وقد استبقى المغولى جماعة من الشيعة والنصارى وسكان بغداد بعد أن فنى أكثر أهلها قوم جاؤا مع هولاكو من أقطار شتى وصارت حاضرة دولة لاتدين بدين بعد أن كانت عاصمة المسلمين

حال الدولة الاسلامية

عند سقوط الدولة العباسية

(١) كانت بغرناطة من البلاد الأندلسية دولة بنى نصر والقائم بالأمر منها مؤسسها محمد الغالب بالله بن يوسف بن نصر (٦٢٩ - ٦٧١)

(٢) بشمال إفريقية دولة الموحدين والقائم بالأمر منهم أبو حفص عمر المرتضى ابن إسحاق بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٦٤٦ - ٦٦٥)

(٣) وبالجزائر الدولة الزيانية والقائم بالأمر منهم يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة (٦٣٣ - ٦٨١)

(٤) وبتونس الدولة الحفصية والقائم بالأمر منهم أبو عبدالله محمد المستنصر بالله ابن أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص (٦٤٧ - ٦٧٥)

(٥) وبمراكش الدولة المرينية والقائم بالأمر منهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦ - ٦٧٥)

(٦) وبمصر دولة المماليك البحرية والقائم بالأمر منهم المنصور نور الدين على ابن المعز عز الدين ايبك (٦٥٥ - ٦٥٧)

(٧) وباليمن الدولة الرسولية والقائم بالأمر منهم المظفر بن يوسف بن المنصور عمر بن على بن رسول (٦٤٧ - ٦٧٤)

(٨) وبصنعاء من أئمة الزيدية المتوكل شمس الدين أحمد (٦٥٦ - ٦٨٠)

(٩) وبالروم من السلاجقة ركن الدين قليج أرسلان الرابع (٦٥٥ - ٦٦٦)

(١٠) وبماردين من الدولة الارتقية نجم الدين غازى السعيد (٦٣٧ - ٦٥٨)

(١١) وبفارس من الأتابكية السلغرية أبو بكر بن سعد بن زنكى بن مودود (٦٢٣ - ٦٥٨)

(١٢) وبلورستان من الأتابكية الهزارسبية دكلا بن هزارسب (٦٥٠ - ٦٥٧)

(١٣) وبكرمان من دولة قتلغ خان قتلغ خاتون (٦٥٥ - ٦٨١)

إجمال القول فى الدولة العباسية

تولى العباسيون الخلافة الاسلامية سنة ١٣٢ حيث بويع لأولهم أبى العباس عبدالله السفاح بالكوفة واستمرت خلافتهم إلى سنة ٦٥٦ حيث سقط عبد الله المستعصم قتيلا بين يدى هولاكوخان المغولى من أعقاب جنكيزخان موحد التتر الخارج بهم إلى بلاد الاسلام. جاءت الرايات السود من المشرق فأقعدت بنى العباس على عرش بنى أمية وجاءت رايات التتر من المشرق فثلت عرشهم من بغداد زهرة المشرق وجنة الدنيا فمن الشرق أشرق كوكب سعدهم ومن الشرق ظهر نجم نحسهم. استمرت خلافتهم ٥٢٤ سنة استخلف فيها منهم ٣٧ خليفة فمتوسط ملك الخليفة منهم نحو ١٤ سنة وأكبر مدة قام فيها خليفة عباسى ٤٦ سنة وأقلها سنة فما دونها

مكثت الدولة العباسية ١٠٠ سنة لخلفائها الكلمة العليا والسيادة التامة على جميع العالم الاسلامى (ماعدا بلاد الأندلس) يقولون فيسمع لهم ويأمرون فيأتمر الناس ولا يجسر أحد على مخالفتهم والوقوف فى وجه جنودهم إلا منافسيهم فى القرب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهم بنو عمهم من آل أبى طالب وبعض الخوارج الذين كانت تخبو نارهم حينا وتلمع حينا ثم تجىء القوة العباسية الهائلة على ذلك بسرعة

وقام فى هذا العصر الباهر من العباسيين ثمانية خلفاء وهم السفاح والمنصور والمهدى والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق متوسط خلافة الواحد منهم اثنتا عشرة سنة ونصف وينتهى هذا الدور بوفاة الواثق سنة ٢٣٢

ثم جاء بعد ذلك قرن آخر من ٢٢٢ إلى ٣٣٤ أخذت الدولة فيه فى النزول شيئا فشيئا وضعفت تلك المكانة التى كانت لهم فى أنفس الأمم الاسلامية واجترأ الأمراء بالأطراف على الاستقلال وصار أمر العباسيين يضمحل حتى لم يبق بيدهم إلا العراق وفارس والأهواز وهذه مملوءة بالاضطراب والفتن وآل الأمر إلى أن يتولى ببغداد ملوك تركى أوديلمى يطلق عليه أمير الأمراء له النفوذ التام والسلطان المطلق والولاية العامة وليس للخليفة من الأمر شىء

قام فى هذا العصر اثنا عشر خليفة . وهم المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد والمكتفى والمعتمد والقاهر والمتقى والمستكفى الذى

ملك بنو بويه فى آخر عهده ومتوسط خلافة الواحد منهم ثمانى سنوات ونصف ولم يمت منهم موتا هادئا إلا أربعة والباقون خرجوا من الخلافة بين قتيل ومخلوع وكان استيلاء بنى بويه على بغداد سنة ٣٣٤

جاء بعد ذلك دور ثالث من ٣٣٤ إلى ٤٤٧ ليس للخليفة فيه إلا اسم الخلافة والسلطان الفعلى لأمة فارسية هى الأمة الديلمية التى يمثلها سلطان من بنى بويه يقيم ببغداد فصار الخليفة كأنه موظف لهم يتناول منهم مايقوم بأوده وليس له تصرف ولا نفوذ يؤمر فيأتمر ويفعل مايراد منه لامايريد وليس له على أنفس المالكين شىء من السلطان الدينى لمباينتهم له فى العقيدة فقد كانوا شيعة غلاة يدينون بفضل على وآل بيته على من عداهم وإنما رضوا ببقاء الخليفة العباسى ليكون أمره عليهم هينا يبقونه متى رأوا فى بقائه خيرالهم ويعزلونه أو يقتلونه متى رأوا فى ذلك مصلحتهم

وقد قام فى هذا الدور المستكفى والمطيع والطائع والقادر والقائم ومتوسط مدة الخليفة منهم ٢٢ سنة ونصف والقائم هو حلقة الاتصال بين هذا الدور والذى يليه والثلاثة الأولون من خلفاء هذا الدور خلعهم بنو بويه

جاء بعد ذلك دور آخر من سنة ٤٤٧ إلى سنة ٥٩٠ انتقل السلطان الفعلى فيه إلى أمة تركية يمثلها سلطان من آل سلجوق يقيم ببلاد الجبل لافى بغداد وكان بنو العباس مع هذه الدولة أحسن حالا منهم مع بنى بويه فان هؤلاء كانوا يحترمون الخلفاء تدينا وكانوا يبدون لهم من مظاهر التعظيم والاجلال مايقضى به منصبهم الدينى

وقد ولى فى هذا الدور المقتدى والمستظهر والمسترشد والراشد والمقتفى والمستنجد والمستضىء ومتوسط خلافة الواحد منهم نحو عشرين سنة ونصف ولم يكن الخلفاء فى هذه المدة على حال واحدة فانهم من عهد المسترشد شرعوا يستردون شيئاً من نفوذهم الفعلى فى بغداد والعراق والذى ساعدهم على ذلك بعد آل سلجوق عنهم وتفرقهم ووقوع الحرب بينهم وقد تم استبدادهم بأمر العراق فى عهد المقتفى وانقضت دولة السلاجقة سنة ٥٩٠ على يد خوارزمشاه ونفوذهم فى العراق قد اضمحل تماما

مكث العباسيون بعد سقوط الدولة السلجوقية ٦٦ سنة لم يكونوا فيها تحت سلطان أحد بل كانوا مستقلين بملك العراق إلى أن قام المغل والتتار بحركتهم التى ابتدأت بأقصى تركستان وعصف ريحهم على البلاد الاسلامية فأخذ أنفاس الدولة العباسية

وأزالها من بغداد على يد هولا كو حفيد جنكيز خان سنة ٦٥٦

فللدولة العباسيةأدوار :

١٠٠ سنة	عصر القوة والعمل من	١٣٢ — ٢٣٢
١٠٢ «	عصر استبداد المماليك الأتراك من	٢٣٢ — ٣٣٤
١١٣ «	عصر استبداد الملوك من آل بويه من	٣٣٤ — ٤٤٧
٨٣ «	عصر استبداد الملوك من آل سلجوق من	٤٤٧ — ٥٣٠
١٢٦ «	عصر استعادة العباسيين شيئاً من نفوذهم السياسي مع تغلب القواد من	٥٣٠ — ٦٥٦

ونريد أن نوضح هنا الأسباب الرئيسية التي أدت بهذه القوة الهائلة إلى الضعف ثم إلى التلاشي

١ ـــ ضعف عصبية الدولة

اعتمدت الدعوة الاسـلامية من أول نشأتها على العصبية العربية فهى التى كانت عماداً لتلك الدعوة وقد كان مما اهتم به صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم القضاء على العصبيات الجزئية العربية وإحياء العصبية الكلية فقد ورد عنه كثير من الأحاديث التى تنهى عن دعوة الجاهلية وهى قولهم يالفلان وبعض هذه الأحاديث يخرج الداعى بدعوة الجاهليـة عن الاسلام كقوله عليه السلام « ليس منا من دعا بدعوة الجاهلية » وسبب ذلك أن هـذه العصبيات الجزئية تضعف من قوة المجموع الذى هو ناصر للدعوة ومؤيد لها وقاهر لمن وقف فى سبيلها وكانت نتيجة ذلك أن تآخى العدنانى والقحطانى والمضرى والربعى والقيسى والكنانى ـــ بعد أن كانوا أوزاعا يكيـد بعضهم لبعض وتتفانى قوتهم جميعاً أمام الأمم التى تحيط بهم وبذلك تكونت الأمة العربية . الدين كونها وهى نصرته حتى صار أحدهما مرادفاً للآخر فى نظر الأمم التى غالبها العرب على أمرها

صارت الأمة العربية على ذلك فى صدر دولة الخلفاء الراشدين فصارعوا الفرس والروم وأجلوهم عن أعز أملاكهم واستولوا عليه تؤيدهم تلك الوحدة التى انالها الدين قوة لاتقهر

وكانوا مع هـذه العصبية يرون لمن دخل فى دينهم من الأمم الأخرى مالهم من الحقوق وعليهم ماعلى العرب من الواجبات إلا أنهم لايدلون إليهم بالمناصب الرئيسة كولاية الولايات وقيادة الجنود وهذا أمر طبيعى لاتمكن مقاومته

ولما حصلت الفرقة بين على ومعاوية لم تكن فرقة عناصر فقد كان مع كل من الرجلين رؤساء وأجناد من جميع القبائل العربية اليمانون هنا وهناك والنزاريون هنا وهناك وإنما كانت فرقة أثارها الدين فى صدور قوم والتنافس فى الدنيا فى صدور آخرين وقد أدى اختصاص كل من الخصمين العظيمين بمكان أن انجلت الحرب على خلاف وتباغض مركزيين بين الأمة العربية فان عرب الشام أبغضت عرب العراق وعرب العراق أبغضت أهل الشام ونطق بذلك بعض شعرائهم وذلك ناتج من كراهة أهل العراق لمعاوية وكراهة أهل الشام لعلى وقد أضعف ذلك كثيرا من قوة العصبية العربية

انتقل الأمر إلى بنى أمية وتولاه منهم معاوية بن أبى سفيان شيخ بنى عبد مناف فدانت له الأمة وألقت بأيديها إلا أن عرق العصبية الجزئية قد شرع ينبض بعدأن كاد الاسلام يقضى عليه وظهر على ألسنة الشعراء كلمات الفخر بما لقبائلهم من السابقة وحسن الأثر وقد اتضح ذلك وضوحا جليا بعد انتهاء البيت السفيانى وعودة الانقسام أيام قام مروان بن الحكم منازعا قرنه العائذ بالبيت وهو عبد الله بن الزبير فقد قام بمساعدة مروان عرب اليمن من كلب وغسان والسكاسك وناوأته قيس من عدنان فكان النصر لمروان واليمانية وأسرفوا فى قتل قيس فتأثرت بذلك أنفسها تأثرا تمكن منها حتى قال فى ذلك شيخ قيس وزعيمها زفر بن الحارث الكلابى كلمته التى أولها

أرينى سلاحى لاأبالك إننى ❊ أرى الحرب لاتزداد الاتماديا

وفيها :

فلا تحسبونى إن تغيبت غافلا ❊ ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا

فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ❊ وتبقى حزازات النفوس كما هيا

وفيها :

فلا صلح حتى تشحط الخيل بالقنا ❊ وتثأر من نسوان كلب نسائيا

اجتمع شيخان من شيوخ قيس وهما زفر بن الحارث وعمير بن الحباب السلمى بقرقيسيا وصارا يطلبان كلبا واليمانية بمن قتلوا من قيس ثم نزل عمير بنواحى الجزيرة مجاورا لتغلب ومعه عدد عظيم من قيس فأدى هذا الجوار إلى نزاع بين قيس وتغلب تبعته حروب حتى كتب زفر إلى عمير يقول له

ألا من مبلغ عنى عميرا ❊ رسالة ناصح وعليه زارى

أتترك حى ذى يمن وكلبا ❊ وتجعل جدنا بك فى نزار

كمعتمد على إحدى يديه ❊ فخانته بوهن وانكسار

وقتل فى بعض الأيام عمير بن الحباب

وقد نطق شيطان التفريق على ألسنة الشعراء المتباينين فى الأنساب والمتقاربين بما يهيج الحزازات الكامنة لايبالون مايخرج من أفواههم ولا يدرون قيمة ماتؤثره كلماتهم فكل ماأصلحه العقلاء أفسده هؤلاء وقد كان الأخطل التغلبى من شعراء تغلب

ذوى الصوت المسموع فلما صالح زفر بن الحارث عبد الملك بن مروان وجاء بقومه فبايعوا قال الأخطل من كلمة لهم

بنى أمية قد ناضلت دونكم * أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصا * فبايعوا لك قسرا بعد ماقهروا
ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم * وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

وقال مرة بمحضر عبد الملك وعنده الجحاف بن حكيم السلمى القيسى

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر * بقتلى أصيبت من سليم وعامر
أجحاف إن تصطك يوما فتصطدم * عليك أواذى البحور الزواخر
تكن مثل أقذاء الحباب الذى جرى * به الماء أوجارى الرياح الصراصر
لقد حان كل الحين من رام شاعرا * لدى السورة العليا على كل شاعر
يصول بمجر ليس يحصى عديده * ويسدر منه ساجيا كل ناظر

فأجابه الجحاف على البديهة

بل سوف نبكيهم بكل مهند * وتنعى عميرا بالرماح الشواجر

وسار الجحاف بعقب هذه الكلمة إلى تغلب فأوقع بها وقعة شديدة وقد قال هذا الشيطان الخبيث فى تلك الموقعة بعد أن أثار غبارها

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة * إلى الله منها المشتكى والمعول
فسائل بنى مروان ما بال ذمة * وحبل ضعيف لا يزال يوصل

وقال الجحاف

أيامالك هل لمتنى أو حضضتنى * على القتل أم هل لامنى كل لائم
ألم أفنكم قتلا وأجدع أنوفكم * بفتيان قيس والسيوف الصوارم
بكل فتى ينعى عميرا بسيفه * إذا اعتصمت أيمانهم بالقوائم

حيت هذه العصبيات الجزئية ولم تجد من الخلفاء من يقطع طريق نموها وكان الولاة بالأمصار قد مسهم طائف من شيطان هذه الجاهلية فكان الولى اليمانى يحدب على قومه ويعطف عليهم وينصرهم ويوليهم النواحى وكذلك كان الربعى والقيسى والتميمى وكان يظهر ذلك واضحا فى الولايات البعيدة عن مركز الخلافة كخراسان ولا يخفى أن الدولة الأموية كانت ترتكز على العصبية العربية لأنها دولة عربية

محضة لحياة ذلك النوع من العصبية مضعف للأمة وللدولةالتى ترتكز عليها . وكان من الأمم التى ملكها العرب وذلت لهم الأمة الفارسية وهى أمة ذات تاريخ قديم يهمها أن تحيى ما اندرس من تاريخها . رأت نفسها مستضعفة عن مساوأة العرب والخروج من نير حكمها بوحدة عنصرية لأن كثيراً من الفرس كانوا قد دانوا الاسلام فمن الصعب تكون قوة منهم تضاد العرب أو الاسلام فاتجه فكر قادة الأمة إلى صدمة العرب باسم الاسلام وكان بنو العباس إذ ذاك قد وجدت عندهم فكرة السعى لاسترداد حقهم من بنى أمية فرأوا من مصلحتهم الاعتماد على الفرس فى مساجلة بنى عمهم من بنى أمية وإنما لم يجعلوا عمدتهم على العرب لأمرين الأول أنه يصعب أن تروج بين جمهور العرب فكرة الخلاص من حكم بنى أمية لأن العرب لم يمسوا بأذى من جانب تلك الدولة بل كانت فى الحقيقة دولتهم وبها عزهم والثانى أن شعب العرب قد انصدع باستعار نار العصبية الجزئية بين قبائلهم فكان اليمانيون فى جانب والربعيون فى جانب والمضريون فى جانب . أما الفرس فمن السهل إثارة عواطفهم إما بحكم العصبية العنصرية وإما بحكم الاسلام ورد الخلافة إلى نصابها من آل بيت محمد صلى الله عليه وسلم وتأثير الأول فى الخاصة من أبناء الأمة الفارسية وتأثير الثانى فى العامة

قامت الدولة العباسية وليس لها عصبية عنصرية تشد أزرها وتحمى بيضتها وإنما عصبيتها هؤلاء الموالى المصطنعون وعصبية الولاء أو الحلف قد تقوم مقام عصبية القرابة لولا ما يكدرها من ميل هؤلاء الموالى إلى استرجاع ما كان لآبائهم من المجد الذى يتوارثون ذكره . وقد وجد من هؤلاء الموالى فى بدء الدولة جماعة لهم قدم ثابتة فى الفارسية وفى الاسلام جعلهم العباسيون فى مقدمة من يعتمدون عليه

لم يترك العباسيون فى مبدأ أمرهم عصبية العرب ولم يهملوا شأنها بل استعانوا بها لتكون لهم ملجأ إذا رأوا من الموالى نكوبا عن جادة نصرتهم وميلا إلى الاستئثار بالسلطان دونهم فاصطنعوا كثيرا من رجال العرب وحماتهم من ربيعة واليمن ومضر إلا أنهم لم يلتفتوا إلى إزالة ما بين هذه القبائل من أسباب العداء والنفرة بل بالعكس وجد منهم ما يدل على الميل على إنماء هذه الحمية ليستعينوا بفريق على الآخر

لذلك كله يمكن أن نقول إنه لم يكن للدولة العباسية فى بدء حياتها عصبية قومية

متحدة الأوصال وثيقة العرى وإنما كان الاسلام هو الذى يجمع بين تلك القوى والدين وإن كان جامعا قويا لكنه إن لم يكن مدعما بعصبية قومية متحدة يضعف عمله واعتبر هذا بما قدمناه لك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان مما اعتبره أساسا لقوته ومنبعا لحياته إماتة العصبية الجزئية وسد الباب دون ذكرها والتلفظ بها

كان بنو العباس يسندون أمر وزارتهم إلى رجل يختارونه من الموالى ويجعلون قيادة جنودهم إلى موال وإلى عرب ولكنهم كانوا دائما تحت تأثير الظنون والريب التى تحوم حول عقولهم من استبداد الموالى بالسلطان فمتى شموا من وزير أوقائد من الموالى الخراسانيين رائحة من ذلك عاجلوه وانظر مافعله المنصور بقائد العباسية الأكبر أبى مسلم الخراسانى وبوزيره الأول ولأبى مسلم ماله من السابقة وحسن الأثر فى إحياء الدولة ولكن ذلك لم ينفعه أمام ريب أبى جعفر وغيرته على ملكه أن يشاركه فيه أحد ولا يمكن أن نبرىء أبامسلم من قصد تحويل السلطان إلى قومه وليس بنو العباس فى نظره إلا واسطة لذلك فهو إذا عز مراده معهم يتحول بدون ابطاء إلى بنى عمهم من آل على . ولما قتل أبو مسلم قام بالثأر له قائد فارسى على دين قومه من الوثنية وهوسنباذ وجمع لذلك جموعا عظيمة وكاد يزلزل بلاد خراسان لولا أن غولب بالعصبية العربية فان أباجعفر أعد له جهور بن مرار العجلى وهو من رجال ربيعة فكسر قوته ويقال إنه قتل من قومه فى الموقعة نحوا من ستين ألفا . وقام يطلب بثأره أيضا الراوندية فى الهاشمية نفسها فعوجلوا والذى كان الفارس المعلم فى يومهم قائد عظيم أيضا من قواد ربيعة وهو معن بن زائدة الشيبانى

والخلاصة أن الدولة العباسية ابتدأت على عصبية يتحد دينها وتختلف عناصرها ولبعض هذه العناصر أغراض لاتتفق مع سيادة الدولة وعظم شأنها ونفوذ خلفائها وهذه العناصر هى العنصر العربى وهو منشق قد كاد ينسى العصبية القومية الكلية وصرع بتأثير العصبية الجزئية والثانى عنصر الموالى وأهمهم أهل خراسان ولم يكن بين الفريقين التئام حقيق لاختلاف الغرض الذى يرمى اليه كل منهما

واقتصار العباسيين على وزراء من العنصر الآخر وهو الموالى كان منتجا بطبيعته غلبة العنصر الذى هم منه ونيلهم حظا فى الدولة لم يتمتع به مناظروهم من العرب فقد اشتهر من الموالى عدد عظيم فى الصدر الأول تمتعوا بالنفوذ والسلطان ونالوا من

الألقاب أعلاها سوى لقب الخلافة وانظر إلى بيت خالد البرمكى وما وصل اليه يحيى بن خالد وأولاده فقد توسع الناس حتى أطلقوا عليهم ألفاظ الملوك فى مخاطباتهم وفى القصائد التى مدحوهم بها ووردت إليهم خزائن الأرض وجبايات الأموال وتزلف إليهم الناس من كل صنف بغية القربى عندهم وأثر عنهم لدى الرشيد ميلهم وخاصة جعفراً منهم كلمات تدل على أنهم يريدون التحول إلى خراسان ونزع الخلافة من آل عباس وتحويلها إلى آل على كما اتهم بذلك قبله أول وزير من الموالى وهو خالد بن سلمة الخلال ومع هذه التهمة السياسية كانت تتردد كلمات تدل على الغمز عليهم فى دينهم ونسبة الزندقة إليهم إلى غير ذلك مما يثير الظنون التى لابد منها فى دولة لاتعتمد على عصبية قومية

ولا مراء فى أنه كان لبعض هذه الأسرة غرض من حمل الرشيد على البيعة لولده المأمون بولاية العهد بعد البيعة لأخيه الأمين وكان الداعى إليها هو جعفر بن يحيى ابن خالد البرمكى وكان الذى ظنه الرشيد وهجس فى نفسه أن البرامكة سوف يحرشون بين الأخوين ليفرقوا بينهما حتى يحارب أحدهما الآخر وينتفعون هم بما ينتجه ذلك وهذا سبب من الأسباب الكثيرة التى منشؤها تمكن الريبة من مواليهم وحذرهم منهم ولذلك لم نر وزيراً عباسياً تمكن من حياة هادئة ذات ختام هادئ بل كانوا كلهم عرضة لهذه النكبات من ضياع الأموال واغتصاب النفوس ولا يمكن أن يكون سبب ذلك المال وحده بل إن المنازع السياسية وميل الموالى إلى استرداد عز الآباء كان له دخل كثير

انتهت حياة الرشيد والمغالبة شديدة بين العنصرين الكبيرين اللذين هما دعامة الدولة يلجأ الخلفاء إلى أحدهما كلما رابهم من الآخر شىء إلا أنه قلما نسب إلى المصطفين من العرب فكرة خيانة للدولة أو إرادة تحويلها عن آل العباس أو استهانة بوعد أو غدر بمن ائتمنهم وإنما كانت العيوب التى تسند إلى بعضهم وتدفع الخلفاء إلى عقوبتهم هى التقصير فى أعمالهم وعدم أخذ الحيطة لها

جاءت الوقائع بين الأمين والمأمون فكان من نتيجتها ازدياد قوة العنصر الخراسانى لأن قوة المأمون ارتكزت عليه وظهر البيت الطاهرى وهو أول بيت من الموالى منح خراسان على طريق الاستقلال . والذى كان يزيد فى قوة هذه العناصر أن المأمون وأخاه المعتصم كانا يميلان إلى الاستكثار من شبان الأتراك الذين كانوا

يفدون على بغداد بكثرة يقدمهم إليهم ملوك ماوراء النهر وآل طاهر ومن هؤلاء الشبان من كان يشترى بالمال ومنهم من كان ذا بيت عريق فى قومه فقدم بغداد ليستزيد عزاً بحلف هذه الدولة الكبيرة وولائها ولم تزل هذه الوفود تتوارد تواردا مطرداً حتى كان زمن المعتصم وقد تألفت منهم جيوش ظن الخليفة أنه يعتمد عليها فى إقامة دولته ويستغنى عن العرب وعصبية العرب وعن أبناء خراسان أيضاً أما العرب فلأمر ما كان هو وأخوه قليلى الاعتماد عليهم ويظهر أن ذلك كان للاختلاف الشديد بين قبائلهم وأما الأبناء أو الموالى الخراسانيون فقد كثرت منهم الدالة على الخلفاء وخرج كثير منهم عن طاعتهم لذلك خلقت فكرة اصطناع هؤلاء الموالى الأتراك ظنا من الخلفاء أنهم ليس لهم آمال يريدون تحقيقها وأن الخلفاء متى اصطفوهم أمكنهم الاعتماد عليهم والاستغناء عمن عداهم لشجاعتهم ووفرة أجسامهم وهذا خطأ غريب ربما كانت الدولة العباسية أول من وقع فيه وهو أن تعتمد دولة من عنصر على عنصر آخر فى تأييد قوتها مع أن هذا العنصر يباينها فى الأخلاق وفى العادات ويذكر وطنه الذى ينتمى اليه ولا ينساه إن هؤلاء الأتراك الذين اصطنعوا لم ينسوا لغتهم ولا بلادهم فمن البديهى أن يكون صغوهم اليها وميلهم لها وقد كان فيهم من هو ذو بيت عريق فى قومه يميل إلى أن يكون كما كانوا من العز والاستئثار بالنفوذ كما كان الأفشين حيدر بن كاوس فقد كان أبوه ملكا لأشروسنة وكان هو معظما فى قومه حتى كانوا فيما يخاطبونه يدعونه باله الآلهة

زرع المعتصم وأخوه هذا العنصر الجديد فى الدولة وما دريا أنهما بعملهما هذا قد سلبا عز الخلافة إلى غلمان الأتراك يتصرفون فيها باشارة رؤسائهم الذين منحهم المعتصم حق قيادة الدولة ولو كان هؤلاء الرؤساء متحدى الأغراض يسعون لغاية واحدة لكانت المصيبة أعظم ولكن كانوا على غير ذلك حتى إن الأفشين لما علم عنه أنه يعد العدة للرحيل إلى المشرق حتى يستولى على خراسان وما وراءها من بلاد ماوراء النهر ويؤسس هنالك مملكة تركية عظيمة كان الذين وشوا به من الأتراك الذين لايرون لهم أن يستأثر الأفشين بهذا الملك العظيم

كان فى حياة هذا العنصر الجديد ضعف العنصر العربى ضعفا عظيما فتفرق قبائل وعصائب وعاد الكثير منها إلى مواطنها فى القفر والصحراء والذين بالمدن لم تبق

لهم عصبيات يستندون في حياتهم اليها وكذلك ضعف الموالى الخراسانيون لضعف ثقة الخلفاء بهم فاختل التوازن بين عناصر الدولة ووجد غلمان الأتراك انفسهم منفردين بالملك مستأثرين وليس إمام الخلفاء إلا هم فاستحكم نفوذهم وصاروا هم الآمرين حتى امتدت ايديهم إلى حياة الخلفاء وإلى أموالهم وإلى كل شيء عندهم وخضع الخلفاء لهذه القوة التي لم يجدوا أمامهم مايردها لا من العرب ولا من الأبناء الذي كان أول الخلافة شروأما هذا فهو نهاية الشرور

كان تغلب هذا العنصر ولعبه برقاب الخلفاء من بني العباس ذا نتائج سيئة فانه أضعف صولة الخلفاء وقلل من قيمة أقوالهم وأوامرهم وأما في الأطراف فقد رأى الولاة أن قد آن لهم أن يستقلوا بما تحت أيديهم لأنهم ليسوا أقل من أتراك بغداد الذين استأثروا بالنفوذ في عاصمة الخلافة نفسها ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى صارت الدولة العباسية (في منتصف القرن الثالث) محاطة بدول مستقله في الادارة عن سلطان الخلفاء وتدفع عنها شر اعتراض الجمهور وغضب الخلفاء باعلان الدعوة لهم على المنابر وكتابة أسمائهم (أحيانا) على السكة وارسال شيء من المال والهدايا إلى بغداد وقد حصل ذلك في المغرب والمشرق والجنوب والشمال في آن واحد ولا قبل للدولة بارسال الجنود لاعادة الحكم العباسي الفعلي إلى تلك الولايات لأن غلمان الأتراك قلما يهمهم ذلك ماداموا آخذين بخلاقيم الخلفاء في حاضرة الدولة فاضطر بنو العباس إلى الرضا بما بذل لهم

صار المتغلبون يقتتلون وينزع بعضهم الولاية من بعض ولا عمل للخلفاء إلا أن يصدروا منشور الولاية للغالب الظافر وقد حاول بعض هؤلاء المتغلبين وهو يعقوب ابن الليث الصفار أن يستولى على قلب الخلافة ويزيل عنها المتغلبين عليها من الأتراك لولا ماظهر من تشدد أبي طلحة الموفق الذي كان ولى العهد وصاحب السلطان في عهد المعتمد على الله والذي أحيا فيه تلك القوة أن العنصر المستولى على الدولة وهو عنصر الأتراك نفس بعضه على بعض ماأتيح له من الغلب والسلطان والمال فضعف أمرهم وطلب كثير منهم أن يتولى قيادة الجيش أحد أفراد البيت المالك وكان الموفق أقرب إليهم فانتخب لقيادة الجيش فنجح في إحياء شيء من قوة الخلافة إلا أن الداء عضال لا يمكن حسمه وذلك الداء هو فقد الدولة للعصبية القومية

التى يمكن الاعتماد عليها فكانت هذه القوة كالبرق الخلب لايلبث أن يزول ويضمحل أمره . فان الضعف عاد بعد الموفق وابنه المعتضد إلى أشد مما كان كنكسة المريض عسير برؤها شديد أثرها واستمرت الخلافة الاسمية لبنى العباس والسلطان الحقيقى لما بقى بأيديهم من البلاد للأتراك إلى أن تحرك عنصر جديد من بلاد الديلم يقوده ثلاثة إخوة من بيت عريق فى الشرف القومى وهم أولاد بويه فانتزعوا السلطان من الأتراك ببغداد وجعلوا ملك العراق لواحد منهم يتصرف فيه والخليفة يأتمر بأمره ولم يكن هؤلاء القوم يدينون بامامة بنى العباس ومع ذلك فقد أبقوا عليهم لأمرين الأول مرضاة الجمهور البغدادى فقد كان معظمه يدين بامامتهم ويفضلهم على آل على والثانى أن الخليفة العباسى يسهل خلعه متى أحسوا به يحاول خلع النير عن عنقه لأنه لامانع دينيا يمنعهم من ذلك أما الخليفة العلوى فانه يصعب عليهم أن ينالوا منه شيئا وربما نال منهم بقوته الدينية هكذا لعبت السياسة بالعقيدة فأضاعت أثرها ومع ما ناله الديلم من هذا السلطان فانهم لم يهملوا العنصر التركى الذى كان كثيرا بحاضرة الخلافة بل اعتمدوا عليه حتى كان بعض الملوك من آل بويه يفضل الأتراك على الديلم .

وفى أوائل المائة الخامسة ظهر بالمشرق عنصر جديد دخل فى الاسلام حديثا وفارق وطنه متجها إلى بلاد المغرب وهو عنصر الغز من أتراك ماوراء سيحون على رأسه بيت عظيم الفخار ممتاز عندهم بالشرف والمجد وهو البيت السلجوقى قاد هذا البيت جماعة الغز إلى بلاد خراسان ولم تقدر الدولة التى كانت بأطراف المملكة الاسلامية على صده فلم يزل حتى امتلك بغداد وأزال عنها ملوك آل بويه وكان هذا العمل على رغبة الخلفاء من بنى العباس لأنهم كانوا ميالين إلى إزالة هذه الدولة الديلمية التى كانت غالية فى تشيعها والادلاء بالأمور إلى دولة أخرى تدين بامامتهم واحترامهم وقد استمر العراق تحت سلطان آل سلجوق حتى دب إليهم مادب إلى من قبلهم من داء الخلف والانقسام فكان ذلك مشجعا بنى العباس إلى اليقظة من هذا السبات الطويل وامتلاك أعنة الخيل والتصرف بما تحت يدهم من البلاد العراقية ولم يكن لهم مايعتمدون عليه من العصبية إلا بقايا مواليهم من المماليك فأعادوا فى العصر المتأخر ما كان عليه سلفهم فى منتصف القرن الثالث

وقد استمر الحال على ذلك حتى خرج سيل المغول الجارف وأزال الدولة العباسية من المشرق كله

من ذلك يفهم أن أساس الاضطراب كان سائرا مع هذه الدولة من بدء نشأتها وهو فقد العصبية القومية التي يعتمد عليها إلا أن توازن القوى في الأول حفظ للخلفاء نفوذهم فلما اختل هذا التوازن اختل معه هذا النفوذ والمقام الديني هو الذى ظل حافظا لهذه الدولة من الفناء مع هذا الضعف المتوالى

٢ — منافسة العلويين

لامراء فى أن كون الخليفة من آل بيت النبوة أحب إلى قلوب الجمهور من الأمم الاسلامية وهم لهم أطوع لأن المؤثر الدينى يكون مستحكما ولذلك صادفت الدعوة إلى أهل البيت نجاحا عظيما فى صدر المائة الثانية من الهجرة

وكان أهل البيت الذين لا يعدوهم هذا الأمر من بيتين اثنين كل منهما يسابق الآخر فى القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأما أحدهما فهو البيت العباسى الذى ينتمى إلى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاصبه الوحيد عند وفاته وأما الثانى فهو البيت العلوى الذى ينتمى إلى على بن أبى طالب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته فاطمة

وقد حاول البيت الأول أن ينال الخلافة قبل العباسيين فى عهد بنى أمية ففشل . قام الحسين بن على مطاليا بها فقتل دونها وقام حفيده زيد بن على بن الحسين فقتل دونها بالكوفة وقام على أثره ابنه يحيى بن زيد فكانت نتيجته كأبيه — ذلك مع ميل الجمهور العراقى لهم وعطفه عليهم

أما العباسيون فقد أحكموا أمرهم واستعانوا بأهل خراسان فى إحياء بيتهم وكانت الدعوة إليهم مبهمة فى أول الأمر لايزيد الداعى فى دعوته على أنه يدعو للرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم إلا أن الدعاة والنقباء يعرفون صاحب الدعوة باسمه وشخصه وكانت النتيجة تمام النجاح وساعدهم ضعف عصبية خصومهم فرقوا عرش الخلافة وقضوا على بنى أمية

حرك ذلك من غيرة بنى عمهم منهم وحسدهم لهم ومن المعلوم أن جمهورا كبيرا كان يؤثر العلويين ويتولاهم دون العباسيين وكان بنو العباس على علم من ذلك يرون أن كل فتق جاءهم من غير ناحية العلويين فهو سهل الرتق والتلافى أما هؤلاء فهم الخصم

الذي يخاف جانبه لأنهم يشار كونهم في السبب الذي قامت عليه خلافتهم وهو القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وربما كان لهم في نظر الجمهور الشيعي ما يفضلهم على العباسيين وهو ولادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا دعوا إلى أنفسهم أحدثوا في العصبية التي قامت عليها الدولة انقساما ولا يدرى حينئذ لمن تكون الغلبة

ولما كانت المدينة النبوية هي مقام أبناء علي من بني حسن وحسين راقبهم العباسيون سرا وإذا كان موسم الحج جمعهم الخليفة وهو أبو العباس السفاح فأغدق عليهم العطايا ومنحهم الهبات يريد بذلك لفت أنظارهم عن الدرجة العليا وهي درجة الخلافة ويريهم أن خلافة بني عمهم تحدب عليهم وتنسيهم أيام الشدائد التي مرت عليهم في عهد أسلافهم من بني أمية إلا أن ذلك المعروف الجميل لم يكن إلا معززا لدواعي الغيرة والحسد وازدياد الشعور بضياع ذلك الحق الذي هم أولى به وإذا كان غصب الأجنبي الحق مؤلما للنفس فرؤيته عند القريب أشد ايلاما ولا سيما إذا ظن من ضاع حقه انه يجد من الأنصار من يساعدونه على نيله

كان أول صدع صدعت به الدولة العباسية خروج محمد بن عبدالله المعروف بالنفس الزكية بالمدينة وكان كثير من أهل خراسان ينتظر قيامه ولولا ما ظهر من شجاعة أبي جعفر المنصور ومضاء عزيمته وأخذه بالاحتياط في مصادره وموارده لزلزلت جوانب الخلافة العباسية ولكن تلك الصفات من المنصور قضت على محمد بن عبدالله وعلى أخيه إبراهيم الذي ثار بالبصرة

وكانت نتيجة ذلك أن اشتدت ريبة العباسيين من بني عمهم فضيقوا عليهم وشددوا المراقبة على المعروفين منهم وأرهقوا الحد في استطلاع أخبارهم فتباعد الأمر واشتدت الجفوة ورأى بنو العباس أنفسهم مجبورين على نبذ فكرة التشيع التي أسسوا عليها دولتهم وصاروا يجنحون إلى تقديم الشيخين أبي بكر وعمر على علي بن أبي طالب بعد أن كان دعاتهم يقدمونه عليهما واشتد تطلع العلويين إلى قلب الدولة العباسية ليخرجوا من حرج الضيق الذي نالهم وصاروا كالطائر المحبوس في قفصه يحاول

التخلص منه على غير هدى كما فعل الحسين بن على الذى ثار بمكة فى مدة الهادى سنة ١٦٩ لحيل بينه وبين مراده وقتل بفخ بالقرب من مكة

أفلت من تلك الموقعة إدريس بن عبد الله وأخوه يحيى فاتجه الأول غربا ماراً بمصر ومخترقا شمال أفريقية حتى أتى المغرب الأقصى فحدب عليه من به من البرابرة وبايعوه بالخلافة وأسس هناك دولة الادارسة فى طرف الدولة من الغرب واتجه الثانى نحو المشرق وذهب إلى نواحى الديلم إلا أن قربه من مركز الخلافة حتم عليه الفشل . وقد أظهرت حوادث هذين الأخوين أن من موالى العباسيين وصنائعهم من هواه مع العلويين كواضح مولى بنى العباس الذى كان على بريد مصر فانه هو الذى سهل لادريس المرور من أرض مصر مع معرفته به وجعفر بن يحيى البرمكى الذى سهل ليحيى بن عبد الله طريق الافلات من يد الرشيد فكان ذلك مما دعا الرشيد إلى أن يربى على من كان قبله فى النفور من العلويين وكراهتهم والتشديد فى عقوبة من يتهم بالميل اليهم وشدة التضييق على من بقى بالمدينة منهم وجاء بموسى الكاظم ابن جعفر الصادق إلى بغداد ليقيم تحت نظره

ظهر الجرح بجنب الدولة العباسية واجترأت أمة من الأمم الاسلامية وهى أمة البربر بالمغرب الأقصى أن تخرج عن طاعتهم معتقدة أنها نالت حظا أعلى من حظ سائر الأمم الاسلامية لأنها ظفرت برجل من آل البيت النبوى ومن أبناء ابنته واضطر الرشيد أن يزرع بأفريقية دولة الأغالبة ومقرها القيروان كما يفعل من رأى حريقاً بجزء من داره يجتهد أن يفصل بين ماتناولته النار وبين سائر البيت وهذا مافعله الرشيد

جاء المأمون فرأى خطر العلويين محدقا بالدولة ماذا رأى . رأى كثيرا من أبناء الدعوة ورجال الدولة يميلون إلى العلويين ويكرهون ما ينالهم من الشر فأراد أن يتقرب اليهم ببعض مايرغبون فيكسر من حدتهم ويضعف من قوتهم فاختار منهم على الرضا الذى يتولاه أكثر شيعة آل على وولاه عهده ويظن أنه فعل ذلك إرضاء

للحسن بن سهل وزيره الأكبر ومدبر أمره وصاحب الفضل الأعظم فى سوق الخلافة اليه واخراجها عن أخيه الأمين وكان الحسن يتشيع وينسب إلى الزندقة أيضا ولكنه رأى أن النتيجة لم تكن على مايرغب فانه وإن أرضى العلويين بهذا العهد قد أغضب العباسيين أصحاب الدعوة فثاروا ضده ببغداد وخلعوه واختاروا من بينهم عمه إبراهيم ابن المهدى فلم يكن أمامه مايرأب به هذا الصدع إلا أن احتال فى التخلص من الحسن ابن سهل بأن وضع له قوما تناولوه بأسيافهم ثم مات بعقب ذلك على الرضا فنسب قوم ذلك إلى المأمون أيضا والقرائن تساعدهم ولكن ليس عندنا من الأدلة مايقوى هذه التهمة

عادت الأمور بعد موت هذين إلى مجراها ورجع أهل بغداد إلى المأمون وانحرفوا عن عمه . ظل المأمون بعد ذلك على ولاء العلويين والتشيع لعلى بن أبى طالب وأعلن ذلك فى كلامه وفى كتبه حتى إذا رأى منهم الميل إلى الخروج والثورة شرع يعاملهم بمثل ما كان يعاملهم به أبوه بعد ثورة اليمن فأمر ألا يدخلوا عليه واضطر لأن يجارى أباه فى الاحتياط فأسس دولة باليمن تشبه دولة الأغالبة بأفريقية وهى الدولة الزيادية والغرض من الدولتين واحد

واتبعوا طريقة الحجر على أئمة الشيعة وأمرهم إياهم بالاقامة بمرأى منهم فى بغداد أو فى سامرا بعد اختطاطها

ولم يكن الخلفاء معهم على سيرة واحدة فقد كان المتوكل على الله بن المعتصم على غير ما كان عليه أبوه وعمه من الاحسان إلى العلويين والتصريح بتفضيل على على غيره من شيوخ الصحابة وكان فى ذلك على سيرة جده الرشيد إلا أنه زاد عليه فقد كان يصرح فى مجالسه بانتقاص على بن أبى طالب ويبيح للمجان من جلسائه الهزء والسخرية به ويكره كل من عرف بالتشيع إلى العلويين ويؤذيهم فى أنفسهم وأموالهم ويقدم الشعراء الذين يتطوفرن فى قصائدهم فينتقصون آل على ويفيض عليهم الهبات الوافرة وهدم قبر الحسين بن على ونهى الناس عن زيارته وشدد فى

ذلك تشديدا عظيما فكان الناس من ذلك في هم وحزن حتى أن شاعره الكبير أبا عبادة البحترى لما مات وولى المنتصر وكان على غير طريقة أبيه مع العلويين مدحه بذلك فقال

رددت المظالم واسترجعت * يداك الحقوق لمن قد قهر
وآل أبي طالب بعد ما * أزيع بسربهم فابذعر
ونالت أدانيهم جفوة * تكاد السماء لها تنفطر
وصلت شوابك أرحامهم * وقد أوشك الحبل أن ينبتر
فقربت من حظهم ما نأى * وصفيت من شربهم ما كدر
وأين بكم عنهم واللقا * ء لا عن تناء ولا عن عفر
قرابتكم بل أشقاؤكم * وإخوتكم دون هذا البشر
ومن هم وأنتم يدا نصرة * وحدا حسام قديم الأثر
يشاد بتقديمكم في الكتاب وتتلى فضائلكم في السور
وإن عليا لأولى بكم * وأزكى يدا عندكم من عمر
وكان له فضله والحجو * ل يوم التفاضل دون الغرر
بقيت إمام الهدى للهدى * تجدد من نهجه ما دثر

مع أن البحترى له في المتوكل المدح الجليلة والمراثى المؤثرة

ثلم آل على ثلمة أخرى في سياج الدولة من الجهة الشمالية الشرقية بتأسيس الحسن ابن زيد دولته في الديلم ولم يفلح بنو العباس في القضاء عليه فاشتد الخرق عليهم من الشرق والغرب وفتحت العيون التى كانت تغضى حياء وتخاف تدينا

رأى العلويون في النصف الثانى من القرن الثالث أن ينظموا صفوفهم ويمهدوا لقلب الدولة العباسية بالدعوة لها فسنوا لذلك نظاما خاصا عرف بنظام الدعوة ساروا في ذلك على أثر الدعوة العباسية إلا أنهم حلوها بشىء من المقدمات وبعثوا دعاتهم إلى جميع الأقاليم الاسلامية غربا وشرقا ولما تهيأ لهم الأمر أهبوا نار الثورة والاضطراب بشكل مريع على يد القرامطه فزلزلوا جوانب الدولة وحالوا بينها وبين

عمل أى شيء يمكنها من القضاء عليهم وفعلوا فى الاسلام ما لم يخطر ببال مسلم أن يقوم به مما قدمنا ذكره . ثم قام على أثرهم الفاطميون بأفريقية فاستولوا عليها وعلى الجزائر والمغرب الأقصى ثم مدوا سلطانهم على مصر وسوريا والحجاز واليمن وشواطىء الفرات وكادت نارهم تلفح وجه الدولة العباسية وقدحصل أن اتخذ أحد الثوار العراقيين هذه الدعوة ذريعة إلى التمكن من الأمر وخطب فعلا للعلويين على منابر بغداد نحو من سنة

وكان العباسيون لما رأوا أنفسهم عاجزين عن دفع هذا العدو اللدود عنهم اشتغلوا بما لايفيد من الطعن فى نسب العلويين المصريين وكتبوا فى بغداد محضرا وقع به العلماء والفقهاء وكبار بنى هاشم وقالوا فيه إن نسب العبيديين بمصر غير صحيح وأنهم أدعياء ملعونون مع أنه نسب للشريف الرضى نقيب الطالبين ببغداد قوله

ما مقامى على الهوان وعندى * مقول صارم وأنف حمى
وإباء محلق بى عن الضيم كما راغ طائر وحشى
أى عذر له إلى المجد إن ذ * ل غلام فى غمده المشرفى
ألبس الذل فى ديار الأعادى * وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا * ى إذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيد النا * س جميعا محمد وعلى
إن ذلى بذلك الجوعز * وأوامى بذلك النقع رى
قد يذل العزيز مالم يشمر * لانطلاق وقد يضام الأبى
إن شرا على إسراع عزمى * فى طلاب العلا وحظى بطى
أرتضى بالأذى ولم يقف العز * م قصورا ولم تعز المطى
كالذى يخبط الظلام وقد أقمر من خلفه النهار المضى

ولما اشتهرت عنه عتب الخليفة القادر بالله على والده فأنكرها ولم يثبتها فى ديوانه وهى مشهورة عنه ومن طراز شعره وعلى الجملة فان مثل هذه الأشياء لم تفدهم فائدة ما

ومما زاد الأمر بلية أن بنى بويه الذين استولوا على بغداد فى منتصف القرن الرابع كانوا شيعة فأباحوا للشيعة الظهور فى بغداد بما يشتهون من العادات التى كانوا يفعلونها يوم عاشوراء فقد كانوا يجعلونه يوم حزن يخرج النساء فيه حاسرات نادبات لاطمات ينعين الحسين بن على رضى الله عنه وغير ذلك من العادت وصار الناس يتقربون إلى السلطان بالتشيع

وفى أوائل القرن السادس ظهرت فئة الباطنية بفارس وبالشام فأرهقوا الناس وأفسدوا الدول وتمكنوا من اغتيال بعض خلفاء بنى العباس

استمر هذا النزاع السياسى بمصر حتى سقطت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب واستمر مع الباطنية بفارس والشام . واستمر مع أهل بغداد حتى ليقال إن السبب فى هيج التتار وإغرائهم على أخذ بغداد هو حادثة اعتداء وقعت من أهل السنة على محلة الشيعة وهى الكرخ

من ذلك ترى أن النزاع بين العباسيين وآل على استمر من أول خليفة إلى آخر خليفة وكان ذلك سببا من أسباب ضعف الدولة بعد ما تقدم ذكره من خلل العصبية التى كانت عمدة العباسيين

ويمكن أن يعد هذا السبب من متممات السبب الأول

---

٣ ــ ضعف قيمة العهود

الوفاء بالعهد خلق عربي حافظ عليه العرب فى جاهليتهم وبذلوا دونه أموالهم وأبناءهم وأنفسهم عرف لهم ذلك من جاورهم من الأمم كالفرس والروم وحوادثهم فى ذلك مأثورة قد حفظتها بطون الصحف ولسنا بصدد أن نقصها . لما جاء الاسلام أيد هذا الخلق وأمر به أمراحتما لاهوادة فيه قال تعالى فى سورة الاسراء (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا) وقال (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ماتفعلون) إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التى شددت فى وجوب الوفاء بالعهد واعتبارها أساسا تقوم عليه الأمة الاسلامية وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون كما يعلم من استقراء تواريخهم وكذلك نحا بنو أمية هذا المنحى لأن العنصر العربي كانت له المكانة فيها بل يصح أن يقال إنها كانت دولة عربية محضة وقد اعتد الناس على عبد الملك بن مروان فعلته التى فعلها مع سعيد بن العاص حيث قتله بعد أن عاهده على تأمين حياته وقالوا إنها أول غدرة فى الاسلام وسأل عبد الملك أحد كبار رعيته من شيوخ العرب عن رأيه فيما فعل مع سعيد فقال حسن لو قتلته وحييت فقال عبد الملك أولست بحى فقال الشيخ العربي حياة من لا يوثق له بعهد ولا عقد . فانظروا كيف عد العربي هذه الحياة كلا حياة ولم يصل إلى علمنا فى هذه الدولة حوادث أخرى من هذا القبيل لأن الأمة كانت لها رقابة شديدة على خلفائها

لما جاءت الدولة العباسية وقد ظهرت على أيدى عنصر غير عربي ظهر منها لأول نشأتها حوادث متكررة تدل على أنه ليس للعهود فى نظر خلفائها كبير قيمة فقد قتل المنصور فى حياة السفاح بن هبيرة بعد أن أمن أمانا لاشك ولا حيلة فيه وكان الذى أشار بقتله أبو مسلم الخراسانى مشيد الدعوة العباسية وكانوا لا يحبون أن ينفذوا أمرا دون مشورته . ثم أعاد المنصور هذه الرواية نفسها مع أبى مسلم بعد أن أمنه ثم

فعل مثل ذلك مع عمه عبـد الله بن على بعد أن أمنه وأعلن رضاه عنـه ولذلك لما كاتب المنصور محمد بن عبد الله بن الحسن وقال إنه يعطيه الأمان أجابه محمد بقوله وأما أمانك الذى عرضت فأى الأمانات هو أ أمان ابن هبيرة أم أمان أبى مسلم أم أمان عمك عبد الله بن على والسلام . وهذه كلمة شديدة الوقع سيئة التأثير لأنها وصمة عار كبيرة لمن هو قائم مقام رسول الله ﷺ فى حراسة دينه وسياسة الأمة

وهذا الذى حصل فى صدر الدولة كان مجرئا لمن أتى بعد ذلك أن يحاولوا التخلص مما تقضى به العهود إذا رأوها مخالفة لمصالحهم ولاسيما العهود التى تعقد لتولى الخلافة فانهم جعلوها من الأشياء التى يسهل حلها وإن كان بعضهم يحاول أن يلبس باطله ثوب الحق فعل ذلك المنصور مع عيسى بن موسى الذى عقد له السفاح الخلافة بعد المنصور فقـدم عليه ابنه محمـدا المهدى وهـذا التقديم وإن كان قد تم بطلب عيسى ورضاه إلا أنا نعرف كيف توصل المنصور إلى الحصول على هذا الرضا من الاساءات المتكررة لعيسى والتهديد المتواصل حتى هم الرجل أن يخلع طاعة المنصور ويفتن الأمة وفى رأيى أنه لو وجد نصراء لفعل وان كان قد أثر عنه شعر يفيد أنه آثر مصلحة الأمة على مصلحة نفسه وهو قوله

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما ۞ إما صغار وإما فتنـة عمم
وقد هممت مراراً أن أساجلهم ۞ كأس المنية لولا الله والرحم

وفعل المهدى مثل ذلك معـه فعزل عن العهد بمرة وقد ارتـكب من الوسائل ما ارتـكبه أبوه

وفعل الأمين ذلك مع أخيه المأمون فأدى ذلك إلى الفتنة الشعواء التى كانت بين سنة ١٩٤ إلى سنة ١٩٨ قاست الأمة فى أثنائها مصاعب هائلة . ولم يوجـد منهم من هاب ذلك الفعل محافظة على العهود والمواثيق ومن البديهى أن أمثال هـذه العهود ليست قاصرة على المتنازعين بل تتعداهم إلى القواد والأمراء فهؤلاء ينشقون أيضا ويستسهلون الاقدام على فك تلك القيود التى حلفوا الأيمـان الوثيقة على الوفاء بها

كتب الرشيد أمانا ليحيى بن عبدالله وأكد فيه غاية التأكيد ولما ارتاب منه صار يبحث فى الوجوه التى يبطل بها الأمان وجعل فقهاء وقته الواسطة فى ذلك فمنهم من أبت عليه شيمته ودينه أن يسترسل فى الدين مع الأهواء ومنهم من سارع إلى هوى الخليفة وصار يبدى الأوجه التى ينتقض بها الأمان

كل هذا من العيوب التى شقت عصا البيت وتعدت إلى فرقة الأمة فأضعفت عصبية الدولة وآل الأمر بخلفائها إلى أن تكون قوتهم مستمدة من المتغلبين عليهم

وقد بقيت أسباب أخرى ثانوية يمكن استنتاجها مما تقدم فى التاريخ التفصيلى والله أعلم

فهرس الكتاب

وكان تمام طبع هـذا الكتاب على هـذا النظام البديع فى يوم السبت ١٥ جمادى الأولى سـنة ١٣٥٣ هجرية الموافق ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٤ ميلادية م

(مطبعة الاستقامة ١٥٠ / ١٩٣٤ / ٤٠٠٠)